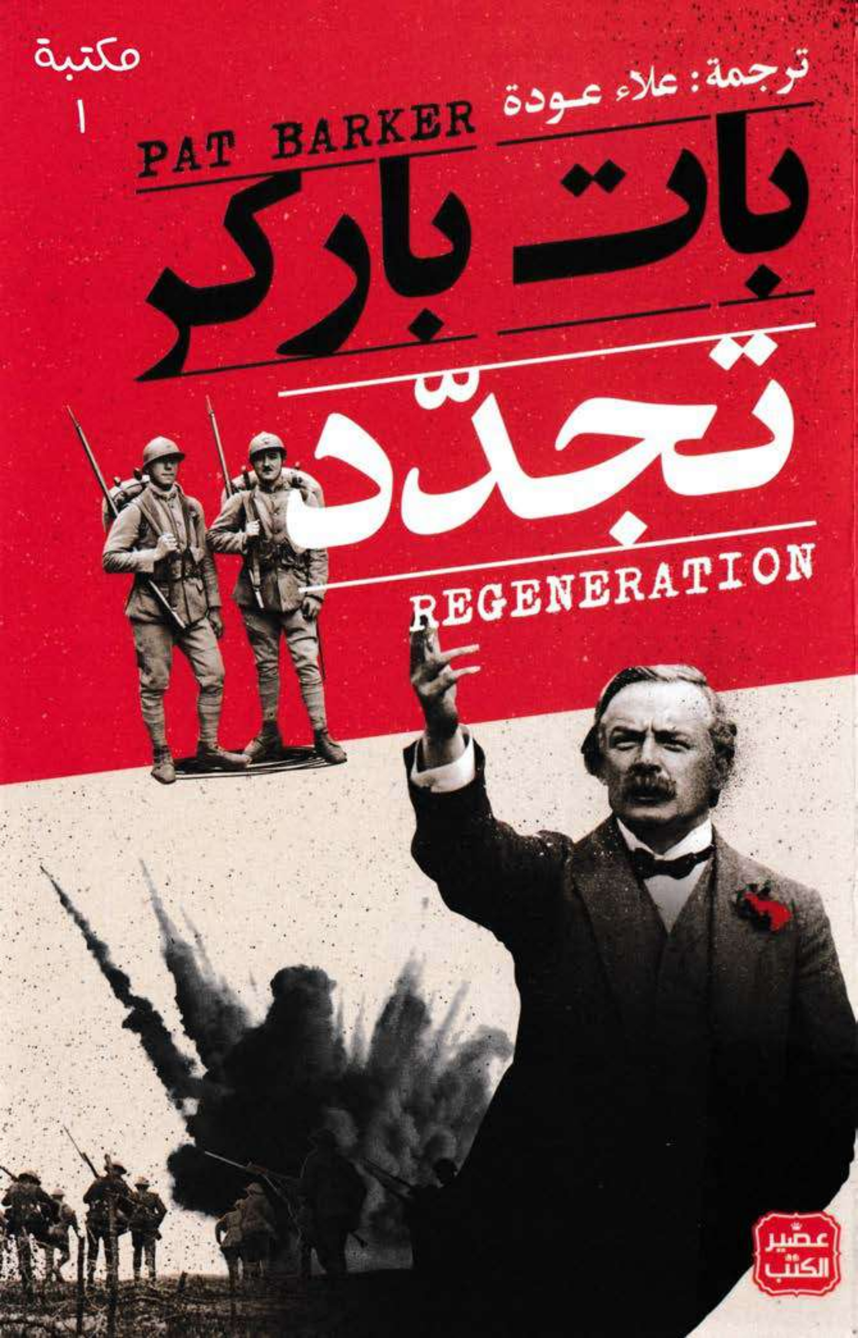

مكتبة
١
ترجمة: علاء عودة
PAT BARKER
بات باركر
تجدّد
REGENERATION
عصير
الكتب



"تستدعي إلى الذهن بعض الأعمال المعاصرة الأولى، مثل كتابات همنغواي وفيتزجيرالد... هذه الرواية واحدة من أقوى الأعمال المناهضة للحرب في تاريخ الأدب الإنجليزي الحديث".

– Boston Globe

في عام ١٩١٧، صرح الشاعر وبطل الحرب الشهير سيغفريد ساسون علنًا عن رفضه متابعة الخدمة في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى، وكان السبب الذي دفعه إلى ذلك؛ أن الحرب مجزرة لا معنى لها. اعتُبر رسميًا "معتلّ الصحة العقلية"، وأرسل إلى مستشفى كريغلوكهارت الحربي. وهناك، تولّى الطبيب النفسي اللامع ويليام ريفرز مهمة إعادة "سلامة العقل" إلى ساسون من أجل إرساله إلى الخنادق من جديد.

تسرد هذه الرواية ما حدث بطريقة لا تقدر عليها إلّا الروايات. إنها ملحمة حربية لا تُطلَق فيها رصاصة واحدة، قصة معركة فكرٍ بشريٍّ يملك القارئ وحده القدرةَ على تحديد المنتصر والمهزوم والضحية فيها. وهي واحدة من أعظم مآثر الخيال المدهشة في عصرنا.

"تَجَدُّد" هي أولى روايات ثلاثية بات باركر المرموقة عن الحرب العالمية الأولى، التي تستمر أحداثها في "العين في الباب" ثم تبلغ أوجها في "طريق الأشباح" الحائزة على جائزة البوكر لعام ١٩٩٥.

telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

"تجدُّد" هي أول أجزاء ثلاثية بات باركر الروائية التي تتناول الآثار النفسية للحرب العالمية الأولى. تسلط الرواية الضوء على المناهج المتّبعة في العلاج خلال الحرب، وتروي قصة ضابط إنجليزي حائز على وسام تم تحويله إلى مستشفى عسكري عقب تصريحه العلني عن قراره بعدم متابعة القتال. لكن الكتاب ينطوي على ما هو أكثر من ذلك بكثير. بأسلوب نثري خفيف وواضح على نحو صادم (لا سيّما الوصف الفاجع لجلسات العلاج بالكهرباء)، تجمع الرواية بين شخصيات وأحداث واقعية وأخرى خيالية في عمل يبحث جنون الحرب بشكل غير مسبوق. كما تُدخل باركر في نسيج كتابها المؤثر المكثف قضايا طبقية وسياسية. وتضم ثلاثية التجدُّد -بالإضافة إلى هذا الكتاب- كلًّا من "العين في الباب" و"طريق الأشباح" الحائزة على جائزة البوكر.

يُذكر أنه تم تحويل رواية "تجدُّد" إلى عمل سينمائي بريطاني يحمل العنوان نفسه صدر عام ١٩٩٧.



لتجارة الكتب

● رقم الإيداع: 1876 / 2022م

● الترقيم الدولي: 3-92-6902-977-978



انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

محمد خطاب







إلى ديڤيد،

ووفاءً لذكرى د. جون هوكينغز (1922-1987).


MOHAMED KHATAB



القسم الأول


MOHAMED KHATAB



بعد أن طفح الكيل من الحرب

تصريح جندي

أقدّم هذا البيان في عصيانٍ متعمَّدٍ للسلطة العسكرية، إذ أعتقد أن الحرب يماطَل فيها عن سابق نية من قِبل من يملكون القوة الكفيلة بإنهائها.

أنا جندي، ولدي قناعة أنني أتصرف هنا بالنيابة عن الجنود. أعتقد أن هذه الحرب، التي التحقتُ بها بصفتها حرب دفاعٍ وتحرير، قد تحولت الآن إلى حرب عدوان وإخضاع. أرى أنه كان من الواجب التصريح عن الغايات، التي خضتُ بموجبها أنا ورفاقي الجنود غمارَ هذه الحرب، بشكل واضح لا يقبل اللبس يَحُول دون تغييرها، وأؤمن أنه لو حدث ذلك لكانت الأهداف التي حركتنا قابلة للتحقيق الآن عن طريق التفاوض.

لقد رأيتُ وتحملتُ ما مرت به جماعات الجند من صنوف المعاناة، وما عاد بوسعي أن أكون طرفًا في إطالة هذه العذابات المتجهة نحو نهايات أعتقد أنها وخيمة ومجحفة.

لستُ هنا بصدد الاحتجاج على إدارة الحرب، بل على الأخطاء السياسية والنفاق الذي يُضحَّى بالمقاتلين في سبيله.

نيابةً عمن يعانون الآن، أقدّم هذا الاعتراض على الخداع الممارَس في حقهم، كما أظن أنني ربما أساهم بذلك في تحطيم الرضا الجلف الذي ينظر

بعينه غالبيةُ الموجودين في الوطن إلى استمرار آلامٍ مبرحة لا يشاطروننا إياها، ولا يملكون مُخيلةً تُسعفهم بإدراكها.

س.ساسون
يوليو 1917

انتظر برايس أن يُتمَّ ريفرز قراءته حتى يتحدث من جديد: «حرف السين اختصارٌ لـ «سيغفريد»، يبدو أنه رأى الأفضل أن يغفل إدراج الاسم[1]».

«وأنا واثق أنه كان محقًّا في ذلك»، طوى ريفرز الورقة ومرَّر رؤوس أصابعه على حافتها: «سيرسلونه إلى هنا إذًا؟».

ابتسم برايس: «أوه، أظن أنهم يقصدون وجهةً أكثر تحديدًا، سيرسلونه *إليك*».

نهض ريفرز وسار نحو النافذة. إنه نهار جميل، وقد خرج العديد من المرضى إلى الأرض المحيطة بالمستشفى، يشاهدون مباراة تنس. سمع صوت تناوب المضارب، وصيحةَ إحباط إذ ارتطمت الكرة بالشَّبكة. «أظن أنه في حالة... «صدمة قصف[2]»؟».

«وفقًا للجنة، أجل».

«يخطر لي أن تشخيصًا بحالة وهن عصبي قد لا يتعارض مع هذا»، رفع خطاب التصريح بيده.

- العقيد لانغدون هو من ترأَّس اللجنة، ويبدو أنه يرى الحالة كذلك دون ريب.
- لانغدون لا يؤمن بصدمة القصف.

رفع برايس كتفيه: «لعل ساسون كان لا يتمالك نفسه من الهذيان».

---

(1) اسم «سيغفريد» هو اسم من أصل ألمانيٌ. (المترجم)

(2) صدمة القصف: مصطلح صاغه عالم النفس البريطاني تشارلز صموئيل مايرز في الحرب العالمية الأولى لوصف نوع من اضطرابات ما بعد الصدمة عانى منه كثير من الجنود خلال الحرب (قبل أن يُطلَق عليه اضطراب ما بعد الصدمة). (المترجم)

««الفزع يا فتاي العزيز». أنا أعرف لانغدون»، عاد ريڤرز إلى كرسيه وجلس: «كما أن كلام الفتى لا يبدو هذيانًا، أليس كذلك؟».

أجاب برايس بحذر: «وهل من أهمية لحالته الذهنية؟ لا شك أن الأفضل له أن يكون هنا، لا في السجن».

- الأفضل له، ربما. لكن ماذا عن المستشفى؟ هل بوسعك أن تتخيل ما سيقوله مدير الخدمات الطبية الغالي على قلوبنا حين يكتشف أننا نؤمِّن ملجأً لـ «معارضي الخدمة»، ناهيك بالجبناء والمتهربين والمتقاعسين والمنحطين؟ فلنأمل ألا يشيع الخبر وحسب.

- أخشى أنه سيشيع؛ سوف يُقرَأ التصريح في مجلس العموم الأسبوع القادم.

- ومن سيقرؤه؟

- ليز-سميث.

أشار ريڤرز بيده غيرَ مبالٍ.

- أجل، أعلم هذا، لكن ذلك سيتكفل بوصول الخبر إلى الصحافة على أي حال.

- والوزير سيقول إنه لم يتم اتخاذ أي تدابير تأديبية، لأن السيد ساسون يعاني انهيارًا عصبيًا حادًّا، وهو من ثم ليس مسؤولًا عن تصرفاته. عن نفسي، لستُ متأكدًا أنني أُفضِّل هذا على السجن.

- لا أعتقد أنه خُيِّرَ. هل ستتولى الإشراف على حالته؟

- أتعني أنني أنا المُخيَّر؟

- بالنظر إلى سجل حالاتك، أجل.

خلع ريڤرز نظَّارته ومسح عينيه بيده: «أظن أنهم تذكَّروا أن يرسلوا الملف؟».

•

أطلَّ ساسون بجذعه من نافذة العربة، وهو لم يزل لديه بعض الأمل في أن يرى غريفز قادمًا يخبط أرض الرصيف بقدميه، وهيئته شعثاء أكثر من المعتاد حتى. غير أن الأبواب أخذت تنصفق منغلقةً على طول القطار، والرصيف ما زال خاويًا.

انطلقت الصافرة. وعلى الفور، رأى طوابير من رجال ذوي وجوه كئيبة مدمدمة يتسلقون السلالم ليواجهوا البنادق، فرمش صارفًا بصره عنهم.

بدأ القطار يتحرك، لقد فات الأوان على روبرت الآن. سجينٌ *يصل دون مُرافق*، قال ساسون لنفسه وهو يفتح باب العربة.

بوصوله قبل الموعد بساعة، كان قد استطاع أن يحظى بمقعد مُطل على نافذة. همَّ يشق طريقه نحو مقعده عبر فوضى الأقدام المتشابكة. قسٌّ مسنٌّ، رجلان في منتصف العمر يبدوان كأنهما أفادا من الحرب كلاهما إلى حدٍّ ما، فتاة صغيرة وامرأة تسافران معًا كما هو واضح. مر القطار بمطب، فتمايل الجميع في أماكنهم، وتعثر ساسون وكاد يسقط في حِجر القس. تمتم معتذرًا وجلس، يتلقى نظرات الإعجاب، وليس من النساء فقط. التفت ينظر من النافذة، موليًا كتفه للجميع.

بعد قليل، كف عن التظاهر بالنظر إلى مداخن شوارع ليڤربول الخلفية وأغمض عينيه. كان بحاجةٍ إلى النوم، بيد أن وجه روبرت راح يطفو أمامه عوضًا عن ذلك، أبيضَ يتقبض كما كان حاله الأحد الماضي، قبل أسبوع تقريبًا، في ردهة فندق ذي *إكستشينج*.

للحظة، خالَ نفسه يهلوس من جديد، إذ رفع عينيه فوجد ذلك الجسدَ المكسوَّ بالخاكيِّ واقفًا بالباب.

«روبرت، ما الذي تفعله هنا بحق السماء؟»، هبَّ على قدميه وركض يقطع الردهة: «حمدًا لله أنك أتيت».

- لقد دبَّرتُ إقرارًا بأهليَّتي للخروج.

- روبرت، كلا.

«ماذا كان لي أن أفعل غير ذلك؟ بعد أن تلقَّيتُ هذا»، نقَّب غريڤز في جيب سترته وأخرج ورقةً مكرمشة: «لكان من اللطيف لو أرسلتَ رسالةً تفسيرية».

- لقد كتبت.

- كلا، لم تفعل يا ساس. لم ترسل إليَّ سوى هذا، أما كان بوسعك أن تتحدَّث عن الأمر أولًا على الأقل؟

- ظننتُ أنني كتبت.

جلسا متقابلَين حول طاولة صغيرة، وكانت أضواء الشمال تتدفق عبر النوافذ العالية، مُجرِدةً وجهَ غريڤز من اللون الشحيح الذي فيه.

- ساس، عليك أن تتخلى عن هذا.

- أتخلى عنه؟ لستَ تظن أنني قطعتُ كل هذه المسافة كي أستسلم الآن، صحيح؟

- اسمع، لقد أدليتَ باحتجاجك. وإن كان يهمك، فأنا أتفق مع كل كلمة وردت فيه. لكنك قلتَ ما لديك، لا جدوى من أن تقدم نفسك شهيدًا.

- لا سبيل لدي إلى إذاعة الموضوع سوى بجعلهم يحاكمونني عسكريًا.

- لن يفعلوا ذلك.

- أوه، بلى، ليست إلا مسألة وقت.

«حالتك لا تخوِّل لك الصمود أمام محاكمةٍ عسكرية»، أطبق غريڤز قبضته بإحكام: «لو كان راسل أمامي الآن، لأطلقتُ النار عليه».

- كانت الفكرة فكرتي.

- أوه، جرِّب غيرها. وحتى لو كانت فكرتك، أتظن أن هنالك من سيتفهم الأمر؟ سيقولون إن الجرأة خذلتك لا أكثر.

- انظر يا روبرت، رأيك في الحرب مطابق تمامًا لرأيي، وأنت... لا تحرك ساكنًا. لا بأس، هذا خيارك. لكن لا تأتِ وتحاضرني عن الجرأة، فهذا أصعب شيء أقدمتُ عليه في حياتي.

والآن على متن القطار المتجه إلى كريغلوكهارت، لم يزل ذلك يبدو الشيء الأصعب. تقلب في مقعده متنهدًا، يرنو إلى حقول القمح المتراقص في الريح. تذكّر الرنين الفضيَّ لاهتزاز القمح، وتلألؤ الضوء على السنابل. ما كان ليتردد في دفع أي ثمن مقابل أن يكون في الخارج هناك، بعيدًا عن جو العربة المخنوق، وما يسببه زيُّه من حِكة وضيق.

كانا قد استقلّا القطار إلى فورمبي ذلك الأحد وأمضيا الأصيلَ يتسكعان على طول الشاطئ بغير هدى. ألقت شمسٌ فاترةٌ شتوية الطلعة ظليهما بعيدًا خلفهما، فراح الخيالان يقلدان أدنى حركة تنُد عن أيٍّ منهما مُضخَّمة.

«لن يسمحوا لك أن تحول نفسك إلى شهيد يا ساس، كان يجدر بك أن تقبل باللجنة».

لقد تحوَّل النقاش إلى أسطوانة مشروخة، وربما لرابع مرة، قال ساسون: «إن صمدتُ لفترة كافية، لن يكون لديهم خيار آخر».

«بل لديهم العديد من الخيارات»، بدا أن غريفز قد توصَّل إلى قرار: «في الحقيقة، كنتُ قد بدأت أحرّكُ بعض الأمور من أجلك».

ابتسم ساسون كي يخفي غضبه: «جيد. إن كنتَ تُعمِل ذوقَك ولباقتك المعتادين، فهذا حريٌّ أن يضمن لي عامين على الأقل».

«لن يخضعوك لمحاكمة عسكرية».

رغمًا عنه، بدأ ساسون يشعر بالخوف: «ماذا سيفعلون إذًا؟».

- يزجون بك في مستشفى أمراض عقلية لما تبقّى من الحرب.

- وهذا ما توصلتَ إليه بتحريك الأمور؟ شكرًا.

- لا، ما توصلتُ إليه بتحريك الأمور هو تدبير لجنةٍ أخرى لك. لا بد أن تقبل بها هذه المرة.

- لا يمكن إيداع الناس في مشافي الأمراض العقلية بهذه البساطة، يتعين أن توجد *أسباب*.

- لديهم أسباب.

- أجل، خطاب التصريح. حسنًا، هذا لا يتكفل بإثبات جنوني.

- وماذا عن الهلاوس؟ *الجثث في بيكاديلي*؟

ران صمتٌ طويل. «كنت أفضِّل لو حافظتْ رسائلي إليك على خصوصيتها».

- لقد تعيَّن عليَّ إقناعهم كي يقدِّموا لك لجنةً أخرى.

- لن يحاكموني عسكريًّا؟

- كلا، ولا تحت أي ظرف. وإن ظللتَ ترفض مقابلة اللجان، سيزجون بك بعيدًا لا *محالة*.

- روبرت، أنت تعلم أني ما كنتُ لأصدق هذا لو قاله أي شخص غيرك. *أتقسم* إنه صحيح؟

- أجل.

- على الإنجيل؟

حمل غريفز إنجيلًا متخيَّلًا ورفع يده اليمنى: «أقسم».

استطال ظلَّاهما وراءهما، أسودين على الرمل الأبيض. ظلَّ ساسون متردِّدًا للحظة، ثم قال بشهقة صغيرة ناشزة: «حسنًا إذًا، لن أتعنَّت».

•

في سيارة الأجرة المتجهة إلى كريغلوكهارت، بدأ ساسون يشعر بالرعب. نظر من النافذة إلى أرصفة برينسِز ستريت المكتظة، وهو يفكر أنه يراها للمرة الأولى والأخيرة. ما كان بمقدوره أن يتخيل الذي ينتظره في كريغلوكهارت، بيد أنه لم يفترض ولو للحظة أن النزلاء يُخلى سبيلهم.

رفع عينيه فوجد السائق يراقبه في المرآة. لا بد أن جميع المحليين يعرفون اسم المستشفى، وتخصصه. ارتفعت يد ساسون إلى صدره وبدأت تعبث بخيطٍ منسول في الموضع الذي كان يشغله شريطُ صليبه العسكريِّ.

«لقاءَ بسالته الجلية خلال غارةٍ على خنادق العدو. لقد بقي طوال ساعة ونصف تحت نيران البنادق والقنابل ينتشل جرحانا وينقلهم إلى بر الأمان. وبفضل شجاعته وعزيمته، استعدنا جميع القتلى والجرحى».

بعد قراءة الإشادة، بدا خارجًا عن المألوف لريڤرز أكثر من أي وقتٍ مضى أن يكون ساسون قد رمى الوسام. حتى أكثر مناصري السلام تطرفًا قلما يشعرون بالخزي من وسامٍ تقلَّدوه لقاءَ *إنقاذ* حياة. نزع نظارته وفرك عينيه. إنه يعمل على الملف منذ أكثر من ساعة، لكنه -رغم أنه بات واثقًا الآن من إلمامه بجميع الحقائق- لم يقطع أي خطوة نحو تشكيل فهم ما بشأن حالة ساسون الذهنية. بل في الحقيقة، بدا أن دليل غريڤز الذي تقدم به إلى اللجنة -مع ما يتضمن من تركيز على الهلاوس- يوحي بذُهانٍ تام الأركان أكثر منه بوهنٍ عصبيٍّ. ومع ذلك ما من أدلة أخرى على هذا. مهما كان خطاب التصريح مُضلِّلًا، فهو لا يتصف بالانسياق خلف أوهامٍ ولا يعوزه الترابط المنطقيُّ. غير أن التخلص من الوسام ما زال يبدو له تصرفًا ناشزًا، لا شك أنه فِعلٌ أقدم عليه رجلٌ يقف عند حافة صبره.

حسنًا، جميعنا مررنا بذلك، فكر في قرارته. المشكلة أنه كان يجد صعوبةً في معاينة الدليل دون تحيز؛ إنه يريد أن يكون ساسون مريضًا، واعترافه بهذا جعله يتوقف لحظة. نهض وراح يذرع أرضية غرفته، من الباب إلى النافذة ذهابًا وإيابًا. لم يسبق له أن واجه سوى حالة مشابهة واحدة، رجل كان قد رفض متابعة القتال لأسباب دينية. قال إن الفظائع كانت تُرتكب على كلا الجانبين، وما من شيء يدفعه إلى المفاضلة بين البريطانيين والألمان.

قدحت الحالةُ آنذاك زنادَ نقاشات ساخنة في غرفة استراحة الضباط الأطباء، حول حرية الضمير الفرديِّ في زمن الحرب، ودور طبيب الجيش النفسيِّ في «معالجة» رجلٍ يرفض القتال. مع إصغاء ريڤرز إلى تلك المجادلات، كان قد تخلص من كل شكٍ لديه في ما يتعلق بعمق الانقسامات وجديتها. لم يخمد الجدلُ إلا بعد أن ثَبُت تشخيص المريض بالذهان. وهذا هو صلب الإشكال؛ الرجال من أمثال ساسون هم مصدر للمتاعب دائمًا، لكن المتاعب التي يتسببون فيها ستكون أقل بكثير إن كانوا مرضى.

أيقظ صوتُ انسحاق الحصى تحت عجلاتِ ريڤرز من أفكاره هذه. وصل إلى النافذة في اللحظة المناسبة ليرى سيارة أجرة تقترب، ورجلًا -لا يمكن أن يكون إلا ساسون بالحكم على زيِّه- يخرج منها. بعد الدفع للسائق، وقف ساسون للحظة شاخصًا بنظره نحو المبنى. ليس بوسع من يصل إلى كريغلوكهارت للمرة الأولى أن ينجو من تثبط الهمة الذي يسببه المكان الهائل ذو الدُكنة الكهفية الكئيبة. تلبث ساسون على طريق الدخول دقيقة كاملة بعد مغادرة السيارة، ثم سحب نفسًا عميقًا، شد كتفيه متأهبًا، وخفَّ يصعد الدرج.

استدار ريڤرز موليًا ظهره للنافذة، وهو يشعر بما يكاد يكون خجلًا لكونه شهد ذلك الانتصار الخصوصيَّ الصغير على الخوف.



2

عبرَ الضوءُ من النافذة خلف طاولة مكتب ريڤرز ليحط مباشرةً على وجه ساسون. بشرة شاحبة، ظلال أرجوانية تحت العينين. في ما خلا ذلك، ما من علامات واضحة للاضطراب العصبيّ. لا تقبضات أو رعشات أو رفرفة أهداب، لا طأطأة متكررة لتفادي قذيفة انفجرت منذ وقت طويل. يداه ثابتتان تمامًا وهما تنفذان حركات معقدة مع الكوب وطبقه والصحن والشطائر والكعك وملقط السكر والملعقة. رفع ريڤرز كوبه إلى شفتيه وابتسم، من الأشياء الجميلة في تقديم شاي بعد الظهيرة للوافدين الجدد من المرضى أنه يُغني عن الكثير من الفحوص العصبية.

لم يكن قد نظر إلى ريڤرز حتى هذه اللحظة. كان يجلس مُشيحًا برأسه قليلًا، وضعية يمكن اعتبارها وليدةَ تكبرٍ بسهولة، غير أن رِيڤرز يميل أكثر نحو عزوها إلى الحياء. الصوت متداخل بعض الشيء، وتدفُّق الكلام يتصف بالتردد حينًا وبالاندفاع حينًا آخر. لعله تلعثمٌ مُموَّه، لكنه تلعثمٌ موجود لديه أصلًا -كما رأى ريڤرز- وليس طارئًا عن وجلٍ سبَّبه الوهن العصبيُّ.

- قبل أن أنسى، لقد اتصل حضرة النقيب غريڤز وقال إنه سينضم إلينا في وقتٍ ما بعد العشاء، وهو يعتذر عن تفويته القطار.
- ما زال ينوي المجيء؟
- أجل.

بدا الارتياح على ساسون: «أتعلم؟ لا أظن أن غريڤز لحق موعد قطار في حياته، إلا إن كان ثمة من يضعه على متنه».

- كان تخوُّفنا تجاهك أنت بالأحرى.

- خشيةَ أن يضيع المجنون؟

- ما كنت لأضع الأمر بهذه الصياغة!

- لا بأس بذلك، حتى إنني لم أتفاجأ، ظننته غطَّ في النوم. إنه... يستحث الكثير من الأمور نيابةً عني في الفترة الأخيرة، لا فكرة لديك عن حجم العمل الذي تتطلبه تسوية وضع لجنة طبية.

رفع ريفرز نظارته إلى جبينه ودلَّك الزاويتين الداخليتين لعينيه: «كلا، لا أظنني أملك فكرة. قد يبدو هذا ساذجًا، لكن... بالنسبة إليَّ... اتهام لجنةٍ طبية بأن وضعها قد سُوِّيَ هو اتهام خطير إلى حد كبير».

- ليست لدي أي شكاوى، لقد عومِلتُ بطريقة منصفة وعقلانية تمامًا، ربما أكثر مما كنت أستحق.

- ما نوع الأسئلة التي طرحوها؟

ابتسم ساسون: «ألا تعلم؟»

«لقد قرأتُ التقرير، إن كان هذا ما تقصده، لكنني أود سماع روايتك مع ذلك».

«أوه: «هل كان اعتراضي على القتال مبنيًّا على أسباب دينية؟»، أجبت بالنفي. الحق أن ذلك كان طريفًا بالأحرى، ظننتُ للحظةٍ أنهم يسألونني إذا ما كنت أرفض الذهاب في حملة صليبية. «هل أظن أنني مؤهَّل كي أقرر متى ينبغي للحرب أن تنتهي؟»، قلتُ إنني لم أفكِّر في مؤهِّلاتي»، ألقى نظرةً نحو ريفرز: «ليس صحيحًا. وبعد ذلك... بعد ذلك سألني العقيد لانغدون، قال لي: «أصدقاؤك يخبروننا أنك ماهر جدًّا في القصف، هل كففتَ عن إبغاض الألمان؟»».

ران صمتٌ طويل. انتفخت الستارة الرقيقة خلف رأس ريفرز في انحناء متلألئ، وعبَرت وجهيهما هبةُ هواء عليلة.

«وكيف أجبت عن هذا؟»

«لا أتذكَّر»، بدا نافد الصبر الآن: «لم يكن ما قلتُه ذا أهمية».

«إنه كذلك الآن».

«حسنًا»، ابتسامة واهية: «*أجل*، أنا ماهر في القصف إلى حدٍّ ما. *أجل*، لم أعد أُكِنُّ البغض للألمان».

«وهل يعني هذا أنك كنت تبغضهم ذات زمان؟».

بدا ساسون متفاجئًا، هذه أول مرة يُقال فيها شيء يتعارض مع افتراضاته. «لفترة وجيزة. في أبريل ومايو من العام الماضي على وجه الدقة».

سكوت. انتظر ريفرز، ثم تابع ساسون بعد قليل على شيءٍ من المضض: «كان أحد أصدقائي قد قُتل. اعتدتُ لمدة أن أخرج في جولة خفرٍ كل ليلة، باحثًا عن ألمان أقتلهم. أو بالأحرى هذا ما أقنعتُ نفسي به. ففي النهاية، لم أكن أعرف أكنتُ أحاول قتلهم، أم أمنحهم العديد من الفرص لقتلي ليس إلا».

««ماد جاك»[1]».

بدا ساسون مباغَتًا: «لقد باح غريفز بالكثير فعلًا، أليس كذلك؟».

«الأمور من هذا النوع هي ما تحتاج اللجنة الطبية أن تعرفه»، تردَّد ريفرز: «فالإقدام على مخاطرات غير ضرورية هو إحدى العلامات الأولى لعُصاب الحرب».

«أحقًّا؟»، أطرق ساسون ينظر إلى يديه: «لم أكن أعرف هذا».

«الكوابيس والهلاوس تجيء لاحقًا».

«ما هي «المخاطرات غير الضرورية» على أي حال؟ إن أكثر الأشياء التي أقدمتُ على فعلها جنونًا على الإطلاق كانت تنفيذًا لأوامر»، رفع عينيه ليرى إن كان ينبغي به أن يتابع: «لقد أُمِرنا أن نذهب وننزع الشَّارات العسكرية عن جثة ألمانية. افترضوا أنه ميت منذ يومين، وإن أحضرنا الشَّارات سيعرفون الكتيبة التي تقابلهم. كان البدر في تمامه، وما من غيمة على مدِّ البصر، جنونٌ مطلق، لكننا انطلقنا. حسنًا، وصلنا إلى هناك -آخرَ الأمر- وعلامَ عثرنا؟ كان ميتًا منذ أكثر من يومين بكثير، كما أنه فرنسيٌّ على كل حال».

- وماذا فعلتم إذًا؟

---

(1) ماد جاك: لقب أُطلِق على ساسون من قِبل رفاقه، ويعني «جاك المجنون» أو «جاك الغاضب». (المترجم)

- نزعنا عنه إحدى فردتَي جزمته وأرسلناها إلى مقرِّ الكتيبة، وفي داخلها نُتَفٌ عالقة من ساقه.

أتاح ريفرز مجالًا للصمت من جديد: «أستنتجُ أننا لن نتحدَّث عن الكوابيس؟».

- القرار قرارك.

- صحيح، غير أن إحدى المفارقات المرتبطة بوظيفة الطبيب النفسيِّ العسكريِّ تتمثل في أنك لا تصيب الكثير من مرادك عن طريق توجيه أوامر بالتكلم بصراحة إلى مرضاك.

- سأكون صريحًا بالقدر الذي يحلو لك. لقد راودتني كوابيس بالفعل أول عودتي من فرنسا، لكنني لا أعاني منها الآن.

- وماذا بشأن الهلاوس؟

وجد هذا أكثرَ صعوبةً: «كل ما في الأمر أنني حين أستيقظ، لم تكن الكوابيس تتوقف دائمًا. لذا اعتدتُ أن أرى...»، نفَسٌ عميق: «جثثًا: رجالًا تهدَّم نصف وجهِ واحدهم بطلقٍ ناريٍّ، يزحفون على أنحاء الأرضية».

- وتكون مستيقظًا عند حدوث هذا؟

- لا أدري. لكن لا بد أنني أكون مستيقظًا، فقد كنتُ أستطيع أن أرى الممرضة.

- وهل كان ذلك في الليل دائمًا؟

«كلا، لقد حدث في النهار ذات مرة. كنتُ قد ذهبتُ إلى ناديَّ من أجل الغداء، وعندما خرجتُ جلستُ على مقعد، ثم... أظنني لا بد كَبَوْتُ»، كان يرغم نفسه على المتابعة: «وحين أفقتُ، كان الرصيف مُغطًّى بالجثث، جثث قديمة، وجديدة، وسوداء، وخضراء»، التوى فمُه: «كان الناس يدوسون على وجوهها».

أخذ ريفرز نفسًا عميقًا: «تقول إنك كنتَ قد أفقت لتوك؟».

- أجل، كنتُ معتادًا على النوم لفترةٍ لا بأس بها من النهار، لأنني عانيتُ خوفًا من الخلود إلى النوم ليلًا.

- ومتى توقف كل هذا؟

- حالما غادرتُ المستشفى. الجو في ذلك المكان كان مُريعًا بحق، أحد الرجال اعتاد أن يتباهى بقتل الأسرى الألمان، يمكنك أن تتخيل كيف كان العيش معه.

- ولم تعاودك الكوابيس؟

«كلا. ما زلتُ أحلم، بالطبع، لكن ليس بالحرب. أحيانًا يبدو لي أن الحلم يستمر بعد استيقاظي، لذا هنالك مرحلة انتقالية من نوعٍ ما»، تلكأ: «لا أعرف إن كان هذا شاذًا عن الطبيعيّ».

«آمل أن لا، فهذا يحدث لي طوال الوقت»، أرجع ريڤرز ظهره على الكرسي: «حين تنظر الآن إلى الفترة التي أمضيتَها في المستشفى، أترى أنك كنتَ تعاني من «صدمة القصف»؟».

«لا أدري. لقد جاء أحدهم لزيارتي وأخبر عمي أنه يعتقد أنني أعاني منها. لكن في المقابل، كتبتُ قصيدةً جيدةً أو اثنتين خلال وجودي هناك. حسنًا...»، ابتسم: «عن نفسي، شعرتُ بالرضا عنهما».

- ألا تعتقد أن من الممكن كتابة قصيدة جيدة في حالة صدمة؟

- كلا، لا أعتقد.

أومأ ريڤرز: «قد تكون محقًا. هل يمكن أن أطّلع عليهما؟».

«أجل، بالطبع. سأنسخهما لك».

قال ريڤرز: «أود الانتقال الآن إلى... التفكير الذي قاد إلى خطاب التصريح. تقول إن دوافعك ليست دينية؟».

- كلا، إطلاقًا.

- هل تصف نفسك بمناصرٍ للسلام؟

- لا أظن ذلك. ما من سبيلٍ لي كي أقول: «لا وجود للحروب المبررة بتاتًا»، لأنني لم أفكر في الأمر كفاية. ربما تكون بعض الحروب مبرَرة، وربما كانت هذه الحرب كذلك حين بدأت. الأمر أنني لا أعتقد أن أهدافنا منها -أيًا كانت، ونحن لا ندري- تبرر هذه السوية من المجازر.

- وتقول إنك فكرت بالفعل في ما يؤهلك لقول هذا؟

«أجل، غير أنني مدركٌ غاية الإدراك لما يبدو عليه الأمر، ملازمٌ ثانٍ -ليس إلا- يقول: «على الحرب أن تتوقف». لكن في المقابل، أنا كنت موجودًا هناك، ولستُ أدنى أهليةً على الأقل من بعض الشيوخ الذين تراهم يمضون وقتهم جالسين في النوادي، يثرثرون ضاحكين عن «الاستنزاف» و «هدر الطاقة البشرية» و...»، تحول صوته إلى محاكاةٍ ساخرة بذيئة لصوت رجل عجوز: ««كانت الخسارة فادحة في النزاع الأخير». لا أحد سيتحدث هكذا لو كان شاهدهم يموتون».

«ما من شخص عاقل أو حسَّاس يتحدث بهذه الطريقة على أي حال».

سكوت قصير مُربِك بعض الشيء. «لا أقصد أن أنفي وجود استثناءات».

ضحك ريفرز: «الفكرة أنك تكره المدنيين، أليس كذلك؟ «الأجلاف»، «القانعين»، «ضعيفي الخيال». أم أن «الكره» كلمة مبالغ فيها؟».

- لا.

- إذًا. ما شعرتَ به تجاه الألمان، ولو لفترة وجيزة، في ربيع العام الماضي، تشعر به الآن تجاه الأغلبية الساحقة من مواطنيك؟

- أجل.

- أتعلم؟ أظن أنك كنت بالفعل محقًا إذ لم تُفضِ بالكثير إلى اللجنة.

- لم تكن تلك فكرتي، بل فكرة غريفز. خشي أن أبدو سليم العقل أكثر من اللازم.

- حين قلت إن اللجنة قد «سُوِّيَ وضعُها»، ماذا قصدت بذلك؟

- قصدتُ أن القرار بإرسالي إلى هنا، أو إلى مكان مشابه، كان قد اتُّخِذ قبل دخولي عليهم.

- وكل هذا جرى ترتيبه من قِبل النقيب غريفز؟

«أجل»، انحنى ساسون إلى الأمام: «الفكرة أنهم ما كانوا سيُخضعونني لمحاكمة عسكرية، كانوا فقط سيزجون بي في مكان ما...»، نقَّل نظره في أنحاء الغرفة: «أسوأ من هذا».

ابتسم ريفرز: «ثمة بالفعل أماكن أسوأ، صدِّقني».

«أنا واثق من ذلك»، أجاب ساسون بتهذيب.

- كانوا سيمنحونك إقرارًا في الحقيقة؟

- أفترض ذلك.

- هل قال أحد أعضاء اللجنة لك أي شيء بهذا الشأن؟

- لا، لأن الأمر كان...

- قد رُتِّب سابقًا. أجل، أفهم هذا.

قال ساسون: «هل لي أن أسألك سؤالًا؟».

- تفضَّل.

- أتظن *أنت* أنني مجنون؟

- كلا، بالطبع لستَ مجنونًا. أكنتَ تعتقد أنك ذاهبٌ نحو الجنون؟

- لقد مر ذلك ببالي. كما تعلم، حين تقف وجهًا لوجهٍ أمام حقيقة أنك، بلى، قد رأيتَ بالفعل جثثًا على الرصيف...

- الهلاوس في حالة نصف اليقظة شائعةٌ على نحو مفاجئ، لعلمك. وهي ليست مماثلة للهلاوس الذُّهانية، إنها تراود الأطفال بشكل متكرر.

كان ساسون قد بدأ يعبث بخيط منسول في صدر سترته، وأخذ ريفرز يراقبه لبعض الوقت. «لا بد أنك كنت تعاني من الكرب حين فعلتَ ذلك».

أنزل ساسون يده: «لا. *الكرب* هو ما تشعر به عندما تكون مستلقيًا في حفرةٍ أحدثتْها قذيفة بترت لك ساقيك. أما أنا فقد كنتُ *مستاءً*»، بدا عدائيًّا تقريبًا للحظة، ثم استرخى: «لقد كانت بادرة عديمة الجدوى، لستُ فخورًا بها على وجه التحديد».

«ألقيتَه في نهر المرزي، أليس كذلك؟».

«بلى. لم يكن ثقيلًا بما يكفي كي يغرق، لذا ظلَّ»، علت وجهَه ومضةُ استطراف: «*يتمايل* على وجه الماء. كانت هنالك سفينة مُبحرة على مقربة، على مسافة لا بأس بها في عرض المصب، فنظرتُ إلى قصاصة الشريط الصغيرة هذه تطفو ونظرتُ إلى السفينة، قلتُ في قرارتي إن محاولتي إيقاف الحرب تشبه في الواقع محاولة إيقاف السفينة. كما تعلم، كل ما كانوا ليروه

من على متن السفينة هو هذا الظل الضئيل الذي ينطنط، ملوحًا بذراعيه، وما كانوا ليعرفوا أي شيء ذاك الذي يبعث فيه كل هذه الحماسة بحق السماء».

«إذًا فقد أدركتَ عندئذٍ أن الأمر لم يكن ذا جدوى؟».

رفع ساسون رأسه: «كان يجب أن يحدث رغم ذلك، ليس بوسعك أن تذعن ببساطة».

تردد ريفرز: «انظر، أظن أننا... أننا بلغنا أقصى ما نستطيع بلوغه اليوم، لا بد أنك متعَب جدًّا»، نهض واقفًا: «سوف أراك غدًا في العاشرة صباحًا. أوه، هلَّا طلبتَ من النقيب غريفز أن يأتي إليَّ حالما يصل؟».

وقف ساسون: «قلتَ قبل قليل إنك لا تظنني مجنونًا».

«أنا واثق جدًّا أنك لستَ كذلك، بل في الحقيقة لستُ أظنك تعاني حتى من عُصاب حرب».

أخذ ساسون وقته ليستوعب هذا: «ما الذي أعاني منه إذًا؟».

«يبدو لي أنك تعاني درجة شديدة من عُصابٍ مناهضٍ للحرب».

نظر واحدهما إلى الآخر وضحكا. قال ريفرز: «أنت تدرك، أليس كذلك، أن واجبي يتمثل في... في محاولة تغيير هذا؟ لا أستطيع التظاهر بأني محايد».

ألقى ساسون نظرة سريعة مسحت كلا زيَّيهما: «لا، بالطبع لا».

تعمَّد ريفرز أن يجلس جوار برايس على العشاء.

«حسنًا»، قال برايس: «إلامَ خلصتَ منه؟».

- لا أستطيع إيجاد أي شيء خاطئ، فهو لا يُظهِر أي علامات اكتئاب، وليس مستثارًا...

- وبدنيًّا؟

- لا شيء.

- لعله لا يريد أن يُقتَل ليس إلا.

- أوه، أعتقد أنه سيشعر بأقصى الإهانة إن اقترحتَ هذا. تحريًّا للإنصاف، كانت تنتظره وظيفة مستقرة بالفعل في كامبريدج، تدريب طلبة

عسكريين، لذا ليست المسألة أنه يحاول تحاشي إعادته إلى الخدمة، كان بوسعه القبول بذلك لو أن مبتغاه هو النجاة بجلده.

- هل من أثرٍ لأي... إممم... *حماسة* دينية؟

- كلا، أخشى أن لا وجود لذلك. كنتُ آمل هذا أيضًا.

تبادلا نظرةً مستطرِفة. «أتعلم؟ ما يثير الفضول هو أنني لا أظنه مُناصر سلامٍ حتى. يبدو أن الأمر بالكامل مسألة رعب من امتداد المجازر، إلى جانب شعور بالغضب لكون الحكومة ترفض التصريح عن أهدافها الحربية وفرض نوعٍ من *التقييد* على مجمل الموضوع. هذا، إضافةً إلى كراهية أكّالةٍ مطلقةٍ للمدنيين، *بل* ولغير المقاتلين كافة».

- لا شك أن وقتك معه لم يكن مريحًا.

- لا، لا، كأني استشففتُ أنه يراني استثناءً.

بدا برايس متفكّهًا: «وأنت، هل راق لك؟».

«أجل، كثيرًا. ووجدتُه... مثيرًا للإعجاب أكثر مما توقعتُ بكثير».

عند طاولته تحت النافذة، جلس ساسون صامتًا. كان الرجلان على كلا جانبيه يعانيان تأتأةً بلغت من الشدة أن جعلت المحادثة مستحيلة، حتى لو أراد الانخراط فيها، غير أنه كان قانعًا بالانسحاب داخل أفكاره الخاصة.

تذكّر اليوم الذي سبق أراس، وهو يتجه مترنحًا من خندق النقطة العسكرية المتقدمة إلى الخندق الرئيسيِّ ذهابًا وإيابًا، حاملًا صناديق من قذائف الهاون الخندقيِّ[1]، مارًّا بالجثث نفسها مرةً تلو أخرى، حتى بدأت أشكالها المسودة الملتوية تبدو له كأصدقاء قدامى. في مرحلةٍ معينة، وجب عليه أن يجتاز يدَين برزتا من كومة أحجار طبشور، مخردَقةٍ بما يشبه بثور الجدري، كأنهما جذور شجرةٍ مقلوبة. لا سبيل إلى الجزم إذا ما كانتا بريطانيتين أم ألمانيتين، لا سبيل إلى إقناع نفسه أن ذلك يهم.

- أتلعب الغولف؟

- المعذرة؟

---

(1) هاون الخنادق: تسمية أُطلِقت على مدفع هاون بعيار 240 مم ذي تصميمٍ فرنسي ابتُكِر عام 1915، واستُخدم في الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

- سألتُكَ إن كنت تلعب الغولف.

عينان زرقاوان صغيرتان، شارب مثلَّمٌ تَشوبُه الحمرة، شارةٌ للفيلق الطبيّ في الجيش الملكيّ. مد يده: «رالف أندرسون».

صافحه ساسون وعرف عن نفسه. «أجل، ألعب الغولف».

«كم يبلغ عامل إعاقتك[1]؟».

أجابه. ففي النهاية، لمَ لا؟ ذلك يبدو موضوعًا مناسبًا تمامًا لمستشفى مجانين.

- آه، إذًا ربما يمكننا أن نلعب مباراة.

- أخشى أنني لم أجلب مضاربي.

- أرسِلْ في طلبها، فبعضٌ من أفضل ملاعب البلاد موجود هنا.

كان ساسون قد فتح فمه يهم بالرد عندما سُمِعت جلبةٌ قرب الباب. حسب ما استطاع أن يفهم، بدا أن أحدهم متوعك. المهم أن ثمة رجلًا نحيلًا أصفر البشرة قد نهض على قدميه، وراح يغص ويتهوع. هرعت إليه بضع فتيات من مفرزة المساعدات التطوعية[2]، ورحن يتصايحن ويثرن الجلبة ويمسحن سترته بمنديل دون جدوى، إلى أن فَطُنَّ آخر الأمر لفكرة إخراجه من القاعة. انغلقت درفتا الباب الدوار خلفهم، وساد الصمت للحظة، ثم -كما لو أن شيئًا لم يحدث- تصاعدت ضوضاء الأحاديث من جديد.

نهض ريفرز وأبعد طبقه من أمامه: «أظن أنه يحسن بي الذهاب».

«لمَ لا تنتظر حتى تنتهي؟»، قال برايس: «أكلُك قليل من الأساس».

---

(1) عامل الإعاقة (في الغولف وألعاب رياضية أخرى): عامل عدديٌّ يقيس مقدرات اللاعب بهدف تنسيق تنافس في ظروف متساوية بين اللاعبين من مختلف المستويات، وتتناسب قيمته عكسيًّا مع مهارة اللاعب. (المترجم)

(2) مفارز المساعدات التطوعية: وحدات من المتطوعين المدنيين كانت تقدم رعاية تمريضية للطاقم العسكريِّ في المملكة المتحدة ودول أخرى تابعة للإمبراطورية البريطانية، بلغ نشاطها أوْجَه في الحربين العالميتين، ولم يكن أفرادها خاضعين لسلطة الجيش رسميًّا. شكلت النساء والفتيات ثلثَي عدد الأعضاء الإجماليِّ في عام 1914. (المترجم)

ربت ريڤرز على بطنه: «أوه، لم أصل إلى درجة التلاشي بعد».

كلما أراد بلوغ الطابق العلويِّ دون أن يوقَف بضع مرات خلال طريقه، كان ريڤرز يستخدم الدرج الخلفيَّ. المواسير تكسو الجدران، وتلتف مع التفاف الدرج، مقرقرةً من آنٍ إلى آخر مثل أمعاء بشرية. المكان مظلم، والهواء مخنوق، وقطرات العرق بدأت تخز جذور شعره. أحس بالانفراج إذ دفع الباب الدوار وخرج إلى مطلع الدهليز، حيث للهواء شيءٌ من البرودة على الأقل، غير أنه لم ينجُ من الكمد الذي يبعثه هذا الممر الضيق الطويل بصفَّيه من الأبواب البُنية وغياب الضوء الطبيعيِّ فيه. «كأنه خندق دون سماء»، هكذا وصفه أحد المرضى، وتهيب ريڤرز من كون الوصف بالغ الدقة.

كان بيرنز جالسًا على سريره، تساعده فتاتان من المفرزة التطوعية على نزع سترته وقميصه. ترقوتاه وأضلاعه بارزة بوضوح تحت الجلد الضارب إلى الصفرة، وحزام سرواله واسع عليه.

شدت إحدى الفتاتين الحزام. «ثمة متسع لاثنين هنا»، قالت تبتسم عابثة: «أأنضم إليك؟». نبهتها التعابيرُ الجامدة على وجوه بقية المتطوعات إلى حضور ريڤرز. «سأحرص على أن يُنظَّف هذا لك يا حضرة النقيب».

انطلقن من أمام ريڤرز مسرعات، ثم انفجرن بقهقهة متوترة ما إن بلغن نهاية الدهليز.

كانت القشعريرة تكسو ذراعَي بيرنز، رغم أن الغرفة ليست باردة، ولم تزل رائحة القيء عالقة في أنفاسه. جلس ريڤرز بجانبه. لم يعرف ماذا يقول، فرأى من الأفضل ألا يتكلم. بعد قليل، أحس السرير يبدأ بالاهتزاز فوضع ذراعه حول كتفَي بيرنز قائلًا: «الأمور لا تتحسن، أليس كذلك؟».

هز بيرنز رأسه. انتظر ريڤرز قليلًا ثم نهض، أخذ معطف بيرنز عن الوتد خلف الباب ولفه له حول كتفيه. «أيكون أسهل لو تتناول الطعام في غرفتك؟».

«قليلًا، إذ لن يتعيّن عليَّ القلق حيال مضايقة الآخرين».

نعم، بيرنز من النوع الذي يقلق بالفعل حيال مضايقة الآخرين. لعل أكثر سمة تبعث على الأسى في حالته هي اللمحة التي تظهر بين وقتٍ وآخر من الشاب المبهج المحبوب الذي لا بد أنه كانه ذات زمان.

نظر ريڤرز إلى ساعدَي بيرنز؛ لا شيء، إلى درجة أن الانخماص بين عظمَي الزند والكعبرة كان أعمق حتى منه قبل أسبوع. سأله: «أيساعدك وجود سلطانية فواكه في غرفتك؟ كي يتسنى لك أن تتناول شيئًا منها حين تواتيك الرغبة؟».

«أجل، قد يساعدني هذا».

نهض ريڤرز وسار إلى النافذة. *إنه يوافق كي يجعلني أشعر أنني ذو فائدة*، قال لنفسه. «حسنًا، سأطلب منهم أن يرسلوا شيئًا». كانت ظلال أشجار الزان قد بدأت تزحف فوق ملاعب التنس التي فرغت الآن من الناس، استدار عن النافذة: «كيف كانت ليلتك؟».

- ليست ممتازة.

- هل أحرزتَ أي تقدمٍ بشأن ما تحدثنا عنه؟

«ليس حقًّا»، رفع نظره إلى ريڤرز: «لا أستطيع حمل نفسي على التفكير في ذلك».

«لا؟ حسنًا، ما زال الوقت مبكرًا».

«كما تعلم، أسوأ ما في الأمر هو...»، كان بيرنز يمسح وجه ريڤرز بعينيه، «أنه... نكتة».

«أجل».

بعد أن ترك بيرنز، صعد ريڤرز شاحطًا آخر قصيرًا من الدرج وفتح الباب المقفل المفضي إلى البرج. باستثناء غرفة نومه الخاصة، كان هذا هو المكان الوحيد في كريغلوكهارت الذي يستطيع أن يأمل فيه الاختلاء بنفسه لأكثر من بضع دقائق. لا يُسمَح للمرضى بالوجود هنا، خشية أن يكون السقوط عن ارتفاع مئة قدم إلى الطريق في الأسفل مَخرجًا من الحرب مُغريًا أكثر من اللازم. أسند ذراعيه إلى الدرابزين الحديد وراح يرنو نحو التلال.

بيرنز.. لقد بات ريڤرز ضليعًا في إيجاد جوانب يمكن احتمالها من التجارب التي لا تُحتمل، لكن بيرنز أعجزه. ما حدث له كان دنيئًا ومثيرًا للاشمئزاز إلى درجة أن ريڤرز لم يستطع العثور فيه على أي مزية تعوض ذلك. لقد طار في الهواء جراء انفجار قذيفة وحط -برأسه- فوق جثة ألمانية،

فتمزق بطنها المملوء بالغازات إثر الاصطدام. وقبل أن يفقد بيرنز وعيه، أتيح له الوقت كي يدرك أن هذا الذي ملأ أنفه وفمه كان لحمًا بشريًا متفسخًا. والآن، كلما حاول أن يأكل، عاوده الطعم والرائحة ذاتك. إنه يعيش التجربة من جديد كل ليلة، ويفيق من كل كابوس وهو يتقيأ. فيما هو على ركبتيه -كما رآه ريڤرز مراتٍ كثيرة- يتهوع آخر رمق من صفراء كبده، كان بالكاد يبدو بشريًا. بدا أن جسده لم يعد أكثر من غلاف الجلد والعظم الذي يكسو سبيلًا هضميًا مُعذَّبًا. كانت معاناته تعدم المغزى والكرامة، وأجل، لقد فهم ريڤرز قصده تمامًا حين قال إنها نكتة.

انتبه إلى أنه متشبث بحافة الدرابزين بقبضةٍ محكمة، فأرخى يديه على نحوٍ واعٍ. كلما أمضى قدرًا من الوقت -مهما قل- مع بيرنز، كان يجد نفسه نهبًا لأسئلةٍ لربما رغب بالبحث فيها أيام كامبريدج، زمن السلم، بيد أنها تفتقر إلى أدنى طائلٍ في زمن الحرب، داخل مستشفى مكتظ. بل أسوأ من أنها بلا طائل، فهي تجرده من طاقته التي لمرضاه الحق الأول فيها. لكن، بطريقةٍ ما، لم يكن لكل هذا علاقة ببيرنز. فرغم أن الشدة المتطرفة لمعاناته تميزه عن البقية، كانت هذه الأسئلة تتحرض بفعل كل حالةٍ تقريبًا.

نظر إلى الأسفل فرأى سيارة أجرة تنعطف إلى طريق الدخول. لعله النقيب غريڤز الشارد وقد وصل أخيرًا؟ أجل، ها هو ساسون، لم يمتلك من الصبر ما يكفيه لينتظر في الداخل، فهرع هابطًا على الدرج كي يستقبله.

3

وقف غريڤز، بشفتين منفرجتين قليلًا، شاخصًا إلى واجهة كريغلوكهارت الصفراء الرمادية الهائلة: «رباه».

تتبّعَ ساسون اتّجاهَ تحديقته: «هذا ما قلتُه لنفسي».

حمل غريڤز حقيبته وصعدا الأدراج معًا، ليعبرا ردهة الدخول المرصوفة ببلاط أبيض وأسود إلى الممر الرئيسيّ. ظهرت البسمة على وجه ساسون: «اتضح أنك مرافق سجناء ممتاز».

- أعرف، أنا آسف. رباه، يا له من نهار. أتعلم؟ لقد توقف القطار في كل محطة.

- حسنًا، ها أنت هنا الآن، حمدًا لله.

رمقه غريڤز بطرف عينه: «الوضع بهذا السوء؟».

- إممم، بين بين.

- أظن أنك لم تقابل أحدًا بعد؟

- لقد قابلتُ ريڤرز. بالمناسبة، يريد أن يقابلك، لكنني أتخيل أن لا ضير إن أوصلتَ أمتعتك قبل ذلك.

تبع غريڤز ساسون على الدرج الرخاميِّ إلى الطابق الأول.

«ها نحن أولاء»، فتح ساسون بابًا وتنحى مفسحًا لغريڤز كي يدخل: «غرفة الضيوف، حتى إنه يوجد قفل لبابك».

- وبابك، لا قفل له؟

- لا، ولا باب الحمام.

«صديقي المسكين ساس، سيتعين عليك أن تدفع فتيات المفرزة التطوعية عن كاهلك دفعًا»، ألقى حقيبته على أقرب الكراسي: «لا، بجدية، كيف هو الوضع؟».

«بجدية، إنه مُريح. هيا، أسرِع إلى مقابلة ريفرز كي يتسنى لنا الوقت للحديث سريعًا».

«طلب ساسون مني أن أعطيك هذا».

أخذ ريفرز الظرف بلا تعليق ووضعه على طاولته دون أن يفتحه: «كيف رأيتَه؟».

سحبت الستائرُ الرقيقة تيارًا من النافذة المفتوحة، فاجتاحت رائحة شجر زيزفون الغرفة. شذًا حلو. مسح غريفز -الذي كانت جميع الروائح الحلوة بغيضة لديه- العَرق عن شفته العلوية: «أكثر هدوءًا، أظن أن من المريح أن تكون الأمور قد اتضحت».

«لا أعرف إلى أي حد اتضحت. أنت تدرك، أليس كذلك، أن بوسعه الخروج من هنا في أي وقت؟».

«لن يفعل هذا»، أجاب غريفز جازمًا: «سيكون على ما يرام الآن، ما دام مناصرو السلام يتركونه وشأنه».

«لقد حظيتُ بحديث طويل معه هذا الأصيل، لكنني لا أظن أنني استوضحت تمامًا ما حدث. أتخيل أن ثمة الكثير مما جرى خلف الكواليس؟».

ابتسم غريفز: «يمكنك أن تقول هذا».

- وما هو بالضبط؟

- لقد أرسل ساسون إليَّ نسخةً من خطاب تصريحه، كنتُ آنذاك في دار نقاهة في جزيرة وايت...

- ألم يكن قد حدَّثك بذلك الشأن؟

«كلا، أنا لم أره منذ يناير. راعَني ذلك للغاية، تبين لي من فوري أن الأمر لن يُجدي، ما من أحد سيحذو حذوه. سوف يلقي بنفسه إلى التهلكة ليس إلا، وبلا سبب». توقف عن الكلام، وحين استأنف، كانت نبرته واضحة ومضبوطة جدًا: «ساسون أفضل قائد فصيلة سبق لي أن عرفتُه، الرجال يبجلونه، لن يترددوا في تلبيته لو طلب رؤوس الألمان على طبق، وهو أيضًا يحبهم. سيتسبب انفصاله عنهم في مصرعه، وهذا تمامًا ما كان من شأن محاكمةٍ عسكريةٍ أن تفضي إليه».

- إنه منفصل عنهم هنا.

- أجل، بيد أن ثمة خط رجعة. يمكن للناس أن يتقبلوا تعرُّض المرء لانهيار، لكن لا سبيل للرجوع بعد معارضة الخدمة.

- إذًا فقد قررتَ أنه...

- يجب إيقافه؟ أجل. لقد كتبتُ إلى الضابط الآمر، طالبًا منه أن يرتب لجنةً أخرى لسيغفريد. كان قد فوَّت موعد لجنة أساسًا. ثم تواصلت مع العديد من معارفي واستطعتُ إقناعهم بالتعامل مع الأمر على أنه انهيار عصبيٌّ. وهكذا بقي أمامي سيغفريد. كنت أعلم أن لا جدوى من الكتابة، وأن عليَّ لقاءه، لذا دبرتُ إقرار أهليتي للخروج وعدتُ إلى ليذرلاند. كان في حالةٍ *صادمة*، وقد ألقى لتوه صليبه العسكريَّ في المرزي. هل أخبرك بذلك؟

تردد ريفرز: «أظن أن هذا ورد في تقرير اللجنة».

- على كل حال، استغرق الأمر وقتًا طويلًا، لكنه ثاب إلى رشده في النهاية.

- ما الذي جعله يتراجع عن قراره برأيك؟

- ما كان بوسعه أن يستمر على إنكار مرضه ببساطة.

لم يُجِب ريفرز. تعمق الصمت، تراكم مثل ثلج هاطل، ثانيةً تلو أخرى، رقاقةً إثر رقاقة؛ لا تسترعي الواحدة منها الانتباه بمفردها، إلى أن يتحول حال كل شيء.

«لا، ليس هذا هو السبب»، تقبَّضت تضاريس وجه غريفز ذي الأنف المكسور الذي يُضفي عليه سيماء وجه ملاكم: «لقد كذبتُ عليه».

ومضت نظارة ريفرز حين رفع رأسه: «أجل، ظننتُ أنك ربما تكون فعلت».

- لقد أقسمتُ على الإنجيل إنهم لن يحاكموه عسكريًا، لكنني لم أكن متيقنًا من ذلك. أظن أنهم ربما كانوا ليفعلوا لو صمد على موقفه.

- ربما، لكنك تعلم أن إيجابيات التعامل مع الأمر على أنه انهيار عصبيٌّ كانت لتبدو جليةً للسلطات، حتى لو لم تُشِر أنت إليها.

«تبقى الحقيقة أني كذبت، وهو أذعن لأنه صدَّق الكذبة. ما كان ليصدقها لو أنها صدرت عن أي شخص آخر»، توقف قليلًا: «أتظن أنت أنني أخطأت؟».

أجاب ريفرز بدماثة: «أظن أنك فعلت أفضل ما استطعت من أجل صديقك. ليس الأفضل من أجل قضيته، لكن القضية خاسرة على أي حال. أوجدت صعوبة في إقناع اللجنة؟».

«إلى حدٍّ بعيد. كان ثمة بينهم رجل شاب أبدى تعاطفه، أما الآخران... حسنًا، تملكني انطباعٌ أنهما لا يؤمنان بصدمة القصف من الأساس. بالنسبة إليهما، لم يكن الأمر أكثر من جُبنٍ طال أم قصر. استقر رأيي منذ البدء على أنهما لن يقتنعا، حدثتهما عن العام الماضي حين استولى على خندقٍ ألمانيٍّ بمفرده ونال توصيةً بوسام صليب ڤيكتوريا. أود أن أشاهدهما يفعلان ما فعله. وشهر أبريل هذا، كما تعلم، حملة القصف التي أنجزها كانت مدهشة، كل شخص تحدثتُ إليه من بين الحضور آنذاك يرى أحقيته في الحصول على صليب ڤيكتوريا لقاءَ *ذلك*»، توقف قليلًا: «أردتهم فقط أن يعرفوا أي رجل هذا الذي يتعاملون معه»، ابتسم: «ظللتُ أذرف الدموع، وأظن أن هذا ساعد بطريقة ما. لقد كان بوسعي أن أراهم يقولون لأنفسهم: رباه، إن كان هذا مؤهلًا للخدمة، فكيف عساه يكون الآخر؟».

«وأخبرتهم أنه يعاني من الهلاوس؟».

«أجل»، بدا غريفز مرتبكًا بعض الشيء: «كان عليَّ أن أقنعهم. ثمة الكثير من الأشياء التي *لم* أقُلها لهم؛ لم أقل لهم إنه هدد بقتل لويد جورج[1]».

- وأقنعته ألا يقول شيئًا؟

(1) لويد جورج (1863-1945): رئيس وزراء المملكة المتحدة في أثناء النصف الأخير من الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

- أجل، فآخر ما كنا نريده هو أن يتكلم سيغفريد بعقلانية عن الحرب.
- بعقلانية؟ تعني أنك متفق معه؟
- حسنًا، أجل. من الناحية *النظرية*. فنظريًا، يجدر بالحرب أن تتوقف غدًا، لكن هذا لن يحدث، ستستمر إلى ألّا يظل ثمة قطة أو كلب لتجنيدهما.
- إذًا فأنت تتفق مع آرائه، لكن ليس مع تصرفاته؟ ألا تجد الفرق بين الأمرين صوريًا بالأحرى؟
- كلا، لا أجده كذلك. فالموضوع كما أراه، أنك حين ترتدي الزيَّ تكون وقَّعتَ عقدًا نافذًا، والمرء لا يتراجع عن عقدٍ وقَّعه لمجرد أنه غيّر رأيه. بوسعك أن تتكلم مدافعًا عن مبادئك، بوسعك أن تحتج ضد من تُرغَم على القتال لصالحهم، لكنك في النهاية تنفذ *العمل*، وأظن أنك تحظى باحترام أكبر بهذه الطريقة. سيغفريد لن يغير آراء الناس هكذا؛ ربما يكون قدره أن يغير آراءهم بشأن الحرب، لكن هذه ليست الطريقة لفعل ذلك.

أبعد ريڤرز يديه المتشابكتين عن فمه: «أتفق معك إلى أبعد حد».

«ما يثير الغيظ هو أنه يعلم ذلك أكثر من أي أحد آخر أساسًا، فهو الشخص القادر على التواصل مع الجنود الاعتياديين. كل ما في الأمر أنه افتُتن ببرتراند راسل وأوتولين موريل. أتعلم؟ أنا كنتُ معجبًا بهما، كنتُ أقول لنفسي: حسنًا، أنا لا أتفق معكما، لكن -في المقابل- بوسعي تفهُّم أن الأمر يتطلب *شجاعة*...»، هز رأسه: «لكنني لم أعد كذلك. أعلم أن راسل تجاوز سن الخدمة، وأن أوتولين امرأة، هذا مفهوم، لا أحد منهما يستطيع أن يفهم ما مر به، لكن *بوسعهما* أن يريا حالته، ومع *ذلك ظلا على موقفهما*. كانا على أتم الاستعداد للإيداء به في سبيل ترويج آرائهما، وأنا لا أسامحهما على هذا»، بذل جهدًا مرئيًا لتهدئة نفسه: «على أي حال، الأمر انتهى الآن. لكن لا بد أن أقول إنني سررتُ غاية السرور إذ كتبتُ إلى راسل وأخبرته أن ساسون كان في طريقه إلى هنا، وأن بوسعه أن يرفع عنه يديه *الآثمتين* في المستقبل».

«وماذا عنك؟»، سأله ريڤرز بعد سكوت قصير: «أتظن أنهم سيعيدون إرسالك؟».

«لا، لا أعتقد ذلك. في الحقيقة، قال لي طبيب الكتيبة إنه إن عثر عليَّ أتنفس من هواء فرنسا مرةً أخرى، سيطلق عليَّ النار بنفسه. آمل أن أُرسَل إلى فلسطين»، سكتة قصيرة: «أنا مسرور أنه هنا، على الأقل أستطيع العودة إلى ليذرلاند وأنا أعلم أنه في أمان».

«آمل ذلك»، نهض ريفرز: «والآن أرى أن أتركك تعود إليه، سيحتاج إلى صحبةٍ في أمسيته الأولى».

بعد مغادرة غريفز، جلس ريفرز يُريح عينيه لبعض الوقت، ثم فتح الظرف الذي أعطاه إياه. ثلاث أوراق؛ كتب ساسون على أولاها -وقد أرَّخَت في 22 أبريل- بقلم الرصاص: «كتبتُ هذه القصائد في المستشفى بعد مُضيٍّ عشرة أيام على إصابتي».

متلمِّسًا طريقه داخل النَّفق في الدّكنة
غمز بكشَّافه الصَّغير ذي الوهج الأبيض،
وارتطمت خوذته إذ تنشَّق الهواء الحقود.
علب تنك وصناديق وقنانٍ، أشكال مبهمة متعذِّرة،
ثمّ فِراشٌ أحدبُ ملوّث؛
وهو يمضي مستكشفًا، على عمق خمسين قدمًا
من غسق المعركةِ الورديّ في الأعلى.

تعثَّر فتشبَّث بالجدران؛
رأى شخصًا يرقد منكبًّا على نفسه،
غارقًا في النَّوم، وثَمَّ دثار يغطِّي نصف جسده؛
انحنى وجذب ذراع النَّائم.
«أنا أبحث عن المقرّ»، ولا جواب.
«أفِق أيُّها الأحمق!»، (كان لم يُصب نومًا منذ أيَّام).
«أريد من يرشدني في هذا المكان الملعون».

سدَّد ركلةً إلى الكومة الّتي لا تجيب،
ووجَّه حزمة ضوئه نحو ذلك الوجه المزرقّ.
كانت العينان تحملقان على نحو مريع،
وما زالتا ترتديان السَّكَرات الميتة منذ عشرة أيّام،
والأصابع الدَّامية تقبض على جرحٍ بَشِع.

تابع طريقه المترنّحَ اللّاهث،
حتَّى وجد شبحَ الفجر ينفذ من خشب سُلَّم
إلى المخلوقات الدّبقة الّتي تتلمَّس طريقها تحت الأرض
وهي تسمع دويّ القذائف بصوت مكتوم.
ثمّ، وعَرق الرّعب يلبّد شعرَه،
صعد مع الظّلام إلى هواء الشّفَق.

الجنرال

«صباح الخير، صباح الخير!»، قال الجنرال
حين قابلناه الأسبوع الماضي في طريقنا نحو خطّ القتال.
والآن، معظم الجنود الّذين ابتسم لهم ماتوا،
ونحن نلعن أركانه العسكريّة، الخنازيرَ القاصرة.
«يا له من عجوز مرح»، تمتم هاري لجاك
وهما يخوّضان نحو أراس بالبندقيّة والحقيبة.

*

لكنَّ خطَّته الهجوميَّة أودت بهما معًا.

إلى دُعاةِ الحرب

ها قد عدتُ من الجحيم مجدَّدًا
بأفكارٍ مسخوطةٍ أبيعها،
وأسرارٍ أرويها عن الموت،
وفظائع من مهاوي جهنّم.
وجوه شابّة غبّشها الدَّم
وابتلعها جوف الوحل...
سوف تسمعون أشياء كهذه،
إلى أن تزحف حولكم الذَّبائح المعذَّبة
بأطراف تلتوي عوجاء،
وتنوح ألمَها البهيميّ مرّةً أخرى،
حين يمرّ بها المقاتلون.

من أجلكم تأتلقُ معاركُنا
بنصرٍ نصفِ إلهيّ،
ويضطرم مجدُ الموتى
في كلّ عينٍ فخورة.
لكن ثمّة لعنة ألمّت برأسي
لن أسكُت عنها،
والجراح في قلبي حمراء
لأنيّ شاهدتُهم يموتون.

لم يكن ريفرز يعرف عن الشِّعر إلا قليلًا، إلى درجةٍ كاد معها يشعر بالحرَج من فكرة أن يتعين عليه التعليق على هذه القصائد. لكنه ذكَّر نفسه

أنها قُدِّمت إليه بوصفه معالِجًا نفسيًّا، لا ناقدًا أدبيًّا، وكانت من هذا المنظور مثيرةً للاهتمام بلا شك، لا سيما الأخيرة.

كل شيء في القصيدة يوحي أن موقف ساسون تجاه تجربته الحربية هو النقيض لما يصادفه المرء في العادة، فمن المعتاد أن يكرس المريض النموذجيُّ الوافد إلى كريغلوكهارت جزءًا معتبرًا من طاقته لمهمة نسيان الأحداث الصادمة التي حرضت لديه العُصاب أيًّا كانت. وحتى إن كان المريض يعي انعدام الأمل في المحاولة، عادةً ما يكون قد تلقى التشجيع على المثابرة من قِبل أصدقائه وأقاربه وحتى مستشاريه الطبيين السابقين. الفظائع التي مر بها، والتي تكون في النهار مكبوتةً جزئيًّا ليس إلا، تعود بعنفٍ مضاعف لتؤرق الليالي، فتقدح الزناد لأكثر الأعراض المميزة لعُصاب الحرب: كوابيس المعركة.

كان علاج ريڤرز يتألف في بعض الأحيان ببساطة من تشجيع المريض على هجر مساعيه اليائسة إلى النسيان، ونصحه عوضًا عن ذلك بقضاء جزءٍ من نهاره في التذكر، دون الاستغراق في التجربة أو محاولة التظاهر بأنها لم تحدث. وعادةً، في غضون أسبوع أو اثنين من بدء تطبيق المريض لهذا العلاج، يبدأ تواتر الكوابيس بالانخفاض وتصبح أقل فظاعة.

يمكن لتصميم ساسون على التذكر أن يكون سببًا في شفائه السريع والمبكر، على الرغم من أن هذا التصميم في حالته ليس وليد رغبةٍ منه بإنقاذ سلامة عقله بقدر ما هو إصرار على إقناع المدنيين أن الحرب مجنونة. من الواضح أن كتابة القصائد كانت وسيلةً علاجية، لكن ريڤرز يرى أن كتابة التصريح ربما كانت علاجيةً هي الأخرى. فكر أن شِعر ساسون واحتجاجه ينبعان من منبع واحد، ويمكن ربط كلٍّ منهما بتعافيه من تلك الفترة الرهيبة التي سادتها الكوابيس والهلاوس. إن صح ذلك، سيكون إقناع ساسون بالإذعان والعودة أمرًا ينطوي على مقدارٍ من التعقيد والمخاطرة أكبر مما كان يظن، ومن الممكن جدًّا أن يؤدي إلى الانتكاس.

تنهد وأعاد القصائد إلى الظرف. وإذ نظر إلى ساعة يده، رأى أن الوقت حان لبدء جولاته. كان قد وصل لتوه إلى قاعدة الدرج الرئيسيِّ عندما أبصر النقيب كامبل، يسير إلى الخلف حانيًا ظهره، خارجًا من قاعة الطعام العاتمة.

«كامبل؟».

استدار كامبل نحوه: «آه، حضرة النقيب ريڤرز، الرجل المناسب». جاء إليه، وقال يتحدث بهمس متحفظ يمكن سماعه في كل أنحاء الممر، إذ هكذا كان الهمس المتحفظ لدى كامبل: «ذاك الرجل الذي أنزلوه في غرفتي».

- ساسون، ما به؟

- لستَ تظنه جاسوسًا ألمانيًا، أليس كذلك؟

تعامل ريڤرز مع المسألة بمراعاة متأنية: «لا، لستُ أظن ذلك، فالجواسيس الألمان لا يطلقون على أنفسهم اسم «سيغفريد» أبدًا».

بدا كامبل مشدوهًا: «لا، ما عادوا يفعلون ذلك»، أومأ برأسه وربت على كتف ريڤرز بنشاط، ثم ابتعد وهو يقول: «قلتُ لنفسي أن أذكر الأمر».

«شكرًا يا كامبل، أقدِّر لك هذا».

وقف ريڤرز للحظةٍ عند أسفل الدرج، يهز رأسه دون وعيٍ منه.

4

- كنتُ أعبر مدخل فناء منزلي، وكانت زوجتي تتناول الشاي على المرج مع بعض السيدات الأخريات، جميعهن يرتدين الأبيض. لدى اقترابي، نهضت زوجتي مبتسمةً ولوَّحت لي، ثم تغير التعبير على وجهها، وبدأت السيدات الأخريات يتبادلن النظرات في ما بينهن. لم أستطع أن أفهم السبب، ثم نظرتُ إلى الأسفل فرأيت أنني كنتُ عاريًا.

- ماذا كنت ترتدي قبل ذلك؟

- الزيَّ. عندما رأيتُ كم كُنَّ مذعورات، أصابني ذلك بالذعر أنا نفسي. بدأت أركض. كنتُ أركض عبر الأحراش، يطاردني والد زوجتي، واثنان من مساعدي التمريض. حاصروني آخر الأمر في زاوية، وجاء حمي نحوي ملوحًا بعصا كبيرة. كان ثمة أفعى ملتفة عليها، وكان يستخدم العصا مثل مدراسٍ يدويٍّ، والأفعى تفح. تراجعتُ إلى الخلف، لكنهم استحكموني وقيدوني.

استشعر ريڤرز شيئًا من التلكؤ: «بمَ قيدوك؟».

سكوت قصير، ثم قال أندرسون بنبرة متكلفةِ الاعتيادية: «بزوجين من المِشدات النسائية، ثبتوهما حول ذراعي وعقدوا أربطتهما».

- مثل سُترة المرضى؟

- أجل.

- ثم؟

- ثم نُقِلتُ إلى عربة من نوعٍ ما، رُميت داخلها وصُفق الباب وساد ظلام دامس، مثل قبر. عندما نظرتُ أول مرة كان المكان خاويًا، لكنك كنت موجودًا في المرة الثانية. كنتَ ترتدي مئزر عامل مشرحة وقفازين.

كان واضحًا من نبرته أنه أنهى كلامه. ابتسم ريڤرز وقال: «لم أرتدِ هذه الأشياء منذ وقتٍ طويل».

- وأنا لم أرتدِ المِشدات النسائية مؤخرًا.

- لمن كان هذان المشدان؟

- مشدان لا على التعيين. تريدني أن أقول إنهما لزوجتي، أليس كذلك؟

بوغِت ريڤرز: «أريدك أن تقول...».

«حسنًا، أنا حقًّا لا أظنهما كانا لها. أعتقد أن من *الممكن* للمرء أن يجد الزج به في مستشفى مجانين تجربةً تشبه *الإخصاء* إلى حد ما؟».

«أظن أن معظم الناس يجدونها هكذا»، رغم أنه ما من أشخاص كثر يقولون ذلك، «أريدك أن تقول ما تفكر فيه».

لا جواب.

- تقول إنك استيقظتَ تتقيأ؟

- أجل.

- أتساءل ما عساه يكون السبب؟ أعني، يمكنني أن أتفهم تمامًا ألا يكون منظري في مئزر عامل مشرحة مستساغًا لدى الجميع...

- لا أدري.

- ما الذي كان مخيفًا أكثر من غيره في المنام؟

- الأفعى.

صمتٌ طويل.

- أتحلم بالأفاعي كثيرًا؟

- أجل.

صمتٌ طويل آخر. «حسنًا، تابِع كلامك إذًا»، انفجر أندرسون أخيرًا: «هذه هي الأشياء التي لا تنفكون -أنتم جماعة فرويد- تتحدثون عنها طيلة الوقت،

أليس كذلك؟ العُري، الأفاعي، المشدات النسائية. يمكنك على الأقل أن تحاول إظهار شيء من الامتنان يا ريفرز، فهذه هدية».

«أظن أنني إن كنتُ سأربط الأفعى بأي شيء على الإطلاق -وفي النهاية ما مقدار الصلة التي قد تكون لتأويلي بالموضوع؟- فهو على الأغلب رمز الأفعى الزاحفة على طية صدر سترتك».

أطرق أندرسون ينظر إلى شارة صولجان هرمز[1] الخاصة بالفيلق الطبيّ التي يضعها على سترته، ثم نقل نظرته إلى الشارة نفسها على سترة ريفرز.

- هل يمكن لـ... إممم... الأفعى أن تُحيلنا إلى أن الطب يشكل مشكلةً بينك وبين حميك؟

- لا.

- على الإطلاق؟

- لا.

صمتٌ طويل آخر، قال أندرسون بعده: «هذا يعتمد على ما تقصده بالمشكلة».

- موضوع حوله خلاف متكرر.

- لا. لقد كان من شأن الوقت الذي قضيتُه في فرنسا أن يسبب لي بطبيعة الحال بعض النفور من ممارسة الطب، لكن هذا كله يزول مع الوقت. ليس ثمة مشكلة، فلدي زوجة وطفل أُعيلهما.

- كم تبلغ من العمر؟

- ستة وثلاثين.

- وابنك الصغير؟

لان التعبير على وجه أندرسون: «خمسة».

---

(1) صولجان هرمز (أو القادوسيوس): عصا تُرسَم مع ثعبانين ملتفين حولها يعلوهما جناحان، تُستخدم رمزًا عالميًا للطب. وهرمز في الميثولوجيا الإغريقية هو رسول الآلهة، وحامي رسل البشر، ومسافريهم ولصوصهم، وتجارهم وخطبائهم، كما يؤدي دور مرشد الأرواح في العالم السفليّ. (المترجم)

«اقترب أوان الرسوم المدرسية؟».

«أجل. سأكون على ما يرام حالما أحظى ببعض الراحة، فأنا أدفع ضريبة الصيف الماضي بشكل أساسيٍّ. أتعلم؟ في مرحلة ما، بلغ المعدل *الوسطيُّ* عشر عمليات بتر في اليوم، كانت إجازتي تُلغى كلما حان موعدها»، نظر نحو ريڤرز مباشرةً: «ما من شك بشأن ماهية المشكلة: التعب».

- ما زلتُ أرى التقيؤ محيرًا، لا سيما وأنت تقول إنك لا تشعر بأكثر من نفور *معتدل* تجاه الطب.
- لم أقل معتدلًا، قلتُ مؤقتًا.
- آه، أي جزء بالتحديد هو الذي تجده صعبًا؟
- لا أعرف إن كان ثمة شيء محدد.

صمتٌ طويل.

قال أندرسون: «سأبدأ بحساب الوقت الذي تستغرقه فواصل الصمت هذه يا ريڤرز».

- هذا يتم بالفعل، لقد أقام بعض الفتيان الأصغر سنًّا رهانًا حول الأمر. لا يُفترض بي أن أعرف ذلك.
- الدم.
- وهل تعزو هذا إلى عمليات البتر العشر اليومية؟

«كلا، كنتُ على ما يرام حينذاك، الـ... المشكلة بدأت لاحقًا. لم أكن في إتاپل عندما حدث ذلك، كنتُ قد نُقِلت نحو الأمام، إلى محطة علاج المصابين رقم 13. أحضروا رجلًا، كان فرنسيًّا فر من الخطوط الألمانية. جيء به مسربلًا بالوحل، لا يَظهر إنشٌ واحد من أي منطقة في جلده. ولم يكن مغطى بالوحل على النحو المعتاد، بل إن السماكة بلغت خمسة إنشات أو ستة. كان ينزف، مسعورًا من الألم، ولا يتحدث الإنجليزية»، سكوتٌ قصير: «لقد فاتني الأمر المهم، عالجتُ الجروح الثانوية وفاتني أكبرها»، أطلق ضحكة قصيرة أشبه بالهسهسة: «لا أعني أن الجروح الثانوية كانت ثانويةً تمامًا. بدأ ينزف بغزارة، و... لم يكن هنالك ما أستطيع فعله، وقفتُ مكتوف اليدين وشاهدته ينزف حتى الموت»، التوى وجهه: «كان الدم يطفر منه طفرًا».

مضى وقتٌ قبل أن يأتي أحدهما بأدنى حركة، ثم قال أندرسون: «إن كنتَ تتساءل لِما هذا الرجل دونًا عن غيره، فأنا لا أعرف. رأيتُ ميتاتٍ كثيرة أشنع».

- هل حدَّثتَ عائلتك عن الأمر؟

- لا. هم يعلمون أنني لا أحبذ فكرة العودة إلى الطب، لكنهم يجهلون السبب.

- هل تحدَّثتَ إلى زوجتك؟

- أُحدِّثها من آن إلى آخر. عليك أن تفكر في *النواحي العملية* يا ريڤرز؛ لقد كرستُ كامل حياتي الراشدة للطب، ليس لدي دخلٌ خاص يُعينني، ولا تنسَ أن لي زوجةً وطفلًا.

- قد تكون الصحة العامة خيارًا محتملًا.

- هذا المجال لا ينطوي على كثيرٍ من... *الحيوية*، أليس كذلك؟

- وهل هذا أمر يؤخذ بعين الاعتبار؟

تردد أندرسون: «ليس بالنسبة إليَّ».

- حسنًا، بوسعنا أن نتحدث عن النواحي العملية لاحقًا. أنت لم تخبرني بعد متى قلتَ كفى.

ابتسم أندرسون: «إنك تجعل الأمر يبدو قرارًا، لا أدري إن كان الرقود على الأرضية وسط بِركةٍ من البول يُعَد قرارًا»، توقَّف قليلًا: «الصباح التالي، *في أثناء العمل*. أتذكر أن الجميع كانوا يطرقون بأبصارهم نحوي. كان موقفًا مربكًا، حقًّا. ماذا تفعل حين ينهار الطبيب؟».

ظل هذا الحلم يعاود فكر ريڤرز في أثناء أدائه جولات ضابط الخفر المناوب ذلك اليوم؛ لقد كان مزعِجًا من عدة نواحٍ. مال أول الأمر إلى رؤية مئزر عامل المشرحة على أنه تعبير عن انعدام الثقة به لا أكثر، أو -بصيغة أدق- بالطرائق التي ينتهجها، بما أن أي طبيب يقضي الكثير من وقته مرتديًا ما يرتديه لن يلبي متطلبات النجاح المرتبط بالزيِّ في أجنحة المستشفى كما هو واضح. كان يعلم أن انعدام الثقة هذا موجود!! فأندرسون رفض العلاج عمليًّا في أول مقابلة له، زاعمًا أن الراحة وملاحقة كرات الغولف إلى ما لا نهاية هما كل ما يلزمه. كان مُلمًّا بفرويد بعض الشيء، رغم أن معرفته هذه

مستقاة بشكلٍ رئيسيٍّ من مصادر ثانوية أو متحامِلة، وكان يكره -أو ربما يخاف- ما يظن أنه يعرفه. ما من سبب بعينه يجعل أندرسون -الذي كان جراحًا في نهاية المطاف- ضليعًا في العلاج الفرويديِّ، إلا أن هذه المفاهيم المغلوطة أدت إلى نفوره الواضح من البوح بأحلامه. ومع ذلك يصعب تجاهل أحلامه، حتى إن لم يعد سببُ ذلك كونَها تُبقي طابقًا كاملًا من المستشفى مستيقظًا في الوقت الحاليِّ. لقد تدهورت حالة شريكه في الغرفة، فِذرستون، بشكل ملحوظ نتيجةً لثورانات أندرسون الليلية، لكن هذه مشكلة أخرى. حالما كشف أندرسون عن ذلك الرعب المتطرف من الدم، بدأ ريڤرز -على نحو تجريبيٍّ- يُلحق معنىً آخر بمئزر عامل المشرحة. إن لم يكن أندرسون يرى مخرجًا من العودة إلى ممارسة مهنةٍ لا مناص من أن تستحضر إلى ذهنه -ولو في الحياة المدنية- الفظائعَ التي شهدها في فرنسا، فهل تراه يكون يائسًا بما يكفي للتفكير في الانتحار؟ ذلك قد يفسر كلًّا من مئزر عامل المشرحة والرعب البالغ الذي يشعر به لدى استيقاظه. إن معرفته الراهنة بأندرسون لا تكفيه لتحديد ما إذا كان الانتحار احتمالًا أم لا، لكن عليه أن يضع ذلك في باله دون شك.

ازدادت رائحة الكلور قوةً مع بلوغهما نهاية الدرج، وشعر ساسون بترددِ غريڤز: «هل أنت على ما يرام؟».

- لكنتُ بحال أفضل لولا الرائحة.

- حسنًا، دعنا لا نُتعب...

- لا، هيا بنا.

دفع ساسون الباب؛ كان المسبح خاويًا، بلاطة خضراء بين جدران بيضاء. بدأا ينضوان ملابسهما، ويضعانها على أحد المقاعد المصفوفة عند الجدار القصيِّ.

«كيف تجد شريكك في الغرفة؟»، سأله غريڤز.

- لا بأس به.

- مضطرب؟

- ليس بشكلٍ واضح للعيان. توصلتُ إلى أن تجنُّب موضوع الجواسيس الألمان هو التصرف الأفضل. أوه، ولقد اكتشفتُ سبب عدم وجود أقفال للأبواب؛ أحدهم قتل نفسه قبل ثلاثة أسابيع.

لمح غريڤز الندبة التي على كتف ساسون وتوقف كي ينظر إليها. بدا الاستسلام لهذه النظرة المدققة مريحًا على نحو غريب، وكانت النظرة مطوَّلة ومفصلة وغير شخصية، كولد صغير يعاين سحجات على ركبة ولد آخر. «أوه، كم هي أنيقة».

- أليس كذلك؟ لم يكُف الطبيب عن التعليق على مدى جمالها.

- لقد حالفك الحظ كما تعلم، لو أن موضعها كان أخفض بإنشٍ واحد...

«ليس بمقدار ما حالفك أنت»، ألقى ساسون نظرةً على جرح الشظية في فخذ غريڤز: «لو أنها اتجهت إنشًا واحدًا إلى الأعلى...».

«إن كنتَ تُمهد لنكتةٍ حول الجوقات النسائية، فانسَ الأمر. لقد سمعتُها كلها».

غطس ساسون في الماء. عالمٌ صامت أخضر، ما من صوتٍ سوى فقاعات أنفاسه الهاربة، ولا إحساس -حالما زالت صدمة البرد- سوى تضيُّق صدره الذي أرغمه أخيرًا أن يطفو إلى السطح: هواء، ضوضاء، ضوء، أمواجٌ تنسكب على جسده من جديد. سبح إلى الجانب وتمسك بالحافة. كان رأس غريڤز الداكن يتمايل عمدًا على طول حافة المسبح المقابلة. قال ساسون لنفسه: *نحن نتناول الأمر بالمزاح والدعابة، لكنه يحدث.* كان ثمة فتى في المستشفى، في أثناء استلقائه هناك بذلك الثقب الصغير الأنيق في كتفه. الفتى -لا يمكن أن يكون تجاوز التاسعة عشرة- أيضًا لديه ثقب صغير أنيق، غير أن ثقبه كان بين ساقيه. كان من المريع للمرء أن يشهد التضميد، لكن لا مفر من ذلك، فما من خصوصيةٍ في ذلك الجناح المكتظ لأي إجراء علاجيٍّ. الممرضات يدخلن بالعربة ذات الصرير مرتين يوميًّا، فتتبعهن عينا الفتى على طول الجناح.

أطبق ساسون الغطاء على الذكرى وغاص بقصد مشاكسة غريڤز، الذي تلوى وقاومه، ورأسه صخرة سوداء تمزق الرغوة البيضاء.

«إليكَ عني»، قال أخيرًا وهو يلهث ويدفع ساسون: «بعضنا لا يملك رئتين كاملتَي المقدرة».

كان المسبح قد بدأ يمتلئ. وبعد مضي بضع دقائق أخرى، خرجا وشرعا يرتديان ملابسهما. قال غريڤز بصوت مكتوم ورأسه بين طيات قميصه: «بالمناسبة، أظن أن ثمة ما يحسن أن أخبرك به. أخشى أنني حدثتُ ريڤرز عن خطتك لاغتيال لويد جورج».

انتهت جولة مناوبة ريڤرز في المطابخ. حيَّته السيدة كوبر، والدهن المتطاير من المقالي العملاقة يلطخ ذراعيها العريضتين، بابتسامة متأهبة: «كيف وجدت يخنة لحم البقر الليلة الماضية إذًا يا سيدي؟».

«لا أظن أنني تذوقت شيئًا يشبهها».

اتسعت ابتسامة السيدة كوبر: «إننا نفعل أفضل ما نستطيع بالمواد المتوفرة، سيدي»، تجهم وجهها واكتسب سيماء من يُسِرُّ بشيء ما: «ذلك اللحم كان يمشي».

وصل ريڤرز إلى غرفته بعد العاشرة ببضع دقائق فوجد ساسون ينتظره، شعره نديٌّ يعبق برائحة الكلور. «أعتذر عن تأخري»، قال ريڤرز وهو يفتح قفل الباب: «كنتُ أتظاهر لتوي أنني أعرف شيئًا عن تقديم الطعام. تفضل». أشار إلى ساسون نحو الكرسي أمام مكتبه، ثم ألقى قبعته وعصاه جانبًا، وكان يوشك أن يفك إبزيم حزامه حين تذكر زيارة مدير الخدمات الطبية المرتقبة للمستشفى في وقتٍ ما من النهار. جلس خلف المكتب وجذب ملف ساسون إليه: «هل نمتَ جيدًا؟».

- جدًّا، شكرًا لك.

- تبدو مرتاحًا. لقد استمتعتُ بلقاء حضرة النقيب غريڤز.

- أجل، أفهم أنك وجدتَ اللقاء غنيًّا بالمعلومات.

«آه»، سكت ريڤرز قليلًا وهو يفتح الملف: «أتقصد أنه أخبرني بشيء كنتَ تفضل ألا أعرفه؟».

«كلا، ليس بالضرورة، ربما شيء كنتُ لأفضل أن أقوله لك بنفسي لا أكثر»، مرت لحظة صمت هب ساسون بعدها: «ما لا أستطيع فهمه هو كيف لشخص بذكاء غريفز أن أن أن يملك استيعابًا متزعزعًا هكذا لـــ *للبلاغة*».

ابتسم ريفرز: «كنتَ تهم بقتل لويد جورج بلاغيًا، أليس كذلك؟».

«لم أكن أهم بقتله على الإطلاق. قلتُ إنني *أشعر* برغبة في قتله، لكن لم يكن ثمة جدوى من ذلك، لأنهم لن يزيدوا على الزج بي في مستشفى مجانين، «مثل ريتشارد داد ذي الذكرى المجيدة». إليك الكلمات *بحرفيتها*»، أخذ ينظر في أنحاء الغرفة: «لكن كما تبين...».

- هذا *ليس* مستشفى مجانين، وأنت *لست* محتجزًا.
- آسف.
- ما تريد قوله هو أن غريفز أخذ كلامك بجدية زائدة.
- ليس هذا فقط. هو يحلو له أن يعزو كل شيء فعلتُه إلى إلى إلى إلى... حالةٍ من الانهيار العصبيّ، فهكذا لا يتعين عليه أن يسأل نفسه أي أسئلة مربِكة، مثل لماذا يتفق معي بشأن الحرب ولا يفعل شيئًا حيال ذلك.

تمهل ريفرز بضع لحظات. «أعرف أن ريتشارد داد كان رسامًا، ماذا فعل غير ذلك؟».

صمتٌ قصير. «قتل أباه».

حارَ ريفرز من الإرباك العابر. كان معتادًا أن يُتَّخَذ بمنزلة صورة أب -فهو في النهاية أكبر بثلاثين عامًا من أصغر مرضاه- لكن من النادر أن يحدث ذلك بهذه السرعة في حالة رجل بسن ساسون. ««ذو الذكرى *المجيدة*»؟».

«لقد... إممم... وضع قائمةً برجالٍ مسنين في مواضع سلطة يستحقون الموت، ولحسن الحظ -أو أو لسوئه- تصدَّر اسمُ والده القائمة. حمله لمسافة نصف ميل في حديقة هايد پارك ثم أغرقه في بحيرة السربينتين على مرأىً من كل الموجودين على ضفافها. لم نسمع أنا وغريفز بشأنه سوى لأننا كنا في الخنادق برفقة اثنين من أحفاد أخيه، إدموند وجوليان»، تلاشت الابتسامة

الطفيفة: «الآن إدموند ميت، وجوليان أصيب برصاصة في حلقه ولا يستطيع النطق. الأخ الآخر قُتِل هو أيضًا، في غاليبولي».

- مثل أخيك؟

- أجل.

- والدك متوفى كذلك، صحيح؟ كم كنت تبلغ من عمرك حين مات؟

- ثمانية. لكنني لم أكن أراه كثيرًا طوال فترةٍ سبقت ذلك، إذ إنه هجر البيت حين كنتُ في الخامسة.

- هل تتذكره؟

- قليلًا. أتذكر أنني كنتُ أحب أن يقبِّلني لأن شاربه يدغدغ. حضر أخواي الجنازة، أما أنا فلا؛ يظهر أنني كنتُ مستاءً أكثر من أن أذهب. لم يفُتني الكثير على الأرجح، فقد عادا مروَّعين. كانت جنازةً يهودية، كما ترى، ولم يستطيعا أن يفهما ما كان يحدث. أخي الكبير قال إن الأمر كان عبارة عن عجوزين يعتمران قبعتين مضحكتين ويسيران ذهابًا وإيابًا وهما يبربران بكلام غير مفهوم.

- لا بد أنكم شعرتم بفقدانه مرتين.

- أجل، لقد فقدناه مرتين بالفعل.

حدق ريڤرز خارج النافذة: «أي فرق كان سيحدث برأيك لو أن أباك عاش؟».

صمتٌ طويل. «تعليم أفضل».

- لكنك ارتدتَ مدرسة مارلبورو؟

- أجل، بيد أنني كنتُ متأخرًا بسنوات عن الجميع. كانت لدى أمي نظرية تقول إننا أرقّاء، ولا يجدر أن تُرهَق أدمغتنا. لا أظنني استدركتُ الأمر بحقٍّ قط، لقد غادرتُ كامبريدج دون أن آخذ شهادتي.

- وبعد ذلك؟

هز ساسون رأسه: «لا شيء يُذكَر. الصيد، الكريكت. كتابة القصائد. ليست قصائد جيدةً جدًا».

«ألم تجد الأمر برمته... غير مُشبعٍ بالأحرى؟».

«بلى، لكن يبدو أنني لم أرَ مخرجًا. كان الأمر أشبه بأن تكون ثلاثة أشخاص مختلفين، كلٌّ منهم يريد الذهاب في طريق مختلف»، ابتسامة طفيفة: «والنتيجة أنني لم أذهب إلى مكان».

انتظر ريڤرز.

«أقصد، كان هنالك الجانب الذي يحب ركوب الخيل والصيد ولعب الكريكت مني، إضافةً إلى... الجانب الآخر... الذي كان مهتمًّا بالشعر والموسيقى، وأشياء من ذلك القبيل. ولم أبدُ قادرًا على...»، شابك أصابعه: «الربط بين الجانبين».

- والثالث؟

- المعذرة؟

- قلتَ ثلاثة أشخاص.

- حقًّا؟ قصدتُ اثنين.

آه. «ثم جاءت الحرب، التحقتَ منذ اليوم الأول؟».

- أجل، التحقتُ بالصفوف. لم أُطِق صبرًا للالتحاق.

- لقد كتب ضباطك المسؤولون تقارير براقة إلى اللجنة، أكنتَ تعلم هذا؟

تورَّد من الحبور: «أظن أن الجيش هو المكان الوحيد الذي شعرتُ يومًا بانتماءٍ حقيقيٍّ إليه على الأرجح».

- وقطعتَ نفسك عنه.

- أجل، لأنني...

- لستُ مهتمًّا بالأسباب في الوقت الحاليّ، اهتمامي أكبر بالنتيجة، وما كان لذلك من أثر فيك.

- العزلة، كما أعتقد. لا أستطيع التحدث إلى أحد.

- إنك تتحدث *إليَّ*، أو على الأقل أظنك تفعل.

- أنت لا تتفوه بأشياء غبية.

أشاح ريڤرز برأسه: «هذا يسرني».

- لا عليك، *اضحك*. أنا لا أمانع.

- كانت قد عُرِضت عليك وظيفة في كامبريدج، أليس كذلك؟ تعليم طلبةٍ عسكريين.

عبس ساسون: «بلى».

«لكنك لم تقبلها؟».

«كلا، كان الخيار إما السجن، وإما فرنسا»، ضحك: «لم أتنبأ بهذا».

راقبه ريڤرز وهو يجول ببصره في أنحاء الغرفة: «أنتَ لا تحتمل أن تكون في مأمن، أليس كذلك؟»، انتظر جوابًا: «حسنًا، أمامك اثنا عشر أسبوعًا من الأمان، *على الأقل*. إن ظللتَ على رفضك للخدمة، ستكون في مأمن لبقية الحرب».

ظهرت بقعتان حمراوان على وجنتَي ساسون: «ليس الخيار خياري».

«لم أقل إنه خيارك»، سكت ريڤرز قليلًا: «تعلم أن ردة فعلك كانت كأنني أهاجمك، رغم أن كل ما فعلتُه هو الإشارة إلى *الحقائق*»، انحنى إلى الأمام: «إن واظبتَ على احتجاجك، يمكنك أن تتوقع قضاء ما تبقى من الحرب في حالةٍ من **الأمان الشخصيِّ التام**».

تقلَّب ساسون في مقعده: «لستُ مسؤولًا عن قرارات الآخرين».

«ألا تظن أنك قد تجد التنعم بالأمان، بينما هنالك آخرون يموتون، أمرًا صعبًا بالأحرى؟».

ومضةُ غضب: «لا يبدو أن أحدًا آخر في هذه البلاد *المقرفة* يجد ذلك صعبًا. أتوقع أنني سأتعلم التعايش مع الأمر، مثل الآخرين جميعهم».

وقف بيرنز عند نافذة غرفته. كان المطر قد غبش الإطلالة، فمزج السماء بالتلال في ضربة طلاءٍ رمادية. إنه يشمئز من الطقس الماطر لأن الجميع يبقون خلاله في الداخل، جالسين في أنحاء قاعة المرضى العامة، يتحدثون بنبرات متكلفة أو لعوبة عن الحرب والحرب ولا شيء سوى الحرب.

هبت عصفةُ ريحٍ أكثر حدةً وذرت المطرَ على الزجاج. بطريقة أو بأخرى، سيتعين عليه أن يخرج. لم يكن ذلك محظورًا، بل هو أمر يُشجَّع عليه حتى،

غير أنه عن نفسه لم يكن يخرج كثيرًا. أخذ معطفه ونزل على الدرج. في الممر، التقى إحدى ممرضات جناحه، وبدت متفاجئةً لرؤيته مرتديًا معطفه، لكنها لم تسأله عن وجهته.

توقف عند البوابة الرئيسية. ولأنه كان يلتزم البقاء في الداخل منذ وقت طويل، بدت الاحتمالات بلا نهاية، غير أنها سرعان ما اختصرت نفسها إلى احتمالين اثنين: *التوغل* في إدنبرة، أو الابتعاد عنها. ولم يكن الاختيار واردًا على الإطلاق، فهو يعلم أنه ليس مستعدًّا لمواجهة الزحام.

كانت الحافلة مكتظة في المحطات القليلة الأولى. جلس على المقعد الطويل قرب الباب؛ أناس ينضحون برائحة الصوف المبتل يهتزون ويتمايلون نحوه، فيرتطمون بركبتيه، وهو يتوتر نافرًا من التلامس والرائحة. لكن، عند كل موقف، كان المزيد والمزيد من الركاب يترجلون، إلى أن بقي وحده تقريبًا، لولا رجل مسن وجامعة التذاكر. باتت مسالك الطرق أضيق الآن، والأشجار تتسابق على كلا الجانبين. حف غصنٌ على طول النوافذ مخشخشًا بصوت يشبه إطلاقَ رشاش، فاضطر أن يعض على شفتيه ليمنع نفسه من الصياح.

ترجَّل في الموقف التالي، ووقف ينقل نظره ذهابًا وإيابًا على طول طريق ريفيّ. لم يعرف ماذا يفعل أول الأمر، لقد مضى وقتٌ طويل على آخر مرة ذهب فيها وحده إلى أي مكان. حبات المطر تتقطر عن الأشجار، قطرات كبيرة متابرة تنفرش بصوت مسموع إذ تجد طريقها إلى المكان الدافئ بين ياقته وعنقه. مرَّر نظره على الطريق ذهابًا وإيابًا من جديد. في مكانٍ ما بعيد، ثمة حمامة مطوقة تقرقر بهديل رتيب على الطريق. قطع إلى الضفة المقابلة وبدأ يتسلق التل بين الأشجار.

أعلى وأعلى، إلى أن اعترض طريقه سياج ترتعش أسلاكه في الريح. هنالك خصلة من صوف رماديٍّ عالقة بطرف أحد الأسلاك. رمش بيرنز يزيح المطر عن عينيه؛ باعد بين جديلتين مفتولتين من الأسلاك وعبَر من الفرجة، فعلق كمه وراح العَرق يتفصد منه فيما هو يكافح لتحريره.

مرتجفًا الآن، اندفع بمحاذاة طرف الحقل المحروث، ينزلق ويتعثر، فردتا جزمته المثقلتان بالوحل تشدان عضلات فخذيه كأوزان من الرصاص. كان

جسده باردًا داخل الزيِّ الخاكي المتيبس، باستثناء احتراقٍ يشعر به عند الركبتين، حيث يسحج القماش الضيق جلده.

أخذ يسير صاعدًا منحدر تل، مكابرًا في وجه الريح التي بدت تحاول أن تقلعه من مكانه. وإذ بلغ القمة، انتزعت هبةٌ أكثر ضراوةً أنفاسَه. بعد ذلك أبقى رأسه محنيًا، يتوقف أحيانًا ليسحب نفسًا أعمق عبر صومعة يصنعها بيديه المضمومتين. المطر ينقّر رأسه، ويتقاطر من حافة قبعته، لقد بدأت العظام الصغيرة في أنفه وفكه تزقزق. توقف وألقى نظرةً واسعة على الحقل، المسافة تلاشت في غلالةٍ من المطر. لم يكن يعرف إلى أين هو ذاهب، ولا لماذا، لكنه رأى أن يلوذ بظلةٍ تقيه، وبدأ يركض على نحوٍ أخرق بمحاذاة حافة تلٍ نحو أيكة شجر بعيدة. كان الوحل يعيق تقدمه، وتعيَّن عليه الإبطاء في السير. كل خطوة مجهودٌ قائم بذاته، وهو يجُر فردتَي جزمته المثخنتين بالوحل ويقلعهما قلعًا من التربة الغائرة. عقله عاجز عن إجراء المقارنات، لكن فخذيه المتألمتين تتذكران، وهكذا راح يصغي مترقبًا عويل القذائف.

عندما وصل إلى الأشجار أخيرًا، قعد وأسند ظهره إلى أقربها ساكنًا دون أن يفعل شيئًا لمدة، ولا حتى أن يمسح قطرات المطر التي تجمعت على أرنبة أنفه وأخذت تقطر داخل فمه المفتوح. ثم، وهو يرمش بعينيه، مرَّر كمه المبلول على وجهه.

نهض على قدميه بعد مدة وبدأ يتعثر، على نحو يكاد يكون أعمى، بين الأشجار، وقدماه تعلقان في آجام من السراخس الكبيرة. حف شيءٌ ما بوجنته، فرفع يده يريد أن يهشه. أحست أصابعه بملمس لزج فسحبها بسرعة. استدار ورأى خُلدًا نافقًا، معلَّقًا في الهواء كما يبدو، فروه متيبس بالدماء، ويداه الورديتان الصغيرتان مطويتان فوق صدره.

رفع عينيه، فرأى أن الشجرة التي يقف تحتها محمَّلة بحيوانات نافقة كما لو كانت ثمارًا. غصن كامل يحمل مناجذ[1] في مختلف مراحل التفسخ، وابن مقرض، وابن عرس، وثلاثة عقاعق، وثعلبًا؛ الثعلب متدلٍ على مقربة منه، شفتاه مجعدتان تكشفان عن أنياب دامية.

---

(1) مناجذ: جمع خُلد، وهو جمع من غير لفظ المفرد. (المترجم)

انطلق يركض، لكن الأشجار كانت ضده. راحت فروعها تضرب وجهه، والغُصَينات تخدشه، والجذور تعثِّره. ومرةً سقط منكبًا على وجهه، غير أنه عاود النهوض والركض من فوره، وقد صار معطفه فوضى من الوحل والأوراق الميتة. وإذ خرج إلى الحقل، يخوض بين الأثلام الملأى بالماء، سمع صوت ريڤرز، واضحًا كما كان يسمعه في منامه أحيانًا: *إن ركضتَ الآن، لن تتوقف أبدًا.*

استدار وعاد على عقبيه، رغم يقينه من أن الصوت لم يكن إلا صوتًا في رأسه، وأن ريڤرز الحقيقي ربما كان ليقول: *ابتعِد من هنا*. وقف أمام الشجرة من جديد. ولما كان أكثر هدوءًا هذه المرة، تذكَّر أنه قد سبقت له رؤية أشجار كهذه. الحيوانات ليست مثبتة إلى الشجرة بالمسامير، كما كانت في بعض الأحيان، بل مربوطة من أجنحتها أو قوائمها أو أذنابها. همَّ بتحرير عقعق، وراحت أسنانه تصطك إذ انفسخ أحد جناحَي الطائر بيده. بعد ذلك فك العقعقين الآخرين، فالثعلب، فابن العرس، فابن المقرض، ثم المناجذ.

حين أصبحت جميع الجِيَف على الأرض، رتَّبها في حلقة حول الشجرة وجلس داخلها، مستندًا بظهره إلى الجذع. أحس بخشونة اللحاء على عموده الفقريِّ البارز. أقحم يديه بين ركبتيه وجوَّل بصره على حلقة رفاقه؛ الآن بات بوسعهم أن يتحللوا في التربة كما هو مُقدَّر لهم. شعر برغبة عارمة في الاستلقاء قربهم، لكن ملابسه تشكل حاجزًا يفصله. نهض وبدأ ينزعها. وعندما انتهى، أطرق ينظر إلى نفسه؛ جسده العاري أبيض مثل جذر. صنع من يديه قبةً ستر بها أعضاءه التناسلية، ليس لأنه يشعر بالخجل، بل لأنها بدت نافرة، كأنها لا تنتمي إلى بقية جسده. بعد ذلك طوى ثيابه بأناةٍ ووضعها خارج الحلقة، ثم عاود الجلوس وظهره إلى الشجرة، وراح ينظر عبر شبكة زخارف الأغصان في الأعلى إلى غيومٍ رماديةٍ تتدافع في السماء.

اكفهرت السماء، وزادت برودة الهواء، لكنه لم يكترث. لم يخطر بباله أن يتحرك؛ هذا هو المكان الصحيح، المكان الذي أراد أن يكون فيه.

بحلول آخر الأصيل، بدأ غياب بيرنز يسترعي القلق. لامت الممرضة –التي رأته يخرج مرتديًا معطفه– نفسها على عدم إيقافه، لكن أحدًا غيرها لم يُبدِ

لومًا تجاهها. كان المرضى -باستثناء واحدٍ أو اثنين معروفين بميولهما الانتحارية عالية الخطورة- أحرارًا في المجيء والذهاب كما يحلو لهم. تشاور برايس وريڤرز فيما بينهما عدة مرات خلال النهار، محاولَين أن يقررا متى ينبغي لهما الاستسلام والاتصال بالشرطة.

عاد بيرنز في الساعة السادسة، صعد الدرج دون أن ينتبه إليه أحد، مُخلِفًا الوحل والغصينات والأوراق الميتة في أثره. كان التعب يمنعه من التفكير؛ ساقاه تؤلمانه، يكاد يُغمى عليه من الجوع ومع ذلك يخشى أن يفكر في الطعام.

أمسكته الأخت دافي وهو يهم بفتح باب غرفته، فانهالت عليه توبخه مشقشِقةً مثل الطائر البُني المغبر الصغير الذي تشبهه إلى حد كبير. جعلته يخلع ملابسه في مكانه على الفور، وبدت تقترح أن تجفف له جسده بالمنشفة بنفسها، لكنه رفض ذلك رفضًا قاطعًا. تركته وشأنه، إلا أنها عادت بعد بضع دقائق، محملةً بقنانٍ من الماء الساخن وبطانيات إضافية، وهي لا تزال ميَّالةً إلى التوبيخ. لكنها، حين رأت كم كان متعَبًا، وهو راقد فوق الوسائد، ضبطت أعصابها وقالت بنبرة نذيرة إن الأمر قد بلغ علم د. ريڤرز الذي سيصعد إليه حالما يفرغ مما بين يديه.

أظنني أرحب بذلك، قال بيرنز في قرارته، لكنه لم يستطع تحويل الفكرة إلى كلمات. عقد ذراعيه فوق وجهه، وأخذه النوم على الفور تقريبًا. إنه في الغابة من جديد، خارج الحلقة هذه المرة، لكنه يستطيع أن يرى نفسه داخلها. بشرته بيضاء بلون الشحم أمام اللحاء الخشن المتقشر. ثمة رمحٌ من نور الشمس ينفذ خلال الأوراق، حط على أحد العقاعق، فالتمع ريشه بألوان الياقوت والزمرد والجمشت. ما من سبب للعودة، قال لنفسه، بوسعه أن يبقى هنا إلى الأبد.

حين فتح عينيه، كان ريڤرز جالسًا بجوار السرير. من الواضح أنه هنا منذ مدة؛ كانت نظارته في حضنه، وإحدى يديه تغطي عينيه. الغرفة مظلمة إلى حدٍّ ما. بدا أن ريڤرز أحس ببيرنز يراقبه، إذ إنه رفع عينيه بعد بضع لحظات وابتسم.

- منذ متى أنا نائم؟

- نحو ساعة.

- لقد سببتُ القلق للجميع، أليس كذلك؟

- لا تشغل بالك بهذا. لقد عدت، وهذا هو المهم.

كان بيرنز قد ظل يسأل نفسه طوال طريق العودة إلى المستشفى عن السبب الذي يدفعه كي يرجع. والآن إذ أفاق ليجد ريڤرز جالسًا قرب سريره، غافلًا عن أن ثمة من يلاحظ وجوده، متعَبًا وصابرًا، أدرك أن هذا ما عاد من أجله.

5

بدأ ريڤرز جولته الليلية مبكرًا. كانت الأخت روجرز في غرفتها، تشرب أول فناجين القهوة العديدة التي ستتكفل بإبقائها يقظةً طيلة الليل. «الملازم ثاني پراير»، قالت حالما لمحته.

«أجل، أعلم، وما من شيء أستطيع فعله حيال ذلك». كان پراير مريضًا جديدًا، يعاني كوابيس فظيعة إلى درجة تحرم شريكه في الغرفة من النوم. «هل كلمَ أحدًا أم ليس بعد؟».

«كلا، وإن كلمتَه لم يزِد على التحديق عبرك كأنه لا يراك».

لم يكن من عادة الأخت روجرز أن تُضمر جفاءً تجاه مريض، لكن العداء الذي يشوب صوتها لا تخطئه أذن. «حسنًا»، قال ريڤرز: «فلنلقِ نظرةً عليه».

كان پراير مستلقيًا على سريره، يقرأ. شابٌّ في الثانية والعشرين، نحيل أشقر الشعر، بعظمين وجنيَّين مرتفعين وأنف ممسوح قصير، يكسو وجهَه تعبيرٌ متعالٍ. رفع رأسه لدى دخول ريڤرز، لكنه لم يغلق الكتاب.

«تخبرني الأخت أنك مررتَ بليلة سيئة؟».

أنهض پراير كتفيه بحركة مدروسة. وبزاوية عينه، رأى ريڤرز الأختَ روجرز تزم شفتيها. «ماذا رأيتَ في منامك؟».

مدَّ پراير يده نحو المفكرة وقلم الرصاص اللذين يُبقيهما قرب سريره، وخربش بأحرف كبيرة عريضة: «**لا أتذكر**».

«لا شيء البتة؟».

تردد پراير، ثم كتب: **«لا»**.

«هل يتكلم في أثناء نومه أيتها الأخت؟».

كان ريڤرز ينظر إلى پراير وهو يطرح السؤال، وظن أنه التقط ومضةً من عدم الارتياح.

«لا شيء مما يمكن فهمه».

تجعدت شفتا پراير، لكنه لم يستطع إخفاء الراحة التي شعر بها.

«هلّا أحضرتِ لي ملعقة شاي أيتها الأخت؟»، قال ريڤرز.

في أثناء غيابها عن الغرفة، طفق پراير يتفرس في ريڤرز، فراح الأخير يجول نظره في أنحاء الغرفة محاولًا أن يتلافى تحوُّل اللقاء إلى مواجهة، حتى عادت الأخت روجرز. «شكرًا لكِ. والآن، أريد فقط أن ألقي نظرة على سقف حلقك».

رُفعت المفكرة من جديد: **«لا توجد مشكلة ىدنية»**.

«أسقطتَ نقطةَ الباء في «بدنية» يا سيد پراير، افتح فمك عن آخره».

مرَّر ريڤرز طرف الملعقة، بثباتٍ دون خشونة، على سقف حلق پراير، فغص ودمعت عيناه، ثم حاول أن يدفع يد ريڤرز عنه.

«ما من منطقةِ خَدَر»، قال ريڤرز للأخت روجرز.

رفع پراير المفكرة بحركة عنيفة: **«إن كان معنى هذا أن ما فعلتَه آلمني، فأجل، لقد آلمني!»**.

«لا أظنه *آلمك* حقًّا، أليس كذلك؟»، قال ريڤرز: «لكن ربما كان مزعجًا».

«وكيف لك أن تعرف؟».

أصدرت الأخت روجرز طرقعةً بلسانها.

هلّا سمحتِ بتركنا عشر دقائق أيتها الأخت؟

«أجل، بالطبع يا دكتور»، رمقت پراير بعينيها: «سأكون في غرفتي إن احتجتَ إليَّ».

بعد ذهابها، قال ريڤرز: «لماذا تكتب بأحرف كبيرة عريضة دائمًا؟ لأن ذلك أقل كشفًا؟».

هز پراير رأسه وكتب: «**أوضَح**».

«هذا يعتمد على خطك، أليس كذلك؟ بالنسبة إليَّ، أعلم أنه -إن حدث وفقدتُ صوتي- سيتعين عليَّ أن أكتب بأحرف كبيرة، فلا أحد يستطيع قراءة خطي».

قدم پراير له المفكرة، فكتب ريڤرز وهو يشعر أنه تلميذ يلعب لعبة إكس-أو: «ملفك لم يصل بعد».

«**أفهم قصدك**».

قال ريڤرز: «ملفك لم يصل بعد».

رفعُ الكتفين بحركة مدروسة من جديد.

«حسنًا، أخشى أن الأمر أكثر جديةً من هذا. فإن لم يصل قريبًا، سيترتب علينا أن نحاول جمعَ قصةٍ مَرضيّة... بهذه الطريقة، وهذا لن يكون سهلًا».

«**لماذا؟**».

«لماذا علينا أن نفعل ذلك؟ لأنني أحتاج أن أعرف ما حدث لك».

«**أنا لا أتذكر**».

«صحيح، ربما ليس في الوقت الحاليّ، لكن الذاكرة ستعود شيئًا فشيئًا».

صمتٌ طويل. خربش پراير شيئًا في النهاية، ثم انقلب على جنبه ليواجه الحائط. انحنى ريڤرز والتقط المفكرة، فوجد پراير قد كتب: «**لا مزيد من الكلمات**».

«لا بد أن أقول إن هذا يكاد يجعل دوتيڤيل[1] قابلةً للاحتمال»، قال ساسون وهو يقلّب أنحاء رصيف المحطة بعينيه: «معرفة أنك لست مضطرًا أن يتقيأ عليك أحدهم عند كل وجبة. كنتُ لأتناول الطعام في الخارج كل ليلة لو أنني أستطيع تحمُّل نفقات ذلك».

«سيتعين عليك أن تمضي بعض الوقت في المكان يا ساس». لا جواب. «لديك ريڤرز على الأقل».

«وعلى الأقل، ريڤرز لا يتظاهر أن ثمة خطبًا بأعصابي».

همَّ غريڤز بالرد لكنه ضبط نفسه: «أتمنى لو أستطيع قول الشيء نفسه عن أعصابي».

«ماذا عساي أقول يا روبرت؟ خذ سريري، وعِش *أنت* مع مجموعة من المجانين، وأعود أنا إلى ليڤربول».

«أكره كلامك بهذه الطريقة، كأن كل شخص يعاني انهيارًا يكون أدنى مرتبة. جميعنا مررنا بظرفٍ كنا فيه»، رفع غريڤز إبهامه وسبابته: «على هذه المقربة من الانهيار».

«أعرف كم اقتربتُ أنا»، صمت قصير، هب بعده مردفًا: «ألا ترى يا روبرت؟ هذا ما يجعلني أكره هذا المكان، أنا مرعوب».

«مرعوب؟ *أنت*؟ لا، لستَ مرعوبًا»، التفت مادًّا رأسه ليرى التعبير الذي يعلو وجه ساسون: «هل أنت كذلك؟».

«كلا، كما يتضح».

وقفا صامتَين لدقيقة.

«يحسن بك أن ترجع»، قال غريڤز.

«أجل، أظنك محقًّا. لا أريد أن أجتذب الانتباه»، مد يده: «حسنًا، بلِّغ الجميع تحياتي، إن كانوا ما زالوا يريدونها».

أخذ غريڤز يده وشده إلى عناق مُصارِعين: «لا تكن غبيًا هكذا بحق اللعنة يا سيغفريد، تعرف أنهم يحبونك».

---

(1) Dottyville: تسمية كان ساسون يطلقها على مستشفى كريغلوكهارت، وتعني «مدينة المضطربين». (المترجم)

واقفًا وحده يرتجف على الرصيف، فكر ساسون أن يأخذ سيارة أجرة لكنه امتنع. المشي سيكون جيدًا له، وإن أسرع يستطيع أن يصل في الموعد على الأرجح. شق طريقه بحذر بين الجموع في شارع برينسِز ستريت. الآن إذ غادر روبرت، بات يكره الجميع؛ الفتيات المتكركرات، الرجال ضخام الجثث في منتصف العمر، النساء اللاتي تحط أعينهن كالذباب على شريط الإصابة[1] خاصته. لم ينجُ من اشمئزازه سوى الجند الشبان العائدين في إجازة، يترنحون خارجين من حانة، الدوار آخذٌ بهم وأعينهم خاوية.

حالما ترك المدينة خلف ظهره، بدأ يسترخي ويتحرك على سجيته كما ربما كان ليفعل في فرنسا. تذكَّر الزحف إلى أراس خلف عربة مدفع يصب فانوسُها المتمايل ظلالًا ضخمة لسيقان تتقدم بخطوات واسعة على جدار مطليٍّ بالأبيض. ثم... لا مزيد من الجدران؛ مبانٍ مدمرة، طرق مقصوفة. «من نور الشمس إلى الأرض التي بلا شمس»[2]. وللحظة، رأى نفسه هناك من جديد؛ هرمجدون، الجُلجُثة.. الكلمات تقف عاجزة، مكان مقفر مدمر إلى حد يستحيل معه أن تكون مخيلةٌ ما هي التي اخترعته. فكر في ريڤرز، وما قاله ذلك الصباح عن عدم القدرة على احتمال الأمان. حسنًا، ريڤرز مخطئ، فالناس أكثر قابلية للفساد من هذا. هو، عن نفسه، أكثر قابلية للفساد من هذا. لقد تكفلت بضعة أيام -لا غير- من الأمان بطرد أشباح الخنادق الواضحة كلها، ما زال -بعد كل هذه الأسابيع- يجد بهجةً خالصة في الخلود إلى سريرٍ مكسو بملاءات بيضاء وهو يعلم أنه سيستيقظ. كانت للطريق رائحة القار الساخن، العث يرف بين الأشجار، وحين توقف أخيرًا -لدى انعطافه على طريق الدخول إلى كريغلوكهارت- وألقى برأسه إلى الخلف، تناثرت النجوم على وجهه المقلوب مثل الرذاذ.

---

(1) شريط الإصابة: شارة تُمنح للجنود الذين أصيبوا في أثناء القتال، كانت -لدى الجيش البريطانيِّ خلال الحرب العالمية الأولى- عبارة عن شريط من النحاس الأصفر يُغرَز في القماش عموديًّا على الساعد الأيسر في موضع بين شارات حسن السلوك. (المترجم)

(2) العبارة للشاعر الإنجليزي ويليام ووردزوورث (1770-1850)، مع استبدال إحدى الكلمات بمرادف لها دون تغييرٍ في المعنى من المصدر. (المترجم)

لقد بات الحمَّام الليليُّ أساسيًّا لدى ريڤرز، طقسًا يفرّق بين وقت فراغه الشحيح وبين متطلبات المستشفى. همَّ بنزع سترته وهو يعبر غرفة النوم. عاريًا، جلس على حافة الحوض، ينتظر امتلاءه. كان صنبور الماء الساخن يلمع، فيما تغبش صنبور الماء البارد وأخذت قطرات البخار المتكثف تتجمع عليه كالندى. بذهنٍ شارد، راح يلعب بالقطرات، فيجعلها تجري سويةً لتشكل قطرات أكبر. كان يفكر في پراير، والتأثير الذي يسببه في شريكه في الغرفة، روبنسون، ويتساءل إذا ما كان أسوأ من تأثير أندرسون في فذرستون. على أي حال، ما من غرف فردية متوفرة. أحد الحلول التي يمكن طرحها لمشكلة پراير هو نقل روبنسون إلى غرفة يتشاركها مريضان في الوقت الحاليِّ، لكن إن أريد لهذا الازدحام أن يكون قابلًا للاحتمال، سيتحتم انتقاء المرضى بحذر شديد. وهكذا، ظل يقلّب توليفات المرضى الممكنة في أثناء استحمامه.

بجوار سريره، العدد الأخير من مجلة *مان* ما يزال مغلقًا، لم يتسنَ له الوقت بعد حتى كي يتصفحه. وفجأةً، شعر بحنقٍ تجاه المستشفى وپراير وازدحام الغرف والتبديلات الضرورية التي لا تنتهي بين مجموعات النزلاء بسبب الكوابيس والسرنمة وحاجة بعض المرضى إلى نواصات وآخرين إلى ظلمة تامة.

وإذ أخذ سخطُه يتلمس طريقَه باحثًا عن هدف، استقر على ساسون. لم يتوانَ ساسون عن كشف اعتقاده أن أي شخص يدعم استمرار الحرب لا بد أن يكون محثوثًا بدوافع أنانية، ومع ذلك لو أن ريڤرز سمح لمثل هذه الدوافع أن تطغى، لأراد للحرب أن تنتهي الليلة. اتركوا الجيل القادم يتعامل مع المشكلات غير المحلولة لسياسة الألمان العسكرية، أعيدوني إلى كامبريدج *والبحوث* وحسب. قلَّب في صفحات المجلة، لكن التعب منعه من التركيز، وبعد بضع دقائق أطفأ الضوء.

استيقظ قبل الفجر بوقتٍ قصير. وضع يده على ذراعه اليسرى، وهو لا يزال سدِرًا من النوم، متوقعًا أن يحس بملمس الدم. أنبأه قماش كُم منامته الجاف أنه كان يحلم. أضاء المصباح وظل مستلقيًا لبعض الوقت، يستجمع شذرات تفاصيل حلمه، ثم التقط مفكرةً وقلم رصاص عن الكوميدينا وشرع في الكتابة.

كنتُ في غرفتي في سانت جون، جالسًا إلى الطاولة أمام خزانة الكتب. كان هيد بجانبي، كُمه الأيسر مُشمَّر، وعيناه مغمضتان. كان الكم مُشمَّرًا إلى فوق مرفقه بمسافة، كاشفًا عن كامل طول الشق. كانت الندبة أرجوانية. على غطاء الطاولة أدوات متنوعة: أباريق ماء، نُتَفٌ من القطن، فُرَش شعر، براجل، مكعبات ثلج، دبابيس.

كانت مهمتي أن أعين موضع فرط الحساسية تجاه الألم على ساعد هيد. جلس مغمضًا عينيه ومشيحًا برأسه قليلًا. كلما وخزتُه صاح وحاول أن يسحب ذراعه. ضايقني هذا ولم أرغب في المتابعة، لكنني كنتُ أعلم أن عليَّ ذلك. ظل هيد يصيح.

تغير الحلم وصرتُ أرسم خريطةً لمنطقة الحس البدئي على جلده مباشرةً. كان القلم يسبب نفس الدرجة التي سببتها الإبرة من الألم. فتح هيد عينيه وقال شيئًا لم ألتقطه. بدا مثل: «لمَ لا تجرب هذا بنفسك؟». كان يحمل شيئًا بيده ويمدها نحوي. نظرت كي أرى ما هو، فوجدتُ ذراعي اليسرى عارية، رغم أنني لا أتذكر أني شمرتُ كمي. الشيء الذي في يد هيد كان مِبضعًا. هممتُ أطلب منه أن يكرر ما قاله، لكن قبل أن أتوصل إلى لفظ الكلمات، كان قد انحنى إلى الأمام ونزل بالمبضع على ذراعي، في منطقة المرفق. كان الشق، رغم امتداده على نحو ستة إنشات، دقيقًا إلى درجة أن الدم لم ينبجس أول الأمر. بعد ثانية، بدأت قطيراتٌ من الدم تظهر، وعندئذٍ استيقظت.

بدأ ريڤرز يُحلل الحلم. لم يستغرق المضمون الظاهر وقتًا طويلًا، فباستثناء شق ذراعه، كان الحلم إعادة إنتاجٍ دقيقة على نحو غير معتاد لأحداثٍ وقعت بالفعل. لقد كان هنري هيد يعمل منذ مدة على موضوع تجدُّد الأعصاب عقب الإصابات الحادثية، مستخدمًا مرضى من الأجنحة العمومية لمستشفيات لندن عيناتٍ لدراسته، قبل أن يخلص إلى نتيجة أنه إذا كان يطمح إلى تحقيق المزيد من التقدم، سيستوجب ذلك إجراء اختبارات تخضع ظروفُها لضبطٍ أكثر صرامة. أشار ريڤرز إلى أن هذا النوع من الاختبارات يُحتِّم إجراءه على شخص يكون هو نفسه مراقِبًا مدرَبًا، بسبب حاجته إلى درجة عالية للغاية من الوعي النقديّ في سبيل استبعاد المفاهيم المسبقة. تطوَّع هيد لتنفيذ التجربة المقترحة عليه هو نفسه، وقدَّم ريڤرز مساعدةً في الجراحة التي جرى فيها قطع العصب الكعبريِّ لدى هيد وخياطته، ثم وضعا معًا على امتداد خمس سنوات مخططًا بيانيًا لسيرورة عملية التجدد.

خلال المرحلة المبكرة من الشفاء، حين استُعيد الحس البدئي العام دونًا عن الحس المُميِّز دقيقِ التعيين، كان العديد من التجارب مؤلمًا إلى حدٍّ بالغ. بدا أن الحس البدئي يتصف بنزعة «الكل أو لا شيء». كانت العتبة الحسية مرتفعة، لكن حالما تُتجاوز تكون الأحاسيس واسعة الانتشار على نحو شاذ، وفي الآن نفسه -وفقًا لتعبير هيد الحرفيِّ- «متطرفة». في بعض الأحيان، كانت وخزة دبوس كفيلةً بإحداث ألم شديد مديد. وكثيرًا ما شعر ريڤرز بالضيق تجاه مقدار الألم الذي يسببه، لكن ما كان ليخطر له في حياته أن يوقِف التجربة لهذا السبب، شأنه في ذلك شأن هيد. غير أن الرغبة في إيقاف التجربة كانت طاغيةً في الحلم.

أما المضمون الكامن، فقد كان أكثر صعوبة. في ظاهره السطحيِّ، بدا الحلم يؤيد رأي فرويد القائل بأن جميع الأحلام هي تحقيق للرغبات. لقد أضمر ريڤرز نفسه رغبةً معينةً حين كان في كامبريدج يُجري البحوث، فحقق الحلم تلك الرغبة. لكن ذلك يتجاهل حقيقة أن الحلم لم يكن سارًا. كان التوكيد في الحلم متركزًا على الضيق الذي شعر به إزاء التسبب في الألم، وتجلى أثر ذلك لدى استيقاظه في شعورٍ بالخوف والرهبة. لم يعتقد أن حلمًا كهذا يمكن تفسيره على نحوٍ مقنع بأنه تحقيق رغبات، إلا إذا كان يرغب في تعذيب واحدٍ

من أقرب أصدقائه بالطبع. لا شك أن بعض مؤيدي فرويد الأكثر عقائديةً سيجدون صعوبةً أقل مع تلك الفكرة، لا سيما أن التعذيب أخذ شكل الوخز، لكن ريڤرز لم يستطع تقبُّل هذا. كان ميالًا أكثر إلى التماس معنى الحلم من الصراع الذي اختبرته ذاتُه داخل الحلم بين واجبٍ يُملي عليها متابعة التجربة ونفورٍ من تسبيب المزيد من الألم.

ريڤرز يعي -في الخلفية المتواصلة لعمله- وجودَ صراع بين اعتقاده بوجوب خوض الحرب حتى النهاية، من أجل مصلحة الأجيال التالية، وبين استفظاعه السماحَ باستمرار أحداثٍ من مثل ما أدى إلى انهيار بيرنز. لا شك أن من شأن هذا الصراع، رغم كونه من الملامح الثابتة لحياته، أن يترسخ بفعل محادثاته مع ساسون. وهو كان يفكر في ساسون قبل خلوده إلى النوم تمامًا. لكن ريڤرز، إذ تدبر في الأمر مليًا، لم يستطع أن يرى الحلم تمثيلًا دراميًا محتملًا لذلك الصراع. فمن الصعب اعتبار الحرب تجربة يُجريها، كما أن قرار استمرارها من عدمه لا يعود إليه هو بكل تأكيد.

مؤخرًا، باتت جميع أحلامه تقريبًا تتمحور حول صراعات ناتجة عن معالجته لبعض المرضى بعينهم. ومن خلال حثهم على تذكُّر الأحداث الصادمة التي قادت نحو إرسالهم إلى هنا، كان في الحقيقة يكبدهم ألمًا، بل ويفعل ذلك في سياق خطةٍ علاجيةٍ يعلم أنها لم تزل بمقدار كبير قيد التجريب. فقط في حالة بيرنز لم يجد الاستمرار بتقديم هذه النصيحة أمرًا واردًا، لأن المعاناة التي تتضمنها محاولات بيرنز للتذكر متطرفة للغاية. «متطرفة».. الكلمة التي استخدمها هيد ليصف الألم الذي اختبره خلال مرحلة الحس البدئي من التجدد. لا شك أنه، في حالة بيرنز، ثمة صراع واضح بين رغبة ريڤرز في متابعة استخدام منهج علاجيٍّ يؤمن به، لكنه يعلم أنه تجريبيٌّ، وبين إدراكه أن الألم الذي ينطوي عليه الإصرارُ على المنهج في هذه الحالة بعينها سيكون بالغ الشدة.

الحلم لم يكتفِ بطرح مشكلة، بل اقترح حلًا. لقد قال هنري: «لمَ لا تجرب هذا بنفسك؟». شعر ريڤرز أنه هو الذي سبق إلى ذلك، وأن الحلم متخلف عن ممارسته لعمله في أثناء اليقظة: كان قد بدأ يجرب على نفسه بالفعل. فمن خلال سَوقه مرضاه إلى فهم أن الانهيار ليس شيئًا يستوجِب الشعور

بالخزي، أن الرعب والخوف استجابتان حتميتان لصدمة الحرب والإقرار بهما أفضل من كبتهما، أن مشاعر الحنو تجاه الرجال الآخرين طبيعية وسليمة، أن الدموع جزء مقبول ومفيد من الحزن، كان يضع نفسه في مواجهة كامل فحوى التربية التي نشؤوا عليها. لقد لُقنوا أن ينظروا إلى كبح العواطف على أنه جوهر الرجولة، فالرجال الذين ينهارون أو يبكون أو يعترفون بالشعور بالخوف مخنثون ضعفاء فاشلون.. ليسوا رجالًا.. ومع ذلك فهو نفسه كان منتوجًا للمنظومة ذاتها، بل ربما منتوجًا متطرفًا بالأحرى. من المؤكد أن الكبت الصارم للعاطفة والرغبة كان الثيمة الثابتة لحياته الراشدة. ومن خلال حثه مرضاه الشبان على الإقلاع عن محاولة الكبت، والسماح لأنفسهم أن يشعروا بالشفقة والرعب اللذين لا بد استدعتهما تجربتهم الحربية، كان ينبش الأرض التي يقف عليها.

لم يكن التغيير الذي يطالبهم به -ويطالب نفسَه به ضمنًا- تغييرًا هامشيًّا، فالخوف والحنو وتلك العواطف كانت محتقَرةً إلى درجة ألا يمكن إفساح مجالٍ لها في الوعي دون إعادة تعريف معنى أن يكون المرء رجلًا. ليس الأمر أن منهج ريفرز العلاجيَّ ينطوي على أي نوع من تشجيع الضعف أو التخنث، إذ ربما كان مرضاه يتلقون تشجيعًا على الإقرار بمخاوفهم ورعبهم من الحرب، لكن يظل منتظَرًا منهم أن يؤدوا واجبهم ويعودوا إلى فرنسا. كان ريفرز على قناعة أن الذين تعلموا أن يعرفوا أنفسهم ويتقبلوا عواطفهم يصبحون أقل عرضةً للانتكاس والانهيار من جديد.

بين لحظة وأخرى سينقر أحد المساعدين على الباب ويحضر له شايه. أعاد الدفتر وقلم الرصاص إلى الكوميدينا. فكر أن هنري كان ليجد ذلك الحلم مسليًا؛ إن كان لتحقيق الرغبات أي علاقة بالأمر، فتلك التي تحققت هي إحدى رغبات هنري دون شك. خلال فترة انكبابهما على تجارب تجدُّد الأعصاب، كانا قد أجريا سلسلة من التجارب ضمن ظروف مضبوطة على الحشفة، وعبَّر هنري بشكل متكرر عن رغبته في تطبيقٍ متبادل لمكعبات الثلج والفُرش والماء القريب من الغليان والدبابيس.

6

جلس پراير عاقدًا ذراعيه فوق صدره ومُعرِضًا برأسه قليلًا، كانت أجفانه تبدو مقرَّحة من عدم النّوم.

«متى عاد صوتك؟»، سأله ريڤرز.

«في قلب الليل. استيقظت صارخًا فأدركتُ فجأةً أنني قادر على الكلام، لقد حدث هذا من قبل».

لكنة شمالية، ليست ملحونة، لكن حروفها الصوتية مسطحة على نحوٍ مميز، وفيها مقدار ضئيل من أصوات الصفير. كان لسماع صوت پراير للمرة الأولى أثر غريب جعله يبدو بمظهر مختلف. أكثر نحولًا، أكثر دفاعية، وفي الوقت نفسه أشد صلابة بكثير. قِط أزقة صغير ذو عظام ناتئة يبخ في وجهك.

- يجيء ويختفي؟

- أجل.

- ما الذي يجعله يختفي؟

رفع كتفيه بحركة أخرى من ذخيرته المسرحية: «حين أشعر بالاستياء».

- وهل أشعرك المجيء إلى هنا بالاستياء؟

- كنتُ لأفضِّل مكانًا أبعد باتجاه الجنوب.

وأنا كذلك. «ماذا كنت تعمل قبل الحرب؟».

- موظفًا في مكتب شحن.

- وهل كان ذلك يروق لك؟

«كلا، فقد كان مملًّا»، أطرق ينظر إلى يديه ثم رفع رأسه من جديد على الفور: «وأنت، ماذا كنت تعمل؟».

تردد ريڤرز: «في البحوث، والتعليم».

«وهل كان ذلك يروق *لك*؟».

«أجل، كثيرًا. ربما البحوث أكثر من التعليم، لكن...»، رفع كتفيه: «أنا أستمتع بالتعليم».

- لاحظتُ ذلك، «أسقطتَ نقطةَ الباء في «بدنية» يا سيد پراير».

- يا له من تعليق لا يُطاق.

- وأنا هكذا رأيته.

- أعتذر.

لم يعرف پراير كيف يرد على ذلك، فنظر إلى يديه وغمغم: «أجل، حسنًا».

«بالمناسبة، لقد وصل ملفك هذا الصباح».

ابتسم پراير: «إذًا فأنت تعرف كل شيء عني؟».

«أوه، ما كنت لأدعي *ذلك*. لكن الأمر الذي بات واضحًا بالفعل هو أنك أمضيت فترةً في محطة علاج المصابين رقم 13 خلال شهر...»، نظر إلى الملف من جديد: «يناير، وشُخِصت إصابتك بالوهن العصبيّ».

تردد پراير: «أجل...».

- منعكسات عميقة شاذة.

- أجل.

- لكن لا مشكلات في ما يخص الصوت آنذاك؟ وبعد أربعة عشر يومًا عاودتَ الالتحاق، متعافيًا بالكامل؟

- كففتُ عن رقص الكان-كان، إن كان هذا ما تقصده.

- هل استمر لديك أيٌّ من الأعراض؟

«نوبات الصداع»، شاهد ريڤرز يدوِّن ملاحظة، «يصعب اعتبار ذلك سببًا يبرر الابتعاد عن الخنادق، صحيح؟ *«ليس الليلة يا ڤيلهلم، فأنا أعاني صداعًا»*؟».

«هذا ممكن، فالأمر يعتمد بالأحرى على مدى سوء النوبات». انتظر جوابًا، لكن پراير ظل على صمته بعناد. «عدتَ إلى المحطة 13 في أبريل، غيرَ قادر على النطق هذه المرة».

- قلتُ لك، أنا لا أتذكر.
- إذًا ففقدان الذاكرة ينطبق على القسم اللاحق من فترة خدمتك في فرنسا، لكن القسم المبكر -الأشهر الستة الأولى تقريبًا- واضح نسبيًّا؟
- أجل..

أرجع ريڤرز ظهره فوق كرسيه: «أتود أن تقول لي شيئًا عن ذلك القسم المبكر؟».

- لا.
- لكنك تتذكره فعلًا؟

«هذا لا يعني أنني أرغب في الحديث عنه»، راح ينظر في أنحاء الغرفة: «لا أفهم لما يجب أن يكون الأمر هكذا على كل حال».

- كيف؟
- أن تقتصر على طرح الأسئلة، وأقتصر أنا على إجابتها. لمَ لا نستطيع الأخذ والعطاء؟
- انظر يا سيد پراير، إن ذهبت إلى الطبيب تشكو من التهاب القصبات فأمضى نصف مدة الاستشارة يحدثك عن آلام أسفل ظهره، لن تكون مسرورًا، أليس كذلك؟
- كلا، لكنني إن ذهبتُ إلى طبيبي *يائسًا* فقد أستمد عونًا من معرفتي أنه على الأقل يفهم معنى الكلمة.
- وهل أنت يائس؟

تنهد پراير، بنفاد صبر متكلف.

- كما تعلم، أنا أتحدث إلى كثير ممن يعانون اليأس بالفعل أو يقفون على مقربةٍ شديدة منه، وهم حسب خبرتي لا يكترثون بما يشعر به الطبيب. هذه هي كل الفكرة من اليأس، أليس كذلك؟ أنك لا تعود تفكر إلا في نفسك.

- حسنًا، كل ما أستطيع قوله هو أني أفضل الحديث إلى شخص حقيقيٍّ عوضًا عن شريط ورق جدران شديد التفهم.

ابتسم ريفرز: «هذا يعجبني».

أخذ پراير يحملق فيه.

- إن كنت تشعر أنك لا تستطيع التحدث عن فرنسا، أيساعدك أن تتحدث عن الكوابيس؟

- لا، لا أظن أن الحديث يساعد، فهو لا يزيد على خضخضة الأمور وجعلها تبدو حقيقيةً أكثر.

- لكن الأمور حقيقية.

صمتٌ قصير. أغلق ريفرز ملف پراير. «حسنًا، صباحٌ سعيد».

نظر پراير إلى الساعة: «لم تزل العاشرة والثلث».

بسط ريفرز يديه.

- لا يمكنك أن ترفض التحدث إليَّ.

- پراير، ثمة مئة وثمانية وستون مريضًا في هذا المستشفى، جميعهم يريدون أن يتحسنوا، ولا أحد منهم ينال العناية بالمقدار الذي يستحقه. صباح سعيد.

همَّ پراير بالنهوض، ثم قعد من جديد: «ليس من حقك أن تقول إنني لا أريد أن أتحسن».

- لم أقل ذلك.

- لمَّحتَ إليه.

- حسنًا، وهل تريد أن تتحسن؟

- بالطبع.

- لكنك لست مستعدًا للتعاون مع خطة العلاج.

- أنا لا أتفق مع خطة العلاج.

نفسٌ عميق. «ما هي الطرق العلاجية التي تفضلها؟».

- د. ساندرسون كان سوف يجرب التنويم المغناطيسيَّ.

- لم يذكر هذا في تقريره.

- كان سيجربه، هو أخبرني.

- وكيف شعرت حيال ذلك؟

- رأيت أنها فكرة جيدة. أعني أنك *أنت* تقول بشكل أو بآخر: «الأمور حقيقية، وعليك أن تواجهها»، لكن كيف *أستطيع* أن أواجهها وأنا لا أعرف ماذا عساها تكون؟

- إنها لردة فعلٍ غير معتادة في الواقع، أتعلم؟ بشكل عام، حين يقترح الطبيب التنويم المغناطيسيَّ، يتوتر المريض بدرجة كبيرة، لأنه يشعر أنه بذلك... سيضع نفسه تحت سلطة شخص آخر. وهذا ليس صحيحًا تمامًا في الحقيقة، لكن الأمر يميل فعلًا إلى تحريض الخوف.

- إن لم يكن ذلك صحيحًا، فلمَ لا تستخدمه؟

- أنا أستخدمه أحيانًا، في حالات منتقاة، ويكون آخر حل ألجأ إليه. أما في حالتك، فأود أن أعرف الكثير نوعًا ما حول القسم الذي تتذكره بالفعل من خدمتك في الحرب.

- لا بأس، ما الذي تريد أن تعرفه؟

رمَش ريڤرز بعينيه، متفاجئًا من الإذعان السريع: «حسنًا، أي شيء تريد أن تقوله لي».

صمت.

«لعلك تبدأ من اليوم الذي سبق دخولك إلى محطة المصابين للمرة الأولى. هل تتذكر ما كنت تفعله ذلك اليوم؟».

ابتسم پراير: «كنت أقف والماء يبلغ خصري في مخبأ خندقيٍّ وسط المنطقة المحرمة وأتعرض لقصف يكاد يفتح مؤخرتي».

- لماذا؟

- سؤال وجيه، يجدر بك أن تترك عملك هذا وتنضم إلى الأركان العامة.

- إن لم يكن ثمة سبب، فلا بد أنه كان هنالك على الأقل أساسٌ منطقيٌّ.

«كان هنالك بالفعل»، اتخذ پراير نسخةً مخنوقةً من لكنة المدرسة العامة[1]: «أنَفةُ الجيش البريطانيِّ توجِب الإبقاء على سيادةٍ مطلقة في المنطقة المحرمة طوال الوقت»، كفَّ عن تقليد اللكنة: «وهذا يعني عمليًا... مخبأً خندقيًّا وسط المنطقة المحرمة، صحيح؟ كل ثمانٍ وأربعين ساعة تزحف فصيلتان -في الليل طبعًا- فتحلان محل الأوغاد المساكين في الداخل، وتزودان الألمان بثمانٍ وأربعين ساعة أخرى من التدريب على الرماية. لا أفهم لماذا يُعتقَد أنهم بحاجة إلى كل ذلك التدريب على الرماية، فهم يتحلون -كما يبدو- بما يكفي من الدقة أساسًا»، تغير التعبير الذي يعلو وجهه: «الماء يملأ المكان. تمضي وقتك بأكمله واقفًا، والظلام دامس معظم الوقت لأن التيار الذي تحركه الانفجارات لا يكف عن إطفاء الشموع. كنا متراصّين بعضنا على بعض إلى درجة تمنعنا من الحركة، وهم لا يدخرون جهدًا للنيل منا، قذيفةً تلو أخرى. فقدتُ اثنين من الحرس، ضربة مباشرة إلى العتبات، لم نعثر على شيء بعدها».

- وهل ظللتَ على ذلك طوال ثمانٍ وأربعين ساعة؟

- بل خمسين، لم يكن ضابط المناوبة التالية في عجلة من أمره.

- وحين خرجتَ ذهبتَ مباشرةً إلى محطة المصابين؟

- لم أذهب، بل حُمِلت إلى هناك.

نُقِر على الباب، فصاح ريڤرز بغضب: «لدي مريض».

ساد سكوتٌ قصير ريثما أصغيا إلى وقْع أقدام يخبو في الدهليز، ثم قال پراير: «لقد قابلتُ ضابط المناوبة التالية».

- في محطة المصابين؟

---

(1) لكنة المدرسة العامة: اللكنة التي تميز أكابر بريطانيا الذين ارتادوا نخبة مدارسها، والمصطلح دارج ومعبِّر بذاته. (المترجم)

- لا، بل هنا. مر بي وهو يعبر الدهليز العلويّ. الوغد المسكين ترك خلفه أسلحةَ لويس[1] التي كانت في عُهدته، من حُسن طالِعه أنه لم يخضع لمحاكمة عسكرية.

- هل تحدثتما؟

- أومأ واحدنا للآخر. انظر، ربما يروق لك التفكير أنهم عائلة كبيرة سعيدة هناك، لكن الأمر ليس هكذا، فهم يحتقرون بعضهم.

- تعني أنك تحتقر نفسك.

وجّه پراير نظرته الحادة إلى ريڤرز: «إنها الساعة الحادية عشرة».

- حسنًا، سأراك غدًا.

- كنت أفكر في النزول إلى إدنبرة غدًا.

رفع ريڤرز رأسه: «في *التاسعة*».

- أستطيع أن أخمِّن ما قاله غريڤز. لقد تحدث عن أنني كنتُ رجلًا مستقيمًا ممتازًا قبل أن أقع في أيدي دعاة السلمية، أليس هذا صحيحًا؟ وأن راسل استغلني، وأنه هو من كتب خطاب التصريح.

- كلا، لم يقل هذا.

- جيد، لأنه ليس صحيحًا.

- لا تظن أنك كنت متأثرًا براسل؟

- لا، ليس على وجه الخصوص. أظن أنني كنتُ متأثرًا بتجربتي الخاصة على الجبهة، أنا قادر على تكوين آرائي بنفسي.

- أكانت تلك أول مرة تتعرف فيها إلى الفكر السِّلميّ؟

- لا. بل تعرفت إليه لدى إدوارد كارپنتر، قبل الحرب.

- كنت تقرأ له؟

(1) سلاح لويس: مدفع رشاش خفيف صُنِع خلال الحرب العالمية الأولى بتصميم أمريكي تبنَّته المملكة المتحدة، واستخدمته على نطاق واسع. (المترجم)

«أقرأ له، وأكتب إليه»، ابتسم ابتسامة طفيفة: «حتى إنني ذهبتُ في رحلة الحج الكبرى إلى تشسترفيلد».

«لا بد أنك كنت معجبًا به حتى فعلت ذلك».

تردد ساسون: «أجل، أنا...».

بمراقبته له، لاحظ ريڤرز أنه قد قاد ساسون دون سابق نية نحو منطقة حميمية إلى حدٍّ ما. كان يبحث عن طريقة لإعادة توجيه المحادثة عندما قال ساسون: «قرأتُ أحد كتبه، *الجنس الوسيط*. لا أدري إن كنت تعرفه؟».

- أجل، كان لدي مرضى أقسموا إن حياتهم تغيرت بالكامل بسببه.

- وحياتي كذلك. على الأقل لستُ متأكدًا من أنها «تغيرت». «أُنقِذت»، ربما.

- إلى هذه الدرجة من السوء؟

- في إحدى المراحل، أجل. كنتُ قد أدخلتُ نفسي في حالة لا يُستهان بها.

انتظر ريڤرز.

«لم أبدُ قادرًا على الشعور بـ... حسنًا، بأي من الأشياء التي يُفترض بالمرء أن يشعر بها. وبلغ الأمر من السوء أنني كنت أمشي طوال الليل أحيانًا؛ أنتظر حتى يخلد الجميع إلى أسِرتهم، ثم... أخرج وأمشي ببساطة. الكتاب أنقذ حياتي، إذ فهمت فجأةً أنني... لم أكن مجرد مسخ غريب الأطوار، وأن ثمة جانبًا إيجابيًّا. هل قرأتَه؟».

شابك ريڤرز يديه خلف رأسه: «أجل، منذ وقت طويل».

- وما كان رأيك؟

- وجدته صعبًا إلى درجة كبيرة. لا مفر من الاعتراف بشجاعة الرجل كما هو واضح، وبالطريقة التي... افتتح بها المناظرة والجدل، لكنني لا أدري إذا ما كان مفهوم جنسٍ وسيط مفيدًا كما يظنه الناس حين يصادفونه للمرة الأولى. ففي النهاية، لا أحد يود أن يكون *محايدًا*. على كل حال، الفكرة أن سِلمية كارپنتر لم تحقق تأثيرًا يُعتد به كما يبدو؟

- لا أدري إن كنتُ واعيًا لها أصلًا، لم أكن أفكر في السياسة كثيرًا. لقائي التالي مع الفكر السلميِّ كان عن طريق روبرت روس. قابلته قبل، أوه، عامين كما أفترض، وهو مُعارض تمامًا للحرب.

- وهذا أيضًا لم يؤثر فيك؟

«كلا. من الواضح أنه جعل الأمور أسهل على المستوى *الشخصيِّ*. أقصد، بصراحة، أي رجل في منتصف العمر «يؤمن بالحرب» سوف...»، كبح ساسون نفسه: «باستثناء الحاضرين».

انحنى ريفرز شاكرًا.

- لم أكلف نفسي حتى عبء أن أُريه خطاب التصريح، كنت أعرف أنه لن يؤيده.

- ولمَ لا يفعل؟ بدافعٍ من تخوفه عليك؟

- أجل.. أجل، هذا بالتأكيد، لكن... روس كان من الأصدقاء المقربين لوايلد، أظن أنه تعلم أن يُبقي رأسه تحت المتراس ويتجنب إثارة الجدل.

- وأنت لم تتعلم ذلك.

- أنا لا أحب دفن رأسي في التراب.

أخذ ريفرز يُلمِّع نظارته بمنديله: «أتعلم؟ أدرك أن احتراس روس يبدو مفرطًا على الأرجح، بالنسبة إليك، لكنني آمل ألا تتسرع كثيرًا في نبذه. لا شيء أكثر خسةً من استخدام الحياة الشخصية لأحدهم من أجل تسفيه آرائه، لكن هذا يحدث كثيرًا، حتى من قِبل أشخاص في مهنتي، أشخاص قد تستبعد أن يلجؤوا إلى تكتيكات كهذه. لن يروقني أن أرى هذا يحدث لك».

«ظننتُ أن تسفيه آرائي هو ما تحاول أن تفعله؟».

ابتسم ريفرز ابتسامةً ملتوية: «لنكتفِ بقول إنني صعب الإرضاء في ما يخص الطرائق».

فرَّغ ريفرز ساعتين من المواعيد في نهاية الأصيل كي يبدأ العمل على التقارير المتراكمة، وكان يعمل منذ نصف ساعة حين نقرت الآنسة كرو على الباب. «السيد پراير يسأل إن كان يستطيع التحدث إليك قليلًا».

تغيَّر التعبير على وجـه ريڤـرز: «سـبق ورأيتـه مرةً اليـوم، هل قال ما المشكلة؟».

- كلا، إنه الأب.

- لم أكن أعرف أنه قادم.

همَّت بإغلاق الباب: «سأخبره أنك مشغول إذًا؟».

«كلا، كلا، سأراه».

دخل السيد پراير. كان رجلًا ضخم الجثة عريضها متورد الإهاب، بشعر داكن مُملَّس إلى الخلف وشارب بُنيٍّ محمر غزير منسدل. قال له: «أعتذر عن دخولي عليك فجأةً هكذا، ظننتُ أن بيلي أعلمك بقدومي».

«أعتقد أنه ربما أتى على ذكر ذلك. وإن كان فعل، أخشى أن الملاحظة فاتتني».

نظر السيد پراير إليه بدهاء من أعلى إلى أسفل: «لا، الملاحظة لم تفُتك أنت».

- حسنًا، تفضَّل بالجلوس. كيف وجدته؟

- يصعب الجزم بحال المرء حين لا يتكلم، أليس كذلك؟

- ألا يتكلم؟ كان يفعل هذا الصباح.

- حسنًا، الآن لا يتكلم.

- النطق يأتيه ويغادره بالفعل.

- أوه، أنا واثق. يأتيه عندما يلائمه ذلك ويغادره عندما لا يفعل. ماذا يُفترض بالمشكلة أن تكون؟

«لا توجد مشكلة بدنية»، مع تثبيت نقطة *الباء*، قال ريڤرز لنفسه. «أظن أن ربما هنالك ما يخشى الحديث عنه، لذا يحل المشكلة بجعل النطق أمرًا مستحيلًا. وهذا... يحدث تحت السطح، هو لا يعرف ما الذي يفعله».

«إن كان لا يعرف، فهي المرة الأولى».

جرب ريڤرز مسارًا مختلفًا: «أعتقد أنه تطوع، أليس كذلك؟ في الأسبوع الأول من الحرب».

- صحيح، مخالفًا مشورتي. ليس أن هذا كان أمرًا يُعتد به يومًا.
- لم تُرِد له أن يذهب؟
- لا، لم أفعل. قلت له، سيتسنى لك الوقت الكافي كي تفعل شيئًا من أجل الإمبراطورية حين تكون الإمبراطورية فعلت شيئًا من أجلك.
- من الطبيعيِّ للشبان أن ينزعوا إلى المثالية.
- لا علاقة للمثاليات بالأمر[1]، كان يتوق إلى التملص من عمله.
- أظنني أتذكر قوله إن عمله لم يكن يروق له، كان موظفًا في مكتب شحن.
- هذا صحيح، ودون أفق يلوح أمامه. تهرِّئ مقعدةَ سروالك طوال عشرين عامًا، ثم إن كنتَ فتىً صالحًا تلحس لهم جميع الأماكن الصحيحة، يتسنى لك أن تصبح مشرفًا فتجلس عندئذٍ على كرسي أكبر وتراقب أناسًا آخرين يهرِّئون سراويلهم. لم يكن ذلك يناسب ولدَنا بيلي، فهو -لو تعلم- طموح، قد لا يتراءى لك ذلك حين تنظر إليه، لكنه طموح. أمه هي التي زرعت ذلك فيه، وربته عليه، وكانت مصممة على أنه سينجح.

دون أن يتوقع، وجد ريڤرز نفسه راغبًا بالانبراء للدفاع عن بيلي پراير: «يبدو أنها حققت مرادها».

شخر السيد پراير: «لقد جعلَت منه موظفًا مكتبيًا آخر، إن كان هذا ما تقصده».

- تجعل الأمر يبدو كأنك لم تملك رأيًا في ما حدث.
- هذا صحيح. طوال سنين نشأة هذا الفتى، لم أتدخل إلا مرة واحدة، حين كان هنالك فتى يضايقه في المدرسة. آنذاك كان يرجع باكيًا كل مرة، وذات يوم قلت لنفسي: حسنًا، لقد طفح بي الكيل. وعندما عاد منتحبًا في المرة التالية، لطمتُه بظهر يدي ودفعته خارج الباب. وهناك وقف، غارقًا بدموعه ومخاطه، يصرخ بأعلى صوته. قال: إنه ينتظرني يا أبي،

---

(1) في النص الأصليِّ لكلام السيد پراير مفردات تشير إلى لهجة بريطانية شمالية. (المترجم)

فقلت له: اذهب إذًا. عليك أن تعلمهم الصلابة، كما تعرف، في منطقتنا. هنالك الكثير ممن سيدوسون عليك إن انبطحت.

- وماذا حدث؟

- التَعَنَت أنفاسُه من الضرب. وكذلك في اليوم التالي، والذي يليه، لكن -وهذا هو المعهود من ولدنا بيلي- عندما وعى أخيرًا تجاه نفسه وضرب الوغد الصغير، لم يكتفِ بضربه، بل كاد يرديه قتيلًا. جاء والده إليَّ، وما إلى هنالك، بيد أنه لقي ما لا يسره.

بدا لا يُكِنُّ أي مشاعر تجاه ابنه، باستثناء الاحتقار. «لا بد أنك فخور بكونه أصبح ضابطًا؟».

«حقًّا؟ أنا لستُ فخورًا. كان ينبغي له أن يظل مع أشباهه، إلا أنه لا يستطيع، أليس كذلك؟ هذا ما فعلَته به. لا يمكنه التلاؤم أينما وضعته، ليس من هؤلاء ولا من أولئك، وهي حمقاء أكثر من أن ترى ذلك. لكنني أستطيع أن أخبرك عن شخص يرى ذلك بالفعل»، أشار إلى السقف: «أوه، هو لا ينفك يعبر عن حبه بإفراط على السطح، لكنه لا يشكر لها ذلك في قرارة نفسه»، نهض قائلًا: «على كل حال، الأفضل أن أهُمَّ بالعودة، حَضْرَته سيستشيط غضبًا عندما يعلم أنني قابلتك. صفير صدره شديد، أليس كذلك؟»، انتبه إلى التعبير على وجه ريفرز: «أوه، فهمت، لم يكن صدره يصفر أصلًا؟ لا يمكن القول إنها زيارة ناجحة».

«أنا واثق أن الزيارة أحسنتْ إليه كثيرًا، غالبًا ما نجد أنهم لا يستقرون حتى يروا عائلاتهم».

أومأ السيد پراير، متقبلًا الطمأنة دون أن يصدقها: «هل لديك فكرة كم سيبقى هنا؟».

«اثني عشر أسبوعًا، مبدئيًّا».

«إممم. كان سيحظى مني بتعاطف أكبر بكثير لو أن رصاصة اخترقت استَه. على كل حال...»، مدَّ يده: «لقد سرَّني لقاؤك، لا أعرف متى سنتقابل من جديد».

كان ريڤرز قد أتمَّ تقريرين عندما مدت الآنسة كرو رأسها من خلف الباب مجددًا: «السيدة پراير».

تبادلا النظرات، ثم ألقى ريڤرز قلمه وقال: «أدخليها».

كانت السيدة پراير امرأة ضئيلة منتصبة القامة، تتزين بأناقة ببدلة داكنة وبلوزة خبازية اللون. «لن أطيل البقاء»، قالت وهي تجلس بتوتر على حافة الكرسي، وكانت تعبث بخاتم زواجها، فتسحبه وتدفعه فوق بُرجمتها المتورمة: «أود أن أعتذر عن زوجي. ظننته خرج قليلًا كي يدخن، وإلا كنتُ لأوقِفه».

صوتٌ متكلف التأنق، حُسنٌ ذابل. لقد ورث بيلي پراير بنيته وملامحه عنها أكثر مما ورثهما عن والده. «كلا، لقد سرني أن ألقاه. كيف وجدتِ بيلي؟».

- إنه يَصفِر، لم أرَ صدره متضيقًا هكذا مذ كان طفلًا.

- لم أكن أعرف أصلًا أنه مصاب بالربو.

- أجل، هذا لا يشغله كثيرًا، في العادة. في طفولته كان الأمر رهيبًا، كنتُ أضطر إلى غلي الماء في غرفته. كما تعلم، من أجل البخار؟

- لا بد أنك فخورة جدًّا به.

رقَّ وجهها: «أجل، فأنا التي أعرف كم كان الأمر عسيرًا. يمكنني أن أقول بأمانة إنه لم يجلس يومًا لخوض امتحان دون أن تشتد عليه نوبة الربو».

«هل كان مكتب الشحن يروق له؟».

شكَّلت شفتاها كلمة «أجل»، لكنها قالت: «كلا. لقد كانت نفس أرصفة الميناء التي يعمل والده فيها، وأظن أن ذلك هو الخطأ. كان والده لعلمك يجني بعمله كبيرَ عمال أكثر مما يجنيه بيلي بعمله موظفًا، وعن نفسي أظن أنه كان ثمة بعض... كما ترى، المشكلة مع زوجي هي أن الابن برأيه يجب أن يشابه أباه. أتفهم قصدي؟ لم يستطع يومًا أن يتقبل كون بيلي مختلفًا. وأظن أنه ربما كان ثمة بعض الغيرة أيضًا، لأنه كان، كان يعيش حياةً قاسية. لا أنكر هذا، أقسى بكثير مما كان ضروريًا، فقد أرسلته والدته إلى العمل حين كان في *العاشرة*. ولم يكن ثمة حاجةٌ إلى ذلك حتى، إذ كان لديها ابنان يعملان،

لكن هذا ما حدث. ماذا لي أن أقول؟ إنه يعبدها»، ظلت صامتةً للحظة، تتأمل: «أتعلم؟ أفكر أحيانًا أنك كلما عملتَ أقل من أجلهم ارتفعت مكانتك لديهم».

«أيمكن القول إن بيلي ووالده كانا متقاربَين؟».

«لا! ومع ذلك، كما ترى، المضحك أن ولدنا بيلي...»، فكرت بطريقة تمسح بها كلمة «ولدنا» ذات الدلالة من الجملة[1]، وإذ لم تجد ذلك، أفلتت ضحكة استهجانية قصيرة: «مناصرٌ بالكامل لـ «عامة الشعب»، كما يسميهم. سألتُه: «أتقصد أباك؟»»، ضحكت من جديد: «أوه، لا، لم يكن يقصد أباه. قلتُ له: «لكنك لا تعرف شيئًا عن عامة الشعب، ولم تكن لك أي علاقة بهم». أتعرف بماذا أجابني؟ «وذنبُ من هذا؟»».

نقرت الآنسة كرو على الباب: «زوجك يقول إنه ذاهب الآن، سيدة پراير».

«أجل، حسنًا، عليَّ أن أذهب. ستعتني به، أليس كذلك؟».

كان دمعها يكاد يطفر، وقال ريڤرز: «سوف نبذل قصارى جهدنا».

«سأكون ممتنةً إن لم تأتِ على ذكر مقابلتي لك، فهو مستاء كفايةً من أبيه».

بعد مغادرتها، التفت ريڤرز إلى الآنسة كرو: «كان هذا مذهلًا. أتعلمين، لم أعتقد أنهما سيقولان شيئًا ذا بال؟».

«هكذا هم المتزوجون يا سيدي، كلمة متعاطفة واحدة ولا يكفون عن الكلام حتى منتصف الليل. النقيب برودبنت ينتظر كي يقابلك».

نظر ريڤرز إلى كومة الأوراق على مكتبه وتنهد. «حسنًا، أدخليه»، جاش الامتعاض داخله: «*وأرجوكِ، حاولي* ألا تناديه بـ «النقيب»، فهو ليس نقيبًا أكثر مما أنا نقيب».

«لكنك نقيب بالفعل، حضرة النقيب ريڤرز».

تريثت الآنسة كرو عند الباب لتستطعم لحظة النصر الصغيرة، فابتسم ريڤرز وقال: «حسنًا، لكن على الأقل حاولي ألا تخاطبيه بلقب «النقيب»، فليس من المفيد له تعزيز أوهامه المشتهاة».

---

(1) الصياغة في النص الأصليّ تشي بلهجة والدة پراير. (المترجم)

«سأبذل قصارى جهدي، سيدي. لكن ما دام مسموحًا له أن يسير في أنحاء المستشفى بثلاث نجوم على كُمِّه، لا أرى أن تذكُّري مناداته بـ «السيد» سيشكل فارقًا ذا شأن»، ابتسمت بعذوبة منسحبة، ثم عادت بعد لحظة: «*السيد* برودبنت، سيدي».

«تفضل بالدخول يا سيد برودبنت، اجلس».

لم يكن الأمر متوقفًا عند النجوم، كان ثمة كذلك مسألة صغيرة هي النياشين، من بينها المعادل الصربي لصليب ڤيكتوريا وقد مُنح لأجنبي للمرة الأولى والوحيدة خلال تاريخه الطويل والمجيد. ثم هنالك الشهادات الفخرية، إلا أنه على الأقل لم يَدرج بعد على تعليقها بسترته. على كل حال، لقد كان يبلي بلاءً حسنًا جدًّا مع أوركسترا الحجرة التابعة للمستشفى. «حسنًا يا برودبنت، كيف لي أن أخدمك؟».

«لقد تلقيتُ خبرًا سيئًا يا د. ريڤرز»، قال برودبنت بطريقته الموحية بالائتمان والتلميح: «صحة والدتي متوعكة».

لم يصدق ريڤرز أن أم برودبنت مريضة، بل لم يصدق أن برودبنت لديه أم، كان يرى من المعقول تمامًا أن يكون برودبنت قد فقس من بيضة: «أوه، يؤسفني هذا».

- كنت آمل أن أحصل على إذن إجازة.

- سيتعين عليك أن تسأل الضابط الآمر عن هذا.

- كنت آمل أن تكلمه من أجلي، فأنا لا أظن الرائد برايس يستلطفني كثيرًا.

كان الأشخاص الذين سمعوا عن مآثر برودبنت دون أن يقابلوه يميلون إلى تخيُّل صورة متوردة مقدامة مغامرة خارجة عن نمطية الحياة، لكن برودبنت كان في الواقع شابًّا رخوًا ذاويًا ذا بشرة شاحبة يداه رطبتان بشكل ملحوظ عند المصافحة، تشغل انتهاكاته المتواصلة والعجيبة لقواعد المستشفى وقتًا أكثر من اللازم بكثير. وكان مصيبًا إلى حدٍّ بعيد بظنه أن برايس لا يستلطفه.

«ليست المسألة متعلقة باستلطافه لك من عدمه»، قال ريڤرز: «هل صحة والدتك متوعكة جدًّا؟».

- أخشى ذلك يا د. ريڤرز.

- إذًا فأنا متأكد أن الرائد برايس سيتعاطف معك، لكن القرار قراره هو، لا قراري.

«الأمر أنني ظننت...»، غلظت نبرة برودبنت فجأةً: «هذا سيئ *للغاية* لأعصابي، وأنت تعرف ما يحدث».

«آمل ألا يحدث هذه المرة، ففي المرة الأخيرة -إن كنتَ تتذكر- تعيَّن احتجازك. لمَ لا تذهب وترى الرائد برايس الآن؟».

«أجل، لا بأس»، نهض برودبنت على مضض، وقال بفتور: «*شكرًا* لك، سيدي».

على الأقل لم يبادر إلى المصافحة.

بعد العشاء، عُرِض فيلم لتشارلي تشابلن في السينما في الطابق الأول. كان الطابق الأرضيُّ مهجورًا بأكمله. رأى ريڤرز، وهو يأخذ التقارير التي أنجزها إلى المكتب كي تُطبَع على الآلة الكاتبة، مصباحًا تُرِك مُضاءً في قاعة المرضى العامة فدخل ليطفئه.

كان پراير جالسًا تحت النوافذ في الطرف القصيِّ للقاعة، يُطل منها على ملاعب التنس، لوجهه ويديه ظلٌّ مزرق في الإضاءة الخافتة. أغرت ريڤرز فكرةُ أن ينسحب من فوره، لكن شيئًا ما في عُزلة الظل الصغير تحت النوافذ الضخمة جعله يتريث. «ألا تريد أن تشاهد الفيلم؟».

«لم أستطع احتمال الدخان».

كان صدره يصفر بشدة. اتجه ريڤرز إلى النافذة وجلس بجانبه. السنونوات ذات البطون البيضاء تشق مسالكها في الهواء متمايلة جيئةً وذهابًا فوق ملاعب التنس، تقتات على الأسراب الهائلة من الحشرات الصغيرة التي بالكاد كانت مرئية على شكل سديم ذهبيٍّ. راح يراقبها تنقض وتدور وتهوي في الجو، كم كانت ماهرةً في تلافي الاصطدام. وللحظة، تحت سطوة سحر الطيور المرفرفة، انزاح عنه ثقل عمل النهار ومسؤوليته. لكنه لم يستطع تجاهل تنفس پراير، ولا ابيضاض براجم يده اليسرى المتشبثة بالكرسي. التفت ونظر إليه، ملاحظًا وجهه القلق المنهَك: «الوضع سيئ، أليس كذلك؟».

«أشعر ببعض الضيق».

كان پراير منحنيًا إلى الأمام ليساعد رئتيه على التمدد. ولدى نظره إليه الآن، استطاع ريڤرز أن يرى استقامة الكتفين، واتساع الصدر المفاجئ بالنسبة إلى رجل مرهف التقاطيع. الأمر يصبح واضحًا ما إن ينتبه المرء إليه، لكن لماذا لم يَرِد شيء في الملف؟

«بلغني أنك قابلت أبي»، قال پراير يلهث: «يا له من شخصية».

«بدا أنه رجل متصلب الآراء».

التوى فم پراير: «إنه من اشتراكيِّي الحانات، إن كان هذا ما تقصده. تدخل جوفَه الجعةُ والثورة، ويخرج منه *البول*»، حاول أن يضحكك، «أبدت أمي تخوفًا كبيرًا، وقالت: «سيكون هناك في الأسفل يجدف ويشتم، ويسبب لنا الإحراج جميعًا»».

«لقد أعجبني».

«أوه، أجل، إنه أهلٌ للإعجاب، خارج المنزل. سبق ورأيته يستخدم أمي كأنها كرة قدم»، سُمِع للنفَس التالي صرير حاد: «وكنتُ أصغر من أن أحرك ساكنًا».

«أتعلم؟ أظن من الأفضل أن ألقي نظرةً على صدرك».

بادر پراير إلى نسخةٍ شبحية من حركاته المعهودة: «في غرفتك أم غرفتي؟».

«في عنبر رعاية المرضى».

كان المسير عبر الممر إلى المصعد بطيئًا على نحو مؤلم.

«لم أكن أرغب أن تقابله»، قال پراير فيما ضغط ريڤرز زر الطابق الثاني.

- لا، أعلم ذلك، لكن ما كان لي أن أرفض.

- لستُ ألومك *أنت*.

- وهل المسألة مسألة لوم؟

ريثما راحت الممرضات يجهزن السرير، عاين ريڤرز پراير. توقع منه أن يكون صعب المراس، لكنه في الحقيقة أبدى موضوعيةً تامة، وهو يراقب

ريفرز فيما تتحرك السماعة على صدره. «حسنًا، ارتدِ سترتك»، طوى ريفرز السماعة: «يفاجئني أن تكون ذهبت إلى فرنسا من الأساس في حالتك هذه».

«لم يكن بوسعهم تحمُّل كلفة الانتقائية»، بدأ پراير تسلُّقه الطويل إلى السرير: «لن أُنقَل إلى مستشفى آخر، أليس كذلك؟».

- كلا، لا أظن ذلك. أربعة أطباء وثلاثون ممرضة، أعتقد أن بوسعنا تدبُّر أمرنا.

- الأمر أنني لا أريد أن أُنقَل.

ساعده ريفرز على رفع الأغطية: «ظننتُ أن المكان هنا لا يعجبك؟».

- أجل، حسنًا، بوسع المرء أن يعتاد أي شيء، أليس كذلك؟ أتظن أن بوسعي الحصول على منشفة تُربَط بالسرير؟

- بالطبع، كل ما ترغب فيه.

- أجد من المفيد، كما ترى، أن يكون ثمة شيء أشد عليه.

- كيف كان الوضع في فرنسا؟ بالنسبة إلى الربو.

- أفضل مما كان في الديار.

سُمِع ضحك عالٍ من الأسفل، تشارلي تشابلن يؤدي عمله على أتم وجه. تبع ريفرز تحديقة پراير، فرأى المصباح الوحيد والظلال العميقة، واستشعر -مع تضيُّق مُنذِرٍ لحجابه الحاجز- عذابات الليل المرتقب التي تتضح نفَسًا تلو الآخر. قال: «سأرى بشأن المنشفة».

رأى پراير مستعدًا للنوم، فقال له: «سوف آتي إليك في الصباح». ثم ذهب إلى غرفة الأخت المجاورة وترك أوامر بإيقاظه على الفور إن ازدادت حالة پراير سوءًا.

7

استيقظ ساسون على صوت صرخات ووقْع أقدام راكضة. توقفت الصرخات، ثم بعد لحظة أو اثنتين انطلقت من جديد. دقق النظر في ساعة يده، فتبين أنها الرابعة وعشر دقائق.

بسبب البطانة المطاطية، كانت بِركة من العرق قد تجمعت عند أسفل ظهره. علقت الرائحة المطاطية بجلده، رائحة إكلينيكية جعلت جسده غير مألوف له. كان كامبل يشخر في السرير المجاور، تنافر نغمي من القباع والغطيط والصفير. ما من صرخات كفيلة بإيقاظه، لكنه -من ناحية أخرى- ما كان يصرخ قط، ولقد قضى ساسون في كريغلوكهارت فترةً تكفيه كي يدرك كم تجعل منه هذه السمة شريك غرفة نفيسًا.

إذ أفاق بالكامل الآن، جر نفسه إلى نهاية السرير، ثم رفع الستارة الرقيقة ونظر من النافذة. لاح تل ويستر هيل من الغشاوة كأنه طائر راقد متلبد. والبارحة -فكر وهو يرتجف بعض الشيء- قُرئ بيانه في مجلس العموم. تساءل عما سيحدث بعد ذلك، ما إن كان أي شيء سيحدث. على أي حال، ثمة بعض العزاء في معرفة أن الأمر خرج من يده.

كان يعرف أنه يرتجف من الخوف أكثر مما هو من البرد، غير أنه وجد صعوبة في الإشارة إلى مصدر خوفه بالبنان. ربما المكان، الوجوه المؤرقة التي تطاردها أشباحها، التأتآت، المشيات العاثرة، المظهر متعذر التعريف الذي يميز المصاب بـ «مرض عقلي». كريغلوكهارت تخيفه أكثر مما استطاعت الجبهة أن تفعل يومًا.

صرخ الشخص في الأعلى -أيًا كان- من جديد. سمع أصوات نسوة، ثم -بعد بضع دقائق- صوت رجل. ريڤرز، قال لنفسه، لكنه لم يستطع الجزم. قلقًا يهتز من الارتجاف، أسند نفسه إلى ظهر السرير الحديدي وانتظر بزوغ الفجر.

جَلَّسَ پراير نفسه فوق السرير لدى دخول ريڤرز، أغلق الكتاب الذي كان يقرؤه ووضعه على الكوميدينا ثم قال: «قلتُ لنفسي إنه أنت، أستطيع التعرف على وقْع قدميك».

أحضر ريڤرز كرسيًا وجلس قرب السرير: «هل استطعت العودة إلى النوم؟».

«أجل، وأنت؟».

صمت.

«لستُ أكابرك»، قال پراير: «سألتُك بدافع *التخوف*».

«لم أستطع، لكن هذا ليس ذا بال، فأنا لا أنام كثيرًا بعد الرابعة على أي حال».

التقط ومضة الاهتمام؛ يا لسرعة پراير في الانقضاض على أي معلومة شخصية.

- شكرًا لقدومك.

- أبديتَ كرهك لذلك.

بدا پراير مُحرَجًا بعض الشيء، ثم ابتسم: «لا أظن أن أحدًا *يختار* أن يُرى في مثل تلك الحالة. لستُ أفهم حقًا السبب الذي تطلّب استدعاءك».

«لقد قلقت الممرضات من أن يسبب الخوف هجمةً أخرى، مع أنك في الحقيقة تتنفس بسهولة أكبر كما يبدو».

سحب پراير نفسًا عميقًا تجريبيًا: «أجل، أظن ذلك. أتعلم؟ ثمة شيء اكتشفتُه فيَّ، أنا...»، توقف: «لا، لا أظنني أريد إخبارك بما اكتشفته».

«أوه، أكمِل. فضول مهنيٌّ، أريد أن أرى إن كنتُ *أنا* قد اكتشفته».

ابتسم پراير ابتسامة واهية: «لا، لن تكون اكتشفتَ هذا. لقد ألفيتُ نفسي أرغب بإثارة إعجابك. مثير للشفقة، أليس كذلك؟».

«لا أظن الأمر مثيرًا للشفقة. جميعنا نهتم برأي من حولنا، سواءً اعترفنا بذلك أم لا»، سكت قليلًا: «غير أنني متفاجئ بعض الشيء من أن يكون رأيي *أنا* يهمك. أعني، كي أكون صريحًا، لم أكن أظنك تستلطفني كثيرًا».

- ثمة حدود لدفء المشاعر التي يمكن للمرء أن يحس بها تجاه ورق الجدران.
- أوه، عُدنا إلى ذلك إذًا؟

أشاح پراير بوجهه وحدَّب كتفيه: «لا...».

راقبه ريڤرز لمدة: «لماذا يتعين أن يكون الأمر هكذا برأيك؟».

«كي يُتاح لي... أستميحك عذرًا، كي يتاح *للمريض* أن يستغرق في خياله بحُرية، كي يُتاح *للمريض* أن يحولك إلى أي شخص يريدك أن تكونه. حسنًا، لا بأس. الأمر فقط أنني لا أرى ضيرًا من أن تضع في حسبانك احتمال أن *هذا* المريض قد يريدك أن تكون *أنت*».

- حسنًا.
- حسنًا ماذا؟
- حسنًا، سأضع ذلك في حسباني.
- أظن أن معظمهم يحولونك إلى «بابا»، صحيح؟ حسنًا، أنا أكبر سنًّا بعض الشيء من أن أجلس على ركبة *بابا*.
- ركلُك له في قصبة ساقه كلما قابلتَه لا يُعتبر أكثر نضوجًا على العموم.
- فهمت، تحويل سلبيٌّ[1]. هل هذه هي الحالة برأيك؟

«آمل ألا يكون ذلك»، لم يستطع ريڤرز إخفاء دهشته بالكامل: «من أين تعلمت هذا المصطلح؟».

---

(1) التحويل: ظاهرة نفسية يُعيد فيها اللاوعي توجيه (إسقاط) المشاعر من شخص (كالوالدين) إلى آخر (كالمعالج النفسي)، وعادةً ما تتعلق بمشاعر تعود إلى علاقة أولية خلال الطفولة. (المترجم)

- أستطيع *القراءة*.

- أجل، أعلم هذا، لكنه...

- ليس من العلوم الشعبية؟ صحيح، لكن هذا أيضًا ليس منها.

مد يده إلى الكتاب بجوار سريره وناوله لريڤرز، فوجد الأخير نفسه يحمل نسخةً من *قبيلة التودا*. ظل لحظةً يحدق إلى اسمه -هو لا غيره- على ضلع الكتاب. قال لنفسه إنه ما من سبب يمنع پراير أن يقرأ أحد كتبه، بل وكلها حتى. ما من سبب منطقيٍّ يجعله يشعر بالارتباك. أعاد الكتاب إليه. «أما كنتَ لتفضل شيئًا أخف؟ فأنت متوعك في النهاية».

رجع پراير بظهره مستندًا إلى الوسائد، وعيناه تومضان بالأُنس. «أتعلم؟ كنت *أعرف* أنك ستقول هذا. لكن كيف عرفتُ ذلك؟».

- لم أدرك أنك مهتم بالأنثروبولوجيا.

- ولمَ لا أكون مهتمًّا؟

- ما من سبب.

حقًّا، قال ريڤرز لنفسه، إن پراير فيه من العَنَتِ ما يكاد يجعل المحادثة الطبيعية مستحيلة. أخذ يقلّب صفحات الكتاب، باحثًا عن شيء محدد كما هو واضح. وبعد دقيقة أو نحوها، رفع الكتاب من جديد مفتوحًا على قسم الأخلاقيات الجنسية.

«أيصمدون كل هذه المدة حقًّا؟».

أجاب ريڤرز، بقدر ما يستطيع من تبسيط: «إن حيواتهم الجنسية تسير وفق خطوط مختلفة عن حيواتنا إلى حدٍّ ما».

- أتفق. لا بد أنهم يُرهَقون بشدة، حبًّا بالسماء. *أنا* ما كنتُ لأستطيع مجاراة هذا، ماذا عنك؟

- أظن أن سني وإصابتك بالربو قد يحولان بفعالية بين واحدنا وبين تحقيق أي نتيجة قياسية.

- آه، أجل، لكن الربو لا ينال مني إلا في بعض الأحيان.

- لا تستطيع أن تقبل بغير *الفوز*، أليس كذلك؟

حدق براير إليه من كثب: «أتعلم؟ أنت تمتلك قدرة مذهلة على تقليد قميص محشو، غير أن هذا لا يشبهك في الحقيقة على الإطلاق، أليس كذلك؟».

نزع ريڤرز نظارته ومرَّر يده على عينيه: «*سيد براير*».

- أعرف، أعرف. «حدثني عن فرنسا». لا بأس، ماذا تريد أن تعرف؟ وأرجوك لا تقل: «أي شيء تريد أن تقوله لي».

- حسنًا، إلى أي حدٍّ وجدتَ قدرةً على التكيف؟

تقبَّض وجه براير: «تقصد أن تسألني إذا ما كنتُ قد واجهتُ أي عنجهية؟».

- أجل.

- ليس أكثر مما أواجهه هنا.

تقابلت أعينهما، وقال ريڤرز: «لكنك واجهتَها؟».

«أجل. يتضح لك بجلاء حال وصولك أن بعض الناس مرحَّب بهم أكثر من البعض الآخر. قد يساعدك أن تكون ارتدتَ المدرسة المناسبة، أن تكون تمارس الصيد، وأن يكون لقمصانك لون مناسب. وهذا اللون هو درجة *قاتمة* من الخاكي، بالمناسبة».

أطرق ريڤرز ينظر إلى قميصه رغمًا عنه.

«الدرجة مقبولة»، قال براير.

- وقمصانك؟

- ليست مقبولة، لا تقارب ذلك حتى. أوه، ثم هنالك طريقة الامتطاء. *الامتطاء*. كما تعلم، لقد أرسلوني عبر مضمار ذات مرة. عليك أن تدور في تلك الحلقة اللعينة دورةً تلو الأخرى وأنت تشابك يديك خلف رأسك؛ ما من سرج، ما من رِكابين، كان ذلك مذهلًا. أتعلم؟ أدركتُ للمرة الأولى أنهم في مكان ما من مؤخرات... عقولِهم *بالغة الضآلة*، يعتقدون حقًّا أن الأمر برمته سينتهي إلى نوع مَجيد هائل من هجوم *الفرسان*. «تحت وابل الرصاص والقذائف/ امتطوا صهوات خيولهم بجرأة ومهارة/

وقفزوا بين فكَّي الموت / قفزوا داخل فم الجحيم...»[1]، وما إلى هنالك من هراء.

لاحظ ريڤرز أن وجه پراير أضاء حين اقتبس من القصيدة: «أهو هراء حقًّا؟».

«أجل. أوه، طيب، لقد كنتُ واقعًا في حب القصيدة ذات زمان. أأخبرك بشيء عن ذلك الهجوم؟ قبيل انطلاقه تمامًا، شاهد أحدُ الضباط ثلاثة رجال يدخنون. رأى أن ذلك تصرف تعوزه الرسمية أكثر من اللازم، لذا صادر سيوفهم وأرسلهم عُزلًا ضمن الهجوم. قُتِل اثنان منهم، وتعرض الثالث الذي نجا للجَلد في اليوم التالي. العقلية العسكرية لا تتغير كثيرًا، أليس كذلك؟ هي العقلية نفسها التي تأمر الآن بعقاب الرجال عن طريق ربطهم إلى عربة مدفع»، فرد پراير ذراعيه: «هكذا، العقوبة الميدانية رقم (1): «الصَّلْب». حتى على المستوى المتعلق بالبروباغندا، أيمكنك تصور أن يكون أحد غبيًّا بما يكفي ليأمر بهذا؟».

تقبضت أنفاسه، إما بسبب الوضعية وإما بفعل غضبه. أنزل ذراعيه بعنف ودوَّر كتفيه، فانتظر ريڤرز زوال التشنج. «كيف كان امتطاؤك؟».

- دَبِقًا. كلا، هذه صفة جيدة، فهي تعني أنك لن تنزلق.

ران صمت قصير، ثم تابع پراير كلامه: «لا ينبغي أن تشغل بالك بها كثيرًا، أعني العنجهية، فأنا لم أفعل. الشيء الوحيد الذي يغضبني بحق هو حين يقول الناس في الديار إنه ما من تفرقة طبقية على الجبهة. أي هراء! ما ترتديه، ما تأكله، أين تنام، ما تحمله. الرجال بهائم حُمولة»، تلكأ: «أتعرف ما هو الأمر الأسوأ؟ ما بدا لي الأسوأ؟ اعتدتُ الذهاب إلى تلك الكافتيريا في أميان، وكان ثمة ماخور في الطرف الذي يقابلها من الطريق. كان الرجال يقفون طوابير في الشارع أمامه»، نظر إلى ريڤرز: «ويحظى واحدهم بدقيقتين».

«والضباط؟».

«لا أدري، مدة أطول من ذلك»، رفع عينيه: «*أنا لا أدفع*».

---

(1) من قصيدة «هجوم اللواء الخفيف»، للشاعر الإنجليزي ألفريد تنيسون (1809-1892)، الذي عُيِّنَ شاعرًا لبلاط المملكة المتحدة عام 1850. (المترجم)

كان براير يتكلم بحرية قرر ريڤرز معها أن يغامر بتطبيق الضغط: «ما الذي رأيتَه في منامك الليلة الماضية؟».

«لا أتذكر».

قال ريڤرز برفق: «أتعلم؟ إحدى الصفات المميزة للكوابيس أنها دائمًا ما تبقى في الذاكرة».

- لا بد أنه لم يكن كابوسًا إذًا، أليس كذلك؟

- حين وصلتُ كنتَ على الأرض هناك، تحاول عبور الجدار.

- أنا واثق أن هذا صحيح، إن قلتَ ذلك، لكنني لا أتذكر. أول ما أتذكره هو إصغاؤك إلى صدري.

نهض ريڤرز، أعاد كرسيه إلى موضعه عند الحائط ورجع نحو السرير. «لا يمكنني إجبارك على قبول العلاج إن كنت لا تريده. أنت تتذكر الكوابيس، تتذكرها بالقدر الكافي كي تذرع الطابق سيرًا حتى الساعة الثانية أو الثالثة من كل صباح عوضًا عن الخلود إلى النوم».

- كنت أتمنى لو لم يشعر أفراد الطاقم الليليّ أنهم ملزمون على التصرف *كجواسيس*.

- هذا كلام صبيانيٌّ محض، أليس كذلك؟ تعرف أنه عملهم.

أحجم براير عن النظر إليه.

- حسنًا، أراك غدًا.

- من المجحف أن تقول إني لا أريد العلاج، لقد طلبتُ علاجًا، وأنت رفضت إعطاءه لي.

بدا وجه ريڤرز خاليًا من التعابير: «أوه، فهمت. التنويم المغناطيسي. لم أكن أظنك جادًّا».

- ولمَ لا أكون جادًّا؟ إنه يُستخدم فعلًا لاستعادة الذاكرة المفقودة، أليس كذلك؟

- بلى.

- إذًا لماذا لا تفعلها؟

همَّ ريفرز بالرد، ثم امتنع.

- يمكنني أن أفهم، لعلمك، أنا لست غبيًا.

- كلا، أعرف أنك لست غبيًا. كل ما هنالك أن ثمة... ثمة بعض الرطانة التقنية في الأمر، كنت أحاول تجنب ذلك فحسب. بشكل أساسيٍّ، الأشخاص الذين تعاملوا مع تجربةٍ كريهةٍ ما عن طريق فصلها عن بقية وعيهم، يكون لديهم أحيانًا ميل عام إلى التعامل مع كل أنواع المكدِّرات بتلك الطريقة، وإن كانت هذه النزعة موجودة لدى المرء، فمن المحتمل أن يعززها التنويم المغناطيسيُّ. بصياغة أخرى، نكون قد عملنا على إزالة عَرَض محدد (فقدان الذاكرة)، لكننا زدنا سوء الحالة المستبطنة.

- لكنك تستخدمه بالفعل؟

- إن أخفق كل شيء آخر، أجل.

استلقى پراير على ظهره: «هذا كل ما أردتُ أن أعرفه».

«في حالتك، *لم* يخفق كل شيء آخر، بل لم يُجرَّب حتى. على سبيل المثال: أود أن أكتب إلى قائد وحدتك، فنحن بحاجة إلى صورة واضحة عن الأيام القليلة الأخيرة»، راقب ريفرز تعبير وجه پراير بحذر، لكنه لم يكن يشي بأي شيء: «لكن سيتعين عليَّ أن أتوجه إلى القائد بسؤال دقيق. تفهم هذا، صحيح؟».

- *أجل*.

- لا جدوى من إرباكه باستفسار مبهم عن فترة غير محددة من الزمن.

- كلا، هذا صحيح.

- لذا ما زلنا نحتاج منك أن تتذكر قدر ما تستطيع باستخدام الوسائل التقليدية، لكن بوسعنا تأجيل ذلك إلى أن تشعر بتحسن.

- لا، أريد أن أستأنف هذا.

- سنرى كيف تشعر غدًا.

بعد تركه لپراير، صعد ريفرز الدرج الخلفيَّ إلى البرج ووقف هناك لبضع لحظات، يداه على الدرابزين، يرنو إلى التلال. كان پراير يُقلقه. موضوع طلب التنويم المغناطيسيِّ برمته يقلقه. أحيانًا يشعر بحسٍّ من التوجس تجاه الحالة، على أنه لا يميل إلى منح هذا الحس كبيرَ إقرار، فوفقًا لخبرته،

الهواجس بالكارثة يَثبت خطؤها بشكل دائم تقريبًا، ودرب الجلجثة يولَجُ بأهنأ القلوب قاطبة.

وفي ما يخص قضية الملازم ثاني ساسون، حالما سمع السيد ماكفرسون بالأمر، استفتى مستشاريه العسكريين، فتلقى البرقية التالية ردًّا على استفساراته: لقد أُقِدم على انتهاكٍ للنظام، لكن لم تُتَّخذ أي تدابير تأديبية، لأن الملازم ثاني ساسون لم يكن مسؤولًا عن تصرفه وفقًا لتقرير اللجنة الطبية، إذ كان يعاني انهيارًا عصبيًّا. عندما اطلعت السلطات العسكرية على الرسالة المُشار إليها آنفًا، شعرت أن خطبًا لا بد أصاب هذا الضابط ذا الشهامة البارزة الذي أبلى بلاءً ممتازًا على الجبهة. وتمنى أن حضرات الأعضاء الموقرين سيتريثون مليًّا قبل أن يستغلوا وثيقةً كتبها شاب في مثل هذه الحالة الذهنية، ولم يرَ أن إجراءهم سيكون محل تقدير لدى أصدقاء الضابط. (مع *التحية*).

طوى ريفرز صحيفة *التايمز* وابتسم: «حقًّا يا سيغفريد، ماذا كنت تتوقع؟».

«لا أدري، لكن في الوقت نفسه...»، انحنى ساسون وأشار إلى الصفحة الأولى.

قرأ ريفرز: ««بلاتس، قُتِل في المعركة يوم 28 أبريل، ابنٌ أصغر محبوب لدى عائلته، إلخ، عن عمر ناهز سبعة عشر عامًا وعشرة أشهر»»، رفع عينيه فوجد ساسون يراقبه.

- لم يكن يبلغ السن المطلوبة *للتجنيد*، ولا أحد يلقي بالًا.

- بل يلقون بالًا بالطبع.

- أوه، بحقك، هذا ليس كفيلًا حتى بصد نفس الواحد منهم عن طبق مقانقه! هل سبق لك أن جلست في قاعة نادٍ وشاهدت الناس يقرؤون قائمة خسائر الأرواح؟

«يمكنك أن تقول الشيء نفسه عن قاعة الإفطار هنا. ليس الانفـ.. الانفجار بالبـ.. بالبكاء على قا.. قائمة خسائر الأرواح أفضل طريقة لإظـ.. لإظهار المشاعر تجاه ما يحدث في فرنسا»، رأى أن ساسون يلاحظ التلعثم فبذل جهدًا ليتكلم بهدوء أكبر: «الأمر الذي عليك فعله الآن هو أن تواجه حقيقة كونك هنا، وأنك هنا لمدة أحد عشر أسبوعًا بعد على الأقل. هل فكرتَ في ما ستفعله؟».

- ليس تمامًا، ما زال نفَسي مقطوعًا من الوصول إلى هنا. ربما أذهب في نزهات سير، أو أقرأ.

- هل ستكون قادرًا على الكتابة، برأيك؟

- أوه، أجل. سأكتب حتى لو اضطررت إلى الجلوس على السطح كي أفعل هذا.

- تخصيص غرفة لك وحدك أمر غير وارد.

- لا، أعلم هذا.

انتقى ريفرز كلماته بعناية: «النقيب كامبل رجل لطيف إلى أبعد حد».

«أجل، لاحظت. وعلاوةً على ذلك، خططه الحربية أكثر تعقلًا من خطط هيغ».

تجاهل ريفرز ذلك: «الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو أن أسجلك في ناديٍّ، نادي المحافظين. لا أعرف إن كان هذا سيروق لك، لكنه سوف يوفر لك قاعدةً بديلة على الأقل».

- سيروق لي، كثيرًا. شكرًا لك.

- ومع ذلك، آمل ألا تشطب احتمال تكوينك لصداقات هنا.

أطرق ساسون ينظر إلى ظهر يديه: «كنت أفكر أن أرسل في طلب مضارب الغولف خاصتي، يبدو أن ثمة لاعبًا أو اثنين متحمسين في الأنحاء».

«فكرة طيبة. سأراك ثلاث مرات في الأسبوع، الأفضل أن يكون لقاؤنا مسائيًّا لا صباحيًّا كما أظن، لا سيما إن كنت ستلعب الغولف. الثلاثاء والجمعة والأحد؟».

«تمام»، ابتسم ابتسامةً واهية: «ليس لدي شيء آخر يشغلني».

«نقول عند الثامنة والنصف؟ بعد العشاء مباشرةً».

أومأ ساسون برأسه: «هذا لطف كبير منك».

«أوه، لا أدري إن كان كذلك»، أغلق دفتر مواعيده وسحب ورقة فارغة نحوه: «والآن أحتاج إلى أن أطرح بضعة أسئلة حول صحتك البدنية، أمراض الطفولة وما شابه ذلك».

- لا بأس. لماذا؟
- من أجل تقرير القبول.
- أوه، فهمت.
- لا أضمّن عادةً أي... تفاصيل حميمية.
- ربما هذا أفضل، فتفاصيلي الحميمية تجردني من الأهلية للخدمة العسكرية.

رفع ريڤرز رأسه وابتسم: «أعرف».

بعد مغادرة ساسون، أخذ ريڤرز استمارة حالةٍ من الكدسة التي على تربيزته، وتوقف لحظات يجمع أفكاره، ثم شرع يكتب:

التحق المريض بصفوف فوج ساسكس يومانري[1] في الثالث من أغسطس عام 1914. وبعد ثلاثة أشهر، تعرض

(1) مفردة (Yeomanry) هي صفة منسوبة إلى اليومَن (Yeoman)، وهذا مصطلح كان يُطلق على الفرد من التابعين، أو صغار الملاك الزراعيين، أو خدم الإقطاعيين أواخر القرون الوسطى في إنجلترا، ثم أصبح اليومنيون في عهد أسرة تيودور (1485-1603) طبقة مستقلة حظيت بمقام أرفع من الفلاحين والعمال وأدنى من السادة وأصحاب الضِّيَع. وفي أواخر القرن الثامن عشر، شكل رجال هذه الطبقة فرق فرسانهم الخاصة بهم، التي سُميت بالـ (Yeomanry): أي فرق اليومنيين، أو الفرق اليومنية، غير أن الترجمات العربية درجت على تعريب الاسم إلى (يومانري) بإبقائه على لفظه، فيقال مثلًا: «فوج ساسكس يومانري»: أي الفوج اليومني التابع لمقاطعة ساسكس. (المترجم)

لحادثة قاسية في أثناء ترويضه لحصان أبقته طريح الفراش عدة أشهر. في مايو 1915، تقلد رتبةً في سلاح الغداريين[1] الملكي الويلزي. كان في فرنسا منذ نوفمبر 1915 حتى أغسطس 1916، حين أرسِل إلى دياره نتيجة إصابته بحمّى الخنادق. تقلد وسام الصليب العسكريّ في يونيو 1916. مُنِح إجازة مرضية لمدة ثلاثة أشهر وعاد إلى فرنسا في فبراير 1917. وفي 16 أبريل 1917، تعرض لإصابة في كتفه اليمنى نزل إثرها بالأجنحة الجراحية في مستشفى لندن الرابع لمدة أربعة أسابيع ثم نُقِل إلى دار تمريض الليدي براسي حيث أقام ثلاثة أسابيع. وآنذاك بلغه أن من المقرر إرساله إلى كامبريدج لتعليم الطلبة العسكريين.

منذ مرحلة مبكرة من خدمته في فرنسا، روّعته المجازر وخلص إلى الشك في ما إذا كان استمرار الحرب أمرًا قابلًا للتبرير. في أثناء إجازته المرضية في عام 1916، كان على تواصل وتبادل آراء مع برتراند راسل وناشطين سلميين آخرين. قبل ذلك لم يسبق له أن أبدى استحسانًا تجاه الفكر السلمي قط، وهو لا يرى أنه تأثر بتواصله المذكور آنفًا هذا. خلال زيارته الثانية لفرنسا، ترسخت شكوكه بشأن إمكانية تبرير الحرب، بل ربما أصبح أكثر تشكيكًا حتى في الطريقة التي كانت الحرب تُدار بها من وجهة نظر عسكرية. عندما استعاد لياقته لاستئناف واجبه، في يوليو من هذا العام، شعر أنه غير قادر على فعل ذلك، وأن من واجبه أن يُقدِم على نوع من الاحتجاج، وعليه

(1) الغداري: الجندي المسلح بغدارة، وهي آلة لإطلاق القذائف بين المسدس والبندقية. (المترجم)

خَطَّ بيانًا هو نفسه اعتبره عصيانًا متعمَدًا للسُلطة العسكرية (انظر صحيفة *التايمز*، 31 يوليو 1917). ونتيجةً لهذا البيان، أُصدِر في حقه أمر بالمثول أمام لجنة طبية في تشستر بتاريخ 16 يوليو، لكنه تقاعس عن الحضور. رُتبت الأمور لانعقاد لجنة ثانية في ليڤربول يوم 20 يوليو، ومَثُل أمامها، فحصل على توصية بالقبول في مستشفى كريغلوكهارت الحربيِّ من أجل تلقي علاج خاص لمدة ثلاثة أشهر.

المريض رجل ذو مظهر صحيٍّ وبنية بدنية جيدة، ما من علامات جسدية لأي اضطراب في الجهاز العصبيِّ. هو يناقش تصرفاته الأخيرة ودوافعها بطريقة بارعة وعقلانية تمامًا، وليس هنالك دلائل على أي استثارة أو اكتئاب. كما يُقر أن رأيه بخصوص الحرب مشوبٌ بمشاعره تجاه وفاة أصدقاء له وأفرادٍ من الرجال الذين كانوا تحت إمرته في فرنسا. إنه، في الوقت الحاليِّ، يؤكد تأكيدًا خاصًا على انعدام الأمل في أي قرار يخص الحرب بالشكل الذي تُدار به الآن، لكنه لم يأتِ على ذكر أي إشارة إلى هذا الجانب من آرائه في البيان الذي أرسله إلى قائد وحدته والذي قُرئ في مجلس العموم. ويُذكر أن وجهة نظره تختلف عما هي لدى مناصري السلمية المعتادين من حيث أنه لن يظل معترضًا على استمرارية الحرب إن هو رأى أي بادرة معقولة نحو اتخاذ قرار حاسم سريع.

لقد عانى من هجمة ذات رئة ثنائية الجانب في سن الحادية عشرة، ومجددًا في الرابعة عشرة. وارتاد مدرسة مارلبورو، حيث أنهكَ قلبَه في لعب كرة القدم. كما ارتاد كلية كلير في كامبريدج لأربعة فصول، وهناك درس القانون ثم التاريخ، لكنّ أيًّا من

الاختصاصين لم يرُق له. غادر كامبريدج وأمضى السنوات التالية قاطنًا في الريف، مُكرسًا وقته للصيد والكريْكت في المقام الأول. لم تكن السياسة تثير اهتمامه. وقد كتب القصائد منذ صباه في أوقات مختلفة، وخلال نقاهته من حادثة ركوب الخيل التي تعرض لها في عام 1914، كتب قصيدة تُدعى «الصياد العجوز»، نُشِرت مؤخرًا مع قصائد أخرى تحت هذا العنوان.

«لقد منحتُ برودبنت إذنًا»، قال برايس: «ولم يخلُ الأمر من بعض الارتياع».

- أجل، أخبرَني أنه سيطلب منك هذا.

- أتعرف ماذا فعل؟ ذهب مرتديًا سروال شريكه في الغرفة الجديد. مارسدن غاضب للغاية.

قال راغلز: «أتقصد ذلك الرجل الذي يركض في أنحاء المستشفى بمؤخرة عارية مثيرًا ذعر فتيات المفرزة التطوعية؟».

«كلا، لقد ارتدى سرواله الآخر. وفكرتُك عما قد يثير ذعر فتاة من المفرزة التطوعية...».

«شهمة»، قال راغلز.

«بل ساذجة»، أجاب برايس: «إلى أقصى حد».

«لماذا مرضاك هم من يسببون البلبلة دائمًا يا ريفرز؟»، سأل بروك.

كان الضباط الأطباء جالسين حول طاولة في غرفة برايس يتناولون القهوة، كما يفعلون مرتين في الأسبوع بعد العشاء. وكانت هذه الاجتماعات تخلو من الطابع الرسميِّ عن عمد، لكنها تخدم بعض الغايات التي من شأن مؤتمر تدارُس حالةٍ أن يخدمها. وبما أن الجميع كان قد قرأ تقرير *التايمز*، لقد طلب برايس من ريفرز أن يتحدث قليلًا عن ساسون.

حاول ريڤرز أن يجعل كلامه موجزًا وبأقل قدر ممكن من إثارة الجدل. وفيما كان يتحدث، انتبه إلى بروك وهو يوازن قلم رصاص بين رأسَي إصبعيه المُزرقَّين شديدَي الطول، وهذه ليست علامة جيدة في أي حال. كان بروك يروق له، لكنهما لا يتفقان دائمًا.

ران الصمت لحظة بعد إنهاء ريڤرز كلامه، ثم سأل راغلز برايس إذا ما كانت الصحافة قد أظهرت أي اهتمام. وبينما أخذ برايس يلخص حوارًا جرى بينه وبين صحيفة *ديلي ميل*، راقب ريڤرز بروك، الذي كان يجلس عاقدًا ذراعيه أمام صدره ينظر من خلف أنفه الضيق الطويل إلى الطاولة. لطالما بدا بروك متجمدًا، حتى صوته -العالي الرفيع المزماري- يبدو كأنه يتصادى في أنحاء مساحات قطبية مترامية الأطراف. حين أنهى برايس حديثه،* التفت بروك إلى ريڤرز وقال: «ماذا تفكر أن تفعل معه؟».

- حسنًا، كنت أراه بشكل يوميٍّ، سأخفض ذلك الآن إلى ثلاث مرات في الأسبوع.

- أليس هذا كثيرًا إلى حدٍّ ما؟ بالنسبة إلى شخص -وفقًا لأقوالك- لا يشكو من أي خطب؟

- لن أتمكن من إقناعه بالعودة في عدد مرات أقل من ذلك.

- ألا يمكن أن يكون تركه وشأنه مبرَّرًا؟

- لا.

- أقصد، إنه يتعرض للتسفيه بمجرد كونه هنا. التسفيه، والذم، بل حتى إن أقرب أصدقائه يكذب عليه *كما* هو *واضح*؟ كنتُ لأرى أن هذا يبرر تركه على حاله.

«كلا، لا شيء يبرر ذلك»، أجاب ريڤرز: «إنه رجل سليم عقليًّا وبدنيًّا. من *واجبه* أن يعود، ومن *واجبي* أن أعمل على ذلك».

- ولا تراودك أي شكوك حيال هذا على الإطلاق؟

- لستُ أرى المشكلة. أنا لن أُعرِّضه لصدمات كهربائية، أو.. أو أعطيه حُقنَ إيثر تحت الجلد. سأطلب منه ببساطة أن يدافع عن موقفه، الذي هو نفسه يعترف أنه توصل إليه لأسباب عاطفية بقدر كبير.

- *الأسى* على موت أصدقائه، *الاشمئزاز* من تقتيل أصدقاء الآخرين. لا يتضح لي السبب الذي يدفع إلى تجاهل عواطف كهذه.

- أنا لا أقول إنه ينبغي تجاهلها، بل فقط إنه يجب ألا يُسمح لها أن تسود.

- على الحس البدئي أن يعرف حدوده؟

بدا ريڤرز قد بوغِت: «ما كنت لأصوغ الأمر بهذا الشكل».

- لمَ لا؟ هذا كلامك أنت، ويبدو أن ساسون شابٌ ذو حس بدئي بشكل ملحوظ، أليس كذلك؟ أعني، بناءً على أقوالك، الأمر يسير لديه وفق مبدأ «الكل أو لا شيء» طوال الوقت. فخلال دقيقة يكون محاربًا سعيدًا، ثم يتحول إلى مناصر سلام قاسٍ في الدقيقة التي تليها.

- بالضبط. إنه غير متسق بالمرة، وهذا بعينه هو السبب الذي يدفع إلى جعله *يجادل* دفاعًا عن موقفه...

- بالاستناد إلى الحس دقيق التعيين.

- لا، بل بالاستناد إلى *المنطق العقلانيّ*.

رفع بروك يديه وأرجع ظهره فوق الكرسي: «آمل أنك لستَ تمانع لعبي لدور محامي الشيطان[1]؟».

«بالطبع لا، فكل الهدف من هذه الاجتماعات هو حماية المريض».

ابتسم بروك، إحدى ابتساماته النادرة الرقيقة ذات السحر غير المتوقَّع: «أهذا ما كنتُ أفعله؟ ظننتُ أنني كنتُ أحميك أنت».

---

(1) محامي الشيطان: مصطلح يُطلق على الشخص الذي يدافع عن آراء مكروهة أو غير شائعة، بهدف إخضاعها للنقاش والتحليل. (المترجم)

القسم الثاني

8

كان پراير قد فقد بعض الوزن خلال إقامته في عنبر رعاية المرضى. وإذ راقب ريڤرز الضوء يحط على وجهه، لاحظ كم باتت عظام وجنتيه حادة.

«أتمانع أن أدخن؟».

«كلا، خذ راحتك»، دفع ريڤرز إليه منفضة فوق الطاولة.

توهج عود الثقاب خلف يدَي پراير اللتين تداريانه: «إنها الأولى منذ ثلاثة أسابيع»، قال: «رباه، أشعر بالدوار».

حاول ريڤرز ألا يعلق، لكنه قال: «ليست هذه فكرة جيدة حقًّا نظرًا إلى الربو، كما تعلم».

- أتظن أن التدخين قد يقصر عمري؟ هل تعرف كم تبلغ مدة نجاة الضباط وسطيًا في فرنسا؟
- أجل، ثلاثة أشهر. أنت لست في فرنسا.

سحب پراير من اللفافة، وأغمض عينيه لحظة. بدا يشبه الصِّبية الذين يراهم المرء عند زوايا الشوارع في الطرف الشرقيِّ بعض الشيء، نفس المسحة التي توحي بمعرفة ثمن كل شيء. قرب ريڤرز الملف إليه: «انتهى حديثنا المرة الماضية وأنت في مأوي الجنود في بوڤوا».

- أجل. بقينا هناك، أوه، نحو أربعة أيام كما أظن، ثم هرعنا عائدين للالتحاق بخط القتال. شننا الهجوم صباح ليلة زحفنا.

- بتاريخ؟

- 23 أبريل.

رفع ريفرز رأسه، لم يكن معهودًا من برايار أن يكون بهذه الدقة.

«عيد القديس جورج. لقد شرب قائدُ الوحدة نخبَه عند تناول الطعام، أتذكر ذلك لأنه كان أمرًا شديد الغباء».

«كنتَ في محطة علاج المصابين يوم...»، ألقى نظرةً على الملف: «29، لذا أمامنا ستة أيام لم تُغطِّها الرواية».

- أجل، أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك في أيٍّ منها.

- هل تتذكر الهجوم؟

- أجل، كان مثل أي هجوم آخر تمامًا.

أمهله ريفرز. كان برايار يبدو عدائيًّا إلى درجة أن ظنه سيرفض المتابعة أول الأمر، لكنه لم يلبث أن رفع اللفافة إلى شفتيه وقال: «حسنًا. أحد السعاة يُحضر لك ساعة يدك وقد ضُبِطت في المقر»، سكوت طويل: «ثم تنتظر، تحاول تهدئة روع أي شخص يتضح لك أنه يكاد يتغوط على نفسه أو قاب قوسين من أن يتقيأ، وتأمل ألا تفعل لا هذا ولا ذاك أنت نفسك. ثم تبدأ بالعد التنازليّ: عشرة، تسعة، ثمانية... وهكذا. تنفخ في الصافرة. تتسلق السلم. ثم تتملص بسرعة عبر فجوة في الأسلاك، تنبطح ممددًا جسدك، وتنتظر خروج البقية -من يُترك في الخلف سيدفع ضريبةً ثقيلة معروفة- ثم تقف، وتبدأ المشي. *ليس* بسرعة، بل تمشي بخطوٍ طبيعيٍّ»، بدأ برايار يبتسم: «في خط مستقيم، عبر فلاة مكشوفة، في وضح النهار، نحو صف من الرشاشات»، هز رأسه: «وبالطبع، النار تُمطرك طوال الطريق».

«بمَ شعرت؟».

نفض برايار الرماد عن لفافته: «دائمًا تريد أن تعرف بما شعرت».

- يعني، أجل. إنك تصف هذا الهجوم كما لو كان.. حدثًا سخيفًا بعض الشيء في...

- ليس «بعض الشيء»، أنا لم أقل بعض الشيء.

- حسنًا، حدث سخيف *للغاية*، في حياة شخص آخر.

- ربما كان يبدو هكذا.

«أحقًا؟»، ترك لپراير وقتًا كي يجيب: «أظنك قادرًا على تحقيق مستوىً كبيرٍ من الانفصال عما حولك، لكنك لا بد أن تكون غير بشريٍّ لتشعر بكل ذلك القدر منه».

«حسنًا، لقد بدا الأمر...»، بدأ پراير بالابتسام مجددًا: «*مثيرًا جنسيًّا*».

رفع ريڤرز يده إلى فمه.

«أرأيت؟»، قال پراير مشيرًا إلى يده: «تسألني بماذا شعرت، ثم لا تصدقني عندما أخبرك».

أنزل ريڤرز يده: «لم أقل إني لا أصدقك، كنت أنتظرك كي تتابع».

- أتعرف أولئك الرجال الذين يلطون بين الشجيرات ثم ينتظرون كي يقفزوا على النساء الغافلات و.. إممم.. يعرضون العدة؟ بدا الأمر كذلك نوعًا ما. أو كما *أتخيل* أن ذلك قد يبدو، لا أود أن تظن أن لدي أي تجارب شخصية.

- وهل كان ذلك شعورك الوحيد؟

«في ما خلا الرعب، نعم»، بدا أنه يجد الحديث مسليًا: «أنرجع إلى «الانفصال غير البشريّ»؟».

«إن وددتَ ذلك».

ضحك پراير: «أظن أن هذا أنسب لنا *كلينا*، ألا توافقني؟».

تركه ريڤرز يتابع. هكذا كان موقف پراير طيلة الأسابيع الثلاثة التي أمضياها يحاولان استرجاع ذكرياته المتعلقة بفرنسا، بدا كأنه يقول: «لا بأس، بوسعك جعلي أنكش الفظاعات من الوحل، بوسعك جعلي أتذكر الميتات، لكنك لن تجعلني أشعر على الإطلاق». كان ريڤرز يحاول أن يحلل حالة الانفصال هذه، وأن يصل إلى العواطف، لكنه يعلم أنه -إن واجه المهمة نفسها- كان ليتعامل معها بنفس طريقة پراير تمامًا.

«تظل تدندن بينك وبين نفسك بشكلٍ ما: «ليس بسرعة كبيرة، الزم يسارك!»، مصممًا على تجنب الاحتشاد، ونجاح ذلك من عدمه يعتمد على شكل الأرض. حيث كنا، كانت الأرض محفرةً بأكملها بحُفر القذائف، وتفرقت

الأرتال على الفور. نظرتُ إلى الخلف...»، توقف ومد يده إلى لفافة تبغ أخرى: «نظرتُ إلى الخلف فوجدتُ الأرض مغطاة بالجرحى، وقد ارتمى بعضهم فوق بعض يتلوون، مثل سمك في بِركة آخذة بالجفاف. لم أُصَب بالرعب قط، شعرتُ فقط... بدفقة مذهلة من الجذل. ثم سمعتُ قذيفة قادمة، وقبل أن يرف لي جفن وجدتُ نفسي في الهواء، *أرفرف* ساقطًا...»، راح يرفرف بأصابعه في قوس هابط: «أعرف أن الأمر لا يمكن أن يكون قد جرى هكذا، لكن هذا ما أتذكره. وحين استعدتُ وعيي، كنتُ داخل فوهة برفقة نحو ستة رجال. لم أستطع الحراك، ظننت أنني شُلِلت أول الأمر، غير أنني استطعتُ بعد ذلك أن أحرك قدميَّ. قلت لهم أن يُخرجوا البراندي من جيبي، ورحنا نُمرِّره في ما بيننا. ثم ظهر رجل على الطرف الآخر للفوهة، عند الحافة تمامًا، وبدلًا من الزحف إلى الأسفل، وضع يديه على جنبيه، هكذا، ثم انزلق على مؤخرته. وفجأةً، انفجر الجميع ضاحكين».

- تقول «استعدتُ وعيي»؟ أتعرف كم المدة التي غبتَ فيها عن الوعي؟

- ليست لدي فكرة.

- لكنك كنتَ قادرًا على الكلام؟

- أجل، لقد قلتُ لهم أن يأخذوا البراندي.

- ثم ماذا؟

- ثم انتظرنا حتى حلَّ الظلام، واندفعنا نحو الخط. رأونا حالما وصلنا إلى الأسلاك، كان ثمة رجلان جريحان.

- ألم يدُر حديث عن إرسالك إلى محطة علاج مصابين حين رجعت؟

«لا، كنتُ أتولى تنظيم الآخرين هناك»، أضاف بمرارة: «لم يدُر حديث عن إرسال أي أحد إلى أي مكان. عادةً ما يتراجع المرء عقب الخسارات الفادحة، لكننا لم نتراجع، تركونا هناك وحسب».

- ولستَ تتذكر أي شيء آخر؟

- كلا، وقد *حاولتُ* ذلك.

- أجل، أنا واثق أنك فعلت.

ران صمتٌ طويل. «أظنك لم تتلقَّ ردًّا من قائد الوحدة؟».

«كلا، كنتُ لأخبرك لو تلقّيت».

جلس پراير يتأمل بعض الوقت. «حسنًا، أظن أن علينا متابعة الانتظار»، انحنى ليطفئ لفافته: «أتعلم؟ قلتَ لي مرة إنني لا أستطيع القبول بغير الفوز»، هز رأسه: «أنت الذي لا تستطيع القبول بغيره».

«قد يصدمك هذا يا سيد پراير، لكنني كنتُ أفترض أننا في الصف نفسه بالأحرى».

ابتسم پراير: «قد يصدمك هذا يا د. ريڤرز، لكنني كنتُ *أفترض* أننا لسنا كذلك بالأحرى».

صمت. حبس ريڤرز تنهيدته: «هذا يجعل العلاقة بين الطبيب والمريض صعبة إلى حد ما».

رفع پراير كتفيه، من الواضح أنه لا يرى الأمر مشكلته هو.

«تظن أنك تعرف ما حدث، أليس كذلك؟»، قال ريڤرز.

«لقد قلتُ لك إنني لا أتذكر».

كانت الخصومة في نبرته صارخة، كما لو أنهما في بداية لقائهما، حين كان من شبه المستحيل الحصول على كلمة متحضّرة منه. «أنا آسف، لم يكن كلامي واضحًا. لم أقصد أنك تعرف، بل فقط إنك ربما تملك *تصورًا*».

هز پراير رأسه: «لا، ما من تصوُر».

اقترب رجل قصير ذو شعر داكن من الباب، رامشًا بعينيه أمام الوهج المفاجئ لضوء الشمس. رفع ساسون -وهو جالس على السرير- عينيه عن مضرب الغولف الذي كان ينظفه: «نعم؟».

«لقــ. لقد أحضرت هذه».

تأتأة. ليست بشدة غيرها، لكنها شديدة بما يكفي. بذل ساسون جهدًا كي يتصرف بتهذيب: «ما هي؟ لا أستطيع أن أرى».

كُتُب. كتابه هو. خمس نسخ، لا أقل. «رباه، قارئ».

«كنتُ أتساءل إذا ما كا.. كان يمــ. يمكن أن تتلطف وتوقــ. توقعها؟».

«أجل، بالطبع». ترك ساسون المضرب ومد يده إلى قلمه. كان بوسعه أن ينجز المهمة خلال لحظات قليلة، لكنه أحس أن زائره راغب في الحديث، وهو في النهاية قد اشترى خمس نسخ. شعر ساسون بالفضول: «لماذا خمسة؟ هل أورده مكتبُ الحرب ضمن قائمة قراءة؟».

«إنها مـــ. من أجـــ. أجل عا.. عائلتي».

يا إلهي. نقل ساسون نفسه من السرير إلى الطاولة وفتح الكتاب الأول. «ما الاسم الذي سأكتبه؟».

«سوزان أوين. إنـــ. إنها وا.. والدتي».

همَّ ساسون بالكتابة، ثم تريث: «هل أنت... واثق أن والدتك ترغب أن يقال لها إن «بيرت أصيب بالسفلس»؟ لقد واجهتُ صعوبة في إقناعهم بطباعة هذا».

«لـــ. لن يصـــ. يصدمها ذ.. ذلك».

«حقًّا؟». لا يستطيع المرء إلا أن يتفكر في طبيعة معرفة السيدة أوين السابقة ببيرت.

«أنا أخـــ. أخبرها بكل شيء، فـــ. في رسا.. رسائلي».

«يا للسماء»، قال ساسون بمرح، وعاد إلى الكتاب.

نظر أوين إلى مؤخر عنق ساسون، حيث ثمة خط رفيع من الخاكي يظهر بالكاد تحت الحرير الأرجوانيِّ للروب دو شامبر. «ألا تفعل ذلك أنت؟».

فتح ساسون فمه ثم أغلقه من جديد. «لقد توفي أخي في غاليبولي»، قال أخيرًا: «أظن أن والدتي لديها ما يغنيها عن أي بوح يقلب المواجع من طرفي».

«أعـــ. أعتقد أنها لا.. لا بد مشـــ. مشغولة البال من وجـــ. وجودك هنا».

«أوه، لا أظن ذلك. بل على العكس، أعتقد أن فكرة خبلي واحدة من عزاءاتها القليلة»، رفع عينيه بنظرة سريعة: «كوني مجنونًا أفضل من أن أكون مناصرًا للسلام». عندما ظل أوين على خلوِّ وجهه من التعابير، أضاف: «أنت تعرف لماذا أنا هنا، صحيح؟».

- أجل.

- وما رأيك بذلك؟

- لقد اتفقتُ مع كل كلـــ. كلمة.

ابتسم ساسون: «وهكذا فعل صديقي غريفز»، فتح الكتاب التالي: «لمن هذه النسخة؟».

في أثناء تقديم أوين للأسماء، كان ليفعل أي شيء مقابل أن ينطق جملةً واحدة دون تأتأة. لا أمل في ذلك، فقد كان متوترًا بشكل مفرط. كل ما في ساسون يصيبه بالرهبة؛ حالته كشاعر له أعمال منشورة، طوله، حسنُ طلعته، صوته الأرستقراطي المشذب: سريع أحيانًا ومتردد أحيانًا أخرى لكنه بارد دائمًا، التعبير المتبرم، طريقته في ألا ينظر إليك حين تتحدث- ربما هو الخجل، لكنه بدا تكبرًا. وأكثر من كل شيء، شجاعته ذائعة الصيت. لدى أوين أسبابه الخاصة التي تجعله حساسًا تجاه ذلك.

مد ساسون يده إلى الكتاب الأخير. شعر أوين أن اللقاء قد بدأ يفلت من يده، فقال بنبرة لا تخلو من التوق: «كا.. كانت «فـــ. فراش المـــ. الموت» المفـــ. مفضلة لدي»، واسترخى فجأةً. لا يهم كيف يراه ساسون هذا، بما أن ساسون الحقيقيَّ هو الذي في القصائد. اقتبس معتمدًا على ذاكرته: ««إنه شاب، كان يكره الحرب؛ كيف عليه هو أن يموت/ بينما ينتصر سادة الحملات المسنون القساة دون أن يمسهم أذى؟/ لكن الموت أجاب: «اخترتُه هو»، لذا رحل»، هذا جميل».

توقف ساسون عن التوقيع قليلًا: «أجل، كنتُ... كنت راضيًا جدًّا عن هذه».

«أوه، و «المفتدي». «واجهَني، يترنح من إعيائه،/ مغالبًا بكتفه حمولته الصعبة من ألواح الخشب./ أقول إنه المسيح، الذي عمل كي يبارك...»»، قطع القصيدة هنا: «كنتُ أطمح إلى كتابة ذلك طوال ثلاث سنين».

«ربما يجدر بك أن تُسرَّ لكونك لم تفعل».

ذوى الضوء من وجه أوين: «المعذرة؟».

«يعني، ألا تظن أنه كلام سهل بالأحرى؟ «أقول إنه المسيح»؟».

«أتقـــ. تقصد أنك لم.. لم تكن تعـــ. تعني ذلك؟».

«أوه، بلى، كنت أعنيه. الكتاب لا يطرح وجهة نظر ما، بل هو يرصد.. يرصد تطور وجهة النظر هذه. وهذه على الأرجح أول قصيدة تحاول -ولو محاولة- أن تنظر إلى الحرب بشكل واقعيٍّ، وهي لا تكاد تقترب من ذلك كفاية»، سكت قليلًا: «الحقيقة، لم يَرِد عن المسيح أنه ألقى الكثير من قنابل ميلز».

«صحيح، أفــ.. أفهم ما تعــ.. تعنيه. بتُّ أفكر في ذلك كــ.. كثيرًا مؤخرًا».

بالكاد سمعه ساسون: «سئمت من ذلك للغاية في نهاية الأمر، كل دروب الجلجثة تلك القابعة عند مفترقات الطرق بانتظار تحويلها إلى رموز. هنالك رجل كنت أعرفه، كان اسمه پوتر. أتعرف قصص تماثيل المصلوب العجائبية؟ «*كانت القذائف تنهمر من كل حدب وصوب، لكن صورة إلهنا لم تُمَس بأذى*»؟ حسنًا، لقد اغتاظ پوتر من تلك القصص إلى درجة أن قرر الانطلاق في حملة قوامها رجل واحد. كلما رأى تمثالًا سليمًا، كان يستخدمه هدفًا للتدريب على الرماية. لقد كان بوسعك سماعه عن بُعد أميال: «**واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، اللقيط على الصليب، أطلِق!**». لم يكن ثمة الكثير من الصلبان العجائبية ضمن قطاع پوتر من الجبهة»، تلكأ: «لكن ربما لا يجدر بي أن أقول هذا؟ أقصد، ما أدراني أنك لست...».

«لا أدري ما أنا، لكنني موقن أني لن أرغب في.. في إيمان لا يستطيع مواجهة الحقائق».

انتبه ساسون إلى أن أوين كان واقفًا بلصقه، كما لو كان ضابطًا أدنى رتبة.

«لمَ لا تجلس؟»، قال مشيرًا إليه نحو السرير: «وتخبرني باسمك، أتصور أن هذه النسخة لك أنت؟».

«أجل. ويلفريد، ويلفريد أوين».

خَطَّ ساسون توقيعه وأغلق الكتاب: «أتقول إنك بتَّ تفكر في الأمر؟».

بدا الاستحياء على أوين: «أجل».

- وهل أثمر ذلك؟ أقصد، هل توصلت إلى أي نتائج؟

- لا شيء سوى أنني لو كنت سأسمي نفسي مسيحيًا، سيتعين عليَّ أن أسمي نفسي مناصرًا للسلام كذلك. لا أرى أن من الممكن للمرء أن يسـ.. يسمي نفسه مسـ.. مسيحيًا و... ويتغافل عـ.. عن التفاصيل المربكة ببساطة.

- أنت لا تصلح لنيل رتبة الأسقفية.

- كلا. حسنًا، أظن أن بوسعي التعايش مع ذلك.

- وهل تسمي نفسك مناصرًا للسلام؟

سكتة طويلة. «لا. وأنت؟».

- لا.

- هذا طريف، كما تعلم، لم أفكر في الأمر إطلاقًا في فرنسا.

«لا، لا أحد يفعل ذلك. نكون مشغولين ومتعَبين أكثر من أن يُتاح لنا هذا»، ابتسم ساسون: «*وأصحاء* كذلك».

«لكن ليس هذا كل ما في الأمر، صحيح؟ أحيانًا حين تكون وحدك، أعني في الخنادق، يعتريك إحساس بشيء عتيق في الليل. كما لو أن الخنادق كانت هناك منذ الأزل. أتعلم؟ أحد الخنادق التي رابطنا فيها، كان يحوي جماجم في جداره الجانبيِّ. كنتَ تنظر خلفك فـ... مثل الفطر. وأقول لك إن الاعتقاد بأنها جماجم رجال من جيش مارلبورو[1] كان *أسهل* من من من التفكير في أنهم كانوا أحياءً قبل عامين. الأمر يبدو كما لو أن مستخلَص كل الحروب الأخرى... تجسد في هذه الحرب بطريقةٍ ما، وهذا يجعلها شيئًا... تكاد لا تستطيع أن تتحداه. أشبه بصوت شديد العمق يقول: *تابع جريك أيها الرجل الصغير*، وكن ممتنًا *إن* نجوت».

للحظة، شعر ساسون بتنميلٍ في مؤخر عنقه كما حدث حين تحدث كامبل عن الجواسيس الألمان للمرة الأولى، بيد أن هذا لم يكن جنونًا. «لقد مررتُ بتجربة مماثلة. حسنًا، لا أدري إن كانت مماثلة. كنت أسير حاملًا جِرايات[2]

(1) جيش مارلبورو: أحد الجيوش التي لمع نجمها في حرب الخلافة الإسبانية (1701-1714). (المترجم)

(2) جمع جراية: وهي حصة الجندي من الطعام اليومي. (المترجم)

الجنود ذات ليلة فرأيت عربات المدافع أمام خط الأفق، والوهج ينطلق منها. الأمر الذي تراه كل ليلة، غير أنني بدوتُ كأني أراه من المستقبل. بعد مئة عام، ستظل المدافع تحصد الجماجم. وقد تهيأ لي أنني أقف في ذلك الزمان وأنظر إلى الخلف، أظنني رأيتُ أشباحنا».

صمْت. لقد تجاوزا حدًّا لم يكن أيٌّ منهما ينوي بلوغه، وظلا لحظةً لا يدريان كيف يرجعان. بالتدريج، أخذا يتململان، كلٌّ ينظر حوله، إلى نور الشمس المتدفق على السريرين والكرسيين، إلى شفرة حلاقة ساسون التي تتألق على المغسلة وقد لطخت بقع الصابون مسكتها. نظر ساسون إلى ساعة يده: «سوف أتأخر عن الغولف».

نهض أوين من فوره: «حسنًا، شكرًا على هذه»، قال وهو يأخذ الكتب، ثم ضحك: «شكرًا لأنك كتبته».

تبعه ساسون إلى الباب: «أقلت إنك تكتب؟».

- لم أقل، لكنني أكتب.

- الشِّعر؟

- أجل، لا شيء مطبوعًا بعد. أوه، هذا يذكِّرني، أنا محرر لمجلة *الهيدرا*، مجلة المستشفى؟ كنتُ أتساءل إذا ما أمكن أن تسمح لنا بنشر شيء، لا داعي أن يكون...

«أجل، سأجد شيئًا ما»، فتح ساسون الباب: «امنحني بضعة أيام. بوسعك أن تُحضِر قصائدك».

قال جملته الأخيرة بدرجة من الكياسة المقرَّرة وانعدام الحماس الصريح دفعت أوين إلى أن ينفجر ضاحكًا: «كلا، أنا...».

«لا، أعني ذلك».

«حسنًا»، قال أوين وهو ما يزال يضحك: «إنها قصيرة إلى حد كبير».

«لا بأس. إذًا فهي لا تتبنى نموذج الملاحم، صحيح؟».

«أوه، إنها لا تتحدث عن الحرب»، تردد: «أنا لا أكتب عن ذلك».

«وما السبب؟».

«أعــ. أعتقد أنني لطالما نظرت إلى الشــ.. الشعر على أنه نقيض كل ذلك. نقيض القبح»، كافح أوين كي يوضح وجهة نظر كان يتخلى عنها فيما هو يتكلم تمامًا: «شــ.. شيء نــ.. نلوذ بــ.. به».

أومأ ساسون برأسه: «كلام منصِف بما يكفي»، أضاف معابثًا: «غير أنه يبدو شبيهًا بعض الشيء بامتلاك إيمان لا يجرؤ على مواجهة الحقائق»، رأى تعبير أوين يتغير: «اسمع، لا يهم عما تتحدث القصائد، أحضرها على أي حال».

«أجل، سأفعل. شكرًا لك».

كان أندرسون، وهو يتبع ساسون إلى داخل حانة نادي الغولف، يعلم أنه مدين له باعتذار. لقد أضاع تسديدة مهمة للغاية عند الحفرة السابعة عشرة، لخشيته من أنه كان يخسر، ولم يكتفِ في حمأة اللحظة بشتم ساسون، بل رفع المضرب وهدده بالضرب. بدا ساسون مجفلًا آنذاك، بل مذعورًا حتى، لكنه تجاوز الموقف بالضحك. وعند الحفرة الثامنة عشرة، حرص على أن يطلب نصيحة أندرسون حول المضرب الحديديّ الذي ينبغي له استخدامه. والآن، ها هو يستدير نحو أندرسون ويسأله: «المعتاد؟».

أومأ أندرسون أن أجل. المشكلة أن الأمر -كما حدَّث نفسه- بدا موحيًا جدًّا بسوء الروح الرياضية، في حين أنه لم يؤخر اعتذاره في الواقع بسبب إحجامٍ عن الاعتراف بخطئه، بل نتيجةً للاشمئزاز الكبير الذي شعر به نحو ما بدر منه. لقد تصرف مثل طفل مدلل. *افعل شيئًا حيال ذلك إذًا*، قال لنفسه. «أعتذرُ بشأن ذلك»، قال مشيرًا برأسه نحو الملعب.

«لا بأس»، أدار ساسون ظهره للمشرب وابتسم: «جميعنا نمر بأيام سيئة».

«إليك نصف تاجك[1]».

كشَّر ساسون عن ابتسامة ودسَّ القطعة في جيبه. كان يفكر، وهو يلتفت إلى المشرب من جديد، أن المضرب لو هوى على رأسه لأنزل به إصابة أشد

(1) نصف التاج: قطعة نقدية بريطانية تساوي قيمتها شلنَين ونصفًا، بطُل استعمالُها عام 1970. (المترجم)

خطورةً بكثير مما تعرض له في أراس. استحضر ريفرز في ذهنه وسأله: *ماذا كنت تقول عن «الأمان»؟ ليس ثمة ما هو أخطر من لعب الغولف مع المجانين.* «مجانين»، تلك كلمة ما كان ليجرؤ على استخدامها أمام ريفرز، لذا منحه الصياخُ بها على صورته المتخيَّلة متعةً إضافية.

أخذا مشروبيهما وبحثا عن ركن هادئ، ثم بدأا مباحثاتهما المعتادة حول المباراة. وتحت غطاء الدردشة المألوفة، راح أندرسون يراقب ساسون -وجه وسيم يميل إلى الخلو من التعابير، يدان كبيرتان تحيطان بكأسه- ويفكر كم هو قليل ما يعرفه عنه، أو يريد معرفته عنه. كان بينهما ما يشبه اتفاقًا ضمنيًا على ألا يتحدثا عن غير الغولف. لقد سبق لأندرسون أن قرأ خطاب التصريح، لكنه ما كان ليفكر في مناقشة موقف ساسون من الحرب حتى في أحلامه، والسبب الأكبر هو أن درجةً ما من الحميمية ستكون مطلوبةً في المقابل حينذاك. قد يُضطر إلى الكشف عن أسباب وجوده هو في كريغلوكهارت، عن رعبه من الدم. تراءت له لمحة خاطفة للصورة التي كان رأس ساسون ليبدو عليها لو أنه ضربه، فتضيقت قبضته حول الكأس. «ما زلتَ لا تأخذ وقتك»، قال له: «أنت تستعجل في التسديد».

ثمة أسباب أخرى أيضًا تجعله لا يريد أن يتحدث عن الحرب، فحديثٌ مثل هذا لا بد أن يعزز شكوكه هو نفسه، وهي مستفحلة بما يكفي بالفعل. حتى إنه يحلم أحلامًا عن الحرب اللعينة، لا كوابيس فقط، فهو معتاد على هذه؛ لقد حلم أنه يتحدث في مناظرة حول وجوب استمرارها من عدمه. في حلمه، كان قد تكلم لصالح استمرارها حتى انهيار الألمان، لكن تحليل ريفرز لم يترك له مجالًا للشك في ما يتعلق بالمدى الذي يبلغه رعبه من المسألة برمتها. كان يشعر بأمان مع ريفرز، لمعرفته أنه يشاركه رعبه، ويشاركه كذلك القناعة بوجوب استمرارها بصرف النظر عن كل شيء.

«لا أعرف أيجدر بي إنفاق نصف التاج ذاك أم حفظه في برواز»، كان ساسون يقول: «لا أعتقد أنني سأفوز بغيره يومًا».

كان قوله ذلك لتخفيف انزعاج أندرسون من فقدانه لأعصابه في الملعب. ساسون رفيق سارّ، ما من شك في ذلك. إنه ودود ومتواضع، لكن التصريح لم يكن يوحي بالتواضع. الشيء الأساسيُّ الذي تبدى لأندرسون في الخطاب هو

غطرسته، افتراضه الشائن المفرط أن كل الذين يخالفونه «أجلاف». أتراني جلفًا؟ أراد أن يسأله. أترى أن ريڤرز جلف؟ لكن لا داعي إلى الانفعال، فريڤرز سيبين له خطأه عما قريب.

«لن أراك غدًا، أليس كذلك؟»، كان ساسون يقول: «زوجتك قادمة؟».

«كلا، لقد اضطررت إلى إلغاء زيارتها للأسف، لذا سيظل الوضع على حاله المعتاد»، أخذ كأس ساسون الفارغة ونهض: «بوسعك أن *تحاول* جعلها خمسة شلنات، إن أردت».

راقب پراير الأضواء الكهرمانية تتغامز داخل الجعة أمامه. كان جالسًا في ركن يكتنفه الظل من حانة في منطقة حقيرة ما من إدنبرة، ولم يكن يعرف أين هو. لقد مشى أميالًا ذلك المساء، دون أن يعترف حتى لنفسه بما كان يبحث عنه، وقادته الشوارع الماكرة الملتفة تدريجيًا أعمق فأعمق داخل حيٍّ يتدلى فيه الغسيل -بلون أبيض رماديٍّ- من شرفات مكدسة فوق بعضها، وذكَّرته رائحة قلي شرائح اللحم بالديار.

إذ استحضر ذكرى الرائحة، أخذت معدته تقرقع. لم يكن قد تناول لقمةً طوال المساء، باستثناء كيس فستق. فتات الملح لم يزل عالقًا على شفتيه، يلسع التشققات في موضع البشرة التي جفت في أثناء هجمة الربو. غير أن الأمر يستحق؛ أن يجلس بهدوء، أن يتسمَّع إلى أصوات لا تُتأتئ، أن يحرر عينيه من ألم اللون الخاكيِّ.

ما من تصوُّر. كان قد كذب على ريڤرز بشأن ذلك. بالنسبة إليه، مسألة شرفٍ أن يكذب على ريڤرز ولو مرة على الأقل خلال كل لقاء. أفرغ ثُمالة كأسه وخرج إلى الليل.

على بُعد مسافة قصيرة عبر الشارع توجد كافتيريا، كان قد مر بها في طريقه إلى الحانة وأغرته بالدخول، لكن الباب فُتِح ونفحة الهواء الحار الرطب العابق برائحة ماء غسل الصحون جعلته يرجع عن رأيه، إلا أنه الآن جائع أكثر من أن يعبأ بذلك. دخل، ولاحظ كيف أن الوجوه الداخلية للنوافذ تقطر من البخار المتكثف، والهواء الرطب يدس نفسه داخل الفراغات الفاصلة بين زيِّه وجلده. حط صمتٌ قصير؛ من غير المحتمل أن يكون شخص يرتدي زيَّ

ضابط غيرَ ملحوظ أو مرحّبًا به هنا. سيتناول شيئًا، سمكًا وبطاطا مقلية، بسرعة ثم يذهب.

ثمة مجموعة من النساء يجلسن إلى الطاولة المجاورة. ثلاث منهن شابات، والرابعة أكبر سنًّا، في الخامسة والثلاثين، الأربعين ربما، بِقُرَمٍ مسودة تقوم من فمها مقام الأسنان. وفقًا لما استطاع أن يتبينه من المحادثة الدائرة، كان اسمها ليزي، والأخريات: مادج، الشقراء الجميلة، بيتي، وهي داكنة ونحيلة، وسارا، التي تجلس وظهرها له. وبما أن بشراتهن جميعًا يشوبها شيء من الصفار، افترض أنهن عاملات في مصنع ذخيرة؛ نخيريّات[1]، كما تحب الصحفُ أن تسميهن. كانت ليزي تواظب على الترفيه عن الفتيات الأصغر بسلسلة من القصص.

«ثمة فتاة ساذجة بعض الشيء تقطن بابًا على باب بجوار محترفة، وأنتن تعرفن ماذا تكون المحترفة»، طرفت ليزي إليه بعينيها وأخفضت صوتها: «كانت واقفة عند الباب في أحد الأيام، فإذا بالمحترفة قادمة تقطع الشارع، تتزين بملابس *تسلب الألباب* كما يقال. فقالت: «إيه، أنت تتأنقين بشكل محبب إلى النفس دائمًا»، وقالت: «لديك ثياب جميلة، أنا أحب قبعاتك». فقالت المحترفة: «طيب، لمَ لا تنزلين إلى وسط البلد كما أفعل؟»، وقالت: «إن غمزك رجل ما، رُدي له الغمزة واذهبي معه ودعيه يحصل على ما يريد ثم تقاضي منه سبعة شلنات ونصفًا. وبعد ذلك اذهبي إلى *آر أند* كيه مودز واشتري لنفسك قبعة». وفي اليوم التالي جاءت المحترفة تقطع الشارع من جديد. «مرحبًا». قالت لها: «أهلًا». «هل حصلتِ على قبعة؟». قالت لها: «لا». «ألم تفعلي كما قلت لك إذًا؟». قالت: «بلى، بالطبع فعلت»، وقالت: «نزلتُ إلى وسط البلد وكان هناك رجل غمزني فرددتُ إليه الغمزة. قال: 'هيا إلى الأرض البراح'»، وقالت: «ذهبتُ إلى الأرض البراح معه، وتركته يحصل على ما أراد. ثم قال: 'بكم هذا؟'، فقلت: 'سبعة شلنات ونصف'، قال: 'اغربي من هنا'، وحين عدتُ كان قد اختفى»».

---

(1) لقد شاع استخدام المصطلح المُحدَث (Munitionettes) -وهو صفة مؤنثة منسوبة إلى الذخيرة- خلال الحرب العالمية الأولى لوصف النساء العاملات في مصانع الذخائر اللاتي لعبن دورًا مهمًا في الحرب، وارتأيتُ تعريبه بإحداث مصطلحٍ مقابل. (المترجم)

زعقت الفتيات يضحكن، فنظر إليهن من جديد. تلك التي تُدعى مادج كانت جميلة جدًّا، لكن لا أمل في استدراجها خارج المجموعة، لذا رأى أن ينسى الأمر. حالما وصلت وجبته، بدأ يحشو فمه بأصابع البطاطا الرخوة وقطع السمك المغطاة بطبقة سميكة من التتبيلة، ويمسح الدهن بظهر يده.

«ستصاب بالفواق».

رفع رأسه فوجد سارا، التي كانت تجلس وظهرها له. «عليكِ أن تفاجئيني إذًا، أليس كذلك؟».

«سأمرِّر مفتاحي على ظهرك إن أردت».

«هذا من أجل إيقاف الرعاف يا سارا»، قالت بيتي.

«إنها تعرف ماذا تفعل»، قالت ليزي.

فقالت مادج: «من أجل الفواق، يُفترض بك أن تشرب من الطرف الآخر للكوب».

أخذت هي وپراير يحدقان إلى بعضهما من فوق الطاولة.

«لكنه مقلب، أليس كذلك؟»، قال: «لا يمكن فعل هذا».

- بل يمكن طبعًا.

- هيا إذًا، أرينا.

غمست أنفها الصغير المستقيم في كوبها، لعقت بلسانها وبقبقت، ثم رفعت رأسها ضاحكةً ومسحت ذقنها. وكزتها بيتي في ضلوعها بغيرة بادية: «ماذا دهاك؟ ستتسببين في طردنا».

كان صاحب الكافتيريا يرمقهن من خلف الصندوق، وهو يُلمِّع ببطء كأسًا بمنشفة صحون ظاهرة القذارة. عادت الفتيات إلى شايهن، ينفجرن ضاحكاتٍ انفجارات صغيرة تهتز لها أكتافهن، فيما أدار پراير وجهه وأتى على ما تبقى من وجبته. كان واعيًا تجاه سارا بجانبه؛ لها شعر بُنيٌّ داكن شديد السماكة والكثافة، لكن سطحه مكسوٌّ -على شكل هالة من نوعٍ ما- بخصائل أخرى، حمراء ونحاسية وكستنائية. لم يسبق له أن رأى مثل هذا الشعر. نظر إليها، فاستدارت وحدقت إليه تحديقة مستطرفة رطيبة من عينين مائلتين إلى الخضرة. قال: «أتودين تناول شراب؟».

نظرت إلى كوبها.

- لا، أقصد شرابًا لائقًا.

- الحانات في هذه الأنحاء لا تسمح للنساء بالدخول.

- ألا يوجد فندق؟

- بلى، هناك الكمبرلاند، لكن...

تبادلت الأخريات النظرات في ما بينهن، ثم قالت ليزي: «هيا بنا يا فتيات، أعتقد أن صنارة صديقتنا سارا غمزت».

نهضت الثلاث، تمنَّين ليلةً سعيدة بكياسة واندلقن إلى خارج الكافتيريا، لينفجرن بالكركرة من جديد بعد بلوغهن الرصيف.

«أنذهب إذًا؟»، قال پراير.

نظرت سارا إليه: «أجل، لا بأس».

في الخارج، التفتت نحوه: «ما زلتُ لا أعرف اسمك».

«پراير»، قال أوتوماتيكيًا.

انفجرت ضاحكة: «أليست لديكم أسماء مسيحية يا بشر؟».

«بيلي»، وأراد أن يردف: *وأنا لستُ «يا بشر»*.

«واسمي سارا، سارا لام»، مدت إليه يدها بطريقة مباشرة تكاد تكون صبيانية. أسره ذلك، إذ لم يكن فيها ما هو صبيانيٌّ غيره.

«حسنًا يا سارا لام، قودي الطريق».

شرابها المفضل كان نبيذ پورت بالليمون. شُدِهَ پراير من السرعة التي أخذت تتجرع الكؤوس بها، وخامرَ وجنتيها توردٌ انتشر في موضع مختلف عن الذي تضع فيه حمرة الخدود، فبدت كأن وجهها زاغ خارج بؤرة التركيز. قالت إنها تعمل في مصنع، تُصنِّع صواعق قنابل. ورديات مدتها اثنتا عشرة ساعة، ستة أيام في الأسبوع، لكنها تحب العمل ومردوده جيد، «خمسون شلنًا في الأسبوع».

- أفترض أنه مبلغ معتبر.

- إنه كذلك بكل تأكيد، كنت أجني عشرة شلنات قبل الحرب.

فكر في ما يمكن للصواعق التي تُصنِّعها أن تفعل باللحم والعظام، وانتفخ ذهنه عندما هددت إحدى الذكريات بالطفو إلى السطح. «لكنك لستِ اسكتلندية، أليس كذلك؟».

- لا، جوردية[1]. حسنًا، ما قد تطلقون عليه *أنتم* اسم الجورديين.

- وهل جاء أبوك بحثًا عن عمل؟

- لا، ما زالوا هناك. أنا أقيم في بنسيون آخر الطريق.

آه، قال لنفسه.

«*آه*، تقول لنفسك»، نظرت إليه نظرة مباشرة تشي بالاستطراف: «أظن أنك رجل سيئ».

- لا، لستُ كذلك. لا يمكن لشخص سيئ أن يكون بهذه الشفافية.

- هذا صحيح.

- أليس لديك صاحب؟

- ماذا تظن؟

- لا أظنك كنت لتجلسي هنا لو كان لديك.

«أوه، لعلي واحدة من تلك الفتيات اللاتي يصاحبن اثنين معًا، أنى لك أن تدري؟»، أطرقت تنظر في كأسها: «لا، ليس لدي صاحب».

- لمَ لا؟ لا يمكن أن يكون كل من في اسكتلندا عميانًا.

- ربما لستُ متوفرة في السوق.

لم يدرِ ماذا يستشف منها، لكنه -في الوقت نفسه- يعلم أنه كان منقطعًا عن النساء. بدا أنهن تغيرن كثيرًا خلال الحرب، توسعن بكل الطرق الممكنة، في حين تقلص الرجال عبر الفترة نفسها إلى مساحة أصغر فأصغر.

«كان لدي صاحب في ما مضى»، قالت: «لوس».

غريب، قال لنفسه وهو ينهض ويذهب إلى المشرب لشراء المزيد من المشاريب، غريبٌ أن تفي كلمة واحدة بالغرض. لكن أيضًا، لمَ لا؟ فاللغة تنفد

---

(1) الجورديون: أهالي منطقة تاينسايد الواقعة شمال شرقي إنجلترا، وثمة إجماع على أن كلمة جوردي مشتقة من تصغير لاسم «جورج». (المترجم)

منك في النهاية، وتبقى الأسماء لتقول كل شيء. مونس، لوس، إيبر، السوم. وأراس[1]. دفع ثمن المشاريب وحملها عائدًا إلى طاولتهما. فكر في أنه لا يريد أن يسمع عن الفتى، وأنه على الأرجح سيسمع في كل حال. ولقد أصاب في ذلك.

«كنتُ أعمل في الخدمة آنذاك، لم يبدُ...»، دبَّت الحيوية في صوتها: «لم يبدُ ذلك قابلًا للاستيعاب. ثم أتى صديقه ليراني. لم يكن يُفترض بي استقبال طالبي قرب. «طالبو قرب»، إلى هذه الدرجة كانت قديمة الطراز. ولا سيما من *الجنود*. «رحماك يا *ألله*[2]». أيًّا يكن، جاء إلى الباب الأماميّ و...»، لوَّحت بيدها بهمَّة فاترة: «طلبتُ منه أن يذهب، ثم تسللت إلى القبو وأدخلته من الباب الخلفيّ»، تجرعت من شرابها: «كان غازنا نحن»، قالت بأجفان محمرة:«هل كنت تعلم ذلك؟».

«أجل».

«غازنا اللعين نحن لا غيرنا. بعد ذهابه، لم أستطع أن أصدق ذلك كما تعلم. أخذتُ أدُور حول الطاولة وكان ذلك أشبه... أتعرف حين تعلَق نغمةٌ ما في رأسك؟ ظللتُ أفكر، غازنا. على كل حال، نزلَت بعد قليل وقالت: «أين الشاي؟»، فقلت: «يمكنك أن تري بعينيك، ليس جاهزًا». دعك من طول السيرة، قالت ورددتُ فردَّت وقلت، وفي النهاية أفرغتُ جام غضبي. قالت لي: «ستقترفين خطأً فادحًا إن فرطتِ بهذا العمل، تعرفين ذلك يا سارا»، فقلت: «نعم نعم[3]؟»، قالت: «نحن لا نقول: 'نعم نعم' يا سارا، نقول 'المعذرة'»، قلت: «لا بأس»، وقلت: «'*المعذرة*'. لكن سواءً أكانت 'نعم نعم' أم 'المعذرة'، فهذا لا يغير حقيقة أن الأجر عشرة شلنات في الأسبوع وأن عليكِ أن تضعيه حيث وضع القردُ المكسرات[4]». وفي الليلة نفسها كنتُ أوضِّب أمتعتي، دون

---

(1) مناطق شهدت معارك مهمة في الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

(2) في هذا الموضع سخرية من لهجة مخدومتها. (المترجم)

(3) في النص الأصليّ إشارة في هذا الموضع إلى استخدام سارا للهجتها التي تُعتبر سوقية لدى علية القوم. (المترجم)

(4) مقولة دارجة قديمًا في بعض المناطق البريطانية، وهي تسميل لغوي يفيد معنى «ضعه في مؤخرتك»، ربما كانت مأخوذة من نكتة قديمة عن رجل يصحب قرده معه إلى الحانة، فيحرجه بتصرفاته. (المترجم)

مكافأة نهاية خدمة، وأنت تعرف ما كان يعنيه هذا قبل الحرب؟»، نظرت إليه من أعلى إلى أسفل: «لا، لا أظنك تعرف. على أي حال، عدتُ إلى البيت فقالت أمي: «لن تجدي مني تعاطفًا يا سارا»، وقالت: «كان عليك أن تعلّقيه بشباكك حين واتتك الفرصة»، وقالت: «وتحرصي على التعويض. أختك سينثيا لا تفتقر إلى البديهة والحس السليم»، وقالت: «لمَ لا تستطيعين أن تكوني مثلها؟». وبالطبع، أختي سينثيا كانت مكتفية بالجلوس. أتُصدِّق، مع كل ما كنت غارقةً فيه؟ قلت لنفسي، فليذهب كل هذا إلى الجحيم. أيًّا يكن، بعد مرور بضعة أيام، استرسلتُ في الحديث مع بيتي -الفتاة الداكنة التي رأيتَني معها للتو- وقررنا أن نجرب حظنا في هذا».

«يسعدني أنك فعلتِ».

شردت تفكر لبعض الوقت ناظرةً إلى كأسها الفارغة. «أتعلم؟ أمي تقول إنه ما من شيء يسمى الحب بين الرجال والنساء. أن تُكِنّي حبًّا لأبنائك، أجل. لكن لرجل؟ لا»، التفتت إليه بحركة كادت تكون هجومية: «ما قولك *أنت*؟».

- لستُ أدري.

- حسنًا، هذا يجعلنا اثنين إذًا. فلأعدَم نفسي إن كنتُ أعرف.

- لكنكِ أحببتِ...

«جوني؟ لا أستطيع أن أتذكر كيف كان شكله. أحيانًا ينتأ وجهُه في ذهني، وأنا أفكر في شيء آخر، لكن حين *أريد* أن أراه، لا أستطيع»، ابتسمت: «هذه هي علة نبيذ پورت بالليمون، أليس كذلك؟ يجعل الحقيقة تندلق من فمك».

فهم التلميح وأحضر لها كأسًا أخرى.

حين غادرا الحانة، كانت قد شربت ما يكفي كي تحتاج إلى ذراعه.

«من أين طريق مسكنك؟».

قهقهت: «لن يُجديك نفعًا، فصاحبة البنسيون مرعبة، أسوأ من أمي بخمسين مرة».

- أنتمشى لبعض الوقت إذًا؟ لا أود أن أقول لك ليلة سعيدة بعد، ماذا عنك؟

- حسنًا.

تركا الأرصفة المضاءة واتجها نحو شارع جانبيٍّ مظلم. لفها بذراعه، وأخذ يسحب يده إلى أعلى شيئًا فشيئًا حتى استقرت أصابعه على منحنى نهدها. كانت قامتها طويلة بالنسبة إلى قامة امرأة، ما جعل كتفيهما ووركيهما تتحاذى، وبالكاد تعيَّن عليه أن يقصّر خطوته. وفيما هما يمشيان، كانت تنظر لمامًا إلى حذائها وجوربيها، معجبةً بنفسها. خمَّن أنها معتادة على انتعال الجِزَم أكثر.

صادفا كنيسةً تحيط بها باحة صغيرة؛ شاهدات القبور ماثلة في ظل الأشجار بزوايا تبدو معها كأشخاص يتبادلون النمائم. «أندخل قليلًا؟».

فتح لها البوابة ودخلا، إلى الظلمة تحت الأشجار، يطأان فوق شيء طريٍّ يتهشم تحت أقدامهما، إبر صنوبر ربما. عند باب الكنيسة، استدارا واتبعا الدرب المحيط، إلى أن بلغا جدارًا عاليًا متهدمًا يغطيه اللبلاب. وهناك، في الظلال، شدها نحوه. فك أزرار سترتها وبلوزتها وبحث بيده عن نهدها، فاستجابت تحت راحته، وضحك بصوت أخفض من أنفاسه. همَّت تقول شيئًا، بيد أنه غطى فمها بفمه؛ لم يُرِدها أن تتكلم، لم يُرِدها أن تقول له أي شيء. كان ليفضل حتى لو لم يعرف اسمها، لحمٌ على لحمٍ في الظلماء وحسب ثم لا شيء.

«أعرف ما تريد»، قالت وهي تنفضّ عنه.

أفلتها من فوره: «وأنا أعرف ما أريد، ما الخطأ في ذلك؟ لم يسبق لي أن أجبرت أحدًا قط»، أشاح عنها، وقعد على بلاطة ضريح: «كما أنني لا أُلِحّ».

- إذًا فأنت رجل لا يتكرر بين مليون.

- أعرف.

- تافه متغطرس.

«ألن أنال ولو ضمة؟»، ربت على البلاطة قربه: «هذا لا يضير في شيء».

أتت وجلست بجانبه، وبعد قليل لفها بذراعيه مجددًا، غير أنه لم يشعر بالشعور نفسه. الآن، حتى فيما هو يُنزِل رأسه إلى صدرها، راح يتساءل إذا ما كان يريد أن يلعب هذه اللعبة، إذا ما كان الأمر يستحق. جذب نهدها برفق، فأحس بفخذيها تلينان. وفي لحظة واحدة، تلاشت شكوكه. ثبَّت لها ظهرها

على بلاطة الضريح واعتلاها. وإذ آوى رأسَها فوق ذراعه اليسرى، شرع في المهمة المعقدة يرفع طبقات تنورتها، ويُنزِل سروالها التحتانيَّ، ويحل أزرار بنطاله، محاولًا في أثناء كل هذا أن يحافظ على وضعيتهما فوق بلاطة ضريحٍ منحدرةٍ ذات امتدادٍ بالغ القصر. في اللحظة الأخيرة، صرخت: «لاا!» ودفعته بشدة عن البلاطة إلى العشب الطويل. ظل قاعدًا هناك بعض الوقت، ظهره للبلاطة، يقلع قطع الأشنة عن سترته. وبعد قليل تثاءب وقال: «يا لهم من ملاعين قصار القامة، هؤلاء الاسكتلنديين».

أطرقت تنظر إلى البلاطة، التي بدت بالفعل صغيرة إلى حدٍّ ما. «أوه، لستُ أدري. الجميع كانوا أقصر قامةً تلك الأيام». كان يمكن تَبيُّن كلمة «العزيز» على الشاهدة، لكن كل شيء آخر متهدم أو تغطيه الأشنة. تعقبت الكلمةَ برأس إصبعها: «أتساءل ماذا عساه يكون رأيهم؟».

«هؤلاء الذين في الأسفل؟ سيُسعدهم أن يروا كِسرةً من الحياة، كما أظن. وليس أنهم رأوا الكثير».

لم تُجِب. استدار لينظر إليها؛ كان شعرها قد انسدل، فهوى إلى مسافة بعيدة تحت كتفيها. سرَّه أنها ليست قصيرة الشعر، ولم يزل ذلك التباين المذهل بين جِرم المخمل العبيء ذي اللون البنيِّ الداكن وهالته المغزولة بخيوط النحاس. إنه يتغابى؛ هي ستتركه ينال ما يريد آخر الأمر، وكلما حاص ولاص أكثر من أجل ذلك الآن طال ما سيترتب عليه من انتظار. قال: «هيا، قُبلة واحدة، ثم أسير معك إلى المنزل».

- إممم.

- بلى، أنا أعني ذلك.

لَثَمَها قبلةً محتشمة يقصد مشاكستها، وحرص أن يبادر هو إلى إنهائها، ثم ساعدها على نفض تنورتها وسار معها في طريق العودة إلى مسكنها. وخلال الطريق، أصرت أن يتوقفا في مدخل أحد المتاجر، وجمعت شعرها داخل قبعتها مستعينةً ببضعة دبابيس استطاعت أن تحتفظ بها. «ثمة حواجب سترتفع إن دخلتُ بهذه الهيئة».

- هل أستطيع أن أراكِ مجددًا؟

- تعرف أين أسكن، أو ستعرف.

- لا أعرف مواعيد تفرُّغك من العمل.

- الأحد.

- سأجيء يوم الأحد إذًا، أتمانعين؟ إن أتيتُ منتصف الصباح، سيتسنى لنا تناول لقمة في إدنبرة ثم الذهاب إلى مكانٍ ما بالترام.

بدت متشككة، لكن فكرة أن يأتي ضابط ليصحبها من مسكنها كانت كثيرةً جدًّا عليها. «لا بأس».

تابعا السير، ثم توقفت عند الباب ورفعت وجهها. *أوه، لا*، قال لنفسه، *لا لمسات متلكئة عند عتبة الباب*. أخفض رأسه حتى استقر جبينه على جبينها: «ليلة سعيدة يا سارا لام».

«ليلة سعيدة يا بيلي براير».

بعد بضع خطوات، استدار ونظر خلفه. كانت واقفةً على العتبة، تشاهده وهو يسير مبتعدًا. رفع يده، فلوَّحت له تلويحة صغيرة. ثم استدار وتابع سيره بخفة، ينظر إلى ساعته ويقول لنفسه: يا للمسيح. حتى إن عثر على سيارة أجرة هذه *اللحظة*، لن يستطيع الوصول إلى كريغلوكهارت قبل إقفال الباب الرئيسيّ. *أوه، حسنًا*، فكر، *سيتعين عليَّ أن أواجه الأمر وحسب*.

9

- ألستَ تنوي أن تبدأ؟

- أتصور أن الرائد برايس قد تعامل مع المسألة؟

- يمكن قول ذلك، لقد قرر حجزي في المستشفى لمدة أسبوعين.

لم يُدلِ ريڤرز بأي تعليق.

- ألا ترى أنه إجراء مفرط بالأحرى؟

- لم تكن مسألة تأخر بسيط في العودة، أليس كذلك؟ الممرضة المشرفة تقول إنها رأتك في البلدة، ولم تكن تضع شارة المستشفى خاصتك.

- لم أكن أضع الشارة لأنني كنت أبحث عن فتاة، وهذا *-لعلك تعلم أو لا تعلم-* لا يكون أسهل عند التسكع في الأنحاء وعلى صدرك شارة تقول: **أنا مجنون.**

- بلغني أنك أيضًا أبديتَ بعض الملاحظات قليلة الاحترام حول الممرضة، بدءًا من حجم صدرها وليس انتهاءً بكونها بتولًا. لو أنك صرحت بملاحظات كهذه للضابط الآمر، ماذا سيحدث *برأيك*؟

لم يُجِر پراير جوابًا، لكن عضلةً أخذت تنبض في فكه. نظر ريڤرز إلى الوجه الشتويِّ الشاحب ذي الكبرياء وقال لنفسه: *يا رب، سيتكرر الأمر مرةً أخرى.*

قال پراير: «ألن تسألني إن كنتُ حظيت بواحدة؟».

«واحدة من ماذا؟».

«فتاة، امرأة»، حين تأخر ريڤرز عن الرد، أضاف پراير: «*امـــ.. رأة*؟».

- كلا، لم أكن سأسأل.

- أنت تذهلني، كنتُ لأظن أن هذا إجراء طبيعيٌّ.

انتظر ريڤرز.

- *الأسئلة*، المزيد والمزيد ثم المزيد من الأسئلة اللعينة.

- أتود أن نكتفي بهذا القدر اليوم؟

- لا.

- متأكد؟

- متأكد جدًّا.

- حسنًا. كنا قد وصلنا إلى الفترة التي تلت هجوم 23 أبريل مباشرةً، هل أحرزت أي تقدم بخصوص ما بعد ذلك؟

- لا.

- ولا أي شيء؟

«لا»، كانت يدا پراير قابضتين على ذراعَي كرسيه: «لا أريد أن أتحدث عن هذا».

قَرَّ رأي ريڤرز على أن يسايره: «عمَّ تريد أن تتحدث؟».

- شيء سبق وقلتَه، وهو يزعجني منذئذٍ. قلتَ إن الضباط لا يعانون من البَكَم.

- هذا نادر.

- كم عدد الحالات؟

- في كريغلوكهارت؟ أنت، وحالة واحدة أخرى. أما في ماغهول، حيث كنتُ أعالج عساكر مجندين، كان هذا يتصدر أكثر الأعراض شيوعًا بفارق شاسع.

- لماذا؟

- حسب تصوُّري... يبدو أن البكم ينشأ من صراع بين *إرادة* المرء أن يقول شيئًا ما، وبين معرفته أنه إن *فعل* وقاله ستكون العواقب كارثية، فيتوصل إلى حل الصراع عن طريق جعل النطق مستحيلًا بدنيًّا. وبالنسبة إلى المجند، دائمًا ستكون عواقب بوحه بما يجول في خاطره أسوأ بكثير مما هي في حالة ضابط. ما يميل إلى الظهور لدى الضباط هو التلعثم والتأتأة. وهذا لا ينطبق على البكم فحسب، بل جميع الأعراض الجسدية: الشلل والعمى والصمم، كلها شائعة بين المجندين ونادرة بين الضباط. تقريبًا كما لو أن المرض لدى... لدى الطبقة العاملة يجب أن يكون بدنيًّا. لا يستطيعون أن يأخذوا حالتهم على محمل الجد إلا إن كان ثمة عرَض جسديٌّ. وهنالك فروق أخرى أيضًا، فأحلام الضباط تنزع إلى أن تكون أكثر إسهابًا، في حين أن أحلام الرجال عادةً ما تكون مسألة تحقيق رغبات ببساطة. كما تعلم، يحلمون أنهم قد أُرسِلوا إلى فرنسا من جديد، لكن يوم وصولهم يُعلَن السلام. أشياء من هذا القبيل.

- أظنني أفضِّل أن تراودني أحلامهم عوضًا عن أحلامي.

«كيف لك أن تعلم؟»، قال ريفرز: «أنت لا تتذكر أحلامك».

- لم تقل لي لماذا بعد.

- أعتقد أن المسألة تتلخص في أن الضباط لديهم حياة نفسية[1] أكثر تعقيدًا.

تصرف براير كمن تلقى لسعة: «هل أنت جاد؟ تصدق حقًّا أن ذلك *القطيع* من ذوي أنصاف الأدمغة اللزجة هناك يمتلك حياةً نفسية معقدة؟ أوه يا ريفرز».

- لستُ أقول إن هذا ينطبق دائمًا على الجميع، لكنه صحيح في العموم. وهو ببساطة نتيجة لكون الضباط يتلقون تعليمًا مختلفًا ومطولًا أكثر في معظم الحالات.

(1) الحياة النفسية: مصطلح طبيٌّ قديم كان يشمل النشاط الوظيفيَّ المتعلق بالإحساس والاستدلال والحركة الإرادية. (المترجم)

- *المدارس العامة.*

- أجل، المدارس العامة.

رفع پراير رأسه: «وأين أنا من كل ذلك؟».

- حسنًا، مما يثير الاهتمام أنك أصبت بالبكم وأنك واحد من القلة القليلة التي لا تعاني التأتأة في المستشفى.

- ومما يثير الاهتمام أكثر حتى أنك أنت تعانيها.

أُخِذ ريڤرز على حين غرة: «هذا مخـــ. مختلف».

«من أي ناحية؟ باستثناء أنك تجلس إلى ذلك الطرف من المكتب؟»، رأى ريڤرز يتردد: «كلا، لستُ أكابرك، الأمر يثير اهتمامي بصدق».

«عادةً ما يُعتقد أن تأتأة الوهن العصبيِّ تنشأ عن صراع من نفس النوع الذي يُفضي إلى البكم، صراع بين إرادتك أن تتكلم ومعرفتك أن ما.. ما تريد قوله ليس مقبولًا. والمصابون بالتأتأة مدى الحياة؟ حسنًا، لا أحد يعرف حقًا، قد يكون الأمر جينيًّا».

ابتسم پراير: «يا له من حظ، صحيح؟ أقصد بالنسبة إليك. فإن كنت تعاني من نوع تأتأتهم نفسه، قد يتعين عليك في الحقيقة أن تجلس وتحاول استنتاج ما هو ذلك الذي أمضيت خمسين عامًا تتجنب قوله».

«هل ينتهي بهذا موعدي اليوم، سيد پراير؟».

ابتسم پراير.

«تعرف أنه سيتعين عليك ذات يوم أن تتقبل حقيقة أنك في هذا المستشفى بسبب كونك مريضًا. ليس أنا، ليس الضابط الآمر، ليس مستخدَم المطبخ، بل *أنت*».

بعد مغادرة پراير، جلس ريڤرز لبعض الوقت، نصفَ مبسوط ونصف مغتاظ. الآن إذ لُفِت انتباهه إلى تأتأته، سيزعجه الأمر من فترة إلى أخرى خلال اليوم. پراير *التافه*، قال في قرارته. بل لتحري منتهى الدقة: پـــ. پـــ. پـــ. پراير *التافه*.

كان پراير قد غادر مبكرًا بعض الشيء، لذا سنحت لريڤرز بضع دقائق قبل موعده التالي. قرر أن يُجري جولة في الفناء. الندى يفضض العشب

-برزت آثار خطواته داكنة على طول الطريق التي سلكها- لكن البخار كان قد بدأ ينبعث من الأرض في رقع متفرقة. جلس على مقعد تحت الأشجار، وشاهد مريضين يحملان منجلين ظهرا عند زاوية المبنى ثم نزلا المنحدر المعشب الذي يفصل بين طريق الدخول المفروشة بالحصى وملاعب التنس. رأى ريڤرز أنهما يبدوان رمزيَّين على نحو يكاد يكون هزليًا، كأنهما الوقت والموت يجتاحان المشهد الرعويَّ. لا شيء رمزيٌّ في المنجلَين، مع ذلك. النصلان يومضان فوق كتفيهما بلون أزرق رماديٍّ أثيم، ليس للمرء إلا أن يتعجب من إدارةٍ تُصادر أمواس الحلاقة ثم ترسل المرضى بمثل هذه الأدوات. باشرا العمل بقطعان العشب الطويل قرب أسوجة الشجيرات. استُهلَّ الأمر مصحوبًا بقدر كبير من الضحك والحركات الخرقاء، وغير قليل من البدايات الخاطئة، قبل أن يدخل جذعاهما في إيقاع المهمة. راح العث الذي قُوطِعت نومته النهارية يرف حولهما من كل صوب.

نزع أحدهما حزام سام براون خاصته ثم السترة والقميص وربطة العنق، وألقاها جانبًا بلا مبالاة، ثم استأنف الضرب بالمنجل، حمَّالتا بنطاله المتدليتان ترسمان أقواسًا عريضة على جانبيه وهو يضرب بالنصل. جسده شاحب جدًّا، وحول عنقه خط يفصل البياض عن السُّمرة المحمرة. كانت السترة قد حطت على السياج، وارتفع أحد كُميها كأنه يشير داعيًا إلى الاقتراب. ألقى المريض الآخر منجله وفعل مثل صاحبه. سار العمل بسرعة أكبر الآن، وسرعان ما باتت خلف ظهريهما منطقة واسعة بشكل مُشبِع من العشب المجزوز. وقفا يتكئان على المنجلين، مزهوين بعملهما، ثم غطس أحدهما في العشب المقصوص يتقلب فيه ويذروه، تأخذه غبطةٌ بادية كالتي تأخذ الكلاب أحيانًا. استلقى على ظهره يلهث، فاقترب منه الرجل الآخر وقال: «يا لك من سخيف»، وراح يركل العشب ويغطيه به.

التفت ريڤرز فرأى پاترسون -رئيس الإدارة المكتبية- يشق طريقه بخطو ثابت على المنحدر ليقوم بالتوبيخ الذي لا بد منه. قوانين الملك: يُمنع ظهور أي ضابط في العلن بزيٍّ تنقصه ولو قطعة واحدة. تحدَّث پاترسون إليهما، ثم استدار مبتعدًا. وببطء، اتجها نحو زييهما، كلٌّ يكسو جسده المتعرق بالقميص والسترة الخاكيين، ثم يشد وسطه بالحزام. كان أمرًا يتوجَّب فعله،

رغم أن العمل بدا لريڤرز يسير ببطء أكبر بعدئذٍ، وبات الضحك أقل، ما بدا مؤسفًا.

عمل ريڤرز حتى وقت متأخر تلك الليلة، يحرر قوائم بأسماء رجال سيمثلون أمام اللجنة نهايةَ أغسطس. هذه هي المهمة الأصعب كل شهر، لأنها تتعلق باتخاذ قرار في تحديد المرضى المؤهلين لاستئناف واجبهم. من الناحية النظرية، كان قرار إرجاع رجل إلى الخدمة يُتَّخذ من قِبل اللجنة، لكن بما أن توصياته نادرًا ما تتعرض للمساءلة، هذا إن تعرضت، فتقريره هو الذي يحسم النتيجة عمليًا. كان قد بدأ يعمل على أول هذه التقارير حين سُمِع نقر على الباب، فنادى: «تفضل!»

دخل پراير إلى الغرفة.

«مساء الخير»، قال ريڤرز.

«مساء النور. جئت كي أعتذر عما حدث هذا الصباح».

لقد كان النهار مروِّعًا من نواحٍ عديدة -بلغت أوْجها في اجتماع لمدة ثلاث ساعات، انعقد بين لجنة إدارة المستشفى- بحيث تعيّن على ريڤرز أن يقلّب في ذاكرته. قال: «لا بأس».

- كان غباء مني أن أتمادى في الكلام كما فعلت.

- أوه، لستُ أدري. الأمر أن واحدنا صادف الآخر في لحظة سيئة.

تريَّث پراير على بُعد بضع أقدام عن المكتب. «لمَ لا تجلس؟»، قال له ريڤرز

- لا بد أنك متعَب.

- متعَب من الأعمال الورقية.

ألقى پراير نظرة خاطفة فرأى قائمة الأسماء: «قائمة اللجنة».

«قائمة اللجنة»، طرف بعينه إلى پراير: «لم تشملك هذه المرة».

«لم أحرز تقدمًا كافيًا».

لم يُجِب ريڤرز فورًا. كان يراقب پراير، ويلاحظ الامتقاع والهالتين حول عينيه؛ ثمة ظلال تتراكم لديه تحت الظلال الآن. «لقد أحرزتَ تقدمًا، إذ استعدتَ كل ذاكرتك تقريبًا، كما أنك لم تعد تفقد صوتك».

«لا بد أنك تتمنى لو أفقده».

ابتسم ريڤرز: «لا تبالغ يا سيد پراير. كلانا يعلم أنك لو أردتَ *حقًّا* أن تتعمد الإساءة، لأمكنك أن تبلي أحسن بمئة مرة مما أبليت هذا الصباح»، انتظر ردًّا: «صحيح؟».

قام پراير بحركة متموجة غريبة -بين رفعِ كتفين وبين تخبُّط- ثم استدار. وبعد لحظة، نظر بطرف عينه إلى ريڤرز: «لقد خطر لي ذات مرة بالفعل أن أسألك إذا ما كان سبق لك أن ضاجعت مِن جماعة صيادي الرؤوس خاصتك».

- وما الذي أثناك عن ذلك؟

- رأيتُ أنه شأن خاص.

تظاهر ريڤرز بتأمل الموضوع: «هذا صحيح».

«لا جدوى من محاولة تعمُّد الإساءة، صحيح؟ إن كان *هذا* هو الرد الوحيد الذي يمكن تلقيه منك».

«أنت لا تريد الإساءة حقًّا. لطالما أثرتَ الكثير من *الجلبة* حول تجاوز الحدود، بيد أنك لم تُقدِم على ذلك فعلًا قط»، ابتسم ريڤرز: «باستثناء ما قلتَه الآن، بالطبع. وهذا كان بعيدًا عن المباشرة إلى حد كبير».

صمت قصير. قال پراير: «أتمنى لو بوسعي الخروج. لا، لا بأس، لستُ أطلب ذلك. كل ما أقوله إنني أتمنى لو أستطيع، فالكوابيس تزداد سوءًا حين أكون محتجزًا بين الجدران»، انتظر: «وهنا تسألني عن الكوابيس فأقول لك إنني لا أتذكر».

«أعلم».

ابتسم پراير: «أنت لم تصدقني قط، أليس كذلك؟».

- هل كان يجدر بي؟

- لا.

- أتريد التحدث عنها الآن؟

«لا أستطيع. انظر، إنها مجرد...»، ضحك: «*كوابيس معركة معتادة، كالتي تراود جميع الضباط المخبولين*»، ليس شيئًا لن تكون سمعته مئة مرة من قبل».

- باستثناء؟

- باستثناء لا شيء.

صمت طويل.

«باستثناء أنها *في بعض الأحيان* تمتزج بالجنس، فأستيقظ و...»، غامر بنظرة سريعة إلى ريڤرز، وحين تابع كلامه كانت نبرته اعتيادية: «هذا يجعل من المستحيل أن تُعجَب بنفسك. لقد استيقظتُ بالفعل مرةً أو اثنتين متسائلًا إذا ما كان ثمة أي مغزىً من المتابعة».

ليس مستبعدًا عنك، قال ريڤرز في قرارته.

«لهذا غضبتُ بذلك القدر عندما أيقظوك في الليل».

من السهل تمرير التطمينات المعهودة بشأن تأثيرات الحياة العازبة في الرجال الشبان، لكن ذلك ليس مفيدًا تمامًا. كانت حالة براير تتحول إلى اكتئاب بشكل لا يقبل الخطأ. لم يكن انتظار رسالة قائد الوحدة يعود عليه بأي فوائد، عدا عن أنها -حين تصل- قد لا تحتوي أي شيء ذي أهمية يُعتَد بها. «يمكننا أن نجرب التنويم المغناطيسيَّ الآن، إن أردت».

- الآن؟

- أجل، لمَ لا؟ فهذا هو الوقت الذي يكون فيه احتمال مقاطعتنا أقل ما يمكن.

راحت عينا براير ترمشان وهما تجوبان أنحاء الغرفة، ثم لعق شفتيه: «هذا غريب، أليس كذلك؟ حين قلت إن معظم الناس يخافون، لم أصدقك».

قال ريڤرز بحذر: «ما يخيفهم هو الاعتقاد أنهم يضعون أنفسهم بالكامل تحت سلطة المعالج، وأنه يستطيع جعلهم يفعلون أي شيء، بما في ذلك الأشياء التي يعتبرونها في الحالة الطبيعية سخيفة أو حتى لا أخلاقية. لكن هذا غير صحيح، لأنك تظل أنت *نفسك* طوال العملية. وليس الأمر أنني سوف

أحاول جعلك تفعل أي شيء سخيف أو لا أخلاقي»، ابتسم: «رغم كونك تثير الرعب أكثر من مجاهل بحار الجنوب».

ضحك پراير، لكن وجهه عاد إلى تقبضه على الفور.

«يمكننا ألا نفعل ذلك إن أردت»، قال ريڤرز بلطف.

نفس عميق. «لا، لا يمكن أن أرفضه بعدما أرهقتك في طلبه».

«إن تبين أن الأمر...»، بحث ريڤرز عن كلمة رقيقة بما يكفي: «مُغِمٌ، سأعطيك شيئًا يجعلك تنام. أقصد، لن يتعين عليك أن تواجه كامل المقتضيات الليلة».

- حسنًا، ماذا علينا أن نفعل؟

- استرخِ، وأرجِع ظهرك على الكرسي. تمامًا. الكتفان. هيا، هكذا. والآن يداك، حرر معصميك. أتشعر بالراحة؟ أريدك أن تنظر إلى هذا القلم. كلا، لا ترفع رأسك، بل ارفع عينيك.. بالضبط. أبقِ عينيك ثابتتين على القلم. سأبدأ العد التنازليَّ من العشرة، حين أصل إلى الصفر ستكون قد دخلتَ في نوم خفيف. اتفقنا؟

أومأ پراير برأسه. كان يبدو في غاية التشكك. كمعظم ذوي الرؤوس اليابسة، افترض أنه لن يكون هدفًا سائغًا للتنويم المغناطيسيِّ، في حين اعتقد ريڤرز أنه سيكون سهلًا للغاية. «عشرة... تسعة... ثمانية... سبعة... جفناك ثقيلان الآن. لا تقاوم، اتركهما يغمضان. ستة... خمسة... أربعة... ثلاثة... اثنان...».

استيقظ على رائحة مخبأ خندقيٍّ وأكياس رمل مبللة وضراط بائت. قبّض أصابع قدميه داخل جزمته المبتلة وأحس بصرير أسلاك الأسوجة وارتخائها وهو يلتفت نحو الطاولة. الفوضى المعتادة: أوراق، قنانٍ، أكواب، الهاتف الميداني ذو الصندوق الأسود، بضعة مسدسات ريڤولڤر، وكل ذلك تضيئه شمعة واحدة التصقت بالخشب في بِركة من شحمها. أنبأه انحسارٌ بالكاد يمكن إدراكه في الظلام حول ستارة الغاز أن الفجر لا بد موشك على البزوغ. وبالتأكيد، رفع ساندرسون الستارة بعد بضع دقائق وصاح: «استعدادا».

تقلبت الكتل الضخمة فوق بقية الأسِرة، وراحت تغمغم مادَّةً أيديها بحثًا عن مسدسات الريڤولڤر. سرعان ما هب الجميع يحاولون التسلق إلى خارج المخبأ، وكان ذلك صعبًا لأن المطر والقذائف التي سقطت حديثًا على مقربة قد حولت الدرجات إلى منحدر يكسوه الوحل. على طول الخندق، أخذ الرجال يزحفون من حفر الاختباء. راح يمشي بتثاقل فوق ألواح الممشى الخشبيِّ إلى موقعه، متنشِّقًا رائحة التفسخ الخضراء الخسيسة، يمدد عضلات وجهه إلى ابتسامة كلما رفع الرجال رؤوسهم. ثم ساعة من الوقوف، متخشبًا مرتجفًا، يراقب امتداد ضوء الفجر.

كانت المناوبة الأولى لحراسة الخندق من نصيبه. عبَّ كوبًا من الشاي الذي له مذاق الكلور، ثم بدأ يسير إلى الموضع الواقع على أقصى يسارهم. رائحة قلي لحم مقدد. عند كوة التصويب الثالثة، عثر على سودن وتاورز جاثيَين فوق نار صغيرة أوقِدت من أكياس رمل ممزقة وأعقاب شمع، يتحايلان لإذكاء اللهب. توقف كي يدردش بضع دقائق، فرفع تاورز عينيه الرامشتين تحت الخوذة الخضراء الشبيهة بمظلة الفطر وقدم له الشاي. يوم *هادئ*، قال لنفسه وهو يتابع السير. ليس مثل الأيام القليلة السابقة، إذ استمر القصف طيلة سبعين ساعة، وتأهبوا خمس مرات متوقعين هجومًا ألمانيًّا مضادًّا. كانت آثار الدمار التي تركها ذلك القصف في كل مكان: متاريس متهدمة، خنادق صغيرة ملأتها المياه، مخابئ سُدَّت أفواهها.

كان قد قطع -ربما- ثلاث كوى تصويب أخرى عندما سمع زعيق قذيفة، وإذ استدار إلى الخلف، رأى خربشة الدخان البنيِّ المغبر وقد بدأت تنجرف بعيدًا. ظن أن الأمر مر بسلام، لكنه لم يلبث حتى سمع صيحة، فرجع يركض وهو يشعر بغثيان في معدته. كان لوغان قد سبقه إلى هناك. لا بد أن تلك التي سمعها هي صيحة لوغان، إذ لا شيء في ذلك الدمار يمكن أن يملك صوتًا. حفرة سوداء مخروطية، ما زال الدخان يتصاعد منها، أُحدِثت في الجدار الجانبيِّ للخندق. ما من أثر للإبريق، ولا المقلاة، ولا النار التي كانت تُدارى بحذر، وكذلك لم يتبقَّ ما يُذكَر من سودن وتاورز، أو ما يمكن التعرف عليه منهما.

كانت توجد كومة من أكياس الرمل والمعاول على مقربة، تركتها عند المتراس مفرزةٌ عادت من مناوبة عملها. مد يده نحو أحد المعاول. التقط لوغان كيس رمل وفتحه، فبدأ يجرف التراب واللحم وشظايا العظام المسودة ويلقيها في الكيس. وفيما هو يعمل، راح يتهوع. أحسَّ بشيء يصطدم بأسنانه، ورأى لوغان يقدم له قنينة من الرَّم. أرغم نفسه على ابتلاع الصفراء والرَّمِّ معًا. ظل لوغان مشيحًا بوجهه فيما استمر الجرف بالمعاول. كان يجدف بصوت خفيض، يكفر بثبات مستخدمًا كلامًا مقذعًا مبتكرًا. أحدهم جاء راكضًا. «لا تقف فاغرًا فاك يا رجل»، قال لوغان: «اذهب وأحضِر بعض الكلس».

كانا قد أنهيا عملهما تقريبًا حين بدَّل پراير وضعيته فوق الممشى، أخفض بصره فوجد نفسه يحدق إلى عين. بدقة، كشخص يختار لقمة منتقاة بأناة من طبق، أقحم إبهامه وسبابته بين لوحين من الممشى. لامس إصبعاه السطح الأملس فانزلقا قبل أن يحكم مسكته. أخرجها، ونقلها إلى راحة يده، ثم مدها نحو لوغان. انتبه إلى أن يده كانت ترتجف، لكن لم يبدُ للارتجاف أي علاقة به. «ماذا يفترض بي أن أفعل بحبة الحلوى الصلبة هذه؟». رأى لوغان يرمش فعلم أنه خائف. مد لوغان يده أخيرًا، أمسك له معصمه المرتجف، وقلبَ العين إلى داخل الكيس. «سنتكفل أنا وويليامز بما تبقى يا سيدي، يمكنك أن ترجع الآن».

هز رأسه رافضًا. راحوا ينشرون الكلس معًا، فنثروه بكثافة على طول منصة التصويب، وألقوا بالمعاول كميات منه على القسم المتضرر من الجدار. وحين تراجعوا أخيرًا، ووقفوا ينفضون الغبار الأبيض عن أطراف ستراتهم، أراد أن يقول شيئًا اعتياديًا، شيئًا يثبت أنه على ما يرام، لكن خدرًا كان قد استشرى في النصف السفليِّ من وجهه.

عاد إلى المخبأ، وراح يراقب الشفاه تتحرك، يملؤه الإعجاب نحوها. كان ثمة حس من البهجة في مراقبتها، بل من الجذل تقريبًا. كم هي معقدة هذه الحركات، كم مذهلة لمحات الأسنان والألسن، حركة عضلات الفكوك. مرَّر لسانه على طول حدبات أسنانه، قوَّسه إلى الخلف ومسَّد به حنكه المجعد،

مط شفتيه، أحسَّ بانشداد البشرة وتمدد العضلات في حلقه. كل شيء حاضر وسليم، لكنه لا يملك أدنى فكرة كيف تتضافر جميعها لتصنع الأصوات.

لوغان هو الذي أخذه إلى محطة علاج المصابين. في الحالة الطبيعية، يُفترض بخادمه الشخصيِّ أن يفعل ذلك، غير أن لوغان طلب الإذن بمرافقته. راحا يتقدمان متخبطَين بقدر لا بأس به من المرح، أو پراير هو الذي كان مرحًا على الأقل. شعر كأن ما من شيء بوسعه أن يمسه بسوء بعد الآن. وحين زعقت قذيفة تشق الهواء، لم يجفل، رغم معرفته أن الألمان لديهم تصور دقيق عن كلا خندقَي النقل. سارا من الوحل النتن إلى الممشى شبه الجاف، وأخذ المنظر الأجرد الذي لمحه خلف الأسلاك الصدئة المتشابكة يتحول إلى حقول تدريجيًا. كانت ثمة رُقَع من الكرنب البريِّ ذي الصفرة البراقة، الذي يشبه الغاز برائحته إلى درجة تجعل الرجال يرتعدون، تتدلى حول الخندق الأخير.

في محطة علاج المصابين، جلس ولوغان بجانبه. هنالك شاب مستلقٍ على الأرض وقد تعرض لإصابة في ظهره، بدا بالكاد يعي وجودهما. راح يئن من حينٍ إلى آخر: «أشعر بالبرد، أشعر بالبرد»، لكن حين دخل الطبيب، هز رأسه وقال إن ليس هنالك ما يستطيع فعله. قال للوغان: «لا داعي إلى بقائك، سيكون على ما يرام»، ثم تصافحا وافترقا. عاد إلى الجلوس على المقعد وحاول أن يفكر في الأحداث التي قادته إلى حيث هو، لكنه وجد نفسه لا يستطيع أن يتذكر إلا النزر اليسير. لقد مات اثنان من رجاله، تذكَّر ذلك. لا شيء آخر. ومثل عدم القدرة على النطق، بدا ذلك طبيعيًا. ظل جالسًا على المقعد، يداه المتشابكتان تتدليان بين ساقيه، ولم يفكر في شيء.

راقب ريڤرز الانفعالات تلعب على وجه پراير فيما هو يحاول وضع الذاكرة المستعادة في مكانها المناسب ضمن ماضيه، لم يكن متهيئًا لما حدث بعد ذلك.

«أهذا كل شيء؟»، قال پراير.

بدا الحنق يكاد يُفقده صوابه.

«لا أدري إن كان بوسعنا أن نقلل من قيمة هذا»، أجاب ريفرز: «كنت لأعتبره تجربةً صادمة وفق جميع المقاييس».

كاد پراير يبصق عليه: «إنه لا شيء».

وضع رأسه بين يديه، وبدت الحركة أول الأمر وليدة ارتباك ذاهل، بيد أنه -بعد لحظات معدودة- طفق يبكي. أمهله ريفرز قليلًا، ثم نهض من خلف المكتب وقدَّم منديله. عوضًا عن أخذ المنديل، قبض پراير على ذراعَي ريفرز، وراح ينطحه في صدره، بقوة كافية كي تؤلمه. أدرك ريفرز أن هذا ليس هجومًا، رغم أنه بدا كذلك، بل هو أقرب شكلٍ استطاع پراير بلوغه إلى طلب احتكاكٍ جسديٍّ. تذكَّر ريفرز عنزةً في مزرعة أخيه، يكاد جديُها الصغير يرفعها عن قوائمها وهو يرضع منها. أمسك كتفَي پراير، ثم توقف النطح بعد هنيهة. رفع پراير وجهه الذي أعمته الدموع: «أعتذر عن هذا».

«لا بأس»، انتظره حتى يمسح وجهه، ثم سأله: «ما الذي ظننتَ أنه حدث؟».

- لم أعرف.

- بلى، ظننتَ أنك عرفت.

«عرفتُ أن اثنين من رجالي كانا قد قُتِلا، ظننت...»، توقف: «ظننتُ أن الذنب لا بد ذنبي. كنا في نفس الخنادق التي رابطنا فيها أول وصولي. الخط بغيض هناك، يبدأ وينتهي بأكوام من القرميد، والكثير من الخنادق تطل على الاتجاه الخاطئ. حتى في ضوء النهار، قد تضل طريقك ولو كانت معك بوصلة وخريطة. وفي الليل... كان قد مضى أسبوع على وجودي هناك، كما أظن، حين ذهب رجل في دورية ليرى إذا ما كان أحد المخابئ مشغولًا في الليل. البوصلات لا تعمل، ثمة الكثير من المعدن في الأنحاء. ظل يلف ويدور لمدة لا يعلمها إلا الله، حتى صادف ما ظنه فِرقة اختراق ألمانية. أمر رجاله بفتح النار. حسنًا، وانفتحت أبواب الجحيم. بعد قليل، أدرك أحدهم أن ثمة أصواتًا بريطانية تصيح على كلا الجانبين. قُتِل خمسة رجال وجُرِح أحد عشر. نظرتُ إلى وجهه عندما جلس في المخبأ فوجدتُه... كان بوسعك أن تفعل *ذلك* دون أن يرف له جفن. فيما سبق، لطالما ظننتُ أن أسوأ ما يمكن حدوثه هو أن تصاب وتُترك هناك، لكن عندما رأيت وجهه قلت لنفسي: لا، هذا هو الأسوأ.

ثم حين لم أستطع أن أتذكر شيئًا سوى أن اثنين من رجالي قُتِلا، ظننتُ أن الأمر لا بد شبيه بذلك»، رفع رأسه: «لم أرَ ما الذي أحتاج أن أنساه عدا هذا».

- لا بد أنك ارتحتَ إذًا.

- ارتحت؟

- لقد فعلتَ واجبك، ليس لديك ما يستدعي أن تلوم نفسك عليه. حتى إنك أتممتَ تنظيف الخندق.

- لقد نظفتُ عشرات الخنادق، لا أرى في ذلك سببًا يجعلني أنهار.

«أنت تفكر في الانهيار على أنه رد فعل تجاه حدث صادم واحد، لكن الأمر ليس هكذا. إنها بالأحرى مسألة... *تآكل*. أسابيع وأشهر من الإجهاد والضغط في وضع لا تستطيع الفرار منه»، ابتسم: «أعتذر عن كون كلامي يبدو موضوعيًّا وغير شخصيٍّ هكذا، فأنا أعلم كم تكره أن تكون «المريض»».

- لا أمانع على الإطلاق، كل ما أريده هو أن أفهم لماذا حدث ذلك. كما ترى، الأمر الذي أستصعبه هو... أنني لا أنظر إلى نفسي باعتباري شخصًا من النوع الذي ينهار. ومع ذلك، فأنا أصطدم مرارًا وتكرارًا بحقيقة أنني *انهرت*.

- لا أدري إن كان ثمة ما يسمى «شخص من النوع الذي ينهار». أتصور أن معظمنا يمكن أن ينهار إن خضع لضغط شديد بما يكفي، أعلم أني أنا نفسي قد أفعل.

أخذ پراير يحدق إلى أنحاء الغرفة بذهول ساخر: «هل نطق ورق الجدران؟».

ابتسم ريڤرز: «سأقول لهم أن يعطوك قرصًا منوِّمًا».

عند الباب، استدار پراير: «كانت عيناه شديدتَي الزرقة، أتعلم؟ تاورز. كنا نناديه الهوني[1]».

---

(1) الهون: شعب بدويٌّ عاش في آسيا الوسطى والقوقاز وأوروبا الشرقية، بين القرنين الرابع والسادس للميلاد، واعتاد البريطانيون أن يسموا الألمان بـ «الهون» خلال الحرب العالمية الأولى ازدراءً لهم بهدف نعتهم بالهمجية، و «الهوني» هو الفرد من شعب الهون. (المترجم)

بعد تأكُّده من تناول پراير للقرصِ المنوِّم، صعد ريڤرز إلى غرفته وبدأ ينزع ملابسه. وفيما هو يحل ربطة عنقه، لمح انعكاسه على المرآة. جذب جفنه السفليَّ الأيمن، ليكشف عن بياض مكدَّر محتقن بالدم.. *ماذا يفترض بي أن أفعل بحبة الحلوى الصلبة هذه؟* أفلت جفنه. *لا داعي إلى التفكير في ذلك.* إن ظل يشعر هكذا، سيتعين عليه أن يرى برايس ويرتب لأخذ إجازة. لقد بلغت حالته مرحلةَ أن يستيقظ في الصباح شاعرًا بنفس درجة الإرهاق التي كانت تنتابه لدى خلوده إلى السرير تقريبًا. جلس على حافة حوض الاستحمام وهمَّ يخلع جزمته. *لا شَكَّ أَنَّكُمْ تَقُولُونَ لِي هَذَا الْمَثَلَ: أَيُّهَا الطَّبِيبُ اشْفِ نَفْسَكَ!*[1]، أحد النصوص المفضلة لدى أبيه. في أثناء جلوسه -ضجِرًا متململًا- داخل مقصورة العائلة في الكنيسة، لم يرَ ريڤرز يومًا في الآية اختيارًا غريبًا، إلا أنه الآن يتساءل عما يجعله يستحضرها من العدم مرارًا هكذا. يظل الآباء مبهَمين على أبنائهم، قال لنفسه، وسبب ذلك بمعظمه يعود إلى كون الأبناء يجدون بالغ الصعوبة في تصديق أن ثمة ما يستحق أن يُرى في آبائهم. إلى أن يموت الآباء، ويكون الأوان قد فات. ومن رحمة القدر، أن الأطباء أيضًا مبهمون على مرضاهم، إلا حين يصادِف أن يكون المريض پراير.

أتمَّ ريڤرز نزع ملابسه ودخل إلى الحوض. استلقى مغمضًا عينيه، وأحس بالماء الساخن قد بدأ يحل العُقَد في عنقه وكتفيه. ليس أن پراير هو المريض الوحيد الذي استطاع أن يراه... غيرَ مبهم بالكامل. تذكَّر جون لايارد، وكانت الذكرى مؤلمة كالعادة، لأن علاجه للايارد انتهى بالفشل. قال لنفسه إنه ما من تشابهٍ حقيقيٌّ بين لايارد وپراير؛ ما يجعل پراير أكثر صعوبة هو *استقصاؤه* الدائب، لايارد لم يكن يستقصي قط. لكن من جهة أخرى، لم يكن لايارد يرى أنه بحاجة إلى الاستقصاء، لايارد كان يظن أنه يعرف.

مستلقيًا هكذا بعينين مغمضتين، استطاع ريڤرز أن يتخيل نفسه في سانت جون، يسمع وقْع قدمَي لايارد قادمًا من الطرف المقابل للبهو. ما الذي قاله آنذاك؟ «أنا لا أراك على أنك *أب*، كما تعلم»، رافعًا رأسه فوق البساط أمام النار، وهو يضحك: «بل بالأحرى... على أنك *أُمٌّ ذَكَر*». بلى، لقد كان مثل

---

(1) إنجيل لوقا 4: 23. (المترجم)

پراير؛ نفس العينين هاتلتَي الدهاء، البصر الشبيه بالأشعة السينية، والصراحة المفرطة التي لا ترعوي.

لمَ تراه تذكَّر ذلك؟ لقد تذكَّره بسبب تلك الصورة السخيفة للعنزة التي ومضت في ذهنه فيما كان پراير ينطحه في معدته. لم يستسغ مصطلح «الأم الذكر»، واعتقد أنه يتذكر عدم استساغته له آنذاك أيضًا. ارتاب بما ينطوي عليه من تضمين مفاده أن الحضانة -حتى حين يتولاها رجل- تظل أنثى، كأن هذه القدرة مستعارة بطريقة ما، أو حتى مسروقة، من النساء: نوع من المعادل المعنويّ *لنِفاس البعل*[1]. إن صح ذلك، فالأمل شبه معدوم حقًا.

بوسعه أن يتفهم ما قد يكون دفع لايارد إلى استخدام المصطلح. لقد كانت علاقة لايارد بأبيه عصيبة، وكان رجلًا شابًا، دون أي تجربة شخصية في الأبوة. رغم أن الأبوة -حالها في ذلك حال الأمومة- تتخذ أشكالًا عديدة غير شكلها البيولوجيّ. كثيرًا ما تأثر ريڤرز بالطريقة التي تحدث بها رجال شبان، بعضهم لم يكن قد بلغ العشرين بعد، عن شعورهم كآباء لرجالهم. غير أن المرء حين ينظر إلى ما كانوا يفعلونه... قلقهم بشأن الجوارب والجزم والدمامل والطعام والمشاريب الساخنة، وذلك التعبير المضطرب الحاضر دائمًا على وجوههم... لم يكن ريڤرز قد رأى تلك السيماء إلا في مكان واحد آخر: في الأجنحة العمومية للمستشفيات، على وجوه النسوة اللاتي يُعِلنَ عائلات كبيرة بدخل شحيح، النسوة اللاتي -وهن في أول الثلاثينات- يمكن أن يخمن لهن الناظرُ خمسين عامًا أو أكثر. إنها سيماء الناس المسؤولين مسؤوليةً كاملة عن حيوات لا يملكون القدرة على إنقاذها.

إحدى مفارقات الحرب -مفارقاتها العديدة- أن هذه الصراعات الأكثر وحشيةً تمهد بين الضباط والرجال لعلاقةٍ... عائلية، حنونة، بل -وكما كان لايارد ليقول دون شك- أمومية. ولم تكن تلك هي الحيلة الوحيدة التي لعبَتها الحرب. التعبئة، والمغامرة الكبرى... كانوا يُعبَّؤون[2] -بكل ما في المصطلح

---

(1) نِفاس البعل: حالة يشعر خلالها الرجل الصحيح الذي تنتظر زوجته مولودًا بأعراض متعلقة بالحمل. ويُطلق عليها أيضًا اسم «الحمل التعاطفي»، أو «متلازمة كوڤاد». (المترجم)

(2) في اللغة الإنجليزية، تُفيد الكلمة نفسها معنى «التعبئة» و«التحريك» معًا. (المترجم)

من حركية- في حُفر داخل الأرض محصورة إلى درجة بالكاد يستطيعون معها أن يتحركوا. والمغامرة الكبرى -معادل الحياةِ الواقعية لكل قصص المغامرات التي التهموها التهامًا في طفولتهم- كانت عبارة عن جلوس القرفصاء داخل مخبأ، وانتظار الموت قتلًا. الحرب التي وعدت بالكثير في ما يتعلق بالنشاط «الرجولي» أفضت في الواقع إلى هجوع «أنثوي»، وبدرجةٍ نادرًا ما عرفتها أمهاتُهم وأخواتهم. لا عجب أنهم ينهارون.

في سريره، يطفئ الضوء ويفتح الستائر. المطر فضيٌّ في نور القمر، يخطط الزجاجَ، يغبش مشهد ملاعب التنس والأشجار، يتجمع عند الحافة السفلية في بِركة طويلة ينتفخ سطحها فتفيض. أحدهم -في الطابق تحته- يصرخ. ريفرز يضم الستائر ويستكنّ للنوم، متمنيًا -لمرةٍ ليست الأولى- لو كان شابًّا بما يكفي من أجل فرنسا.

10

راقبت سارا الشاي ينصبُّ في نُهَيرٍ رماديٍّ هزيل داخل كوبها ثم يزحف صاعدًا نحو حافته. نظرت عاملة الشاي إلى الكوب، متشككة: «أهو ثقيل بقدر كافٍ لكِ، عزيزتي؟».

«سيفي بالغرض، ما دام دافئًا ويبل الريق».

«رباه»، قالت بيتي هارغريف: «بولُ عذارى.. لا أستطيع أن أشرب هذا».

نخست مادج سارا بحدة في ضلوعها: «حسنًا، هذا لن يكون لائقًا جدًّا، أليس كذلك؟».

«إيه، كفى، ستجعلينني أهرقه».

انتقلتا إلى الطرف القصيِّ من الطاولة ذات الحاملَين وتراصتا فوق المقعد الطويل.

«هيا، حركي ردفيك»، قالت مادج: «أفسحي مكانًا لفتاتين ضئيلتين».

التقطت ليزي سجائرها الوودباين وعلبة ثقابها، وزحّت نفسها جانبًا: «ماذا حدث لرجلك الشاب بعد ذلك يا سارا؟».

«فصٌّ ملحٍ وذاب، وأنا التي ظننتُه سيأتي؟ جلستُ طوال ساعة يوم الأحد متهندمةً على آخر طرز، ومكانَكَ راوِح».

«أوه»، قالت ليزي.

«لعله خير»، قالت مادج: «على الأقل بتِّ الآن تعرفين ما كان يسعى إليه».

«كنتُ أعرف ما كان يسعى إليه، كل ما أريده هو أن أعرف لماذا لم يعد يسعى إليه».

«لم ينَل مراده إذًا؟»، سألتها بيتي وهي تعيد كوبها إلى الطاولة.

«لا وألف لا».

«لكنه كان حسن المظهر، أليس كذلك؟»، قالت مادج.

«لا بأس به، كما أظن».

ضحكت بيتي: «خيرها بغيرها، البحر مملوء بسمك أفضل، أليس صحيحًا يا سارا؟».

«بلى، لكن فليجف البحر بسمكه، لستُ مهتمة».

تعالى هتافٌ ينمُّ عن عدم التصديق. دفنت سارا أنفها في كوبها، ثم -حالما شعرت بانتباههن ينحسر عنها- نظرت إلى النافذة. لم يكن ممكنًا أن يُرى ما في الخارج حقًا لأن الزجاج مكسو بالصقيع، لكن قطرات المطر تتشبث بالألواح الزجاجية هنا وهناك، كلٌّ منها تترك هلالًا من الفضة في أثرها. تمنت لو أنها في الخارج تحس المطر على وجهها. لكان من اللطيف لو ذهبتُ إلى الشاطئ البارحة، قالت لنفسها. تبًا له، لماذا لم يأتِ؟

الأخريات منهمكات في الحديث عن زوج ليزي، الذي ألقاها في حالةٍ من الصدمة، إذ بلَّغها في رسالته الأخيرة أنه يأمل المجيء إلى الديار في إجازة عما قريب.

«لم تغمض لي عين منذئذٍ»، قالت ليزي.

«إنك تجعلين من الحبة قبة»، ردت بيتي: «أولًا: قد لا يتمكن من الحصول على إجازة. وثانيًا: أحيانًا لا يمنحونهم إلا بضعة أيام. أغلب الظن أنه لن يبلغ أبعد من لندن».

- نعم نعم، وسيتلوى غيظًا مثل سمندل الماء.

- حسنًا، الأفضل أن يتلوى غيظًا هناك لا هنا.

«ألا تريدين أن تريه؟»، سألتها سارا.

«لا، لا أريد. لقد رأيتُه بما يكفيني عمرًا كاملًا. وَيْ، أعرف ما الذي تقولينه لنفسك. ترين أنني قاسية، أليس كذلك؟ طيب، أنا قاسية بالفعل، ولكنتِ مثلي، لو أنك في مكاني»، عرضَ وجهُ ليزي الأصفر بقعتين فاتحتين من اللون على وجنتيها: «أتعرفين ماذا حدث في 4 أغسطس 1914؟».

فتحت سارا فمها.

«سأقول لك ماذا حدث. لقد انكسر *السلام*، المقدار الضئيل الذي لم أمتلك غيره يومًا من السلام. لا، لا أريد عودته. لا أريده أن يعود في إجازة. لا أريده أن يعود حين ينتهي الأمر. لو أن القرار يرجع إليَّ، فبوسع القيصر أن يحتفظ به»، نكست ذقنها تتفكر: «سأخبركن ماذا سأفعل. سأحصل لنفسي على طقم أسنان، وسأحظى بوقت ممتع حبًّا باللعنة».

«أجل، هذا ما تريدينه»، قالت بيتي.

«إنها لا تنفك تتحدث عن طقم الأسنان هذا منذ عرفتُها»، قالت مادج: «عليكِ أن تكُفي عن الحديث عنه، وتنهضي وتحصلي عليه. يمكنك تحمُّل تكلفته، فلا شيء من هذا سيبقى كما تعلمين»، أشارت بإبهامها إلى القاعة الملآنة بنساء مكتسيات بموادع[1] العمل: «إنه جيد أكثر من أن يبقى».

«ليس المال هو ما يشغل بالي».

«سيخدرك بالغاز»، قالت مادج: «لن يبدو عليك أي شيء حين يكون الطقم في فمك، وكذلك لن تشعري أنك على ما يرام، لسبب بسيط هو أنك تبتلعين كل الفساد».

«أجل، أعرف. سوف أذهب».

«انتهى الوقت يا سيدات»، قالت المشرفة: «انتهى الوقت».

«آه، الوقت لا يمر أبدًا»، قالت ليزي: «أتعلمن؟ أنا واثقة أنهم يثبتون تلك الساعة اللعينة!».

«مضت ثلاث ساعات»، قالت سارا: «وبقيت أمامنا تسع».

(1) جمع ميدعة: رداء بلا أكمام يُلبس فوق الثياب وقايةً لها من وسخ العمل، معروف باسم الأوفرول. (المترجم)

في كل جهات القاعة، أخذت النسوة ذوات البشرات الصفراء يجرجرن أنفسهن ناهضات. وبينما هن يصعدن الدرج، التحقت سارا بالرتل خلف بيتي. كانت ليزي قد خطفت نفسها إلى الحمام لتُنهي لفافة تبغها.

«تظنين أنها قاسية، أليس كذلك؟»، قالت بيتي.

- أجل، بعض الشيء. إن فكرنا في ما يمر به.

- حسنًا. أتعلمين؟ حين كنتُ صغيرة، كنا نسكن بجوارهما الباب على الباب، ما كان صوت الضربات المكتومة ينقطع طوال نصف الليلة، كنتِ لتظنيها ستخترق الجدار. أوه، ثم ترينها في الفناء الصباح التالي، ووجهها متورم بأكمله. «سقطتُ على سطل الفحم»، كانت تقول. ذلك كان يثير سخط أمي، فتقول: «هو يُشبعك ضربًا، ثم تسيرين *أنت* في الأنحاء موزعةً الاعتذارات. أين العدل في هذا؟». وليكن بعلمك، لقد كانت على حق.

استلقى ويلارد فوق سريره منكبًا على وجهه، عاريًا. ثمة ندوب أرجوانية تُثلِم فخذيه وردفيه، بعضها بدأ يتحول لتوه إلى اللون الفضيّ. لقد تحصَّل على هذه الجروح خلال انسحاب سريته عبر مقبرة تحت إطلاق نار كثيف، إذ انغرزت في لحمه عدة شظايا تطايرت من الشواهد.

«عليكَ أن تجرب هذا»، قال: «الاستلقاء لشهرين على بطنك فوق سرير مستشفى وقد أُقحِمت عبارة «يرقد في سلام»[1] في استِكَ».

كان التعليق موجهًا إلى مساعد التمريض ظاهريًّا، ما أتاح لريفرز أن يتجاهله. «لقد التأمَت جيدًا»، قال متحركًا من موضعه قرب السرير.

نظر ويلارد من فوق كتفه: «جروح اللحم هي التي التأمت، لكن ما تزال ثمة إصابة العمود الفقريّ».

«دعنا نقلبك على ظهرك».

اقترب المساعد ليقدم العون، لكن ويلارد صرفه بيده. كان كامل القسم العلويّ من جسده شديدَ القوة رغم اتجاهه الواضح إلى الترهل، وبوسعه أن

(1) وردت العبارة باللاتينية في النص الأصليّ. (المترجم)

يتوصل بالتلوي والدفع إلى جر الساقين المهزولتين، اللتين تتبعان كُتلة بدنه الجسيمة بهجوع مثل آثار لزجة يخلفها حلزون. انحنى المساعد، وأجلس له قدميه.

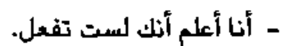
انتظر ريفرز حتى تغطى ويلارد، ثم أومأ إلى المساعد أن ينصرف. قال بعد أن أُغلِق الباب: «لم يكن ثمة إصابة في العمود الفقريّ».

اتكأ ويلارد على الوسائد، وفكه مطبق بعناد.

«إن كنت تعتقد أن عمودك الفقريَّ متضرر، فكيف تفسر حقيقة أن أطباء عدة قد عاينوك وأخبروك بالعكس؟»، راقب وجهَ ويلارد من كثب: «أتظنهم غير أكفاء جميعهم؟ كل واحد فيهم؟ أم تراك تظن أنهم حاكوا مؤامرة من نوعٍ ما لإقناعك بقدرتك على المشي خلافًا للحقيقة؟».

أنهض ويلارد نفسه على أحد مرفقيه. كان الانطباع الذي يخلقه استثنائيًّا، ذلك المزيج من اللاحركية والقوة، مثل فحل فقمةٍ يجر نفسه فوق الصخور. «أتظنني أتمارض؟».

- أنا أعلم أنك لست تفعل.



- لكنك قلت ذلك لتوك.

- كلا.

- إن لم يكُن العمود الفقريُّ مصابًا، فلماذا لا أستطيع أن أسير؟

- أظنك تعرف لماذا.

أفلت ويلارد ضحكة مستهجنة قصيرة: «أعرف ما تريدني أن أقوله: لا أستطيع أن أسير لأنني لا أريد أن أعود»، حملق في ريفرز: «أنا لن أقول ذلك، فهو يساوي الاعتراف بالجبن».

التقط ريفرز قبعته وعصاه: «ليس في قاموسي»، كان واعيًا بمراقبة ويلارد له: «صحيح أن الشلل يحدث لأن المرء يريد أن ينقذ حياته؛ لا يريد أن يمضي قُدمًا، ويشارك في هجوم ميؤوس منه، *لكنه كذلك* غير مستعد *للفرار*»، ابتسم: «الشلل لا يُجدي الجبانَ نفعًا يا سيد ويلارد، فالجبان يحتاج إلى ساقيه».

لم يُجِب، بيد أن ريفرز ظن أنه استشعر استرخاءً طفيفًا في توتره. كانت البنية العظمية لوجه ويلارد قوية إلى درجة تقارب الوحشية، ولعينيه درجة تثير الفضول من الأزرق الشاحب. لشعره وجلده لمعة كالبريق الذي يكون لفرو حيوان. لقد كان رياضيًا بشكل أو بآخر قبل الحرب، إلا أن ريفرز اشتبه أنه لم يكن يتميز بعمق الذكاء يومًا. «زوجتك قادمة لرؤيتك هذا الأصيل، صحيح؟».

ذهبت عينا ويلارد إلى الصورة فوق المغسلة: «أجل».

«لمَ لا ترتدي ثيابك؟ ما من سبب يدعو إلى بقائك في الفراش. وإن لبستَ يمكنكما أن تخرجا إلى الفناء، هذا سيسُر زوجتك أكثر بكثير».

فكر ويلارد في الأمر، كارهًا أن يسلم بأي شيء من شأنه الإيحاء أن مرضه لم يكن بدنيًا محضًا. «أجل، حسنًا».

«جيد. سأرسل مساعد تمريض ليُعينك على انتعال جزمتك».

وصل ساسون إلى نادي المحافظين قبل نحو عشر دقائق من الموعد.

«حضرة النقيب ريفرز لم يأتِ بعد، سيدي»، قال البواب: «لكن إن وددتَ أن تنتظر في القاعة الصباحية، أنا واثق أنه لن يتأخر. بعد صعود الدرج، على اليمين مباشرةً».

كان الدرج من رخامٍ ملتوٍ، يكاد يكون مفرطَ الفخامة قياسًا بحجم الردهة، مثل أنفٍ رومانيٍّ على وجهٍ لا يستميل الناظرين. خلال صعود ساسون، مر ببورتريهات لأكابر ماضي إدنبرة، رجال بلحى بيضاء وياقات مجنحة، تستقر سلاسل ساعاتهم الذهبية وجيوبها بدعةٍ على بطون منتفخة. أول فكرة طرأت له لدى دخوله القاعة الصباحية كانت أن شخصًا يتحلى بذائقة تجاه المقالب قد اقتطع أكابر إدنبرة من داخل أُطرهم ورصَّهم على الكراسي في كل أنحاء القاعة. بزغت في كل مكان رؤوسٌ وأعناق عظائية من الأرائك الفردية جناحية الأظهُر، تلقي النظر على الشاب الواقف في الباب، بالاستحسان الأوتوماتيكيِّ الذي يحركه زِيُّه، ثم، (أم تراه ربما كان يفرط في الحساسية؟)، وفي شيءٍ من التضارب، بارتيابٍ متنامٍ حالما خلصت الرؤوس تلك إلى ما تعنيه الشارة

الزرقاء على سترته. لعلها كانت بالفعل حساسية مفرطة وحسب، إذ كنتَ ترى نفس علائم الإعجاب والإيجاس المتمازجَين تلك أينما ذهبت. كثيرًا ما يبدي الشيوخ تضاربًا تجاه الشبان المتهندمين بالزيِّ، وليس ذلك من غير حق، إن أخذت في الحسبان مدى التضارب الذي يبادلهم إياه الشبانُ أنفسهم.

الأرائك، التي بدت غير مريحة، كانت مريحةً جدًّا بالفعل. غاص ساسون -المسرور بابتعاده عن روائح الكرنب المسلوق والكاسترد التي تخيم على قاعة طعام كريغلوكهارت- في مقعده وأغمض عينيه. على مسافة منه، حول طاولة عند النافذة، شيخان يثرثران عن الحرب. لكلٍّ منهما ابن على الجبهة، كما تبدى له، أم أحدهما فقط؟ كلا، الآخر كان عالقًا في إنجلترا، مثلما اتضح، في دورة تدريبية. أخذ يستمع إلى لعلعة صوتيهما، وشعر بكراهيةٍ متمرسة بدأت تتدفق. لا يحتاج إلى غير تعليقٍ مستخف واحد عن شجاعة الجيش الألمانيِّ كي يذكيه إلى حالة الغضب الشديد الحقيقيِّ، ولم يلبث هذا التعليق أن أتى. كان واعيًا تجاه شيء جنسيٍّ في غضبه، نظر إلى القماش المشدود على ظهريهما العريضين، إلى طيات الجلد الورديِّ كلحم العجل تندلق فوق ياقتيهما، وقال في قرارته، بجلافةٍ غير معهودة: متى *قام معكما آخر مرة*؟

موت غوردن هو ما كان قد أيقظه، لا شك في ذلك. لحظةَ نزل من أجل الفطور، وألقى نظرة على قوائم خسائر الأرواح فرأى اسم غوردن، تلك اللحظة كانت نقطة انعطاف بارزة، على أنه لا يعرف بعد في أي اتجاه سوف ينعطف. بدا له أن شهره الأول في كريغلوكهارت كان قد انقضى في نوع من النوم؛ الكثير الكثير من حلوى البودينغ المطهوة بالبخار، الكثير الكثير من إدخال كرات صغيرة في حُفر. ولما طوَّف عينيه في أنحاء القاعة، علم ما الذي يُشعره بالغثيان من نفسه، ولماذا لم تعد تُشبعه استشاطتُه غضبًا من الرجال المسنين الذين لهم أبناء على الجبهة. السبب هو أنه قد أذعن، ارتد، تظاهر بينه وبين نفسه أنه لم يزل يحتج بفعالية، في حين أنه سمح لنفسه أن يطمئن في الواقع، أتاح لروتين مؤاسٍ مريح أن يبتلعه؛ خلوّ حياة كريغلوكهارت من الأحداث. مثلما أراد له ريفرز.

قام وراح ينظر إلى الصور المصطفة على الجدران. البورتريهات هنا لم تكن تصور رجالات الماضي القريب المسلكيِّين ومواطنيه ذوي المقامات

الرفيعة، بل كانت لرجال من طبقة ملاك الأراضي التي تعود إلى أجيال سبقت ذلك، يظهرون فيها بمعظمهم منطلقين إلى الصيد أو عائدين منه. من الواضح أنه ليس مقدرًا له أن يهرب من ذكريات غوردن والصيد اليوم. منتقلًا من صورة إلى أخرى، راح يتذكر الدفتر الذي اصطحبه معه إلى الخنادق في أولى جولات خدمته. لم يكن يحتوي على شيء سوى تفاصيل مجردة حول طلعات صيد ماضية: أين كانت، كم المسافة التي قطعها، هل ظفر بصيد فيها، وهكذا دواليك. كانت لتبدو لأي شخص آخر مجموعة صغيرة من خرابيش تفتقر إلى المعنى افتقارًا رهيبًا، لكنها بالنسبة إليه كانت تضم أزقة ساسكس والأضِبّة الرقيقة والمطر الرذاذي ونباح الكلاب وشقف التربة المتطايرة من تحت سنابك الخيل والدخول المترنح إلى المنزل وتوجُّع العظام وتكرار عيش طلعة الصيد من جديد على العشاء، ثم الظلال على جدار الحضانة القديمة بعد العشاء ووجه غوردن في وهج النار، ورائحة الحطب والدفء، والخدر والتنفُّخ اللذين يجتاحان كامل وجهه تحت سلطان الحرارة. تحول ذهنه إلى سويعاته الأخيرة في فرنسا، حين توغل -وكتفه مصابة أصلًا- في خندقٍ ألمانيٍّ، يرمي قنابل ميلز ذات الشمال وذات اليمين وهو يصيح: «ظهرت الطريدة[1]!». *تلك هي اللحظة*، قال لنفسه. حينئذٍ كان ساسون القديم قد انفلق نصفين، قشرةً خرج منها شيء جديد إلى النور. *يحفظك الله يا عزيزي*، كان إيدي مارش قد كتب يرد عليه بعد أن حدَّثه عن ذلك، *إياك أن تأخذ الأمر بجدية أكبر*. لكن النقطة المهمة فاتت إيدي؛ لطالما كان الصيد جديًّا، بما لا يقل مثقال ذرة عن جدية الحرب.

«أعتذر عن تأخري»، قال ريڤرز مقتربًا من خلفه: «كنت أنوي أن أكون هنا لدى وصولك».

«لا بأس، غرباء الأطوار القدامى هؤلاء تولوا الترفيه عني»، دار بنظره سريعًا: «أقصد الذين على الجدران».

«إنه تجمع شيوخ إلى حد بعيد، أليس كذلك؟»، اتخذ ريڤرز مقعدًا: «أترغب في شراب؟». رفع يده فاقترب نادلٌ متقدم في السن يرتدي سترة

(1) العبارة في النص الأصليّ هي صيحة بريطانية تقليدية في صيد الثعالب. (المترجم)

بيضاء متمايحًا في مشيته. «كأس جن وتونيك لي أنا، أظن. ماذا ستشرب يا سيغفريد؟».

«المشروب نفسه، من فضلك».

اقتصر تفقُّدُ ريڤرز لقائمة الطعام على تحديد صنف السمك البوشيه[1] المتوفر حاليًّا، في حين صرف ساسون مقدارًا أكبر من التفكير للأمر. راح ريڤرز يراقبه فيما هو يستغرق في قراءة القائمة، وفكر كم كانت حياته لتكون أسهل لو أنهم قد أرسلوا سيغفريد إلى مكان آخر. لم ينحصر الأمر ببساطة في المشقة المترتبة عن اضطراره إلى التعبير عن آراء ما عاد متأكدًا أنه يعتقد بها، مع أنه، بوصفه عالِمًا، كان يجد في ذلك مبعثًا لضيق شديد. لا، الأمر أكبر من ذلك. كل حالة تطرح أسئلة ضمنية بشأن التكاليف الفردية المتأتية عن الحرب، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر خلال التحضير للجان الطبية، حين يتعين على الضباط الأطباء أن يتخذوا قرارات بخصوص الرجال المؤهلين لاستئناف الخدمة. لكان هذا أسهل لو استطاع أن يعتقد -كما يعتقد لويس ييلاند على سبيل المثال- أن الرجال الذين ينهارون هم أفراد تالفون كان من شأن ضعفهم أن يتسبب في انهيارهم نهاية الأمر حتى في حياةٍ مدنية، لكن ريڤرز لم يستطع أن يرى دليلًا على ذلك. لا يملك الأغلبية العريضة من مرضاه أي سوابق لاضطرابات نفسية، وحالما يقبل المرء أن انهيار رجلٍ كان نتيجة لتجربته الحربية لا ضعفه الفطري، لا يعود ثمة مناص من أن تكون الحرب هي المشكلة. إضافةً إلى أن العلاج لا يكتفي بوضع صدق الأعراض التي يعاني منها الفرد على محك الاختبار، بل كذلك يختبر مشروعية المطالب التي تثقل الحربُ كاهلَه بها. كان صمود ريڤرز يُبنى جزئيًّا على قمع وعيه تجاه هذا، ثم دخل ساسون إلى المعادلة، وجعل قابلية تبرير الحرب موضع نقاش مفتوح متواصل، فما عاد ذلك القمع ممكنًا. في بعض الأوقات، كان يبدو لريڤرز أن بقية مرضاه جميعًا هم السندان وساسون هو المطرقة، وقد مر حتمًا بأوقات امتعض خلالها من هذا. حين كان مدنيًّا، تألفت حياة ريڤرز من طرح الأسئلة، واختراع طرائق يمكن من خلالها إحراز أجوبة صادقة، لكن ثمة حد لعدد الأسئلة *الجوهرية* التي تريد طرحها خلال يوم عملك الذي يبدأ

---

(1) بوشيه: طريقة للطهو تعتمد على السلق دون غلي. (المترجم)

قبل الثامنة صباحًا ولا ينتهي حتى منتصف الليل. أما بالنسبة إلى ساسون، الأمور جيدة جدًّا، فهو يمضي أيامه في لعب الغولف.

لم يمنعه أيٌّ من هذا عن مراقبة ساسون وهو يتابع قراءته المستغرقة لقائمة الطعام بانسجامٍ وسلوى.

رفع ساسون رأسه: «هل استغرقتُ طويلًا؟».

- كلا، خذ ما يحلو لك من الوقت.

- هذا مقياس يكاد يكون من زمن ما قبل الحرب، أليس كذلك؟

- لن تُقدم على الاحتجاج كما آمل؟

- كلا، يمكنك الاعتماد على تناقضي.

لم يخشَ ريفرز أن يلاحظ ساسون أي تغير فيه. لقد كان انطواء سيغفريد على ذاته جديرًا بالملاحظة، حتى وفقًا لمعايير الشبان التعساء الطبيعية. حبه لرجاله يتجاوز ذلك الاستغراق في الذات، بيد أن ريفرز يتساءل أحيانًا إذا ما كان ثمة أي شيء آخر يتجاوزه أيضًا. ومع ذلك، كان يتحلى بالعديد من المناقب. من النادر أن تجد رجلًا تكون الشجاعة هي الميزة *الغالبة* فيه، مثلما قد يكون الخبث أو الكسل أو الجشع الصفات السائدة في الرجال الأدنى.

كانت قاعة الطعام فارغة تقريبًا. أُرشِدا إلى طاولة لشخصين عند نافذة تطل على حديقة النادي المسورة الصغيرة. رائحة ورد نقعه مطر الصباح تدفقت من النافذة المفتوحة.

كان النادل شابًّا جدًّا، ربما في السادسة عشرة. شعر أحمر، بقع نمش كبيرة تتناثر فوق بشرة شاحبة، يد بارزة العقد وردية البراجم تقبض على سكين اللحم. بيده الأخرى، رفع الغطاء المقبب عن الطبق ليكشف قطعة كبيرة من لحم البقر شديد الاحمرار. ابتسم ساسون: «هذا يبدو جميلًا». قطع الفتى ثلاث شرائح. وحين انحنى ليأخذ الصحن المدفأ عن الرف السفليّ، كان من الممكن رؤية مؤخر عنقه، بلا دفاعات تحت الياقة المقواة.

- هل هذا جيد، سيدي؟

- ربما واحدة أخرى؟

كان الفتى ينظر إلى ساسون بتبجيل أبطالٍ سافِر، ولم يجد ريڤرز ذلك مفاجئًا. إنه يعد الأسابيع في هذا العمل الكئيب منتظرًا دوره للخروج. على الأقل، ما عادوا يسمحون للفتيان الذين في سنه أن يشقوا طريقهم بين الصفوف عن طريق الكذب والتدليس. انتبه إلى ساسون يبتسم بينه وبين نفسه.

«ما الذي يُضحكك؟».

«كنتُ أفكر في كامبل. ليس كامبل *خاصتنا*، بل رجلًا أقل جاذبية بكثير، و... إممم... سليم العقل كما يُزعَم. كان يلقي محاضرات -وما زال، كما أظن- عن «روح الحربة». أشياء من قبيل: «اطعنه في الكليتين، ستخترقهما كما تخترق سكينٌ ساخنة الزبدة»، «ما فائدة ستة إنشات من الفولاذ تبرز من مؤخر عنق رجل؟ ثلاثة إنشات تكفيه. عندما يتحشرج، اذهب وابحث عن آخر»، وهكذا. وكما تعلم، الرجال يجلسون هناك ضاحكين وهاتفين يدلون بإيماءات فاحشة. *إنهم يكرهون ذلك*»، ابتسم: «حضرني ذلك لأن الفتى كان يتعامل مع سكين اللحم بمهارة كبيرة».

- أجل، لاحظت.

- إنه رجل من النوع الذي لا تتردد في انتقائه خادمًا شخصيًا لك.

قال ريڤرز معابثًا: «وليس سيئ الطلعة أيضًا».

«أخشى أن هذا يأتي في المرتبة الثانية. أول ما تبحث عنه هو المهارة في استخدام الحربة، لأنه دائمًا على يسارك خلال الهجوم».

تناولا طعامهما في صمت لبعض الوقت، ثم قال ريڤرز: «هل سمعتَ خبرًا من صديقك الذي كنت ستكتب إليه بشأن غوردن؟».

- أجل. الأمر صحيح كما اتضح، لقد مات من فوره بالفعل. والده هو الذي قال ذلك، لكنهم لا يخبرون الأهالي بالحقيقة دائمًا. أنا نفسي كتبتُ الكثير جدًا من الرسائل المشابهة.

- لا شك أن ثمة بعض العزاء في معرفة أنه لم يعانِ.

تصلَّب التعبير على وجه ساسون: «سرَّني أن أتوثق من ذلك»، صمت مُربك: «لقد تلقيتُ المزيد من الأخبار السيئة هذا الصباح. أتتذكر حين حدثتُك عن

جوليان داد؟ الذي تلقى رصاصة في حلقه، ومات أخواه الاثنان؟ لقد تراجعت حالته العقلية كما يبدو. إنه في... ما أظن أنه يحسن بي تسميته مستشفى أمراض عقلية، مراعاةً للمستمعين. الأمر الشنيع هو أن لديه فكرة مجنونة مفادها أنه لم يُبلِ حسنًا كفاية. لا أحد غيره يظن ذلك، لكن من الواضح أنه ما من مجال لمناقشته. لقد كان واحدًا من أبطالي، كما تعلم. أتذكر حين نظرتُ إليه ذات مساء، كنا قد عدنا لتونا من تفقُّد مهاجع الرجال -التي كانت حقيرة كالعادة- و... أهمَّه ذلك، أهمَّه بحق. فنظرتُ إليه وقلت في قرارتي: *أريد أن أكون مثلك*»، ضحك، ساخرًا من تبجيل الأبطال هذا، لكن دون أن يتبرأ منه: «على أي حال، أظن أنني نجحت، أليس كذلك؟ بما أننا كلينا في مستشفى المجانين».

كان الاستفزاز متعمدًا. ولما لم يستجب ريڤرز له، تابع ساسون: «هذا يجعل المتابعة أمرًا صعبًا إلى حدٍّ بعيد، كما تعلم. حين لا تنفك أشياء كهذه تحدث لأشخاص تعرفهم و... و... تحبهم. أعني متابعة الاحتجاج».

صمت.

انحنى ساسون إلى الأمام: «*استيقظ* يا ريڤرز، ظننتُك ستنقض على هذه الملاحظة انقضاضًا».

«أحقًّا؟».

سكوت قصير. «لا، لا أعتقد».

مرَّر ريڤرز يده من جبهته إلى عينيه: «لا أشعر برغبة كبيرة في الانقضاض».

غادر ريڤرز النادي بعد ساعة. كان قد ترك سيغفريد برفقة رالف سامبسون، عالم الفلك الملكي لاسكتلندا، الذي صادفاه بعد الغداء. طغت الرهبة على ساسون أول الأمر بشكل أثناه عن التحدث، غير أن سامبسون سرعان ما وضع حدًّا لذلك. لقد تركه ريڤرز وهو يدردش بسعادة بادية. الغداء في حد ذاته كان كئيبًا نوعًا ما، حتى إن سيغفريد قال في مرحلة منه: «لقد بدأت أشعر بالاستنزاف». بوسع المرء أن يتفهم ذلك، لقد عانى

من فجائع متكررة في العامين الأخيرين، إذ ما كان يلبث أحد لداته[1] أن يموت حتى يتبعه الآخر. من ناحية ما، كانت تجربة هؤلاء الرجال الشبان توازي تجربة الشيوخ الهرمين، كانوا ينظرون خلفهم نحو ذكريات مُجهِدة ويشعرون بالوحدة لأن أحدًا ممن كانوا حاضرين هناك لم يبقَ حيًّا. وبدا أن عادة سيغفريد في التذكر والنظر إلى الخلف، وعجزه عن تصور أي شكل من أشكال المستقبل، أمور تزداد سوءًا.

ليست حالةً سهلة، فكر ريڤرز، بل ليست حالةً من الأساس بالمعنى المعهود. لا فكرة لديه عما قد تكون النتيجة، رغم أنه يظن نفسه قادرًا على أن يصل بسيغفريد إلى الإذعان. حبه لرجاله.. الحاجة التي يضمرها إلى *إثبات* شجاعته.. وفقَ كل المقاييس *المنطقية*، كان قد أثبتها بالفعل، مرارًا وتكرارًا، إلا أن تلك الحاجة ليست منطقية تمامًا. وبالنظر إلى قوة تلك الحاجة، كان من المدهش أنه تمكن من تحمُّل حبسه مع «فاشلين» و «تالفين» حتى الآن. التأليف بين هذه القوى وحمله على العودة إلى فرنسا مهمةٌ من نفس درجة الصعوبة التي يتصف بها قلبُ خنفساء أيل على ظهرها. المشكلة أن ريڤرز يُكِنُّ لساسون احترامًا أكبر من أن يستطيع التلاعب به، يجب أن يُقنَع أن العودة هي الفعل الصائب.

عند أول طريق الدخول إلى كريغلوكهارت، رأى ريڤرز ويلارد والسيدة ويلارد. لسببٍ استثنائيٍّ ما، كان ويلارد قد جعل زوجته تدفعه وصولًا إلى البوابة، رغم المنحدر النازل الذي لا بد أنه يدرك كم سيجعل طريق العودة صعبة. إنهما الآن مهجوران وحدهما.

ألقى ريڤرز التحية على ويلارد، وانتظر أن يُعرِّفه على زوجته، ثم بادر إلى ذلك بنفسه حين لم يفعل. كانت السيدة ويلارد شابة للغاية، وجذابة على غرار الفتيات العصريات ذوات النهود الصغيرة والأوراك النحيلة. وبينما راحا يدردشان حول الطبيعة المضللة للمنحدرات وصعوبة التعامل مع الكراسي المتحركة، انتبه ريڤرز إلى يدَي ويلارد تقبضان على ذراعَي الكرسي. شعر

(1) اللِدة: المعاصر والقريب في السن. يغلب في العربية استخدام «اللدات» للمذكر و«الأتراب» للمؤنث. (المترجم)

بغضبِ الرجل تجاه تركه على هذا النحو، عاجزًا. جيد، كلما زاد غضبه كان أفضل.

قال ريڤرز للسيدة ويلارد: «اسمحي لي، سأساعدك».

وإذ راحا يدفعان معًا، بدأا يتقدمان بثبات، لكنهما مرًا بلحظة بغيضة قرب القمة، عندما وصلا إلى رقعة موحلة. غير أن عجلتَي الكرسي ما لبثتا حتى ارتصّتا، ووصلتا إلى الأرض المستوية سريعًا.

«ها أنت ذا»، قالت السيدة ويلارد منحنيةً نحو زوجها تضحك مقطوعة الأنفاس: «وصلنا».

كان بوسع وجه ويلارد أن يُفسد الحليب.

«لمَ لا تدخلان وتتناولان كوبًا من الشاي؟»، اقترح ريڤرز.

نظرت السيدة ويلارد إلى زوجها طلبًا للمشورة، وعندما لم تجدها قالت: «أجل، سيكون هذا لطيفًا».

«بابي على اليسار فور الدخول، سأسبقكما وأرتب الأمور. هل ستكونان بخير الآن؟».

«بأفضل حال، شكرًا لك»، أجاب ويلارد.

دخل ريڤرز إلى الردهة مبتسمًا، ولم تلبث الابتسامة أن امّحت عن وجهه ما إن أبصر الممرضة المشرفة واقفةً أمامه في المدخل. لقد راقبت كل ما جرى، ومن الواضح أنها استنكرته. «كان بوسعك أن ترسل أحد المساعدين ليدفع الكرسي يا حضرة النقيب ريڤرز».

فتح ريڤرز فمه، ثم عاود إغلاقه. ذكّر نفسه -لمرةٍ ليست الأولى- أن من الضروريّ بلا ريب للممرضة المشرفة أن تربح بعض معاركهما.

11

كان ساسون يحاول فك شفرة رسالةٍ من هـ. ج. ويلز عندما دق أوين بابه.

«وفقًا لما أستطيع تبينه، يقول إنه آتٍ كي يرى ريڤرز».

بدا أوين معجَبًا بقدرٍ يتناسب مع الموقف: «لا بد أنه قلقٌ عليك حقًّا».

«أوه، ليس *أنا* ما يريد التحدث عنه، بل كتابه الجديد»، ابتسم ساسون: «لا تعرف الكثير من الكتاب، أليس كذلك؟».

«ليس الكثير».

وأنا أتباهى، قال ساسون في قرارته. وكان هذا على الأقل أفضل من النواح على موت غوردن أمام شخص لديه من المشكلات ما يفيض عن حاجته. «لا أظن أنه سيأتي. كلهم يتحدثون عن هذا، لكن المسافة طويلة للغاية في النهاية. أتساءل أحيانًا إذا ما كان هذا هو السبب الذي دفعهم إلى وضعي هنا، إذا ما كان الأمر يتعلق بإرسالي إلى ريڤرز أم إرسالي بعيدًا قدر المستطاع وحسب».

«أغلب الظن أنه احتمال ريڤرز، فهو يتولى جميع الأشخاص المربِكين»، توقف أوين في شيء من الاضطراب: «ليس أنك...».

«أوه، أظن أنني أُعَد مربِكًا، بجميع المقاييس»، مرَّر إليه ورقة: «من أجل *الهيدرا*».

- أيمكنني أن أقرأها؟

- هذه هي الفكرة العامة منها.

قرأ أوين، ثم طوى الورقة وأومأ برأسه.

ولِتدارك أي إسراف عاطفيٍّ محتمل، قال ساسون بسرعة: «لست راضيًا عن الأسطر الثلاثة الأخيرة، لكنها ستفي بالغرض».

«مررتُ عليك البارحة، لكنك كنت في الخارج».

«تجدني كنت برفقة ريڤرز»، ابتسم: «أيحدث أن تشعر برغبة في خنقِ بروك؟».

- كلا، أنا منسجم معه بشكل جيد في الواقع.

- وأنا منسجم مع ريڤرز، الأمر فقط أنه... تمسَّك بشيء قلتُه على الغداء بشأن عدم قدرتي على تصور المستقبل. هو لا يمارس الضغط عادةً، لكن رحماك يا إلهي حين يفعل...

- لمَ أرادك أن تتحدث عن ذلك؟

- كجزء من الحملة الكبرى التي يديرها من أجل إرجاعي إلى فرنسا. إنه يريدني أن أضع الاحتجاج في منظور ذي مدى أطول. شيء من قبيل: «ماذا فعلتَ في الحرب العُظمى يا سيغفريد؟». حسنًا، لقد أمضيتُ ثلاث سنوات مريحة للغاية في مستشفى مجانين آكلُ البودينغ المطهو بالبخار وألعب الغولف، في حين نُسِفت أجساد *أشخاص آخرين* -بعضهم أصدقاء مقربون بالأحرى- إلى فُتات. يريدني أن أعترف أنني لن أكون قادرًا على احتمال ذلك. وعلاوةً على هذا، إنه محق على الأرجح.

- فكر في القصائد التي بوسعك أن تكتبها.

- ليس قصائد حرب.

اكفهر وجه أوين: «ثمة موضوعات أخرى».

«أجل، بالطبع».

سكوت قصير مربك بعض الشيء. «المشكلة أنه يعرف أكثر مما أعرف. كما تعلم، إنه ماهر جدًّا... يحاول التصرف كما لو كنا متساويَين. لكن في

نهاية المطاف، هو حائز على ميدالية ذهبية من الجمعية الملكية، وأنا تركتُ كامبريدج دون أن آخذ شهادة، وهذا يظهر بين الفينة والأخرى».

- هذا لا يعني أنه محق.

- لا، لكنه يجعل مضاهاتي له في النقاش أمرًا صعبًا جدًّا.

- هل تحدثتما عما بعد الحرب؟

- لا. لا أستطيع، فلست أملك أي خطط. هل تعلم *أنت* ماذا ستفعل؟

- سأربي الخنازير.

- خنازير؟

- أجل. يظن الناس أن الخنازير قذرة، كما تعلم، لكنها ليست كذلك. إنها حيوانات نظيفة جدًّا، إن أتيحت لها أدنى فرصة. وهذا سيتواءم بشكل ممتاز مع الشِّعر، كما ترى. أكثر بكثير من التعليم في الواقع، لأنك إن تعلمت بشكل لائق ستستخدم نفس الجزء من عقلك، بيد أن تربية الخنازير...

- ربما يجدر بنا أن ندخل في شراكة، هذا سيتكفل بإسكات ريڤرز.

احمر وجه أوين، إذ أدرك متأخرًا أن الحديث يهزأ به، ولم يُحِر ردًّا.

«لا، حقًّا، لستُ أظنني سأكون ذا نفع يُذكر مع الخنازير، لكنني قد أستطيع تقديم المساعدة في ما يخص القصائد»، أومأ نحو سترة أوين.

أخرج أوين رزمة أوراق: «قلتُ لك إنها قصائد قصيرة كلها، لكن ثمة واحدة طويلة في الواقع. عنتي وهرقل»، ناوله الأوراق: «أتعرف الأسطورة؟ يظل عنتي عصيًّا على هرقل ما دامت قدماه على الأرض الأم، لكن ما إن يرفعه هرقل...».

«يصبح عاجزًا. أجل، إنها تقرع جرسًا في ذاكرتي»، شرع ساسون في القراءة، وبعد بضع ثوانٍ رفع رأسه: «لمَ لا تتناول كتابًا؟ لا شيء أسوأ من الخضوع لمراقبة المُنجِب الأوحد[1]».

(1) المنجب الأوحد: ورد هذا التركيب في النص الأصليّ بهجاء إنجليزيٍّ قديم يُحيل إلى استخدام شكسبير له ضمن إهداء سونيتاته المنشورة عام 1609 م، إذ وصف به ملهم هذه السونيتات. (المترجم)

«آسف». نهض أوين وتظاهر بالنظر إلى الكتب التي على رف ساسون.

رفع ساسون رأسه أخيرًا: «هذا جيد جدًّا. لماذا عنتي؟».

- أوه، إنه شيء يتحمس له بروك. يظن أننا -نحن المرضى- نشبه عنتي من حيث أن الحرب رفعتنا عن أرضنا، وطريق العودة إلى الصحة السليمة يكمن في إعادة ترسيخ الصلة بين واحدنا وبين الأرض، على أن نفهم «الأرض» بمعنى المجتمع إضافةً إلى الطبيعة. لهذا ننجز الاستطلاعات وما إلى هنالك.

- ظننتُ أن كل هذه المعمعة كانت أصلًا بهدف إشغال فكرك عن الأمر؟

- لا، هذا جزء من المداواة. علاج وظيفي.

- حسنًا، إنها فكرة مثيرة للاهتمام، بيد أنني لستُ متأكدًا إن كان الحصار داخل مخبأ خندقيٍّ قد جعلني يومًا أشعر بفقدان الاتصال مع الأرض عن نفسي.

ابتسم أوين: «كلا، ولا أنا. لكن الأمر نافع مع ذلك».

التقط ساسون الورقة التالية، فمد أوين عنقه حتى تمكن من رؤية عنوان القصيدة. «هذه بأسلوبك»، قال.

- أجل، لقد... إممم... لاحظت.

- ليست جيدة؟

- تبدأ وتنتهي بشكل جيد. ماذا حدث في وسطها؟

- إنها قديمة جدًّا، هذه القطعة. كتبتُها قبل عامين.

- يقولون إنك إن تركت شيئًا في الدرج لفترة كافية، فإما أن يتعفن وإما أن ينضج.

- القطعة في النهاية... التي تتحدث عن «القذارة»، هذه هي الكلمات الحقيقية.

- أجل، ولا ضير من تغييرها. لقد أزلتُ مؤخرًا عبارة «أيها الأحمق» من إحدى القصائد، وتلك كانت كلماتي الحقيقية.

- إذًا فهي ليست جيدة؟

تردد ساسون: «إنها ليست جيدة كثيرًا في *الوقت الراهن*. أفترض أن الأمر المهم هو: هل أنت مهتم بما يكفي للمتابعة؟».

- أجـــل.. عليَّ أن أبدأ من مكان ما. وأظنك على حق، من الجنون ألا نكتب عن الحرب فيما هي...
- تجربة بهذا الحجم.

نظر واحدهما إلى الآخر وانفجرا ضاحكَين.

- موضع الشك الوحيد لدي... هو.. هو أن كونك معجبًا جدًّا بأحدهم ليس أمرًا يجعله أسوةً حسنة تلقائيًّا. أقصد، أنا معجب بوايلد، لكن إن بدأتُ أحاول أن أكون سريع الخاطر وأنيقًا وبتارًا، أغلب الظن أنني سأهوي على وجهي.
- أجل، أفهم هذا. ليس *هذا*، أعني أنني أفهم ما ترمي إليه، غير أني أظنني أستطيع بالفعل أن آخذ شيئًا منك.

«هذا منصف كفاية»، عاد ساسون إلى قراءته: «أظنك محقًّا على الأرجح»، قال بعد قليل: «قد أستطيع مساعدتك على التخلص من بعض هذا *التهافت*، ولو لم يزِد مفعولي على ذلك».

«بعض السونيتات مبكرة جدًّا».

«سن البلوغ؟». سكوت طويل. تساقطت السونيتات المبكرة مثل الثلج. «أوه، هذه جيدة. «أغنية الأغنيات»».

- هذه كتبتُها الأسبوع الماضي.
- حقًّا؟ أترى الآن ما قصدتُه حين قلتُ إنني لست القدوة الصحيحة بالضرورة؟ *أنا* ما كنتُ لأستطيع أن أكتب هذه، ومع ذلك فهي ممتازة تمامًا بالنسبة إلى نمطها.

جلس أوين، بدا كأن ركبتيه خارتا.

- أظن أنه يجدر نشرها في *الهيدرا*.
- لا.
- لمَ لا؟

- أولًا: ليست جيدةً بما يكفي. ثانيًا: لا ينبغي للمحررين أن ينشروا أعمالهم.

«أولًا: أنا أفضل منك في الحكم على هذا، *في الوقت الراهن*. ثانيًا: هراء. وثالثًا»، انحنى ساسون إلى الأمام وانتزع قصيدته مستعيدًا إياها: «إن لم تنشر *تلك*، فلن أعطيك هذه».

بدا أوين يعتزم شن هجوم مضاد.

«رابعًا: أنا أضخم جثة منك».

«حسنًا، سأطبعها»، استرد قصيدة ساسون: «دون اسم».

«غِش»، كان ساسون يقلّب أوراق أوين: «اسمع، لمَ لا تحاول مع...»، ألقى نظرةً على العنوان: ««الميّتُ من التعب»؟ اشتغل عليها إلى أن ترى نفسك أحرزت بعض التقدم، ثم جئ بها مجددًا فنحاول معها معًا. ليست راضّةً إلى حدٍّ بالغ، أليس كذلك؟ تلك الذكرى».

- رباه، على الإطلاق.

- كم تُمضي من الوقت عليها؟ لا أعني هذه تحديدًا، بل بشكل عام؟

«خمس عشرة دقيقة»، رأى التعبير يتغير على وجه ساسون: «هذا بشكل يوميّ».

- حبًّا بالله يا رجل، لن ينفعك هذا. عليك أن تتصبب عرقًا من أحشائك. انظر، الأمر أشبه بالتدريب، أنت لا تنتظر حتى تواتيك *الرغبة* في فعله.

- حسنًا، هذه من غير ريب مقاربةٌ جديدة لإلهة الإلهام. «رقِّم من اليسار! شكِّل مقاطعَ رباعية! انعطف إلى اليمين!».

«إنها فعَّالة. سأراك... فلنقل، يوم الخميس؟ بعد العشاء»، فتح الباب وانتحى جانبًا سامحًا لأوين بالمرور: «وسوف أنتظر أن أرى كلتا القصيدتين في *الهيدرا*».

12

بعد أن ظل پراير منتظرًا نحو خمس دقائق، فُتِح باب البنسيون ووقفت سارا هناك.

«يا للوقاحة!»، قالت وهي تهم بإغلاق الباب.

وضع پراير إصبعه في الفرجة: «أنا هنا الآن».

- وهذا ما لم يحدث الأسبوع الماضي. هيا، *ابتعدْ*.

- ما كان بوسعي القدوم الأسبوع الماضي، تأخرتُ كثيرًا في العودة فاحتجزوني.

- متزمتان بعض الشيء، أليس كذلك؟ *والداك*.

فات الأوان، تذكَّر الأكاذيب التي كان قد رواها. أشار إلى الشارة الزرقاء على سترته: «ليس والداي، بل الضابط الآمر».

توقف دفعُ الباب.

«أعلم أن كلامي يبدو غبيًّا، لكنها الحقيقة بالفعل».

«أوه، حسنًا، أنا أصدقك»، حطت عيناها على الشارة: «وإن كنتَ تضايق نفسك بهذا الشأن، لا داعي، فقد كنتُ أعلم على كل حال».

«كيف علمتِ؟»، ماذا تراه كان يفعل؟ هل كان *يُرَيِّـل*؟

«لستَ تظن نفسك الوحيد الذي ينزعها، أليس كذلك؟ جميعهم يفعلون. بيتي تقول إنها رافقت شابًا ذات زمان، ولم تره يومًا يرتدي الشارة. لكن ضع في علمك، من معرفتي ببيتي، لا ينبغي لي أن أظنها كانت تراه يرتدي الكثير من الأساس».

في النهار، صُفرة بشرتها أذهلته. كانت تُفصح بجلاء عن أنها جذابة رغمها، عن أن بمقدورها ارتداءها كأنها إكسسوار أنيق.

«ثمة أمر واحد فقط»، قالت خارجةً إلى المصطبة: «إن أنا خرجتُ معك بالفعل، أريد توضيح أمر واحد من البداية. أظن أنك لا بد أخذتَ انطباعًا خاطئًا جدًّا عني تلك الليلة، إذ كرعتُ كل تلك الكمية من الخمر»، رفعت عينيها إلى وجهه: «أنا لا أشرب كثيرًا على الإطلاق في العادة».

- أعلم ذلك، لقد ثملتِ أسرع مما يحدث مع شخص معتاد على الأمر.

- حسنًا إذًا، ما دمتَ تعرف، سأحضر سترتي.

وقف ينتظرها، مطوِّفًا نظره في أنحاء الشارع الحار، وبدأ خطٌّ رقيقٌ من العرق يتشكل في إبطيه. من مكان عميق داخل المنزل، جاء صوت امرأة يعلو في غضب.

«صاحبة البنسيون»، قالت سارا لما رجعت: «بلجيكية، متزوجة من اسكتلنديٍّ. يا للوغد المسكين، لا أظنه كان يعرف ما سيلقاه. ومع ذلك، هي لا تتقاضى إلا شلنًا واحدًا مقابل الغسيل، وإن رأيتَ أن الملاءات تبدو بلون أصفر فاتح على السرير لا يمكنك التذمر من ذلك».

كان يشعر كأنه في بيته برفقتها، مع هذا الوصف الدقيق لثمن كل شيء، الذي لم يكن ماديًّا أو ناجمًا عن تقتير، إنما هو إدراك لحدود الحياة ومحدِّداتها ببساطة.

«أرى أن نخرج من إدنبرة»، قال لها: «الجو حار للغاية».

معظم قاطني إدنبرة كانوا يستغلون نهاية الأسبوع الأخير هذه من أغسطس للهروب من المدينة، دون أن تردعهم مسحةُ لون شاحبة تشوب السماء مشيرةً إلى احتمال تفتُّق الطقس الحار الدبق عن رعدٍ قبل نهاية النهار. كان القطار مكتظًّا، لكنه استطاع أن يحصل لها على مقعد، ووقف قربها. ابتسمت له من

مقعدها، بيد أن تبادل الحديث كان مستحيلًا في هذه العلبة الضجَّاجة التي تتصبب عرقًا. راح ينظر إلى الركاب الآخرين؛ ثلاث فتيات خارجات في مشوار مرح صاخب، أمٌّ شابة بجانبها طفلٌ دارج[1] يناضل للوقوف متشبثًا ببلوزتها، ثنائي في منتصف العمر بجسدين ترهلا معًا. ثمة شيء في تلك الحميمية البائسة شحذ إحساسَه بالغرابة، بالانفصال عن جسد سارا. كان واعيًا تجاهها من الناحية الجسدية إلى درجة أنه -حين حفت ركبةُ سرواله بتنورتها- أحس كأن الاحتكاك كان جلدًا بجلد.

عُقدةٌ عصبيةٌ من سكك الحديد، القطار يترجرج فوق النتوءات، ثم بدأت الحركة تتباطأ، وأخذ الناس يتحركون ويتشبثون بحقائبهم، متزاحمين في الممشى. «دعينا ننتظر»، قال لها.

التصقت سارا به، لحظة وجيزة، كي تسمح للمرأة وطفلها بالمرور، ثم جلس بجانبها فيما القطار يفرغ من ركابه. بعد قليل، مدت يدها ولمست يده.

أخذا وقتهما في المشي إلى البحر. شعر بالإحباط أول الأمر، إذ كان المكان شديد الازدحام. رجال ببناطيل شُمِّرت لتكشف عن سيقان بارزة العُقد، مناديل معقودة فوق فروات رؤوس متعرقة، نساء بتنانير جُمِعت لترتفع عن سراويل تحتية فضفاضة، أطفال صغار يصيحون فيما يُنفَض الرمل الرطب عن سيقانهم بالمناشف. في كل مكان أناس يدوّرون ألسنتهم حول أقماع الآيس كريم، يقضمون غزل البنات، يلعقون الصخر، يمصون الأصابع، عاقدين العزم على اعتصار آخر قطرة من الملذات التي يقدمها النهار. في ردائه الخاكيّ، كان پراير يتحرك وسطهم مثل شبح. لا شيء سوى سارا يربطه بالحشد المتدافع بالمناكب، وهو يضع يده حولها، يشدها بقوة، رغم أنه هذه اللحظة لا يشعر ولو بنأمة رغبة. قال: «ما كان المرء ليظن أن ثمة حربًا تدور رحاها، أليس كذلك؟».

تابعا السير إلى حافة الماء. كان يشعر الآن بالجمود تجاهها إلى حدٍّ بعيد، حتى فيما هو يجذبها نحوه ويعاير بين خطواته وخطواتها. هي تنتمي إلى الحشود الساعية خلف الملذات، وهو يحسدها ويحتقرها في آنٍ معًا، ويبيّت

(1) الطفل الدارج: من هو في سن بداية تعلُّم المشي. (المترجم)

نية معقودة ببرود *للظفر* بها. إنهم مدينون له بشيء ما، جميعهم، وعليها هي أن تفي به. رماها بنظرة: «هلّا تمشينا بمحاذاة الماء؟».

تمدَّد ظلاهما المترابطان فوق الرمل ثخينَين شائهَين. وصلا بعد قليل إلى صخرة بارزة، وإذ تسلقاها على أربع، ألفيا نفسيهما قد تنحيا عن الجزء المكتظ من الشاطئ وتركاه خلفهما. نضت سارا سترتها، ثم -وبكثير من الجلبة والتوسلات كيلا ينظر- حذاءها وجوربيها أيضًا. راحت تلعّب قدميها عند طرف الماء، والأمواج تزبد بين أصابعهما.

«لا أظن أن من المسموح لك أن تنزع أي شيء؟»، قالت وهي تنظر إليه نظرة معاتبة.

- مطلقًا.

- ولا جزمتك حتى؟

- لا، لكن يمكنني أن أخوّض. أنا أحرك قدميَّ في الماء دون نزع الجزمة دائمًا.

لم يتوقع منها أن تفهم، أو أن تقر إن هي فهمت، بيد أنها عاجلته من فورها: «كثيرًا ما تسمح الجِزَم للماء بالنّفاذ».

- إلا جزمتي.

- أوه، لا بد أنك مختلف كما أظن؟

حتى اللحظة، كان الهواء ساكنًا بالكاد يتحرك على البشرة، إلا أن هبّات صغيرة بدأت الآن تذرو الرمل فتلسع الرقع المكشوفة من الجلد. نظر پراير خلفه نحو مورد الهبّات؛ كانت الشمس قد تجاوزت ذروتها، حتى الكُوَم الصغيرة التي خلَّفها الدود خارج ثقوبه ظهر ظلٌّ لكلٍّ منها. لكن ما لفت انتباهه بالدرجة الأولى كان اصفرار الضوء؛ لقد أضحى الآن كبريتيًا بلا ريب، تُثخنه الحرارة. بدوَا عالقَين، مُثبَّتَين، في عنصرٍ ما أكثف من الهواء. أشخُص سوداء، كأنها حشرات، تنثال في أنحاء الشاطئ، متجهةً إلى الوقاء الذي توفره البلدة.

سارا أيضًا استدارت لتنظر إلى الخلف. بادرها بسرعة: «لا، لا تجعلينا نعود، سوف ينفسح الجو».

«تظن أن هذا سينفسح؟».

قال على مضض: «هل تريدين أن نعود؟».

«سنغرق من البلل قبل أن نصل إلى هناك. على كل حال، أنا أحب العواصف».

وقفا يطلان على عرض البحر، فيما الضوء الأصفر يزداد قتامة. ليس هنالك فرق الآن بين لونَي بشرته وبشرتها. فجأةً، قبضت سارا على رأسها: «ما الذي يحدث؟».

بالكاد استطاع أن يصدق ما يراه؛ لقد أخذت خيوطُ النحاس التي تكسو سطح شعرها تنتصب باستقامة تامة، على نحوٍ ما كان ليصدق يومًا أن أي شَعرٍ بشريٍّ قادر عليه. نزع قبعته عن رأسه، فأجفل من الوخز الخفيف في فروته.

«ما هذا؟»، قالت سارا.

«كهرباء».

انفجرت ضاحكة.

«لا، أنا أعني ما أقوله».

ومض البرق مرة، فأضاء بشرتها الصفراء.

«تعالي»، قال پراير.

خطف يدها وانطلق يعدو معها بحثًا عن ظلةٍ تُلقيها بعض الشجيرات. وبينما هما يندفعان صاعدَين المنحدر الأخير، ترنح وكاد يسقط لو لم يتمسك بخصلة من قصب الرمال. أحسَّ بألم حاد، وإذ رفع يده أبصر لطخة من الدم على راحته. دفعته سارا من الخلف، فتعثرا متدهورَين على طول الجانب الآخر للمنحدر، في اللحظة التي أعشت فيها زخةٌ عنيفة مفاجئة من المطر بصريهما، ووردت أولى تباشير هزيم الرعد.

الظلة الوحيدة المتاحة تُقدِّمها أيكةٌ كثيفة من السِّدر. سحق پراير بقدميه الشوكَ والغصينات الناتئة التي تعترض الثغرات، ثم رد الفروع المدببة بيده لكي تزحف سارا إلى الداخل، وتبعها. انحنيا رابضَين، لا يبلغهما من المطر إلا النزر اليسير عبر السقف الشائك الكثيف، رغم أن الريح تهز الدغل وتجلده.

راح پراير ينظر حوله؛ الأرض جافة، وجرداء جدًّا، فالشوك أكثر كثافةً من أن يسمح لأي شيء آخر بالنمو.

كانت سارا تتلمس شعرها: «هل وضعه مقبول؟».

- بدأ يرتخي.

- وكذلك لديك.

افترّ ثغره: «لا عجب، فقد ألهتني العاصفة عنه تمامًا».

ضحكت، لكنها أبت أن تجيب. كانت ذاكرة پراير تسترجع ألعاب الطفولة، وصُنْعَ الأوكار. إنّ مختلَى مثل هذا، معتمًا ومنعزلًا ويسهل الدفاع عنه هكذا، كان ليُعَدَّ لقية حقيقية. ثمة حماسة أخرى تندلع شيئًا فشيئًا فتخامر هذه الإثارة الصبيانية بجلاء؛ لم يعد يشعر بالعدائية نحوها كما كانت حاله هناك في الحشد، بدا أنهما قد سارا مبتعدَين عن كل ذلك. دهورٌ انقضت على آخر مرة مارس فيها الحب. شعر كما كان يشعر أحيانًا عندما يخرج من الخط الأماميِّ، فيستمع إلى الآخرين يتحدثون، وربما ينضم إلى الحديث، عما سيفعلونه وكم مرة سيفعلونه، رغم أن البقية كلهم -على حد علمه- لا يفوقونه تجربة. المرة الأولى تكاد تكون مخيبة للأمل دائمًا: إما أن تَغْلقَ رايتُك في منتصف السارية وإما أن تطلق النارَ قبل بلوغك الهدف. لا يريد أن يفكر في سارا بهذه الطريقة.

انقلبت سارا بجذعها واتكأت على مرفقها ناظرةً إليه: «هذا لطيف».

استلقى بجانبها، وعثرت بضعُ رشاتٍ من المطر على وجهه الناظر إلى أعلى. بعد قليل، لمس يدها وأحسَّ برؤوس أصابعها تنحني وتلف أصابعه. قال من خلال الغِلظة القابعة في حنجرته: «لستُ ألِحُّ، لكن إن كنتِ تريدين، سأحرص على أن يكون الأمر حسنًا».

بعد وقتٍ قصير، أحسَّ بأصابعها تتسلل فوق صفحة صدره، وتندس بين أزرار سترته. قبَّلها، متحركًا من شفتيها إلى الصدر، دون أن ينظر إليها، دون أن يفتح عينيه، انداح يتعلمها بلسانه، ينقر مواضعَ الضوء حتى استجابت، ويجوس العتمَ الفلكيَّ في سُرتها، ثم يمضي أسفل فأسفل، على رخام بطنها

الأملس، إلى داخل المرجِ المخضلّ والخشن. امتلأت فتحتا أنفه برائحة بِرك الماء المتجمعة بين الصخور لدى انخفاض المد.

فيما بعد، اضطجعا صامتَين يستمتعان بَالسكينة، حتى نبَّههما وقْع أقدام تسير على الدرب الساحليِّ إلى انتهاء العاصفة. نثر السدرُ قطرات مطر فوقهما وهما يخرجان زاحفَين إلى العشب.

نفض كلٌّ منهما الرمل والغصينات العالقة بثياب الآخر، ثم بدأا السير مُتّبعَين الدرب الساحليَّ.

«ما نحتاج إليه الآن هو شيء يدفئنا»، قال پراير.

«لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان بهذه الهيئة».

توقفا عند مشارف البلدة، وحاولا أن يَعدِلا حالهما بجد أكبر. ذهبا إلى حانة، وأسندا ظهريهما إلى المقعد الخشبيِّ يتبادلان اللكز تحت الطاولة، سكرانَين بالحب الذي مارساه والعاصفة وحس الأسرار المشتركة.

«يمكنني أن أحس بصوتك خلال الخشب»، قالت سارا.

وبغتةً، خمد الحبور. حط الكمَدُ على پراير دون سابق إنذار، فدفع وجبته التي لم يأتِ على نصفها من أمامه.

«ما الأمر؟».

«أوه، تذكرتُ رجلًا في فصيلتي»، نظر إليها: «أتعلمين؟ كان يرسل الرسالة نفسها إلى زوجته كل أسبوع طوال عامين».

أحسَّت سارا بقشعريرة تسري بها، لم تدرِ لِما عساه يخبرها بهذا. «لماذا؟».

- لمَ لا؟
- وما أدراك أنه كان يفعل ذلك؟
- لأنني كنتُ ملزمًا بإجراء رقابة عليها، كنت أرقبها كل أسبوع. نحن نقرأ جميع رسائلهم.

استطاع أن يرى عدم استساغتها للأمر. لكنها حافظت على رشاقة صوتها: «ومن يقرأ رسائلكم؟».

«لا أحد»، نظر إليها من جديد: «إنهم يعولون على حس النزاهة لدينا. أوه، يفترض بنا أن نترك الرسائل مفتوحة كي يتسنى للضابط الآمر أن يقرأها إن أراد، لكن فِعلته ستُعد تصرفًا مستهجنًا *للغاية* إن هو أقدم عليها». كان پراير قد تحول إلى نبرة المدرسة العامة الساخرة خاصته، المألوفة جدًّا لدى ريڤرز.

خطفت سارا الكوب من رأس ماعون كلامه. «أنتم يا بشر تثيرون اشمئزازي»، قالت وهي تدفع طبقها من أمامها: «أظن أنه ما من أحد غيركم *يمتلك* حس نزاهة؟».

استحبَّها وهي هكذا. فعلى الشاطئ، كان باديًا عليها بوضوحٍ انشغالُها بجسامة ما حدث بينهما. هو عن نفسه لم يكن سيسلّم بذلك؛ بضع ذرات رمل عالقة بشعر الجسم، ومزيج من الروائح.. لا شيء مما يعجز نقيعٌ طويل في حوض الاستحمام عن غسل كل أثر له. «هيا»، قال وهو يترك بقشيشًا: «يحسن بنا أن نهم بالعودة».

13

كان بيرنز يذرع غرفة الانتظار ذهابًا وإيابًا. لقد أخبره ريڤرز أنه يعتزم التوصية بتسريحٍ غير مشروط، ورغم أنه لم يقل فعليًّا إن اللجنة سوف تقبل التوصية، فقد تضمَّن الكلام تلميحًا قويًّا إلى ذلك. إذًا لا شيء يسترعي القلق، ومع هذا عندما جاء مساعد التمريض وطلب منه الدخول، اضطربت معدته وأخذت يداه بالارتعاش. جعله حزام سام براون، الذي يطوق القماشَ الفضفاض حول خصره، يبدو أكثر شبهًا بفزاعة تربط الأسلاكُ بعضَ أوصالها إلى بعض. أوصل نفسه إلى داخل الغرفة بطريقةٍ ما، وتدبَّر أمر تأدية التحية. لم يستطع أن يبصر وجوههم في البداية، إذ كانوا يجلسون وظهورهم إلى النوافذ الطويلة، لكن بعد أن أوعز برايس إليه بالجلوس بدأت عيناه تتعودان الضوء.

ثمة كمية هائلة من الضوء، هكذا بدا له. فُيوض ضوءٍ فضيٍّ رماديٍّ ترشح من خلال ستائر بيضاء يحركها النسيم، والطنين المُلحّ لحشرة عالقة. ثبَّت عينيه على ريڤرز، الذي استطاع أن يبتسم له دون تحريك عضلة واحدة من وجهه.

بدا الارتياع من هيئة بيرنز واضحًا على الرائد پاجيت، عضو اللجنة الثالث الخارجي، لكنه طرح بضعة أسئلة مراعاةً للشكليات. بالكاد استمع ريڤرز إلى الأسئلة أو أجوبتها. الطنين مستمر، وهو يمسح النوافذ الطويلة بعينيه محاولًا تحديد موقع الحشرة. كان الضجيج معكِّرًا بشكل لا منطقي.

قال پاجيت: «كم بات الاستفراغ يتكرر الآن؟».

نهض ريڤرز واتجه إلى النافذة. عثر على نحلة طنانة، بين الستارة والنافذة، تضرب نفسها بالزجاج، فأخذ ملفًّا عن المكتب واستخدمه كحاجز مرشدًا الحشرة إلى الهواء الطلق. راقبها تطير مبتعدة، وإلى الأسفل منه تمامًا، كان أندرسون وساسون منطلقَين إلى جولة الغولف اليومية خاصتهما، وحمل الهواء إليه صوتيهما. استدار ريڤرز نحو داخل الغرفة ليجد الجميع، بمن فيهم بيرنز، يحدقون إليه بشيء من الدهشة، فابتسم ابتسامةً واهية ورجع إلى مقعده.

«بدأ الأمر يتحول إلى عادة، أليس كذلك؟».

ابتسم پراير، مشابكًا يديه حول القضبان الحديدية لظهر السرير، دون أن يفتح عينيه: «ليست عادة أستمتع بها».

لم يكن قد استرد الوزن الذي خسره خلال إقامته الأخيرة في عنبر رعاية المرضى؛ ضلوعه بارزة بوضوح تحت جلده المشدود. «لقد حالفك الحظ إذ استطعت العودة، متى بدأ ذلك؟».

- في القطار. كان مكتظًّا للغاية، والجميع يدخنون.

- من حسن الحظ أن الشابة التي كانت برفقتك احتفظت برباطة جأشها.

- مسكينة سارا، لا أظن أنها رأت أحدًا يُغشى عليه أمامها من قبل.

«أنت تدرك أنك لن تنفرد بعنبر الرعاية هذه المرة؟»، أشار ريڤرز إلى السرير الآخر: «السيد ويلارد».

- الأعجوبة عديمة الساقين. أجل، التقينا.

- ألا تُكِنُّ تعاطفًا تجاه أي أحد غيرك؟

«هل تلمِّح إلى أنني أُكِنُّ تعاطفًا تجاه نفسي؟»، راقب ريڤرز يطوي السماعة الطبية: «أتتذكر ما كنتَ تقوله بشأن التعقيد النفسيِّ الأكبر لدى الضباط؟ كم من الوقت برأيك ستستغرق حتى تُقنع ذلك النموذج بعينه من *التعقيد* أن عموده الفقريَّ ليس مكسورًا في الحقيقة؟».

«كيف حال صوتك، سيد پراير؟».

استغرق پراير لحظة كي يسجل الضربة المباشرة: «ممتاز، أظن أن المشكلة انتهت. لقد اشتقتُ إليها، كنت أستمتع بأوقاتي القصيرة في الصوم عن الكلام».

- أوه، أستطيع أن أصدق هذا. كثيرًا ما فكرت كم سيكون لطيفًا الانسحاب داخل صمت تام من حين إلى آخر.
- ماذا تقصد بقولك «كم سيكون لطيفًا»؟ أنت تفعل ذلك طوال الوقت.
- لقد رتبتُ لقدوم استشاريٍّ كي يراك، يُدعى د. إيغلزهام، سيأتي في وقتٍ ما من هذا الأسبوع.
- لماذا؟
- أحتاج إلى قياسٍ للسعة الحيوية لديك.
- أنا أثبتها مرتين كل ليلة.
- السعة الحيوية *الأخرى*. حاوِل أن تحظى بقسط من الراحة الآن، الأخت دافي أخبرتني أنك مررت بليلة سيئة.

كان ريڤرز قد وصل إلى الباب قبل أن يناديه پراير من جديد: «*لماذا* تحتاج إلى ذلك؟».

- إنها ثاني مرة يحدث فيها هذا خلال ستة أسابيع، لا أظن أن بإمكاننا تركك تمثُل أمام لجنة طبية دون لفت انتباهها إلى وضعك *البدنيّ*.
- إن كنت تفكر في التلاعب للحصول على خدمة محلية دائمة، فأنا لا أريد ذلك.

«لستُ أفكر في «التلاعب» للحصول على أي شيء»، أطرق ريڤرز ينظر إلى پراير ولان تعبير وجهه: «اسمع، إن كان هذا ما يحدث حين تتعرض لدخان السجائر على متن قطار، فكيف ستحتمل الغاز؟».

«حسنًا، من *الواضح* أنني أتأثر بتراكيز أخفض من أي شخص آخر، لكن وماذا إذًا؟ بوسعي أن أكون كناري الكتيبة[1]»، سكوت قصير: «لستُ الوحيد المصاب بالربو».

---

(1) الكناري في الجيش: الشخص الذي يُرسَل في المقدمة بمنزلة طُعم لاستجلاء المنطقة الأمامية. (المترجم)

- لا، هذا أكيد. لقد *أُخبِرتُ* أن ثمة حالات من السل النشط في الخنادق، لكن هذا لا يعني أنها فكرة جيدة.
- أريد أن أرجع.

صمت طويل.

«لا يمكنك التحدث إلى أي أحد هنا»، قال پراير: «ما من أحد إلا وفقد شخصًا، أو يعرف من فقد شخصًا. إنهم لا يريدون الحقيقة، الأمر أشبه برسائل التعزية. «عزيزتي السيدة بلوغز، لقد نسفت قذيفةٌ صدغَ ابنك واستغرق خمس ساعات حتى مات. استطعنا أن ندفنه وفقًا للطريقة المسيحية اللائقة، لكن لسوء الحظ، وقع ذلك الجزء من الأرض بالذات تحت قصف شديد في اليوم التالي، لذا عاد جورج كي يرانا خمس مرات أو ست منذئذٍ». هم لا يريدون ذلك، بل يريدون أن يقال لهم إن جورج -أو جوني- أو أيًّا كان اسمه؛ مات ميتةً سريعةً وأُرسِل خارج هذا العالم بوداع لائق»، قال بتروٍّ: «البارحة، عند البحر، شعرتُ كأنني قادم من كوكب آخر».

- يمكنك التحدث إلى الناس هنا.
- إنه آخر ما يريد هؤلاء البشر أن يتحدثوا عنه، الخلاصة أنني بت أحسن حالًا.
- القرار قرار اللجنة.
- تقصد قرارك *أنت*.
- كلا، قرار اللجنة. كيف تكون في الليل؟ أقصد في ما خلا الربو؟ أَعلم أن ليلة أمس كانت سيئة.
- أنا أرفض أن ألعب هذه اللعبة، ليست لدي *أنفاس* كافية للإجابة عن أسئلة تعلم أجوبتها أصلًا.
- ما هو تقديرك *الذاتيُّ* لوضعك في الليل؟
- أفضل.
- جيد، هكذا كان انطباع الأخت دافي أيضًا.

«أوه، *حسنًا إذًا*...»، حملق پراير: «ثمة سبب آخر يجعلني أريد أن أرجع. سبب ضئيل أنانيٌّ بغيض بالأحرى، لكن بما أنك تراني -كما هو واضح-

شخصًا ضئيلًا أنانيًّا بغيضًا فلن تتفاجأ منه. حين ينتهي كل هذا، لن تكون ثمة أي قيمة للأشخاص الذين لم يذهبوا إلى فرنسا، أو لم يبلوا حسنًا في فرنسا... أقصد أبناء جيلي. وهذا هو النادي الذي يفوق جميع الأندية».

- وأنت تريد أن تنتمي.

- أجل.

- لكنك تنتمي بالفعل.

- لقد انهرت.

- وهذا ما يجعلك تريد أن ترجع؟ أنت طموح، ألستَ كذلك؟

لم يُجِبه.

«ما من سبب يمنعك أن تكون كذلك. في أي مجال تريد أن تعمل؟».

«السياسة»، بدأ يتراجع منسحبًا على الفور: «بالطبع، أغلب الظن أن هذا بلا جدوى. لا يمكنك بلوغ أي مكان في هذه البلاد الخرائية دون شهادة من أكسفورد أو كامبريدج».

- هراء.

- الكلام سهل.

- ليس كلامًا على الإطلاق، أنا لم أرتَدْ أيًّا منهما.

بدت الدهشة على پراير.

- أُصِبتُ بالتيفوئيد في آخر عامٍ لي في المدرسة، ولم يكن بمقدورنا تحمُّل نفقات كامبريدج دون المنحة الدراسية. بلى، يمكنك أن تتدبر أمورك دون ذلك بلا ريب. كما أن الأوضاع سوف تزداد حريةً بعد الحرب، ولو كان ذلك ناتجًا فقط عن كون مئات آلاف الشبان قد أُلقِيَ بهم إلى احتكاك مباشر مع الطبقة العاملة بطريقة لم يختبروها من قبل، لا بد لذلك أن يترك بعض الأثر.

- حذار يا ريڤرز، بدأتَ تتحدث مثل البلاشفة.

- أحاول أن أبث فيك بعض الإيمان بقدراتك وحسب. وبالمناسبة، أنا لا أراك شخصًا ضئيلًا أنانيًّا بغيضًا.

اعتلى وجهَ پراير عبوسٌ شرس، على الأرجح كي يُخفي سروره.

«سأحاول أن أكون هنا حين يأتي د. إيغلزهام. وحتى ذلك، أتظن أن بمقدورك أن تحاول الانسجام مع ويلارد؟».

كان ريڤرز قد بدأ توًّا بالحلاقة عندما دقت إحدى فتيات المفرزة التطوعية على بابه بعنف. قالت من خلف لهاثها شيئًا عن «النقيب أندرسون» و«الدماء»، فهرع ريڤرز -متهيبًا مما قد يجده- عبر الدرج إلى غرفة أندرسون. وجد أندرسون رابضًا في وضعية جنينية، في الزاوية قرب النافذة، أسنانه تصطك وقد انتشرت بقعة داكنة على الوجه الأماميّ لمنامته. وكان شريكه في الغرفة، فذرستون، واقفًا عند المغسلة، في يده شفرة حلاقة، ينظر إليه بسخط أكثر مما هو تعاطف.

«ما الذي حدث؟»، سأله ريڤرز.

«لا أدري، بدأ يصرخ فجأةً».

جثا ريڤرز بجانب أندرسون وتأكد سريعًا أنه ليس مجروحًا. «هل كان نائمًا؟».

«لا، كان ينتظر دوره على المغسلة».

نظر ريڤرز إلى فذرستون، ثمة خيط هزيل من الدم يسيل فوق ذقنه المبلل. *آه*. نهض وربت على ذراعه: «انزف في مكان آخر يا فذرستون، لديك جرح غير صغير».

هبَّ فذرستون خارجًا من الغرفة، في مزاج ليس الأفضل. اتجه ريڤرز إلى المغسلة، شطف فوطة الفلانيل خاصته ومسح قعر الحوض، ثم أعطى الفوطة الملطخة ببعض الدم لفتاة المفرزة وأمسك لها الباب كي تنصرف. «هاك»، قال وهو ينظر من مكانه إلى أندرسون: «لقد زال كله».

استرخى أندرسون ببطء، وانتبه مع استرخائه إلى البقعة بين ساقيه. أخذ ريڤرز روبه الدو شامبر وألقاه إليه. «الأفضل أن تتلفع به، ستبرد حين يتوقف العرق»، عاد إلى المغسلة: «أتمانع إن استعرتُ فوطتك الفلانيل؟».

مسح ما تبقى من صابون الحلاقة عن وجهه، وتوثق من أنه لم يجرح نفسه حين خبّطت الفتاة على بابه، فهذا -لو حدث- *ما* كان ليساعد. من زاوية عينه، رأى أندرسون يرفع غطاء السرير ليُخفي الرقعة المبللة في الفراش. حين استدار ريڤرز من جديد، كان جالسًا على السرير، يدلي ساقيه باذلًا أفضل ما لديه ليبدو بمظهر اعتياديٍّ. جلس ريڤرز، على مسافة تكفي ألا يقلق أندرسون بشأن الرائحة. «ما زال الوضع بهذا السوء؟».

«أعتقد أنه سيئ بنفس الدرجة التي يبدو عليها».

وهذا هو الرجل الذي كان سيرجع إلى الطب. «أتعلم؟ سوف يتعين علينا أن نبدأ بالكلام عما تريد فعله واقعيًا».

- لقد خضنا في كل هذا.

- يمكنني أن أحصل لك على تمديد لمدة شهر في أكتوبر، وبعد ذلك...

- لا داعي، فأنا لا أستطيع أن أبقى هنا إلى الأبد.

تردد ريڤرز: «أهنالك أي مؤشرات على استطاعة زوجتك أن تأتي؟».

لقد دار الكلام كثيرًا حول زيارة السيدة أندرسون، بيد أنها لم تحدث بعد.

«كلا، الأمر صعب بوجود طفل».

ثمة أخريات استطعن. ترك ريڤرز أندرسون يرتدي ملابسه وعاد إلى غرفته ليُتِمَّ الحلاقة. والآن إذ خمدت موجة الانفعال، شعر بالتعب والاعتلال. كان في حالة غير ملائمة للعمل، لكن سيتعين عليه أن يجتاز النهار بطريقة أو بأخرى.

أول مرضاه كان ويلارد. كان يتّبع نظامًا يتضمن تمارين صباحية مبكرة في المسبح، فأُدخِل إلى الغرفة على كرسيه مبللَ الشعر ينضح برائحة الكلور. قال دون مقدمات: «لا أستطيع أن أتشارك في غرفة مع ذلك الرجل».

تابع ريڤرز تدليك عضلات ربلة ويلارد.

- براير.

- لستَ تشاركه الغرفة، أليس كذلك؟ كل الأمر أن وجودكما معًا في العنبر قد تزامن صدفةً.

- *بالنتيجة*، أنا أشاركه في غرفة.

- أشعر أنها باتت أكثر تماسكًا بعض الشيء، أتحس بذلك؟

تلمّس ويلارد ربلته: «قليلًا. إنه يستيقظ صارخًا، الوضع لا يُحتمل».

«صحيح، ولا أتخيل أنه يروق له كثيرًا هو الآخر».

تلكأ ويلارد. «ليس هذا وحسب»، انحنى نحو ريڤرز: «إنه واحد من أولئك».

بدا على ريڤرز الذهول الذي شعر به: «أنا حقًّا لا أظن ذلك. كما تعلم، يجب ألا تأخذ كل ما يقوله پراير على محمل الجد، فهو يحب أن يستفز الآخرين».

- بلى، هو كذلك، بوسع المرء أن يخمن دائمًا.

- اضغط على راحة يدي.

- لا أظن أنك ستنظر في أمر نقله؟

- لا. ومرةً أخرى، إنه مريض يا سيد ويلارد، ويحتاج إلى العنبر. إن كان ثمة من سينتقل، سيكون *أنت*.

أعقب موعدَ ويلارد موعدٌ غير مرتب له مع فذرستون، وهو أيضًا جاء يطالب بتغيير غرفته، لكن لسبب أكثر وجاهة. قال إنه لا يمكن أن يُتوقع من أحد مشاركة غرفة مع أندرسون، الكوابيس والقياء فوق الاحتمال، وقد بدأت قلة النوم تؤثر في أعصابه. كل هذا كان صحيحًا، راح ريڤرز يصغي ويتعاطف ووعد فذرستون بتبديل الغرفة حالما تتيح لجان سبتمبر بعض المساحة، فالمستشفى في وضعه الراهن مكتظ بشكل لا يترك أي مجال لتبديل الغرفة لأي شخص. ثم قابل لانسداون، نقيب في الفيلق الطبيِّ، نُزِع اللثام عن رهاب الأماكن المغلقة الذي يعانيه منذ وقت طويل من خلال عجزه عن دخول المخابئ الخندقية. كانت جلسة تختبر الصبر بوضوح، فلطالما كان لانسداون متطلبًا، إلا أن ريڤرز لم يمانع ذلك بما أنه يشعر بإحراز تقدم. ثم فوذرزجيل، شريك ساسون الجديد في الغرفة، ثيوصوفي متعصب. يتكلم طوال الوقت بإنجليزية قروسطية زائفة -الكثير من «بل إني لهذا» و «حقًّا إنه لذاك»- كما لو أن تعرضه المقتضبَ للفظاعات الفرنسية قد ألقى في نفسه رعبًا استحال نوعًا لا رجعة عنه من الفكاهة. كان في الثالثة والأربعين، لكنه بدا أكبر بكثير مع شعره الأشيب ذي اللون الحديديِّ ونظارته أحادية العدسة وسلوكه الرسمي.

لم يستغرق وقتًا طويلًا، فبشكل أساسيٍّ، كان يعاني من كونه كبير السن على الحرب، وتلك شكوى يُبدي ريڤرز أمامها المزيد من التعاطف كل يوم.

وبعد ذلك اجتماع للجنة إدارة المستشفى. كان فليتشر، وهو واحد من مندوبَي المرضى الاثنين، رجلًا حي الضمير عالي الكفاءة انتهت إقامته في فرنسا حين تطورت لديه أوهام هُذائية مفادها أن ضابط الإعاشة يحرم الرجال من الطعام بشكل متعمد وممنهج، وقد حُوِّل وهمه هذا الآن نحو وكيل نفقات المستشفى. سار الاجتماع بشكل جيد بما يكفي إلى أن تناول النقاش مستوى التموين في المستشفى، آنذاك تصدرت أوهامُ فليتشر الساحة. ساد الانفعال، وانتهى الاجتماع بنبرة لاذعة. كانت تلك حادثة يؤسَف لها، إذ لا شك أنها ستغذي وجهة نظر الإدارة التي ترى أنه لا يجدر بالمرضى المشاركة في تسيير أعمال المستشفى. كان برايس يرى، بمساندة من ريڤرز، أن مشاركة المرضى أساسية، حتى لو كان هذا يعني أن تكتسب اجتماعات لجنة كريغلوكهارت أحيانًا طابعًا تنفرد به عن غيرها.

بعد الغداء، رافق ريڤرز برايس إلى غرفته لمناقشة أمر برودبنت. كان هذا قد ذهب لزيارة والدته المريضة مرتين خلال الأشهر الأخيرة، ومع اقتراب موعد انتهاء الزيارة الثانية وصلت برقية منه، يقول فيها إن والدته قد توفيت ويطلب إذنًا للبقاء من أجل الجنازة. بطبيعة الحال، مُنِح الإذن. عاد برودبنت حين أنهى التزاماته، وكان يشد شريطًا أسود على ذراعه، ويضع على زيِّه -في بادرة أقل قابلية للتفسير- الشارات الحمراء الخاصة بضابط ركن. اختفت الشارات الحمراء في الصباح التالي، لكن شريط الذراع الأسود بقي مكانه. ظل برودبنت يمضي وقتًا في قاعة المرضى العامة لعدة أيام تلت ذلك، عيناه ورديتان والغم يملؤه، تواسيه فتيات المفرزة التطوعية. ثم انتهى هذا الوضع الراهن السعيد بوصول السيدة برودبنت تتساءل لماذا لم تسمع خبرًا من ابنها. كان برودبنت في الأعلى الآن، داخل غرفة مقفلة. لم يكن من السهل التوصل إلى طريقة لتجنُّب المحاكمة العسكرية.

انقضى ما تبقى من الأصيل على سلسلة متوالية من الشبان، ولم يُعنْ ريڤرز -الذي بات يشعر بالتوعك إلى حد بعيد- على اجتياز النهار شيءٌ سوى تقديره أن بعضهم على الأقل كان يُظهِر علامات تحسُّن. لقد أبدت حالة

أحد الشبان على وجه التحديد -كان قد انهار بعد عثوره على جثة صديقه المشوهة- تحسنًا دراماتيكيًّا خلال الأسابيع القليلة الماضية.

بعد العشاء، قرر ريڤرز أن يهمل الأعمال الورقية التي يُفترض به إنجازها ويطوي ليلته مبكرًا. استقر على ألا يأخذ حمَّامًا الليلة، فقد كان متعَبًا للغاية. اندس بين الملاءات وفرد ساقيه، وهو يفكر أنه لم يسبق أن شعر بهذا السرور لخلوده إلى الفراش في حياته. بعد قليل، دفع النافذة ليفتحها أكثر واستلقى منصتًا إلى المطر، صوت ناعم باعث على السكينة بدا يملأ الغرفة. لم يلبث طويلًا حتى أخذه النوم وهو لا يزال منصتًا.

أيقظه ألم في صدره عند الثانية صباحًا. حاول أول الأمر أن يقنع نفسه أنه عسر هضم، لكن سرعان ما اقترح طرقُ قلبه وتوثُّبُه احتمالاتٍ أخرى أكثر مدعاةً للقلق. جر نفسه إلى النهوض، وصرف تركيزه نحو التنفس ببطء وهدوء.

لقد اشتدت الرياح في أثناء نومه، وراح المطر يرجم الزجاج. علم أن الرجال في كل أنحاء المستشفى سيكونون مستيقظين في أسِرتهم، ينصتون إلى المطر والرياح، ويفكرون في كتائبهم وهي تغوص أكثر في الوحل. الطقس السيئ مضر بالأعصاب، لن يكون الغدُ يومًا سهلًا.

بعد ساعة، كان ليقدم أي شيء لقاء حلول الغد. كل الأعراض المألوفة بدأت تظهر عليه: التعرق، الحاجة المتواصلة إلى التبول، عسر التنفس، الإحساس بأن الدماء لا تتدفق بل تنعصر عبر العروق. كانت أقل حركة تجعل قلبه يطرق، فأحسَّ بالانفراج عندما بزغ الفجر وبات ممكنًا أن يستدعي مساعد التمريض.

وصل برايس بعد وقت قصير، تحركه لهفة متعاطفة. أخرج سماعة طبية، وطلب من ريڤرز أن ينزع سترة منامته، ثم راحت السماعة تتحرك على أنحاء صدره. اعتدل في جلسته منحنيًا إلى الأمام، وأحسَّ بسلسلة الدوائر الباردة نفسها فوق ظهره. «ما الخطب في *رأيك*؟»، سأله برايس، وهو يضع السماعة جانبًا.

«عُصاب حرب»، أجاب ريڤرز من غير إبطاء: «أنا أشكو أصلًا من التلعثم، كما أن الاختلاجات بدأت تظهر».

أمهله برايس حتى يستقر على الوسائد من جديد: «أظن أننا نعاني من ذلك جميعنا، نبضك غير منتظم».

- خلل نفسَجسمي.
- وكما نقول للمرضى طوال الوقت، الأعراض النفسَجسمية حقيقية. أظن أنه ينبغي لك أخذ إجازة لبعض الوقت.

هز ريفرز رأسه: «لا، أنا...».

- هذا لم يكن اقتراحًا.
- أوه، عليّ إتمام تقارير سبتمبر. حتى لو انقطعتُ عن كل عمل آخر، لا مناص من إنجاز هذا.

كان برايس قد بدأ يبتسم: «لن يكون هنالك توقيت ملائم أبدًا، أليس كذلك؟ ثلاثة أسابيع بدءًا من نهاية هذا الأسبوع».

صمتٌ تمرديٌّ.

«هذا يتيح لك وقتًا لإنجاز التقارير، إن وضعنا في الحسبان أنك لن تقابل المرضى، اتفقنا؟»، ربت برايس على غطاء السرير ونهض واقفًا: «سأطلب من الآنسة كرو أن ترفع إشعارًا بذلك».

تجهَّز ريفرز للذهاب في إجازة. لم يكن قد نزل لتناول العشاء خلال الأيام القليلة الماضية، لكن ها هو الليلة -كما رأى ساسون- يبدو إلى حدٍّ ما بحال أفضل مما بدا مؤخرًا، غير أنه لم يزل متعَبًا جدًّا. طاولة الضباط الأطباء كانت الأكثر ضجةً في القاعة، بوسعك حتى من هذه المسافة أن تميز صوت بروك المزماري العالي، ولهجة غلاسكو العريضة لدى ماكنتاير، ولهجة إدنبرة لدى برايس، ولكنة راغلز الأمريكية، إضافةً إلى صوت ريفرز نفسه الذي يبدو -حين ينفعل خلال نقاشٍ ما، وكثيرًا ما يفعل- أشبه بجيشان مَثْعَبِ مياهٍ غازية[1]. ما من أحد -يستمع إليه الآن- كان ليظنه قادرًا على فترات الصمت اللامتناهية تلك.

---

(1) مَثْعَب المياه الغازية: وعاء خاص يُستخدم لحفظ المياه الغازية وصبها، له تصميم يجعله يحافظ على الضغط الداخليّ بهدف منع تبدد الغاز. (المترجم)

كان فوذرزجيل، وأنفه الطويل يتقبض بأنفةٍ، قد بدأ يتذمر من الحساء: «بئسًا لهذا، إن الفتى ليجهلَنَّ على أي شيء يقتات». ضحك وهو يقول ذلك، ضحكة رجل يأخذ كل مشقةٍ مهما صغرت على محمل الجد. لم يشعر ساسون، المتروك بين شخصين يعانيان من تأتأة متفاقمة أكثر من غيرهما، بحاجةٍ إلى المشاركة في الحديث. عوضًا عن ذلك، استدار بجذعه فوق مقعده وراح يبحث عن أوين، متذكرًا آخر قصيدة أُطلِعَ عليها. «*هناك، سِرنا إلى الموت في ودٍّ بالغ/ جلسنا وأكلْنا معه، بفتور ولا مبالاة/ وغفَرْنا له أنه أراق قِصَعَ الطعام في يدنا*...». بالضبط، قال ساسون في قرارته، وها نحن الآن نتذمر من الحساء. أو بالأحرى، هم يتذمرون.

بعد العشاء، ذهب مباشرةً إلى غرفة أوين: «أتمانع؟ أنا فارٌّ من الثيوصوفية».

كان أوين قد همَّ بإزالة الأوراق عن الكرسي: «كلا، تفضل».

- لا يمكنني البقاء معه في الغرفة نفسها.

- يجدر بك أن تطلب تبديلها من ريڤرز.

- فات الأوان، سيغادر غدًا. على كل حال، ما كنت لأرغب في إزعاجه. ألديك أي شيء من أجلي؟

- هذه.

أخذ ساسون الورقة واستغرق في قراءة القصيدة كاملةً مرتين، ثم عاد إلى أول سطرين.

أي أجراس دقائقَ[1] *لهؤلاء الميتين بهذه السرعة؟*

- لا شيء إلا غضب بواريدنا الوحشي/الوقور.

«فكرتُ أن أقول: أجراس «وفاة»»، قال أوين.

- إممم. لكنكَ إن أزلتَ «دقائق» تدرك كم تصبح «السرعة» واهية. «غضب بواريدنا الوحشي...».

- «الوقور»؟

---

(1) أجراس الدقائق: أجراس تُقرع بفواصل مدة كل منها دقيقة، للإعلان عن وفاة أو جنازة. (المترجم)

- «لا شيء إلا غضب بواريدنا الوقور». أوين، حبًّا بالله، هذه بروباغندا مكتب الحرب.

- غير صحيح.

- اقرأ السطر.

قرأه. «طيب، ليس هذا هو المقصود بلا شك».

«أعتقد أن ما عليك البت فيه هو من يكونون «هؤلاء»؟ الموتى البريطانيون؟ لأنهم إن كانوا بريطانيين، ستكون «بواريد-*نا*»...».

هز أوين رأسه: «الموتى كلهم».

«فلنبدأ من هذه النقطة»، شطب ساسون «نا» واستبدل بها «ال» التعريف مستخدمًا قلم الرصاص: «أواثق أن هذا ما تريده؟ إنه ليس تغييرًا ثانويًّا».

«أعلم، إن اعتمدنا «ال» التعريف، لا بد أن يقر القرار على «الوحشي»».

«أتفق»، شطب ساسون «الوقور»: «إذًا:

أي أجراس وفاةٍ لهؤلاء الميتين... بهذه السرعة؟

- لا شيء إلا غضب البواريد الوحشي.

حسنًا، ما من مشكلة في السطر الثاني».

- «في قطعان»؟

- أفضل.

اشتغلا على القصيدة مدة نصف ساعة. كانت الريح آخذة بالاشتداد طيلة المساء، والستارة الرقيقة تنتفخ مع التيار. في مرحلة معينة، رفع ساسون رأسه وقال: «ما هذه الضوضاء؟».

«الريح». كان أوين يحاول إيجاد الكلمة الدقيقة للتعبير عن صوت القذائف، وكانت الريح عنصرَ إلهاءٍ يحاول تجاهله.

«لا، بل هذه».

أنصت أوين. «لا أسمع شيئًا».

«هذا النقر».

أصاخ من جديد. «لا».

«لا بد أنني أتخيل أشياء»، عاود ساسون الإصغاء، ثم قال: «القذائف لا *تُعوِل*، بل تصفِر».

«لا، هذه القذائف تمر فوق الرؤوس تمامًا».

«أجل، إنها تصفر»، نظر إلى أوين: «أسمع صفيرًا».

«*أنت* تسمع نقرًا».

تابعت الريح اشتدادها طيلة المساء. ومع مغادرة ساسون من غرفة أوين، كانت قد أخذت تُعوِل حول المبنى، وتنوح عبر المداخن، وتقصِف الغصينات عن أشجارها بطقطقة تشبه نيران البنادق. النوافذ المخلخلة تخشخش وترتطم في كل أنحاء المصحة المائية[1] البالية، وساسون يمر بالعديد من «زملائه المنهارين» في الدهليز، ويقول لنفسه إنهم يبدون أكثر «اضطرابًا ذهنيًا» من المعتاد حتى.

كانت غرفته فارغة، اعتلى سريرَه واضطجع يقرأ منتظرًا عودة فوذرزجيل من لعبة البريدج خاصته. وحالما دخل هذا الغرفة، انقلب ساسون على جنبه وتظاهر بالنوم. صدر تصفيرٌ عديم النغمة، تتخلله فواصل من النخير لدى انحناء فوذرزجيل على مرآة حلاقته وهو ينتف الشعر من منخريه بملقط.

أُطفِئ الضوء أخيرًا. استلقى ساسون على ظهره، مصغيًا إلى هدير الريح والمطر. من جديد سمع نقرًا، صوتًا مميزًا ذا مغزى، على عكس دفدفة الريح العشوائية. يستحيل في ليلةٍ كهذه عدم التفكير في الكتيبة. استمع إلى جيشان العاصفة ولعلعتها، وامتلأ فكره بذكريات من أسابيعه الأخيرة في فرنسا. رأى جندَ فصيلته مرةً أخرى، ومرَّ على أسمائهم- وما هذه بالمأثرة ذات الصعوبة التي يُعتد بها، إذ كان من بينهم عدد ليس أقل من ثمانية يحملون اسم جونز. استحضر الفزع الذي كان يشعر به أمام بناهم البدنية؛ الكثير منهم بالكاد كان يقوى على رفع عتاده، ناهيك بحمله ميلًا تلو آخر على طرق تهتكها القذائف. لقد انتهى به الزحف ذات مرة إلى دفع اثنين منهما أمامه، في حين مضى ثالثٌ في إثره متعثرًا يتشبث بحزامه. لا أحد من هؤلاء الثلاثة كان يتجاوز خمسة أقدام طولًا، ما إن تضعهم جنبًا إلى جنب مع

---

(1) كانت كريغلوكهارت مصحة علاج مائيٍّ قبل تحويلها إلى مستشفى عسكريٍّ خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

ضابط -أي ضابط تقريبًا- حتى يكادوا يبدون من رتبة كائنات مختلفة. أما بشأن التدريب الذي تلقوه، فقد وصل أحد الرجال إلى فرنسا وهو لا يعرف كيف يحشو بندقية. رآهم الآن، فرقته الصغيرة، جالسين على بالات من القش في حظيرة ينفذ ضوء الشمس من شقوق جدرانها، فيما هو ينحني ليفحص أقدامهم ذات القروح التي لم تلتئم، وتساءل كم واحدًا من بينهم لم يزل على قيد الحياة.

النوافذ تصطفق وتثير الجلبة، ومرةً أخرى -في هدأةٍ وجيزة- ظن أنه سمع نقرًا. ليس هنالك أشجار قريبة بما يكفي لتلامسَ الزجاج. قال لنفسه لعلها جرذان، لكن من سبق وسمع بجرذان تنقر؟ راح يتقلب في فراشه، ويفكر كم من الغبي ألا يكون قادرًا على النوم هنا، في الأمان والدعة، في حين أنه في فرنسا كان يستطيع النوم في أي مكان. إن كان بوسعه أن ينام على منصة تصويب تحت مطر غزير، فلا بد أن يقدر على النوم الآن...

استيقظ ليجد أورم واقفًا في الباب. لم يفاجئه ذلك، إذ افترض أن أورم قد جاء يوقِظه كي يتسلم وردية الحرس. ما فاجأه، بعض الشيء، كان أنه بدا لنفسه مستلقيًا على سرير. كان أورم يرتدي معطفه شديد الشحوب ذاك. ذات مرة، في قاعة طعام السرية «ج»، قال قائد الوحدة: «صوِّبني إن كنتُ مخطئًا يا أورم، لكنني لطالما اعتقدتُ أن لون زي الجيش البريطانيِّ هو الخاكيُّ، وليس... *البيج*». كلمة «بيج» قيلت آنذاك بنبرة تشبه نبرة الليدي براكنيل[1] إلى درجة جعلت ساسون يريد أن يضحك. أراد أن يضحك الآن، لكن لم يبدُ أن عضلات صدره تعمل. وبعد قليل تذكر أن أورم ميت.

من الواضح أن هذا لم يُقلق أورم نفسه، الذي ظل واقفًا بهدوء عند الباب، لكن ساسون بدأ يفكر أن الأمر حريٌّ بإثارة قلقه. ربما تسير الأمور على ما يرام إن أشاح برأسه. راح يحدق إلى مربع الضوء الشاحب الذي تقدمه النافذة، وعندما التفت من جديد كان أورم قد ذهب.

كان فوذرزجيل مستيقظًا. «هل رأيتَ أحدًا يدخل؟»، سأله ساسون.

---

(1) الليدي براكنيل: إحدى شخصيات مسرحية «أهمية أن أكون جادًا»، لـ «أوسكار وايلد». (المترجم)

«كلا، لم يدخل أحد». انقلب على جنبه، وخلال بضع دقائق كان قد غطَّ في النوم من جديد.

انتظر ساسون حتى يثبت إيقاع الغطيط تمامًا، ثم نهض من سريره وسار إلى النافذة. كانت العاصفة قد خمدت، إلا أن الغصينات والأوراق -إضافةً إلى غصن أو اثنين أكبر حجمًا- المتناثرة في أنحاء ملاعب التنس ظلت شاهدةً على قوتها. راحتاه تتعرقان وفمه جاف.

كان بحاجة إلى التحدث مع ريڤرز، لكن عليه أن يكون حذرًا في ما يقوله، بما أن ريڤرز عقلانيٌّ متزمت لن يتساهل مع حكايات خارقة للطبيعة، بل ربما يقرر أن أعراض عُصاب الحرب قد بدأت تظهر أخيرًا. ولعل هذا صحيح. لعل هذه هلاوس من النوع الذي راوده في مستشفى لندن الرابع، لكن لا، لا يعتقد ذلك. فزواره الليليون *هناك* كانوا يجيئون جارّين أثرًا من الدم المتخثر وراءهم، يشيرون إلى أطراف مبتورة وجروح في الرأس، على غرار تماثيل القديسين القروسطيين الذين يشيرون إلى أدوات استشهادهم. أما هذا فقد كان مضبوطًا جدًّا، رصينًا، ولم يكن تاليًا لكابوس حتى. راح يتذكر بهدف التوثق، فهو يعلم أن هذا هو أول سؤال سيطرحه ريڤرز. لا، ما من كابوس. لا شيء سوى ذلك النقر على النافذة قبل أن يخلد إلى النوم.

ارتدى ملابسه وجلس على السرير. حلَّت الساعة الثامنة أخيرًا، وسرت ضوضاء في المستشفى مع تبديل المناوبات. هرع ساسون على الدرج، كان واثقًا أن ريڤرز سيتجه إلى مكتبه كي يتفقد البريد قبل مغادرته، وربما يُتاح له الوقت لبضع كلمات لا أكثر. لكن حين نقر على الباب، قال له مساعد تمريضٍ وهو يعبر: «حضرة النقيب ريڤرز غادر يا سيدي، لقد استقل قطار السادسة».

انقضى الأمر إذًا. صعد ساسون الدرج ببطء، غير قادر على تفسير الفقد الذي يشعر به. ففي النهاية، كان يعلم أن ريڤرز ذاهب، وهو لن يغيب إلا ثلاثة أسابيع. كان فوذرزجيل لا يزال نائمًا، أخذ ساسون حقيبة مستلزماته وتابع طريقه إلى الحمام. كان يشعر بالدوار تقريبًا، استدار كي يقفل الباب كالعادة، وكالعادة تذكَّر أنه ما من أقفال. غياب الخصوصية يكاد يكون لا يُطاق في مثل هذه الأوقات. ملأ حوض المغسلة، ورش الماء على وجهه وعنقه. الطيور

تبدأ بالغناء حذِرةً، وتبدو ذاهلةً بعض الشيء كأنها هي الأخرى تحتاج إلى التعافي من الليل. نظر إلى وجهه في الزجاج. في نصف الضوء هذا، على خلفية من البلاط الأبيض، بالكاد بدا أقل شبحيةً من وجه أورم. ثمة ذكرى تقرص أطراف فكره؛ زجاج آخر، على بسطة الدرج العلوية في منزله، مرآة بيضوية داكنة تؤطر وجهَ طفل شاحب صغير. هو نفسه، ربما في الخامسة. لماذا تذكّر ذلك الآن؟ كانت الطيور تغني آنذاك أيضًا، عصافير تغرد بين أغصان اللبلاب. نهارٌ سادَه صياح وخبط أبواب ودموع في غرف لم يُسمح له بدخولها. يوم مغادرة أبيه للمنزل. أم تراه يوم وفاته؟ لا، يوم مغادرته. ابتسم ساسون، مستطرقًا الرابط الذي اكتشفه، ثم كفَّ عن الابتسام. كان قد مازح ريڤرز مرةً أو اثنتين بشأن كونه أباه الروحيَّ وكاهنَ اعترافه، لكنه الآن فقط -وهو يواجه هذا الهجران الثاني- يدرك كيف أن ريڤرز أخذ مكان أبيه بالكامل. حسنًا، هذا لا يهم، أليس كذلك؟ ففي النهاية، إن كان الأمر يتعلق باستبدال الآباء، لقد كان يمكن أن يقع اختياره على شخص أسوأ بكثير. لا، ما من بأس في ذلك. ببطء، مرَّغ وجهَه بالرغوة وبدأ يحلق.


القسم الثالث

14

«الترتيلة رقم (373)».

مع حفيف تقليب الصفحات، تفتّحت كتب التراتيل ذات الأغلفة الكستنائية إلى اللون الأبيض مثل الأزهار. كافح جمعُ المصلين لينهضوا على أقدامهم؛ أطفال في المقدمة تحت الأعين اليقظة لمدرسي مدرسة الأحد، والبقية رجال ونساء مسنون وفي منتصف العمر. أزيز تمهيديٌّ من الأرغن، ثم:

الله يتحرك بطرقٍ خفية

ليصنع عجائبه...

منذ معركة السوم، بدا أن هذه الترتيلة أصبحت الأكثر شعبيةً في البلاد، وما عاد ريڤرز يعد المرات التي يسمعها تُغنَّى فيها. رفع عينيه نحو المذبح المكسو بالعَلم، ثم نقلهما إلى النافذة الشرقية. أيقونةٌ لصلبِ المسيح؛ العذراء والقديس يوحنا على جانبَي الصليب، الروح القدس ينزل، ونور الله الآبِ يشرق برقةٍ من علٍ. تحتها، وبحجم أصغر بكثير، تضحيةُ إبراهيم بابنه. الكبش خلف إبراهيم قرناه عالقان في دغل يكافح للهرب، وهذا أفضل ما في النافذة بلا منازع. بوسع المرء أن يرى الخوف. في حين إنّ إبراهيم، إن كان يأسف من الأساس لوجوب التضحية بابنه، فهو يُخفي ذلك جيدًا دون شك، وإسحاق المقيد فوق مذبح مرتجَل يبتسم بكبرياء على نحوٍ جليٍّ. خيارات بديهية للنافذة الشرقية: الصفقتان الداميتان اللتان يُزعَم أن حضارةً بُنِيت عليهما. الصفقة الشهيرة لا غيرها، قال ريڤرز لنفسه وهو ينظر إلى إبراهيم وإسحاق، تلك التي تأسست عليها كل المجتمعات الأبوية. إن أنتَ، الشاب

القويُّ، أطعتَني، أنا الشيخ الضعيف، إلى حد الاستعداد للتضحية بحياتك، سوف تَرِثُني بسلامٍ مع مرور الزمن، ويكون بوسعك انتزاع الطاعة نفسها من أبنائك. غير أننا نُخِلُّ بالصفقة، فكر ريڤرز. في كل أنحاء شمالي فرنسا، هذه اللحظة تمامًا، في الخنادق والمخابئ والحفر التي تخلفها القذائف ويملؤها الماء، الورثة يموتون، ولا يفعلون ذلك فرادى، في حين يجتمع الشيوخ والنسوة من مختلف أعمارهن ليرتلوا التراتيل.

لا بد للكُفر الأعمى أن يَضِل،

ويتأمل عملَ الله سدىً،

فالله هو من يفسر عمله بنفسه

وسوف يجعله بيِّنًا شديدَ الوضوح. آمين.

وإذ أعلن جمعُ المصلين إعراضهم عن المنطق، بدوا مسرورين من ذلك بالأحرى، وجلسوا لينتظروا العظة. انحنى تشارلز نحو ريڤرز وهمس: «إنه لا يطيل الكلام عادةً».

أعادته تلك الهمسة إلى صباحات آحاد طفولتهما حين كانا يأتيان إلى الكنيسة في عربة خيل، ويمضيان وقت العظة وهما يقلّبان صفحات العهد القديم بحثًا عن الفقرات البذيئة، وتلك مهمة كانت تسهِّلها البصمات الوسخة التي يخلِّفها من سبقهما. تذكَّر مهر الزواج من ميكال: مئة غُلفةٍ من غُلَفِ الفلسطينيين. بصفته عالِم أنثروبولوجيا، لم يزل يجد ذلك أخَّاذًا. تذكَّر رائحة وسائد الركوع[1]، وثبَّتَ عينيه على المذبح المغطى بالعَلم. ذاك زمانٌ لن يرجع أبدًا.

كان القس قد ارتقى أعلى درجات المنبر، ومض ضوءٌ واهٍ على نظارته وهو يرشم الصليب: «بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ...».

---

(1) وسائد الركوع: وسائد توضَع أمام المقاعد في كثيرٍ من الكنائس، كي يركع المصلون فوقها عوضًا عن الأرض. (المترجم)

كان تشارلز مشغولًا بعملية إعادة إسكان كبيرة للدجاج، إذ كان ينبغي نقله من الفرش السميك[1] في الحظيرة إلى خِمَمَةٍ جديدةٍ في الحقل ذي الفدانَين، والأفضل إنجاز هذا بعد الغسق حين يكون الدجاج ناعسًا فيقل احتمال تمرده. تباطأ الأخوان في شرب الشاي في غرفة المعيشة، ثم خرجا وعبرا وحل الفناء الأسود الكئيب المشبع بالماء نحو الحظيرة الكبيرة الواطئة. كان ريڤرز يرتدي سروالًا قديمًا من القيطان يشده على وسطه بحزامٍ لأخيه، دليلًا مرئيًا يبرر انتقادات بيرثا القاسية بشأن انخفاض وزنه. «ليس الأمر أنك كنت تملك وزنًا يُعتَد به كي تخسره»، كانت تقول على كل وجبة وهي تكوم الطعام فوق صحنه، فيرد تشارلز كل مرة: «إنه على ما يرام يا بيرثا، دعيه وشأنه»، دون أن يشكل كلامُه فرقًا، إذ ينهض ريڤرز عن المائدة مترنحًا وهو يشعر كأنه خضع لإطعامٍ قسريٍّ.

حمل تشارلز الدجاج بسهولة، كلٌّ من ذراعيه تحبس الأجنحة بسرعة بينها وبين جنبه، في حين التقط ريڤرز الأقل خبرةً طائرَين وانطلق خلفه. غارت أصابعه داخل الريش المنفوش وصولًا إلى أصوله ذات القسوة المفاجئة، ولمست اللحم الدَّبِق. أخذ العرفان الأحمران بلون الدم يتهزهزان مع مشيه، والأعين الكهرمانية تنظر شاخصةً بنوع من الخواء الساطع. ولما حاول أن يدفع بوابة فناء المزرعة بمرفقه، حرَّر أحدُ الطائرين جناحيه ورفرف باهتياج حتى تمكن من إخضاعه مجددًا. ربّاه، كم أكره الدجاج، قال في قرارته.

مزرعة الدجاج كانت فكرته هو، بعد عودة تشارلز من الشرق مصابًا بالملاريا. لقد أشار ريڤرز عليه بالعمل في الهواء الطلق، وها هو يدفع ثمن ذلك الآن. ما إن غادر ظلة سياج الشجيرات وانطلق عبر حقل الفدانين، حتى كادت عصفةٌ قوية من «الهواء الطلق» تحمله عن قدميه. كان يشعر بمسؤولية تجاه فكرة المزرعة، ولم تكن المزرعة تعود بالنفع، فهي في الوقت الحاليِّ تسدد تكاليفها لا أكثر. تأثير الحرب هو العامل الرئيسيُّ، فالعلف شحيح وباهظ الثمن، كما أن الاستعانة بعمالة من الذكور مستحيلة، وآخرُ عامِلة

(1) الفرش السميك: طريقة متبعة في تربية الدجاج، تعتمد على تخصيص رقعة له تتراكم فيها الفضلات مع مواد فرش أرضية مسكنه، وتُترك دون تبديل منتظم لتتحول إلى سماد. (المترجم)

مزرعة مكثت فترةً كانت كافيةً فقط لتتبين المسافة إلى أقرب بلدة، قبل أن تكتشف أزمةً منزليةً تطلبت رجوعها الفوريَّ إلى ديارها. لكن حتى في غياب الحرب ربما ما كان الأمر ليكون سهلًا، فللدجاج طريقته الخاصة الغريبة في عدم الازدهار، إذ يبدو أنه عُرضة لقائمةٍ طويلةٍ جدًّا من الأمراض، يجد متعةً آثمةً في تجريبها مرضًا تلو آخر.

لقد أطبق الظلام بالكامل تقريبًا، بضع نجمات ضاوية تخز صفحة السماء الصافية. كانت إحدى الدجاجات الأضعف تتعرض لمضايقات البقية، وقد بات صدرها عاريًا من الريش في مواضع النقر الذي تلاقيه.

«سيتعين عليَّ إخراج هذه الدجاجة وهصر عنقها»، قال تشارلز.

- ألا يمكنك الاكتفاء بعزلها لبعض الوقت ثم إرجاعها؟

- كلا، فحالما تبدأ هذه الطيور بشيء، لا تكف عنه أبدًا.

استدارا وسارا عائدَين. لاقاهما مكتافيش، قِط المزرعة الأسود الرث، عند زاوية الفناء وسبقهما عبره. قطٌّ شَكِسٌ بشكل ملحوظ مكتافيش هذا، خلل مزاجيٌّ عزاه ريفرز إلى كونه محاطًا طوال الوقت بلحم مُحرَّم. كان يُكِنُّ إعزازًا له ويلقي إليه بلقيمات من صحنه كلما ظن أن بيرثا لا تنظر.

تابعا نقل الدجاج مدة ساعة، عمل بطيء مُضجِر، ثم رجعا إلى المنزل حين استتب الظلام الحقيقيُّ. كانت بيرثا تخبز، ثمة قدر فخاريٌّ مملوء بالعجين قرب موقد المطبخ، والغرفة المضاءة بالنار تعبق كلها برائحة الخميرة الدافئة. «ستكون على ما يرام، أليس كذلك؟»، قالت وهي تشك دبوسًا في قبعتها بإتقان، ثم تمد رأسها نحو المرآة لتتوثق من وضعها. كانت هي وتشارلز يستخدمان ريفرز جليسَ دجاجٍ ريثما يستمتعان بمشوار ليليٍّ نادر.

«لا تُصدِّعي رؤوسنا يا بيرثا»، قال تشارلز.

«يوجد رغيفان في الفرن، سيكونان قد نضجا عند الثامنة وعشر دقائق. أخرِجهما وانقُر على طرفيهما السفليين، إن بدا الصوت أجوف فهما جاهزان. أتظن أن بوسعك تدبُّر هذا؟».

«ليس معتوهًا يا بيرثا»، ناداها تشارلز من الردهة.

بدت بيرثا متشككة: «حسنًا، انطلقنا إذًا؟».

دخل تشارلز وقد اعتمر قبعته وارتدى معطفه.

قال ريڤرز: «سأرى إن كان بإمكاني إنهاء تلك الحسابات يا تشارلز».

«أتمنى لو تفعل»، تمتمت بيرثا وهي خارجة.

حالما غادرا، جلس ريڤرز على الكرسي الهزاز قرب النار، وحشد تركيزه على ألا يكبو. لم يكن قد تجرَّأ ألا يأكل على العشاء، فكان من شأن الوجبة الثقيلة غير المألوفة وضوء النار أن يرخيا جفنيه. خلال وجوده هنا في الربيع الماضي، كانت صناديق الصيصان تُوضَع لتُدفَّأ أمام النار، فتضج الغرفةُ بالتناقر والخربشات الصادرة عن المناقير والأقدام الصغيرة. تذكَّر كفاحَها للخروج من البيض، كم تبدو منهكةً ومبتلةً ومثيرةً للشفقة، ومع ذلك قوية بشكل باعث للفضول، أطالس[1] صغار يناضلون لحمل العالم. هذه الصيصان نفسها باتت الآن أشياء وضيعة ممرَّغة بالأوساخ تركض في خِمَمَتها، والصوت الوحيد في الغرفة هو هدير اللهب.

مدَّد ساقيه ونظر إلى دفتر الحسابات على حافة طاولة المطبخ. ثمة رسائل ينبغي له أن يكتبها، أكثرها استعجالًا رسالة إلى ديڤيد بيرنز، الذي كان قد دعاه إلى قضاء آخر أيام إجازته في كوخ عطلات العائلة على ساحل سوفولك. وفقًا لما استطاع ريڤرز أن يتبينه، فإن والدَي بيرنز يريدان التحدث بشأن مستقبله، ورغم أن ريڤرز لم يكن متلهفًا تمامًا إلى فعل هذا -إذ كان يجد صعوبةً في تصور أي مستقبل لبيرنز- فقد رأى أن من واجبه الموافقة. ثم كانت هنالك رسالة نصف منجَزة إلى ساسون، لكن يتوجَّب إعطاء الأولوية للحسابات. الثامنة وعشر دقائق. أخرج الرغيفين من الفرن، قلبهما ونقر على طرفيهما السفليين. وبما أنه لم يسبق له أن فعل هذا قط، لم تكن لديه طريقة كي يعرف ما إن كان هذا الصوت بعينه «أجوف» أم لا. قرر أنهما يبدوان قد نضجا، فوضعهما ليبردا فوق الصينية. ثم أخذ صندوق الحذاء الذي يودع تشارلز فيه فواتيره وشرع يعمل على إنهاء الحسابات. من وقت إلى آخر في أثناء عمله كان يرفع رأسه وينظر، لقد بدأت الريح التي كانت تعصف بشدةٍ

(1) جمع أطلس: وهو واحد من الجبابرة في الميثولوجيا الإغريقية، يشتهر بحمله قبة السماء على كتفيه. (المترجم)

طوال اليوم تخمد. ومرةً سمع نعيب بومٍ واردًا من الأيكة في الطرف الآخر لحقل الفدانين، صوتًا راجفًا باردًا جعله يبتهج للنار ورائحة الخبز الدافئ.

حين انتهى من عمله، أخذ مصباح الزيت وذهب إلى الغرفة الأمامية واضعًا في نيته أن يُجري محاولة أخرى لإنهاء رسالته إلى سيغفريد. وضع المصباح على المكتب. في مواضع منتظمة أمام جدران الغرفة، وُزِّعَت قطع كبيرة ثقيلة من الأثاث كلٌّ منها تقبع في ظلها الخاص، يتذكر معظمها من موطن طفولته: نولز بانك. كانت أكبر من أن يتسع لها كوخ أختيه، وهو ليس بحاجة إليها، لذا ورثها تشارلز وبيرثا كلها. حضورها هنا في مواضع مختلفة، بزوايا مختلفة مع الجدران وفي ما بينها، بعث فيه شعورًا غريبًا كما لو أنه انزلق عائدًا عبر الزمن إلى نسخة زائفة من طفولته.

غرفةٌ باردة لا تُستعمَل؛ كانت كل الأعمال الورقية للمزرعة تُنجَز في المطبخ. قرر أن يأخذ رسالته ويتمها هناك، لكنه تريث، وراح يُمرِّر إصبعه على جلد سطح المكتب وينظر إلى الصورة المعلقة فوق ركن المدفأة الخاوي. كانت معلقةً في الموضع نفسه في نولز بانك، فوق المدفأة، في مكتب والده. بالنسبة إلى صورة، يصعب أن يكون ثمة ما هو خليق أكثر منها بوظيفة أبيه المزدوجة قسًّا ومعالجَ نطق، حيث إنها تُصوِّر رسلَ المسيح في يوم الخمسين مباشرةً عقب تلقيهم موهبة الألسنة[1]. هناك كانوا يجلسون، كلٌّ تحت لسان النار الذي استقر عليه، يتحدثون بفصاحة فورية، مقنعة وواضحة اللفظ، ليس بلغتهم وحدها بل بكل لسانٍ معروف. تذكَّر ريڤرز عظة الأسقف في واحدٍ من أعياد العنصرة حين شرح أن هبة الألسن كما مُنِحت للرسل ليست لها علاقة على الإطلاق بـ «هبة الألسن» كما تُمنح بانتظام كل يوم أحد لغوغاء أُمِّيِّين في شتى المُصلَّيات الكنسية المسقوفة بالصفيح في أنحاء الأبرشية.

(1) «وَلَمَّا حَضَرَ يَوْمُ الْخَمْسِينَ كَانَ الْجَمِيعُ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ. وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا. وَكَانَ يَهُودٌ رِجَالٌ أَتْقِيَاءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ تَحْتَ السَّمَاءِ سَاكِنِينَ فِي أُورُشَلِيمَ. فَلَمَّا صَارَ هذَا الصَّوْتُ، اجْتَمَعَ الْجُمْهُورُ وَتَحَيَّرُوا، لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ كَانَ يَسْمَعُهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَتِهِ». سفر أعمال الرّسل 2: 1-6. (المترجم)

لقد جعلت هبةُ العنصرة الرسلَ مفهومين في كل اللغات المعروفة. وهناك كانوا يجلسون ساكنين، ويبدو عليهم -كما لم يستطع ريڤرز إلا أن يفكر- الاعتداد بأنفسهم إزاء كل ذلك على نحو يخالف وصايا المسيح أيما مخالفة.

لقد جلس مع صِبيةٍ آخرين -تلاميذ والده- تحت تلك الصورة ساعاتٍ طوالًا، يتلعثم بالحروف الساكنة في لغته لا غيرها، ويتذكر أن يُنزِل ظهرَ لسانه ويرسل نفَسه في دفقٍ منتظم، إلخ... إلخ... أحيانًا يسير والده معه في أنحاء الغرفة جيئةً وذهابًا، إذ كان يؤمن أن الخطو المدروس يساعد على ضبط تدفق التنفس. لم يكن ريڤرز النجمَ بين تلاميذ هذه الدروس بأي مقياس، بل كان -إن أُريدَ تحري الدقة- يحرز تقدمًا أقل من البقية، على الرغم من -أم تراه بسبب؟- وجود معلمه برفقته طيلة الوقت. كان المنزل مملوءًا بالصبية المتأتئين، من كل الأعمار بين العاشرة والتاسعة عشرة، وذلك يعني على الأقل أنه لم يكن الوحيد. ولقد كان لهذا مزية أخرى أيضًا كما يتذكر، ففي أثناء وجود الصبية، كان الموقر تشارلز دودجسون يبقى بعيدًا. لم يكن السيد دودجسون يحب الصِّبية. وحالما يغادرون في عيد الميلاد أو العطلات الصيفية، يجيء هو ويأخذ دروسًا كل مساء بعد العشاء. بإمكان ريڤرز، نظرًا إلى تعرضه الطويل لعوائق النطق لدى أشخاص آخرين، أن يلخص السمات الرئيسية للمُتأتئ بنفس سرعة أبيه تقريبًا. كان دودجسون يجد صعوبةً في لفظ *الميم*، و*الباء* بلفظها الشفتاني الوقفي المهموس (پ - p) في التراكيب الساكنة، لا سيما في وسط الكلمة، إلا أن *السِّي* (c) الشديدة التي يُقلَب لفظُها كافًا كانت ألدَّ أعدائه.

خلال النهار، كانت تُجرى رحلات بالقارب في النهر. دودجسون وأطفال آل ريڤرز الأربعة: هو نفسه وتشارلز وإيثل إضافةً إلى كاثرين، وهي الأثيرة لدى دودجسون. لم يكن قط يستمتع بهذه الرحلات كثيرًا، ولا تشارلز كذلك كما يظن، بيد أن ذلك على الأغلب ليس سوى استياء طفيف أظهره تلميذا مدرسة ڤيكتوريان وجدا نفسيهما -للمرة الأولى في حياتهما- ليسا من الجنس الراجح. وبعد ذلك، خلال تلك الأماسي الصيفية التي بدت لا تنتهي، تُجرى مباراة كروكيه على المرج، إذ يلعب والد ريڤرز مع دودجسون، فيما يتفرج الأطفال عليهما. توجد صورة فوتوغرافية لهم على المكتب، وهم يفعلون ذلك

تمامًا؛ هو وتشارلز مستندان إلى مدحلة الحديقة، يلوثان قميصيهما الأبيضين ببقع العشب دون شك، والفتاتان الصغيرتان -أختاه- تستظلان بشجرة الزان. لو حاول بجد، لاستطاع استحضار ملمس المدحلة على لوحَي كتفيه، وحرارة الشمس على مؤخر عنقه.

لديه ذكرى واحدة بعد عن دودجسون. لقد انسل ذات مساء مقتربًا من النافذة المفتوحة لمكتب أبيه، فجلس متكئًا بظهره على الجدار واستمع إلى الدرس الجاري. لا يستطيع أن يتذكر الآن لماذا فعل ذلك، إلا أن فِعلته لم تبدُ له استراقَ سمعٍ آنذاك، كونه يعلم أنه من غير المحتمل أن يدور أي حديث خاص. لعله إنما رغب أن يسمع دودجسون خاضعًا لنفس الروتين الذي كان يخضع له هو وبقية الصِبية، لعله رغب أن يراه وهو يُرَد إلى حجمه الحقيقيٍّ. كان دودجسون قد باشر لتوه الشغلَ على الجملة التي تتحدث عن إمساك القطة الحذرة للفأر[1]، حكاية بسيطة كفاية، لكنها تُنذر حالًا بالتحول إلى ملحمة في فم دودجسون. استمع ريڤرز إلى نصيحة والده، وهي في جوهرها نفس النصيحة التي كان يتلقاها هو نفسه، غير أنها تُبلَّغ دون تلك النبرة المشحونة بالصبر ذات الخصوصية. قال لنفسه فجأةً: هذا هراء. ما من نفع في تذكُّر إنزال اللسان، ولا في التفكير في تدفق النفَس. هكذا فكر، كانسًا عملَ حياة أبيه في دقيقة واحدة كما يميل الصِبية في الثانية عشرة من أعمارهم إلى أن يفعلوا. رفع رأسه باحتراس بالغ فوق عتبة النافذة، فرأى أباه جالسًا خلف طاولة المكتب -هذه الطاولة- وظهره إلى النافذة؛ عنق ورديٌّ نظيف يظهر فوق ياقة بيضاء نظيفة، وكتفان عريضتان تشدان قماش سترته. حدق إلى مؤخر عنقه، عنق الرجل الذي كان -بطريقةٍ ما- قد قتله لتوه، ولم يشعر بالحزن أو الذنب إزاء ذلك إطلاقًا. شعر بالفرح.

في وقت لاحق من ذلك الصيف، ألقى خطابًا على مجموعة علاج النطق عن القرود. كانت *الميم* تمثل لديه ما تمثله *السي* لدى دودجسون، لكنه كان مهتمًا بالقرود، وأكثر اهتمامًا بنظرية تطور داروين، التي كانت حينئذٍ قد حققت قبولًا في بعض الدوائر، ولم تكن نولز بانك من بينها. كان أبوه حانقًا، ليس لأن ريڤرز تلعثم في كل ميم بلا استثناء -وهذا قد حدث بالفعل- بل لأنه تجرأ

(1) يتكرر في الجملة الأصلية حرف السي الملفوظ كافًا. (المترجم)

على التلميح إلى أن سِفر التكوين ليس أكثر من أسطورة الخلق لدى بَشَر العصر البرونزيِّ. العشاء ليلتئذٍ كان حدثًا متوترًا؛ الأب غاضب، الأم مستاءة، تشارلز متعاطفٌ سرًا، الأختان تحملقان بأعين جاحظة متشربتَين المشهد حتى آخر رمق، وريڤرز نفسه خاضعٌ في الظاهر، ومزهوٌّ بالنصر في الداخل. لأول مرة في حياته، أرغم أباه على الإصغاء إلى ما يريد قوله، لا الطريقة التي يقول بها وحسب.

ومع ذلك، فكر ريڤرز وهو يمرِّر يديه على الجلد المتندب الذي يكسو سطح المكتب، ومع ذلك فالعلاقة بين الأب والابن لا تكون بسيطة أبدًا، ولا تنتهي أبدًا. الموت لا يتكفل بإنهائها من غير ريب. لقد فكر في أبيه خلال العام المنصرم أكثر مما فعل مذ كان ولدًا. ولم يخطر بباله إلا مؤخرًا أنه إذا انسلَّ صبيٌّ ابن اثنتي عشرة نحو نافذته في كريغلوكهارت، كما فعل هو عند نافذة أبيه في نولز بانك، لرأى رجلًا يجلس إلى طاولة مكتبٍ وظهرُه إلى النافذة، مصغيًا إلى مريض ما -يعاني تأتأة أشد بكثير من تلك التي لدى دودجسون- وهو يحاول ويخفق في بلوغ نهاية جملة. الفرق فقط أن ذلك الصبي لن يكون ابنه.

الرسالة غير الناجزة إلى سيغفريد تستلقي على المكتب. بلغ حدَّ الإدلاء بتعليق على الطقس، ثم حرنت الرسالة في أرضها هناك. ما اعتاد أن يفعله بمنتهى السهولة عن طريق المحادثة (دفعُ سيغفريد برفقٍ في الاتجاه نفسه دائمًا، مع تجنُّب أي إيحاء بالضغط في كل مرة) كان مأثرةً من الواضح أنه لا يستطيع أداءها على الورق. ربما كل ما في الأمر أنه متعَب للغاية. أقنع نفسه أن بوسع الرسالة الانتظار حتى الصباح.

حمل المصباح، ودفع الستائر الحمراء الداكنة الثقيلة جانبًا ثم فتح النافذة. طارت إلى الداخل عثة كبيرة دائخة، لها جناحان باهتا اللون وبدنٌ أزغبُ سمين، وراحت ترتطم بالسقف. انحنى مادًّا رأسه من النافذة، وتنَشَّق رائحة وردٍ لا يراه. لقد ذوت الريح بالكامل الآن، وأفسحت مكانها لسكوتٍ لا تقطعه ولو نأمة نفَس. واهيًا، من خلف أسوجة شجيرات مظلمة وحقول تضيئها النجوم، توارد صوت الخبطات الناعمة للمدافع. أولَ قدومه، حين وصل شاكيًا الخليطَ المعتاد من الأعراض البدنية والوهن العصبيِّ (نوبات صداع، وجفاف

فم، وتسرع نبض)، اختلط عليه ذلك الصوت بوجيب الدم في رأسه. ثم ذات ليلة، فيما هو راقد يجافيه النوم، سمع اهتزاز وعاء الماء داخل الطشت، فأدرك ما يكون ذلك الذي لا يفتأ يسمعه. لا بد أن سيغفريد قد سمعه في يونيو حينما كان في بيته يتماثل للشفاء من إصابته.

ربما الأفضل أن يكتب الليلة آخر المطاف. أغلق النافذة وجلس إلى المكتب. ظلُّ العثة الضخم، وهي ترف بين الجدران والسقف، ألقى بسواده على الورقة، فيما هو يسحب رزمة الورق نحوه، ويمزق الورقة ويبدأ من جديد: عزيزي سيغفريد...

«كم صار عدد المسودات؟».

«تهتُ عن العد»، أجاب أوين: «أنت قلت إن عليَّ أن أتصبب عرقًا من أحشائي».

«أحقًا قلتُ لك ذلك؟ يا له من تعبير تعوزه الأناقة. «أي أجراس وفاةٍ لهؤلاء الميتين كالماشية؟». أرى أننا وصلنا إلى المسلخ في النهاية». قرأ ساسون القصيدة بتأنٍّ، وحين انتهى لم يعلق من فوره.

«إنها أفضل، أليس كذلك؟».

«أفضل؟ لقد قُلِبت قلبًا»، قرأها مرةً أخرى: «إلا أنك عندما تنظر إلى *المعنى*... تدرك أنك ناقضتَ نفسك تمامًا، صحيح؟ تبدأ بقولك أن ما من عزاء، ثم تعود لتقول: بلى، هنالك».

– ليس عزاءً، إنما فخر بالتضحية.

– أليس هذا عزاء؟

– إن كان، فهو قابل للتبرير. ثمة نقطة لا تعود بعدها...

– لا أرى ذلك.

– ثمة نقطة لا تعود بعدها قادرًا أن تضغط على اللامعنى. حتى إن امتُهِنَت الشجاعة، تظل...

هبَّ أوين ناهضًا، ذهب إلى درج منضدة المغسلة وأخرج منه النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة التي كان ساسون قد أعاره إياها. بدأ يقلّب

صفحاتها بسرعة إنما بحذر، وقال ساسون لنفسه وهو يراقبه إنه يتحسن. ما من تلعثم، حركات سريعة حاسمة، الثقة اللازمة ليعارض بطلَه، والقصيدة كانت تبوح بكل ذلك.

«انظر، أنت تفعل الشيء نفسه بالضبط»، قال أوين وهو يقترب منه حاملًا الورقة التي يبحث عنها.

يا رفاقي السُّمر الشجعان،
حين تبتعد أرواحُكم في سربٍ صامت،
ويُخزي الموتى الذين ذهبت أعينُهم
وحشَ المعركة الهائجَ على الحافة،
سوف يقف الموت أَسِيًّا في ميدان الحرب ذاك
بعد أن استُنزفت بسالتكم التي لا تُقهر.
وعبر ڤالهالا[1] *قمراء،*
ستمر الكتائبُ أفواجًا، تكسوها الندوب من الجحيم،
والجيش الذي كان هو الصِبا وراح بلا رجعة،
والفيالق التي كابدت الويلات وصارت غبارًا.

«ما هذا إن لم يكن فخرًا بالتضحية؟».

«أسىً؟ حسنًا، وجهة نظرك مفهومة، الأمر أنني لا أحبذ فكرة... إظهار الأمر على أنه أقل رعبًا مما هو في الواقع»، نظر إلى الورقة: «أظن أنه ينبغي لك نشرها».

«أتعني في *الهيدرا*؟».

---

(1) ڤالهالا: في الأساطير الإسكندنافية، هي قاعة ضخمة مهيبة تقع في أسكارد (أحد عوالم الآلهة النوردية) يحكمها أودين، ينتقل إليها نصف المحاربين الذين يلقون حتفهم في القتال -يختارهم أودين- لينضموا إلى سابقيهم من الأبطال والملوك ويتأهبوا لمعونة أودين خلال معركة راكناروك المرتقبة والأحداث المفضية إليها. (المترجم)

«كلا، أعني في *ذا* نيشن. أعطني نسخة مبيضة وسأرى ما أستطيع فعله، لكنك ستحتاج إلى عنوان مختلف. «ترنيمةٌ لـ...»»، فكر لحظة، ثم شطب كلمةً وبدَّل بها أخرى. «ها أنت ذا»، قال وهو يعيد إليه الورقة مبتسمًا: ««ترنيمةٌ لشبابٍ منكوب»».

الدهليز الرئيسيُّ للمستشفى يمتد على كامل طول المبنى، وعلى كلا جانبيه تنفتح الأجنحة. صدرت من أحدها رائحة كريهة قالت مادج إنها غنغرينة، بيد أن سارا لم تكن متأكدة. كان الجناح الرابع عشر مكتظًّا، الأسِرة مرصوصة قرب بعضها، وقد نهض الرجال جالسين يحدقون باهتمام إلى الفتاتين المترددتين عند الباب. بدا معظمهم معافىً ومبتهجًا إلى حد معقول، المشكلة أنهم -برؤوسهم ذات الشعور المجزوزة وزي المستشفى الموحد الأزرق- بدوا متماثلين تمامًا في المظهر كذلك.

«لن أتعرف عليه»، قالت مادج في همس محموم.

«هيا»، أجابت سارا ودفعتها.

بدأتا السير عبر الجناح، وراحت مادج تحدق من سرير إلى آخر بنظرة سادرة. قد لا تتعرف عليه فعلًا والحال كهذه، قالت سارا لنفسها، لكن صوتًا لم يلبث أن صاح: «مادج!». رجل ذو شعر داكن وشارب أصهب همَّ بالاعتدال جالسًا، يُلوِّح ويبدو عليه الابتهاج برؤيتها. تقدمت مادج بحذر، عيَّنت موقع الذراع اليسرى المضمدة، وتفقدت الانتفاخ تحت غطاء السرير لتطمئن أن طوله وعرضه مناسبان كي يتسع لساقين اثنتين. بدا على ما يرام. طبع قُبلةً مسموعةً على شفتَي مادج، فأشاحت سارا مرتبكةً، لتكتشف أنها هي نفسها كانت محط إعجابٍ وسلوى من كل أنحاء الجناح.

«ها، انظر، لقد جلبتُ لك هذه»، قالت مادج: «كيف حالك؟».

«أنا بخير، مرت بلا أثر. هنا فقط»، أشار إلى عضلة عضده: «ما من غنغرينة ولا أي شيء».

- لقد حالفك الحظ.

- لا شك. سأمكث هنا أسبوعين وفقًا لتقديرهم، ثم سأحظى بإجازة قصيرة قبل أن أعود.

«هذه سارا»، قالت مادج.

«سُررت بلقائك».

تصافحا. كانت مادج الآن جالسةً عند السرير، وقد بدأت -بحذر- تتنعم بإعجاب حبيبها الذي استعادته وتخطط لما سيفعلانه خلال إجازته. بعد انقضاء بعض الوقت على هذه الحال، شعرت سارا بوضوح أنها أشبه بدودة متطفلة، فقالت: «سأخرج لأتمشى في الفناء، فالجو حار بعض الشيء هنا».

«حسنًا، لا بأس»، أجابتها مادج.

«أراك عند المدخل الرئيسيِّ إذًا. بعد نصف ساعة؟».

بالكاد انتبها إليها وهي تغادر. لم يكن أحد من هؤلاء الرجال مصابًا بجروح بليغة، وراح العديد منهم يصفرون ويطرقعون باللسان في أثناء مرورها. جو الجناح كان سعيدًا بمجمله. كان الارتياح العام الذي بعثه خروجُها منه هو ما خطر لها بالدرجة الأولى، بيد أنها افترضت وجود أجنحة أخرى لا تكون الجروح فيها طفيفة إلى هذا الحد.

في الخارج، راحت تطوّف نظرها ذهابًا وإيابًا عبر الدهليز، فأدركت أنها لا تعرف اتجاه الخروج. كانت محاطةً بملاحظات توجه الناس إلى الصيدلية، ومخبر التشريح المرضيِّ، وقسم الأشعة، إلى كل مكان عدا طريق الخروج. حاولت أن تمشي نحو اليسار، إلا أن طريقها اعتُرِض بلافتة كبيرة كُتِب عليها: **غرف الجراحة. يمنع تجاوز هذه النقطة لغير أفراد طاقم المستشفى.** استدارت إلى اليمين، وسرعان ما وصلت إلى ممر ظنت نفسها عرفته، فبدأت تسير عبره، لكن شعورها بالألفة لم يلبث أن تلاشى. كان المبنى هائل الحجم، وبدا أنه يفتقر إلى أي مخطط أو بنية منتظمة. وليزداد حس اللاواقعية، كانت معظم اللافتات تحمل دلالات استخدامها المدني التي تعود إلى ما قبل الحرب. قرأت عبارة «قسم التوليد»، فإذا بالباب الدوار يُفتَح بعنف ليكشف عن أسِرة تحمل أشخاصًا يستحيل أن يلدوا يومًا.

يحسن بها أن تقف وتسأل أحدهم كما هو واضح، لكن الجميع بدا في عجلة من أمره، والوجوه تكتسي بالتجهم. عثرت آخر المطاف على باب يُفضي إلى الفناء الخارجيّ في القسم الخلفيّ من المستشفى، حيث ثمة مدخنة طويلة لفرن إحراق تصعد منها خيوط ناحلة من دخان أصفر ضارب إلى البُنيّ. وهنا، نُصِبت خيمةٌ ضخمة لتقوم مقام جناح آخر. ألقت نظرة على داخلها، فكان يصطبغ بلون ذهبيّ من ضوء الشمس الراشح عبر السقف، لكن الجو مكتوم وخانق، ظلمة ذات همهمة لا بد أنها تجعل إرباكَ خِرَق الأضمدة وحكةَ الجلد الملتئم أمورًا تكاد لا تطاق.

حركة مرور الممرضات والمساعدين لا تنقطع بين الخيمة والمبنى الرئيسيّ، وسارا تبحث بعينيها -شاعرةً أنها تعترض طريقهم- عن مكان يمكن أن تجد فيه مأوىً مؤقتًا ولا تزعج أحدًا. كان هنالك دفيئةٌ تحاذي جانب المستشفى، تطل على الشرق ما يجعلها في هذه اللحظة تنال كامل دفء الشمس. في داخلها ظلال شخوصٍ جالسة، وكان الباب مفتوحًا فرأت أنها ربما تجلس هناك. ما إن اجتازت العتبة حتى تنبهت إلى صمت، صمت اشتبهت أن دخولها هو ما تسبب فيه. كانت لمّا تزل تحت تأثير وَهَرِ سطوع ضوء الخارج وإعتام الداخل بالمقارنة معه، لذا احتاجت أن ترمش عدة مرات قبل أن تراهم؛ صف من الشخوص على كراسٍ متحركة، بيد أنها شخوص لم يعد لها حجوم الرجال البالغين وأشكالهم. سيقان بناطيل قُصِّرت بالخياطة، أكمام فارغة ثُبِّتت إلى السترات بدبابيس. أحد الرجال فقد كل أطرافه، ووجهه ممتقع، ووجهه شاحب إلى حدٍّ بدا معه أنه قد ترك كل دمه أيضًا في فرنسا. زُرقة زيِّ المستشفى تبدو مبهرجةً قبالة بشرته. لقد أُخرِجوا إلى هنا ليحظوا بالشمس، لكنه ليس خروجًا بحق، وليس عند واجهة المستشفى، حيث يمكن أن تُشاهَد تشوهاتهم من قِبل المارة. راحوا يحدقون إليها، لكن ليس بطريقة تحديق الرجال في الجناح الآخر، الذين كانوا يبتسمون محاولين لفتَ عينيها. هذه تحديقة خاوية بالكامل، وإن كانت تحوي شيئًا على الإطلاق، فهو الخوف. الخوف من أن تنظر إلى سيقان البناطيل الفارغة، الخوف من ألا تنظر إليهم. وقفت مكانها، عاجزةً عن المضي قُدمًا وعاجزةً -لبضع لحظات حرجة- عن الاستدارة على عقبيها، إلى أن خفّت ممرضة نحوها وقالت: «من الذي تريدين رؤيته؟».

«أنا أنتظر صديقةً وحسب. لا مشكلة، سأنتظر في الخارج».

تراجعت، وخرجت تسير مبتعدةً في ضوء الشمس، تحس بأعينهم عليها، وتقول لنفسها: ربما لو كانت متهيئة، لو استطاعت أن تبتسم، أن تبدو طبيعية، لكان أحسن. لكن لا، فكرت، ما كان ثمة ما يمكنها فعله فيجعل الأمر أحسن، فبمجرد وجودها هناك، وكونها ذلك المخلوق عديم الصلة ذا السطوة اللانهائية: فتاة جميلة، كانت قد زادت كل شيء سوءًا. إحساسها بعجزها الخاص، بأنها مرغمة على لعب دور ميدوسا[1] وهي لا تقصد أي أذى، امتزج بالغضب الذي بدأت تشعر به تجاه تخبئتهم بتلك الطريقة. إن كان البلد يطلب ذلك الثمن، فعليه أن يكون جاهزًا للنظر إلى النتيجة بحق اللعنة. وسّعت خطاها تمضي في القيظ، غير آبهة إلى أين تذهب، حانقةً على نفسها، على الحرب... على كل شيء.

نزع پراير ثيابه، ولبس رداء المستشفى الأبيض ثم جلس على السرير ينتظر وصول الطبيب. هذه هي زيارته الثانية. في المرة الأولى كان قد رأى إيغلزهام، الاستشاري؛ رجلٌ كأنه دُبٌّ أشيب كبير أريَحِيٌّ لم يتكلم إلا لمامًا بيد أنه اكتسب ثقته فورًا. لقد رفع حاجبيه حين نفخ پراير في مقياس التنفس أو أيًا كان اسم تلك الماكينة، لكنه لم يقل ما يفكر فيه، وپراير لم يرغب أن يسأله. إلا أن الطبيب لن يكون إيغلزهام اليوم، إذ ثمة رجل أصغر سنًا بكثير له بشرة كالحة وشعر داكن أملس يدخل ويخرج من الحجيرات الأخرى. أطرق پراير ينظر إلى ساقيه البيضاوين الناحلتين، لم يرَ مسوغًا يحوجه إلى أن ينزع كامل ثيابه، أتراهم يحاولون الاستحاطة لطارئ طبيٍّ ما قد يجعل رئتيه تنزلقان إلى حوضه؟ لم يرُق له أن الرداء يُعقد من الخلف، هو لا يمانع عرضَ عدته، إن استلطف الشخصَ الآخر وبدا التوقيت صائبًا، غير أنه يحب أن يكون لتصرفه وهْمُ الفعل الإراديّ على أقل تقدير. بوسعه سماع صوت الطبيب في

(1) ميدوسا: شخصية في الميثولوجيا الإغريقية، كانت في البدء -وفقًا لرواية الشاعر الروماني أوفيد- عذراء فاتنة الجمال، ومطمحًا لرجال كثر، لكن بسبب اغتصابها من قِبل بوسيدون في معبد أثينا، حولت لها الأخيرةُ شعرَها الجميل إلى ثعابين، وجعلت وجهها شنيعًا إلى درجة أن يقلب مجردُ النظر إليها الناظرين حجرًا. (المترجم)

الحجيرة المجاورة، يتحدث إلى رجل لا يقدر على إتمام جملة واحدة دون أن يسعل. أخيرًا دُفِعت الستائر جانبًا ودخل الطبيب، متبوعًا بممرضة تضم إلى صدرها ملفًّا رمليَّ اللون. نضا پراير الرداء ونهض كي يخضع للمعاينة.

«حضرة الملازم ثاني پراير».

«السيد»، أراد أن يقول. قال: «نعم».

«أرى أن أهليتك للعودة موضعٌ لشيء من التساؤل، أقصد بعيدًا عن حالة *أعصابك*».

لم يقل پراير شيئًا البتة.

انتظر الطبيب. «حسنًا، فلنلقِ نظرةً عليك».

أخذ يحرك السماعة على أنحاء صدر پراير، ويضغط بشدة جعلت السماعةَ تترك أحيانًا حلقات متداخلة على الجلد تتورد ثم تبهت إلى البياض. يظنني أحاول التملص، قال پراير لنفسه، فأصابته الفكرةُ بالفتور.

«كيف حال أعصابك الآن؟»، سأله الطبيب.

- أفضل.

- انفجار قذيفة، صحيح؟

- ليس تمامًا.

لن يكرر كلمةً واحدة مما قاله لريڤرز على مسمع هذا الرجل.

- أتظن *أنتَ* أنك مؤهل؟

- لستُ طبيبًا.

ابتسم الطبيب، وبدا لپراير أن ابتسامته نابعة عن احتقار. «يبدو أننا متحمسون للعودة، أليس كذلك؟».

أغمض پراير عينيه. تراءت له صورته وهو يهرس منفرجَ الرجل بركبته، وكانت الصورة حيةً إلى درجة أنه ظن نفسه للحظةٍ ربما فعلها حقًّا، غير أنه فتح عينيه وهناك كان يمثل الوجه الكالح، لا يزال مبتسمًا. حملق إليه.

أومأ الطبيب برأسه، كما لو أن پراير أجابه فعلًا، ثم ببطء -بغية تجنُّب أي إيحاءٍ بالتراجع خشيةً- استدار ودوَّن ملاحظة مقتضبة في الملف. كلها حركات خداع، فكر پراير، ما يهم هو ما يقوله إيغلزهام.

سامَهُ العذابُ حالما ارتدى زيَّه من جديد، إذ راح يحسب فرصه، ويحتقر نفسه لأنه يحسبها. لم يعزُ فضل أيٍّ من هذا إلى ريڤرز. قال لنفسه: لم أكذب على أحدٍ منهم، لم أصف الأمور بشكل يجعلها تبدو أسوأ مما هي في الحقيقة. أنهى لفَّ قلاشينه[1] ونهض واقفًا، فعادت الممرضة تحمل بطاقة: «لو تتفضل وتخبرهم عند مكتب المواعيد، ثلاثة أسابيع».

- أجل، لا بأس. شكرًا لك.

أخذ البطاقة، بيد أن عقله أغراه بألا يثبت الموعد فيما هو يعبر الدهليز. ثبَّته نهاية المطاف، ثم احتفظ بالبطاقة ووسَّع خطاه إلى فناء المستشفى أسرع ما استطاع. فكر أن يبتاع لنفسه شيئًا من العربة عند المدخل، فاكهة أو حلوى، أي مكافأة صغيرة ربما تجعله يشعر بتحسن، وتخفف من إحساسه بالدنس.

رآها قبل أن تراه، فنادى: «سارا». التفتت وابتسمت. لقد فكر فيها كثيرًا في أثناء مكوثه في عنبر رعاية المرضى، مستحضرًا ذاك الوقت الذي أمضياه على الشاطئ. لطالما جعله التوعكُ غَلِمًا، ما إن ينقضي طوره الأسوأ. الأمر الذي غاب عن ذهنه -فكر الآن وهو ينظر إلى الوجه الأصفر تحت إكليل نور الشعر الفذ- هو كم كانت تعجبه.

«ما الذي تفعله هنا؟»، سألته ببهجةٍ بادية.

- أفحص صدري.

- هل أنت على ما يرام؟

- أجل، بفضلك. وأنتِ، ماذا تفعلين هنا؟

- أنا برفقة مادج، لقد أصيب خطيبها.

- أهو بخير؟

(1) قلاشين: جمع قلشين، وهو رباط يُلف بإحكام حول الساق من الكاحل إلى الركبة. (المترجم)

«أجل، أظن ذلك»، اكفهر وجهها: «للتو رأيت بعضًا ممن ليسوا بخير. ثمة دفيئة من نوعٍ ما قرب ظهر المبنى، يجلسون هناك جميعًا، حيث لا يتعين على بقيتنا أن يروهم».

«الوضع سيئ؟».

أومأت برأسها: «أتعلم؟ كثيرًا ما تساءلتُ كيف كان عساي أن أستمر لو أن جوني عاد في حال كتلك. تخبر نفسك دائمًا أن الأمر ما كان ليشكل فرقًا. الكلام سهل، أليس كذلك؟».

استشعر الغضبَ فتجاوب معه على الفور. هي ربما لا تعرف الكثير عن الحرب، لكنها تواجه ما تعرفه بصدق، وهذا أمر نال إعجابه. «اسمعي، هل عليكِ أن تنتظري مادج؟»، سألها: «أقصد، كم تظنينها ستلبث؟».

- دهورًا، كما أظن. كانت معه في الفراش عمليًا حين تركتُهما.

- طيب، ألا يمكنك إخبارها أنك ستذهبين؟ لا ضير من عودتها سيرًا وحدها، صحيح؟ النهار في وضحه.

رنت إليه تقلِّب الفكرة. «أجل، حسنًا»، همَّت بالانطلاق: «لن أغيب أكثر من دقيقة».

إذ ظل بمفرده، اشترى پراير باقتَي أقحوان، برونزيةً وبيضاء، من العربة قرب المدخل. ما كان اختياره ليقع على هذه الزهرة، لكنه أراد أن يقدم إليها شيئًا. وقف مشرئب العنق يتحين أول طلتها، ولما وصلت -مبتسمةً وقد انقطع نفسها- ناولها الأزهار، ثم -في اندفاعةٍ مباغتة- انحنى وقبَّلها. انسحقت الأزهار بينهما، فتحررت رائحتها الخريفية المُرة.

كانوا يحرقون أوراق الشجر في متنزه هامپستيد هيث، حيث تمشَّى ريڤرز برفقة روث هيد في اليوم الثاني من زيارته. تهادى الدخان الحامز معترضًا دربهما، وتحتهما كانت لندن مستلقيةً في سديم أزرق. توقفا عند إحدى البِرك، وتابعا طائر غرة يشق الماء الرهو. «أرأيتَ إلى ما خلف تلك المنازل هناك؟»، قالت روث: «ذلك مستشفى الفيلق الجويِّ الملكيِّ. ثم هناك، في ذلك الانخفاض تمامًا، هو ذاك **المدفع الكبير**».

- يسرُّني أنك وهنري لا تلوذان بالمطبخ كل ليلة، يبدو أن الآخرين جميعهم يفعلون ذلك.

- هل بوسعك تخيُّل هنري يجثم مرتعدًا تحت طاولة المطبخ؟

ابتسما لبعضهما وتابعا المشي.

«في الحقيقة، الغارات الجوية هي سرّي الأثيم»، قالت روث.

«أتقصدين أنك تفضلين أن تكوني تحت الطاولة؟».

«أوه، كلا، بل العكس إلى حد بعيد. أنا أستمتع بها. من المريع قول هذا، أليس كذلك؟ رغم ذلك الخراب كله والناس الذين يلاقون حتفهم، كلما انطلقت صافرة الإنذار شعرتُ بهذا الحس الهائل من الانتعاش، ووددتُ حقًّا أن أخرج وأجوب الأنحاء ركضًا في خضم كل ذلك»، ضحكت في استنكار ذاتيٍّ: «لا أفعل هذا بالطبع، لكن يراودني الشعور بأن... *القشرة* التي تكسو كل شيء تبدأ بالتشقق، ألا تشعر بذلك؟».

«بلى، إلا أنني لست واثقًا إذا كان ما تحت القشرة سيعجبنا».

بدأا يسيران باتجاه شارع سبانياردز رود. قال ريڤرز: «أتعلمين؟ ليلة أمس تَشكّل لدي انطباع قويٌّ أن هنري كان يخطط لشيء».

- بشأنك؟ إن كان ذلك، فهو شيء يصبُّ في مصلحتك.

- تقصدين أنك تعلمين ولن تخبريني؟

ضحكت روث: «هذا صحيح».

عند شارع سبانياردز رود، ثمة رجال يرتدون زيَّ المستشفى الأزرق ويجلسون على كراسٍ متحركة، ينتظرون قدوم أحد كي يدفعهم. ظلت روث صامتة لبعض الوقت بعد مرورهما بهم. «تعرف؟ هنالك شيء لم أقُله ليلة أمس»، رفعت عينيها إليه: «أظن أن ساسون على حق تمامًا».

- رباه، كنت آمل أن أعرّفكما على بعضكما، لكن إن كنتِ ستشكلين تأثيرًا معنويًا سيئًا...

- بجدية.

- حسنًا، بجدية. لنفترض أنه على حق بالفعل، أيعني هذا أن تركه يتابع ويلقي بنفسه إلى التهلكة فكرة جيدة؟

- لا ريب أن الخيار يجب أن يكون له؟

- إنه *له*.

ابتسمت روث وهزت رأسها.

«انظري»، قال ريڤرز: «أنا أرتدي الزيَّ، وأتقاضى الأجر، و*أنفذ العمل*. لن أعتذر عن ذلك».

«لستُ أقترح أن تعتذر. الأمر سيان»، قالت ملتفتةً كي تنظر إليه: «فأنت تمعن في تمزيق نفسك كما هي الحال معه».

مشيا بصمت لبرهة، ثم قال ريڤرز: «أهذا ما يراه هنري؟».

ضحكت روث: «بالطبع لا. إن كنتَ تنشد النباهة والبصيرة، فعليك الذهاب إلى روائيٍّ، لا إلى طبيبٍ نفسيٍّ».

- أنا واثق أنك محقة.

- لا، غير صحيح، أنت لا تصدق كلمةً من هذا.

- كيفما كان، الترهيب الواقع عليَّ أكبر من أن يسمح لي بمخالفتك الرأي.

ذاك المساء، إذ تُرِك ريڤرز وحده برفقة هنري بعد العشاء، راقبه وهو يدلك مثلث الجلد الذي يغطي المسافة بين الإبهام والسبابة من يده اليسرى. «أما زالت تزعجك؟».

- قليلًا، في الطقس البارد. أتعلم؟ لا أظن أن الشجاعة كانت لتواتيني على فعل ذلك الآن.

- لا، أحيانًا أرجع في الذاكرة، فـ... أُذهَل. ما الذي تفعله هذه الأيام؟

«إصابات النخاع الشوكيِّ الفادحة، لدينا الكثير من المواد المثيرة للاهتمام»، التوى فم هيد: «كما نسمي الأوغاد المساكين».

هز ريڤرز رأسه، لقد سبق له أن واكب هيد في أجنحة المستشفيات مرات أكثر من أن يصدق ادعاءه القدرةَ على ذلك النوع بعينه من التصلب الذي يخدم الأغراض البحثية.

«إنها بيئة مثيرة للاهتمام»، تابع هيد: «أن يُتاح لك التعامل مع الرضح البدنيّ وعُصاب الحرب في المستشفى نفسه، كان هذا ليروق لك».

«أنا واثق»، أجابه بشيء من المرارة: «فلندن كانت لتروق لي».

- هنالك وظيفة إن أردتَ.
- أتعني ثمة شاغر؟
- لا، أعني أن هنالك وظيفة *لك أنت* إن أردتَها. لقد طُلِب مني أن أجسَّ نبضك. اختصاصيٌّ نفسيٌّ مع الفيلق الجويِّ الملكيِّ، في المستشفى المركزيِّ بهامپستيد.
- *آه*، وكنتُ أتساءل عن سبب حماسة روث للذهاب إلى المتنزه.
- أتصور أن الأمر قد يثير اهتمامك؟ يظهر أن ثمة بعض الفروقات الصادمة إلى حدٍّ بعيد بين معدل الانهيارات لدى الطيارين وبينه في بقية فروع الخدمة.

«يبدو هذا مدهشًا»، رفع يديه ثم تركهما تهويان: «لكن الأمر أنني لا أرى ذلك بمقدوري».

«لمَ لا؟ ستكون أقرب إلى عائلتك، وأصدقائك، وصِلاتك البحثية، ويكون بوسعك العودة إلى كامبريدج في عطلات الأسبوع. وإضافةً إلى ذلك... لا أعتقد أن هذا مهم، لكن سوف يتسنى لنا العمل معًا من جديد».

دفن ريڤرز وجهه في يديه: «أوووه. «تراجعْ خلفي يا شيطان»[1]».

- أنا خلفك، كنتُ أفكر أن أعطيك دفعةً إلى الأمام.
- لا يمكنني أن أترك برايس.

بدا الشك على هيد: «أتقصد ضابطك الآمر؟».

---

(1) (إنجيل لوقا 4: 8): يسوع يجيب الشيطان -الذي يحاول إغواءه كي يسجد أمامه- بجواب يبدأ بهذه العبارة، والترجمة الإنجليزية الواردة في النص الأصلي تعني حرفيًا «تراجعْ خلفي يا شيطان» (اعتمدتُها هنا خدمةً للسياق)، بينما وردت العبارة في بعض الترجمات العربية «اذهب يا شيطان»، في حين أسقطَتْها ترجماتٌ أخرى بالكامل من جواب يسوع. (المترجم)

- إنه في وضع صعب. نحن نترقب تفتيشًا عامًا، و... الموضوع بمجمله قديم. برايس مصمم أنه لن يلعب لعبتهم هذه المرة، لن يقدم المرضى في استعراض عسكريٍّ، ولن يُلمِّع أسافل مقالي المطبخ، ولن يتظاهر بأن المكان هو أي شيء سوى مستشفى مشغول ومكتظ إلى حدٍّ قصيٍّ، بل ومستشفى جيد جدًّا بحق اللعنة كما أظن.

- ما الذي يريدونه؟

- يريدون ثكنة عسكرية. الأمر يتسم بكل المقتضيات التي تجعله يكون مواجهةً دنيئةً بحق، أظن أن برايس قد يضطر إلى المغادرة.

- حسنًا، أكره أن أبدو جلفًا، لكن أليس هذا كفيلًا أن يحل المشكلة بالأحرى؟ أقصد مشكلتك *أنت*.

- إن حدث. لكن حتى ذلك الوقت، أظن أن بوسعي... أن أكون ذا نفعٍ ما له.

- متى موعد هذا التفتيش؟

- نهاية الشهر.

- سنحتاج إلى خبر يقين بشأن الوظيفة... طيب، ثلاثة أسابيع؟

- سوف أفكر في الموضوع.

- جيد. ولا تبالغ في الغيرية، هلّا تكرمت؟ أنت في عزلة هناك، وهذا لا يُحسِن إليك.

- لا أدري بشأن العزلة، فأنا لا أتوفر ولو على دقيقة واحدة لنفسي.

- *بالضبط*. هيا، تعال نبحث عن روث.

15

الخط ينتهي عند ألدبرة، لكن القطار -كأنه يأبى قبول هذا- نفث دفعةً مدهشةً من البخار في أثناء ترجُّل ريڤرز إلى رصيف المحطة. وقف يجوب المكان بعينيه، فيما همد صفير القطار إلى نخير متقطع وانقشع البخار. لقد وعده بيرنز أن يلاقيه لكن ذاكرته لم تكن طيبة، فسُرَّ ريڤرز أن العنوان بحوزته حين استقبله الرصيف الخاوي. لكن حالما أذعن وقرر البحث عن المنزل بمفرده، ظهر بيرنز، خيالًا مهزولًا طويلًا يرتدي معطفًا من التويد الواقف ذي النقش المتعرج يكاد يبلغ الأرض. من الواضح أنه كان يركض، وأن أنفاسه مقطوعة. «أهلًا»، قال له. حاول ريڤرز أن يحاكم تحسُّن حالة بيرنز أو تراجعها من مظهره وكان ذلك صعبًا، إذ بدا وجهه في وهج مصابيح النفثا خِلوًا من التعابير كما البرونز المطرَّق.

«كيف حالك؟»، خرج السؤال منهما في وقت واحد، فضحكا.

قرر ريڤرز أن يجيب هو: «أفضل بكثير، شكرًا».

«جيد»، قال بيرنز: «يمكن قطع المسافة مشيًا»، أضاف من فوق كتفه وقد همَّ بالانطلاق فعلًا: «لسنا بحاجة إلى سيارة أجرة».

خرجا من المحطة وطفقا يسيران في طريقٍ هابط، عبر أطراف البلدة الباردة الهادئة، مرورًا بالكنيسة، في شوارع تحفُّها المنازل الملمومة على بعضها، وتابعا حتى خرجا من بينها.

كان البحر هادئًا لا يكاد يُسمَع؛ فمًا أدرنَ يُضغضِغ الحصى في الظلام. وبدلًا من اتباع الطريق، انطلق بيرنز يسير على الحصباء فتبعه ريڤرز، إلى حيث كان الجَزر قد كشف عن شريط نحيل من الرمل. كان انسحاق الحصى وانزلاقه تحت أقدامهما يطغى على كل الأصوات الأخرى. التفت ريڤرز، فرأى عظام وجه بيرنز تومض في ضوء القمر. تساءل ما الذي عساه يراه من تشابك الأسلاك الشائكة الممتدة على طول الشاطئ، لا يقطعها سوى فتحتين ضيقتين تُركتا لدخول قوارب الصيد وقارب الإنقاذ وخروجها، لكن بيرنز بدا لا يبصر الأسلاك.

ظلَّا واقفَين معًا عند حافة الماء، ظِلان أسودان فوق الحصباء الشاحبة، والأمواج الصغيرة تلقي زبدها عند أقدامهما. ثم خرج القمر من خلف ركام غيمة داكنة، فألقت أكواخُ صيادي السمك والقواربُ المرصوفة في صفين قصيرين خلف حاجز الأسلاك وأكوامُ الشباك وراءها ظلالًا بحواف حادة كما تكون في النهار.

عادا إلى الطريق يسيران بمحاذاة صف المنازل، الذي تتخلله ثغرات هنا وهناك. مصاريع الكثير من المنازل مغلقة، وقد كُوِّمت أكياس الرمل عند أبوابها الأمامية. «من المعتاد أن يأتي البحر في زيارات»، قال بيرنز متبعًا اتجاه تحديقة ريڤرز: «كنتُ هنا حين فاض ذات مرة». من الواضح أن أكياس الرمل لم تُعِد إليه ذكريات أخرى.

«ها نحن أولاء»، قال بعد بضع دقائق، متوقفًا أمام منزل مرتفع لكنه ضيق للغاية. كان البحر أقرب بكثير عند هذا الطرف من صدر الشاطئ، يتقلب ويتقلب في الظلام. أطلَّ ريڤرز بعينيه فأبصر ومضة من البياض: «ماذا يوجد هناك؟».

«السباخ، والمزيد من الحصباء. سأُريك في الغد».

تلمَّسا طريقهما إلى داخل الردهة، وأغلقا الباب خلفهما بحرص قبل أن يشعل بيرنز الضوء. تمعن في ريڤرز متلهفًا، وقد اكتسى وجهُه بظلال عميقة ألقتها حبابة المصباح العارية: «أتوقع أنك تود الصعود إلى الأعلى. أظن أنني تركتُ لك منشفة...»، بدا أشبه بطفل يحاول تذكُّر ما يقوله البالغون للضيوف عند وصولهم، كما أنه بدا مُلتاثًا للمرة الأولى.

تبعه ريفرز صعودًا على الدرج الضيق إلى غرفة نوم صغيرة. وهناك، دلَّه بيرنز على الحمام ثم نزل. وضع ريفرز حقيبته، وألقى نفسه على السرير متنطَّطًا ليختبر الفراش، ثم راح ينظر حوله. الجدران مكسوة بورق له نقوش مبهمة تثير الارتباك، وقد بهت لون الخلفية فاصفر مثل كدمة قديمة. كل شيء عابق برائحة البحر، كأن الأثاث قد نُقِع فيه، وهذا ذكّره بعطلات طفولته في برايتون. رشَّ وجهه بمياه الطشت، ثم أطفأ الضوء وفتح مصراعَي النافذة. كانت غرفته تطل على البحر. الريح تشتد، ومع كل هبة ترتعش لفائف الأسلاك الشائكة كما لو كانت حية.

لا أثر لوالدَي بيرنز. لقد افترض ريفرز خطأً أنه دُعِي من أجل لقائهما، بما أن قسمًا كبيرًا من رسالة بيرنز تناول ما يعانيانه من قلق حول مستقبله، لكن الأمر ليس ذاك كما يظهر. هذه هي غرفتهما على الأرجح، فالمنزل ضيق بحيث لا يمكن أن توجد أكثر من غرفة، أو اثنتين على أكبر تقدير، في كل طابق.

مضى المساء على نحوٍ سارٍّ كفاية. لم يأتِ أحد على ذكر مرض بيرنز، ولا على ذكر الحرب. كان واضحًا أن هذين موضوعان محرمان، لكنهما تحدثا عن الكثير الكثير من الأمور الأخرى. أيًّا كان ما فعلته الحرب ببيرنز، فقد عمَّقت حبه لمقاطعته الأم دون شك. زهور سوفولك، وطيورها، وكنائسها، كان يحيط بكل ذلك علمًا. ومنذ مدة أقرب، بات مهتمًّا بالحفاظ على الحِرَف الريفية. لقد وعده «أولد[1] كليغ»، الذي يظهر أنه شخصية محلية بارزة من نوع ما، أن يعلّمه تشذيب الحجارة، وبدا أنه يتطلع بشوق إلى ذلك. حتى قبل الحرب، كان رجلًا ريفيًّا نموذجيًّا في ما يخص مجالات اهتمامه، أشبه بسيغفريد بطريقةٍ ما، بيد أنه يفتقر إلى شغف الأخير بالصيد.

حين انتقل الحديث إلى مسائل أخرى، تحول بيرنز إلى طالب صف سادس ذكيٍّ، مثاليٍّ، متعصب، ساذج، يميل إلى تقديم تعميمات شاملة على أنها حقائق، وتتمتع طراوة تصوراته بالجاذبية كشأن الصبيان في تلك السن عادةً.

(1) أولد: مسن، ومن المعتاد في المجتمعات المتحدثة بالإنجليزية -لا سيما الريفية منها- إلحاق صفةٍ يكنى بها الشخص حتى تلازمه وتصبح جزءًا لا يتجزأ من اسمه. (المترجم)

فكر ريڤرز كم من المضلل أن يقال إن الحرب قد «أنضجت» هؤلاء الشبان. لم يكن ذلك ينطبق على مرضاه، وبكل تأكيد لا ينطبق على بيرنز، الذي بدا أن رجلًا شاخ قبل أوانه يقبع داخله جنبًا إلى جنب مع تلميذ مدرسة أحفوريٍّ. ذلك منحه بالفعل سمة شبابٍ دائم تتجاوز حيز السن وتثير الفضول، غير أن «النضج» ليس الكلمة المناسبة. ومع ذلك، هو في حال أفضل مما كان عليه في كريغلوكهارت، ولعل هذا يثبت صواب اعتقاده أنه سيكون على ما يرام إن تسنى له فقط أن يعود إلى سوفولك وينسى الحرب. لكن، إذا كان ذلك، فلمَ أنا هنا؟ قال ريڤرز لنفسه. رغم تلافي بيرنز لذكر مرضه، لم يعتقد ريڤرز أنه دُعي إلى سوفولك من أجل الحديث عن العمارة الكنسية، لكن سيكون من الخاطئ إلى حدٍّ بعيد أن يحث خطو الحديث. أيًّا كان ذلك الذي يزعجه، فهو سيطرح المسألة حين يرى الوقت مناسبًا.

•

استيقظ ريڤرز في الصباح التالي ليجد الشاطئ محتجبًا خلف غشاوة ضباب. اتكأ على عتبة النافذة، وتابع قوارب الصيد وهي ترجع. كان الحصى على الشاطئ مبتلًا، لكن ليس بفعل المطر أو المد؛ الضباب يعلق عليه مثل العَرق، وللهواء طعم الحديد. كل شيء في غاية الهدوء، عندما طار نورسٌ من جهة البحر ومرَّ قريبًا فوق رأسه، سمع طقطقة جناحيه.

كان بيرنز مستيقظًا بالفعل، وهو في المطبخ حكمًا على الأصوات، لكنه لا يحضّر الفطور- كما قال ريڤرز لنفسه. لا شيء ظهر في الليلة السابقة على سبيل العشاء أو الوجبة الليلية، وقد تردد ريڤرز -خلال مسائه الأول- في دخول المطبخ بحثًا عن الطعام، إلا أنه يظن أن تلك قد تكون الطريقة الوحيدة للحصول على شيءٍ منه.

اغتسل وارتدى ملابسه وحلق ثم نزل إلى الأسفل. بحلول هذا الوقت، كانت الغشاوة على الشاطئ قد بدأت ترق، لكن الجو بارد بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة، وجاء منظر النار في غرفة معيشة الطابق الأول موضع ترحيب. تابع

نزوله شاحطًا آخر من الدرج إلى المطبخ، فوجد بيرنز جالسًا إلى الطاولة برفقة إبريق شاي.

«ثمة بعض حبوب الإفطار»، قال مشيرًا بيده.

بدا خجِلًا من جديد، رغم أنه كان الليلة الماضية قد بدأ يتحدث بحرية كبيرة مع نهاية المساء، تمامًا في الوقت الذي أخذ فيه ريڤرز يكبو في مكانه محاصرًا بين هدير النار وهدير البحر. «أعتذر عن اضطراري أن أخلد إلى السرير مبكرًا»، قال ريڤرز وهو يمد يده إلى عبوة الحبوب.

«لا بأس»، بدا للعيان أنه تذكّر السؤال الذي يُفترض به طرحه: «هل حظيت بليلة هانئة؟».

«جدًّا». أحجم ريڤرز عن رد السؤال بمثله، إذ كان قد سمع جزءًا من ليلة بيرنز. من الواضح أن الكوابيس لا تتركه مهما حاول إلقاء ذكريات الحرب خلف ظهره.

رن جرس الباب، فنهض بيرنز كي يفتح وقال: «هذا هو اليوم الذي تجيء السيدة بوريل فيه لترتب لي أموري».

كانت السيدة بوريل شخصًا صموتًا على نحو بارز، بيد أنها استطاعت دون كلام توضيح أن وجودهما زائدٌ على الحاجة.

قال بيرنز: «قلتُ لنفسي ربما نخرج ونتمشى».

لقد رقَّ الضباب لكنه لم ينفسح. أخذ يدنو من اليابسة ببطء، تيارات باردة فوق السباخ، حيث عكست خنادقُ الصرف وأحواض التجميع ضوءًا فولاذيًا نحو السماء. القصب يهمس، بصوت يشبه احتكاك راحات الأيدي. كان التنفس صعبًا، وحتى الحركة، وحين يتحدثان يفعلان ذلك -إن فعلاه أصلًا- بصوت خفيض.

سارا على درب ضيق بارز عما حوله يفصل السباخ عن النهر. ثمة يخوت صغيرة مثبتة بمراسيها، وللنسيم قوة تكفي لخشخشة حبال أشرعتها لا أكثر؛ ليس صوتًا عاليًا، لكنه مثابر ومكدِر إلى حدٍّ ما، مثل نبض قلب غير منتظم. لا يمكن لشيء آخر هنا أن يكدر. رقد مصبُّ النهر ساكنًا بسلام تحت شمس

فضية منكمشة، ولم يكن شيء يتحرك باستثناء القصب، إلى أن مرَّ سربٌ من البط وهو يصفر.

كان ريڤرز قد بدأ يدرك مدى روعة المنطقة. شريط من اليابسة، لا يتجاوز عرضه مئة ياردة في بعض المواضع، يحول بين المصب وبحر الشمال. لدى مشيك على هذا الشريط، مبتعدًا عن البلدة، نحو مساحات الحصباء المبيضة، تصبح واعيًا بصوتين مختلفين: هدير الأمواج وانحسارها على الحصى، وهدهدة النهر بين قصبه. إن تحركتَ يسارًا، يقاطع انهراسُ الحصى تحت خطوات الجزمة الثقيلة أصواتَ النهر الوديعة. أو يمينًا، يسود نقر حبال الأشرعة وتلاطم الماء، لكن يظل بوسعك سماع البحر يثبت حضوره.

التفتا ونظرا إلى البلدة الملتمة على بعضها. «أتعلم؟ أنا أحب هذا المكان»، قال بيرنز: «لا أريدك أن تظنني غادرتُ لندن بسبب الغارات فقط. لم تكن الغارات هي السبب في الحقيقة، بل مواعيد الوجبات المنتظمة. كما تعرف، يجلس الجميع لتناول الطعام، منتظرين أن يوضع أمامهم، فيما يتحدث أبي بلا انقطاع عن الحرب. إنه من كبار المؤمنين بالحرب، أبي هذا».

«هل سيجيئان إلى سوفولك؟».

«كلا، لا أظن ذلك. فكلاهما مشغول للغاية في لندن»، استدارا وتابعا سيرهما: «من الأفضل ألا نرى بعضنا كثيرًا في الوقت الراهن، فلستُ منظرًا يسر الناظرين».

بدأ مبنى دائريٌّ غير مرتفع يلوح من الضباب. قال ريڤرز لنفسه إنه يبدو أشبه ببرج مارتيلو[1]، لكن تشييد هذه الأبراج لم يصل شمالًا إلى هذا الحد حسب علمه.

«هنا أقصى الشمال»، قال بيرنز منزلقًا على المنحدر نحو الشاطئ، وتبعه ريڤرز فوق الحصى نزولًا إلى داخل الخندق العالي شديد الرطوبة الذي يحيط بالبرج. في ظل البرج، انقطعت كل الأصوات المائية -من فحيح الموج إلى تلاطم المياه- على نحو مفاجئ. لقد نما السرخس من جدران

(1) أبراج مارتيلو: هي حصون دفاعية صغيرة شُيدت في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية البريطانية خلال القرن التاسع عشر. (المترجم)

الخندق المرتفعة، واحتشد اللبلاب في بُرَيج المراقبة المتهدم، لكن الانطباع العام يوحي بمكان ميت.

لا بد أن ماء البحر يملأ الخندق عند ارتفاع المد، فهو لا يخلو من كل أنواع الحُطام المجروف؛ أخشاب، جناح نورس ممزق، شظايا زرقاء وخضراء من الزجاج. إنه مكان يعشقه الأطفال دون شك، إذ يجدون فيه الكثير مما يودون انتقاءه والتقاطه.

«اعتدنا أن نلعب هنا»، قال بيرنز: «نتحدى بعضنا، من يستطيع تسلق الجدار كاملًا».

ثمة باب، لكنه مغلق بألواح الخشب. نظر ريڤرز عبر شق فرأى أدراجًا حجرية تتجه إلى الأسفل.

- ممنوع منعًا باتًّا، كانوا يخافون دائمًا أن نعلق في الأقبية.
- أظن أن الماء يغمرها، أليس كذلك؟ عند ارتفاع المد؟
- بلى. لقد رُويت عن ذلك كل أنواع الحكايات؛ أناسٌ تُرِكوا في الأغلال كي يغرقوا. أظن أن هذا كان يروق لنا بالأحرى، إذ كنا نجلس ونتظاهر أننا نرى أشباحًا.
- إنه مكان يُشعرك أن أشخاصًا قضوا نحبهم فيه، أعني ميتات عنيفة.
- تشعر بذلك، صحيح؟ أجل، أتوقع أن هذا ما جعله يعجبنا، فالصبيان ملاعين صغار متعطشون للدماء.

لم يأسف ريڤرز حين تسلقا منحدر الحصى ووقفا من جديد على الشاطئ تحت ضوء الشمس الذي أخذ يشتد.

«أتشعر أنك قادر على السير لمسافة طويلة بعض الشيء؟»، سأله بيرنز.

- أجل.
- حسنًا، يمكننا أن نتبع ذلك الدرب.

سارا مسافة أربعة أميال أو خمسة نحو الداخل، فانتهى الدرب بهما إلى دغل تلعق فيه ألسنُ الفطر الذهبية الكبيرة الأشجارَ، ويتهشم مهادٌ من الأوراق الميتة تحت الأقدام. ولمفاجأة ريڤرز، توقفا عند حانة في طريق العودة، لكن لم يكن يتوفر فيها طعام. كان ظاهرًا أن بيرنز يرغب في الشرب، وشرب،

فتوردت وجنتاه في أثناء ذلك ونزع إلى الهذر، بيد أنه لم يأتِ على ذكر شيء بخصوص مرضه.

وصلا إلى المنزل نهايةَ الأصيل، تؤلمهما كل عظمة وعضلة في جسميهما. من الواضح أن السيدة بوريل أوقدت النار قبل مغادرتها، وظلت جذوتُها قابلةً للإنقاذ، في رمقها الأخير. جثا ريڤرز أمامها، فدسَّ مزقًا من عبوة حبوب بين القضبان وراح ينفخ عندما نهض لسان لهب. «ألديك أي جرائد؟».

«كلا»، أجابه بيرنز.

لا، قال ريڤرز في قرارته، يا له من سؤال سخيف. حالما اتقدت النار جيدًا، خرج ريڤرز واشترى الكعك والبسكويت من أجل الشاي، الذي قدَّمه بنفسه أمام النار، وراح يأكل بحماسة دون أن ينظر كي يرى ما إذا كان بيرنز يأكل أم لا. لقد أكل، جالسًا على بساط المدفأة، يشبك ذراعيه اللتين لوَّحتهما الريح حول ركبتيه، وضوء النار يلعب على وجهه.

بعد أن حملا الأطباق وأعاداها، استأذن ريڤرز في العمل بضع ساعات. كان يكتب أطروحةً عن كبت التجربة الحربية يُفترض به أن يسلمها للرابطة الطبية البريطانية في ديسمبر، وهو يعلم أن الوقت سيكون ضيقًا للغاية ما إن يرجع إلى كريغلوكهارت. باشر عمله على الطاولة عند النافذة، مديرًا ظهره إلى الغرفة. استهل بقراءة ما كتبه حتى الآن حول الآثار البغيضة التي تلي محاولة المرضى كبتَ ذكرياتهم عن التجربة الحربية، وكان على وشك بدء الكتابة حين خطر له أنه موجود في غرفة واحدة مع رجل يفعل ذلك بحذافيره.

لماذا أساير الأمر؟ سأل نفسه. أحد الأجوبة -الجواب السهل- كان أنه لم يعد طبيب بيرنز، لقد بات اختيار طريقة تعامل بيرنز مع مرضه يرجع إليه هو نفسه. لكنه -بالمقابل- كان يساير الكبت في كريغلوكهارت أيضًا؛ كلما حاول أن يطبق على بيرنز نفس طرق المعالجة التي يستعملها مع الآخرين، والتي كانت تنجح في معظمها، كانت جرأته تخونه. لقد أخبر نفسه أن سبب ذلك يعود إلى خصوصية تجربة بيرنز، خلوها الكامل من أي جانبٍ مشرقٍ معوِّضٍ يمكن للعقل أن يدركه ويتشبث به فيما هو يشد أزر نفسه لمواجهة الرعب كاملًا. لكن هل كانت تجربة بيرنز أسوأ من تجارب الآخرين حقًّا؟ أسوأ

من زحف جنكينز بين أوصال جثة صديقه المقطعة كي يجمع متعلقاته الشخصية ويرسلها إلى عائلته؟ أسوأ من تجربة پراير؟ *ماذا يفترض بي أن أفعل بحبة الحلوى الصلبة هذه؟*

الجثث كانت في كل مكان داخل الخنادق. استُخدمت لدعم المتاريس، لسند المداخل المتهتكة، لملء الفجوات في المماشي الخشبية. كثيرٌ من مرضاه رُوِّعوا من انطلاق الغاز المتحرر وهم يدوسون إحدى الجثث. لا شك أن ما حدث لبيرنز كان مجرد نسخة مقززة على نحو غير معتاد من تجربة مشتركة. ولقد سمحتُ له، فكر ريڤرز -كلا، هذا ليس عادلًا، ليس عادلًا *على الإطلاق*- لقد سمحتُ *لنفسي* أن أحول الأمر إلى... أسطورة من نوعٍ ما. وهذا لا يُغتَفر. لم يكن يتعامل مع يونان في بطن الحوت، وأكثر من ذلك: ولا مع المسيح في بطن الأرض، لقد كان يتعامل مع ديڤيد بيرنز، الذي أُقحِم رأسه في بطن جنديٍّ ألمانيٍّ ميت، وبات يحتاج بطريقة ما إلى المساعدة كي يعيش مع الذكرى.

استدار ونظر إلى بيرنز، الذي كان لم يزل جالسًا على بساط المدفأة، بيد أنه وجد لنفسه الآن كتابًا وأخذ يقرؤه، وراح لسانه ينتأ قليلًا من بين أسنانه. لما شعر بتحديقة ريڤرز، رفع رأسه وابتسم. اثنان وعشرون عامًا. كان المفروض أن ينشغل بشأن امتحانات التريبوس[1] واعتصار شجاعته كي يطلب من فتاةٍ أن ترافقه إلى حفل مايو الراقص. ومع ذلك، لم يزل ريڤرز -حتى الآن- يجد حرجًا من إثارة موضوع مرضه. لقد تمثلت ردة فعل بيرنز الغريزية في العودة إلى هذا المنزل، لكي ينسى. وقد شُهِد شيءٌ من التحسن في ظل هذا النظام، نهارًا على الأقل، دون الليل كما هو واضح. لو أراد أن يتكلم سيتكلم، قال ريڤرز لنفسه، واستدار عائدًا إلى أطروحته.

ذلك المساء ذهبا إلى الحانة، ما أثار مفاجأةَ ريڤرز في الواقع. فوجئ لأنه كان يَفترض أن بيرنز في عزلة هنا، لكن ظهر أن جميع المحليين يعرفونه. لقد شاهدوه يكبر، صيفًا بعد صيف. عائلته كانت تقيم هنا حين اندلعت

(1) امتحانات التريبوس: اسم يُطلق على الامتحانات التحضيرية أو النهائية في جامعة كامبريدج، وحفلات مايو الراقصة هي حفلات تقيمها كليات كامبريدج في نهاية العام الدراسي. (المترجم)

الحرب، وبيرنز التحق جنبًا إلى جنب مع معظم الشبان المحليين. جميعهم يتذكرونه مرتديًا زيَّه، في أيام الحرب وأسابيعها الأولى، ولعل ذلك كان ذا شأن عظيم. في لندن، كما قال بيرنز، خلال خروجه الأول بملابس مدنية، قُدِّمت إليه ريشتان بيضاوان[1].

أما هنا، حالما دفعا باب الحانة ودخلا، تلقى تهليلًا مرحِّبًا من عدة أشخاص، ولا سيما من رجل بعينه: «أولد كليغ». كليغ لديه عينان زرقاوان راشحتان، جفَّ ما ينز منهما متحولًا إلى قشور خشنة تجمعت عند فَودَيه، وثلاث أسنان بُنية لكنها قوية جدًّا، وبقع لا يمكن تمييزها على بطنه، إضافةً إلى بقع أخرى -مميزة للغاية- إلى الأسفل. حديثه مُطعَّم بأقوال مأثورة سوفولكية لاذعة، إلى درجة جعلت ريڤرز يشتبه بتعمُّده المحاكاة الذاتية الساخرة، إما ذاك وإما التضليل بالأحابيل والمزاح العابث. وحالما اكتشف أن ريڤرز مهتم بالفلكلور، انغمس في الحديث تمامًا. أمضى ريڤرز أمسيةً ممتعة بالكامل، عُرِّف خلالها إلى فلكلور ريف سوفولك. وبحلول موعد الإغلاق، كان قد اقتنع أن كليغ ربما يكون أقل الرواة الذين تعامل معهم موثوقيةً على الإطلاق، نظرًا إلى تهويماتٍ واسعة الخيال لا يدانيه فيها أيٌّ من الميلانيزيين. «هذا الرجل محتال أفَّاق»، قال حين غادرا الحانة.

غير أن بيرنز خالفه الرأي: «ليس محتالًا، بل هو أزعر. على أي حال، ما دام سيعلمني تشذيب الحجارة فلستُ مهتمًّا بغير ذلك».

كان الطقس قد انقلب في الصباح التالي. عند الفجر، ظهر شريط من الأزرق الصافي على الأفق، وأخذ يبهت إلى الأصفر، لكن السماء اكفهرت بسرعة، إلى أن تكوَّمت الغيوم عند الضحى واتشحت بلونٍ كبديٍّ، وأصبح البحر داكنًا مثل الحديد. لقد اشتدت الريح خلال الليل، فكنست آخر ما تبقى من غشاوة الضباب. تواردت أول الأمر في هبات صغيرة، رفعت السجادة

---

(1) خلال الحرب العالمية الأولى، أُنشئت في بريطانيا حركة عمدت إلى تشجيع النساء والفتيات على تقديم ريشة بيضاء لكل شابٍ لم يلتحق بالجيش (لا يرتدي زيًّا عسكريًّا) يصادفنه في الطريق. والدلالة مستمدة تاريخيًّا من مصارعة الديوك، إذ كان يُعتقد أن الديك الصغير الذي في ذيله ريشة بيضاء يكون جبانًا. (المترجم)

الرقيقة في الردهة وحركت غبار الزوايا في دوامات، ثم تحولت إلى عصفات شكلت موجات على سطح مصب النهر، وأخذت تهز اليخوت حتى أحالت خشخشةَ حبال الأشرعة هيجانًا، في حين انتفخت الأمواج الضخمة على الشاطئ مثل عضلات حيوان هائل، ترتفع لتتوجها ذرى تتدلى مزبدةً على كامل أطوالها، قبل أن تنقلب فتتكسر في دويٍّ هادر وينفجر منها الرذاذ المتطاير.

اشتغل ريڤرز على أطروحته طيلة الصباح، يرفع رأسه من حين إلى آخر ليجد قطرات المطر تبرقش النافذة. بيرنز ظل نائمًا حتى وقت متأخر، إذ كان قد مرَّ بليلة سيئة أخرى ملأها الضجيج. أطل قبيل الظهيرة تمامًا، ينتفض راعشًا بعينين ورديتين، وخبَّر أنه ذاهب إلى حانة *وايت هورس* كي يرى كليغ ويرتب موعدًا محددًا لجلسة تشذيب الحجارة. لقد بدأ يتضح أن كليغ شخص يصعب استخراج حقٍّ أو باطلٍ منه.

«ازنقهُ عند جَنْبةِ جَوْلَق[1] يا جاري»، قال ريڤرز في تقليدٍ مقبول لصوت كليغ: «حينها لن يستطيع التراجع».

- هذا ما تفعله بالفتيات في موسم القُبَل يا ريڤرز.
- حقًا؟ حسنًا، ما كنتُ لأبادر إلى تقبيل كليغ، أشك أن يكون تشذيب الحجارة يستحق هذا.

كان قد انهمك في أطروحته مجددًا قبل أن يغادر بيرنز المنزل.

رجع بعد ساعة، وكان في الواقع يبدو مسرورًا من نفسه. «الخميس».

- جيد.
- قلتُ لعلنا نخرج ونتمشى.

نظر ريڤرز إلى الزجاج الذي يقعه المطر.

«لقد هدأ الطقس بعض الشيء»، قال بيرنز بنبرة غير مقنِعة تمامًا.

«طيب، يمكنني الاستفادة من بعض الاستراحة».

---

(1) الجولق: نبات مزهر شائك دائم الخضرة، وبناءً على أنه يظل مزهرًا طيلة العام على الأغلب، درجت مقولة: «حين تسقط أزهار الجولق، يكون موسم القُبَل قد انتهى». والجَنْبة: ما كان بين الشَجَر والبَقْل من النبات. (المترجم)

كان البحر يتدافع سريعًا. أكواخ الصيادين خالية، وقد جُرَّت القوارب إلى ناحية مرتفعة بعد حدود الحصباء، وجُمِعت شباك الصيد في أكوام داكنة خلفها. إما أنهم لم يخرجوا اليوم وإما أنهم عادوا مبكرًا، إذ لم يرَ ريڤرز أحدًا منهم يرِد المكان. حتى طيور البحر بدا أنها استقرت على الأرض، فالتمَّت على نفسها تلوذ بين القوارب، وتراقب البلدة بأعين كهرمانية لا ترف.

قبالة هذا البحر، بدت اليابسة هشة. بل كانت هشة. إلى الشمال، الجروف مجلوَّةٌ تمامًا، وإلى الجنوب، طُمِرت اللافتات بالحصى حتى أعناقها. وقاعة المجلس الشعبيِّ الصغيرة التي كانت تنتصب في مركز البلدة باتت الآن على حافة البحر.

تابعا سيرهما حتى بلغا قرية ثوربنيس، ثم قفلا عائدَين، دون أن يتكلما تقريبًا، بما أن الريح خطفت الأنفاس من فميهما. لقد غطى البحرُ شريط الرمل النحيل، لذا تعيَّن عليهما السير على رف الحصى شديد الانحدار، وكانت تلك عملية تفتقر إلى التوازن قدحت زناد الألم في ظهريهما إضافةً إلى سيقانهما.

استغرق مشوارهما ساعتين، ذهابًا وإيابًا، وكان ريڤرز يتطلع بشوقٍ إلى النار وكعك الشاي المحمص، إن استطاع تدبيره. يمكنه أن يتغاضى عن الفطور والغداء والعشاء، لكن شاي الأصيل مهم. داست جزمتُه شيئًا طريًا، وإذ أطرق برأسه وجد المكان مملوءًا برؤوس أسماك قُدٍّ، ثلاثين رأسًا أو أكثر، بغلاصم مبقعة بالدماء وأعين محدقة. لم يحرك فيه الأمر أكثر من رعدة طفيفة، فمن الواضح أن الصيادين انتزعوا أحشاء صيدهم ورموا الفضلات، بيد أن بيرنز كان قد توقف متخشبًا خلفه وراح يحدق إلى الرؤوس بفم يرتعش. فيما راقبه ريڤرز، أخذ يهز رأسه إلى الخلف بعنف، نفس الحركة التي كانت تتكرر كثيرًا أول وصوله إلى كريغلوكهارت.

«لا بأس»، قال لريڤرز الذي عاد من أجله، لكن كان واضحًا أن في الأمر بأسًا، وبأسًا شديدًا.

وصلا إلى المنزل. أعد ريڤرز الشاي، غير أن بيرنز لم يستطع أن يأكل أي شيء.

بعد الشاي، خرجا وجمّعا أكياس الرمل أمام الأبواب، فعانيا مع الأكياس الثقيلة تحت المطر والريح الشديدين ثم عانيا من جديد لإغلاق المصاريع المخصصة للعواصف. الهواء كان مملوءًا بالرذاذ والزبد المتطاير.

«كان ينبغي أن نفعل ذلك سابقًا»، قال بيرنز وهو يمسح ماء المطر عن وجهه ويرمش بعينيه في ضوء النار. كان منشغلًا جدًّا بالتظاهر أن كل شيء طبيعيٌّ. جلس على بساط المدفأة، في موضعه المفضل، فيما الريح تجلد البيت وتصارعه، وراح يتحدث عن جلسة الشراب برفقة كليغ إلى جانب عدة موضوعات نميمة محلية. لكنه كان يقفز من موضوع إلى آخر، مفترضًا أن الروابط واضحة في حين لا تكون كذلك أغلب المرات. حالما تجاوز صدمة رؤية رؤوس السمك، بدا مزاجه قد راق تقريبًا. قال أكثر من مرة إنه يحب العواصف، وبدا في بعض الأحيان مصغيًا إلى شيء آخر غير هدير الريح والبحر.

مغمضًا عينيه، كان بوسع ريڤرز أن يتخيل البلدة، وقد سُلِّمَت بكاملها للعاصفة، تتمايل في مد الظلماء مثل قشرة بيضة تطير دون جوهر أو قوة تحميهما. فقد حديثُ بيرنز ترابطَه أكثر فأكثر، وبات اهتزاز رأسه العنيف أكثر علانيةً. لم يكن تكديس أكياس الرمل، متبوعًا بأقرب ما تستطيع الطبيعة ابتكاره إلى القصف، وصفةً قد يوصي ريڤرز بها. كان مهيأً للسهر مع بيرنز، إن هو أراد البقاء مستيقظًا، لكن بيرنز بدأ يتحدث عن السرير أبكر من المعتاد. أغلب الظن أنه تناول مهدئات البروميد. إن ريڤرز ليود أن ينصحه بقطعها، بما أنها لا تُقدم أي عون في ما يخص الكوابيس كما هو جليٌّ، لكنه مصمم أن يترك لبيرنز وحده فتح موضوع مرضه.

انتهت الأمسية دون أن يقال أي شيء ذي صلة. خلد ريڤرز إلى السرير ونزع ملابسه في الظلام، مستمعًا إلى عويل الريح، وتخيل بيرنز في الغرفة فوق، يستمع هو الآخر. قرأ لبعض الوقت، إذ ظن أنه ربما يكون متوترًا أكثر من أن يواتيه النوم، لكن الهواء الطلق والكفاح مع الريح على طول الطريق الشاطئية نحو ثوربنيس كانا قد أنهكاه. بدأ جفناه يرتخيان، فأطفأ الضوء. المنزل يَصر ويئن بأكمله، ممتطيًا العاصفة مثل سفينة، لكنه استمرأ ذلك.

لطالما وجد النوم بعمق على متن سفينة أمرًا ممكنًا، مع أن النوم كثيرًا ما يتملص من بين يديه على اليابسة.

أيقظه ما اعتبره من فوره انفجارَ قنبلة. وبعد أقل من دقيقة، وهو ما يزال يبحث بيديه عن مفتاح الضوء، سمع دويًا ثانيًا واستطاع هذه المرة تحديد أنه صوت راجمة إنذار؛ هو قارب الإنقاذ دون شك. كان يهم بالنهوض من السرير والذهاب نحو النافذة عندما تذكَّر أنه لا يحسن به فتح المصاريع على الأرجح، فصفير الريح وانهمار الأمطار يُنبئانه أن العاصفة لم تهدأ بأي شكل من الأشكال. قلبه يخفق بشدة غير منطقية، إذ لم يكن ثمة ما يدعو إلى الخوف. افترض أن سبب ذلك هو قدومه مؤخرًا من لندن، حيث لا ينقطع الحديث عن الغارات الجوية، ما جعله يعتبر الصوتَ صوت قنبلة دون تردد للوهلة الأولى.

استلقى من جديد، وبعد لحظة أو اثنتين سمع وقْع أقدام تسير مارَّةً بباب غرفته. من الواضح أن بيرنز استيقظ هو الآخر، ولعله ينزل الآن كي يُعد لنفسه كوبًا من الشاي، بل ربما يظل صاحيًا لما تبقى من الليل.

كلما فكر ريڤرز في جلوس بيرنز بمفرده في المطبخ، زادت قناعته بأنه يحسن به النهوض. لقد انضم وقْع الأقدام الراكضة الآن إلى أصوات العاصفة، ولن يستطيع الرجوع إلى النوم بسهولة على أي حال.

كان المطبخ خاويًا، وبدا على حاله كما تركاه الليلة الماضية. أقنع نفسه أنه توهم، وأن بيرنز لم يزل في فراشه. بات مصحوبًا بشيء من القلق الآن، وربما دون داعٍ، فصعد على الدرج وألقى نظرة داخل غرفة بيرنز. الملاءات ملقاة جانبًا، والسرير خالٍ.

لا فكرة لديه عما ينبغي فعله. ما أدراه أن الخروج للمشي في منتصف الليل -أو الثالثة صباحًا بالأحرى- ليس من عادات بيرنز حين تشتد عليه الليالي؟ بيد أنه لن يخرج في مثل هذه الليلة من غير ريب. سمع ريڤرز صيحات، تبعها المزيد من وقْع الأقدام الراكضة. من الجليّ أن أشخاصًا آخرين قد خرجوا في هذه الليلة. عاد إلى غرفته بسرعة، ارتدى جوربين وانتعل جزمته ووضع معطفه عليه، ثم خرج إلى العاصفة.

لقد تجمعت مجموعة صغيرة من الشخوص حول قارب الإنقاذ، ثلاثة منهم يحملون فوانيس عواصف. أضاءت حلقات النور المتداخلة مشمعاتٍ صفراء تتلألأ من البلل، فيما كافح الرجال لإزالة الحصى عن الألواح الخشبية التي تستخدم لإنزال القارب إلى الماء. المطر الفضيُّ ينهمر بخطوط مائلة داخل الرقعة المضاءة، وخارجها تتلاشى أكوام الحصى الشاحبة ويبتلعها الظلام.

ثمة زمرة من المتفرجين تجمعت قرب الكوخ، نائيةً عن الشخوص المنهمكة في العمل حول القارب. إذ اقتنع أن بيرنز لا شك بينهم، ركض ريڤرز نحوهم بنية الانضمام إليهم، لكنه حين نقّل ناظريه من وجه إلى آخر لم يجد بيرنز هناك. كانت هنالك امرأة خالَها مألوفةً، لكن لم يستطع التعرف عليها من فوره، أشارت نحو السباخ الواقعة جنوب البلدة.

وفيما استدار وبدأ سيرَه السريع باتجاه السباخ، كان واعيًا على نحو باهت بالقارب ينزل إلى الماء، والأمواج تجيش حوله. غادر الظلة التي توفرها آخر البيوت، وكادت الرياح الهادرة في أنحاء السباخ تطيح به عن قدميه. تحدَّر عن الدرب وسار بمحاذاة النهر حيث اتقى العاصفة قليلًا، رغم أن الريح ظلت تعوي وتنقر حبال أشرعة اليخوت بصوت لم يسمع له نظيرًا من قبل. كانت رؤيته واضحة إلى حدٍّ ما معظم الوقت، ثم تحرر القمر قليلًا من أسمال غيمة سوداء، فألقى له ظلَّه وظل البرج فوق الوحل المتلألئ.

ناظرًا إلى البرج، فكر ريڤرز مرةً أخرى كم هو واطئ وعريض وغير لافت المظهر، وكم هو نذير شؤم مع ذلك. تشابهٌ كان بالكاد قد عكّر فكرَه قبل أن يعاوده الآن بقوة أكبر: هذه الأرض اليباب الموحلة، أحواض التجميع هذه التي تعكس ضوءًا باهتًا نحو السماء، وحتى ذلك البرج، كل هذا يشبه فرنسا، يشبه ميادين القتال. وربما كان التشابه في الليل أشد مما هو في النهار، فهنا بوسعك نهارًا أن ترى أشياء تنمو، في حين ليس ثمة ما ينمو هناك.

- *كانوا يخافون دائمًا أن نعلق في الأقبية.*

- *أظن أن الماء يغمرها، أليس كذلك؟ عند ارتفاع المد؟*

تسلق ريڤرز عائدًا إلى الدرب، وحاول تحديد المكان الذي بلغه المد وإذا ما كان يتقدم أم ينحسر، لكنه لم يستطع إلا أن يسمع تحطُّم الأمواج ويحس برذاذ الزبد المتطاير على وجهه. ورغم الوحل الذي يعيق جزمته والألم في

فخذيه، انطلق يركض. لدى اقترابه من البرج، جعلته هبةٌ أقوى يترنح ويحيد عن الدرب. راح ينزلق ويتخبط في الوحل، وهو ينادي على بيرنز، إلا أن الريح خطفت النداء من فمه وحملته إلى قلب الظلام الصافر.

تابع انزلاقه حتى الشاطئ. تقدمت موجةٌ وسحبت الحصى خلفها، لكن المدخل إلى الخندق كان سالكًا. تردد وهو ينظر إلى جوف الظلام، خائفًا أن تجعله موجةٌ أعتى من المعتاد يعلق في الداخل. صاح مناديًا: «ديڤيد»، لكنه كان يعلم أن أحدًا لن يستطيع سماعه، وأن عليه أن ينزل إلى جوف الظلام الدامس إن كان ينوي إيجاده.

أخذ يتلمس طريقه داخل الخندق، مثبتًا نفسه إلى الجدار. كان الجو في الداخل بالغ الرطوبة والبرودة، والرائحة شنيعة لا تطاق، ما جعله يفكر أن المد ربما بلغ ذروته بالفعل وبدأ الآن ينحسر. لم يكن بمقدوره أن يرى شيئًا أول الأمر، لكن القمر سرعان ما خرج من خلف ركام الغيم، فأبصر بيرنز جاثمًا على نفسه عند جدار الخندق. ناداه: «ديڤيد»، فأدرك أنه يصيح دون داعٍ إلى ذلك. حتى عويل العاصفة بدا هامدًا داخل ملاذ الخندق. لمس ذراع بيرنز، فلم يأتِ الأخير بحركة ولا رفَّ له جفن. كان شاخصًا يحدق إلى البرج، الذي يومض بلون أبيض، مثل عظام جمجمة.

«هيا بنا يا ديڤيد».

بدا جسده مثل الصخر. أحكم ريڤرز ذراعيه حوله وضمَّه إليه، يهزه ويهدئ من روعه. نظر إلى البرج الذي لاح وطيئًا ينذر بالشؤم فوقهما، وقال لنفسه: لا شيء يبرر *هذا*، لا شيء.. لا شيء.. لا شيء.. ظل جسد بيرنز متخشبًا بين ذراعيه، وكان ريڤرز يعي أنه قد لا يفوز إن اضطر إلى خوض معركة معه. بيرنز مهزول إلى حد مريع، لكنه في الوقت نفسه أصغر منه بثلاثين عامًا. استسلامه -حين جاء- جاء بمنزلة صدمة تقريبًا، فجأةً اتخذ جسدُه لدونةَ طفلٍ حديث الولادة أو مطاوَعةَ دمية مصنوعة من الخرق. انهار على ريڤرز وبدأ يرتجف، وبذلك صار من الممكن أن يجره إلى خارج الخندق -بين اقتياد ودفع- نحو الأمان النسبيِّ الذي يشكله الدرب.

جالسًا إلى طاولة المطبخ وقد تلفَّع ببطانية، قال بيرنز: «لم أبدُ قادرًا على الخروج من الحلم. استيقظت، كنت *أعلم* أنني مستيقظ، أستطيع أن أتحرك، ومع ذلك... كان لم يزل هناك. وجهي كان يقطر، وبوسعي الإحساس بطعمه»، حاول أن يضحك: «ثم انطلقت راجمة الإنذار اللعينة».

لا توجد أضواء كهربائية، لا بد أن خطوط الطاقة تعطلت. كانا يتحدثان على ضوء مصباح زيت تنبعث منه رائحة، ودخانٌ يترك لفائف سوداء معلقةً في الهواء مثل علامات الاستفهام.

«أظن أننا في غنًى عن هذا الآن»، قال ريڤرز وهو يتجه إلى النافذة ويسحب الستائر. فتح النوافذ والمصاريع، كانت العاصفة قد خمدت تقريبًا. نزَّ ضوءٌ واهٍ إلى داخل الغرفة، فحط على عينَي بيرنز الحمراوين ووجهه المنهَك.

«لمَ لا تخلد إلى السرير؟ سأحضر لك قنينة ماء ساخن إن كان لديك شيء من هذا القبيل».

رافقه وأشرف على استقراره في سريره، ثم خرج إلى دكاكين الجِزارة في شارع هاي ستريت، التي كان قد انتبه إلى امتلائها بالبضاعة وتفاجأ منه، واشترى لحمًا مقددًا ومقانق وكُلىً وبيضًا، ثم عاد بها إلى المنزل وقلاها. وبينما هو يحرك الدهن الساخن فوق البيض، تذكر ردة فعله وهو ينظر إلى البرج. *لا شيء يبرر هذا*، قال لنفسه آنئذٍ: *لا شيء.. لا شيء.. لا شيء..* سَرَّه في الواقع أنه ليس مضطرًّا إلى التصدي لمهمة تفسير تصريحه هذا لسيغفريد.

جلس إلى الطاولة وبدأ يأكل. كان ما يزال منهمكًا في مطاردة آخر لقمة سيالةٍ من صفار البيض بكسرة خبز محمص مثلثة حين دخلت السيدة بوريل. «استسلمتَ، أليس كذلك؟»، أضافت بعد أن أفرغت كيسين من المشتريات: «قلت لنفسي إنك لن تصمد».

– هل عاد القارب؟

– ليس بعد، أنا أشغل نفسي.

صعد ريڤرز كي يتفقد بيرنز فوجده ما يزال نائمًا. كانت الغرفة ملآنة بالكتب؛ مكدسة على الطاولات والكراسي، وبعضها ساقط على الأرض. العمارة الكنسية، الحرف الريفية، علم الطيور، علم النبات، إضافةً إلى الإلهيات- الأمر

الذي وجده مفاجئًا بعض الشيء. تساءل إذا ما كان ذلك تعبيرًا عن الإيمان، أم بحثًا عنه، أم ولعًا بمسألة غياب الله ببساطة.

من الأسباب التي حتمت تكديس الكتب على الطاولات والكراسي امتلاءُ خزانة الكتب أصلًا بكتب أخرى: منشورات سنوية للصبيان، قصص مغامرات هينتي، الكشافة للصبيان. إضافةً إلى الألعاب: اللودو، السلم والثعبان، مضرب للكريكت الشاطئي، مجموعات من الحصى والأصداف، شريط من طحالب الفوقس الحويصلي. لا بد أن كل هذه الأغراض قد جُمعت وأُحضِرت إلى هنا صيفًا تلو الآخر، ثم كبر عليها لكنه لم يتخلص منها، حتى تحولت الغرفة إلى طِرسٍ[1] شاهدٍ على الحياة الشابة التي احتوتها جدرانُها. نظر إلى وجه بيرنز النائم، ثم خرج ونزل على رؤوس أصابعه.

عاد قارب الإنقاذ في وقتٍ لاحق ذلك الصباح. أطل ريڤرز من نافذة غرفة المعيشة فرآه يرسو عند حافة الماء، في الفسحة الضيقة بين لفائف الأسلاك الصدئة المتشابكة. خرج ليشاهد.

كان الرجال يبسطون المزالق الخشبية المسطحة التي سيُرفع القارب على مهل بواسطتها ليُعاد إلى مكانه، وقد تجمعت زمرة من القرويين -معظمهم من أقرباء طاقم القارب- وراحوا يتحدثون بأصوات منخفضة. البحر يتلاطم، لكن دون أي تهديد من النوع الذي ساد الليلة الماضية. بدأ رذاذ خفيف يتساقط، ملبِّدًا وبرَ قمصان الرجال وقبعاتهم الصوف.

حين رجع إلى المنزل، وجد بيرنز يتقلب في فراشه دون أن يكون قد نهض بعد.

«هل عادوا؟»، سأله.

«أجل، إنهم يسحبون القارب إلى البر الآن».

نهض بيرنز من سريره واتجه إلى النافذة. كان الرذاذ قد تحول إلى انهمار، والمطر الضبابيُّ يغطي قارب الإنقاذ -الذي قطع نصف طريقه- بما يشبه الشراشف.

(1) الطِرس: صحيفة أو لوح مُحِي ما كُتب عليه ليُكتب غيره. (المترجم)

- لا بد أنه حِملٌ انزاح عن صدر السيدة بوريل، فلديها ابنان في طاقم القارب.

- أجل، قالت هذا.

- أتقصد أنها تكلمت؟

- لقد حظينا بدردشة لا بأس بها، لم أكن أعلم أن قارب الإنقاذ شأنٌ عائليٌ.

«أوه، بلى. يمكنك أن ترى ذلك على النصب التذكاريِّ في الكنيسة. ليست فكرة جيدة بحق، من وجهة نظر المرأة»، سكوت طويل، أضاف بيرنز بعده: «تجد الشيء نفسه في الكتائب، إخوة يلتحقون معًا».

سكن ريڤرز تمامًا في مكانه، هذه أول مرة على الإطلاق يقدم فيها بيرنز أي معلومة بشأن فرنسا طواعيةً. حتى في كريغلوكهارت، حيث لم يكن بمقدوره تحاشي الحديث عن ذلك بالكامل، كان يتعين انتزاع الحقائق المجردة بخصوص خدمته الحربية منه انتزاعًا.

«تكون منكبًا على كتابة الرسائل، فإذا بك تُفاجأ أنك كتبت الاسم نفسه مرتين».

قال ريڤرز بحذر: «لا بد أنها واحدة من أسوأ المهام».

«المرء يتعود الأمر، ذات مرة كتبتُ لثمانين بالمئة من السَّرِيَّة».

صمتٌ طويل. بدأ ريڤرز يظن أنه أنهى ما في جعبته، لكنه لم يلبث حتى قال: «كان هذا في اليوم الذي سبق معركة السوم. خرجوا يتقدمون، فاعترضهم ذلك الحاجز الصخريُّ الهائل اللعين. لم يكن مرئيًا من الخندق لأنه محاط بشجيرات العليق، كما لم تتضمنه الخريطة. احتشد الجميع قرب بعضهم، وحاولوا اجتيازه. كان يومَ سعدٍ لجنود المدفعية الرشاشة الألمان، أطلقوا العنان لأنفسهم، والقلة القليلة الذين استطاعوا اجتياز الحاجز تمزقوا إربًا إربًا عند الأسلاك الشائكة. جاء الجنرال في اليوم التالي وقال: «رباه، هل حقًا أمرنا الرجال بالهجوم واجتياز ذلك الحاجز؟». من الواضح أنه أُريد لنا أن نكون وسيلة إلهاء عن الهجوم الرئيسيِّ، الذي وقع أبعدَ نحو الجنوب».

ببطء، بدأ بيرنز يحكي. لقد رُقّيَ إلى رتبة نقيب في الحادية والعشرين من عمره، وتزامن ذلك مع التحضيرات لحملة السوم. إضافةً إلى جميع التوترات الأخرى، كان يعي انتشار اعتقادٍ في السَّرِيَّة مفادُه -ولو لم يُجاهَر به- أنه أصغر سنًّا من أن يتولى القيادة، رغم تمتُّعه بأقدمية الخدمة.

قصةٌ اعتاد ريڤرز سماعها كثيرًا: خوفٌ صحيٌّ أفسح مكانَه لعدم الاكتراث، الذي بدوره أفسح مكانه لخوفٍ غامرٍ متواصل، إضافةً إلى إدراكٍ متزايد أن الانهيار وشيك. «كنت أخرج في جولة خفر كل ليلة»، قال بيرنز: «تقول لنفسك إنك تصنع قدوةً حسنة، أو هراء من هذا القبيل، لكن الحقيقة بعيدة عن ذلك كل البعد. لا يمكنك أن تترك نفسك تعلم أنك تريد أن تصاب، إذ لا يفترض بالضباط أن يفكروا بهذه الطريقة. وكما ترى، جولات الخفر تشكل ثاني أفضل فرصة -بعد المعارك- للتعرض لإصابة جيدة. ففي الخنادق، تكون الإصابة بشظايا أو في الرأس. أما في جولات الخفر، إن حالفك الحظ، تحصل على ثقب صغير أنيق نظيف في الذراع أو الساق. لقد رأيتُ رجالًا يبكون من جرح على هذه الشاكلة»، ضحك: «يبكون بهجةً. على أي حال، لم يكن حظي كذلك. كانت الرصاصات تنعطف حولي، أقسم لك»، سكوت قصير: «كان سيحدث في كل الأحوال، أليس كذلك؟».

- الانهيار؟ أوه، بلى. يجب ألا تعزو انهيارك إلى تلك الحادثة بعينها.
- لقد تابعتُ طيلة ثلاثة أيام بعدها.
- أجل، أعرف.

استمر الحديث أكثر من ساعة. وحين شارف على الانتهاء، بعد جلوسهما صامتَين لبعض الوقت، قال بيرنز بهدوء: «أتعرف ما الذي مات المسيح بسببه؟».

بدت المفاجأة على ريڤرز، لكنه أجاب بالسرعة الكافية: «الاختناق. فالوضعية تجعل من المستحيل على الرئتين أن تتابعا انتفاخهما نهاية الأمر، ميتةٌ رهيبة».

«هذا ما أجده في غاية الفظاعة، أن يكون قد تعيَّن على أحدهم تصور تلك المِيتة. أقصد، ولو فقط في سبيل اختراعها كوسيلة إعدام. أتعرف ذلك

المقطع من الكتاب المقدس؟ «لأَنَ تَصَوُّرَ قَلْبِ الإِنْسَانِ شِرِيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ»[1]؟ لطالما تساءلتُ: لِمَ تناولَ الانتقادُ ذلك بالذات؟ لماذا تصوُّره؟ لكن هذا صائب تمامًا».

نزل ريڤرز كي يُعد الشاي، وكان يفكر أن شيئًا مثيرًا للفضول قد حصل خلال هذا الحديث. لقد استطاع بيرنز، للمرة الأولى، أن يُخضِع الجثة المتفسخة لنوعٍ من المناظرة. صحيح أنه لم يتوصل إلى التكلم عنها، لكنها على الأقل لم تمنعه -كما سبق وفعلتْ كثيرًا- من الحديث عن جوانب أخرى أكثر قابلية للتحمل في تجربته الحربية. مع ذلك، في الوقت نفسه، بدا أن الاستفظاع الذي يُحسه ريڤرز ذاته تجاه الحدث قد ازداد في واقع الأمر. كان هذا الحدث بالفعل مختلفًا في نوعه عن بقية التجارب المشابهة، هكذا قال لنفسه، ولو فقط بسبب ما نتج عنه من انحلالٍ كاملٍ للشخصية. هو يعز بيرنز كثيرًا، بيد أنه لا يستطيع أن يتوسم فيه أي أثر للصفات التي يجب أن يمتلكها في سبيل استحقاقه لتلك المرتبة القيادية المبكرة على نحو استثنائيٌّ. هذا لا يعني أن ييأس المرء من التعافي، فريڤرز يعلم تمامًا كم يمكن للمراحل الأولى من التغير أو الشفاء أن تكون شبيهةً بالتدهور. إن أنت شققتَ شرنقة حشرة، ستجد داخلها يرقةً متحللة. لن تعثر أبدًا على ذلك المخلوق الخرافيِّ (نصف يرقة - نصف فراشة)؛ وهو صورة رمزية ملائمة للروح البشرية، بالنسبة إلى أولئك الذين تدفعهم جبلّةُ عقولهم إلى السعي وراء رموز من هذه الشاكلة. كلا، إن سيرورة التحول تتألف بأكملها تقريبًا من الاضمحلال. في النهاية، بيرنز شابٌّ صغير السن. إن كان هذا اليومُ قد شهد بالفعل تغيرًا، استعدادًا لمواجهة تجاربه في فرنسا، إذًا فمن الممكن لحالته أن تتحسن. قد يصبح من الوارد حتى -في غضون سنوات قليلة- التفكير في استئنافه لتعليمه، وربما الانصراف إلى متابعة ذلك الاهتمام غير المتوقَّع بالإلهيات. رغم أن من الصعب رؤيته طالبًا في مرحلة ما قبل التخرج، لأنه فوَّت فرصته في أن يكون شخصًا اعتياديًا.



(1) سِفر التكوين 8: 21. (المترجم)

16

وصل ريڤرز إلى كريغلوكهارت في أواخر أصيل يوم عاصف آخر. يبدو أن هذا الخريف خزَّن في جعبته الكثير من مثل هذه الأيام، وراح يصب جامها بلا رحمة واحدًا تلو الآخر، مثل عرَّافة تفرد كُرُوتها القاتلة. لقد تساقطت الأوراق عن أشجارها، وطيَّرتها الريح في أنحاء ملاعب التنس، فرافقت ريڤرز -حين فتح الباب الدوار- إلى داخل الردهة.

بدا أن ثمة مباراة كرة قدم جارية، وأخذ حشدُ الظهور والأفخاذ المتصارعة يتفرق تدريجيًا ما إن انتبه أصحابها إلى ريڤرز الواقف هناك. على الأرضية ذات البلاط الأبيض والأسود قبعةٌ بُنية مستديرة، من الواضح أنها تخص أحد الزوار. نقل ريڤرز بصره بين الموجودين وعثر على ساسون. «على رسْلك مع القبعة يا ساسون»، قال وهو يمضي في طريقه نحو مكتبه.

وراءه، التقط ساسون القبعة -وقد غُلِب على أمره- وراح يلكمها كي يعيدها إلى حالة قريبة من شكلها السابق، ثم أرجعها إلى مكانها على العلاقة. وانسحب بقية لاعبي الكرة خلسة.

•

كان برايس واقفًا عند نافذة غرفته، يطل على ملاعب التنس التي تناثرت فيها أوراق الشجر. من موقعه عند الباب، خالَه ريفرز يبدو قد تقدم في السن، لكنه سرعان ما استدار وظهر مفعمًا بالطاقة كعهده الدائم.

«هل وصلتك رسالتي؟»، سأله ريفرز.

- أجل.

- لقد قلتُ إنني سأنتظر لأرى كيف تسير الأمور.

«اقبل الوظيفة حبًا بالله. واضح جدًّا كيف ستسير الأمور، لا أتوقع أن أكون هنا الشهر القادم»، ابتسم: «لكنهم قد يعيّنونك *أنت* بالطبع».

هز ريفرز رأسه: «كلا، لن يفعلوا ذلك. فانسجامي معك جليٌّ أكثر من اللازم».

- هل ستقبلها؟

- لا أدري، على الأرجح.

بل أكثر من «على الأرجح»، قال ريفرز في قرارته وهو يعود إلى غرفته. كانت فكرة كريغلوكهارت دون برايس لا تُطاق. جلس خلف مكتبه، وراح ينظر في أنحاء الغرفة الكبيرة مفرطة الألفة. كلما عاد إلى هنا في السابق، كان يحس إحساسًا بدنيًا بالنير يستقر فوق كتفيه، فيبدأ بإثقال كاهله ويَحُتُّ له جلدَه حتى قبل دخوله المبنى. لكن ليس هذه المرة. نظر إلى دفتر مواعيده المزدحم، واستطاع في الواقع أن يشعر ببعض العاطفة تجاهه. كان لتوفُّر عرض عملٍ في لندن، بما ينطوي ذلك عليه من إمكانية تواصلٍ أكبر مع علماء أنثروبولوجيا آخرين، تأثيرٌ متناقض جعله يدرك كم كان يستمتع بعمله هنا. لقد بات على نفس القدر من الأهمية بالنسبة إليه، وكان قد بدأ يفكر في طرق يمكنه خلالها أن يوفق بين مجالَي الاهتمام. التكثيف والإزاحة[1] اللذان يصادفهما المرء في أحلام المرضى هنا... ألا يمكن أن تكون هاتان الآليتان فعالتين ولهما شأنهما أيضًا في أساطير الشعوب البدائية وطقوسها؟

---

(1) التكثيف: هو أن تختصر فكرةٌ واحدةٌ (صورة أو ذكرى أو خاطر) أو موضوعٌ حُلمي واحد روابط وأفكارًا عديدة أخرى وتجمع بينها. الإزاحة: آلية دفاع لا واعية يستبدل العقل وفقًا لها هدفًا جديدًا بالأهداف التي يشعر أنها خطرة أو غير مقبولة في شكلها الأساسيّ. ويعود أصل المصطلحين كليهما إلى علم النفس الفرويدي. (المترجم)

كيفما كان، إنها فكرة تستحق أن يُسبَر غورها. لكن هذه التوافيق الجديدة لم تخطر له إلا لأنه ما عاد ينظر إلى عمله هنا بوصفه وسيلة تعطيل عن عمله «الحقيقي». بل على العكس، قال لنفسه باسطًا يديه فوق مكتبه، فالعمل الذي ينجزه في هذه الغرفة هو العمل الذي قُدِّر له أن ينجزه. وكالعادة، بعث هذا الإقرار السلام في نفسه.

«لقد مررنا من أمام منزلكم في الحقيقة».

«كان ينبغي لك أن تعرج»، قال ساسون: «ما كانت والدتي لتتشبث بالرسميات حين يتعلق الأمر بك، فهي تعتبرك «منقذ اسم العائلة» من «خزي السلمية»».

«لعله حكمٌ سابق لأوانه؟».

لا جواب.

- هل استطعتَ أن تفكر...؟

- لم أستطع أن *أفكر* على الإطلاق. اسمع يا ريڤرز، أنا لم يسبق لي أن طلبت أي شيء منك، لم أطلب أو أنتظر أن أُعامَل بشكل مختلف عن أي أحد آخر قط.

«هذا ما آمله بطبيعة الحال»، قال ريڤرز: «فلستُ أدري على أي أساس يمكن أن يحدث ذلك».

كبح ساسون نفسه فجأةً: «حسنًا».

- لا، ماذا كنت تريد أن تقول؟

- كنت أريد أن أشير إلى أن الرجل الذي في غرفتي يقودني إلى جنون مطلق وشيك، لكن هذا ليس مهمًا.

- يمكن لهذا أن يكون أساسًا موجِبًا لتبديل غرفة، إن صح، في حالتك أنت أو أي شخص آخر. ما الذي يفعله؟ أيعاني مشكلات في النوم؟

- بل يغطُّ في نومه مثل رضيعٍ حديث الولادة، لو أن الرضع حديثي الولادة يشخرون.

- إذًا ما الذي يفعله؟

- يبشر بعزاءات الثيوصوفية باستخدام نسخته الخاصة الفذة من الإنجليزية القروسطية الزائفة.

- أتفهّم كيف يمكن لهذا أن يكون مثيرًا للسخط، أعطِني مثالًا.

- أحد أصدقائي، رالف غريفز[1]، عازف... عجبًا! بل كان عازف بيانو جيدًا. لقد بُترت إحدى ذراعيه مؤخرًا، ولا نفع يُرتجى من الأخرى تقريبًا. أتعرف ماذا قال فوذرزجيل؟ قال: «هذا سيساعده على الارتقاء الروحي».

- ربما كان من الحكمة ألا تخبره بالقصة؟

صمت.

- ففي النهاية، لا شك أنه كان لديك تصورٌ حول نوع الجواب الذي يُحتمل أن تلقاه؟

- لا يمكنني كتم كل شيء طوال الوقت.

- انظر، من المقرر أن يمثل أمام اللجنة قريبًا. لا ريب أن بوسعك تحمُّل المضايقات نحو... عشرة أيام أخرى؟

- لقد احتدَّ النقاش بيننا هذا الصباح. ذكرتُ أن عدد خسائر الأرواح لشهر سبتمبر بلغ 102،000 - أرقام رسمية. فقال: «أجل يا ساسون، جرَّاحُ السماء[2] يُعمِل مبضعَه في البشرية».

تنهد ريفرز. كان يفكر في أن إصرار ساسون على شرح الواقع المُر مرارًا وتكرارًا لا يصب تمامًا في مصلحة فوذرزجيل هو الآخر على الأغلب. «ما رأيه هو فيك؟ هل تعرف؟».

- لدي هالة معكَّرة، كما يبدو.

---

(1) هنا يجدر التنبيه إلى أن اسم عائلة «رالف غريفز» يختلف بحرفٍ واحد عن اسم عائلة «روبرت غريفز»، اختلافًا يتعذر إبرازه بالأحرف العربية. والشخصيتان حقيقيتان كلتاهما، مثل معظم شخصيات الرواية. (المترجم)

(2) جراح السماء: كناية عن الإله، وهي عنوان قصيدة شهيرة للشاعر الاسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون (1850-1894). (المترجم)

- حقًّا؟

- لونها نيليٌّ. يسرني أن ثمة من يجد الأمر مسليًا.

- خطر لي توًّا كم يمكن لهذا أن يكون مفيدًا: تشخيص فوري.

- لقد أيقظتُه مرةً أو اثنتين.

- كوابيس؟

- ليس تمامًا.

كان ساسون يتجنب عينيه، لكنه كثيرًا ما يفعل هذا في بداية اللقاءات. «أتريد أن تخبرني عن ذلك؟».

«أوه، لم يكن أمرًا ذا بال. القصة أنني... رأيت شيئًا لا يمكن أن أكون رأيته».

يظنني سأستخف به لكونه يتكلم كلامًا لا منطقيًّا، فكر ريڤرز. «لقد حدث لي مرةً أن رأيتُ... حسنًا، لم أرَ... بل سمعتُ شيئًا لم أستطع تفسيره. كنتُ في إحدى جزر سليمان. في تلك الجزيرة بعينها، يعتقد الناس أن أرواح الموتى تذهب إلى خليج على الطرف الآخر... تجيء الأشباح في الزوارق إلى منزل الميت وتحمل روحه بعيدًا، وعلى ذلك يُحيون سهرةً من نوع ما. وفي تلك الليلة بعينها، كنا متجمعين كلنا حول الجثة، ننتظر صوت المجاذيف. القرية بأجمعها كانت هناك، كل تلك الوجوه داكنة السمرة تُصيخ السمع مترقبة. ونحن أيضًا أصغينا، وطرحنا الأسئلة همسًا. كان الجو السائد لا يُصدَق، ثم جاءت اللحظة التي سمعوا هم فيها المجاذيف. كنتَ ترى ذلك التعبير المزيج من البهجة والأسى ينتشر على وجوههم كلها، وبالطبع نحن لم نسمع شيئًا. حتى اللحظة الفعلية لدخول الأشباح إلى الغرفة كي تأخذ الروح معها، حينذاك امتلأ المنزل بأكمله بغتةً بأصوات صفير. كان بوسعي رؤية جميع الوجوه، الأصوات لم تكن صادرة عن أحدها، ومع ذلك سمعناها كلنا. كما ترى، يكمن التفسير *المنطقيُّ* لذلك في أننا قد سمحنا لأنفسنا أن نُجَر إلى تجربة تنويم مغناطيسيٍّ جماعيٍّ، وأنا لا أنكر ولو للحظةٍ إمكانية حدوث ذلك. لكن الأمر الذي قيل لنا أن نترقبه هو صوت المجاذيف، لم يذكر أحد شيئًا

عن الصفير. وهذا لا يعني عدم وجود تفسير منطقيٍّ، غير أنني لا أرى ذلك التفسير المنطقيَّ بعينه ملائمًا لكل الحقائق معًا».

ساد سكوتٌ بعد إتمام ريفرز لكلامه، ثم قال ساسون بصعوبة بالغة: «ما حدث معي بدأ بضوضاء».

«ضوضاء من أي نوع؟».

«صوت نقر. بدأ ذلك في غرفة أوين أول مرة، ثم حين عدتُ إلى غرفتي بدأ من جديد. أوين لم يسمعه. لم يزعجني الأمر على نحوٍ خاص، خلدتُ إلى النوم ببساطة، ثم... حين استيقظت، كان هنالك من يقف في الباب تمامًا. عرفتُ من يكون؛ لم أستطع رؤية وجهه، لكنني تعرفت على معطفه»، سكت قليلًا: «أورم. شابٌّ لطيف، مات قبل ستة أشهر».

«قلتَ: «مرةً أو اثنتين»، الرجل نفسه؟».

«لا، أشخاصٌ شتى»، صمتٌ طويل: «أعرف أن هذا يبدو دون شك من نفس نوع الشيء الذي كنت أراه في لندن، لكنه ليس كذلك. إنه... لا يشبه ذلك في شيء. في لندن، كانوا يضعون أيديهم على الثقوب في رؤوسهم ويلوحون بجذامير أطرافهم المقطوعة. أما هؤلاء، فهم... هادئون للغاية، رصينون للغاية»، ابتسم: «من الواضح أن المرء ينتابه صنفٌ أفضل من الهلاوس هنا».

«بماذا تشعر حين تراهم؟».

رفع ساسون كتفيه: «لا أشعر بشيء، في أثناء الرؤية».

- ألا تخاف؟

- لا، لهذا قلتُ إنها ليست كوابيس.

- وفي ما بعد؟

- بالذنب.

- أيبدو عليهم أنهم يؤنبونك؟

فكر ساسون في الأمر. «كلا، يبدون متحيرين فقط. لا يفهمون لماذا أنا هنا».

صمتٌ طويل. بعد قليل، أنهض ساسون نفسه من شروده. «لقد كتبتُ عن ذلك. أنا آسف، أعلم أنك تكره هذا».

أخذ ريڤرز الورقة: «لستُ أكرهه، كل الأمر أنني أشعر بعدم كفايتي».

في نومي، وأنا أحلم غافلًا متنعمًا بالدفء،
يجيئون بلا ضجة؛ الشرائدُ، الموتى الخافِتون.
فيما تنشحنُ مطارقُ العاصفةِ[1] المعتمة
فتلعلعُ وتئز وتجأر في الأعالي،
يظهرون من الدُّكنة ويلتفون حول سريري.
يهمسون إلى قلبي؛ أفكارهم أفكاري.

«لمَ أنت هنا وقد انتهت كل نوبات حراستك[2]؟
من إيبر إلى فريز، بحثنا عنك على خط القتال».
أستفيق في الأمان المُر، بلا صديق،
فيبزغ الفجر مع سياط المطر،
وأنا أفكر في الكتيبة وسط الوحل.
«متى تعود إليهم من جديد؟
أما عادوا إخوتك بدمائنا؟».

استدار ساسون، الذي كان قد نهض واتجه إلى النافذة، عندما ندَّت عن ريڤرز حركةٌ تُنبئ أنه أنهى القراءة. «لا بأس»، قال له: «لا تشعر أن عليك أن تقول شيئًا».

(1) أسلحة يستخدمها بعض الآلهة في الميثولوجيا النوردية. (المترجم)

(2) عبارة «انتهاء نوبة الحراسة»، تأخذ في الإنجليزية -إضافةً إلى معناها الحرفيّ- معنىً مجازيًا يفيد تاريخ وفاة الحارس في أثناء مناوبته. وعلاوةً على ذلك، كلمة «النوبة» نفسها في الإنجليزية يمكن أن تعني «الساعة». (المترجم)

بيد أن ريڤرز لم يكن قادرًا على قول أي شيء، كان قد نزع نظارته وراح يربت على البشرة حول عينيه. لم يعرف ساسون ماذا يفعل، تظاهر أنه ينظر من النافذة من جديد. أخيرًا، ارتدى ريڤرز نظارته وقال: «هل ثمة جواب للسؤال؟».

«أوه، أجل. سوف أعود».

سحب نفسًا طويلًا. «هل أخبرتَ أحدًا غيري بذلك؟».

- لا، أردتك أن تكون الأول.

- لن يُسَر أصدقاؤك السِّلميُّون.

«صحيح، أعرف. لستُ متشوقًا إلى هذا»، كان ينظر إلى ريڤرز بمزيج استثنائيٍّ من الحب والعِداء: «لكن ماذا عنك؟ أنت مسرور، أليس كذلك؟».

«أوه، بلى. أنا مسرور».

القسم الرابع

17

وصلت آدا لام على متن قطار التاسعة. لاقتها سارا في المحطة، وأمضتا الصباح تتفرجان على المحال التجارية. أو بالأحرى سارا هي التي كانت تتفرج، فيما أخذت أمها تستنطقها، بمزيج من الترهيب والترغيب والمداهنة والأسئلة والتأملات والحدس الجامح والصمت اللاذع المباغت، حتى حصلت على القصة الكاملة لعلاقتها ببيلي پراير. بحلول الساعة الثانية عشرة، طاب لسارا أن تريح قدميها -ولو لم تُرِح أذنيها- في إحدى الكافتيريات، حيث جلستا إلى طاولة لشخصين قرب النافذة وطلبتا لحم فخذ خنزير مع بطاطا مقلية. كان الخيار البديل فطيرة لحم وكُلى، لكن آدا لا تأكل تلك الأشياء. «لا يمكنك الوثوق بأي شيء مغلف بالعجين»، قالت: «الله أعلم بما يحلو لهم أن يضعوا داخله. لا سبيل أمامك سوى الذهاب إلى الجزار كي تتأكدي من سلامة اللحم بعينيك».

لم تنخدع سارا بهذا الكلام، كانت تعلم أن جرعة من النصائح في شؤون أكثر جدية تنتظرها ما إن تخرج النادلة من مدى السمع. مسحت دائرةً في البخار المتكثف على زجاج النافذة. في الخارج، كان الناس ظلالًا متحركة، والمطر يتناهب أرصفة برينسِز ستريت. «دخلنا في الوقت المناسب»، قالت.

- أظن أنك تركتِ له نفسَك؟

- ماذا؟

- لا نقول «ماذا» يا سارا، بل نقول «المعذرة».

- ماذا؟

- قلتُ: أظن أنك تركتِ له نفسَك؟

- أليس هذا شأني الخاص يا أمي؟

- هو كذلك إن كنتِ ستتحملين *أنتِ* العواقب.

- لن يكون هنالك أي عواقب.

- تعتقدين أنك تحيطين بكل شيء علمًا، أليس كذلك؟ حسنًا، دعيني أخبرك شيئًا، شيئًا لا تعلمينه. في كل مصنع من المصانع ثمة رجلٌ مرشح للارتباط، وواحد من كل عشرة يكون جادًا. لا واحد من كل اثنين، هم يعلمون أننا لسنا حمقاوات. واحد من عشرة.

- عملٌ جيد، إن كنتِ تستطيعين الوصول إليه.

«أسهل من أن تتولي تنشئة الطفل»، غرزت آدا شوكتها في قطعة بطاطا: «الفكرة أن عليك تقدير قيمة نفسك، فإن لم تفعلي ذلك، لن يقدروكِ هم. لن تُخطَبي أبدًا إن لم تتعلمي إبقاء ركبتيك مضمومتين. اضحكي كما يحلو لك، لكن الرجال لا يعطون قيمةً لما يُقدَّم مجانًا. ربما ينبغي ألا تكون الأمور كذلك، ربما ينبغي لهم أن يكونوا مختلفين، لكنهم هكذا وليس بوسعك أن تغيريهم».

جاءت النادلة لتأخذ الأطباق: «أي شيء آخر يا سيدتي؟».

انقلبت آدا إلى نبرتها الأرستقراطية: «أجل، نود أن نلقي نظرة على القائمة من فضلك». انتظرت مغادرة النادلة، ثم انحنت إلى الأمام لتوجِّه الضربة القاضية: «ما من رجل يروق له التفكير أنه يعبث بمخلفات رجل آخر».

طقَّت خاصرتا سارا من الضحك: «*أمي*».

«طيب، اضحكي.. اضحكي»، أجالت عينيها في الكافتيريا، ثم استقرتا على الطاولة، وراحت تسوي غطاءها الأبيض بيديها المكسوتين ببقع بُنية: «جميل، أليس كذلك؟».

كفَّت سارا عن الضحك: «بلى يا أمي، إنه جميل».

- أتمنى لو كنتِ تعملين في مكان كهذا.

- أمي، الأجور رديئة. تلك الفتاة لم تعش مثلنا، وإلا لما وجدت ما تأكله.

- غير أنها لا تكتسي بلون أصفر، أليس كذلك؟
- إنها لا تكتسي بأي لون، تبدو لي مصابة بفقر الدم.
- لكنك تلتقين بأناس لطفاء هنا يا سارا. أقصد، أنا أعرف بعض النساء اللاتي تعملين معهن، ولستُ أقول إنهن لسن لطيفات المعشر... بعضهن، لكن عليكِ أن تعترفي، فهن يتصفن *بالخشونة*.
- أنا خشنة.
- كان بوسعك أن تكوني وصيفة سيدةٍ لو حافظتِ على عملك. هذا ما يثير سخطي فيك، بمقدورك أن تحسني التصرف مثل الناس حين ترغبين، لكن الأمر يكون عبئًا كبيرًا معك.

عادت النادلة ومعها القائمة.

«لا أظنني أستطيع أن آكل المزيد يا أمي».

بدا الإحباط على آدا: «أوه، بحقك، لا تتسنى لي دائمًا الفرصة كي أدللك».

«حسنًا إذًا، سأتناول التابيوكا من فضلك».

راحت سارا تأكل بصمت لبعض الوقت، مدركةً مراقبة أمها لها، ثم قالت أخيرًا: «المشكلة، يا أمي، أن فرخ البط عوام، وهذا لا يروق لك».

هزت آدا رأسها. لكن الأمر صحيح رغم ذلك، قالت سارا لنفسها. لقد ناضلت آدا، بعزيمتها القوية التي لا تكل ولا تمل، كي تربي ابنتيها وحدها، ومع ذلك، حين يتعلق الأمر بتعليم الفتاتين، كانت تحاول أن تغذي فيهما كل الصفات المناقضة لها. الجمال والمرونة -ولو في الظاهر على الأقل- وفنون الإرضاء كلها. هذه هي طريقة النساء لتدبير أمورهن في هذا العالم، وآدا كانت حريصة أن تعلم ابنتاها ذلك. حين كانت سينثيا وسارا فتاتين صغيرتين، كانتا تذهبان إلى المُصلَّى الكنسي المسقوف بالصفيح عند ناصية الشارع، لكن حالما أظهر صدراهما شيئًا من الانحناء، استدعتهما آدا وأعلنت تحولهن إلى الكاثوليكية الأنغليكانية. كانت كنيسة القديس إدموند الملك والشهيد تخدم حيًّا سكنيًّا حسنًا للغاية. وهناك سددت سينثيا -طائعةً- نظراتها الغرامية نحو شبان الجوقة، في حين انحرفت سارا عن الهدف تمامًا ووقعت في غرام مريم العذراء. كانت آدا تطمح إلى أن ترى كلًّا من ابنتيها تسير في ممشى

الكنيسة ذلك وهي ترفل في الأبيض، متأبطةً ذراع شابٍّ له دخل ثابت. وإن شاءت الأقدار لاحقًا أن يترك الترمُّل المبكر لهما الدخل دون الرجل، فذلك خير وبركة بالطبع. أما هل كانت آدا نفسها أرملةً أم لا؟ سارا لا تعلم. لم يحدث يومًا أن وُضِّحَت مسألة ما إن كان والدها قد هجر الحياة أم البلدة، أم زواجَه وحسب. مؤكدٌ أن قماش البومبازين[1] الأسود كان ذا حضور طاغٍ في خزانة ملابس آدا، بيد أنه مادة تقدم مسحةً من البهاء المحترم مقابل كلفة في الحد الأدنى. يا لها من طريقة محبِطة في تنشئة الفتيات، فكرت سارا؛ أن يُجعَل الزواجُ الغايةَ الوحيدة لوجود الأنثى، مع إنكار إمكانية الحب بين الرجال والنساء في الوقت نفسه. آدا مؤمنة بذلك فعلًا. ففي عالمها، يحب الرجالُ النساءَ مثلما يحب الثعلبُ الأرنبَ البريَّ، والنساء يحببن الرجال مثلما تحب الدودةُ الشريطية الأمعاء. وليس أن هذه النظرة الحياتية كانت تُفضي إلى تعاطفٍ يُذكَر مع النساء الأخريات، فآدا تحتقر الأرانب البرية، تلك التي «تقع في براثن الثعلب». إن دخلت فتاةٌ إلى المتجر باكيةً، ربما تبيعها عقار د. لوسن[2]، «الوصفة الفعالة لكل ما يعترض طريق الأنثى» (زجاجة بتسعة بنسات دون أي فائدة)، غير أن تعاطفها ينتهي عند ذلك. عمل حياتها يتجسد في الكد لتأمين المعيشة، واستجمامها يتلخص في قراءة الروايات الغرامية، التي تلتهم منها ثلاثًا أو أربعًا دفعة واحدة، جالسةً على كرسيها الهزاز قرب النار، وهي تمص سكاكر النعناع وتضحك حتى تؤلمها ضلوعها.

«كيف تسير أمور كشك الشاي يا أمي؟»، قالت سارا وهي تُبعِد طبقها من أمامها.

«بخير، بت أذهب إلى هناك يوميًا الآن».

كانت آدا قد بدأت تبيع الشاي للجنود المجندين إلزاميًا الذين يخضعون لدورة الأسابيع الستة التدريبية في أحد المتنزهات المحلية قبل إرسالهم إلى

(1) البومبازين: قماش كان يُنسج أصلاً من الحرير أو الحرير والصوف، وربما يدخل القطن في نسيجه. وقد انتشر البومبازين الأسود في السابق لصنع أثواب الحِداد، لكن هذه الخامة لم تعد رائجة منذ بدايات القرن العشرين. (المترجم)

(2) عقار د. لوسن: خلطة تسبب الإجهاض. (المترجم)

فرنسا. لقد حولت الكشك، الذي كان مكتب بيع تذاكر قوارب البحيرة زمن السلم، إلى كافتيريا صغيرة.

- كم تتقاضين؟

- خمسة بنسات.

- رباه.

رفعت آدا كتفيها: «ما من منافسين».

- أنتِ تاجرة حرب يا أمي، بطريقة صغيرة.

- لو أستطيع أن أضع يدي على شيء من المال لما ظلت صغيرة. يمكن إعداد الحساء وما إلى هنالك، لا سيما مع اقتراب الشتاء. لكنها القصة القديمة نفسها، تحتاجين إلى مالٍ كي تجني مالًا.

دفعت آدا الحساب، وعدَّت النقود بيدين ناحلتين تحفرهما التجاعيد لم تستطع سارا أن تنظر إليهما يومًا دون أن تشعر بالألم.

«أتعرفين بيلي؟»، سألتها سارا على حين غرة.

- كلا، لا أعرفه يا سارا، لم أنل شرف لقائه.

- لو تصغين وتتركينني أكمل. إن استطاع الخروج من المستشفى هذه المرة، سيحظى بإجازة قصيرة، وكنا نفكر لعلنا... كنا نفكر لعلنا نزورك.

- حقًّا؟

- أهذا كل ما تستطيعين قوله؟

- ماذا يفترض بي أن أقول؟ انظري يا سارا، إنه ضابط. ما الذي يبتغيه منك برأيك؟

- وكيف لي أن أعلم؟ ربما فسحة لتنفُّس الهواء الطلق.

- بل عاصفة، حبًّا باللعنة.

- إن حدث وجاء بالفعل، سوف تتصرفين بودٍ معه، أليس كذلك؟

«إن تصرف بودٍّ معي، سأرد بالمثل»، دسَّت آدا بنسًا تحت صحن الكوب: «لكنك حمقاء لعينة».

- لماذا أنا حمقاء؟

- تعرفين السبب. حين يبدأ بالتلويح بشيئه أمامك المرة القادمة، فكري في جدية الارتباط.

وصل ساسون متأخرًا فوجد غريفز جالسًا بمفرده في الحانة. «أعتذر عن التأخر».

- لا بأس. لقد آنسني أوين، لكنه اضطر إلى الذهاب. هناك شخص قادم كي يرى الطابعة.

- أجل، هذا صحيح، لقد نسيتُ الأمر.

- مباراة جيدة؟

«ليست سيئة»، استشعر ساسون -أو ظن أنه استشعر- رعدةً طفيفة: «هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أحافظ على سلامة عقلي».

- كنت تتذمر في رسالتك الأخيرة بشأن لعب الغولف مع مجانين.

- إشش، أخفِض صوتك، ثمة واحد منهم خلفك تمامًا.

استدار غريفز: «يبدو لي طبيعيًا بما فيه الكفاية».

- أوه، أندرسون لا بأس به، تجتاحه نوبة غضب كلما بدا أنه سيخسر نصف تاج.

- هذا التصرف ليس غريبًا عنك أنت نفسك.

«فقط لأنك كنت تعبث بالمضرب عوضًا عن اللعب بشكل لائق»، رفع يده مستدعيًا النادل: «هل تسنى لك الوقت كي تنظر إلى القائمة؟».

«لقد تسنى لي الوقت كي أحفظها يا سيغفريد».

بعد جلوسهما إلى الطاولة، قال غريفز: «ما الموضوعات التي تتحدث عنها أنت وأوين؟ قال إنه لا يلعب الغولف، ولستُ أظن ولو للحظة أنه يمارس الصيد».

- يا لفطانة مهارات الملاحظة الاجتماعية لديك يا روبرت. كلا، لا أظنه امتطى صهوة حصان في حياته قبل التحاقه بالجيش. الشِعر، بشكل أساسيٍّ.

- أوه، إذًا فهو يكتب، أليس كذلك؟

«لا داعي إلى هذه النبرة، فهو جيد إلى حدٍّ بعيد. في الحقيقة، لدي واحدة هنا»، نقر على جيب صدره: «سأريك بعد الغداء».

- بدا لي متزعزعًا بعض الشيء.

- أحقًّا؟ لا أظنه كذلك.

- أقول لك كيف بدا لي لا أكثر.

- لا يمكن أن يكون متزعزعًا إلى هذه الدرجة، فهم سوف يُخرّجونه نهاية الشهر. لعلها رهبة لقاء شاعر آخر له أعمال منشورة وحسب.

سكوتٌ قصير.

- ألم يقترب موعد مثولك أمام اللجنة؟

- نهاية الشهر.

- هل قررت ماذا ستفعل؟

- لقد أخبرت ريڤرز أنني سأعود، شرط أن يمنحني مكتبُ الحرب تعهدًا مكتوبًا بإرسالي إلى فرنسا من جديد.

- لو كنتُ مكانك لما ظننتُ أنني في وضع يسمح لي *بالمساومة*.

- ريڤرز يظن أن بوسعه التحايل في سبيل ذلك كما يبدو، لم يستخدم كلمة «التحايل» بالطبع.

- انتهى الأمر إذًا؟ الحمد لله.

- قلتُ له إنني لن أتراجع عن أي شيء، وقلت يجب أن تكون فرنسا. لن أتركهم يضعونني خلف مكتب أملأ الاستمارات لما تبقى من الحرب.

- أجل، أظن أنه الصواب.

- المشكلة أنني لا أثق بهم. وحتى ريڤرز. أقصد، هو يقول من جهةٍ إنني لا أعاني أي خطب، وإنهم سوف يؤهلونني للخدمة العامة ما وراء

البحار، لا يمكنهم فعل شيء آخر، لكنه لا يلبث حتى يخبرني أن لدي «عقدة مناهضة حربٍ» قوية جدًّا، لا أدري حتى ما معنى ذلك.

- سأقول لك ما معنى ذلك، معناه أنك مهووس. أتعلم أنك لم تعد تتحدث عن المستقبل على الإطلاق؟ أجل، أعرف ما ستقوله: كيف لك أن تتحدث عنه؟ ساس، لقد كنا جالسين على تلة في فرنسا وتحدثنا عن المستقبل، بل ورسمنا *خططًا*. في الليلة التي سبقت معركة السوم، كنا نرسم الخطط. والآن لا تستطيع أن تفعل ذلك. بضع قذائف، بضع جثث، ثم إذا بك فقدتَ حماستك.

- بضع جثث؟

- المغزى هو...

- المغزى هو أنها كانت 102,000 جثة الشهر الماضي وحده. معك حق، أنا مهووس. أنا لا أنسى ذلك ولو للحظة، وهكذا *ينبغي لك أن* تكون. روبرت، لو كنتَ تملك أي شجاعة حقيقية لما أذعنتَ كما تفعل.

تورَّد غريفز غضبًا: «يؤسفني أن تراني هكذا، أكره أن أفكر أنني جبان بلا شك. أنا أؤمن بصون كلمتي. لقد وافقتَ أن تخدم يا سيغفريد. لا أحد يطلب منك أن تغير آراءك، أو حتى أن تبقيها طي الكتمان، لكنك *وافقت أن* تخدم، وإن كنت تريد أن تنال احترام الناس الذين تحاول التأثير فيهم (بوبي وتومي وفلان وعلّان) فعليك إظهار أنك تصون كلمتك. لن يتفهموك إن استدرت على عقبيك في منتصف الحرب وقلت: «أنا آسف، لقد غيرت رأيي». بالنسبة إليهم، هذا تصرف شائن لا غير. سيقولون إنك لا تتمتع بسلوك الجنتلمان، وهذا أسوأ ما يمكن أن يقال عن أي أحد».

«اسمع يا روبرت، الأشخاص الذين يبقون هذه الحرب مضطرمة لا يلقون بالًا إلى «بوبي» أو «تومي» أو «فلان» أو «علّان»، ولا يسمحون أيضًا لـ«سلوك الجنتلمان» أن يقف عائقًا في وجوههم حين يتعلق الأمر بمصالحهم الشخصية»، أومأ بحركة تشي باليأس: «أما بالنسبة إلى «التصرفات الشائنة» و«سلوك الجنتلمان»، فما هذا إلا غباء يودي إلى التهلكة».

مع تناول القهوة، تغير مسار الحديث.

«ثمة شيء لم أخبرك به في يونيو»، قال غريفز: «أتتذكر بيتر؟».

- لم ألتقِ به قط.

- أعرف، لكنك تتذكره؟ تتذكر *أنك سمعت* به؟ حسنًا، لقد اعتُقِل. قُبِض عليه بتهمة البغاء قريبًا من الثكنة المحلية، ليس بعيدًا جدًّا عن المدرسة في الحقيقة.

- أوه، روبرت، أنا آسف. لماذا لم تخبرني؟

- كيف لي أن أفعل؟ لم تكن في حالة تسمح لك أن تفكر في أي شخص آخر.

- كان ذلك في يوليو، صحيح؟

«نفس البريد الذي تسلمتُ خطابَ تصريحك ضمنه»، ابتسم غريفز: «يا لذاك من صباح».

«أجل، يمكنني أن أتخيل».

تلكّأ غريفز: «أجد من المنصف أن أخبرك... أن عواطفي منذ حدث ذلك، باتت تسير في مجارٍ طبيعيةٍ أكثر. أنا أُكاتِب فتاةً تُدعى نانسي نيكلسون. أظنها ستعجبك حقًّا، إنها ظريفة للغاية. السبب... السبب الوحيد الذي يجعلني أخبرك بهذا هو... أنني أكره أن تكون لديك أي أفكار خاطئة، بشأني. أكره أن تظنني مثليًّا *ولو* مجرد تفكير. ولو بينك وبين نفسك».

كان من الصعب أن يعرف ماذا يقول: «أنا سعيد جدًّا من أجلك يا روبرت، أقصد بخصوص الآنسة نيكلسون».

- جيد، لا بأس إذًا.

- ماذا حلَّ ببيتر؟

- لن تصدق هذا، سيرسلونه إلى ريفرز.

كانت الصدمة أكبر وأشد من أن يعرف ساسون كيف يعبر عنها. «لماذا؟».

«ماذا تقصد بـ «لماذا»؟ كي يُعالَج طبعًا».

ابتسم ساسون ابتسامةً واهية: «أجل، طبعًا».

مصنع الذخيرة في الليل يبدو أشبه بالجحيم، هكذا فكرت سارا وهي تشق طريقها نحوه في الوحل، وتبصر احمرار النيران الساكنة منعكسًا عن الغيوم الواطئة، مثل غروبٍ اصطناعيٍّ. عند البوابة، التحقت ببقية الفتيات السائرات في الاتجاه نفسه، جميعهن خانعات، يعلو وجوههن ذلك المظهر الفاتر الكدِر الذي يميز أشخاصًا انتقلوا لتوهم إلى الوردية الليلية ولم يستطيعوا التكيف بعد.

في حجرة إيداع المعاطف، كان ثمة ثلاثون امرأة أو أربعون، يرتدين موادع العمل الخضراء التي تبلغ الكاحل، ويعتمرن القلانس، ويدخنَّ لفافة التبغ الأخيرة. روائح عَرق وزنبق الوادي ومستحضرات شعر. وبعد قليل انبثقت الأحاديث، بدت النسوة طبيعيات أكثر، بل حتى مبتهجات لبعض الوقت، إلى أن ظهرت المشرفة في المدخل، تشير بإصبعها نحو الساعة.

«لقد غادرت أمك بالسلامة إذًا؟»، سألت ليزي وهن ينزلن على الدرج إلى قاعة العمل في القبو.

- استقلت رحلة السابعة. ستصل بحلول منتصف الليل، لذا ليس الأمر سيئًا جدًّا.

- كيف سارت الأمور؟

تغير التعبير على وجه سارا: «لا بأس. أتعلمين؟ كنتُ قد أقسمت ألا أخبرها عن بيلي، لكنها انتزعت الكلام من فمي انتزاعًا».

- حسنًا، إنها أمك، من الطبيعيِّ أن تقلق.

- إممم. كل ما تمكنتُ أن أحصل عليه منها كان: «ما الذي يراه فيك؟»، يا له من شيء لطيف تقوله أم لابنتها، أليس كذلك؟ أجبتُها: «فسحة لتنفس الهواء الطلق». وفقًا لما فهمته، جميعهم باتوا لا يرون أبعد من مؤخراتهم هناك.

«لا بأس، ما دامت مؤخراتهم لا مؤخرات غيرهم»، قالت ليزي.

«ليسوا هكذا جميعهم»، أجابت سارا.

«القسم الأكبر»، قالت مادج: «في المكان الذي عملتُ فيه قبل الحرب، هكذا كان الابن. أوه، وليتك سمعتِ السيدة حين اكتشفوا ذلك. راحت تصرخ وتضرب

الأرض بقدميها، جُن جنون الثريا حتى ظننتها ستسقط. لكن ضعي في علمك أنه لم يكن لديه أخوات، لذا لم يلتقِ قط بفتياتٍ من قرب. يذهب إلى المدرسة، وما من فتيات. يذهب إلى الجامعة، وأيضًا لا فتيات. وحين وقعت عيناه عليَّ أخيرًا، كان الأوان قد فات، أليس كذلك؟ ما ضرب هرب. وحتى الذين ليسوا هكذا، ما إن يلقوا نظرةً على السيدة حتى يفروا هاربين إلى النادي»، أخذت مادج تتبختر في دهليز القبو واضعةً إصبعها تحت أنفها، تقول بلكنة مدرسةٍ عامةٍ مخنوقة: ««سأتناول العشاء في النادي الليلة يا عزيزتي، لا تكلفي نفسك عناء الانتظار». ثم يعود مترنحًا عند الساعة الثانية وينهار فوق السرير في غرفة الملابس. إنني لأتعجب كيف يتكاثرون».

تعالى الضحك من الأخريات وهن يتدفقن إلى داخل قاعة العمل ويجلسن على المقاعد. تقدمت المشرفة -وهي سيدة مستديرة الوجه ذات شعر مقصوص قصير تضع نظارة وترتدي بدلة محتشمة الطراز- نحوهن بخطوات متوعدة: «هل في نيتكن أن تبدأن العمل اليوم يا فتيات؟».

راقبنها تسير مبتعدة. «إيه، آمل ألا يحاول رجلٌ إقحام أي شيء في أنبوب مدخنتها»، قالت ليزي: «فذلك عمل وحشيٌّ في حق العث».

سحبت سارا الحزام الأول نحوها وبدأت العمل. لا سبب على الإطلاق يمنعهن من الحديث، بما أن المهمة الموكلة إليهن هنا لا تتطلب التركيز. يُفترض بها أن تكون بمنزلة استراحة من العمل المضني على صواعق القنابل، ومهمات أخرى تشترط ارتداء الكمامات. وهي كمامات لا تناسب وجوههن تمامًا. لقد أزاحت سارا كمامتها عن وجهها غير مرةٍ كي تنفض الغبار الأصفر الذي تجمَّع داخلها. تذكرت انتقادات أمها اللاذعة حول مظهرها، والتلميحات الفاقعة بشأن أن تسلِّم إخطارَ استقالتها وتعود إلى الديار كي تساعدها في كشك الشاي. لكن الوضع هنا يروق لي، فكرت سارا، ثم صححت لنفسها: يروق لكِ *الآن* لأن بيلي هنا، وقد تبهت حماستك حين يغادر.

التفتت بحذر، كي تتلافى جذب انتباه المشرفة، ونظرت حولها. النساء جالسات إلى طاولات صغيرة، كل طاولة تشكل بِركة ضوء تحت حبابة المصباح المتدلية الخفيضة. وفي ما خلا سطوح العمل، الغرفة سيئة الإضاءة وواسعة إلى درجة أن طرفها القصيَّ يختفي في الظل. جميع النساء صفراوات

البشرة، ولكلٍّ منهن -أيًّا كان لون شعرها الطبيعيّ- خصائل صهباء تبرز من تحت قلنسوتها الخضراء. نحن لا نبدو بشريات، قالت سارا في قرارتها، وهي لا تعلم أيثير ذلك ذعرها أم ضحكها. كُنَّ يبدون مثل الماكينات، ماكينات لا عمل لها إلا أن تصنع ماكينات أخرى.

حطت عينا سارا على الطاولة المجاورة، حيث الفتيات قريبات بما يكفي أن تميزهن. وبعد قليل بدت عليها الحيرة وانحنت فوق الطاولة تهمس إلى ليزي: «أين بيتي؟».

«من الطبيعيِّ أن تسألي»، أجابتها ليزي وتنشقت بصوت مسموع وظلت صامتة، مستمتعةً بلحظة السطوة.

«ها أنا أسأل».

ألقت ليزي نظرة سريعة حولها: «أتعلمن أن أربعة مواعيد فاتتها؟».

أومأت الفتيات جميعهن.

«لقد جربتْ كل شيء»، تابعت ليزي: «كانت ترشف عقار د. لوسن كأنه ليموناضة».

«هو كذلك»، قالت سارا.

«حسنًا، لا بد أنها يئست، لأنها أقحمت شيئًا ما في نفسها كي تُنزِل. أتعرفن علاقات المعاطف المصنوعة من الأسلاك تلك؟».

أومأن كلهن.

«أخذت واحدةً منها، وسوَّت الطرف المعقوف، ثم...».

«وصلت الفكرة»، قالت سارا.

«أجل، الأمر أسوأ من ذلك. لقد أقحمتها البقرةُ الصغيرة السانجة في مثانتها».

«أوه، لا»، أشاحت مادج كأنها توشك أن تتقيأ.

«ذاقت الأمرَّيْن، وظلت تتوسل إليهن ألا يرسلنها إلى المستشفى، كأنها تعرف أن الأمور لم تسر على ما يرام. لكن على كل حال، انتاب الذعرُ شريكتَها في الغرفة فذهبت وأحضرت صاحبة المنزل، وبالكاد ألقت هذه نظرةً واحدة

قبل أن تقول ما معناه: «آسفة يا عزيزتي، لن تموتي هنا»، ثم أخذتها. ومن سخرية القدر أنها لا تزال حبلى. تبدو في حال مريعة».

«أتقصدين أنك ذهبتِ لرؤيتها؟»، سألتها سارا.

«بالطبع، ذهبتُ البارحة. إن وجهها...»، شدت ليزي وجنتيها إلى الأسفل: «أوه، وقالت إن الطبيب لم يتوانَ عن إدانتها. المسكينة كانت تبكي من أعماقها حتى كادت مآقيها تجف. لقد قال لها: «ينبغي لك أن تخجلي من نفسك»، قال: «ليس هذا الذي لديكِ مجرد شعور مزعج، بل هو كائن بشريٌّ»».

كانت سارا ومادج تتوقان إلى معرفة المزيد، لكن المشرفة انتبهت إلى توقف ليزي عن العمل واتجهت إليهن بخطوات واسعة، بيد أنها عندما وصلت إلى الطاولة لم تجد سوى الصمت والرؤوس المطأطأة والأصابع المحمومة ترص رصاصَ الرشاشات في أماكنه داخل الأحزمة المتألقة.

في الليالي التي تسبق انعقاد اللجان، يستغرق ريڤرز وقتًا أطول من المعتاد في جولاته، إذ يعلم أن المرضى الذين يحل دورهم للمثول أمام اللجنة يكونون متوترين على نحو خاص. كان قلقًا بشأن پيو، الذي استطاع بطريقة ما أن يقنع نفسه -رغم التطمينات المتكررة بالعكس- أنه سيُعاد إرساله إلى فرنسا.

ساسون هو من تركه ريڤرز للنهاية، ووجده مستلقيًا على السرير في غرفته الجديدة، متلفعًا بمعطفه العسكريِّ السميك. الحاجة تدعو إلى ذلك، فالغرفة واقعة تحت البرج مباشرةً، وهي باردة إلى درجة أن المرضى الذين تصببوا عرقًا خلال سلسلةٍ متواليةٍ من الكوابيس -في الشتاء- غالبًا ما استيقظوا ليجدوا أغطية السرير متيبسةً من الصقيع. ومع ذلك، بدت تروق لسيغفريد، فقد بات الآن يتمتع بالخصوصية التي يحتاج إليها من أجل العمل على الأقل. أخذ ريڤرز الكرسي المتوفر الوحيد، ومدد ساقيه نحو ركن المدفأة الخاوي. «حسنًا، كيف تشعر بخصوص الغد؟».

- لا بأس. ألم يَرِد بعد شيء من مكتب الحرب؟

- كلا، مع الأسف. سيتعين عليك أن تثق بنا وحسب.

- *بنا*؟ أواثق أنك لا تعني «بهم»؟

- تعرف أنني لن أتوانى عن فعل كل ما أستطيع من أجلك.

- أوه، أنا أعرف *هذا*. لكن *الحقيقة* أنهم حالما يُخرجونني من هنا سيكون بوسعهم فعل ما يحلو لهم. أيتها الأعمال المكتبية في بوغنور، ها أنا قادم.

تردد ريفرز: «تبدو محبَطًا إلى حدٍّ ما».

- كلا.. أنا أفتقد روبرت. لا أدري لماذا، كنا قاب قوسين أو أدنى من الشجار.

- بشأن الحرب؟

«لا أعرف بشأن ماذا، غير أنه كان في مزاج عجيب»، توقف ساسون عن الكلام، ثم اتخذ قرارًا باديًا للعيان بالمتابعة: «لقد تلقّى بعض الأخبار السيئة مؤخرًا».

كان ريفرز يدرك أن المحادثة تنطوي على أكثر مما هو قادر على تحديده، ساسون يتصرف معه بتحفظٍ واضحٍ في الآونة الأخيرة. لقد انتبه إلى ذلك مساء البارحة على وجه التحديد، لكنه عزاه إلى توتر ما قبل لقاء اللجنة، والقلقِ حيال عدم وصول خبر من مكتب الحرب. «أخبار من فرنسا؟».

«أوه، كلا، أمر مختلف تمامًا. لقد سألتُه بالفعل إذا ما كان يمانع أن أخبرك، لذا فأنا لست أخون الثقة. أحد أصدقائه (فتى عرفه في المدرسة وكان مولعًا به جدًّا، بطريقة أفلاطونية فاضلة تمامًا، كشِيَمِ روبرت) تعرض للاعتقال بتهمة البغاء. قرب إحدى الثكنات، غير بعيد جدًّا عن المدرسة في الحقيقة. إلى الحد الذي استطعتُ أن أتبينه، فإن روبرت يشعر...»، سكت ساسون فجأةً: «حسنًا، تقريبًا كما قد تشعر لو كنتَ... تسير في طريق ريفي مبهج ثم انفتحت هاويةٌ تحت قدميك على حين غرة. هكذا يرى الأمر. إنه محطَّم. فكما ترى، لا بد أن هذا... هذا الشيء *الفاحش* كان موجودًا طيلة الوقت، وهو *لم* يبصره. إنه يتوق بشدةٍ إلى توضيح أنه... لا يمتلك مثل تلك المشاعر المقززة هو نفسه. وهكذا».

- إذًا فقد تركك ذلك تشعر...؟

- كأنني هاوية في طريق ريفي.

- أجل.

نظر ساسون إلى ريڤرز مباشرةً: «يظهر أنه سيُرسَل -أتحدث عن الفتى- إلى طبيب نفسيٍّ ما».

- أي مدرسة تلك؟

- تشارترهاوس.

«آه»، رفع ريڤرز رأسه فوجد ساسون يحدق إليه.

«كي *يُعالَج*»، سكوت قصير: «أفترض أن العلاج هي الكلمة الصحيحة بالفعل؟».

أجاب ريڤرز بحذر: «مؤكدٌ أن إرساله إلى هذا الطبيب النفسيِّ أفضل له من الذهاب إلى السجن؟»، همَّ بالابتسام رغمًا عنه: «لكنني أستطيع أن أرى أنك قد لا توافقني الرأي».

- لن يصل الأمر إلى الحبس!

- أوه، أعتقد أن ذلك قد يحدث. عدد الأحكام السالبة للحرية آخذ بالارتفاع، أظن أن أي طبيب نفسيٍّ في لندن سيخبرك بهذا.

بدا الإحباط على ساسون: «كنت أظن أن الأمور تتحسن».

«أعتقد أنها كانت تتحسن قبل الحرب تحسنًا *طفيفًا*. لكن ليس من المحتمل كثيرًا لأي حراك نحو تسامحٍ أكبر أن يستمر في زمن الحرب، أليس كذلك؟ ففي نهاية المطاف، خلال الحرب، ثمة هذا التوكيد *الهائل* على الحب بين الرجال (الرِّفاقية) وهو أمر يحظى باستحسان الجميع. لكن في الوقت نفسه، هنالك دائمًا هذا القلق الصغير الأكال: أهو *النوع* القويم من الحب؟ حسنًا، إحدى الطرق التي تجعلك تتأكد من أن يكون النوعَ القويم، تتمثل في توضيح ماهية العقوبات المترتبة على النوع الآخر بشكل لا يقبل اللبس»، نظر إلى ساسون: «هذا من الأسباب التي تجعلني مسرورًا من قرارك بالعودة. فالأمر ليس إجراءً بوليسيًّا وحسب، بل هكذا هو المناخ العام في الوقت الحاليٍّ. هنالك عضو برلمان يُدعى پمبرتون بيلينغ، لا أعرف إن كنتَ سمعت عنه؟».

هز ساسون رأسه: «لا أعتقد ذلك».

- حسنًا، إنه يجوب أنحاء لندن زاعمًا معرفته بوجود كتابٍ *أسود* ألمانيٍّ يضم أسماء 47,000 شخصية بارزة تثير *حياتُها الخاصة* الشبهةَ حول ولائها لبلادها.
- هوِّن عليك يا ريڤرز، أنا لستُ شخصيةً بارزة.
- كلا، لكنك صديقٌ لروبرت روس، كما سبق لك أن ناصرت التوصل إلى السلام بالتفاوض علانيةً، وهذا كافٍ! أنت في موضع ضعفٍ يا سيغفريد، لا جدوى من الادعاء بعكس ذلك.
- وكيف يفترض بي أن أتصرف حيال هذا؟ أمشي لصق الحائط، أم أفصّل آرائي وفقًا لـ...
- لا أتحدث عن آرائك. أظنك أخبرتني مرةً أن روبرت روس يعارض الحرب؟ في *السر*.

«ما كنتُ لأرغب في انتقاد روس، أظن أنني أعرفه معرفةً كافية كي أفهم التأثير الذي كان لتلك المحاكمات فيه. لكن ما تقوله فعليًّا هو التالي: إن كنتُ لا *أستطيع* أن أتكيف في أحد مجالات الحياة، يجب عليَّ أن أتكيف وأكون مطيعًا في المجالات الأخرى. لا في ما يخص الأمور السطحية فقط، بل *كل* شيء، حتى ما يخالف ضميري. حسنًا، أنا لا أستطيع أن أعيش هكذا»، سكت قليلًا ثم أضاف: «لا *أحد* ينبغي أن يعيش هكذا».

«أنت تقضي وقتًا أكثر من اللازم بكثير في محاربة طواحين الهواء يا سيغفريد، بطرقٍ تعود *عليك* بمقدارٍ عظيم من الضرر -ويصادف أن هذا يهمني- كما أنها لا تعود على أي شخص آخر بأي منفعة على الإطلاق»، تردد، ثم قال ما يدور في خَلَده رغم ذلك: «آن الأوان كي تكبر، كي تبدأ العيش في العالم الحقيقيّ».

18

لم يكن پراير يشكل انطباعًا حسنًا، بدا الحصول على بضع حقائق بسيطة منه أشبه بقلع أضراس العقل. ظن ريڤرز أول الأمر أن پراير يكابر معاندًا ببساطة، وهذا دائمًا افتراضٌ مأمونٌ نوعًا ما في حالة پراير، لكنه سرعان ما لاحظ التقبض في فكه فأدرك حجم الصراع الذي يعتمل داخله. كان پراير قد قال إنه لا يريد أكثر من العودة إلى فرنسا أسرع ما يمكن، والفرار مما سمَّاه «عار» الخدمة المحلية، وليس لدى ريڤرز شكٌّ في صدق ذلك. لكنه ليس الحقيقة كاملةً؛ هو يريد أيضًا أن ينقذ حياته، وريڤرز، من خلال إصراره على أهمية مسألة نوبات الربو، قد لوَّح له -وربما على نحوٍ قاسٍ- بأمل إمكانية حصوله على فرصة للحياة. إذًا لا عجب أن پراير راح يجيب عن الأسئلة بكلماتٍ مفردةٍ قصيرة، وأنه حين سُئل أخيرًا إذا ما كان يرى في نفسه الأهلية البدنية للخدمة لم يقل شيئًا على الإطلاق، واكتفى بالتحديق إلى هانتلي غير قادرٍ على ادعاء أنه مريض ولا على إنكار ذلك. امتلأ ريڤرز، وهو يراقبه، بحنوٍ هائلٍ غير مسبوق تجاه معضلته هذه. يا للمسكين الصغير، قال في قرارته، يا لهم من مساكين جميعهم.

في غرفة الانتظار في الخارج، نظر ساسون إلى ساعته. لقد تأخروا نحو ساعة عن الموعد، ولم يكن دوره هو التالي أصلًا، بل دور پيو. پيو شابٌ ويلزيٌّ له عينان خضراوان طاغيتان ويعاني ارتعاشًا لم ير ساسون أسوأ منه، حتى في كريغلوكهارت، متحف العرّات والارتعاشات الحي. يتألف ارتعاش پيو من

حركة جانبية عنيفة للرأس، مشفوعة بصوتٍ يقع في منتصف المسافة بين اللهاث والصرخة. كان يفعل هذا كل خمس وثلاثين ثانية تقريبًا. وكجميع من في المستشفى، منعكسات ساسون ترتبط لزامًا بوقائع حرب الخنادق، لذا كان من شبه المستحيل ألا يهبّ لتفادي ما يتفاداه پيو أيًّا كان. ثمة شيء أخبره إياه أوين بشأن پيو يحوم على أطراف ذهنه. أجل، هذا هو الأمر. حادث شنيع من نوعٍ ما، قنبلة يدوية ارتدت عن الأسلاك. لقد ظل پيو يلتقط أشلاء جند فصيلته عن حرملته[1] المضادة للغاز طوال ساعة.

نظر ساسون إلى ساعته من جديد. حتى لو أخذ في حسبانه حقيقة أن لا أحد سليم العقل يمكن أن يستغرق طويلًا كي يقرر ما إن كان پيو مؤهلًا للخدمة، ليس له أن يأمل بالخروج من هنا قبل السادسة. من المفترض أن يتناول الشاي مع آل سامبسون في الرابعة والنصف، وهو لن يصل على الموعد ولو غادر الآن ولحق بالترام مباشرةً. هذا سيئ للغاية، من حق المتأهبين للموت -على الأقل- ألا يُبقَوا منتظرين. أغمض عينيه مجددًا، كان التعب يبلغ منه مبلغًا جعله يظن أن بمقدوره بالفعل أن يكبو لولا پيو وذلك الارتعاش العنيف البغيض، فهو بالكاد قد نام الليلة الماضية.

في جيب صدره رسالة من جو كوتريل، ضابط إعاشة الكتيبة. ساسون يحفظها عن ظهر قلب تقريبًا؛ الرحلة التي أجراها جو إلى غابة بوليغون مع جرايات الجنود، أرض ملآنة بالحفر مثل غطاء مِملحة، لا شيء سوى الوحل والأشجار الميتة على مد البصر. كانوا قد أمضوا الليلة في حفرة خلفتها قذيفة، تائهين تحت وابل غزير من النار. لقد قُتِل العديد من عناصر مفرزة الجرايات، لكن الكتيبة حصلت على جراياتها كما يقول جو. لدى قراءة هذا، أراد ساسون أن يهبّ عائدًا إلى فرنسا من فوره، غير أن جو قال في نهاية الرسالة تمامًا: «*استجمِعْ شجاعتك واخرج من عندك، اذهب إلى البرلمان. من المؤكد أنهم لا يستطيعون إبقاءك هناك ضد إرادتك؟*». المشكلة، فكر ساسون وهو يتنهد ناظرًا إلى ساعته، أن جذْع الغائبين المجهولين الذي يستخدمه جو ما هو إلا ريڤرز.

---

(1) الحرملة: رداء قصير واسع مشقوق من الأمام يحيط بالعنق ويقع على الكتفين متدليًا فوق الظهر والذراعين. (المترجم)

وصل ثورپ، «هـ... هـ... هـ... هل نعـ... نعـ... نعـ... نعرف مـ... ما.. ما الـ... ـذي يجـ... يجـ... جـ... يجعلهم يتـ... يتأ.. يتـ... يتأخـ... ـرون ها.. ها.. هكذا؟»، سأل بعد قليل.

هز ساسون رأسه نفيًا. پيو هز رأسه هو الآخر، غير أنه من الصعب الجزم بما إن كان ذلك جوابًا عن السؤال أم لا. وفجأةً طفح كيلُ ساسون: «وأنا عن نفسي لا أنوي البقاء لاكتشاف ذلك».

لمح صورةً عابرةً لثورپ وپيو وهما فاغران فميهما، ثم إذا به يوسع خطواته خارجًا من الغرفة، مرورًا بالدهليز، عابرًا الباب الدوار، لينطلق حينها مبتعدًا.

«پيو هو التالي، كما أظن؟»، قال برايس.

«على رسْلك يا صاح»، أجاب هانتلي: «عليَّ أن أفرغ جوف المركب».

انغلق الباب خلفه. قال برايس: «من أين يأتي بهذه التعابير البحرية برأيك؟»، وإذ لم يلقَ جوابًا، التفت نحو ريڤرز.

- لماذا كان على *ذلك* أن يستغرق ساعةً من وقتنا، لن أعرف أبدًا.

- پراير لم يساعد نفسه كثيرًا، أليس كذلك؟

لم يُجِب ريڤرز.

«وعلى الأقل حصلتَ على ما كنت تريده، في النهاية».

عاد الرائد يُزرِّر سرواله: «حسنًا، حسنًا»، قال كأنه هو الذي كان ينتظرهما: «فلنستأنف العمل».

مقابلة پيو كانت سريعةً وباعثة على الغم. وبما أن المساعد ذهب لتناول الطعام، خرج ريڤرز بنفسه إلى غرفة الانتظار لاستدعاء ساسون. كان ثورپ جالسًا هناك بمفرده. «هل رأيتَ ساسون؟».

«لقد...»، دخل ثورپ في إحدى نوباته التشنجية: «غـ... غـ... غـ... غـا.. غا.. غادر».

«غـ... غا..؟»، نفسٌ عميق: «إلى *أين* غادر؟».

رفع ثورپ كتفيه مقتصِدًا. اتجه ريڤرز إلى قاعة المرضى العامة وبحث عن ساسون هناك، لكنه عثر على پراير عوضًا عن ذلك، جالسًا إلى البيانو ينقّر بضع نغمات. رفع پراير رأسه، فشهرَ ريڤرز إبهامَه -إذ رأى أن الوقت حتى الإعلان الرسميِّ للنتيجة طويل- وطعن به الهواء مبتسمًا.

«حسنًا يا ثورپ»، قال وهو يدخل غرفة الانتظار عائدًا: «يحسن بك أن تدخل».

خرج ريڤرز من مقابلة ثورپ ليجد أن ساسون ما يزال غائبًا والأخت دافي تحوم في الدهليز بانتظاره من أجل الحديث عن پراير.

«إنه غارق في البكاء»، قالت: «فهمتُ أنه أُحيل إلى الخدمة المحلية الدائمة؟».

«صحيح».

صعد ريڤرز إلى غرفة پراير فوجده جالسًا على السرير، وقد كف عن البكاء، إلا أن الانتفاخ ما زال باديًا حول عينيه.

- يُتوقَّع مني أن أكون ممتنًا كما أفترض؟

- كلا.

- جيد، لأنني لستُ كذلك.

حاول ريڤرز أن يكبت ابتسامته.

- قلتُ لك إنني لا *أريد* هذا.

- ليست المسألة مسألة ما تريده، صحيح؟ بل مسألة أهليتك له.

- لقد كنتُ على ما يرام، لم يمنعني هذا يومًا عن فعل أي شيء يفعله الآخرون.

- لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا، أليس كذلك؟ لقد أخبرتني بنفسك أنك أُعفِيت من الركض عبر عنابر الغاز[1]، لأنك انهرت خلال محاولتك

(1) عنابر الغاز: هياكل نصف أسطوانية مسبقة الصنع (تشبه البيوت البلاستيكية) تقي من الغازات، استُخدمت بكثرة خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

الوحيدة. كانت مشاركتك في تدريبات الغاز تقتصر على الاستماع إلى المحاضرات، صحيح؟

لا رد.

«ما من مشكلة في المزاح بشأن أن تكون كناري الكتيبة، لكنه أمر صحيح، أليس كذلك؟ ستقهرك بالفعل تراكيزُ أخفض بكثير مما هي الحال مع معظم الأشخاص، ومن شأن هذا أن يكون في غاية الخطورة، *وليس عليك وحدك*».

أشاح پراير بوجهه.

تنهد ريڤرز: «هل تستوعب أن الرجل الآخر الذي أُحيل إلى الخدمة المحلية الدائمة سيقيم حفلةً الليلة؟».

- هنيئًا له، آمل أن تكون حفلة جيدة.

- لماذا تبغض الأمر إلى هذه الدرجة؟

صمت. قال پراير بعد قليل: «أعتقد أنني لم أعد مريضك، صحيح؟».

- صحيح.

- إذًا فلستُ مضطرًا أن أتحمل *هذا*؟

وقف جواب ريڤرز، أن شعور الانفراج متبادل، على رأس لسانه، لكنه نظر إلى العينين المتورمتين فضبط نفسه. «ما الذي لستَ مضطرًا أن تتحمله؟».

- الجدار الأصم.. الصمت المتكرر.. *الادعاء*.

- انظر، أنت تكرهني في الوقت الحاليّ لأنني أديتُ دورًا فعالًا في إيصالك إلى شيء تشعر بالخزي لكونك تريده. ليس بوسعي أن أفعل شيئًا يُذكَر حيال الكراهية، لكنني أظن فعلًا أنه يجدر بك النظر في مسألة الخزي. لأن هذا ليس شيئًا يستدعي أن تخجل منه، صحيح؟ إرادتك أن تظل على قيد الحياة؟ ستكون صنفًا شديد الغرابة من الحيوان إن لم تكن تريد البقاء.

هز پراير رأسه: «أنت لا تفهم».

- أخبِرني إذًا.

- لن يكون لي أن أعرف الآن، صحيح؟ بشأن نفسي...
- لكنك تعرف بالفعل. لقد كنتَ ضابطًا مُرضيًا تمامًا، إلى أن...
- إلى أن نال الإجهادُ مني فكففتُ عن كوني *ضابطًا مُرضيًا تمامًا*. في أي خانة يضعني ذلك؟
- في خانة تنبسط أمامها حياتُك بأكملها، وتحدياتٌ أخرى تواجهها.
- لو أنك *أنت* مريضٌ هنا، ألا تظن أنك كنتَ لتشعر بالخزي؟
- على الأرجح. لأن تنشئتي تماثل تنشئة الآخرين جميعهم، لكنني سآمل أن أملك *العقل*، أو -أيًا يكن- *الذكاء* كي أرى كم هذا الشعور غير مبرَّر.

كان پراير يهز رأسه: «غير ممكن. الحلقة أمامك، وعليك أن تقفز عبرها. إن أنت أخضعت الأمر للمساءلة، فشلتَ. وإن أُخِذت الحلقة منك، فشلتَ».

«لا، لا أرى ذلك. إن أُخِذت منك، يخرج الموضوع من يدك. أنت لم *تطلب* الحصول على الخدمة المحلية الدائمة، بل مُنِحتَ إياها، بناءً على تقرير إيغلزهام، لا تقريري *أنا*. ليس ثمة في حالتك السيكولوجية ما يمنع عودتك».

لم يُجِر پراير جوابًا، فقال ريڤرز برفق: «كل الناجين يشعرون بالذنب، لا تترك هذا يفسد كل شيء».

«ليس هذا هو الأمر. طيب، هو كذلك جزئيًا. كل ما هنالك أنني لم أسمح للربو يومًا أن يوقِفني. لقد أُمِرت أن أبقى خارج عنابر الغاز تلك، أما عن نفسي فقد كنت مستعدًّا جدًّا لعبورها. حتى في... في طفولتي، كنت *مصممًا* أنه لن يوقِفني. كان بمقدوري فعل أي شيء يفعله الآخرون، وليس ذلك وحسب، بل كان بمقدوري أن *أغلبهم*. لستُ ألمح إلى أنها ميزة خاصة بي، فأنا... أنا أعتقد أن معظم مرضى الربو هكذا. أمي كانت توجهني دائمًا في الاتجاه المعاكس، تحاول إبقائي تحت جناحها. لا ينبغي لي أن أنتقد المسكينة، أظنها قد أنقذت حياتي على الأرجح، لكنها *استغلت* ذلك. أرادتني أن أكون في المنزل بعيدًا عن كل *الصبيان الأجلاف البذيئين*. ثم فجأةً ها *أنت* ذا...»، رفع يديه: «تفعل الأمر نفسه بالضبط»، نظر إلى ريڤرز، بتحديقةٍ باردةٍ مستطرفةٍ هازئةٍ ودودةٍ عالية الذكاء: «لعل هذا ما جعلني لا أريدك أن تكون *بابا* أبدًا، لقد كنتُ أعد لك مصيرًا أسوأ».

ابتسم ريڤرز متذكرًا العنزة، وسرَّهُ أن پراير لا يستطيع ولوج أفكاره.

«شكرًا على تحمُّلك إياي».

قـيل ذلك بغمغمة سمِجة لم يتأكد ريڤرز معها إن كان قد سمع ما سمعه.

- لقد كنتُ أقذر من خنزير.

- على الإطلاق.

تردد پراير: «أتمانع إن تواصلتُ معك بعد الحرب؟».

- *أمانع*؟ سيكون ذلك من دواعي بهجتي. غير أنني لا أرى سببًا للانتظار إلى ما بعد الحرب، يمكنك دائمًا أن تكاتبني على عنواني هنا. وإن، إن حدث وانتقلتُ، سيعرفون أين أكون.

- شكرًا، سوف أكتب إليك.

عند الباب، استدار ريڤرز: «في حال لم أرك مجددًا قبل ذهابك: حظًّا سعيدًا».

•

تطلَّب الحديثُ على العشاء جهدًا، بسبب التعب من جهة، ومكانِ ساسون الخالي من جهة أخرى. اتضح بحلول هذا الوقت أنه تغيَّب عن مقابلة اللجنة عمدًا. لقد ترك آلَ سامبسون عند السادسة، بيد أنه لم يعد إلى المستشفى بعد. من الممكن أنه يتناول العشاء في النادي، ليؤخر اللحظة التي سيتعين عليه مواجهة ريڤرز فيها. لكنه متهور، وربما يائس، بما يكفي كي يستقل القطار إلى لندن ويورط نفسه في المزيد من المخططات المجنونة من أجل إيقاف الحرب. ريڤرز يعي كامل أبعاد المأزق الذي سيواجهه لو كان ساسون قد فرَّ بالفعل وبادر إلى احتجاج علنيٍّ آخر. سوف يُطلب منه أن يشارك في إعلانه مجنونًا، لن يُخضِعوه لمحاكمة عسكرية أبدًا. ليس الآن وقوائم الخسائر أفظع من أن تسمح بأي نقاش علنيٍّ حول استمرار الحرب.

نبَّه ريڤرز نفسه كي يشارك في الحديث، فوجد الرائد هانتلي يمتطي صهوة أحد موضوعاته الأثيرة من جديد. الانحطاط العرقي هذه المرة، انخفاض

معدل الولادات، الحاجة إلى الاستمرار في ما سمَّاه «الإمداد بالأبطال». هل يعلم ريڤرز أن المجندين أقل طولًا بخمسة *إنشات* من ضباطهم وسطيًّا؟ ومع ذلك فغالبًا ما تكون النساء المنتميات إلى الصنف الأفضل هن اللاتي يخترن تحديد حجم عائلاتهن، في حين تستمر أخواتهن الأدنى صنفًا في التناسل موديات بالإمبراطورية نحو الدمار. استمع ريڤرز بقدر ما استطاع من تهذيب إلى نظريات الرائد الداعية إلى إرجاع نساء بريطانيا إلى حسهن اللائق تجاه واجباتهن، لكنه شعر بالانفراج عندما انتهى العشاء واستطاع أن يتذرع بضغط العمل كي يهرب إلى غرفته.

كان قد ترك خبرًا لدى الأخت دافي بإرسال ساسون إليه حال عودته، مهما كان الوقت متأخرًا. وقد كان الوقت متأخرًا جدًا بالفعل، حين دخل عليه مُظهِرًا الندم والارتباك.

قال ريڤرز: «اجلس».

جلس ساسون، طاويًا يديه الكبيرتين في حضنه، وانتظر. كان سلوكه خليقًا بعريفِ صفٍّ متحمس، ومهذب عمومًا، يعلم أنه قد خذل مديرَ مدرسته خذلانًا شديدًا، وأن بانتظاره على الأرجح «شيئًا من التوبيخ»، لكنه يتوقع أن تنتهي الأمور على ما يرام. وما كان من شأن شيءٍ أن يذكي غضبَ ريڤرز أكثر من ذلك. «أنا واثق أن لديك تفسيرًا مُرضيًا تمام الإرضاء».

«كنتُ قد تأخرت عن موعدٍ لتناول الشاي مع سامبسون».

أغمض ريڤرز عينيه: «هذا كل شيء؟».

- أجل.

- وكان من المستحيل عليك أن *تتصل* بسامبسون، وتخبره أنك ستتأخر؟

- لم يبدُ هذا... لَبِقًا، لقد...

- وماذا عن اللباقة الواجبة تجاه الرائد برايس؟ والرائد هانتلي؟ ألا ترى أنك كنت تدين لهما على الأقل بتبرير قبل أن تغادر؟

صمت.

- لماذا يا سيغفريد؟

- لم أستطع مواجهة الأمر.

- هذا يفاجئني حقًا. لعلي كنت لأتوقع منك تصرفًا صبيانيًا، لكنني لم أتوقع الجبن قط.

- لستُ أقدم أعذارًا.

- لستَ تقدم أي شيء، وليست *أسبابًا* بالتأكيد.

«أنا لستُ واثقًا إن كان ثمة أي أسباب. لقد ضايقني إبقائي منتظرًا، قلتُ لنفسي إنني إن كنت *سأموت*، فبوسع الناس أن يبذلوا الجهد اللازم للالتزام بمواعيدهم على الأقل. كان ذلك...»، نفسٌ عميق: «احتجاجًا شكِسًا».

- إذًا ليس بوسعك إبداء سبب؟

- قلت لك، ما من أسباب.

- لا أصدقك.

- اسمع، سأعتذر، بل *سأسجد* متذللًا إن أردتَ.

- سجودك لا يثير اهتمامي، أفضّل لو تقول الحقيقة.

تلوَّى ساسون فوق كرسيه. «حسنًا. لدي هذه الفكرة التي تطفو في ذهني، منذ... أوه، منذ خمسة أسابيع أو ستة. كنتُ أفكر أنني لو استطعتُ تدبُّر الحصول على إقرار بأهليتي ثم ذهبتُ إلى لندن، لعله يكون بإمكاني أن أرى شخصًا مثل... تشارلز مرسييه».

- د. مرسييه لا غيره؟

- أجل.

- ولماذا عساك تريد أن تراه بحق السماء؟

- من أجل الاستئناس برأيٍ ثانٍ. إنه جيد، أليس كذلك؟

- أوه، أجل، لن تجد أفضل منه، لكن... إن كنتَ قد حصلت على إقرار اللجنة بأهليتك لتوك، ما حاجتك إلى رؤية مرسييه؟

- كي لا يُتاح لهم أن يقولوا إني انتكست، إن أنا تابعتُ الاحتجاج.

أرجع ريفرز ظهره فوق كرسيه: «أوه، أفهم ذلك».

صمت.

- وهل عقدتَ العزم على هذا بشكل نهائيٍّ؟

- لم أعقد العزم على أي شيء بشكل نهائيٍّ. إن كنت تريد معرفة *السبب* الذي دفعني إلى المغادرة، فهذا هو على الأرجح. لقد فطنتُ فجأةً إلى أني في غضون بضع ساعات سأكون أحزم أغراضي، ولم تكن لدي أدنى فكرة إلى أين سوف أذهب. ثم، في القسم الخلفيِّ من ذهني، لاحت فكرةٌ تقول إني إن ذهبتُ إلى مرسييه سأكون...

أمهله ريڤرز.

- سيكون في تصرفي إساءة إليك.

- كان بوسعك الحصول على استشارة ثانية في أي وقت. لم أعلم أنك تريد ذلك، فالأشخاص الذين يخبرهم أطباؤهم النفسيون أنهم أصحاء العقل تمامًا لا يطلبون عادةً استشارةً ثانيةً.

- لكن هذا ما سوف يفعلونه، أليس كذلك؟ سيقولون إني انتكست؟

- بلى، على الأرجح. أفهم أنك حسمت قرارك على عدم العودة؟

- لا، أنا أريد أن أعود.

أرخى ريڤرز جسده فوق الكرسي: «حمدًا لله. لستُ أدَّعي أنني فهمت، لكن الحمد لله»، ثم أضاف بعد قليل: «أتعلم أين تكمن المفارقة الساخرة الحقيقية في كل هذا؟ لقد تلقيتُ صباح اليوم رسالةً من مكتب الحرب. ليست تعهدًا بإعادة إرسالك بالضبط، لكن... علامات على التقدم».

- والآن أفسدتُ كل شيء بذهابي لتناول الشاي برفقة فلكي.

- أوه، لا أظن ذلك. سوف أكتب إليهم الليلة.

نظر ساسون إلى ساعة الحائط.

«حسنًا، لن نرغب أن يصل الخبر عن طريق هانتلي، صحيح؟ بالمناسبة، رغم تأخر الوقت، أظن أن الرائد برايس ما زال راغبًا في رؤيتك».

فهم ساسون التلميح، ونهض واقفًا: «ماذا تظنه سيفعل؟».

«لا أدري. سوف يقرِّعك، كما أتمنى».

19

لم يسبق لپراير أن اقتحم منزلًا من قبل. ليس أنه الآن يقتحم هذا المنزل بمعنى الكلمة -ذكَّر نفسه- بيد أن الأمر بدا هكذا، وهو يقف مرتجفًا من البرد في الفناء الخلفيِّ، في فسحةٍ بين ما لا بد أن يكون -كما افترض- سقيفة تخزين الفحم وبين المرحاض الخارجيِّ. شد معطفه أكثر حول جذعه ومدَّ عنقه كي يرى السماء. سحاب خفيف، ما من قمر، النجوم تخز الظلمة، وثمة طقطقة صقيع.

كان ينتظر إشارة المصباح من نافذة سارا، لكنها تأخرت كثيرًا، وهنالك رعدة داخله لا علاقة لها بالبرد. الظلماء، التوتر، ازدراد الريق المتكرر دون ضرورة... إنه في فرنسا من جديد، ينتظر الخروج في جولة خفر.

تذكَّر *الإحساس* الذي تبعثه المنطقة المحرمة، المساحة الشاسعة التي يتعذر تصورها. في النهار، عند النظر إليها من خلال منظار أفق، كانت هذه الأطراف المترامية تتقلص إلى رقعة أرض صغيرة مجدورة تتشابك فيها الأسلاك. ما كان المرء يعتاد ذلك التناقض قط، وهذا جزء من قوة المنطقة على إخضاع المخيلة وحصرها ضمن حدودها. الأمر أشبه بالفرق بين رؤية قرحة فموية وجسّها باللسان. قال لنفسه إنه لن يعود أبدًا، وإنه بات حرًّا، لكن كلمة «حر» كانت ذات رنين أجوف. *أسرعي يا سارا*، قال في سِره.

كان قد بدأ يتساءل إذا ما عساها تكون صادفت صاحبةَ البنسيون على الدرج، عندما ظهر ضوءٌ من النافذة. بدأ التسلقَ من فوره، منتقلًا من فوق الغسالة

الصدئة إلى سطح مُلحَق المطبخ المنحدر. ما من شيء عسير في التسلق، الخطر الوحيد يتمثل في القرميد الذي تعوزه المتانة. نقل قدميه، محاولًا ألا يثير الكثير من الضجة، مع أنهن حتى لو سمعن سيعتقدن أنها قطة على الأغلب. كانت غرفة سارا في الطابق الأول. حالَ بلوغه الجدار الرئيسيَّ، نهض واقفًا بحذر، وأقحم رؤوس أصابعه في فجوة بين قرميدتين. نافذة سارا على بُعد ثلاثة أقدام تقريبًا، لكن هنالك أنبوب تصريف يساعده. رفع قدمه اليسرى وثبَّت مقدمتها على الأنبوب -الذي كان أمتن من السطح لحسن الحظ- ثم ألقى نفسه عبر الفتحة المظلمة. هبط بأمان، إنما دون هدوء، مرتطمًا بسارا التي كانت قد عادت كي ترى لماذا تأخر. جمدا في مكانهما، يتسمَّعان مترقبَين أي تحرُّك. وحين لم يسمعا شيئًا، نظرا إلى بعضهما وابتسما.

كانت سارا تحمل مصباح زيت، وضعته على الكوميدينا قرب السرير وذهبت لتسدل الستائر. سرَّهُ أن يُطرَد الليل، بكل ما يحمله من ذكريات الخوف وهمس الحراس القلِق. ثم استدارت سارا نحو داخل الغرفة من جديد.

نظر واحدهما إلى الآخر دون أن يعثر على ما يقوله. بدا السرير -رغم أنه مفرد- كبيرًا جدًّا، وجعلهما عريُهما الوشيكُ يستحيان من بعضهما. خلال كل أسابيع ممارسة الحب، لم يُتَح لهما ولو مرة أن يتعريا. تأثر پراير بحياء سارا، وشعر ببعض الخزي من حيائه هو.

بمسحة من الاطمئنان، راح ينظر في أنحاء الغرفة. في ما خلا السرير، ثمة كوميدينا وكرسي وخزانة أدراج ومغسلة مُقحَمة في الزاوية قرب النافذة. هنالك قميصٌ داخليٌّ نسائيٌّ مُلقًى على ظهر الكرسي، ومِشدٌ مرميٌّ على الأرضية بالقرب منه. لما انتبهت سارا إلى اتجاه نظرته، ركلت المشد إلى تحت الكرسي.

«لا تشغلي بالك»، قال لها: «أنا لست مرتبًا».

حرَّرهما وقْعُ صوته من توترهما. جلس پراير على السرير، وربت على الفراش كي تأتي وتجلس بجانبه.

«يُستحسن ألا نتكلم كثيرًا»، قالت: «أخبرتهن أنني سأعود في وقت متأخر، لكن إن سمعن أصواتًا سيأتين جميعهن».

ما كان بمقدوره أن يتكلم كثيرًا على أي حال، إذ إن أنفاسه انحبست في حنجرته. راحا يحدقان واحدهما إلى الآخر. مد يده ليحل لها شعرها، وهزه فانسدل على جانبَي رأسها. ثم استلقيا جنبًا إلى جنب، وهما لم يزالا ينظران إلى بعضهما. من هذا القرب، اندمجت عيناها فصارتا عينًا واحدة، تُهدّبها الرموش كأنها نباتات مما قبل التاريخ نمت على أطراف بِركة غامضةٍ بالكاد بشرية. ظلا مضطجعَين هكذا عشر دقائق أو خمس عشرة، لا أحد منهما يريد التعجل، مذهولَين بالوقت المنبسط أمامهما.

بعد قليل، انقلب پراير على ظهره ونظر إلى الصورة فوق الكوميدينا، مُبعِدًا المصباح كي يرى بشكلٍ أفضل. عروسان وأشابنة. زفاف سينثيا -قال لنفسه- إلى ذلك الجندي ذي الوجه الشاحب، البدين إلى حدٍّ ما، الذي يبتسم بارتباك متوسطًا المجموعة؛ لا بد أنه مات بحلول هذا الوقت. إما أن يبدو الناس في الصور الجماعية بُلهًا، وإما مخابيل، بوجوههم المجمَّدة ترقبًا لوميض آلة التصوير. لكن هذا لا ينطبق على والدة سارا. حتى في ألوان الصورة البُنية الداكنة، كانت عيناها تقدحان شررًا. وذلك *الفك*، كان ليبدو رائعًا لو أنه لرَجل.

«والدتك تشبه طبيبي»، قال لها، ثم نظر إلى الصورة من جديد: «لا تبتسم كثيرًا، أليس كذلك؟».

«كانت مبتسمةً في التأبين»، نظرت إلى الصورة: «أنا أحبها، كما تعلم».

«بالطبـــ...»، توقف. لماذا «بالطبع»؟ فهو لم يكن يحب أباه.

«يسرني أنك لن تعود».

دون إنذار، رأى پراير من جديد المِعوَل والكيس والكلس المنثور، ومقلة العين في راحته المبسوطة. «أجل»، أجابها.

لن تعرف أبدًا، لأنه لن يخبرها. بطريقةٍ ما، لو عرفت الأجزاء الأفظع في القصة، لن يعود من الممكن أن تظل مأوىً يلوذ به. كان يتلمس طريقه بحثًا عن فكرةٍ لم يستطع وضع يده عليها تمامًا. الرجال يقولون إنهم لا يحدِّثون نساءهم عن فرنسا لأنهم لا يريدون إقلاقهن، لكن في الأمر ما هو أكثر من ذلك. كان يحتاج إلى جهلها كي يختبئ فيه. ومع هذا، في الوقت نفسه، هو يريد أن يعرف ويُعرَف إلى أعمق حد ممكن. والرغبتان متضاربتان لا يمكن التوفيق بينهما.

«أتعتقدين أنني سأعجب أمك؟».

كانا قد رتّبا لقضاء جزء من إجازته معًا.

«ليس بمقدار ما كنت ستعجبها لو أنك عائد».

«أخبريها عن رئتيَّ، هذا سيخفف عنها». شعر أنه يعرف آدا أصلًا.

انقلبت سارا على جنبها وبدأت تُعرِّيه من ثيابه. تظاهر أنه يقاوم، لكنها دفعته فاستلقى من جديد يهتز ضحكًا، فيما انهمكت هي في حل عُقد قلاشينه. استسلمت آخر الأمر، أراحت رأسها على ركبتيه، وأخذت تتكركر. «إنها أشبه *بالمِشد*».

«لا تخبري مكتب الحرب بهذا، وإلا تسببتِ في قلق رجال كثر».

كفَّا عن الضحك، ونظرا إلى بعضهما.

«أحبكِ»، قال لها.

- أوه، لا داعي إلى قول *هذا*.

- بلى، فهو صحيح.

أخذت وقتها للتفكير في الأمر، ثم قالت أخيرًا مع نَفسٍ شهيق: «جيد. أنا أيضًا أحبكَ».

جلس أوين وساسون في زاوية من ردهة نادي المحافظين. كانا مستفردَين بالقاعة، في ما خلا عضوًا واحدًا آخر كان شبه مختفٍ خلف صحيفة *السكوتسمان*. بعد أن قدَّم النادل البراندي وانصرف، أخرج ساسون كتابًا من جيبه: «أود أن أقرأ لك شيئًا، أتمانع؟».

- كلا، تفضل. أهو لشخصٍ أعرفه؟

- أليمر سترونغ. حصلتُ عليه من المؤلف. لقد أحضر لي نسخة من كتاب الليدي مارغريت و... إمـمم... ذكر صدفةً أنه يكتب هو الآخر. وكالأحمق، همهمتُ مشجعًا.

- ليس هذا كارثيًّا دائمًا. لمَ تريد أن تقرأه لي؟

- سترى. ثمة إهداء من نوعٍ ما، في إحدى القصائد.

سيغفريد، لقد حارب آباؤك

الكثيرَ من طيور العوسق، حازين حذوَ الحمائم.

نظر أوين بوجهٍ خالٍ من التعبير: «ما معنى هذا؟».

- سؤال لا يليق بشخص ضليعٍ في الأدب، آمل ألا يكون مربي الخنازير المستقبليُّ هو الذي يتكلم. أعتقد أن المقطع يُحيل إلى اضطهاد اليهود.

- لكنك لستَ يهوديًّا.

- بلى، في الحقيقة. أو بالأحرى، «آبائي» كانوا يهودًا.

«لم أكن أعلم ذلك»، تأمل أوين المعلومةَ عبر سديمٍ من الخمر: «ألهذا تُدعى سيغفريد؟».

- كلا، أنا أُدعى سيغفريد لأن أمي كانت تحب ڤاغنر. القاسم المشترك الوحيد بيني وبين اليهود الأرثوذكس هو أنني أشكر الله من أعماقي لكوني وُلِدتُ رجلًا لا امرأة. فلو كنتُ امرأة، لسُمِّيتُ برونهيلدا[1].

- هذه أمسيتنا الأخيرة، وأشعر كما لو أنني التقيتُ بك توًّا.

- أنت تعرف كل الأمور المهمة.

راح واحدهما ينظر إلى الآخر، ثم أعاد صوتُ تقليب صفحات *السكوتسمان* انتباهَهما إلى الكتاب. أخذ ساسون يقرأ مقتطفات منه، وضحك أوين -الذي كان مخمورًا يخشى أن يتخذ طابعًا جديًّا أكثر من اللازم- حتى اختنق. كان ساسون قد بدأ إلقاءه بوقار، لكنه حين وصل إلى:

أيُمكن أن أكون أصبحتُ

هذه اليقطينة، هذا الخواء القوطي؟

انفجر ضاحكًا: «أوه، أحببتُ ذلك. أما أنت فقد يعجبك هذا أكثر».

أيُّ مبغضٍ للبشر في الثوب الكهنوتي

يتنحّعُ بأناشيد السلام كي يحظى بالمجد،

مرتلًا من سُدةِ منبره تراتيلَ استسرار الكراهية؟

---

(1) الإشارة هنا إلى مسرحية ريتشارد ڤاغنر الأوبرالية «زيغفريد»، ومن شخصياتها الرئيسية «زيغفريد وبرونهيلدا». و«سيغفريد» هو اللفظ الإنجليزي للاسم. (المترجم)

- تراتيل *ماذا*؟

- الاستسرار.

- ما من كلمةٍ كهذه.

- بلى، إنه نوع الطقوس المذكورة في الملاحم.

«هل لي أن أرى؟»، قرأ أوين القصيدة: «هذا الرجل مناهض للحرب».

«أوه، أجل»، تقبضت شفتا ساسون: «وهو ساخط بوجه الخصوص على الدور الذي تلعبه الكنيسة المسيحية فيها. نقاط التشابه باعثة على القلق يا أوين».

«أنا عن نفسي قلقتُ»، همَّ بإرجاع الكتاب: «هذا لا يُصدَّق، صحيح؟».

«لا، انظر في الداخل».

نظر أوين إلى الصفحة البيضاء في أول الكتاب وقرأ: *أوين. من س. س. في إدنبرة. 26 أكتوبر 1917*. وفي الأسفل كان ساسون قد كتب:

عندما شمَّ القبطان كوك الأكاسيا للمرة الأولى
وأعاد الحبُّ اكتشافَ أرسطو كما فعل كولومبوس[1].

«هذا نموذجيٌّ تمامًا»، قال أوين.

- إنه يلخص أسلوبه فعلًا، أليس كذلك؟

- أنت تفهم قصدي. هذا هو الشيء الوحيد الذي سبق لك فعله وكان يعبر عن عواطفك *قليلًا*، وها أنت تفعله بطريقة تجعل أخذَه على محمل الجد مستحيلًا.

- أترى أن التحلي بالجد الليلة فكرة جيدة؟

- حبًّا بالله، أنا ذاهبٌ إلى سكاربورو لا غير. ستصل *أنت* إلى فرنسا قبلي.

- آمل ذلك.

- لا خبر من مكتب الحرب؟

---

(1) ورد استخدام مفردة «كولومبوس» في النص الأصليِّ على شكل فعل ماضٍ: «فعلَ الحبُّ بأرسطو فِعلَ كولومبوس»: أي أعاد اكتشافه بعد غيره وادعى الأسبقية في ذلك. (المترجم)

- كلا. وقد ألقى ريڤرز خبرًا بمنزلة قنبلة هذا الصباح، سوف يغادر.

- حقًا؟

- لستُ متشوقًا إلى كريغلوكهارت دونكما. لقد ذكرتُكَ أمام ريڤرز، لعلمك.

- وماذا قال؟

- قال إنك ضابط شاب شهم وحي الضمير إلى أبعد حد...

- *أووه*.

- «*أووه*». وإنك لا تحتاج إلى من يُعلِّمك واجبك، *على* عكس إلخ... إلخ... وهو لا يرى أي أسباب على الإطلاق لإبقائك في المستشفى دقيقةً أخرى. أظنه كان منزعجًا بعض الشيء بخصوص مطالبته بنقض حكم بروك.

- لستُ متفاجئًا، ما كان ينبغي لك فعل ذلك. اسمع، يمكنني الاستفادة كثيرًا من شهر آخر، فأنا *أكره* أن أغادر، لكن الواقع أنني سأشغل سريرًا يحتاج إليه مسكينٌ آخر أكثر مني بكثير.

- كما سأفعل أنا.

- لم أقصد ذلك.

«لا، لكنه صحيح»، ألقى نظرةً على ساعته: «يحسن بي أن أنطلق، أظن أن عقوبة التأخر في العودة وفقًا للنظام الجديد هي الصَّلب أمام الملأ».

في البهو، أخرج ساسون ظرفًا من جيب صدره: «هذه رسالة تقديم إلى روبرت روس. الظرف مختوم لأنه يحتوي على شيء آخر إلى جانب الرسالة، لكن هذا لا يعني أنك لا تستطيع قراءتها».

حاول أوين أن يفكر في شيء يقوله وأخفق.

- اعتنِ بنفسك.

- وأنت أيضًا.

ربت ساسون على كتفه وانصرف. لا شيء آخر، ولا حتى «وداعًا». لعل هذا أفضل، قال أوين لنفسه وهو يعود إلى الردهة، أفضل لسيغفريد على أي حال. كأسا البراندي الفارغتان على الطاولة، تقفان في بِركة ضوء يلقيها المصباح

ذو العمود الطويل. لكن المستمِع غير المرئيّ غادر، صحيفة *السكوتسمان* تُرِكت مطويةً بعناية على طاولة قرب الباب.

جلس أوين، وأخرج رسالة التقديم، لكنه لم يفتحها على الفور. صوت تكّات الساعة عالٍ جدًّا في القاعة الخالية. أرجع ظهره فوق الكرسي وأغمض عينيه. كان يخشى أن يقيس الفقدانَ الذي يشعر به.

20

حلَّ موعد مغادرة ريڤرز لكريغلوكهارت في الرابع عشر من نوڤمبر، بعد إيفائه بوعده لبرايس في ما يخص استقبال الضابط الآمر الجديد. كانت مغادرته محفوفةً بما اعتبره تمجيدًا متأججًا غير مستحَق بالمرة. لقد بدأ ويلارد يمشي أخيرًا، وتفهَّم ريڤرز أن يُعتبر هذا «العلاج» مأثرةً طبيةً عظيمةً من قِبل مفرزة المساعدات التطوعية ومساعدي التمريض وأمناء السر وطاقم المطبخ، لكن كان من المُربِك بعض الشيء أن يجد تأييدًا لدى بعض كبار طاقم التمريض لتلك النظرة.

ويلارد نفسه كان مثيرًا للسخط. فجميع جهود ريڤرز لغرس التعقل بشأن حالته في ذهنه، وتمكينه من فهم *السبب* الذي جعله قعيدَ كرسي متحرك وكيف يمكن تجنُّب المآل نفسه في المستقبل، قوبِلت بعينين زائغتين واحترام راعش. كلما اقترب ريڤرز منه ولو بالكاد، كان ويلارد يهب لأداء التحية دون إبطاء. إنه موقنٌ أن نخاعه الشوكيَّ كان معطوبًا، وموقن أن ريڤرز أعاد وصْل الطرفين المنفصلين. من نافلة القول أن ذلك لم يُثِر إعجاب بقية الضباط الأطباء. وفي الواقع، بعد مشاهدته لريڤرز وهو يعبر عن عرفانه لإحدى التحيات الحارة للغاية، سُمِع بروك يغمغم: «ومن أجل خدعتي السحرية التالية، سأسير على الماء».

الجولة المسائية الأخيرة كانت باعثةً على الحزن لريڤرز والمرضى معًا. ترك ساسون للنهاية، ثم اتجه إلى غرفته متذكرًا أنه كان قد أمضى اليوم مع

الليدي أوتولين موريل وتعرض -كما يُفترض- لجرعة كبيرة من البروباغندا المناصرة للسلام.

كان ساسون جالسًا على الأرض، مشابِكًا يديه حول ركبتيه، يحدق إلى النار.

«كيف كانت حال الليدي أوتولين؟»، قال ريفرز مقتعدًا الكرسي الوحيد: «هل أرغت وأزبدت؟».

- ليس تمامًا، لم نأتِ على ذكر الحرب.

- أوه؟

- لا، تحدثنا عن كاربنتر بشكل رئيسيٍّ. أو بالأحرى أنا الذي تحدثت، هي استمعت.

يا لليدي أوتولين المسكينة. «ولم تُفتح سيرة الحرب على الإطلاق؟».

«ليس اليوم، أما ليلة أمس فبلى. أعتقد أن كلينا كان يعرف أن لا جدوى من الخوض في ذلك من جديد. أتعرف ماذا سألتني؟ لقد سألتني إذا ما كنتُ أدرك أن العودة ستتضمن قتلَ ألمان»، سيطر على غضبه: «يمكن لمناصري السلام أن يكونوا وحشيين على نحوٍ مدهش».

كانت ومضة الغضب الوجيزة تلك الانفعالَ الوحيد الذي أظهره ساسون مذ تغيَّب عن مقابلة اللجنة. كان يبدو أحيانًا غير واعٍ بمحيطه تقريبًا، كما لو أن بمقدوره تخطي هذه الفترة الفاصلة بين لجنةٍ والتي تليها بمجرد إغلاق منافذ وعيه تجاه مكانه وما يحدث حوله. ومع ذلك كان يكتب، وبدا يعتقد أنه يكتب بشكل جيد. كل الغضب والأسى يُحال الآن إلى الشِّعر. لقد فقد الأمل في التأثير بالأحداث، أو لعله فقد الأمل بالمجمل. في خلفية ذهن ريفرز، يقبع خوفٌ من أن تكون كريغلوكهارت قد فعلت بساسون ما أخفقت أراس والسوم في فعله. وإن كان ذلك، فلا مهرب له من المسؤولية.

استعاد ساسون انتباهه: «ستنطلق باكرًا، أليس كذلك؟».

- أجل، في رحلة السادسة.

- هذا هو الوداع إذًا.

«لمدة أسبوعين فقط، سوف أعود من أجل اللجنة. وريثما يحدث ذلك....»، نهض واقفًا: «أبقِ رأسَك مطأطأً[1]».

أقام ريڤرز ليلته مع آل هيد ثم انتقل إلى مسكنه الجديد في هولفورد رود، على مسافةٍ قصيرة يمكن قطعها سيرًا من مستشفى الفيلق الجويِّ الملكيِّ. تشغلُ الطابقَ تحته عائلةٌ من اللاجئين البلجيكيين، تثير مطالبتُها بطعامٍ أفضل ولا مبالاتُها الظاهرة تجاه الترشيد سخطَ صاحبة البنسيون، السيدة إيرڤينغ، إلى حدٍّ لا يُقاس. كانت تميل إلى إيقاف ريڤرز على الدرج كي تتذمر من العائلة طويلًا. أما بقية السكان، فيظهر أنهم أكثر قناعة، ولا يقدمون أسبابًا للتذمر.

الغارات الجوية تُقلِق الليالي، ولم يكن التعكير ناتجًا عن التحركات الألمانية بقدر ما هو عن مدافع المتنزه التي تضرب بدويٍّ يشبه سقوط القنابل. الجميع يحتشدون في القبو خلال هذه الغارات؛ اللاجئون البلجيكيون والسيدة إيرڤينغ وابنتها العزباء التي تعمل في المستشفى، والسكان الآخرون كلهم، والفتاتان الشابتان اللتان تقطنان في العلية، ويقتسمون كل أعمال المنزل في ما بينهم. إلى الحد الذي استطاع أن يتبينه، فهم يجلسون حول الطاولة أو تحتها، مغامرين بالخروج إلى المطبخ لتحضير عدد لا ينتهي من أكواب الكاكاو. كان يُدعى كي ينضم إلى هذه الحفلات، لكنه يعتذر دائمًا ويقول إن الغارات الجوية لا تزعجه كثيرًا وإنه يحتاج إلى النوم.

كان يتمكن من النوم خلال بعض الغارات، بيد أن المدافع تجعل ذلك مستحيلًا في ليالٍ أخرى. لم تكن صحته جيدة تمامًا، لكنه لم يشأ أن يأخذ المزيد من الإجازات المرضية، ولم يكن قد استحق إجازته الروتينية بعد. كان يمضي الكثير من الوقت مع آل هيد، وقد جاءاه فجأةً ذات ليلة واختطفاه اختطافًا إلى المسرح كي يشاهد الباليه الروسي. خرجوا من هناك، ولم يزالوا تحت تأثير الدوار من دوامات الأضواء والألوان، ليجدوا غارةً أخرى تُشَن.

---

(1) «أبقِ رأسك مطأطأً»: جملة تعني -في السياق العام- النصيحة بتجنب المشكلات والتركيز في المسائل الشخصية، كما تُستخدم على نطاق واسع في سياق الغولف لتشجيع اللاعب بعد ضربة غير موفقة. (المترجم)

توقفوا في ساحة ليستر سكوير ونظروا نحو السماء، وكان ثمة منطادُ زبلين يطفو في الهواء مثل سمكة فضية غريبة. الشائعات تقول إن نساءً يقُدن تلك المناطيد. بدا من غير المعقول لريفرز أن يكون ثمة من يصدق هذا، لكنه سرعان ما اكتشف أن معظم الناس يصدقون، والسيدة إيرفينغ تعتبره حقيقةً لا مِراء فيها.

ما إن باشرَ عمله في المستشفى حتى بات مشغولًا، وافتتن -كما توقع هيد- بفروق حدة الانهيارات بين فروع الفيلق الجويّ الملكيّ المختلفة. فالانهيار بين الطيارين، وهم يتعرضون له بالطبع، أقل تواترًا -وأقل حدةً في العادة- مما هو بين الرجال الذين يُديرون مناطيد الاستطلاع. إذ إن هؤلاء، الذين يطفون عاجزين في الهواء فوق ساحِ الوغى غيرَ قادرين على تجنُّب الهجوم ولا الدفاع الفعال عن أنفسهم أمامه، يسجلون أعلى نسبة انهيارات بين فروع الخدمة كلها، بما في ذلك ضباط المشاة. وقد دعَّم هذا رأيَ ريفرز القائل بأن التوتر والجمود والعجز على المدى الطويل هي العوامل التي تُلحِق الضرر، لا الصدمات المفاجئة أو الفظاعات العجيبة التي يميل المرضى أنفسهم إلى الإشارة إليها على اعتبارها تفسيرًا لحالتهم. ومن شأن هذا أن يشرح تفشي القلق العُصابي والاضطرابات الهستيرية بنسبة أكبر لدى النساء في زمن السلم، لأن حياتهن الأضيق نسبيًّا تتيح لهن فرصًا أقل للتفاعل مع الضغوط بطرق فعالة وبنَّاءة. يجب على أي تفسير لعُصاب الحرب أن يتناول حقيقةَ أن حياة الحرب والخطر والشظف شديدةَ الذكورية ظاهريًّا هذه تسبب للرجال نفس الاضطرابات التي تعاني النساء منها في السِّلم.

إذًا كان لديه الكثير ليفكر فيه، وسرعان ما اتضح أنه سيكون لديه الكثير ليفعله. كان العديد من مرضاه القدامى في كريغلوكهارت ممن يعيشون في لندن أو جنوب إنجلترا قد كتبوا إليه بالفعل يستأذنون لمقابلته، ومن شأن هذا وحده أن يمده بمقدار كبير من العمل.

موعد عودته إلى كريغلوكهارت يحين في الخامس والعشرين من نوفمبر، وكان قد قبِل دعوةً لزيارة ساحة الملكة في الرابع والعشرين. لقد سبق أن وُجِّهت إليه الدعوة عدة مرات إلا أنه كان يجد سببًا للرفض في كل مرة، لكنه الآن، إذ أصبح واحدًا بين العدد القليل من أطباء لندن الذين يتعاملون مع

عُصابات الحرب النفسية، اعتبر قبولَ الدعوة أمرًا نفعيًا أكثر من كونه سارًا. وبناءً على ذلك، في التاسعة والنصف يوم الرابع والعشرين من نوفمبر، صعدَ درجَ المستشفى الوطنيّ. كانت المدافع قد أرّقت ليلته أكثر من المعتاد، وهو يشعر بتوعكٍ واضح. لو كان بمقدوره إلغاء هذه الزيارة أو تأجيلها دون أن يُفسَّر تصرفه على أنه إساءة، لما تردد في فعل ذلك. قدّم اسمه إلى موظفة الاستقبال، فأخبرته أن د. بيلاند ينتظره وطلبت منه الصعود.

استقل المصعد إلى الطابق الثالث، وعبَر من الباب الدوار إلى دهليز طويلٍ خاوٍ متألق، بدا يزداد امتدادًا ما إن همَّ يسير فيه. بدأ يخشى أن يكون مريضًا حقًّا. ثمة شيء مريب في هذا الدهليز المهجور ضمن مستشفى يعلم أنه مكتظ، شيء يخالف المألوف. شعورٌ يكاد يتطابق مع ما يصفه مرضاه حين يتحدثون عن تجربتهم على الجبهة، وفي المنطقة المحرمة، الأرض التي تبدو خاليةً من الحياة في حين أنها تضم ملايين الرجال في الواقع.

فُتِح الباب الدوار في النهاية القصية للدهليز. سُرَّ ريڤرز أول الأمر، إذ توقع أن يُستقبَل من قِبل ممرضةٍ مندفعة أو فتاةٍ من مفرزة المساعدات التطوعية، لكن مخلوقًا -بالكاد يشبه الرّجل- زحف عبر الباب عوضًا عن ذلك وأخذ يتحرك نحوه. كان هذا الظل يتقدم بسرعة لافتة بالنسبة إلى شخصٍ أحدب وجليّ التشوه إلى هذه الدرجة. رأسه ملويٌّ إلى الجانب ومشدود إلى الخلف، وعموده الفقريُّ شديد الانحناء مما يجعل صدرَه موازيًا لساقيه المعقوفتين بدورهما عند الركبتين. إضافةً إلى ذلك، إحدى ذراعيه -اليسرى- تبدو كأنها منخلعة عن جسمه ومنكمشة. فيما تتشبث يده اليمنى بالدرابزين، ولا تنزلق عليه، بل تنتقل خطوةً خطوة، مُصدِرةً أصواتَ صفعٍ متكررة على الخشب.

لدى تقاربهما، أدار الرجل رأسه بقدر ما استطاع أن يُديره، وراح يحدق إلى ريڤرز نحو الأعلى. على الأرجح أن ذلك لم يكن سوى بدافع الفضول الذي يشعر به المرضى دائمًا عند ظهور طبيبٍ في الأجنحة التي لا يحدث فيها شيء آخر على الإطلاق، لكن بدا لريڤرز أن وجهه يكتسي بتعبير كئيب وحقود في آنٍ معًا. تعيَّن عليه أن يبادر هو إلى الإشاحة بعينيه. حينئذٍ خرجت إحدى فتيات المفرزة من جناح جانبيٍّ، وقالت بطريقتهن الملاطِفة المعهودة التي تشد الأزر: «إنها العاشرة تقريبًا، فلنأخذك إلى السرير».

الجولة الصباحية. تساءل ريفرز إن كان هذا ما ينتظره.

وهذا ما كان. خرج ييلاند من غرفته متوسطًا طبيبين متدربَين، صافحه بنشاط رشيق وقال إنه يرى أن أفضل تعريفٍ عامٍ ربما يتمثل ببساطة في إجراء جولة.

كانت المجموعة تتألف من ييلاند، والطبيبين المتدربَين في سياق اختبارٍ لهما، وممرضة مسؤولة عن جناحٍ لم تقدم أي مساهمة ولا دُعيَت إلى ذلك، وبضعة مساعدين كانوا يحومون في الخلفية تحسبًا للاستعانة بهم من أجل الحمل. كان ييلاند شخصية مثيرة للإعجاب، لا يكتفي بالنظر في عينَي محدِّثه وحسب، بل يحدق بانتباهٍ شديد يشعر المرء معه أن جمجمته باتت شفافة، وكلامه مضبوط ودقيق إلى أبعد حد. ثمة شيء في هذا الإبراز الثابت الذي لا يلين للسلطة جعل ريفرز يريد أن يضحك، لكنه فكر أنه ما كان ليريد أن يضحك لو أنه طبيب متدرب أو مريض. مروا على جناح النقاهة أولًا. دار القسم الأكبر من الحديث بين ييلاند والطبيبين المتدربَين، مع بعض الجُمل الجانبية الموجهة إلى ريفرز من آنٍ إلى آخر. ولم يتجاوز التواصلُ مع المرضى تحياتٍ منشرحة رشيقة تصدر من موقع سلطة، ما من أسئلة حول حالتهم السيكولوجية. فكر ريفرز أن العديد منهم يُظهِرون علامات اكتئاب، لكن إزالة الأعراض الجسدية كانت تُعَد العلاج في كل حالة. سيُخرَّج معظم هؤلاء المرضى في غضون أسبوع، كما قال ييلاند. طرح ريفرز أسئلةً بشأن معدلات الانتكاس، ومعدلات الانتحار، فتلقى الجواب المتوقَّع: لا أحد يعرف.

كان جناح القبول هو التالي. جناح طويل للغاية، تصطف فيه الأسِرة ذات الملاءات البيضاء مرصوصةً قرب بعضها. النوافذ على الجانبين تمتد من الأرضية إلى السقف، والغرفة غارقة بضوءٍ شماليٍّ بارد. المرضى -وأطرافُ العديدِ منهم تُظهِر تقفُّعاتٍ[1] شاذة- يجلسون، إن كانوا قادرين على الجلوس، باستقامةٍ في أسِرتهم، محاولين بذل أقرب درجةٍ يستطيعون بلوغها إلى الانتباه. كان الرجلُ، الذي التقى ريفرز به في الدهليز، قرب مدخل الغرفة، مستلقيًا على وجهه فوق سريره وردفاه مرفوعان في الهواء، ما يفترض

(1) التقفُّع: قصر أو انكماش دائم في العضلات أو المفاصل، يؤدي إلى ثبات طرف من الأطراف الأربعة على وضعية معينة بصورة دائمة. (المترجم)

أن تلك هي الوضعية الوحيدة التي يستطيع البقاء عليها. لا يمكن القول إن وضعيته هذه تساهم في تحقيق انطباع الترتيب المنشود، لكن الممرضات قد بذلن أفضل ما في استطاعتهن. توقف الموكب الصغير عند سريره.

لقد كان أداء ييلاند السابق روتينيًا تعوزه الحماسة، لذا اشتبه ريڤرز أنه يفقد الاهتمام بالمرضى حالما تتحقق المعجزة، غير أنه الآن التفت إليه بحيوية حقيقية. «هذه حالة نموذجية إلى حد بعيد»، قال وأومأ إلى الطبيب ذي الشعر الأصهب.

لقد انفجرت قذيفة على مقربة من المريض، فدُفِن حتى عنقه وظل على تلك الوضعية مدةً تحت نيران كثيفة متواصلة. بقي في حالة انبهار طوال يومين أو ثلاثة تلت انتشالَه، إلا أنه كان يتذكر الانفجار بشكل ضبابيٍّ. أُرسِل إلى إنجلترا بعد ذلك بستة أسابيع، إلى مستشفى في إيستبورن حيث عُولِج بالتمارين الفيزيائية، وخلال هذا الوقت ازداد الاعوجاج الشاذ في عموده الفقريِّ.

سُحِب الغطاء عنه. ليس من الممكن ثني الجذع بتأثير خارجيٍّ، قال الطبيب مبرهنًا كلامه. المريض لا يستطيع تناول الطعام على طاولة، وكما يرون جميعهم، لا يستطيع الاستلقاء باستقامة في السرير. هو يشتكي من ألم معتبَر في الرأس، تزداد شدته ليلًا، وحين يستيقظ يرى أضواءً ملونة تتراقص أمام عينيه. ثمة درجةٌ من الخدر الشقّي في الجانب الأيمن، وهنالك مضضٌ عند الجس بدءًا من الفقرة الظهرية السادسة وصولًا إلى الناحية القطَنية، إضافةً إلى تعرُّقٍ تلقائيٍّ -لكنه ليس مفرطًا- في القدمين، كما أن الانطباع الذي يخلفه الضغطُ على أخمص القدم يبقى مدةً غير طبيعية قبل أن يزول.

«و؟»، قال ييلاند.

بدا الشاب مرعوبًا، خوفٌ مألوف يتذكره ريڤرز بوضوح شديد. ثم حضرته المعلومة التي غابت عنه في الوقت المناسب: «ما من علامات لمرضٍ عضويٍّ»، ختمَ كلامه مزهوًا بالنصر.

- جيد. إذًا ثمة على الأقل ما يشجعنا كي نعتقد أن المريض في المستشفى الصحيح؟

- أجل، سيدي.

سار بيلاند حتى حاذى ظهر السرير، وقال: «ستتلقى العلاج بعد ظهيرة اليوم. سوف أبدأ بتقويم ظهرك وردِ استقامته إليه، وسننجز هذا عن طريق تطبيق الكهرباء على عمودك الفقريِّ وظهرك. أنت تقوى على رفع رأسك، ولا شك أنك قادر على مده أيضًا. أنا واثق من فهمك أن الألم ناتج عن الوضعية التي تتخذها، فالعضلات مشدودة للغاية ولا تحظى بالراحة أبدًا، لأنك تبقى على الوضعية نفسها حتى في أثناء استراحتك. قد تكون الكهرباء قوية، لكنها ستكون الوسيلة لاستعادة قدراتك المفقودة، القدرة على تجليس ظهرك».

كان هذا جبارًا. لو أن بيلاند بدا ذا سلطةٍ من قبل، فذلك لا يُذكَر مقارنةً مع النبرة شبهِ الإلهية التي اتخذها الآن. ظهر الفزع جليًا على المريض، فسأل: «هل سيكون ذلك مؤلمًا؟».

أجابه بيلاند: «أدرِكُ أنك لم تقصد أن تطرح هذا السؤال، لذا سأتغاضى عنه. أنا واثق من فهمك لمبادئ العلاج، وهي...»، سكت قليلًا، كأنه ينتظر من المريض تعدادها: «الانتباه، أوّلًا وقبل كلّ شيء؛ اللّسان، أخيرًا وبالمقدار الأقلّ؛ الأسئلة، معدومة. سوف أراك بعد الظّهيرة».

وهكذا استؤنِفت الجولة في الجناح، إلى أن توقف بيلاند بشيء من زهو المنتصرين عند السرير الأخير: «أما هذه الحالة، فهي مثيرة للاهتمام».

كان ريڤرز قد انتبه إلى هذا المريض منذ دخولهم الجناح؛ يجلس في سريره باستقامةٍ شديدة، متابعًا تقدمهم بمسحةٍ من الخصومة المضمَرة.

«كالان»، قال بيلاند: «مونس، المارن، إين، إيپر الأولى والثانية، التل 60، نوڤ شابيل، لوس، أرمونتيير، السوم وأراس»، نظر إلى كالان: «هل أغفلتُ أي معركة؟».

كان واضحًا أن كالان سمع السؤال، لكنه لم يُبدِ أي تجاوب. رفت عيناه من بيلاند إلى ريڤرز، ونظر إليه بحيادٍ فاتر من أعلى إلى أسفل. انحنى بيلاند مقتربًا من ريڤرز وهمهم: «سلوكٌ سلبيٌّ جدًّا»، ثم أومأ إلى الطبيب المتدرب موعزًا بالبدء.

لقد تعرض كالان للانهيار في أبريل. كان آنذاك مكلفًا بأعمال النقل خلف خطوط القتال، ربما لأن حالته العصبية كانت قد بدأت تسترعي القلق أصلًا. سقط فجأةً وهو يطعم الخيول، وظل غائبًا عن الوعي مدة خمس ساعات.

حين استفاق، كان يرتجف بكل جسمه وقد فقد القدرة على النطق. لم ينطق بحرف واحد منذ ذلك الوقت، وهو يعزو فقدان النطق إلى ضربة شمس.

«الطرق المتبعة في العلاج؟»، سأل بيلاند.

لقد رُبِط المريض إلى كرسي لفترات استمرت كلٌّ منها عشرين دقيقة، وطُبِّق تيارٌ كهربائيٌّ شديد القوة على عنقه وحنجرته. طُبِّقت الصفائح الساخنة على القسم الخلفيّ للحلق تطبيقًا متكررًا، ووُضِعت السجائر المشتعلة على اللسان.

«المعذرة؟»، قال ريفرز: «ماذا قلت؟».

«السجائر المشتعلة على اللسان، سيدي».

«لم يُواظَب على أيٍّ من ذلك»، قال بيلاند: «إنها أسوأ طريقة ممكنة للعلاج، لأن الكهرباء قد جُرِّبت، وهو يعلم -أو يظن نفسه يعلم- أنها لا تُجدي نفعًا»، سار إلى ظهر السرير: «أتتمنى أن تُعالَج؟ أَوْمِئ برأسك إن كان الجواب أجل».

ابتسم كالان.

«يظهر لي أنك غير مبالٍ بالمرة تجاه حالتك، لكن اللامبالاة لن تنفع في أوقات مثل هذه. لقد رأيتُ الكثير من المرضى الذين يعانون حالات مماثلة، وبينهم عدد غير قليل ممن كان الاضطراب موجودًا فيهم منذ مدة أطول بكثير. من خبرتي في التعامل مع هذه الحالات وجدتُ صنفين من المرضى: من يريدون التعافي ومن لا يريدون التعافي. أنا أفهم حالتك بالتمام، ولا فرق لدي إلى أي الصنفين تنتمي. يجب أن تستعيد نطقك على الفور».

فيما هم يغادرون الجناح، انتحى بيلاند به جانبًا: «ألديك وقتٌ لحضور جلسة علاج؟».

«أجل، أود ذلك كثيرًا». بعيدًا عن كل شيء آخر، كان يشعر بفضول كي يعرف مدى قوة كلمة «قوة» المستخدمة لوصف تيارٍ كهربائيٍّ، فتلك مسألة تميل الأبحاث المنشورة إلى التحفظ بشأنها. «هل يمكن لي أن أرى الرجل الذي تركناه لتونا؟».

- أجل. لكن الأمر لن يكون سريعًا، ولا أستطيع مقاطعة جلسة العلاج.

- لا بأس، ليست لدي مواعيد بعد الظهيرة. أود أن أراه هو بالذات بسبب فشل جلسات العلاج السابقة.

- أوه، معك حق. هو المثير للاهتمام من بينهم، الآخرون مجرد روتين.

كانا في طريقهما إلى قاعة طعام الضباط الأطباء في الأسفل من أجل الغداء.

«أتنفذ جلسة واحدة فقط؟»، سأله ريفرز.

«أجل. يجب أن يعرف المريضُ عند دخوله غرفة الكهرباء أن لا مخرج له سوى بالشفاء الكامل»، تردد ييلاند: «عادةً ما أنفذ الجلسات وحيدًا».

«سأكون عديم الأثر قدر ما أستطيع».

أومأ ييلاند برأسه: «جيد، فآخر ما يحتاج إليه هؤلاء المرضى هو جمهور متعاطف».

21

بعد الغداء، توجها مباشرةً إلى غرفة الكهرباء. قعد ريڤرز على كرسيٍّ صلب في الزاوية، متهيئًا للبقاء بالقدر الذي تستدعيه الضرورة مهما طال. ما من قطع أثاث أخرى سوى مكتب صغير تحت النافذة الطويلة، عليه كدسة ملفات ذات لونٍ بُنيٍّ مصفر، إضافةً إلى البطارية وكرسي المريض، الذي يشبه كرسي طبيب الأسنان، باستثناء الأحزمة على الذراعين وعند مسند القدمين. دخل ييلاند يفرك يديه، بعد أن كان يفرغ مثانته استعدادًا لجلسة طويلة. أومأ بمرح إلى ريڤرز، لكنه لم يتكلم. ثم أمام دهشة ريڤرز، بدأ يغلق أضلاع الستارة. كانت ستارة سميكة فعالة، من النوع المستخدم في زمن الحرب، وعندما أغلق أضلاعها لم تترك أي منفذ لعبور ضوء النهار النوڤمبري شديد الرطوبة إلى داخل الغرفة. توقع ريڤرز منه أن يشعل أضواء السقف الآن، لكنه لم يفعل. وعوضًا عن ذلك، ترك الغرفة للظلام، في ما خلا دائرة صغيرة من الضوء حول البطارية، وانعكس هذا الضوء عن معطفه الأبيض على وجهه.

أُدخِل كالان إلى الغرفة. بدت عليه اللامبالاة، أو التحدي، غير أن عينيه -حالما استقر على الكرسي- راحتا تتنقلان من جانب إلى آخر على نحوٍ يوحي بالخوف.

«سوف أقفل الباب»، قال ييلاند، ثم عاد ليقف أمام المريض، وأسقط المفتاحَ في جيبه العلويِّ متباهيًا: «يجب أن تتكلم قبل أن تغادر من عندي».

لا بأس بالأمر حتى الآن، فكر ريڤرز، لكن ييلاند أقفل على نفسه مثلما أقفل على المريض، وما من مجال للتراجع.

ألصقَ ييلاند القطب الكهربائيَّ المربع على الفقرات القطنية، وبدأ بتوصيل القطب البلعوميِّ الطويل. «لن تغادر من عندي»، قال: «حتى تتكلم مثلما كنت تفعل وأحسن. لا، ليس قبل ذلك بدقيقة واحدة».

كانت أحزمة الكرسي متروكةً دون شد. أدخل ييلاند خافضة لسان، ولم يُبدِ كالان تعاونًا ولا مقاومة، بل اكتفى بالجلوس فاتحًا فمه عن آخره ومُرجِعًا رأسه إلى الخلف، ثم وُضِع القطب الكهربائيُّ على الجدار الخلفيِّ لحلقه. انتتر إلى الخلف بقوة اقتلعت أسلاك التوصيل عن البطارية، فأزال ييلاند القطب. «تذكَّر أن عليك التصرف كما يليق بالبطل الذي أتوقع منك أن تكونه»، قال له: «يجدر برجلٍ شهد كل المعارك التي شهدتَها أن يملك سيطرة أفضل على نفسه»، شد الأحزمة حول معصمَي كالان وقدميه: «تذكَّر أن *عليك أن* تتكلم *قبل أن تغادر من عندي*».

ابيضت بشرة كالان وأخذ يرتجف، لكن كان من المستحيل تخمين كمّ الألم الذي يشعر به، إذ من الواضح أنه عاجز عن الصراخ كعجزه عن النطق. وضع ييلاند القطب من جديد، بلا انقطاع، لكن التيار كان أضعف بدليل أن كالان لم ينتتر. «أومِئ إليَّ حين تكون جاهزًا كي تحاول النطق».

استمر ذلك مدة ساعة، بالكاد صدرت عن ريڤرز أدنى حركة خلالها. كان تعاطفه مع الرجل الجالس على الكرسي يُبقيه جامدًا في مكانه، نظرًا إلى أن كالان نفسه لم يتحرك قط، باستثناء مرة واحدة ثنى فيها أصابع يديه المربوطتين. أومأ برأسه أخيرًا، فأزيل القطب على الفور، وبعد جهد كبير استطاع كالان أن يقول: «آه»، على شكل همسة لاهثة.

قال ييلاند: «هل تدرك أن التحسن بدأ بالفعل؟ أتقدِّر قيمة النتيجة التي حققناها حتى الآن؟ مهما بدت لك صغيرة، لو تأملتَ الأمر بشكل عقلانيٍّ، سوف تصدقني حين أقول لك إنك ستتكلم خلال وقت غير طويل».

وُضِع القطب من جديد، وبدأ ييلاند يردد أصوات الأحرف الأبجدية: آه، به، ته، ثه... مُشجِّعًا كالان على تردادها خلفه، لكنه لم يردد سوى «آه». كلما قال

كالان «آه» بعد طلبها منه، أزيل القطب لحظة. وكلما استعاض بـ «آه» عن الأصوات الأخرى، أُعيدَ تطبيق التيار.

لقد انقضت الآن ساعة ونصف على وجودهم في الغرفة، وبدا الإنهاك واضحًا على كالان. رغم تطبيق التيار الكهربائيّ بشكل شبه مستمر، كان في الواقع قد بدأ يكبو. بدا أن ييلاند أحس أنه يفقد انتباه مريضه، ففك له الأحزمة وقال: «انهض وامشِ قليلًا».

فعل كالان ما طُلِب منه، وراح ييلاند يمشي بجانبه مُشجِّعًا إياه على ترداد أصوات الأبجدية، غير أن «آه» كانت مجددًا الصوت الوحيد الذي يخرج، ويخرج في همسٍ أجش من أعماق مؤخر الحنجرة. تعثر كالان في أثناء سيره، فسنده ييلاند. وظلا يمشيان ذهابًا وإيابًا، مرارًا وتكرارًا، داخلَين دائرة الضوء المحيطة بالبطارية وخارجَين منها.

ظهر التمرد آخر الأمر، إذ انتزع كالان ذراعه من قبضة ييلاند وركض إلى الباب. لقد نسي كما يبدو أنه مُقفل، لكنه تذكّر ذلك من فوره فالتفت إلى ييلاند.

قال ييلاند: «لا أسخفَ من فكرة أن تغادر من عندي الآن. لا يمكنك مغادرة الغرفة، فالباب مُقفَل والمفتاح في جيبي. سوف تغادر من عندي حين تُشفى، تذكَّر، ليس قبل ذلك. أنا موقن أنك تعبتَ وبردتْ همتُك، لكن هذا ليس ذنبي، السبب أنك لا تفهم حالتك كما أفهمها أنا، والوقت الذي أمضيتَه معي حتى الآن ليس طويلًا بالمقارنة مع ما أنا مستعد لإمضائه معك. هل تفهمني؟».

نظر كالان إلى ييلاند. تجلت فكرةُ ضربِه بشكل مرئيٍّ واضح للحظة، لكن سرعان ما بدا أنه اعترف بالهزيمة. أشار إلى البطارية ثم إلى فمه، يقول بالإشارة: *فلنتابع العمل.*

«لا»، قال ييلاند: «لم يحِن وقت متابعة العلاج بالكهرباء بعد. لو أنه حان، لتابعتُ ذلك. الاقتراحات غير مطلوبة منك، لا حاجة إليها. عندما يحين الوقت للمزيد من الكهرباء، سوف تُطبَّق عليك سواءً أردتَ أم لم تُرِد»، سكت قليلًا، ثم أضاف بكثير من التشديد: «*يجب أن* تتكلم، لكنني *لن* أصغي *إلى أي* شيء تقوله».

تابعا السير ذهابًا وإيابًا، وكالان ما زال يردد «آه» دون أي صوت آخر. كانت هذه الـ «آه» تصدر بجهدٍ يكاد يكون فوقَبشريًّا؛ عضلات رقبته تتشنج، ورأسه ينتصب في سلسلة من النفضات العنيفة. حتى الجذع والذراعان كان لهم دورٌ في المجهود الهائل الذي يتطلبه دفع هذا الصوت من بين شفتيه. تعيَّن على ريڤرز أن يوقِف نفسه عن محاولة إصدار الصوت نيابةً عنه، كان هو نفسه متوترًا للغاية، لقد عاودته أسوأ الذكريات المرتبطة بتأتأته واحتشدت في ذهنه.

قال ييلاند: «أنت جاهز الآن للمرحلة التالية من العلاج، وهي تتألف من توجيه صدمات قوية إلى العنق من *الخارج*. ستنفُذ هذه الصدمات إلى جهاز النطق في الداخل، وسرعان ما تصبح قادرًا على قول أي شيء تريده همسًا».

وُضِع كالان من جديد على الكرسي، ومن جديد ثُبِّت في مكانه بالأحزمة. طُبِّق القطب الرئيسيُّ في دفعات قصيرة على عنقه عند منطقة الحنجرة، وييلاند يردد «آه، به، ته، ثه...» بالتزامن مع الصدمات. مع تكرار الأبجدية للمرة الثالثة، قال كالان فجأةً: «به». وعوضًا عن محاولة نطق الصوت التالي، ظل يكرر: «به»، بصوت ليس عاليًا لكنه مملوء بالحنق: «به، به»، ثم بشكل لا لبس فيه: «باااا! بااا! بااااا!».

بدا الرضا جليًّا على ييلاند، وقال: «ألستَ مسرورًا بهذا التقدم الذي أحرزتَه؟».

بدأ كالان يبكي. لم يكن في الغرفة صوتٌ سوى نشيجه لبعض الوقت، ثم مسح عينيه بظهر يده وأشار يطلب الماء.

«أجل، ستحصل على الماء قريبًا، حالما تتمكن من لفظ كلمة».

دفع كالان ييلاند جانبًا وركض إلى الباب، راح يعبث بالمقبض ويضرب الخشب بقبضتيه المشدودتين. لم يُطِق ريڤرز متابعة المشاهدة، فأطرق ينظر إلى يديه المتشابكتين.

قال ييلاند: «ستغادر هذه الغرفة حين تتكلم بشكل طبيعيٍّ. أعلم أنك لا تريد تعليق العلاج الآن بعد أن أحرزتَ هذا التقدم، أنت شخص نبيل وهذه الأفكار التي تدخل ذهنَك فتجعلك تريد أن تغادر من عندي لا تمثل شخصيتك الحقيقية. أعلم أنك متلهف إلى الشفاء، وأنك سعيد بمقدار التحسن الذي

بلغتِه. أنت الآن متعَب ولا تستطيع التفكير بشكل لائق، لكن عليك أن تبذل كل الجهد كي تفكر بالطريقة التي تميز شخصيتك الحقيقية: *بطل من أبطال مونس*».

لعل كالان لم ينسَ -على عكس بيلاند كما يبدو- أن معركة مونس كانت هزيمة، لكنه عاد إلى الكرسي على أي حال.

«عليك أن تلفظ صوتًا»، قال بيلاند: «لا يهمني ما تكون طبيعة هذا الصوت. سوف تفهمني حين أقول إنني سأستطيع تدريب أي صوت وتوجيهه إلى إصدار حروف صوتية، ثم حروف ساكنة، وأخيرًا كلمات وجمل. الفظ صوتًا عندما تأخذ نفسًا عميقًا، وحالما ألمس عنقك».

لم يستطع كالان -رغم نية التعاون التي أبداها- إصدار أي صوت زفيريٍّ.

بدا أن بيلاند يفقد صبره، فأطبق يديه على معصمَي كالان وقال: «لقد استغرق هذا وقتًا طويلًا بما يكفي. ربما عليَّ أن أستخدم تيارًا أقوى. أنا لا أريد أن أؤذيك، لكن سيتعين ذلك إن اقتضى الأمر».

لم يستطع ريفرز تحديد ما إن كان الغضب تمثيليًا أم صادقًا، لكن لم يكن ثمة شك بشأن قوة التيار الذي طُبِّق على العنق صدمةً تلو الأخرى. بيد أن الأمر كان ذا نفع، فسرعان ما أخذ كالان يردد لفظة «آه» بطبقة صوتٍ طبيعية، ثم أصواتًا أخرى، ثم كلمات. عند هذا الحد أوقف بيلاند استخدام الكهرباء، وارتخى كالان إلى الأمام على الكرسي. بدا كأنه على وشك السقوط، لكن الأحزمة ثبّتته في مكانه.

«هيا، ردِّدْ أيام الأسبوع»، قال بيلاند.

«أحــ.. حــ.. أحد، اثــ.. ثــ.. ثــ.. اثــ.. اثــ.. اثنين، ثــ.. ثــ.. ثــ.. ثلاثاء....».

وصل إلى السبت أخيرًا.

قال بيلاند: «تذكَّر أن لا سبيل إلى الخروج، إلا بعودة صوتك الحقيقيِّ وعن طريق ذلك الباب. أحد المفتاحين بحوزتي، والآخر بحوزتك *أنتَ*. حين يصبح بمقدورك التكلم بشكل لائق، سوف أفتح الباب ويكون بوسعك أن تعود إلى الجناح».

وهكذا استمر الأمر؛ ترداد حروف الأبجدية، أيام الأسبوع، شهور السنة -مع صدمات تكون معتدلة تارة وشديدة القوة تارة أخرى- إلى أن بات يتكلم بشكل طبيعيٍّ. ما إن صار بمستطاعه أن يقول الكلمات بوضوح وبطبقة طبيعية حتى ظهر لديه تشنج أو رجفة -لا تختلف كثيرًا عن الشلل الرعّاش- في ذراعه اليسرى. طبق بيلاند قطبًا أسطوانيًا دوارًا على الذراع. عادت الرجفة إلى الظهور بعد ذلك في الذراع اليمنى، ثم الساق اليسرى، ونهايةً في الساق اليمنى، وعولِجت كل مرة باستخدام القطب. أخيرًا، أُعلِن عن اكتمال الشفاء، وسُمِح لكالان أن ينهض. «ألستَ مسرورًا بالشفاء؟»، سأله بيلاند.

ابتسم كالان.

«لا تعجبني ابتسامتك»، قال بيلاند: «أجدها بغيضة للغاية. اجلس».

جلس كالان.

«لن يستغرق هذا إلا لحظة»، قال بيلاند: «ابتسِم».

ابتسم كالان وطُبِّق القطب الرئيسيُّ على طرف فمه. عندما سُمِح له بالنهوض من جديد أخيرًا، كان ما عاد يبتسم.

«ألستَ مسرورًا بالشفاء؟»، كرر بيلاند سؤاله.

- بلى، سيدي.

- لا شيء آخر؟

تردد كالان لحظة، ثم أدرك المطلوب فأدى التحية بحيوية من فوره: «شكرًا لك، سيدي».

22

ذلك المساء بعد العشاء، حاول ريڤرز العمل على أطروحة كان يُفترض به أن يسلمها للجمعية الملكية للطب في ديسمبر. وبينما أخذ يقرأ ما كتبه، أدرك أن ثمة صورًا تؤرقه. الرجل في الدهليز في ساحة الملكة، يدا بيلاند، فم كالان المفتوح، الظلان -الطبيب ومريضه- يسيران ذهابًا وإيابًا داخلَين دائرة الضوء المحيطة بالبطارية وخارجَين منها. لم يكن من عادة ريڤرز أن يتصور صورًا بصرية بهذه الحدة، بل أن يتصور بصريًّا من الأساس في الواقع، لكن -في المقابل- كانت التجربة بأكملها، من بدئها حتى نهايتها، تنطوي على شيءٍ... هَلوَسيٍّ.

ترك ريڤرز الآلة الكاتبة وذهب ليجلس على كرسيه ذي الذراعين قرب النار، وما إن توقف عن محاولة التركيز على الأطروحة حتى أيقن أنه متوعك. كان يتصبب عرقًا، قلبه يخفق بشدة والنبض يتردد في جميع أوصال جسده، كما أحس مجددًا ذلك الإحساس غير المألوف بدمائه تنعصر عبر عروقه. ظن أن حرارته ربما تكون مرتفعة بعض الشيء، بيد أنه لم يكن يقيس حرارته أو نبضه بنفسه قط، كمسالة مبدأ. ثمة أعماقٌ من العُصابية هو ليس مستعدًا للغوص فيها. لقد أنهكته المواجهة مع بيلاند، فقد كانت مواجهةً بالفعل، بصرف النظر عن مقدار التهذيب الذي تعامل به أحدهما مع الآخر. كان متعَبًا أكثر من أن يتابع العمل، لكنه يعرف أنه لن ينام إن خلد إلى السرير في هذه الحالة، حتى لو لم تؤرقه المدافع. قرر أن يُجري جولة في المتنزه، فأخذ معطفه السميك

عن العلّاقة وتسلل على الدرج. كانت السيدة إيرڤينغ امرأة حلوة المعشر بما يكفي، لكنها امرأة وحيدة جدًّا كذلك، وتميل إلى التنفيس عن ضيقها بشأن الطلبات الكثيرة للاجئين البلجيكيين. وصل إلى نهاية الدرج، وتسمَّع لحظة، ثم انسل خارجًا من المنزل بهدوء.

تلمّس طريقه عبر الشارع المظلم. النوافذ مغلقة المصاريع تراقبه من كلا الجانبين مثل أعين عمياء. كان هذا الظلام شيئًا جديدًا، مثل الظلام العميق في الريف. حتى في المتنزه، حيث تنفرد لندن أمامك عادةً في وهج من الضوء، لم يكن هنالك سوى ظلام يليه ظلام. انبسط ضوء النجوم على وجه البِركة، موقِظًا وميضًا فاترًا مثل المعدن. لا شيء آخر. بدأ يسير على طرف البركة، محاولًا إخراج ساحة الملكة من ذهنه، غير أن الصور راحت تطفو أمامه مثل بقعٍ في العين. رأى وجهَ كالان مرةً تلو الأخرى، وسمع صوته يردد كلمات بسيطة، في باروديا غريبة شائهة لآدم وهو يسمي المخلوقات. شعر أنه مطارَد؛ هناك كانا كلاهما، بيلاند ومريضه، يسيران ذهابًا وإيابًا داخل رأسه، بلا دعوة منه. إن كان هذا ما يختبره المعتادون على التصور، فلا يمكنه أن يقول إلا أنه يجد الأمر بغيضًا إلى أبعد حد.

توقف ونظر إلى البِركة. كان يتناهى إليه صوتُ حفيف وقْع أقدامٍ تجر نفسها. ثمة شخص اصطدم به وتمتم شيئًا ما، لكنه ابتعد عنه. مع رجوعه إلى مسكنه كان قد شعر بتحسن كبير، بما يكفي كي يُحيِّي السيدة إيرڤينغ في الردهة ويُطري على العشاء المُرضي للغاية.

لدى عودته إلى غرفته، توجه إلى السرير مباشرةً. أحس ببرودة الملاءات، إلى درجة جعلته يتساءل من جديد إذا ما كانت حرارته مرتفعة، غير أن الخفقان وصعوبة التنفس كانا قد زالا على الأقل. رأى أنه ربما يستطيع النوم لو سمحت المناطيد والمدافع بذلك، وغطَّ في النوم فعلًا حالما أطفأ الضوء.

ها هو يعبر الدهليز في ساحة الملكة؛ دهليز بالغ الطول يزداد طولًا كلما سار فيه، كشريطٍ مطاطيٍّ مشدود حتى أقصاه. ينفتح الباب الدوار في النهاية القصية وينغلق، متأرجحًا مدةً تتجاوز الطبيعي بكثير، مثل جناحَي طائرٍ مشؤوم يرفرفان. الرجل المشوه يراقبه وهو يقترب، متشبثًا بالدرابزين؛ العينان تدوران على محوريهما كي تتابعاه، والفم ينفتح وتخرج منه هذه

الكلمات: *أنا أحتج هنا نيابةً عن رفاقي الجنود إذ أعتقد أن الحرب يُماطَل فيها عن سابق نيةٍ من قِبل من يملكون القوة الكفيلة بإنهائها.*

أصداء الكلمات تتردد في جنبات الدهليز الأبيض. يتغير الحلم فجأةً دون سابق إنذار. إنه الآن في غرفة الكهرباء، في يده قطبٌ بلعوميٌّ، وأمامه فم رجلٍ مفتوح. يرى داخل الفم الورديّ الرطب، اللهاةَ التي تهتز برقة، السطحَ المبرغل المصفر للسان، لوزتَي الحلق الشبيهتين ببيضتين زرقاوين أرجوانيتين متورمتين. يدسُّ خافضة اللسان ويحاول تطبيق القطب، لكن الفم -لسببٍ ما- لا يتسع للقطب. يحاول إقحامه بالقوة، فيقاوم الرجلُ ويتلوى تحته. وإذ ينظر إلى أسفل، يرى أن ما يمسكه بيده ليس إلا حديدة لجام. لقد سبَّب الكثير من الأذى حتى الآن، شدقا الرجل مسحوجان وقد تجمع فيهما دمٌ وزبد، لكنه يتابع مع ذلك، محاولًا إقحام الحديدة في الفم، إلى أن توقِظه صيحة من المريض.

نهض جالسًا وكان قلبه يخفق بشدة، وأدرك أنه قد بكى حتى جف دمعه. للحظة، كان الحلم حقيقيًّا إلى درجة أنه ظل يرى الكرسي والبطارية والفم المشوه. ثم لا شيء. استعاد نبضَه الطبيعيَّ بالتدريج، غير أن الجهد الصغير الذي تطلَّبه نهوضه من السرير وذهابه للجلوس قرب النافذة جعل قلبه يخفق بقوة من جديد.

لا غارات جوية الليلة. من المفارقة الساخرة أن يوقِظ نفسه بكابوس في هذه الليلة ذات الهدوء النادر. وكما يحدث مع جميع الكوابيس، ظل الرعب عالقًا. بقي يميل إلى اتهام نفسه، وفكر أن «تأنيب الذات» هذا كان الشعورَ المسيطر. لقد مال في البداية إلى ربط الأمر بالرمزية ذات الطابع الجنسيِّ ظاهريًّا للحلم، إذ كانت أحداث الحلم تصويرًا دقيقًا للعلاج الذي أجراه ييلاند من ناحية، كما أنها بدت شبيهةً -على نحو مزعج- باغتصاب من ناحية أخرى. لكنه لم يشعر أن الصراع الضمنيَّ كان جنسيًّا.

المضمون الظاهر آتٍ من زيارته لساحة الملكة، وكان حاضرًا في حلمه بتحويرٍ قليل نسبيًّا. ما من شكٍ أن الزيارة كانت تزخر بفرص الصراع. فمنذ البداية، شعر بتوترٍ بين تعاطفه مع المرضى وشكوكه بشأن نوعية العلاج الذي يتلقونه من جهة، وبين المقتضيات الاجتماعية والمهنية التي اضطرته

إلى التصرف بحدٍ معقولٍ من التهذيب من جهة أخرى. وبمرور ساعات النهار، تعمق هذا الصراع دون شك. حدَّثه ييلاند على الغداء عن واحد من مرضاه الضباط يعاني تأتأةً شديدة، وقال إنه عالجه -كالعادة- في جلسة واحدة. تمثلَ تجاوبُ ريڤرز مع القصة -أمام استطرافه وسخطه تجاه ذلك معًا- في أن بدأ يُتأتئ بشدة ظاهرة إلى حدٍّ ما، وكلما تلكأ عند كلمةٍ شعر أن ييلاند يحسب الجهدَ الكهربائيَّ للتيار. كل هذا هراء لا معنى له بالطبع، فالموقف بدا له طريفًا ومسليًا بالدرجة الأولى، غير أن تزايد تأتأته سلط الضوءَ على صراعٍ ضمنيٍّ يمكن كثيرًا أن يعبر عن نفسه داخل حلم.

بدا أن رجل الدهليز الذي يعاني تشوهًا في عموده الفقريّ يمثل ساسون، بما أنه اقتبس من خطاب التصريح خاصته، رغم صعوبة تخيُّل شخصٍ أقل شبهًا جسديًّا بساسون من ذلك الرجل المشوه ذي القزامة الزائفة. بالإضافة إلى التعبير عن الخصومة؛ هذا بالتأكيد لا ينسجم مع موقف ساسون الحقيقيِّ تجاهه بأي شكل. لكن، في المقابل، ليس ثمة أي سبب يستوجِب وجود هذا الانسجام، فالحالم هو من يخلق أحداث الحلم. لقد كان المزاج السائد في حلمه -وهو ذو سطوة شديدة لم يستطع بعد أن يتحرر منها- أكثرَ أشكال اتهام الذات إيلامًا. ليس من الضروريِّ أن يعكس تعبيرُ الرجل شيئًا يزيد على شعور ريڤرز نفسه باحتمال أن يملك ساسون دوافع موجِبةً للخصومة.

لم يستطع أن يرى وجه المريض الثاني، وليس لديه إحساس جليٌّ حول هويته. المرشح الواضح هو كالان، بما أنه هو المريض الذي شاهده يتلقى العلاج. وكالان كان يعمل بين الخيول حين أصيب بالبكم، الأمر الذي ربما من شأنه تفسير موضوع اللجام. ومع ذلك، هو موقن تمامًا أن مريض الحلم لم يكن كالان.

لقد انتبه -في أثناء جولتهم على الأجنحة- إلى تشابهٍ طفيف في ملامح الوجه بين كالان وپراير، الذي كان هو الآخر مصابًا بالبكم عند وصوله إلى كريغلوكهارت. تذكَّر حادثةً وقعت بعد وصول پراير بوقت قصير، حين مرَّر ملعقة شاي على سقف حلقه آملًا أن يقدح منعكسُ التقيؤ الزنادَ لعودة النطق. كان هذا يحدث أحيانًا، لقد رأى أكثر من مريض يستعيد صوته بهذه الطريقة. غير أنه جربها وهو في حالة سخط شديد على پراير، فسبَّب

الاختناقُ له نوبةُ لحظيةً من الرضا. نوبة طفيفة جدًّا، لكنها كافية لجعله يستاء من سلوكه عندما يتذكر. إن مرضى البكم يثيرون السخط بالفعل، ولا سيما حين لا يبذلون جهدًا يُذكَر لتمويه رضاهم بحالتهم، كما هي الحال مع براير وكالان. لعل مريض الحلم كان صورة مركبة من كالان وبراير معًا، هذه التوليفة هي ما يوحي به تطبيقُه لملعقة شاي على حلق براير وتطبيق ييلاند لقطبٍ كهربائيٍّ على حلق كالان.

لكن ما من مقارنة في كمية الألم الواقع. في ظاهر الأمر، لقد بدا يُهنئ نفسه على التعامل مع المرضى بإنسانية أكبر مما هي لدى ييلاند، لكن إن صح ذلك، فلماذا يسود مزاج اتهام الذات؟ كان واقفًا مكانَ ييلاند في حلمه، وبدا أن الحلم يقول- بلغة الأحلام: لا تتباهَ بنفسك، ما من فرق.

لجام حصان. ليس قطبًا كهربائيًّا، ولا ملعقة شاي، بل لجام. أداةٌ لفرض السيطرة. من الواضح أن عمله هو وييلاند كليهما يتمحور حول السيطرة على الناس؛ كلٌّ منهما يشتغل على إعادة تهيئة الشبان لدور المحارب، دور كانوا يرفضونه ولو في لا وعيهم. لقد ألفى نفسه يتساءل مؤخرًا مرةً أو اثنتين عن المعنى الذي يمكن أن تحمله استعادةُ الصحة النفسية في ما يتعلق بعمله، فالشفاء يستلزم عادةً ألا يظل المريض منخرطًا في سلوك ذي طابع تدميرٍ ذاتيٍّ واضح. لكن في الظروف الراهنة، التعافي يعني استئناف نشاطات ليست مدمرة للذات فحسب، بل انتحارية بشكل لا يقبل الجدل. لكن في الوقت نفسه، لا أحد يتمتع بالحرية في الحروب. هو وييلاند سجينان كلاهما، وحالهما في ذلك لا يختلف أبدًا عن حال مرضاهما.

الألجمة... كان لجام المرأة السليطة[1] يستخدم لإسكات النساء المتمردات في العصور الوسطى، ثم استُخدِم لاحقًا على العبيد في أمريكا. ومع ذلك، في أثناء استماعه في الجناح إلى قائمة المعارك التي خاضها كالان، شعر أن لا شيء يمكن أن يقوله هذا الرجل فيكون أكثر قوةً وفعاليةً من صمته. وفي

(1) كان لجام المرأة السّليطة، أو لجام السّاحرات، أداةَ عقاب تُستخدم للتّعذيب والإذلال العلنيّ (للنّساء عادةً)، تمنع النّطق وتسبّب العديد من الآثار الجانبيّة السّيّئة مثل فرط إفراز اللّعاب وإجهاد الفم، وسُجّل أوّل استخدام لها في اسكتلندا عام 1567. (المترجم)

ما بعد، في غرفة الكهرباء، إذ بدأ كالان يردد حروف الأبجدية شيئًا فشيئًا، ويمشي ذهابًا وإيابًا مع ييلاند، داخلَين دائرة الضوء وخارجَين منها، شعر ريڤرز أنه يشهد عملية *إسكات* كائنٍ بشريٍّ. وفي الواقع، كان ييلاند قاب قوسين أو أدنى من أن يقول ذلك بالحرف. «يجب أن تتكلم، لكنني لن أصغي إلى أي شيء تقوله».

الإسكات إذًا. مهمة إسكات شخصٍ ما، مع وجوده هو نفسه في مكان ييلاند أمام مريض غير محدد الهوية على الكرسي. كان ما يزال من الممكن الهروب، والادعاء أن اتهام الحلم اتهامٌ عموميٌّ. فبينما يُسكِت ييلاند الاحتجاجَ اللاواعي لدى مرضاه عن طريق إزالة الشلل أو الصمم أو العمى أو البكم الذي يحول بينهم وبين الحرب، ريڤرز يُسكِت مرضاه هو الآخر، ولو بطريقةٍ أكثر لطفًا بما لا يقاس، إذ إن التأتأة والكوابيس والرجفات وزلات الذاكرة لدى الضباط هي احتجاج غير مقصود أيضًا، ولا تقِل في ذلك عن العِلل الأكثر جسامة لدى أولئك الرجال. غير أنه لا يؤمن بالاتهام العام. لا يؤمن أن هذا هو ما كان الحلم يقوله. الأحلام ملآنة بالتفاصيل ودقيقة ومحددة: صوتُ الحس البدئي يُسمع أخيرًا، فيما تُقفل المراكز الأعلى في الدماغ مركزًا تلو الآخر. وهكذا عرف من كان المريض الجالس على الكرسي. ليس كالان، ولا پراير. ثمة رجل واحد لا غير كان يُسكَت وفق الطريقة التي أشار الحلمُ إليها. قال لنفسه إن الاتهام هذا مجحف، فالتخلي عن الاحتجاج كان قرارَ ساسون، لا قراره هو. بيد أن ذلك لم يُجدِ نفعًا، فهو يعرف حجم التأثير الذي يملكه فيه.

بقي جالسًا قرب النافذة، فيما أخذ الفجرُ ينمو فوق المتنزه، وشعر أنه يُضطر إلى الطعن في الحكم أمام إدانةٍ في قاعة محكمةٍ كان هو نفسه القاضي وهيئةَ المحلّفين فيها.

23

غرفة هيد هادئة جدًا، ونوافذها الطويلة المطلة على الساحة مغطاةٌ بستائر بيضاء رقيقة. في الخارج، كان النهار ذا غيوم متحركة وضوء شمس متقطع، وكلما سطعت الشمس ارتسمت زخرفة الغصون العارية لأشجار الدلب على الأرضية. وهكذا كان على مرضى هيد أن يجلسوا -ساعةً تلو الأخرى- أمام عينيه الساطعتين، البارزتين إلى حدٍّ ما، المسلطتين عليهم، فيما تصطفق الأبواب في مكان آخر من المنزل ويُسمَع رنين هاتف. غير أن الحالة السوية للـ «استشارة» انتهت عند هذا الحد، إذ ما كان هيد أبدًا -ولو تحت أقصى درجات الاستفزاز- ليقول لأحد مرضاه إنه يتفوه بحفنةٍ من الهراء المنغمس في أهوائه الذاتية. فتح ريفرز فمه كي يحتج، لكن أشير إليه أن يصمت.

«حسنًا»، تابع هيد كلامه: «إنه مشوش الذهن، غير ناضج، عُرضة لنوباتٍ من الحماسة، متناقض وغير متسق. كل ذلك. لكنه... وهو لم يكن لديه أبٌ عمليًا، ووضعكَ أنت محل أبيه. *لكنه أيضًا*»، تابع مُعددًا على أصابعه: «شجاع، قادر على مقاومة الضغوط مهما عظمت، (حقيقةُ أنه أقدم على الاحتجاج من الأساس ضمن المناخ الراهن تؤكد ذلك)، وفوق كل شيء -لا، دعني أكمل كلامي- هو يتحلى *بالنزاهة*. كل ما أخبرتَني إياه عنه يدل على أنه كان ينوي العودة طوال الوقت، حالما أيقن أن لا جدوى من الاحتجاج، وذلك ببساطة لأنه لا سبيل لديه إلى بقاءٍ مُشرِّف في كريغلوكهارت حيث سيشغل سريرًا لا يحتاج إليه».

ابتسم ريڤرز: «لماذا وُجِد الأصدقاء إن لم يكن لتبرئة ذمة المرء؟».

- حسنًا، بما أننا في هذا الصدد، دعني أبرئ ذمتك تجاه الموضوع الآخر. أنت وبيلاند تفعلان *الأمر نفسه جوهريًا*. حبًّا بالله يا رجل، إن كنتَ تعتقد ذلك حقًّا، فهي أولى علامات الخرف. لا أستطيع تخيُّل أي شخص أقل شبهًا منك ببيلاند، في ما يخص المنهجية والسلوكيات والقيم، وكل شيء. الموقف المتخَذ تجاه المريض برمته. ورغم كل *جَلدِ الذات* هذا، لا يمكنني الاقتناع أنك لا تعلم ذلك. لو كنتَ أنت المريض، إلى من تفضل أن تُحوَّل؟

- إليك.

ابتسم هيد: «كلا. لستُ أقول إنني سيئ في عملي، لكنني لا أتمتع بمثل مهارتك حين يتعلق الأمر بهؤلاء المرضى تحديدًا».

- أظن أنني قلق بشأنه.

- أجل. حسنًا...

- أعتقد أن ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر هو هذا العجز الكامل عن التفكير في ما بعد الحرب. كما ترى، أظن أنه عقد عزمه على أن يُقتَل.

«ليس من شأن هذا إلا أن يمنحك سببًا آخر كي تتيقن ممن كان صاحب القرار بعودته»، سكوت: «أتعرف؟ تلك الليلة بعد العشاء، كانت روث تتحدث عن كمّ التغير الذي تراه عليك».

كان ريڤرز ينظر من النافذة.

«أتظن أنك تغيرت؟».

«أنا آخر شخص بمقدوره تحديد ذلك على الأرجح. لا أستطيع تخيُّل أن أعود إلى أسلوب الحياة نفسه، لكن...»، رفع يديه: «لقد سبق لي أن عشتُ بذلك الأسلوب، و...»، ضحكة استنكار ذاتيٍّ صغيرة: «لم يحدث شيء».

- متى كان هذا؟

- بعد رحلتي الثانية إلى جزر سليمان.

انتظر هيد صامتًا.



- لا أعرف إن سبق لك أن مررتَ بـ... بتجربةٍ أن تتغير حياتك جراء حدثٍ عديم الأهمية تمامًا. أقصد، ليس شيئًا دراميًّا مثل موت أحد الوالدين، أو ولادة طفل، بل شيء لا أهمية له إلى درجة تكاد تعجز معها عن فهم السبب الذي جعل له ذلك التأثير. لقد حدث هذا لي في تلك الرحلة. كنتُ على متن *سَذرن كروس* -هذا اسم مركب البعثة- وكان ثمة مجموعة من أهالي الجزر، اعتنقوا المسيحية حديثًا. تستطيع دائمًا أن تخمن حداثتهم، لأن صدور النساء ما تزال عارية. رأيتُ أن أُطبق منهجي الروتينيّ، فبدأت أطرح الأسئلة. كان السؤال الأول هو: ماذا كنتَ لتفعل لو كسبتَ جنيهًا أو عثرت عليه؟ أتقتسمه مع غيرك؟ وإن كان ذلك، فمع من؟ هذا السؤال يحوز على انتباههم، فالمبلغ كبير بالنسبة إليهم، وذلك يُتيح لك إماطة اللثام عن أمور كثيرة تتعلق بمنظومة القرابة والترتيبات الاقتصادية وما إلى هنالك. المهم، لقد قرروا في نهاية المطاف -وكنا جميعنا متربعين على ظهر المركب، تفصلنا أميالٌ عن أقرب يابسة- أن يقلبوا الطاولة عليّ، ويسألوني الأسئلة نفسها، بدءًا بـ: ماذا كنتُ لأفعل *أنا* بالجنيه؟ ومع من أقتسمه؟ شرحتُ لهم أنني أعزب ولن أشعر بالضرورة أنني مُلزَم باقتسامه مع أي أحد. بدا الاستغراب عليهم؛ كيف لأي شخص أن يعيش *بهذه الطريقة*؟ واستمر الأمر على ذلك المنوال، سؤالًا تلو سؤال. وكان الوضع من تلك الأوضاع التي يبدأ فيها شخص واحد بالضحك ثم ينضم إليه الجميع، إلى أن يتغذى الضحك من نفسه آخر الأمر. حين أنهيت كلامي، كانوا يتقلبون فوق ظهر المركب. وفجأةً أدركتُ أن *أي* شيء أقوله لهم كان ليلقى الاستجابة نفسها. كان بوسعي أن أتحدث عن الجنس، الكبت، الإثم، الخوف -كل تلك الجوقة الباعثة على الأسف- دون أن تتغير الاستجابة التي ألقاها قيد أنملة. ما كانوا ليشعروا ولو بوخزةٍ من الاشمئزاز، أو الاستنكار، أو... التعاطف، أو أي شيء، لأن الأمر برمته سيبدو لهم عجبًا *عُجابًا*. ورأيتُ فجأةً أن ردة فعلهم تجاه مجتمعي لم تكن أكثر ولا أقلّ تسويغًا من ردة فعلي تجاه مجتمعهم. وهل تعلم أن تلك كانت لحظةً من *أروع* أشكال الحرية؟ استلقيتُ على ظهري وأغمضت عيني، وشعرت كأن حِملًا وزنه طن أزيح عن صدري.

- حرية جنسية؟

- من ضمن أشياء أخرى، لكن الأمر كان كان أكثر من ذلك. كان أشبه بـ... خلع *الإله الأبيض العظيم* عن عرشه، كما أظن. وهذا صحيح، لأننا نفترض -بكامل الثقة وبلا خجل- أننا مقياس كل شيء، ومن هذا المنطلق نقاربهم، ونتناول شؤونهم على هذا الأساس. وفجأةً، لم يتضح لي أننا لسنا مقياس كل شيء وحسب، بل أنه لا يوجد *مقياس*.

- ومع هذا تقول إن لا شيء تغير؟

- لا شيء تغير في *إنجلترا*. ولا أعرف ما السبب. أظن أن الأمر يرجع بجزء منه إلى سطوة توقعات الآخرين ببساطة؛ تعرف أنك تتجول مرتديًا قناعًا، وتتوق بشدة إلى نزعه، ولا تستطيع، لأن الجميع يظنه وجهك.

- والآن؟

«لا أدري، أظن أن المرضى -ربما- فعلوا... فعلوا لي ما لم أستطع أن أفعله لنفسي»، ابتسم: «كما ترى، الشفاء جارٍ بالفعل، وإن لم يكن يجري في الاتجاه المتوقَّع».

•

كانت عودة ريفرز إلى كريغلوكهارت هذه المرة أكثر هدوءًا من أي عودة سابقة. ما من شبان صاخبين يلعبون كرة القدم بقبعة أحد الزوار؛ في الواقع، بدا المبنى أكثر هدوءًا بجملته، رغم أن بروك -الذي جلس ريفرز بجانبه على العشاء- قال إن التغيير في النظام لم يكن كاسحًا كما نُوِيَ له. كان ارتداء أحزمة سام براون مفروضًا بصرامة، والمنتهِكون يُلاحَقون بلا هوادة، لكن مسألة إدارة مستشفى أمراض نفسية وفق قواعد الاستعراض العسكريِّ الصارمة -في ما خلا ذلك- جُرِّبت تجربة مقتضبة وصاخبة، ثم سرعان ما استُغني عنها بهدوء.

بعد العشاء، انطلق ريفرز لرؤية المرضى الذين يحين موعد مثولهم أمام اللجنة في اليوم التالي. كان أندرسون قد حظي أخيرًا بزيارة من زوجته،

لكن لم يبدُ أن ذلك أمدَّه ببهجة تُذكَر. النزاع بينه وبين عائلته، بشأن عودته إلى الطب من عدمها، يزداد عمقًا مع اقتراب موعد مغادرته لكريغلوكهارت. ما تزال حال الكوابيس سيئة جدًّا، لكن رهاب الدم وحده -على كل الأحوال- يحول دون أي إمكانيةٍ للخدمة في المشافي سواءً في بريطانيا أم في فرنسا. ريڤرز يتمنى له أن يُفرَز لوظيفة مكتبية في لندن، ما سيكون من شأنه أيضًا أن يتيح له الاستمرار في لقائه. بيد أنه في الوقت نفسه مترددٌ بعض الشيء حتى تجاه ذلك، إذ إن أندرسون كان قد انتقل من وضع شديد التشكك، بل غير متعاون، إلى حالة تعلُّق عميق لا تخلو من خطر التبعية والاتكال. خرج من غرفة أندرسون يهز رأسه.

كان ساسون جالسًا قرب النار في نفس الوضعية التي كان عليها عند مغادرة ريڤرز تقريبًا.

«ماذا فعلتَ مع نفسك خلال هذه المدة؟»، سأله ريڤرز.

- حاولتُ إبقاء رأسي مطأطأً.

- ونجحتَ؟

- أظن ذلك.

- هل استطعتَ أن تكتب؟

- أنهيتُ الكتاب. عُنوانه «هجوم مضاد».

- مناسب جدًّا.

- ستكون النسخة الأولى لك.

جال ريڤرز بنظره في أنحاء الغرفة، التي بدت باردة وجرداء رغم النار الصغيرة. «أتصلك أي أخبار من أوين؟».

«باستمرار، إنه... إممم... يكتب رسائل فياضة العواطف على نحو بارز. كما تعلم...»، تردد: «كنتُ أعي مسألة تبجيل الأبطال، بيد أنني بدأت أظن أن الأمر كان أكثر من ذلك في الواقع».

راقب ريڤرز ضوء النار يومض على شعر ساسون ووجهه، ثم قال: «هذا يحدث».

- آمل فقط أنني كنتُ لطيفًا بما يكفي.

- أنا واثق من هذا.
- أظن أنك لم تتلقَّ خبرًا من مكتب الحرب؟
- على العكس. لقد تناولتُ العشاء مع هوب قبل أيام، ولدي تطمين غير رسميّ بعدم وضع أي عوائق في طريقك. ليس ضمانًا، لكنه أفضل ما أستطيع فعله.

سحب ساسون نفسًا عميقًا: «حسنًا، عدنا إلى ماكينة المقانق[1]».

«هذا لا يعني أنك لست مضطرًا إلى التصرف بحذر مع اللجنة».

ابتسم ساسون: «لن أتفوه إلا بأقل قدر ممكن».

الضابط الآمر الجديد، العقيد بلفور غراهام، هو من ترأس اللجنة. لقد تناقش ريڤرز وبروك المساء السابق في التأثيرات المحتملة لهذا في إدارة اللجنة، بيد أنهما لم يستطيعا التوصل إلى أي استنتاج وطيد. لم يكن الوقت قد تسنى لبلفور غراهام كي يتعرف على معظم المرضى، فإما أنه سيقنع بتسيير الأمور بأكبر سلاسة ممكنة، وإما -وهو الاحتمال الأسوأ- قد يشعر أنه ملزَم بتأكيد سلطته عن طريق طرح أسئلة أكثر من المعتاد على المريض والضابط الطبيب معًا.

العضو الثالث في اللجنة هو الرائد هانتلي، الذي لم يزل -إن كان حديثه على الإفطار شيئًا يمكن الأخذ به- مهووسًا بزرع الورد وبالانحطاط العرقيّ.

كانت مقابلة أندرسون هي الأولى. عبَّر بلفور غراهام عن شيء من المفاجأة لكون ريڤرز لا يوصي بالتسريح الكامل.

«هو لا يزال يريد خدمة بلده»، قال ريڤرز: «وما من سبب على الإطلاق يمنعه من ذلك، ضمن مهام إدارية. حتى إنني أرى إمكانية لحصوله على وظيفة مكتبية في مكتب الحرب».

«وهل نحن هنا نسدي معروفًا لمكتب الحرب أم للمريض؟»، سأله بلفور غراهام.

---

(1) ماكينة المقانق: مصطلح يُطلق على كل منظومة تُعامل الجميع بالتساوي دون النظر إلى الفروق الفردية. (المترجم)

«إنه رجل لا تعوزه المقدرة، لعله يكون أمرًا جيدًا لهم أن يعينوا شخصًا ذا خبرة واسعة بفرنسا».

«رباه، *أجل*»، قال هانتلي.

«لقد خطر لي فقط أنه قد يكون من المريح لأندرسون أن يستطيع تأجيل لحظة مواجهته لاحتمال العمل في الطب المدنيّ».

«هذا أيضًا»، قال ريڤرز.

المقابلة الفعلية مع أندرسون كانت سريعة إلى حدٍّ معقول. في الواقع، الصباح بأكمله مر بسرعة. توقفوا من أجل الغداء (الذي أفصح ريڤرز خلاله عن اهتمامٍ هائل بالعفن الفطريّ وأمراض النبات)، ثم عادوا، بشيء من التململ لكن في الموعد المحدد، من أجل المرضى العشرة التالين. في هذه المرحلة، لم يكن ريڤرز يعلم إذا ما كان يشعر بالطمأنينة أم لا. بلفور غراهام كان سريعًا ودمِثًا وكفئًا، ومحنكًا. أما مداخلات هانتلي، رغم ندرتها، فكانت غير قابلة للتنبؤ إلى حدٍّ ما، وبدت تعتمد بالكامل على مدى استلطافه للمريض. لقد أُعجِب بويلارد من فوره، ورُوِّع حين أدلى ريڤرز بتعليق يأسف فيه على انعدام الحصافة لدى الرجل. «وما حاجته بالحصافة؟ ما يُنتظر منه هو قتل الأوغاد يا ريڤرز، لا إجراء تحليل نفسيٍّ لهم».

دور ساسون كان ما قبل الأخير. «حالة خارجة عن المعتاد *بعض الشيء*»، بدأ ريڤرز كلامه بنبرة عرَضية: «بمعنى أنني أوصي له بالخدمة العامة ما وراء البحار».

«إذًا لا بد أنها خارجة عن المعتاد أكثر من «بعض الشيء»؟»، سأله بلفور غراهام بابتسامة واهية: «أظن أنه إجراء غير مسبوق، أليس كذلك؟».

«لا أستطيع تقديم أي توصية مختلفة. إنه يتمتع بأهلية كاملة، عقليًا وبدنيًا، وهو يريد العودة إلى فرنسا، كما أنني... حصلت على تطمين من مكتب الحرب بعدم عرقلة طريقه».

«ولماذا عساهم يعرقلونه؟»، سأل هانتلي.

قال بلفور غراهام: «هذا هو الشاب الذي يرى أن الحرب تُخاض لأسباب غير صائبة، وأنه ينبغي لنا أن ننظر في العرض الذي تقدمه ألمانيا للتفاوض على السلام. أتظن...».

«هذه كانت آراءه»، قال ريڤرز: «حين كان ما يزال يعاني من الإنهاك وعقابيل إصابةٍ في الكتف. لحسن الحظ، تدخَّل أحد الإخوة الضباط فحُوِّل إلينا هنا. وحقًّا، لم يكن المطلوب أكثر من فترة قصيرة للاستراحة والتفكر. هو الآن يشعر شعورًا شديدًا أن العودة من واجبه».

«لقد عومِل بتساهل كبير، كما يبدو لي»، قال هانتلي.

«لديه سجل جيد؛ صليب عسكريٌّ، وتزكية للحصول على نَوط الخدمة الممتازة».

«آه»، قال هانتلي.

«أفهم ما تقصده بقولك «خارج عن المعتاد»»، قال بلفور غراهام.

- الفكرة أنه يريد أن يعود.

- صحيح، فلنقابله.

دخل ساسون وأدى التحية. كان ريڤرز يراقب جليسيه؛ بلفور غراهام تلقى التحية بسرور كافٍ، وكانت ابتسامة الرائد هانتلي واضحة. أخذ ريڤرز ساسون في جولة على آخر مستجدات ماضيه، عن طريق أسئلة صاغها بشكل لا يحتاج إلى إجابة أكثر من نعم أو لا. وكان أسلوب ساسون ممتازًا، بالعيار المضبوط تمامًا من الثقة والاحترام. ثم التفت ريڤرز إلى بلفور غراهام. كان بلفور غراهام يقلِّب في أوراقه، وفجأةً رفع رأسه: «لا كوابيس؟».

«كلا، سيدي».

لم يتغير التعبير على وجه ساسون، لكن ريڤرز استشعر أنه يكذب.

- بالمرة؟

- ليس منذ غادرتُ مستشفى لندن الرابع، سيدي.

- وهذا كان في... أبريل؟

- أجل، سيدي.

نظر بلفور غراهام إلى ريفرز، فرفع الأخير عينيه إلى السقف.

«حضرة الرائد هانتلي؟».

انحنى الرائد هانتلي إلى الأمام: «أخبرنا ريفرز أنك غيرت رأيك بخصوص الحرب، أهذا صحيح؟».

استرق نظرةً مبهوتة: «كلا، سيدي».

نظر بلفور غراهام وهانتلي إلى بعضهما.

«لم تغير آراءك؟»، سأله بلفور غراهام.

«كلا، سيدي»، حطَّت تحديقة ساسون على ريفرز ولم تَحِد عنه: «ما زلت أؤمن بما كنت أؤمن به في يوليو بالضبط، بل ازددتُ تشبثًا إن كان هذا ممكنًا».

صمتٌ متوتر.

«فهمت»، قال بلفور غراهام.

«ألم يكن ثمة شيء نُشِر في *التايمز*؟»، سأل هانتلي: «أظن أنني...».

مد يده نحو الملف، فانحنى ريفرز وثبّت الملف على الطاولة بمرفقه: «لكنك تشعر الآن بيقين كبير أن واجبك يُملي عليك العودة؟».

- أجل، سيدي.
- ولا تنتابك أي شكوك بهذا الشأن؟
- على الإطلاق.

«حسنًا»، قال بلفور غراهام حالما انغلق الباب خلف ساسون: «أفترض أنك متأكد من هذا يا ريفرز؟ لن يعود إلى هناك ثم يثير التمرد بين الصفوف؟».

- كلا، لن يفعل ذلك. لن يبدر منه أي شيء من شأنه إحباط معنويات رجاله.
- آمل أن تكون محقًّا. كان يكذب بشأن الكوابيس، كما تعلم.
- أجل، وصلني ذلك.
- أظنه يعتقد أن هذا قد يكون سببًا لإبقائه هنا. السؤال هو: هل نرى نحن سببًا يستوجِب إبقاءه؟ هانتلي؟

بدا كأن الرائد هانقلي عاد من مسافة بعيدة: «يهودٌ إسبان».

نظر بلفور غراهام بوجهٍ خالٍ من التعابير.

«من جهة الأب، يهود إسبان».

«أتعرف العائلة؟»، سأله ريڤرز.

«رباه، بكل تأكيد. الأم من عائلة ثورنيكروفت»، هز رأسه: «حسنًا، إنها قوة الهجين[1]».

كان ريڤرز في حديقة الورد متقدمًا عدة خطوات على بلفور غراهام. «إذًا، أترى أنه يتمتع بالأهلية؟».

«*بالطبع* يتمتع *بالأهلية*. حبًّا بالله يا رجل، كم يتكرر أن ترى بنية جسدية كتلك، حتى ضمن ما يسمى الطبقة العليا؟».

عاد الحديث إلى تحسين النسل من جديد، لكن ريڤرز هذه المرة لم تكن لديه رغبة بالمقاطعة.

بعد العشاء، جاء ساسون كي يودع ريڤرز. لقد أُعلِمَ بالنتيجة التي توصلت إليها اللجنة، وأمضى وقته منذ ذلك الحين في توضيب أغراضه. لم يتوقع ريڤرز منه أن يتباطأ، فباستثناء أوين، لم يكن قد كوّن أي صداقات في كريغلوكهارت، ولا حتى مع أندرسون، رغم قضائهما قسمًا كبيرًا من كل يوم معًا، كما أنه لم يكن يكلف نفسه عناء تمويه بغضه للمكان.

«ماذا ستفعل؟»، سأله ريڤرز.

– أوه، سأمضي يومين في لندن، ثم أذهب إلى البيت كما أظن.

– أحان الوقت لاستشارة د. مرسييه؟ لا، أنا أعني هذا.

«أعلم أنك تعنيه، أيها الثعلب العجوز. ثم إلى غارسينغتون، كي أحاول شرح موقفي لمناصري السلام»، تجهم وجهه: «لستُ متلهفًا إلى ذلك».

– ألقِ اللوم عليَّ، فهذا ما سيفعلونه هم.

---

(1) قوة الهجين: مصطلح يشير إلى الصفات الجيدة لدى النسل الناتج عن تزاوج حيوانات (أو نباتات) لا يمُت بعضُها إلى بعضٍ بصلات قرابة. (المترجم)

- لن أُقدِم على شيء كهذا.

- إنها إحدى الروايات الممكنة للقصة، كما تعلم.

- أجل، أعلم. لكنها ليست الرواية التي سأحكي القصة وفقها. هل كانت اللجنة صعبة؟

- كلا، بل سهلة على نحو مفاجئ. الرائد هانتلي يرى أن أمامك مستقبلًا عظيمًا بوصفك شجيرة ورد. نظرًا إلى قوة الهجين.

- آه، فهمت. عائلة أبي.

- عليَّ أن أقول إن *القوة* التي رفضتَ بها التخلي عن آرائك كانت بحد ذاتها صادمة في الواقع.

أشاح ساسون بوجهه: «لم أستطع أن أكذب».

«لكنك لم تواجه مشكلة في ذلك بخصوص موضوع الكوابيس».

صمت.

- منذ متى يحدث هذا؟

- منذ مغادرتك، سأكون على ما يرام حالما أخرج من هذا المكان.

لم يكن ساسون يريد أن يتحدث عن الكوابيس. كان يشعر بابتهاج مميز، تمامًا نفس الشعور الذي انتابه وهو يتجه إلى فرنسا على متن سفينة، ويشاهد إنجلترا تتلاشى خلف غشاوة الضباب. لا شكوك، لا تردد، لا تباريح، فقط انسحاب مباشر مندفع إلى الأمام نحو الجبهة.

بدا كأن ريڤرز يقرأ أفكاره: «لا تُقدِم على مخاطرات غير ضرورية».

«كلا، بالطبع لا»، قال ساسون، رغم اعتقاده أنه ربما سيفعل.

نهض واقفًا، وكانت لهفته إلى المغادرة جلية. تبعه ريڤرز إلى الباب، ثم خرجا إلى ردهة الدخول. وهناك كان بلفور غراهام وهانتلي، غارقَين في حديثهما. سيكون وداعًا علنيًا جدًّا تعوزه الخصوصية.

«سأبقى على تواصل معك»، قال ساسون.

«أجل. حاوِل أن تراني قبل أن تغادر إنجلترا».

تصافحا. ثم ابتسم ساسون، وهو ينظر بزاوية عينه إلى العقيد والرائد، ابتسامةً ذات طابع تآمريٍّ واضح، وأدى التحية بحيوية. «شكرًا لك، سيدي».

للحظة، بدا كالان هو الواقف أمامه. ثم تلاشت غرفة كهرباء ساحة الملكة، وصار ريڤرز في كريغلوكهارت من جديد، واقفًا على البلاط الأبيض والأسود، وحيدًا.

رجع إلى مكتبه، وسحب نحوه كدسة ملفات. كان يكتب ملاحظات موجزة حول المرضى الذين مثلوا أمام اللجنة ذلك اليوم، لكنه أمر يستطيع إنجازه بشكل شبه أوتوماتيكيٍّ. شردت أفكاره وهو يكتب. لم يُضِع وقتًا في التساؤل عما سيشعر به إن أصيب سيغفريد إصابةً بالغة أو لقي مصرعه، فهذا احتمال قائم مع كل المرضى الذين يعودون إلى فرنسا، وقد سبق له أن واجهه بالفعل مرات عديدة. في الواقع، كان يشعر بطرافة المفارقة الكامنة في الوضع الراهن؛ أن يتغير هو نفسه، هو الذي يقوم عملُه على تغيير الناس، ويكون تغيُّره على يد شخص من الواضح أنه لم يكن يدرك ما فعله.

لكنه كان تغيرًا أعمق بكثير من مجرد التوصل إلى الإيمان أن التفاوض من أجل السلام ممكن، ومرغوب، وأنه جدير بالاستكشاف على الأقل. تذكَّر حديثه مع هيد عن محاولته تغيير حياته حين عاد من ميلانيزيا للمرة الثانية وإخفاقِ تلك المحاولة، إذ ظل على عادته في قلة الكلام والانطواء والعزلة. بالطبع كانت محاولةً شديدة الانطواء والخجل، وربما ذلك هو ما منع نجاحها. أما هنا، في هذا المبنى، حيث لا وقت لديه للانطواء والخجل، حيث بالكاد يحظى بدقيقة لنفسه، فقد حدثت التغيرات دون علمٍ منه. لم يكن سيغفريد وحده هو السبب، بل جميعهم، بيرنز وپراير وپيو ومئة آخرين. لقد كان في شبابه محافظًا للغاية من حيث حساسية المزاج والقناعات، وليس في ما يتعلق بالسياسة وحسب. أما الآن، في منتصف العمر، فحجم *الفوضى* وحده بدا يرغمه على الدخول في صراع مع السلطات حول سلسلة واسعة من القضايا... الطبية والعسكرية وأيًّا كانت. المجتمع الذي يفترس شبانَه لا يستحق ولاءً أوتوماتيكيًّا بلا مساءلة. وربما يكون تمرد الكبار ذا قيمة يُعتد بها أكثر من تمرد الشبان. من المؤكد أن تمرد سيغفريد المسكين لم يكن ذا قيمة تُذكَر، لكنه ذكَّر نفسه -حين خطرت له هذه الفكرة- أنه لا يستطيع

الجزم بذلك. لقد كان تصرفًا صادقًا ونزيهًا بالكامل، ومثل هذه التصرفات ما هي إلا بذور تذروها الريح، لا يمكن لأحد أن يعرف أين -أو في أي ظروف- ستُثمر.

كيف سيتدبر سيغفريد أموره في فرنسا بحق السماء؟ إن معارضته للحرب لم تتغير، بل ازدادت صلابةً في الواقع. والعودة إلى القتال -بالنسبة إلى شخص يحمل إيمانه هذا- ستعني مواجهة انقسامات داخلية أعمق بكثير من أي شيء سبق له أن جربه. كان «حل» سيغفريد يتمثل في إقناع نفسه أنه عائد فقط كي يعتني ببعض الرجال، لكن هذه الوصفة لن تصمد أمام الواقع في فرنسا. مهما كرس قائدُ الفصيلة نفسَه لما فيه خير رجاله، فهو موجود كي يقتل في النهاية، وكي يدرب آخرين على القتل. الشعر والسلمية إجراءاتٌ استعدادية غريبة من أجل هذا الدور. أجل، لقد سبق لسيغفريد أن أدى هذا الدور من قبل، وفعل ذلك بنجاح بارز، لكن كراهيته للحرب -آنذاك- لم تكن تامة النضج وفصيحة وواضحة الأبعاد كما هي الآن.

إنها معضلة ليس لها سوى مخرَج وحيد شديد الوضوح. ريڤرز يعرف -معرفةً لم يعبر عنها بالكلام قط- أن ساسون عائد مع نية مضمرة للقاء حتفه. لا شك أن هذا، في جزءٍ منه، دراميةٌ ذاتيةٌ معهودة لدى الشبان: سوف *أريهم، سأجعلهم يشعرون بالأسف*. لكن ريڤرز يشعر أن ثمة رغبة صادقة وشديدة العمق في الموت تكمن تحت ذلك.

وإن حدث وانتفى الموتُ؟ حينها يمكن كثيرًا أن يتعرض للانهيار، وهذه المرة سيكون انهيارًا حقيقيًا.

انتبه ريڤرز أنه وصل إلى ملف ساسون. راح يقرأ في تقرير القبول والملاحظات التي تلته. لم يكن يستطيع قول المزيد مما يريد قوله، لذا سحب الصفحة الأخيرة نحوه وكتب: *26 نوڤمبر 1917، خُرِّجَ للعودة إلى واجب الخدمة.*

ملاحظات الكاتبة

خيوط الوقائع والخيال متحابكة في هذا الكتاب، إلى درجة ربما يجد القارئ معها عونًا في معرفة ما هو حقيقة تاريخية وما هو موضوع. لقد احتج سيغفريد ساسون (1886-1967) في يوليو 1917 على استمرار الحرب بالفعل، وأقنعه روبرت غريڤز بالمثول أمام لجنة طبية، ثم حُوِّل إلى مستشفى كريغلوكهارت الحربيّ، حيث تولى ملفه الدكتور و. هـ. ر. ريڤرز (1864-1922)، الحائز على زمالة الجمعية الملكية، طبيب الأمراض العصبية وعالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية المرموق، الذي كان آنذاك يحمل رتبة نقيب في الفيلق الطبيّ بالجيش الملكيّ البريطانيّ. خلال إقامة ساسون هناك، جمعَته صداقةٌ مع أحد مرضى د. بروك، وهو ويلفريد أوين (1893-1918)، رغم أنه ربما يكون من المنصف القول إن هذه الصداقة لعبت دورًا محوريًّا في حياة أوين، آنذاك وفي ما بعد، أكثر مما هو في حياة ساسون.

وُصِفت مناهج ريڤرز في علاج مرضاه في مقالة «كبت التجربة الحربية» (مجلة *ذا لانسيت*، 2 فبراير 1918) وفي كتابه المنشور بعد وفاته «الصراع والحلم» (لندن، كيغان بول، 1923)، الذي يظهر ساسون بين دفتيه ظهورًا مقتضبًا باسم «المريض ب».

ووُصِفت مناهج د. لويس ييلاند -المختلفة إلى حد واضح- في علاج مرضاه بالتفصيل ضمن كتابه: *الاضطرابات الهستيرية للعمل الحربي* (لندن، ماكميلان، 1918).

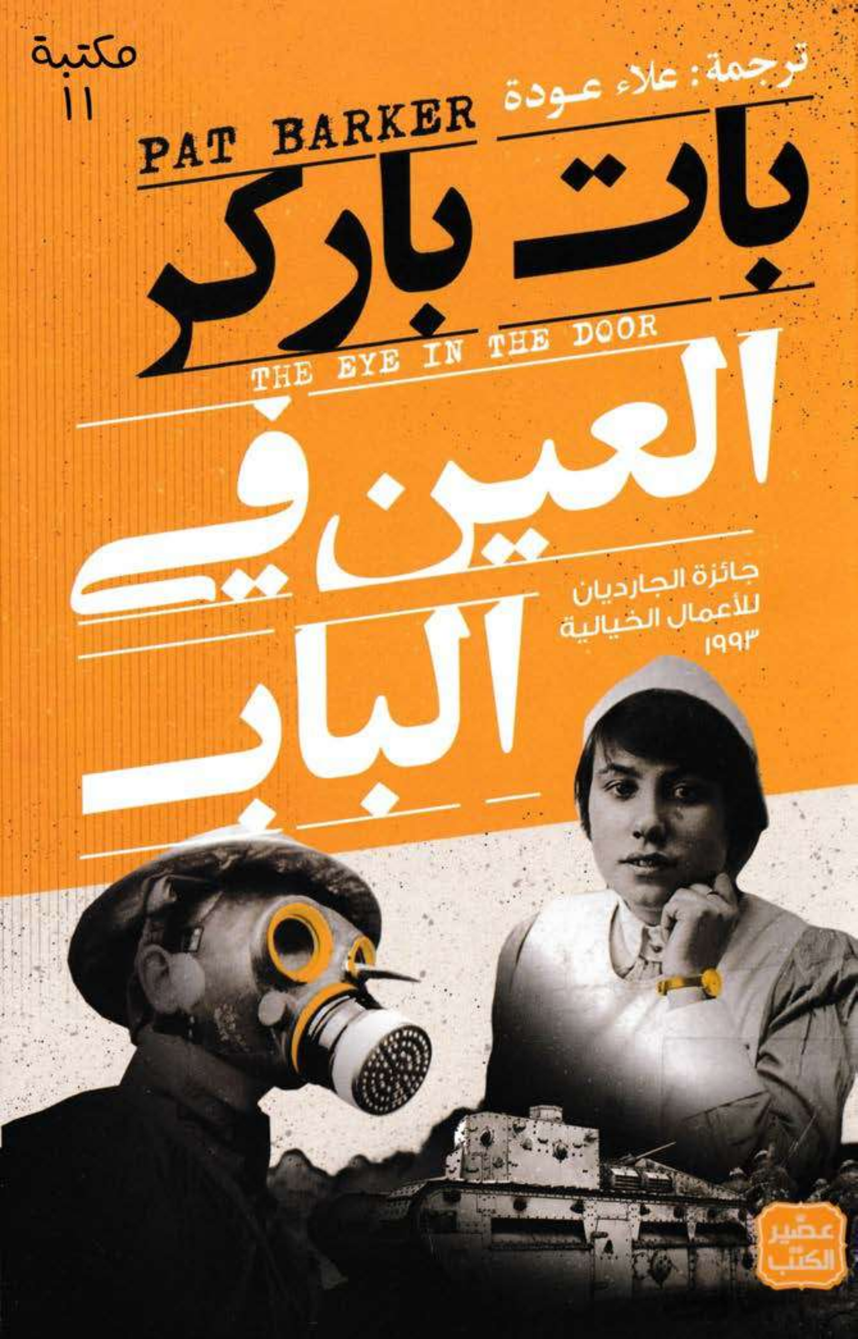
يَرِدُ نقاش مثير للاهتمام حول عمل ريفرز السابق للحرب مع هنري هيد على موضوع تجدُّد الأعصاب ومفهوم التعصيب البدئي ودقيقِ التعيين الناشئ عنه، في مقالة «الكلب تحت الجلد» لـ «جوناثان ميلر» (مجلة *ذا ليسنر*، 20 يوليو 1972).

التنقيحات التي اقترحها ساسون على المسودة المبكرة لقصيدة «ترنيمةٌ لشبابٍ منكوب» واردة بخط يده في المخطوطة. انظر ويلفريد *أوين: القصائد والشذرات الكاملة*، المجلد الثاني، بتحرير جون ستالوورثي (تشاتو & ويندوس، هوغارث بريس، مطبوعات جامعة أكسفورد، 1983). وثمة كتابان حديثان يضمان نقاشات مثيرة حول «صدمة القصف» هما «المنطقة المحرمة: الاشتباك والهوية في الحرب العالمية الأولى»، لـ «إريك ليد» (مطبوعات جامعة كامبريدج، 1979) و»الاعتلال الأنثوي» لـ «إلين شوالتر» (ڤيراغو بريس، 1987).

جوليان داد، الذي سبَّب مرضُه النفسيُّ لساسون بعضَ القلق خلال إقامته في كريغلوكهارت، تعافى بشكل كامل في ما بعد.

أنا ممتنة للمساعدة التي تلقيتها من العاملين في المكتبات التالية: مكتبة شيفيلد العامة، المكتبة الطبية في جامعة نيوكاسل، مكتبة جامعة كامبريدج، مكتبة نابير متعددة الفنون التطبيقية في إدنبرة (مستشفى كريغلوكهارت الحربي سابقًا)، مكتبة كلية اللغة الإنجليزية في جامعة أكسفورد، متحف الحرب الإمبراطوري، وكلية سانت جون في كامبريدج، حيث كانت زيارتي ممتعة ومثيرة للاهتمام بفضل جهود نائب أمين المكتبة م. پرات.




مكتبة
١١
ترجمة: علاء عودة
PAT BARKER
بات باركر
THE EYE IN THE DOOR
العين في الباب
جائزة الجارديان
للأعمال الخيالية
١٩٩٣
عصير
الكتب



لندن، ١٩١٨. بيلي برايور يعمل لدى المخابرات في وزارة الذخيرة. لكنّ لقاءاته الخاصة مع بعض النساء والرجال -من مناصري السلام والمعارضين وغيرهم- تتصادم مع واجباته العسكرية. ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يتشظّى وعيه بذاته وينهار. وإذ يجد نفسه مرغمًا على استشارة الرجل الذي سبق أن ساعده (طبيب الجيش النفسي ويليام ريفرز)، سيكون على برايور أن يواجه عجزه عن أن يكون الجندي المطيع الذي يريده رؤساؤه.

"عمل روائي مباغت الأصالة... ذو سحر آسر".
– Sunday Telegraph

"من بين أفضل الروايات التاريخية عن الحرب العظمى".
– The Times

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف







www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

"العين فـي الباب" هـو الكتاب الثانـي من ثلاثية
بـات باركـر الروائية التـي تتنـاول الآثار النفسـية
للحرب العالمية الأولى.

تروي ثلاثية "التجـدد" المرموقة لبـات باركر -التي
تتألـف من "تجـدد" و"العيـن في البـاب" و"طريق
الأشـباح"- قصـة تمـزق القلـب عـن العاميـن
الأخيرين من الحـرب العالمية الأولـى كما رأتهما
أعيـن طبيـب الجيـش النفسـي ويليـام ريفـرز
والجندي المعطوب بيلي برايير.
مع تتبعنا لكفـاح ريفرز خلال قيامـه بواجبه في
مسـاعدة مرضـاه -ومـن بينهـم الشـاعر
سـيغفريد ساسـون الـذي يعانـي آثـار صدمة
قويـة- وإشـرافه علـى عودتهـم إلـى الجبهة،
نشـاهد كيف ذاق جيل كامل من الشـبان ويلات
الخنادق الوحشية وعذاباتها.



لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي:
The Eye in the Door – The Regeneration Trilogy 2

● العنوان العربي:
العَينُ في الباب – ثلاثيّة التّجدُّد 2

● طُبِع بواسطة: Viking Books

● ترجمة: علاء عودة

● تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● الطبعة الأولى: فبراير / 2022م

● رقم الإيداع: 1877 / 2022م

● الترقيم الدولي: 978-977-6902-93-0



انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa







إلى ديڤيد

«تعلمتُ، من خلال النظر إلى الجانب الأخلاقيّ وداخل ذاتي، أن أميز الازدواجية العميقة والبدائية لدى الإنسان، إذ رأيتُ -في ما يخص الطبيعتين المتنافستين داخل ميدان وعيي- أنه إن كان يمكن القول صدقًا بكوني إحداهما، فما هذا إلا لكوني كلتيهما معًا من حيث الجوهر...»

قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة

- ر. ل. ستيفنسون

القسم الأول

1

في المساكب ذات الطراز التقليديِّ قرب بحيرة السربينتين، انتصبت أعناق أول أزهار التوليب في صفوفٍ مضمومة الشفاه. أمضى بيلي پراير عدة لحظاتٍ يضبط وضعية الرمي، ثم أفلت ذراع رفيقته، وأمسك برشاش مُتخيَّل نسف به الرؤوس عن كل تلك الأعناق اللعينة.

حدقت مايرا في ذهول: «أيها الوغد المخبول».

هز رأسه بحزن: «خمسة أشهر في مستشفى مجانين العام الماضي».

«*تابِعْ*».

لم تصدقه بالطبع، عاد إليها مبتسمًا وقدَّم ذراعه. إنهما يتجولان قرب البحيرة منذ ساعة، لكن الأصيل بدأ ينحسر الآن. حط ضوء نحاسيٌّ، خليقٌ بالخريف أكثر مما هو بالربيع، وانتشر منحدرًا على العشب، محوِّلًا غصينات شجيرات الورد الشائكة إلى أسلاك كهربائية حية راحت تتوهج محمرةً في الغسق.

كان پراير، الواعي تجاه ذاته دائمًا، يدرك نظرات الاستحسان التي تشيِّع مرورهما، وافترض أنهما يرسمان صورة رومانسية؛ الفتاة، شابة حسناء، تتشبث بذراع رجل في زيٍّ رسميٍّ، رجل -علاوةً على ذلك- يرتدي معطفًا طويلًا شوَّهته البقع والرقع الممزقة إلى درجة تشي دون لَبس أنه شهِد مقدارًا وافرًا من الخدمة الفعلية في الميدان. ولقد شهد المعطف ذلك بالفعل، وهو على وشك أن يشهد المزيد، إذا ما استطاع صاحبه أن يقنع العاهرة السخيفة بالاستلقاء فوقه.

«أنتِ تشعرين بالبرد»، قال بحنو وهو يحل أزرار معطفه: «أدخلي يدك هنا. أتعلمين؟ سنشعر بدفءٍ أكبر تحت الأشجار، ونتّقي الريح».

تلكأت مرتابة، إذ كان جانبُ البحيرة ما يزال مضيئًا، في حين بدأ الطريق المشجّر يميل إلى ظلمةٍ غبشاء. «حسنًا»، قالت في النهاية.

شقا طريقهما فوق العشب، ظلاهما يمتدان أمامهما، خيالَين أسودَين واهيَين وصلا إلى الأشجار وبدأا تسلقها قبل اقتراب صاحبيهما منها. في الظلام، استندا إلى جذع إحدى الأشجار وراحا يتبادلان القُبَل. تأوهَت بعد قليل، وارتخت فخذاها، فثبّت لها ظهرها على اللحاء المتشقق. حجبهما معطفُه المفتوح كليهما، طوقته يداها ثم انسلتا تحت سُترته، قبضتا على ردفَيه وشدتاه إليها بقوة أكبر. كانت تعبث بحزامه وأزراره وهو يساعدها على فكها، مُطلِقًا لها يديها تهيمان في الداخل، فيما راحت يداه تتسللان تحت تنورتها ببطء، وعثر من فوره على الموضع الذي يكشف فيه جوربها الخشن عن جلدها الناعم. «هلّا استلقينا؟».

خرجت يداها لتشكلا حاجزًا: «ماذا؟ هنا؟!».

«ستشعرين بدفءٍ كافٍ».

«هيهات، البرد يقرص أوصالي منذ الآن أصلًا»، ولتؤكد كلامها، دسّت يديها تحت إبطيها وراحت تتمايل.

«حسنًا»، قال بنبرة تكتسب خشونة: «فلنعُد إلى الشقة». لقد أراد أن يتجنب هذا، لأنه يعلم أن صاحبة المنزل ستكون موجودةً تراقِب.

لم تنظر إليه: «لا، أظن أنه يحسن بي أن أهُمّ بالعودة».

- سأصحبكِ.

- كلا، أُفضّل أن أودِّعك هنا، إن لم يكن لديك مانع. حماتي تسكن على بُعد خمسة أبواب.

- كنتِ متحمسةً بما يكفي تلك الليلة.

ابتسمت مايرا تسترضيه: «انظر، لقد أتتني امرأةٌ تتشمّم الأخبار. الشرطة التطوعية، هل تعلم بشأنها؟ بوسعهن دخول منزلك، أو فعل أي شيء، لسنَ مضطرات إلى الاستئذان. وهذه المرأة تحديدًا بقرة عجوز سليطة، أعرفها

من قبل الحرب، كانت مناصِرة بالكامل لحقوق النساء. قلتُ لها: «وماذا عن حقوقي؟ ألستُ امرأة؟»، لكن لا جدوى من جدالهن، يمكنهن أن يقطعن رزقك. وعلى كل حال، هذا ليس صائبًا، صحيح؟ نظرًا إلى كون إيدي على الجبهة؟».

قال پراير بنبرة مقتضبة متسلطة: «كان على الجبهة ليلة الجمعة». سمع نغمة الاغترار الأخلاقيّ في ما قاله، ورأى نفسه يعبث مرتبكًا بأزرار سروال فضيلة الطبقة الوسطى. رحماك يا إلهي، كلا. إنه ليفضل أن يربط شهوته من عنقها على أن يعيش مع تلك الصورة. قال لها: «تعالي، سأسير معك إلى المحطة».

وسَّع خطواته نحو لانكستر غيت غير آبِهٍ إن كانت تتبعه أم لا، والتحقت به تهرول منقطعة الأنفاس: «يمكننا أن نبقى صديقَين مع ذلك، صحيح؟».

أحس بنظرتها المحدقة على وجهه.

«صحيح؟».

توقف واستدار ليواجهها: «مايرا، أنتِ من نوع الفتيات اللاتي ينتهي المطاف بهن على جانب الطريق وجواربهن حول أعناقهن». تابع المسير بسرعةٍ أقل. وبعد قليل، تسللت يدها زاحفةً من الخلف لتتأبط ذراعه، فتركها هناك بعد ترددٍ دام لحظة.

«ألديكَ فتاة؟»، سألته.

قاوَم تلكؤًا وجيزًا: «أجل».

أومأت إيماءة رضا: «قلتُ لنفسي هذا. يا لك من مشاكسٍ صغيرٍ كذاب، أليس كذلك؟ ليلة الجمعة قلتَ العكس».

«كلانا تفوَّه بملء بطنه من الأكاذيب ليلة الجمعة».

في محطة الأنفاق، اشترى لها التذكرة فمدت عنقها وقبَّلت وجنته كما لو أن شيئًا لم يحدث. حسنًا، قال لنفسه، لم يحدث شيء بالفعل. على الجانب الآخر من الحاجز، التفتت ونظرت كأنها نادمة على الأمسية التي كانا قد خططا لها، لكنها ما لبثت حتى لوَّحت له تلويحةً صغيرة، وخطَت فوق الدرج المتحرك الذي حملها بعيدًا بخفة.

وقف خارج المحطة مترددًا. انبسطت أمامه بقية أمسيته، ولم يعرف ماذا يفعل. فكر في الذهاب لتناول شراب، لكنه نبذ الفكرة. إن بدأ الشربَ في هذه الساعة المبكرة وهذا المزاج، سينتهي به المآل سكران، وليس بوسعه تحمُّل ما قد ينتج عن ذلك، عليه أن يكون صافي الذهن من أجل السجن غدًا. تابع سيره يتهادى دون وجهة. كان الازدحام يبدأ لتوه، الناس يسارعون إلى المطاعم والحانات، باذلين قصارى جهدهم لينسوا شُحَّ الحال وتقشُّف الملبس والخبز الرمادي. بدا لپراير أن ثمة سمة اضطرابٍ محمومٍ متزايد أخذت تزحف إلى الحياة اللندنية طيلة الشتاء، ويمكن تبريرها بسهولة طبعًا، فمن الواجب منح الجنود العائدين إلى ديارهم في إجازةٍ وقتًا طيبًا، لا يمكن السماح لهم أن يتذكروا ما سيرجعون إليه، وهذا أعطى الآخرين جميعًا عذرًا رائعًا لئلا يفكروا في الأمر من الأساس.

إلا أن تلافي التفكير كان صعبًا هذا الأسبوع، فإيعاز يوم 13 أبريل الذي أصدره هيغ ظهر بالتفصيل في كل الصحف، وهو حفظه عن ظهر قلب كما فعل الجميع.

ما من طريقٍ أمامنا سوى أن نخوض القتال. يجب الحفاظ على كل موضعٍ حتى آخر رجل، لا يمكن الانسحاب بأي شكل. سنسند ظهورنا إلى الجدار، مؤمنين بعدالة قضيتنا، ويقاتل كلٌّ واحدٍ منا حتى النهاية.

أيًا كان تأثير هذا الإيعاز في معنويات الجيش، فقد ولَّد الذعر وسط المدنيين. أخذت بعض النساء، كما يبدو، يخططن بجدية تامة للطريقة التي سيقتلن بها أنفسهن وأطفالهن حين يصل الألمان. لقد فعلت قصص فظاعات شهور الحرب الأولى مفعولها، بالتمام والكمال وزيادة؛ راهباتٌ قُطعت أثداؤهن، قساوسة عُلقوا رأسًا على عقب واستُخدِمت أجسادهم مدقاتٍ لقرع أجراس كنائسهم. ليس الأمر أنه لم يكن ثمة فظائع وحشية بالفعل، لكن

أسرى الحرب كانوا ضحاياها الرئيسيين دائمًا، وكان الذنب موزَّعًا بالتساوي أكثر مما تحب الصحافة أن تظن.

ثمة أوقات -وهذه الليلة منها- يصيب فيها منظر المدنيين وأصواتهم ورائحتهم پراير بإعياءٍ بدنيٍّ. يتذكر الرائحة النتنة التي تنبعث من رجال كتيبة تزحف عائدةً من خط القتال، تلك الرائحة الصفراء الكثيفة، ويفكر كم يفضلها على هذه. علم أن عليه أن ينأى بنفسه عن الشوارع، ويبتعد عن الحشود ولغوها وهبَّاتِ العطر التي تنقضّ على منخرَيه كلما مرت قربه امرأة.

بعد عودته إلى الحديقة، تحت الشجر، بدأ يسترخي. ربما كانت حاجته هي ما يلوِّن مدركاته، غير أن الحديقة بدت له في هذه الأمسية الربيعية مفعمة بالرغبة الحية. في صورةٍ ظليَّةٍ رسمها الغروب، جنديٌّ وفتاته يتهاديان في مشيتهما، متكئَين على بعضهما إلى حدٍّ يجعل واحدهما يسقط لو تخلف الآخر. ذكَّره ذلك بنفسه مع سارا على الشاطئ في اسكتلندا، فأشاح بحركةٍ حادة. لا مغزى من التفكير في ذلك، ستنقضي ستة أسابيع على الأقل قبل أن يستطيع أن يأمل برؤيتها من جديد. على مسافةٍ أبعد نحو قوس الرخام[1]، كانت ظلال الناس فُرادى، الجزم العسكرية تدب ثقيلةً على المماشي أو تقدح شررًا في أعمق أعماق الظل.

جلس على مقعد وأشعل لفافة تبغ، وهو ما زال يحاول أن يقرر ما سيفعله بما تبقى من أمسيته المبتورة. إنه يحتاج إلى الجنس، يحتاج إليه حاجةً ماسَّة. لا جدوى من فعلها بيده، لأن... لأن ما من جدوى، والبغايا لسْنَ احتمالًا لأنه لا يدفع. تذكَّر حديثه إلى ريڤرز -الذي كان طبيبه في مستشفى كريغلوكهارت الحربيّ، «مستشفى المجانين» الذي أمضى فيه خمسة أشهر من العام المنصرم- عن ماخور في أميان، وكيف كان الرجال، المجندون، يقفون في طوابير على الرصيف ويُسمح لكل واحدٍ بدقيقتين. «والضباط؟»، سأله ريڤرز حينذاك، فأجابه: «لا أدري، مدة أطول من ذلك»، ثم أضاف بكلماتٍ بصقها بصقًا: «*أنا لا أدفع*». لا شك أن ريڤرز رأى الأمر ساذجًا بالأحرى؛ خيلاء شابٍّ سخيفة ببسالته الجنسية، وبقدرته على «نيل ذلك» مجانًا. لكن المسألة لا

(1) قوس الرخام: قوس نصر يُعد واحدًا من معالم لندن الشهيرة. (المترجم)

تمُتُّ إلى هذا بصلة، إذ إن پراير لا يدفع لأنه -ذات مرة منذ بعض السنوات- قد دُفِع له، وهو يعرف تمامًا كيف ينظر الدافع إلى من يدفع له.

«معك قداحة؟».

بشكل أوتوماتيكيٍّ، راح پراير يطبطب على جيوبه. بالكاد استوعب وجود مخاطِبه أول الأمر، إلا بصفته مقاطعة غير مرحبٍ بها لأفكاره، بيد أن ذهنه -وهو يُخرِج علبة الثقاب- التقط -بشكلٍ ما لا واعٍ- توترًا في صوت الرجل جعله يرفع رأسه. كان يهم بتقديم العلبة، لكنه غيَّر رأيه الآن، وأخرج عودًا أشعله بنفسه. بدا صوت الاحتكاك والاشتعال عاليًا جدًّا. دارى اللهب بيديه ومدَّهما، فيما انحنى الرجل نحوه. قبعة ضابط عسكرية، عينان داكنتان، شارب رفيع يحدد فمًا ممتلئًا، الوجه مُدوَّر إنما ليس سمينًا. پراير متأكد أنه يعرفه، لكنه لا يستطيع أن يتذكر أين رآه من قبل. عندما اشتعلت اللفافة، لم يمضِ في سبيله من فوره، بل جلس على المقعد تاركًا مسافةً بينهما، وراح ينظر حوله بغموض وتفاحة آدم البارزة إلى حدٍّ ما ترتعش في عنقه. كانت ساقه اليسرى ممدودةً أمامه على نحوٍ أخرق، لعلها ما يفسر شريط الإصابة[1] المثبت على كُمِّه.

استطاع پراير أن يفهم المسألة. ليست هذه هي المنطقة المعنية بالضبط، لكنها قريبة منها، وسلوكه هو نفسه -رغم كونه مثيرًا للاهتمام- لم يكن بمنزلة دعوة صريحة. أغرته فكرة أن يشاكسه، إلا أنه اقترب منه عوضًا عن ذلك وقال: «ألديك أي مكان نقصده؟».

«أجل»، رفع الرجل رأسه: «ليس بعيدًا».

الساحة تضم منازل مرتفعة ضيقة داكنة، تقوم حول مرج مُسيَّج فيه أشجار طويلة هزيلة، وقد نمت الأعشاب الضارة بغزارة في المرج ومساكب الورد المحيطة به. على الجانب الأيمن بعد مسافة، كانت قذيفة قد أطاحت

(1) شريط الإصابة: شارة تُمنح للجنود الذين أصيبوا في أثناء القتال، كان -لدى الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى- عبارة عن شريط من النحاس الأصفر يُغرَز في القماش عموديًا على الساعد الأيسر في موضع بين شارات حسن السلوك. (المترجم)

بثلاثة منازل ودمرت الرابع جزئيًا، مُخلِفةً فجوةً ضخمة. تابعا سيرهما دون كلام يُذكَر، ومع اقترابهما من الفجوة صار للرصيف ملمسٌ مبرغلٌ تحت أقدامهما، وقد اكتسى بطبقة شاحبة من العفر الذي تدفق بغزارة من المنازل المنكوبة وبدا أنه لا يزول أبدًا مهما بلغ الحرص على حجب الأنقاض بالأسوجة. كان پراير واعيًا بشعور بارز يشده جانبًا نحو الفجوة، لقد سبق وشعر به في أثناء سيره قرب مواقع مقصوفة أخرى. ليست لديه أدنى فكرة إذا ما كان الجميع يشعرون بهذا الجذب الجانبيِّ أم أنه يقتصر عليه هو، نتيجة أُلفةٍ ما تجاه الأماكن التي تعرِّض الانتظام المستقر لاعتداءٍ صارخ فيها.

توقفا أمام المنزل رقم 27. كانت مصاريع نوافذه مغلقة، وثمة قطة تربض محدودبةً في وضعية دفاع على أدراج القبو وتهر فوق شيء عثرت عليه.

بدا رفيق پراير يواجه عناءً مع القفل. «جزءٌ من الأضرار»، قال من فوق كتفه متجهمًا. ضرب الباب بكتفه، ثم أمسك المقبض وشدَّه نحوه: «الشد ضروريٌّ، أنا أنسى هذا دائمًا».

«ليس دائمًا تمامًا، كما آمل»، قال پراير.

التفت رفيقه وابتسم، وللحظةٍ تجدد التوتر بينهما. نزع قبعته ومعطفه ومد يده منتظرًا قبعة پراير ومعطفه. «العائلة في الريف، وأنا أنزل في نادِيٍّ»، تردد: «أفترض أن عليَّ تقديم نفسي، تشارلز مانينغ».

«بيلي پراير».

راح واحدهما يعاين الآخر خفيةً. كان لمانينغ رأسٌ مُدوَّر بشدة، يُتوِّجه شعر داكن أملس كثيف سرَّحَه إلى الخلف دون أن يفرِقه. عيناه يقظتان، وهو يشابه حيوانًا من نوعٍ ما -كما قال پراير لنفسه- ثعلب ماء ربما. أما مانينغ فكان يرى رجلًا نحيلًا فاتح الشعر، في الثالثة أو الرابعة والعشرين، بوجهٍ له أنف ممسوح وعظما وجنتين مرتفعان وسيماء عامة تشي بطريقته الدقيقة التي ينتقي بها خطواته في الحياة. دفع مانينغ بابًا يقع على اليسار، فانسلت منه نسمة هواء كاسد إلى الردهة. «لمَ لا تدخل؟ لن أغيب كثيرًا».

دخل پراير. نوافذ طويلة مغلقة المصاريع، أثاث مغطى بملاءات بيضاء، ورائحة سخام ثقيلة من ركن المدفأة الخاوي. كل شيء قابعٌ تحت الأغطية الواقية من الغبار ما عدا المرآة الطويلة التي تعكس مرآة الردهة عبر الباب

المفتوح. ألفى پراير نفسه يحدق إلى ممرٍ طويل من صوره المتكررة، بعضها يدير ظهره له، وكلها تبدو حقيقية بنفس السوية. تابع سيره.

«أترغب في شراب؟»، سأله مانينغ من الباب.

«أجل، من فضلك».

- ما رأيك بالويسكي؟

- جيد.

مشى پراير بمفرده إلى البيانو الكبير، ورفع طرف الغطاء الواقي من الغبار فوجد نفسه ينظر إلى صورة فوتوغرافية لامرأة برفقة صبيَّين صغيرين، أحدهما متشبث بقارب شراعيٍّ يضمه إلى صدره.

حين عاد مانينغ حاملًا زجاجة ويسكي وإبريقًا وكأسين، كان پراير يحدق إلى صدعٍ فوق الباب. «هذا يبدو مشؤومًا بعض الشيء»، قال.

«أجل، أليس كذلك؟ لا أعرف حقًّا ماذا يُفترض بي أن أفعل بشأنه. لا يستطيع المرء العثور على حِرَفيين، لذا أكتفي بالدخول والنظر إليه من حينٍ إلى آخر»، رفع الإبريق: «ماء؟».

«القليل فقط».

سارا إلى الكراسي الموضوعة قرب المدفأة، فنزع مانينغ الأغطية وجلس پراير مسندًا ظهره إلى القماش المقصَّب القاسي. لم ينضغط القماش تحت ظهره على الإطلاق، بل ثبَّته في جلسة مستقيمة متوترة. بدأا محادثة من النوع الذي ربما كان ليدور بينهما لو أنهما تعرَّفا إلى بعضهما في قاعة الطعام، وراقب پراير مانينغ بدقة، ملاحِظًا الصليب العسكريَّ وشريط الإصابة والتقبضات وعلامات التوتر والتأتأة التي تظهر من حين إلى آخر. كان متوترًا بوضوح، لكن بدا من الصعب تحديد مدى علاقة الوضع الحاليِّ بذلك، وقد طال هذا الوضع قليلًا بالفعل. إن استمر ذلك، سيأتيان على الزجاجة اللعينة بأكملها وهما ما يزالان يتجاذبان أطراف الدردشة العسكرية مع حلول منتصف الليل. هذا لطيف جدًّا، قال پراير لنفسه، لكنه ليس ما جئتُ من أجله. انتبه إلى أن عينَي مانينغ، رغم تجوالهما في أطراف المكان كلها، تعودان دائمًا إلى النجوم التي على كُمِّه. *حسنًا، كنتَ تعرف أنني ضابط*، قال بصمت.

بدأ يفكر أن مانينغ ربما يكون أحد أولئك الذين لا يستطيعون -لا يستطيعون ببساطة- أن يتصرفوا براحة مع شخص يناظرهم اجتماعيًّا. تنهد پراير ونهض قائلًا: «أتمانع أن أخلع عني هذا؟ أشعر بدفء كبير».

لم يكن يشعر بالدفء، بل إن البرد ينهشه كما يقولون. ومع ذلك، نزع ربطة عنقه وسترته وقميصه، وألقاها على ظهر أحد الكراسي. لم يقل مانينغ شيئًا، واكتفى بالمشاهدة. مرَّر پراير أصابعه في شعره المقصوص إلى أن انتصب مثل الإبر، وأشعل لفافة، ثم ابتسم. لقد حوَّل نفسه إلى فتى الطبقة العاملة الذي لن يرى مانينغ بأسًا في إمضاء وقت معه، ونجح ذلك. كان يفكر أنه على الأرجح لم يشعر يومًا بالعداء الطبقيِّ يفور فيه أنقى مما اعتراه في هذه اللحظة. خشَّن لكنته: «تمام؟».

«أجل، فلنصعد إلى الأعلى».

تبعه پراير. في الطابق الأول كان يوجد باب مفتوح، يفضي إلى غرفة نوم كبيرة فيها سرير مزدوج. أغلق مانينغ الباب، وتابع الصعود والصعود أكثر فأكثر، حتى وصل إلى ما بدا واضحًا أنه قسم *الخدم*. دفع مانينغ بابًا في نهاية الممر، ثم ناول پراير المصباح وقال: «لن أغيب كثيرًا».

دخل پراير؛ سرير مزدوج بهيكل من النحاس الأصفر يكاد يحتل كامل الغرفة الصغيرة. جلس على طرفه وراح يتنطط، قد يكون هذا أكثر الأسِرة التي صادفها إثارةً للضجة على الإطلاق، حمدًا لله أن المنزل خاوٍ. في ما خلا السرير، كان هنالك منضدةُ مغسلةٍ عليها وعاء وطشت، وطاولة بمرآة، وخزانة صغيرة تحجبها ستارة. نهض وأزاح تلك الستارة، فوجد زيَّي خادمتين مُعلقَين، يبدوان مثل الخادمتين نفسيهما تقريبًا، بتناسق أنيق للغاية بين الأكمام والقلنسوتين. فاحت رائحة من الخزانة: خزامى وعرق، رائحة حزينة. لقد استهلت والدة پراير حياتها تعمل خادمةً في منزل يشبه هذا تمامًا. راح ينظر في أنحاء الغرفة، الصندوقِ الصغير المتجمد الذي يقوم مقام غرفة تطل على أسطح، ثم -في نزوةٍ مباغتة- أخرج أحد الزيَّين ودفن وجهه في إبطه، متنشقًا رائحة العرق. لم يكن لهذه النزوة أي صلةٍ بالجنس، رغم أنها نبعت من طبقةٍ في شخصيته لا تقل عمقًا. عاد مانينغ إلى الغرفة مع رفع

برايز لرأسه، ولدى رؤيته الأخيرَ يحضن الزيَّ، بدا مثبَط الهمة كما ينبغي أن يقال. ابتسم برايز، وأعاد تعليق الزيِّ في مكانه.

وضع مانينغ إناءً صغيرًا على الكوميدينا جوار السرير، وأدخلهما صوت ارتطام الزجاج بالخشب في ارتباطٍ أوثق وأشد توترًا من أي شيء استطاعا بلوغه حتى الآن. استلقى برايز على السرير. كانت ساق مانينغ مصابة، إصابة بليغة حقًّا. انحنى برايز إلى الأمام ليعاين الركبة، فبدوَا للحظةٍ كأنهما ولدان عادا إلى فناء اللعب، يعاين واحدهما سحجات الآخر.

- يبدو أنك ستُعفى.

- على الأرجح، فقد تقلصت الأوتار كما ترى. يظنون أنني استعدتُ كامل الحركة التي يمكن أن أستعيدها، لكن من يدري؟ ما دامت الأمور تسير بهذا الشكل، فهل يُعفى أحد؟

أنهضَ برايز ظهرَه. من شأن أيِّ بادرة رقَّةٍ، في حالة مانينغ هذه، أن تستنهض شعورًا سيئًا، وهو ليس في وضعٍ يسمح له أن يحتمل هذا. استلقيا جنبًا إلى جنب لبعض الوقت. انقلب برايز متكئًا على مرفقه، كان يفكر كم يستحيل تلخيص العلاقات الإنسانية في مسألةِ مَن يتقرب ممَّن. لغةُ جسده تنطوي على سخطٍ من اختيار مانينغ لهذه الغرفة قبل أي شيء آخر، وعلى تعاطفٍ بسبب الإصابة، وحسدٍ لأن مانينغ نال إعفاءه بطريقة مشرفة... بالإضافة إلى إدراكٍ متنامٍ لكونه، في أثناء نظره إلى مانينغ، إنَّما يتلقى نظراته هو أيضًا. تصلب التعبير على وجه برايز، وفكر في قرارته: حسنًا، على الأقل أنا لا أتقبض مثلما تفعل أنت.

الركبة لم تكن تبعد أكثر من إنش عن يده.

مضى بعضُ الوقت. ذهب مانينغ إلى الحمام، فمد برايز يده وأدار المرآة نحوه. هذه هي المرآة التي كانتا تنظران إليها، في الخامسة والنصف من صباح كل يوم، شتاءً وصيفًا، متثائبتين بأعين عمشاء، لتتحققا من ضبط قلنسوتيهما فوق رأسيهما وتغطيتهما لكامل الشعر. تذكَّر أمه وهي تخبره أن الخادمة إن التقت بأحد أفراد العائلة، في ممر المنزل التي كانت تعمل فيه، عليها أن تقف مشيحةً بوجهها إلى الجدار.

عاد مانينغ يحمل زجاجة الويسكي والكأسين، وكان يعرج بشدة.

«أين تعرضتَ لهذا؟»، سأله پراير مشيرًا إلى الإصابة.

- في پاشنديل.

- أوه، أجل. هل كانت مجموعتك في الهجوم الذي وقع على المنحدر؟

«هذا صحيح». صب مانينغ الويسكي وجلس على طرف السرير، مستندًا في جلوسه إلى الهيكل، ومد ساقه اليسرى أمامه: «وقتٌ ممتع للغاية».

قال پراير: «لقد مثلتُ أمام لجنةٍ لتوي». لم يكن يريد التحدث عن حالته، بيد أنه لم يستطع ألا يتطرق إلى الموضوع. بدأ يعتريه السخط من صمت مانينغ حيال الموضوع، في حين أن المبادرة بسؤال كانت لتبدو تصرفًا أكثر طبيعيةً بكثير.

«ماذا قالوا؟»، سأله مانينغ.

«لم يقولوا شيئًا بعد. يُفترض أن أُحال إلى الخدمة المحلية الدائمة، لكن مع المسار الذي تتخذه الأمور...».

تردد مانينغ، ثم سأل: «وهن عصبيٌ، أليس كذلك؟».

لا -أراد پراير أن يقول- بل هوسٌ عنيفٌ بالقتل، مع نزوع خاصٍّ إلى تقطيع أوصال الأوغاد ذوي الأنفة والرُّكَب الخائرة. «لا، بل هو الربو»، قال: «كنتُ مصابًا بوهنٍ عصبيٍّ فعلًا، غير أنني تعرضتُ لهجمتَي ربو في المستشفى، واختلطت الأمور قليلًا جراء ذلك».

- في أي مستشفى كنتَ؟

- كريغلوكهارت، الذي يقع في...

- آه، إذًا أنت تعرف ريڤرز.

حدق پراير: «لقد كان طبيبي، وما يزال. إنه... إنه في لندن الآن».

«أجل، أعرف».

جاء دور پراير في عدم طرح السؤال البديهيّ.

«أما زلتَ في إجازة مرضية؟»، سأله مانينغ بعد سكوت قصير.

«لا، أنا أعمل في وزارة الذخيرة، في...»، نظر إلى مانينغ: «*هناك* رأيتُك، كنت *أعلم* أنه قد سبقت لي رؤيتك».

ابتسم مانينغ، لكن كان واضحًا للغاية أنه ليس مسرورًا: «لا ضير إذًا أنني لم أدعُ نفسي «سميث»، فقد فكرتُ في ذلك».

«إن كنتَ ستفعل هذا لنصحتُك بإخفاء الرسائل الموضوعة على طاولة الردهة قبل كل شيء، فليس فيها رسالة موجهة إلى «سميث»»، أطرق پراير ينظر في كأسه، ثم كف عن المكابرة: «من أين تعرف ريڤرز؟».

ابتسم مانينغ: «إنه طبيبي أنا أيضًا».

- صدمة قصف[1]؟

- كلا، ليس بالضبط. لقد... إممم... لقد قبض عليَّ رجال الشرطة، قبل شهرين تقريبًا. لم أُضبَط بالجرم المشهود تمامًا، لكن... الشاب اختفى حال وصولنا إلى مخفر الشرطة، على كل حال.

- ماذا حدث؟

«أوه، اكتفينا بالجلوس جميعنا، لم يفعل أحدٌ شيئًا مزعجًا. أرسلتُ في طلب محاميَّ، فوصل في آخر الأمر وأطلقوا سراحي. إصابتي ساعدتني، والوسام كذلك»، نظر إلى پراير مباشرةً: «صِلاتي ساعدتني. عليكَ ألا تسارع إلى الاستخفاف بي كما تعلم، فأنا لستُ أحمق. ثم ذهبتُ إلى المنزل وانتظرت، بدا محاميَّ يعتقد أن وصول القضية إلى المحكمة سيتكفل بحبسي مدةَ عامين، لكنهم لن يحكموا عليَّ بالأشغال الشاقة على الأرجح بسبب ساقي».

- يا لشهامتهم.

- أجل، أليس كذلك؟ ثم قال أحدهم إن ما ينبغي فعله هو الذهاب إلى طبيب نفسيٍّ والحصول على علاج و... و... وهذا سيساعدني. لذا ذهبت إلى د. هيد، الذي يتمتع بصيت ذائع في هذا المجال. لقد قيل لي فعلًا بالحرف الواحد: «هنري هيد يستطيع أن يشفي أي أحد». وقال إنه لا يستطيع تولِّي علاجي، كان جدول أعماله مكتظًّا، فرشح لي ريڤرز. وعلى ذلك ذهبتُ إليه، وقال إنه سيتولى أمري.

---

(1) صدمة القصف: مصطلح صاغه عالم النفس البريطاني تشارلز صموئيل مايرز في الحرب العالمية الأولى لوصف نوع من اضطرابات ما بعد الصدمة عانى منه كثير من الجنود خلال الحرب (قبل أن يُطلَق عليه اضطراب ما بعد الصدمة). (المترجم)

- هل تريد أن تُعالَج؟

- لا.

- ما الذي يفعله؟

- أحاديث. أو بالأحرى، *أنا* أتحدث وهو يستمع.

- عن الجنس؟

«لا، ليس كثيرًا، بل الحرب بشكلٍ أساسيٌ. أترى؟ هنا يبدأ الالتباس، لأنه ألقى عليَّ نظرة واحدة وقرر أنني مصاب بالوهن العصبيّ. أقصد، أستطيع أن أفهم وجهة نظره، فقد كنتُ في طور غريب حين خرجتُ من المستشفى، أسوأ بكثير مما استوعبتُه وقتها. ذات ليلة على العشاء، التقطتُ مزهرية وخبطتُها بالجدار ببساطة. كان عدد الحضور كبيرًا، نحو اثني عشر شخصًا، ثم خيم ذلك... الصمتُ المريع، ولم أستطع أن أشرح سبب إقدامي على ما فعلته، باستثناء أن المزهرية كانت بشعة. ثم قالت زوجتي: «عمتُك دوروثيا بشعة أيضًا، إلى أين سيفضي هذا النوع من التفكير؟»»، ابتسم: «لا أستطيع أن أتحدث إلى أي شخص آخر، لذا أتحدث إليه».

وضع پراير يده على ذراع مانينغ: «هل ستكون على ما يرام؟ أعني، هل سيتركونك وشأنك؟».

«لا أدري. أظن أنهم لو كانوا سيوجهون إليَّ التهم لفعلوا ذلك بحلول هذا الوقت»، تقعَّر صوتُه: «*في تلك اللحظة، سُمِع طرقٌ على الباب...*»».

كان پراير يفكر: «لا ضير في ذلك، بل ربما كان الأمر ملائمًا، صحيح؟ أن تكون مصابًا بالوهن العصبيّ؟».

- ليس تمامًا.

- أقصد بالنسبة إلى ريڤرز، إذ لا يتعين عليه أن يتحدث عن...

- لا أعرف ما رأي ريڤرز. على أي حال، الحرب هي ما أريد أن أتحدث عنه. وحتى معه، كما تعلم، ثمة بعض الأشياء التي لا أستطيع...

- سوف تستطيع.

استلقيا وراحا ينظران إلى بعضهما. قال مانينغ: «كنت تهم أن تقول في أي قسم من الوزارة...».

- أجل، كنت سأفعل. المخابرات.

- مع الرائد لود؟

- أجل، مع الرائد لود. وأنت؟

- أنا في الطابق الخامس.

من الواضح أن الموقع هو الجواب. استدار مانينغ نحو پراير، وظلّا مستلقيَين يحدق واحدهما إلى الآخر.

2

غادر تشارلز مانينغ وزارة الذخيرة قبل ساعتين من موعده المعتاد وذهب إلى منزله، حيث كان قد رتب للقاءٍ ببنّاءٍ وعدَه بترميم الضرر الذي خلّفته القذيفة. إنه منتصف الأصيل من يومٍ دَبِقٍ على نحوٍ مفاجئ بالنسبة إلى الربيع، دافئ ورطب. عندما تسطع الشمس، وكانت تفعل ذلك بشكل متقطع مطلةً من بين أكداس الغيم الأسود، تلمع الأوراقُ الفتية على الأشجار بخَضارٍ حيويٍّ يكاد يكون عدائيًا.

كان يسير شاردَ الذهن قرب الموقع المقصوف، عندما جعله انسحاقُ فتاتِ الحجر ورائحة القرميد المتفحم يتوقف قليلًا وينظر من فرجة في السياج. لقد تركت المنازلُ المدمَّرة رسمًا لخطوطها الخارجية على جانبَي الفجوة، مثل الأخيلة اللاحقة التي تنطبع على الشبكية. رأى ورقَ جدرانِ غرفة النوم ذا التعريشات المتشابكة، الذي لم يكن أحد يراه سوى العائلة وخدمِها، وقد بات الآن مكشوفًا للريح والمطر ونظرات المارة الطارئين. ما من شيء يتحرك في ذلك القفر، لكن -في مكان ما خارج نطاق الرؤية- كان العفر ينسرب بمثابرة من الجرح الذي لا يرقأ.

فجأةً ظهرت قطة، قطة نحيلة، واحدة من الحيوانات المنزلية التي هجرها أصحابها وظلت تتسكع في أنحاء الساحة. بدأت تشق طريقها وسط الأنقاض، بشعرها الأملس ذي السواد الحالك، صورة ظلية ترسمها زوايا وتموجاتٌ في آنٍ معًا. توقفت، وانتبه مانينغ إلى عينين صفراوين تلتفتان باتجاهه مُهدِّدتين، وأنفٍ ورديٍّ مشقوق يرتفع ليغربل الهواء. ثم تابعت طريقها، تبحث بوسائد

قوائمها الناعمة عن مواضع بين شظايا الزجاج المتلألئ. ظل مانينغ يراقبها حتى غابت عن نظره، ثم -إذ رأى أن عليه المتابعة- ألقى ساقه المتيبسة على درجات منزله ودسَّ مفتاحه في القفل، متذكرًا بابتسامة واهية أن عليه أن يشده لا أن يدفعه.

وجد ظرفًا في صندوق البريد، أخرجه وحمله إلى الصالة، فيما راحت عيناه تعتادان الظلام تدريجيًا. رائحة سخام ثقيلة، لا بد أنه تساقط مرةً أخرى؛ تنظيف المداخن عمل آخر يعجز المرء عن إنجازه. أطرق ينظر إلى الظرف، مطبوع على آلة كاتبة، أرسله أحدُ الحِرَفيين على الأرجح، فأفراد عائلته وأصدقاؤه يعلمون جميعهم أنه ينزل في ناديه. وضع الرسالة على الغطاء الواقي من الغبار الذي يكسو الأريكة ومشى إلى الطرف الآخر من الغرفة، حيث فتح المصاريع لفَيضٍ من الضوء الأصفر السقيم.

ذهب لينظر إلى الصدع فوق الباب، لقد سأله البنَّاء إذا ما كان جدارًا حاملًا. ضربه مانينغ بقبضته، فلم يبدُ أجوفَ أو واهيًا، لكن هذه المنازل صلبة التشييد على أي حال. سار إلى الجدار الأماميِّ، وضرب من جديد وهو يظن أنه قد يستطيع تمييز فرق، لكنه لم يصل إلى نتيجة تُذكر. عاد إلى الصدع ولاحظ أن طوق الباب مرتخٍ بأكمله، ويبدو أسوأ كلما عاينه من مسافة أقرب. هذا يبدو مشؤومًا، كان پراير قد قال بابتسامة واهية. يا له من فتى غريب. حتى وهو يشعر أن ذكرى الأمسية بدأت تحركه، كان ذهن مانينغ يعمل، ويُجري تصنيفًا. أول الأمر، وهو ينتبه إلى أحرف پراير الصوتية المسطحة، قال لنفسه: أوه، أجل، جنتلمان مؤقت[1]. عبارةٌ قميئة متكبرة، لكن الجميع يستخدمونها، رغم أن المرء يحاول ألا يستخدمها لوصف الأشخاص الذين يروقون له كما هو واضح. لكن الأمر المذهل هو مدى إلحاح الوعي تجاه الفارق الطبقيِّ، إذ يبدو أن العقل قادر على إجراء هذه التقييمات الاجتماعية الدقيقة في كل الظروف تقريبًا. تذكَّر معركة السوم، كيف انبطح الجنود من أبناء نورثمبرلاند ودرهام، حيث نالت منهم الرشاشات وحصدتهم مثل القمح

---

(1) جنتلمان مؤقت: مصطلح عامي يشير إلى ضباط الجيش البريطاني الذين تقلدوا رتبةً مؤقتة (خلال فترة الحرب)، ولا سيما من لا ينتمون إلى «طبقة الضباط» التقليدية. (المترجم)

بضربات منجل متقنة. في وقت لاحق من تلك الليلة، بينما يسير متضعضعًا عبر أحد الخنادق في ظلمة دامسة، باذلًا قصارى جهده كي يستبين أين ينتهي القسم الذي كان مسؤولًا عنه من الجبهة، تعثر بضابط من نورثمبرلاند هزته المذبحة التي نزلت بكتيبته وترك ذلك آثاره فيه بجلاء شديد. ومن له أن يلومه؟ يعلم الله كم خسروا من الرجال. لقد أظهر مانينغ تعاطفًا وثباتًا، وسمح له وقتُه -رغم إدراكه أن شجاعته لم توضع على المحك بعد- أن ينتبه إلى أن ضابط نورثمبرلاند لا يلفظ حرف الهاء[1]. كان لهذا وقْع الصرير على أذنيه. روَّعته ردة فعله تلك، بيد أن اللفظ أزعجه مع ذلك. والغريب في الأمر هو معرفته أن اللفظ ما كان ليزعجه لو أن الرجل مجند، ولتعامل مع الوضع حينئذٍ على نحو أفضل بكثير.

مع مرور ساعات أمسيته مع پراير، تناقصت ملاءمةُ صفة «الجنتلمان المؤقت» شيئًا فشيئًا. إنها توحي بأحد أولئك الأشخاص البغيضين -حقًّا، هم بغيضون بالفعل- الذين يقلدون من يفوقونهم مكانةً بسماجة متلهفين لفعل كل شيء «بالطريقة الصائبة»، فيصبحون في أثناء ذلك باهتين وذابلين أخلاقيًّا يثيرون الغثيان في كل ما يفعلونه. أما پراير فقد نجا من ذلك، وليس لأنه لا يقلد -فهو يفعل- بل لأنه لم يكن متلهفًا. كان المرء ليكاد يظن أنه ضبط فيه ومضةً من التسلي مرةً أو اثنتين، بل حتى لمحة من المحاكاة الساخرة. أيًّا يكن، فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أن ذلك الرجل لم يكن ينتمي إلى أي صنف، ليس من هؤلاء ولا من أولئك، لا من الناحية *الاجتماعية*، ولا من الناحية النفسية بالطبع، إلا أن التفكير في هذه الناحية ليس مريحًا بالقدر نفسه. لديه فتاة في الشمال كما قال، لكنهم جميعًا يقولون ذلك. كان مانينغ قد اقترح أن يلتقيا مجددًا، ووافق پراير، إنما بتهذيب ودون كبير حماسة. لن يأتي على الأرجح، ولعلها ضارة نافعة، فعمله في الوزارة جعل الأمر قريبًا للغاية من... حسنًا، قريبًا للغاية.

نظر مانينغ إلى ساعته؛ تبقت عشر دقائق على موعد قدوم البنَّاء. سار إلى البيانو، رفع غطاء الغبار وأخرج صورةَ جين والولدين. لقد التُقِطت الصيف الماضي. كم كان روبرت صبيًّا ممتلئ الجسم، وما زال كذلك. سيظل دائمًا

(1) كما يفعل أهالي بعض مناطق إنجلترا، لا سيما في أوائل الكلمات. (المترجم)

طفلًا مدور الخدين يتعذر تصنيفه. كان قابضًا على القارب كأنه يشتبه أن ثمة من يخطط لسلبه إياه، ولا شك أن جيمس كان يُضمر تلك النية. *إنه غريب*، قال مانينغ لنفسه وهو ينظر إلى روبرت. كان يشعر بحبٍّ يكاد يكون مؤلمًا لابنه الكبير، ويضبط نفسه أحيانًا يكلم الولد بنبرة مفرطة في حدتها، بيد أن ذلك لم يكن سوى لأنه يرى الكثير من نفسه فيه. إنه يعرف مواضع الضعف، وهذا يجعله يخاف، ففي النهاية لا أحد يستطيع حماية أبنائه. الجميع يفترضون أن جيمس هو المفضل لديه، بمن فيهم روبرت على الأرجح، وهذا هو الأمر المحزن. لكن ذلك لم يكن صحيحًا. إن حبه لجيمس عاطفةٌ أكثر إشراقًا وأقل تعقيدًا بمجملها، وهو يحظى بمرح أكبر مع جيمس، لأنه يرى أنه مرن. لديه حاجبا أمه الداكنان المحددان بوضوح، وعظام وجنتيها، وفكها، والنظرة المباشرة المستطرفة نفسها. لم تكن الصورة تفيها حقها، فضوء الشمس أبهتَ قوةَ وجهها بطريقةٍ ما. لعلها تبدو أجمل بسبب ذلك، لكن شَبَهها بـ «جين» يبدو أقل بدرجة معتبرة في الوقت نفسه. «كانت بشعة»، المزهرية التي رماها على الجدار. «عمتُك دوروثيا بشعة أيضًا، إلى أين سيفضي هذا النوع من التفكير؟». هذه شِيَمُ جين المعهودة. بدا كلامها خاليًا من التعاطف، لكنه ليس كذلك، ليس في الواقع. هي امرأة قادرة على مواجهة أي خطر ملموس مهما بلغ حجمه دون أن يرف لها جفن، لكن الظلال التي تكدر الذهن ترعبها.

انتقل مانينغ إلى حيث المدفأة، وانتبه في طريقه إلى الرسالة فالتقطها مجددًا، متسائلًا مرةً أخرى من عساه يكون الذي كتب إلى هذا العنوان. ما من فواتير غير مدفوعة، والجميع يعلمون أنه في النادي. راح يفتحها، وهو يفكر أن عليه أن يطلب من البنّاء فعل شيء حيال الانبعاج الذي خلّفه ارتطامُ المزهرية بالجدار. داخل الظرف، عوضًا عن الورقة التي يتوقعها، عثر على قصاصة جريدة. قلَبها على وضعها الصحيح وقرأ:

طائفةُ البَطَر

على الراغبين في الانضمام إلى قائمة حضور العرض الخاص الذي تؤديه مود ألين لمسرحية «سالومي»

لأوسكار وايلد التقدم بطلب إلى آنسةٍ اسمُها ڤاليتا، 9 دوك ستريت، أديلفي، مدينة وستمنستر. إن حدث ووضعت شرطةُ سكوتلاند يارد يدّها على هذه القائمة، فلا شك لدي أنهم سيعتقلون عدة آلاف اسمٍ من بين الـ47,000 الأوائل.

لقد سبق له أن رأى هذه المادة المكتوبة، إذ نُسِخت -دون الترويسة عادةً- في عدة صحف لها سُمعتها، بيد أن ظهورها الأول كان في ڤيجيلانتي، جريدة پمبرتون بيلينغ البغيضة. كانت مود آلان -ولم يكتبوا اسمها بشكل صائب حتى- تقاضي پمبرتون بيلينغ بتهمة التشهير، وهذا برأي مانينغ خطأ جسيم، فما إن يقف پمبرتون بيلينغ على منصة الشهود حتى يغدو بإمكانه اتهام أي شخص كان متدرعًا بحصانة كاملة. سيكون منيعًا على المقاضاة، بعكس الأشخاص الذين سيسميهم. بوسع المرء طبعًا أن يرى الأمرَ من منظور مود آلان، سوف تُدَمَّر إن هي لم تُقاضِ، والأرجح أن الدمار مصيرها على كل حال.

السؤال هو: لماذا أُرسِلت الرسالة إليه هو يا ترى، ومن أرسلها؟ لم يُمْدِده ختمُ البريد بشيء نافع، وما من رسالة توضيحية. ألقى مانينغ القصاصة على الأريكة، ثم التقطها من جديد، ممسكًا الورقة المصفرة الرقيقة بين إبهامه وسبابته. مسح شفته العلوية بظهر يده، ثم التفت إلى المرآة كما لو أراد استشارة نفسه. ولأنه كان قد ترك باب الصالة مفتوحًا، ألفى نفسه ينظر إلى متاهة من الشخوص المتكررة. إن اسمه واردٌ في تلك القائمة، فهو ذاهب لمشاهدة «سالومي»، وليس بصفته مجرد فردٍ عاديٍّ من العامة، بل برفقة روبرت روس، الذي رخّص للعرض كونه الوصيَّ على أعمال أوسكار وايلد الأدبية.

بدأ من فوره يسأل نفسه إذا ما كان ثمة مَخرج مشرِّف من الأمر، لكنه لم يلبث أن قال لنفسه: لا، ما من جدوى. التراجع الآن سيكشف ببساطة عن مدى خوفه لـ لـ لـ... لمن يراقب، كائنًا من كان، إذ من الواضح أن هنالك من يراقب، أحدهم كان يعلم أن عليه إرسال القصاصة إلى هنا.

برايز يعمل في وحدة المخابرات مع الرائد لود، لعل لهذا علاقة بالأمر؟ لا يدري. هو لا يعرف أي شيء، وهنا يكمن المأزق.

رن الجرس، فذهب مانينغ إلى الباب والورقة ما تزال في يده. وقف على العتبة رجلٌ نحيل رشيق في طور المشيب، له عينان زرقاوان عمشاوان، حيَّاه بلهجة شعبية مستخدمًا عبارة «عِمْ صباحًا يا سيدي».

«حضرة النقيب مانينغ؟»، نزع قبعته: «أوبراين، سيدي. جئت من أجل أعمال الترميم».

فطن مانينغ إلى أنه يحدق فاغرًا فاه، فبلع ريقه ودفع القصاصة في جيب سترته ثم قال: «أجل، بالطبع. تفضل».

دلَّ أوبراين على الصدع في الجدار، وهو منبهر إلى حد يكاد يعجز معه عن تتبع ما يقوله. حمل نفسه على التركيز؛ كان جدارًا حاملًا بالفعل.

«كم سيستغرق العمل برأيك؟».

زمَّ أوبراين شفتيه: «ثلاثة أيام، *في الحالة الطبيعية*. المشكلة، كما ترى يا سيدي، هي تعذُّر الحصول على الرجال. ويليامز مثلًا»، هز أوبراين رأسه بحزن: «كان عاملًا جيدًا في أيام عزه. إنه مساعدي، شابٌّ حَرِك، وليس مندفعًا بالنسبة إلى شخص في سنه. أما صامويلز»، نقر على صدره: «العفر يؤذي رئتيه».

- كم سيستغرق؟
- أسبوعين.. ثلاثة.
- متى تستطيع أن تباشر؟
- في أي وقت يا سيدي، أيناسبك يوم الاثنين؟

لا بد من قول إن أوبراين رجل يستدعي الريب على الفور. آمل أنني أفعل الصواب، قال مانينغ في قرارته، وهو يرافقه إلى الباب. عاد لينظر إلى الصدع مجددًا، كان أوبراين قد أزال كمية كبيرة من الجص خلال تحريه خواص الجدار الحامل. نظر مانينغ إلى العفر الرماديِّ في الأسفل، وقد بدأ يشتبه أن موهبة أوبراين الحقيقية ربما تتمثل في التخريب. أوه، وما الفرق؟ فكَّر. أطبقت أصابعُه على القصاصة وأخرجها مجددًا. كان قد تذكر أن روبرت

روس تلقى نسخة قبل بضعة أشهر، عندما ظهرت المقالة التي تتحدث عن الكتاب الأسود والـ47,000 للمرة الأولى. لقد أُرسِلَت إليه بهذه الطريقة تمامًا، من مجهول ودون رسالة توضيحية. سار إلى النافذة ونظر إلى الحديقة. ثمة توتر غريب يحمله هذا الضوء الأصفر، كأنه يمهد لرعد. والشجيرات -التي نمت جميعها بشكل زائد في غياب التقليم اللائق منذ سنوات- كانت ساكنة، باستثناء أقصى نهايات أغصانها التي ترتعش في حركة باعثة على الشؤم، كأذيال القطط. بدأت بضع قطرات من المطر تتساقط، متناثرةً على المصطبة المغبرة. هنالك ذكرى تجاهد لشق طريقها إلى السطح، ذكرى عن الجلوس في مكانٍ ما وسط الغبار فيما المطر يستهل سقوطه. لقد ابتلَّ وجهه ويداه بقطرات المطر، وبدأ يبكي، لكنه بكاء متردد، إذ لم يكن واثقًا إذا ما كانت هذه هي الاستجابة الصحيحة، ثم جاءت مربِّية أطفال راكضةً ومسحت عنه الماء.

سيسأل روس اليوم إذا ما كان قد تلقى قصاصة، أو يعرف عن أي أحد آخر تلقى واحدة، وليس أن ذلك سيكون مُطَمئنًا. روس رجل تنطوي معرفته على الخطر، وستزداد الخطورة مع تصاعد الهستيريا حول قضية پمبرتون بيلينغ، التصرف المتعقل هو التخلي عنه بالكامل. بطريقة ما، كان الإفصاح عن هذا بوضوح للمرة الأولى يقدم عونًا هائلًا. هو بالطبع لن يتخلى عن روس، وبالطبع سيذهب لحضور «سالومي»، فالمسألة مسألة شجاعة في نهاية المطاف.

لماذا إلى المنزل؟ أي شخص يعرفه بما يكفي ليعلم أن اسمه سيكون ضمن قائمة الحضور لا بد أن يعلم أيضًا أنه ينزل في ناديه، لكن لعله يعرف كذلك أنه يزور المنزل بانتظام، ليتحقق من أن كل شيء على ما يرام، و... لأغراض أخرى. يجب ألا يقع في فخ المغالاة في تقدير ما يعرفونه، إنه الآن يؤدي عملهم نيابةً عنهم.

كان فتحُ الرسالة هكذا في منزله تجربةً أسوأ في بعض النواحي مما لو فتحها في النادي. منزله المتضرر يرشَح بذكريات عن جين والولدين، وعنه هو نفسه أيضًا، كما كان قبل الحرب، ذكريات أكثر حيوية من ذاته الحالية المستنزَفة، إلى درجة وجد نفسه معها يتحرك بين قطع الأثاث المغطاة كأنه شبحه.

ليس ثمة ما يمكن أن يجنيه من هذا الإطناب في التفكير. تأكد أن غطاء الغبار التقط الجص المتساقط ولم يتركه ينثال إلى أسفل حيث يداس عليه ويلتصق بالسجادة، وأغلق مصاريع النوافذ، وأعاد الصورة إلى تحت غطاء الغبار، وخرج.

كان المطر يتساقط. لدى مغادرته الساحة ومباشرته السير بخفة في شارع بايزووتر رود، راحت انعكاسات المباني وظلال الناس تلمع مشوَّشة على الأرصفة، كأن مدينة أخرى ترقد محبوسةً تحت طبقة الصدأ التي يشكلها الماء والشحم. أبقى رأسه مطأطأً، يفكر أنه سيذهب لرؤية روس الليلة، ويتذكر أيضًا أنه على موعد للقاء ريڤرز الأسبوع القادم. مرَّ بمحطة لانكستر غيت ونسمة الهواء الدافئ التي هبَّت منها، ثم تابع مسيره.

في شارع أكسفورد، ثمة حصان كان قد سقط بين عمودَي تدوير مركبةٍ وراح يكافح بوهن كي ينهض على قوائمه، وحوله تجمعت الجمهرة المعتادة من المتفرجين. سيكون *على ما يرام*، سوف...

فجأةً، هاجمته فكرةُ تعرُّض منزله للاقتحام بكامل قوتها، فأخذ ينكمش مرتعدًا على رصيف شارع أكسفورد كأنه في خضم قصف مستمر منذ سبعين ساعة. تظاهر أنه يتفرج على واجهة محل، لكنه لم يكن يرى أي شيء. كان الاهتياج استثنائيًا، واحدة من أسوأ النوبات التي اجتاحته يومًا. كالوقوف عاريًا، على حافة مرتفعة، في مكانٍ ما، في وضح النهار، ولا شيء تحته سوى أصوات ساخرة وملايين الأعين.

3

جلس پراير في قاعة انتظار الزوار بسجن إيلزبيري، ساندًا قدمه اليمنى على ركبته اليسرى، مشابكًا يديه حول كاحله، يحدق حوله. كانت رثاثةُ هذه القاعة تتنافر تنافرًا واضحًا مع واجهة السجن المشيدة وفق طراز الدم والأضمدة[1] ذي الهيئة الوحشية والمثيرة للإعجاب في آنٍ، رغم أن هذه الرثاثة مصمَّمة هي نفسها بحيث تثير الرهبة. الطلاء الأخضر المقشور، البلاط البالي عديم اللون، الكراسي المثبتة بالمسامير، كل شيء يلمح إلى أن من يزورون المجرمين هم أنفسهم مجرمون على الأرجح. وعلى الجدار، توجد لافتة تخبرهم بالحالات التي يمكن أن تعرضهم للتفتيش.

أطرق پراير ينظر إلى معطفه ونَتَرَ بإصبعه ذرةَ غبار متخيَّلة. لم يكن المعطفَ ذا الرقع والبقع التي رفضت مايرا بحماقة كبيرة أن تستلقي عليه، بل آخر يفوقه جودة من كل النواحي كلَّفه راتب شهرين. وفي هذا الظرف، كان يستحق كل بنس دفعه.

فُتِح الباب ودخلت السجانة. وبكياسة مبالغٍ فيها بمقدار طفيف جدًا، نهض پراير على قدميه. أمر محزن لكنه صحيح، أن لا شيء يضع المرأة عند حدها بفعالية أكثر من بادرةٍ فروسيةٍ تؤدَّى بأسلوب واثق.

---

(1) الدم والأضمدة: أسلوب معماريٌّ في تصميم واجهات المباني انتشر في إنجلترا الإدواردية (مطلع القرن العشرين)، يعتمد على الآجُر الأحمر والأبيض ومن هنا جاءت تسميته، إذ يرمز «الدم» إلى الآجر الأحمر العاري، و «الأضمدة» إلى الآجر المكسو بالجص والمطلي باللون الأبيض. (المترجم)

«أجل، حسنًا، يبدو أن الأمور تمام»، قالت.

أومأ برأسه: «جيد».

«تفضَّل من هنا إن شئت».

وصل إلى الباب قبلها وأمسكه مفتوحًا. لم يكن ميَّالًا إلى تبديد التعاطف عليها، هذه المرأة ذات الجلد العجينيِّ التي تبلغ منتصف عمرها. إنها تملك نفوذها الخاص بعد كل شيء، نفوذًا مطلقًا أكثر من أي شيء يملكه هو، وإن تعرضت للإهانة الآن، فلا شك أن عاهرةً مسنة مستنفَدة الصلاحية ستدفع الثمن.

تبعها عبر الدهليز وخرجا إلى الفناء.

«ذلك هو مبنى النساء»، قالت مشيرةً بيدها.

بناء ضخم عابس، بستة صفوف من النوافذ الصغيرة والمتقاربة مثل أعين الخنازير الضيقة. نظر براير إلى الفناء: «لكن ألا يستطيع الرجال أن يروا النساء في أثناء التدريب؟».

«أوه، كلا»، قالت: «لا يمكنهم أن يروا من النوافذ، فهي مرتفعة أكثر من أن تسمح بذلك».

طرح عليها سؤالًا أو اثنين عن الطريقة التي يُدار السجن بها، وسيرورة نظام المناوبات، وإذا ما كانت المواصلات إلى السجن مؤمَّنة. كان قد خطر له ألا تكون عاهرةٌ مجهولة ما هي التي ستدفع ثمن انتصاره، بل المرأة التي جاء كي يراها، فسعى حثيثًا ليتجنب ذلك. «لا بد أن عمل المناوبات صعب جدًّا»، قال: «لا سيما للنساء». وقفا في الفناء البارد فيما راح يصغي إلى قصة أمها المتوعكة، ثم فتح باب مبنى النساء وأمسكه لها، وتورَّد وجهها هذه المرة عوضًا عن أن تحافظ على تكبرها، بما أن البادرة قُدِّمت بروح مختلفة، أو هذا ما ظنته.

دهليز آخر. «أعرف أن هذا غير معهود بالمرة»، قال: «أن يزور رجل سجينةً أنثى بمفرده. لكنك تتفهمين، أليس كذلك؟ أن المسألة بالفعل مسألة *أمن*...».

«أوه، أجل، أجل. أنا لم أسأل سوى لأنها محتجزة في الزنزانة. نحن مُلِمون بكل الشؤون الأمنية، فقد كانت لدينا واحدة من قادة الثورة الأيرلندية هنا»، اعتلج داخلُها، ثم بقَّت البحصة: «كانت كونتيسة».

أضاء وجهُها بكل الرهبة والإذعان اللذين تستطيعهما الطبقةُ العاملة الإنجليزية. يا لطيف يا لطيف.

«روپر مسألة أخرى تمامًا»، تابعت: «فهي من العوام أبًا عن جَدٍّ».

عبرا بابًا آخر إلى ردهة كبيرة. كان پراير ليرغب أن يحظى بإنذارٍ ما قبل هذا، إذ إنه توقَّع دهليزًا آخر أو قاعة أخرى، لكنه وجد نفسه عوضًا عن ذلك واقفًا في قعرِ ما بدا له أشبه بحفرة. الجدران المرتفعة مطوقة بثلاثة طوابق من بسطات الدرج الحديدية ترتصف عليها أبواب حديدية وتربط بينها سلالم حديدية، وفي مركز الحفرة تجلس سجانة تستطيع بمجرد رفع رأسها أن تراقب كل الأبواب. تقدمت مرافِقةُ پراير وكلمت زميلتَها.

راح پراير ينظر حوله، متعجبًا أي نوعٍ من النساء ذلك الذي ينبغي حبسه في مكان كهذا. عاهرات، لصَّات، نساء ينمن فوق أطفالهن الرضع «فيخنقنهم عن طريق الخطأ»، مختصات إجهاض يحشرن إبر حياكتهن داخل أشياء حيوية... هل ثمة حاجة إلى إبقائهن هنا بالفعل؟ رن جرس، وانفتح الباب وراءه فدخلت نحو دستة من النساء يسِرن مجهدات إلى القاعة، تفرقن إلى طابورين حين بلغن السلم الصاعد إلى البسطة الأولى. كن يرتدين أثوابًا رمادية فضفاضة متطابقة تغطيهن من العنق إلى الكاحل فيتمازجن مع اللون الرماديِّ الحديديِّ للبسطات، حتى بدَون أشبه بأعمدة معدنية متحركة. من الواضح أن الكلام ليس مسموحًا لهن، ولبعض الوقت لم يكن ثمة صوت سوى طقطقة جزمهن على السلالم، وجوقة من السعال. ثم أدارت امرأةٌ شابة بعض الشيء رأسَها وانتبهت إليه. وعلى الفور، سرى اضطراب على طول الطابورين، كانتصاب الشعر على طول العمود الفقريِّ لكلب. انفضضن عن صفوفهن واتجهن نحو الدرابزين متزاحمات، يصحن بتعليقات حول ما يستطعن رؤيته، وتخمينات حول حجم ما لا يستطعن رؤيته. اقترحت إحداهن أنه ربما يرغب بحسم المسألة عن طريق إخراجه، ثم شقَّت امرأةٌ قصيرة مربعة الرأس طريقَها بمنكبيها نحو المقدمة ورفعت ثوبَها حتى

كتفيها، بما يكفي لإيضاح أن سخاء جلالة الملك لم يشمل توفير السراويل التحتية، وراحت تشير بإصبعها مرارًا نحو رابية الشَعر الخفيف. ثم سُمِعت صافرة، فجاءت السجَّانات يركضن، ودُفِعت النساء إلى أماكنهن في الطابور. استؤنِفت جرجرةُ الأقدام، وسرعان ما أصبحت بسطات الدرج خاوية وصامتة، في ما خلا صفق الأبواب وخشخشة المفاتيح في الأقفال. الحدث بأكمله لم يستغرق أكثر من ثلاث دقائق.

عادت سجَّانة پراير. «يا للراحة»، قال: «كنتُ قد بدأتُ أشعر كما لو أنني شريحة لحم خنزير وسط مجاعة».

لم يلقَ تعليقُه هذا ترحيبًا. «روپر في البسطة العليا»، قالت له.

راحت جزمتاهما ترنان على السلالم. وإذ أطل الآن على البسطات الخاوية، تحيَّر پراير من ألفةٍ شعر بها ولم يستطع تعيين مصدرها. ثم تذكر، هذا يشبه الخنادق. المنطقة المحرَّمة لدى رؤيتها عبر منظار أفق، منظر طبيعيٌّ يبدو خاليًا لكنه في الحقيقة يُؤوي آلاف الرجال. لطالما بدا له ذلك الخواء المضلل أمرًا عجيبًا. والآن حتى، فيما هو يسير فوق البسطة الثالثة، كان يحس بوخز الشعر على مؤخر عنقه.

توقفت السجانة خارج الزنزانة رقم 39، ثم انحنت ونظرت عبر ثقب الباب قبل أن تفتح القفل. «تفضل»، قالت له: «أخشى أن عليَّ أن أقفل خلفك. حين تنتهي اضرب على الباب وحسب، وسآتي في النهاية. اضرب بقوة وبشكل مسموع من بعد إذنك»، ترددت: «إنها مُضرِبة عن الطعام منذ فترة، ستجدها ضعيفة إلى حد بعيد».

تبع السجانةَ إلى داخل الغرفة. بدت مظلمةً جدًّا، رغم وجود نافذة صغيرة مرتفعة ذات قضبان في الجدار القصيِّ تُدخِل شعاعًا من الضوء. كان للقضبان انعكاس أسود على الأرضية، ثم تلاشى فجأةً، مع تهادي سحابةٍ رفيعة أمام الشمس. لدى اعتياد عينيه على الظلام، رأى ظلًّا رماديًّا متكومًا على نفسه فوق السرير الخشبيِّ، وقد ألقى إحدى ذراعيه النحيلتين على وجهه. في ما خلا السرير، لم يكن ثمة أثاث سوى دلو، ينضح بروائح البول والبراز القوية.

«روپر؟».

لم تند عن الظل فوق السرير أدنى حركة أو كلمة.

«هذا هو الملازم پراير، لقد جاء كي يتحدث إليك».

ما من إجابة بعد. للحظة ظن أنها ميتة، وأنه وصل متأخرًا. قال: «أنا من وزارة الذخيرة».

ظل وجهُها مخفيًا: «إذًا فالأفضل لك أن تنقلع وتعود إلى هناك، أليس كذلك؟».

طرقعت السجانة بلسانها. «سأترك الأمر لك»، قالت ونظرت في أنحاء الزنزانة الجرداء: «أتريد كرسيًّا؟».

- كلا، أستطيع تدبر أمري.

- لن يمكث بما يكفي كي يحتاج إلى كرسي.

صُفِق الباب منغلقًا. تسمّع إلى وقْع القدمين المنسحبتين، ثم سار مقتربًا من السرير: «أتعلمين؟ إن أظهرتِ تعاونًا، قد تكون هنالك فرصة لإسقاط العقوبة».

صمْت.

«هذا إن قدمتِ لنا المعلومات التي نحتاج إليها».

ظلت عيناها مغمضتين: «سبق وقلت *لك*، انقلع وعُد إلى لندن أيها الخسيس المقزز لاعق المؤخرات».

أخيرًا سمع خبط الجزمة على بسطة الدرج: «لم يُجدِ السجنُ لهجتَكِ نفعًا يُذكَر يا بيتي، أليس كذلك؟».

انفتحت عيناها، فتحرك بحيث يحط الضوءُ الدالف من النافذة على وجهه مباشرةً. «بيلي؟».

اقترب أكثر. نظرت إليه من أعلى إلى أسفل، بل حتى لمست كُمَّه، فيما يتصارع جيشٌ كامل من العواطف على ملكية وجهها. استقرت على العاطفة الأبسط، كراهية الزي. «لا بد أن أباك يتقلب في قبره».

«حسنًا، أتوقع أنه كان ليفعل لو أنه في قبره. لكنه ليس كذلك، فهو حيٌّ يُرزق ويضرب بيدٍ من حديد. يضرب أمي في الدرجة الأولى». لم تكن تحب أن يتحدث عن معاملة أبيه لأمه قط. والآن، بهذه الملاحظة، كانا قد عادا إلى شارع تايت ستريت، في الغرفة الواقعة خلف المتجر؛ يخنة لحم

البقر والزلابية تُطهى على الموقد، وهيتي تحدق إلى المرآة فوق رف المدفأة وتعقص خصلًا من شعرها على جبهتها. قبل أن يتسنى لحس الحميمية أن يضيع، تقدم وجلس على طرف سريرها، فأزاحت نفسها قليلًا لتفسح مكانًا له. «لن تخمني ما رأيتُه لتوي»، قال بنبرة النميمة نفسها، ورفع ثوبًا متخيَّلًا إلى فوق رأسه.

أضاءت السلوى وجهَها. «ماري المجنونة»، قالت: «إيه، رحماك يا رب، الجميع يرون ذلك، القس والحاكم. أقول لها: «استريه يا ماري، فهو يَصلَع»، غير أنك لا تستطيع أن تكلمها بالمنطق، هذه المرأة غائبة كليًّا، لكن سيدهشك كم منهن كذلك. هنا توجد نسوة لم يكن يجدر زجهن في السجن قط، فهن بحاجة إلى مساعدة. صحيح، وكانت بيننا كونتيسة أيضًا، ثائرة أيرلندية، قابلتُها في الفناء. قالت: «أنتِ المرأة التي حاولت أن تقتل لويد جورج، دعيني أصافحك»، فقلت: «حسنًا، هذا لطف كبير منك يا عزيزتي، لكنني لم أفعل»».

«ألم تفعلي؟».

«حبًّا بالجحيم، بالطبع لم أفعل»، حدقت إليه: «هل حاولتُ قتلَ لويد جورج عن طريق إقحام سهمِ نفخٍ ذي رأسٍ مسمومٍ بالكورار في مؤخرته؟ كلا، *لم أفعل*. لكن إن كنتَ تسألني: «إن افترضنا أن لديكِ سهم نفخٍ ذا رأس مسموم بالكورار وكانت مؤخرة لويد جورج أمامك، هل تقحمينه فيها؟»، سأقول إنني سأفعل بالطبع، إذ لن يكون سلامٌ ما دام ذلك الوغد في موقع سلطة».

هز پراير رأسه: «لا يمكننا أن نربط الأمر بشخص *واحد* هكذا».

- لا يمكنك؟ *أنا* يمكنني.
- لا أفهم كيف تخلصين إلى هذا من تحليلٍ ماركسيٍّ.
- سحقًا للتحليلات الماركسية، أنا أكره الوغد.

أمهلها قليلًا، ثم قال: «بما يكفي لقتله؟».

«أجل، بما يكفي لقتله! ولن أشعر بالذنب حيال ذلك حتى، ليس أكثر مما يشعر هو به حيال الملايين والملايين من الأرواح الشابة التي أودى بها»، تراجعت إلى الخلف، وفمها يتحرك: «لستُ من مناصري السلام الخَرِعين أولئك».

«لربما كان الأمر أفضل لو أنك لم تقولي كل هذا في المحكمة».

«لقد قلتُ *الحقيقة* في المحكمة، الحقيقة كاملةً ولا شيء إلا الحقيقة»، ضحكت: «وذلك ما أصابني في مقتل. أتعلم يا بيلي؟ لقد عشتُ زمانًا كنت أستطيع فيه خداع أي شخص وإقناعه بأي شيء، حين كنتُ امرأةً شابة. أما الآن، فما إن يسألوني سؤالًا بسيطًا حتى تتدفق الحقيقة من فمي»، هزت رأسها: «إنه الاختلاط بالكويكرز، هذا هو السبب. لقد كان في الصحبة المسيحية الطيبة دماري».

- لم تخططي لقتله إذًا؟

- السم كان من أجل الكلاب.

رفعت نفسها فوق السرير وأسندت رأسها إلى الجدار. كان يمكن بهذه الوضعية رؤية مدى ضمورها، والسحنة الشمعية لبشرتها. شعرها -الذي كان بُنيًّا حين رآها آخر مرة- بات الآن أبيض بالكامل تقريبًا، أفلتت خصلٌ رفيعة من الكعكة المعقودة خلف رأسها وانتشرت كيفما اتفق حول عنقها. همّ بالكلام، لكنها قاطعته: «لماذا أنت هنا يا بيلي؟».

«كي أساعدكِ».

ابتسمت: «وما كان ذلك الذي قلتَه بشأن المعلومات إذًا؟».

- تعيَّن عليَّ أن أقول ذلك، لأنها كانت تستمع.

- لكنك بالفعل من وزارة الذخيرة؟

«بالطبع، وإلا فكيف تظنين أنني استطعتُ الدخول؟ لكن هذا لا يعني أنني هنا من أجل المعلومات، أليس كذلك؟»، انحنى إلى الأمام: «فكري في الأمر يا بيتي، أي معلومات عساكِ تمتلكينها؟».

قالت متباهية: «قد يفاجئكَ هذا، كثيرات هن اللاتي يدخلن ويخرجن»، ثم تغير التعبير على وجهها: «في الحقيقة، لا يوجد الكثير من المنشغلات بالسياسة هنا، جميعهن منهمكات بأردافهن، وهذا يجعلك تفقد صبرك».

- أريدكِ أن تخبريني بما حدث.

- تقصد أنك لا تعرف؟

- لم أحصل على نسخة مدوَّنة من المحاكمة.

- حقًّا؟ أنتَ تفاجئني بالفعل. لمَ لا تذهب وتتحدث إلى سپراغ؟

«سأفعل، لكنني أريد سماع روايتك أولًا، لأنني لم أسمعها»، انتظر: «انظري يا بيتي، أيًّا كان الضرر الذي حدث فقد حدث في المحاكمة، لستُ أطلب منك ذكر أي أسماء لم تَرِد حينئذٍ».

تأملت للحظة: «أتعرف أن تومي بلينكينسوپ مات؟».

«تومي...».

«الفارُّ من الجندية الذي كان يقيم معي. كانت هيتي قد انتقلت لتسكن في مكانٍ آخر، كما تعلم، إذ كانت تدرّس في ميدلتون، لذا باتت لدي غرفة شاغرة، ورأيتُ أن أقدمها لتومي. إيه، يا لتومي المسكين، أحد عشر ولدًا، ولا يخمن المرء -حين ينظر إليه- أنه يقوى على المضاجعة. كان يقول لي: «أتعلمين يا بيتي؟ أنا لم ألتحق إلا كي أحظى ببعض السلام». رجل مسكين. أيًّا يكن، كنا جالسَين تلك الليلة أمام النار، أنا وتومي، ثم دق أحدهم الباب، فقلت لتومي: «اذهب إلى الأعلى يا عزيزي». فتحت الباب فوجدتُ...»، تنهدت وهي تنظر إلى البعيد: «سپراغ، والمطر يتصبب منه، كانت ليلة رهيبة. وقال إن لديه رسالة من ماك، لذا طلبتُ منه أن يدخل بالطبع. لقد تسنى لي الوقت كي أفكر منذئذٍ؛ كان يسعى خلف *ماك*، هو كان السمكة الكبيرة، أما نحن فقد علقنا في الشبكة وحسب. والرسالة كانت حقيقية بما يكفي، لقد خدع ماك مثلما خدعني أنا، لذا لا بد أنه كان مقنِعًا، أليس كذلك؟ على كل حال، بيَّن لي أنه كان في طريقه إلى ليڤربول، وقال: «أيمكنكِ استضافتي؟»، فقلت: «كلا، ليس حقًّا»، ثم فكرت قليلًا وقلتُ: «إلا إذا كنتَ لا تمانع مشاركة السرير»، وأخبرته عن تومي. «أهو من ذوي تلك الميول؟»، سألني. نظرت إليه ثم قلت: «لا، لا أظن ذلك، لديه أحد عشر ولدًا. هل تريد السرير أم لا؟». وهكذا قرر أن يبقى فجلسنا إلى الطاولة، وبعد قليل لاحظ صورة وَلَدِنا ويليام على رف المدفأة. لا أعرف إن كان يعلم بشأن ويليام، غير أنني أظنه لا بد كان يعلم، لأنه لم يكُف عن تحويل سياق الحديث قائلًا كم هو شاب ممتاز وما إلى هنالك. وتعرف؟ كنتُ قلقةً للغاية بشأن ويليام، لأنني كنت أعرف ما كان يحدث، فكما ترى، لقد استطاع أن يهرّب رسالة».

«وما الذي كان يحدث؟».

«حسنًا. كما ترى، ويليام لم يحصل على إعفاء، بل كان... كان حظه عاثرًا مع اللجنة إلى حدٍّ ما، لكنك تعلم أنهم لا يحبون المعارضين *الأخلاقيين* على كل حال. إن كنتَ متدينًا -مهما كان تديُنك معتوهًا (يمكنك أن تقول إنك تملك الروح القدس في مرطبان مربى على رف المدفأة)- فلا بأس بذلك، هذا *مقبول*. أما إن قلت: «أظن أنه من الخاطئ أخلاقيًا إرسال الشبان ليذبح بعضُهم بعضًا»، فليكن الله في عونك. حتى إن رئيس اللجنة قال لويليام بالحرف الواحد: «لا يمكن أن تكون معارضًا *ضميريًا* لأنك لا تؤمن بالله، والذين لا يؤمنون بالله لا يملكون ضمائر». هذا هو المستوى الذي بلغه الأمر. على أي حال، من لا يحصل على إعفاء يُسلَّم إلى الجيش، تأتي الشرطة العسكرية وتأخذه إلى الثكنة حيث يتلقى الأمر الأول، الذي يكون عادةً: «انزعْ ملابسك، وارتدِ الزي». وهؤلاء الشبان يرفضون طبعًا، عندها يُحوَّلون إلى مركز الاعتقال. ولَدُنا ويليام أُرسِل إلى واندزوُرث، وكان ذلك عصيبًا بحق. جُرِّدَ من ملابسه وزُجَّ في زنزانة ذات أرضية حجرية لا زجاج لنافذتها -ضع في علمك أنه *يناير*- وقال إنهم بعد ذلك يضعون زيًا بجانبك ثم ينتظرون ليروا كم ستستغرق حتى تستسلم. بالطبع كنت قلقة للغاية، خفتُ أن يصاب بذات الرئة، لكنه في الحقيقة قال ضمن رسالته إن البرد ليس ما أزعجه، بل الخضوع *للمراقبة* طوال الوقت. العين في الباب»، ضحكت: «لم أفهم ما كان يقصده».

نظرت من فوق كتف برايز، فاستدار وتبع نظرتها. وجد نفسه ينظر إلى عينٍ مرسومة بإتقان، ثقب الباب يشكل البؤبؤ، لكن أحدهم خصص وقتًا وجهدًا ليرسم قزحيةً بارزة العروق وبياضَ عينٍ ورموشًا وجفنًا. بدت هذه العين، الموجودة حيث لا ينبغي لعين أن توجد، معكِرةً بعمق لبرايز. للحظة، وجد نفسه في فرنسا من جديد، ينظر إلى مقلة تاورز في راحة يده. رمشَ بعينيه مبعدًا تلك الصورة. «هذا فظيع»، قال ملتفتًا نحو بيتي مجددًا.

«ليس الأمر بهذا السوء ما دامت في الباب»، نقرت على جانب رأسها: «يبدأ القلق حين تصبح هنا».

- أيًا يكن، تابعي. كان يتحدث عن ويليام.

- أجل، ظل يحوّل مجرى الحديث، وبالطبع كنت قلقة، فأفصحتُ عن كل شيء. لم يكن ويليام وحده الذي يُقلقني، بل هم جميعًا.

- جميع معارضي الخدمة؟

- تعلم أن هذا ليس ما أقصده.

كلا، قال في قرارته. إنها من أولئك الذين يشعرون بكل مِيتة، لم تتعلم قط أن تقرأ قوائم خسائر الأرواح على الفطور ثم تمضي وتحظى بيوم سارٍّ لا تشوبه شائبة، كما تفعل الغالبية العظمى من المدنيين. لو أنها تعلمت ذلك، لربما لم تكن هنا. «تابعي»، قال لها.

«كان يرى أن الاستياء يعتريني، فقال: «لمَ لا نتناول شرابًا؟». حسنًا، المال كان شحيحًا بعض الشيء كما تعلم، بما أنني بتُ أتولى إطعام تومي أيضًا، لكنه قال: «لا تقلقي يا عزيزتي، هذه المرة على حسابي»، ثم دخل إلى المطبخ وعاد يحمل إبريقين هائلَي الحجم، ومضى يشرب. إيه، جعة خاصة. حسنًا، أنت تعرفني يا بيلي، ما إن شربتُ كأسين منها حتى بات كأنه أخي الذي أضعتُه منذ زمن بعيد. وأجل، بدأت أتكلم، لم يهمد فمي. شتمتُ لويد جورج، شتمتُ الملك، لا أتذكر وغدًا لم أشتمه، لكنني كنتُ وحيدة يا بيلي. لم يكن لدي من أحدِّثه سوى تومي لشهور، وهو لم يكن صحبةً يعول عليها، الوغد المسكين، كانت أعصابه تالفة. وبالطبع، في المحاكمة تم ليُّ عنق الكلام بجملته. قال إنني ظللتُ ألمح إلى أن لويد جورج سيموت، وأنا أتذكر ما قلتُه بالضبط. لقد قلت: «ابن الحرام اللعين ذلك، لويد جورج، لديه رأس يشبه مبوَلةً بأربعين شلنًا، لكنه سيندم على كل شيء، وتذكرْ كلامي». هذا ما قلتُه، هذا هو *التهديد بالقتل*»، هزت رأسها: «لم يكن شيئًا من ذلك القبيل. على كلٍّ، كنا قد بلغنا منتصف الإبريق الثاني -أو أنا التي بلغتُه- وقال: «هل لي أن أثق بك؟»، فقلت: «حسنًا، إنك لفي ورطةٍ كبيرة إن لم تكن تستطيع الوثوق بي»، ثم بدأ يحدثني عن مركز الاعتقال ذلك الذي يخضع لنظام سيئ جدًّا، أسوأ من واندزوُرث. أوتدري؟ كل ما قاله لي كان أشياء أنا التي أخبرتُه بها، بشأن تجريد السجناء من ملابسهم في الزنازين وما إلى هنالك، لكنني كنت أكثر بلاهة من أن أنتبه إلى الأمر. ثم قال لي إنه عثر مع بعض رفاقه على طريقة لإخراج الشبان. كان لديهم شخص يعرفونه داخل المركز، أحد الحراس وفقًا

لكلامه، لكنه قال إن المشكلة هي الكلاب، لديهم كلاب تحرس السياج المحيط. قلت: «طيب، عليكم *بالسم*»، فقال أجل، لكن كان ثمة مشكلة بشأن ذلك. يجب أن يبدو الأمر كأنه عمل خارجيٌّ، إذ لم يريدوا أن يرتاب مركزُ الاعتقال بشأنه. لذا قلت: «الكورار»».

- بواسطة سهمٍ يُطلَق بأنبوبة نفخٍ عبر السياج؟

- أجل.

- يُطلَق على *الكلاب*؟

- أجل.

«أنت تعلمين طبعًا»، قال پراير: «أن كثيرًا من الناس لا يعرفون شيئًا عن الكورار، أليس كذلك؟».

بدت مرتبكة للمرة الأولى. «بلى. حسنًا، أنا قرأت عنه في كتاب يتحدث عن أمريكا الجنوبية، ثم حدث أن ذكرتُه أمام آلف -زوج ابنتنا ويني- فقال: «أوه، أجل، لدينا بعضٌ منه في المختبر»، ولولا ذلك لما علمتُ بشأنه».

- ما من أفكار سابقة حول قتل لويد جورج؟ قالوا في المحاكمة إنك كنتِ قد خططتِ لقتله من قبل، حين كنتِ من المناديات بحق المرأة في الاقتراع.

- أولئك الناشطات لم يهددن حياة البشر قط، هذه كانت مسألة شرف: الامتيازات لا الحياة. وهذا لا يزيد على كشف جهل سپراغ ، إذ لم يستطع حتى أن يفكر في كذبة مقنعة.

- يبدو أنه أقنع هيئة المحلفين.

- أنت تعرف ما الذي كان يحدث هناك مثلي وأكثر. ضع أحدَ مناصري السلام كائنًا من كان -ولو يسوع المسيح- في قفص الاتهام، وأكبرَ الزعران حُرًّا طليقًا على منصة الشهود، وقل لي من سيصدقون من بينهما برأيك؟

- ماذا قال حين أتيتِ على ذكر الكورار؟

- قال إنه موافق، لكنه تساءل كيف سيضع يده عليه بحق السماء؟ قلت إنني أعرف من أين أحصل عليه، لكن في الأمر مخاطرة بالغة. ثم قال إنه سيساعدني إن ساعدتُه، سيؤمِّن لتومي الصغير عبورًا إلى أيرلندا،

وهذا حسم الأمر بالنسبة إليَّ، لأن تومي كان قد بدأ يُبدي غرابة أطوارٍ حقيقية كما تعلم. أقصد، بصراحة، ظننتُ أنني إن لم أُخرِجه سيكون لدي معتوهٌ أتعامل معه، مثل زوج ليلي بريثويت. أنت تعرف الحالة التي كان فيها حين عاد.

- إذًا فقد اتفقتُما أن تحصلا على الكورار؟

- أجل، أعطاني عنوانًا وقال لي أن أكتب إليه حين أحصل عليه. كتبتُ إلى آلف زوجِ ابنتنا ويني، فذكر الكلابَ في رده عليَّ، لكن رسالته تلك لم تخرج، أظنها ضاعت خلال الطريق. ووافق آلف أن يؤمِّنه، إنه يعمل في مختبر طبيٍّ كبير، وكان عليه أن يوقِّع من أجل السم. غير أنه لم يقلق، لأن الكلاب التي ستنفق ستكون في الطرف الآخر من البلاد ولن يربط أحد بين الأمرين. لكن أيمكنك أن تتخيله يوقِّع باسمه بهذه البساطة لو فكر أن السم من أجل لويد جورج؟

- ثم ماذا؟

- انتظرت. بدا أن البريد يستغرق وقتًا طويلًا، لكن بالطبع ما لم نكن نعرفه هو أن كل الرسائل تُفتَح. لقد فُتِح الطرد، ثم حين وصل أخيرًا كانت الشرطة على عتبة الباب في غضون دقائق، ووُجِّهت إليَّ تهمة التآمر لقتل لويد جورج، *وآخرين*. هذه هي المفاجأة الأخرى من قِبلهم، لم يكونوا يتحدثون عن لويد جورج وحده. مبدئيًّا، ادعوا أنني كنت أخطط لقتل مئات الأشخاص، وبالطبع كل ما استطعت أن أقوله هو أن السم كان من أجل الكلاب، لكنني لم أستطع إثبات ذلك، كان كلام سبراغ مقابل كلامي، وهو الذي يعمل لدى وزارة الذخيرة اللعينة. أوه، وبالنسبة إلى المحاكمة، أتعلم أنه قرأ جميع الرسائل جهرًا في المحكمة؟

- سميث فعل ذلك؟

- أجل، سميث، المدعي العام. أوه، كان ذلك شرفًا لي، لقد حشدوا كل مَدافعهم الكبيرة. وقرأ رسائلي في المحكمة، بشأن تأخُّر دورة ويني وما إلى هنالك. بل وقد قرأ الكلمات كما كتبتُها، فقط كي يسخر مني، لأنني لا أجيد التهجئة، ولم أكن أجيدها يومًا. لكنني أتساءل كم عساه يكون بارعًا فيها هو نفسه لو أنه ترك المدرسة حين كان في الثامنة.

- ما كان ينبغي له أن يفعل ذلك.

- لقد كنتُ طريدة سائغة، واللغة كذلك. لم يستطع تجاوز مسألة اللغة، هذه المرأة البغيضة الخسيسة الفاسقة السوقية التي تستخدم كل تلك الكلمات التي لا تعرفها زوجتُه الصغيرة الغالية ولو مجرد معرفة. لا *غرابة*.

أسند پراير ظهرَه إلى الجدار. كان يجد صعوبةً في التكيف مع العين في الباب. إن مواجهتها أمرٌ لا يطاق، لأن المرء لا يسعه أبدًا أن يتأكد إذا ما كانت توجد عين بشرية في مركز العين المرسومة. والجلوس مديرًا ظهره نحوها أسوأ، حيث ما من شيء يثير الروع أكثر من أن تُراقَب من الخلف. وحين يجلس مواربًا، يسيطر عليه انطباع مزعج بوجود شخص لا يكف عن محاولة جذب انتباهه. أتعبه ذلك، وإن كان قد أتعبه بعد مضي أقل من ساعة، فماذا عساه يكون قد فعل ببيتي التي تعيَّن عليها أن تتحمله أكثر من سنة؟ لاحظ أن دلو قضاء الحاجة موضوعٌ حيث يمكن رؤيته من الباب. «لماذا يوجد الدلو هناك؟»، سألها.

«لأن إحدى البقرات اللعينة المسكينة أغرقت نفسها في بولها».

«رباه»، حدق إليها: «حالتك ليست بهذا السوء، صحيح؟».

- لا، أنا أتدبر أمري. المشكلة أنك تتعرض للعقاب إن أضربتَ عن الطعام، لذا لا أستطيع أن أستقبل أي زوار. أنا لم أرَ هيتي منذ... أوه، لا أدري، لا بد منذ شهرين.

- سأرى ما أستطيع فعله.

- هذا ما قاله سپراغ . حين أخبرته عن عدم قدرتي على تأمين عبور تومي إلى أيرلندا، قال: «سأرى ما أستطيع فعله».

- الفرق أنني لا أطالبك بأي شيء في المقابل.

لمستْ كُمه. «كانت علاقتنا قويةً ذات زمان يا بيلي، كنتَ بمنزلة ابنٍ لي»، انتظرت: «لن أسألك في أي جانب تصطف لأنك قد لا تخبرني الحقيقة، وإن فعلتَ لن أصدقك. لكن قل لي فقط، هل تعرف في أي جانب تصطف؟».

نظر إليها وابتسم، لكنه لم يُجِب.

4

مقر وزارة الذخيرة يقع في فندق ميتروپول. مكتب الاستقبال -الخاضع الآن للحراسة من قِبل رجال شرطة مسلحين- كان ذات مرة يُدار بواسطة شبان ذوي وجوه جرداء دُرِّبوا على عدم إظهار المفاجأة حين يستقبلون سادس عائلةٍ اسمها سميث على التوالي، أو حين يطلب جنتلمان ذو مظهر يشي بيسر الحال -في ضيافته ابنُ أخيه الذي لا يدل مظهرُه على ذلك للغرابة- غرفةً مزدوجة. لم يعد ثمة ألاعيب مرحة بريئة مثل هذه الآن، هكذا قال پراير لنفسه وهو يعبر البهو، ربّاه كم تراجعت النبرة الأخلاقية.

في الطابق الثالث، نقر على باب الرائد لود. رفع لود عينيه عن الملف الذي كان يقرؤه، وهو يلمس طرفَي شاربه الذهبيِّ المحمر الحريريِّ الكبير كما يفعل دائمًا حين يواجهه وضع جديد. في تحدٍّ للبيولوجيا، كان پراير يرى هذا الشارب حِليةً أنثوية، ربما لأنه بدا يتطلب كل هذه الحماية من العالم الخارجيِّ.

«كيف سار الأمر؟»، سأله لود.

- جيد إلى حدٍّ بعيد، كما أظن. لقد كانت... عدائية بوضوح في البداية، لكنني أعتقد أنها بدأت تفتح قلبها مع اقترابنا من النهاية.

- هل أتيتَ على ذكر ماكدويل؟

- بشكل عابر فقط، إذ رأيتُ الأفضل ألا... أركز عليه.

- إممم، أجل، هذا صحيح. ما الخطوة التالية إذًا؟

- أود أن أرى هيتي روپر، الابنة الأصغر. هل تتذكر أنها كانت تخرج مع ماكدويل؟

ابتسم لود: «تخرج معه؟ أجل، كنت أفكر كم هذا تعبير طريف قديم الطراز. لكنني ظننتُ أن علاقتهما انتهت؟ هذا ما قالته للشرطة».

- لا أصدق هذا، لقد كان ما بينهما وثيقًا جدًا.

- أجل، طيب، افعل ما تحتاج أن تفعله. هذا جيد.

والآن، فكر پراير وهو يغلق الباب خلفه بهدوء، يمكنك أن تبخر مكتبك اللعين. «كم هذا تعبير طريف قديم الطراز». *أستطيع أن أغمرك بالمال*، قال للباب المغلق. لم يكن لود يملك *أدنى* فكرة. لقد أمضى كامل حياته الراشدة -وحداثته أيضًا إن شئنا الدقة- في مؤسسات رسمية صارمة النظام ذات تسلسل هرميّ، وببساطة لم يكن يستطيع تصور احتمال وجود أشخاصٍ آخرين يعملون بطريقة مختلفة. الأمر برمته كان رقعة شطرنج كبيرة هائلة بالنسبة إليه. هذه التشكيلة المرقعة من الكويكرز والاشتراكيين والأناركيين والمناديات بحق المرأة في الاقتراع والنقابيين والسبتيين[1] وغيرهم ممن لا يعلم بهم إلا الله كانت مجرد قناع محكم، تقبع خلفه حركةُ مناهضةِ الحرب الحقيقية، وهي منظمة سرية مضبوطة عالية الكفاءة، مكرسة للإطاحة بالدولة بنفس الثبات والبساطة اللذين يمتاز بهما إخلاصُ لود للحفاظ عليها. وفي الجانب الآخر من الرقعة، على رأس الجيش المناوئ، يقف المراوغ العنيد الخطِر: الملك الأسود بذاته، پاتريك ماكدويل. هذا ليس هراءً بالكامل طبعًا، إذ إن ماك كان مناوئًا للحرب أكثرَ فعالية من معظم الآخرين بلا ريب، وإن لم يكن ذلك سوى لأنه ليس مغرمًا بالمعاناة. مسكينٌ ماك، لقد حظي بكفايته منها قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره.

عبر پراير الدهليز نحو غرفته، وهي ضئيلة بالمقارنة مع غرفة لود، بالكاد أكبر من خزانة. من الواضح أن هذه الغرفة -أيامَ ما قبل الحرب- كانت تُحفَظ للمُكرَهين على ممارسة الخطيئة بميزانية محدودة. كان يشعر أنه متسخ، متسخ جسديًا، بعد رحلة القطار الطويلة، وحين نظر في المرآة الصغيرة

---

(1) السبتيون: طائفة بروتستانتية ألفيّة ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح. (المترجم)

فوق المغسلة رأى أن وجهه مكسوٌّ بالسخام. غسل ما استطاع أن يطاله من نفسه دون نزع ملابسه، ثم بدأ يبحث في خزانة الملفات. كان قد أعد قائمةً بعدد من الملفات التي تضم تقارير من ليونيل سپراغ، ولم يحتج سوى إلى لحظات كي يجمعها ويلقيها على مكتبه. لديه ساعة ليُتِمَّ قراءتها قبل وصول سپراغ. لقد أبدى سپراغ نفورًا من القدوم إلى الوزارة من الأساس، واقترح أن يلتقيا خارجًا في إحدى الحانات، بيد أن پراير أراد لهذا اللقاء الأول أن يكون على أرضه.

سبق له أن قرأ التقارير عدة مرات بالفعل، لذا كانت المسألة لا تزيد على إنعاش ذاكرته. حين وصل إلى ملف بيتي، إلى تقارير سپراغ عن قضية روپر ثم إلى شهادته الخطية، راح يقرأ ببطء أكبر. بعد قليل رفع رأسه، متحيرًا من إحساسه بشيء غير مألوف في الغرفة. أخذ ينظر حوله، لكنه لم يرَ شيئًا مختلفًا، عندها أدرك أن التغير كان فيه هو ذاته. لم يكن الغضب قد اعتراه حتى الآن.

ليونيل آرثر مورتيمر سپراغ

قال ما يلي تحت القسم:

2 فبراير 1917. أنا موظف في وزارة الذخيرة. دخلت في الخدمة التابعة للوزارة بتاريخ 1 يوليو 1916. لقد انخرطتُ في إعداد بعض الاستخبارات المتعلقة بعدة منظمات كان من بينها حزب العمل المستقل وزمالةُ مناهضةِ التجنيد الإلزاميّ. وكنتُ أعمل تحت إشراف الرائد لود، إذ كان هو الضابط الذي أتلقى التوجيهات منه في المقام الأول.

بين أكتوبر وديسمبر 1916، أُرسِلتُ إلى ليڤربول لإجراء استخبارات حول شخص يُدعى پاتريك

ماكدويل، كان المنظمَ الرئيسيّ لإضراب شيفيلد في مصانع الذخيرة. أخبرت ماكدويل أنني أريد الذهاب إلى منطقة مانشستر، وأعطاني رسالةً أوصلها إلى السيدة بياتريس روپر. في ليلة الثالث والعشرين من ديسمبر -كما أعتقد- ذهبتُ إلى متجر السيدة روپر، الواقع في 11 تايت ستريت، سالفورد، وأعطيتُها الرسالة. بعد قراءة الرسالة، وافقت السيدة روپر أن أنزل عندها وتصافحنا بإخلاص بالغ في الواقع. جلستْ إلى طرف الطاولة، وأنا جلست بجوارها. كان ثمة رجل آخر يقيم في المنزل آنذاك، قُدّم إليّ باسم تومي بلينكينسوپ، وهو فارٌّ من الجندية. لم ينزل إلينا سوى في وقت لاحق. سألتني السيدة روپر عن حالي، فقلتُ لها إنني لم أحصل على إعفاء وإنني فارٌّ منذ سبتمبر بصفتي معارضًا أخلاقيًّا. أخبرتها عن زجّي في مركز اعتقال، كما أظن أنني أخبرتها شيئًا عن الطريقة التي عومِلتُ بها هناك. قالت ردًّا على ذلك: «هذا يشبه تمامًا ما حدث لابني ويليام»، ثم نهضت وأحضرت صورةً فوتوغرافيةً عن منضدة الزينة. كانت صورة صغيرة لابنها، ويليام روپر. وفيما هي تُريني الصورة، أخبرتني أنها كانت قبل الحرب ناشطةً في المناداة بحق المرأة في الاقتراع وأنها أحرقت كنيسة. أعتقد أن كلماتها كانت كما يلي بالضبط: «أسمعتَ بقصة كنيسة سانت مايكل؟ كان القبض علينا وشيكًا، لكننا نجحنا وفعلناها رغم ذلك»، ضحكت وقالت: «ليتك رأيت ألسنة اللهب وهي تتصاعد»، ثم أضافت:

«ولم يكن هذا كل ما فعلناه». وأخبرتني أنها شاركت في وضع خطة لقتل السيد لويد جورج، عن طريق دس مسمار مسموم بالكورار في نعل جزمته بحيث يثقب الجلد حين يرخي وزنَه على قدمه، ما يسبب حالةً من الارتخاء الفوري تليها نوباتٌ اختلاجية. كانوا يخططون لتنفيذ ذلك في جزيرة وايت حيث أقام السيد لويد جورج آنذاك، إذ ثمة نادل في فندقه يتعاطف مع قضية الاقتراع تلك. لا يحضرني اسم الفندق، ولا اسم النادل. سألتها لماذا لم تنجح المحاولة، فأجابت: «لأن العجوز الخرائي اللعين فرَّ إلى فرنسا، أليس كذلك؟». كانت لغة السيدة روپر لطيفةً إلى حدٍّ بعيد معظم الوقت، بيد أنها تستخدم لغةً رديئة حين تتحدث عن السيد لويد جورج. عندئذٍ تحريتُ بمثابرة حول طبيعة موقف السيدة روپر من السيد لويد جورج. لقد أفصحت عدة مرات عن رأيها بوجوب قتله، فسألتُها إذا ما كان ثمة أي شخص آخر ينبغي قتله وأجابت: «أجل، الجورج الآخر، العجوز الأخرق الذي يقطن في القصر، لن يشتاق إليه أحد».

بعد ذلك سألتها إذا ما كان ذلك مجرد كلام أم ثمة خطة تسير على قدم وساق، فأجابت: «هل لي أن أثق بك؟»، وأظنني قلتُ شيئًا ما من قبيل إنها في ورطةٍ كبيرة إن لم تكن تستطيع الوثوق بي. حينذاك قالت إنها تعرف من أين تحصل على الكورار، وإن ملعب غولف والتون هيث سيكون مكانًا مناسبًا للنيل من السيد لويد جورج باستخدام بندقية ضغط. قالت إنها تعرف

ثلاثة شبان صالحين في لندن سيتكفلون بالمهمة، ثم سألتني إذا ما كنت أرغب أن أشارك في ذلك فرأيتُ أن من واجبي الرد بالإيجاب في سبيل تحصيل المزيد من المعلومات. أمضيتُ تلك الليلة في منزل السيدة روپر، وفي الصباح التالي أرسلتُ تقريرًا مشفرًا إلى قسم الرائد لود.

كان سپراغ رجلًا ضخمًا مكتنز الجسم ذا وسامة متوردة، له حاجبان كثيفان وعينان صارختان بلون أخضر مزرق وميلٍ إلى الأسفل في زاويتيهما الخارجيتين. عنقه ولُغداه تبرز من كتفيه العريضتين في عمود واحد بغلاظة واضحة. ثمة شعر نابت من أذنيه ومنخريه وكُمّي قميصه، ولديه فحولة خامٌ لا يمكن إخطاؤها مثل فحولة الجدي. كانت بيتي لتنجذب إليه، فكر پراير في هذا وهو ينهض ليصافحه. تساءل كيف تراه يعرف ذلك، ولماذا يهتم بهذا القدر.

«لقد طلبتُ منك القدوم»، قال پراير بعد أن استقر سپراغ على كرسيه: «لأننا نفكر في توظيفك مجددًا». راح يراقب توهُّجَ الأمل. كان هندام سپراغ أقل أناقةً مما بدا لدى النظرة الأولى، بدلته تلمع من الاهتراء، وكُمّا قميصه باليان. «لقد بلغك من الصحف دون شكٍ أن ثمة بلبلة كبيرة في صناعة الذخيرة حاليًا، لا سيما في الشمال، حيث قضيتَ فترةً لا بأس فيها، أليس كذلك؟ في عام 16».

- أجل، أنا...

- مع ماكدويل، الذي كان قد خرج لتوه من مركز اعتقال كما أظن؟

«أجل، إنه فارٌّ من الجندية، ومعارض للخدمة. ليتك ترى حجم جثته الضخمة، حبًّا بالله، له بنية مرحاض قرميدي. انظر إلى بعض المساكين الضامرين الذين يُرسَلون إلى فرنسا»، كان التوتر يبدو واضحًا على سپراغ: «لا أظن أن بوسعي التعامل معه مرةً أخرى. أقصد، إنه يعرفني».

- يعرفك من قضية روپر، أليس كذلك؟

- بل قبلها.

- لكن ربما بوسعك تقديم المشورة مع ذلك. سوف يتعين علينا وضوحًا أن نُبقيك بعيدًا عن المناطق التي كنت تعمل ضمنها في السابق.

بدا الارتياح على سپراغ.

- قابلتَ ماكدويل في صيف عام 16؟ في شيفيلد؟

- أجل، كنت أُجري استخبارات حول حركة الوكلاء النقابيين.

أظهر پراير أنه يراجع أوراق ملاحظاته: «لقد أقمتَ مع إدوارد كارپنتر؟».

«أجل»، انحنى سپراغ إلى الأمام، وجهه المتورد يلمع من العرق، وقال في همسٍ خبيث: «كارپنتر من ذوي تلك الميول».

«هذا ما أظنه». تلك العبارة من جديد. لقد علقت في ذاكرة بيتي، ولا عجب. من الواضح تمامًا أن الصيغة التي يستخدمها سپراغ في الحالة الطبيعية ستكون شيئًا من قبيل «مضاجع المؤخرات اللعين». الرائد لود «من ذوي تلك الميول»، وهو من قال لپراير ذات مرة في كافيه رويال، دونًا عن كل الأماكن الأخرى: «هنالك من يُركِع هذه البلاد على ركبتيها، ولا أقصد ألمانيا»، وهنا ضرب الطاولة بقوة طارت معها الأطباق والسكاكين في الهواء، «**ليست ألمانيا**، بل حلفٌ أثيم من الاشتراكيين والحثالة والوكلاء النقابيين». آنذاك لم يشعر پراير أنه يستطيع التعليق، إذ لم يسبق له يومًا أن كان وكيلًا نقابيًا. «أتظن أن لهذا التفصيل أهمية؟».

«كان الأمر كذلك بالنسبة إليّ، إذ لم يكن للباب قفل».

«إنه يبلغ الثمانين، أليس كذلك؟»، قال پراير.

تلوّى سپراغ داخل معطفه. «ثمانينيٌّ مفعمٌ بالنشاط».

- ذهبتَ إلى اجتماع في اليوم التالي؟ بتوجيه من كارپنتر.

- ذهبتُ برفقة كارپنتر.

- وفي سياق خطابه، اقتبسَ عددًا من... حسنًا، ماذا تسميها؟ أغاني؟ قصائد؟ تمتدح الحب القائم على تلك الميول.

- أجل، وفعل ذلك في العلن.

- حسنًا، لقد كان اجتماعًا علنيًا، أليس كذلك؟ ثم بعد الاجتماع دخلتما غرفةً أصغر، وهناك قُدِّم إليك عددٌ من الأشخاص، من بينهم كاتب تلك الأغاني؟

- أجل.

- والت ويتمان؟

- أجل.

«والت ويتمان شاعر أمريكي»، أمهل براير سبراغ حتى يفتح فمه: «شاعر أمريكي ميت».

- لم يكن يبدو بصحة جيدة.

- عاش من عام 1819 حتى عام 1892.

هز سبراغ رأسه بقوة: «حسنًا، إنه المال، أليس كذلك؟».

«أهو المال؟».

«هكذا أعتقد، لقد وُعدت بجنيهين وعشرة شلنات أسبوعيًا. لكن لعلمك، قال إن المعلومات يجب أن تكون جيدة وإن عليَّ أن أواصل تزويده بها»، أرجع سبراغ ظهره وشخر: «ومهما بلغت المعلومات من الجودة، لم أمسك جنيهين وعشرة شلنات بيدي قط. ليس بشكل منتظم، بكل بساطة، أما المكافآت فبلى. لكن أي نفع يمكن لهذا الفتات أن يُجديني؟ أنا رب أسرة».

- كنت تحظى بمكافآت، صحيح؟

- من آنٍ إلى آخر.

- وهذا يكون إن توصلت إلى شيء مميز؟

تردد سبراغ: «أجل».

«كم كان حجم المكافأة التي حصلت عليها مقابل بيتي روبر؟».

تردد سبراغ مجددًا، ثم قرر -بشكل واضح للعيان- أنه ليس لديه ما يخسره. «لم تكن كبيرة بما يكفي».

- لكنك حصلت على مكافأة؟

- أجل.

- كلها دفعة واحدة؟
- نصفها عند الاعتقال، ونصفها عند الإدانة.
- وُعدتَ *بمكافأة* في حال *إدانتها*؟
- اسمع، أعرف ما الذي ترمي إليه. تقول إنني كذبت تحت القسم. حسنًا، أنا لم أفعل. أتظنني سأجازف في الحبس لمدة -كم هي، خمس سنوات؟- مقابل مبلغ تافه مقداره خمسون جنيهًا؟ بالطبع لن أفعل، إلا إن كنتُ مجنونًا، أليس كذلك؟
- أو مدينًا.

رمش سپراغ بعينيه: «مجرد أنني كذبت بشأن والت ويتمان لا يعني أنني كنت أكذب طيلة الوقت. كان ذلك أول تقرير أكتبه، وكنت متحرقًا إلى إيراد معلومات كافية ضمنه».

«ألم تحدِّث السيدةَ روپر عن الكلاب قط؟».

أشار سپراغ بحركة تُظهِر نفاد صبره: «أي كلاب؟ لم يكن ثمة أي كلاب لعينة، لا يستخدمونها في مراكز الاعتقال. ربما أنت لا تعرف ذلك، لكنها تعرف. لقد تحدثتْ إلى رجال مروا على كل مركز اعتقال في إنجلترا، وهي تعرف أنه لا يوجد أي كلاب»، حدق إلى پراير: «أكنت تتواصل معها؟».

«لقد أجريتُ مقابلةً معها، أجل».

شخر سپراغ: «حسنًا، كل ما أستطيع قوله هو أن تلك العاهرة العجوز تمكنت من خداعك جيدًا».

- لم أقل إنني *صدقتها*.
- لقد أُدِينت وانتهى الأمر، لا يهم ما تصدقه.

«بل يهم كثيرًا، في ما يتعلق بإمكانيات عملك»، أفسح پراير وقتًا لاستيعاب ما قاله: «الرسالة التي جاءت مع السم، من صهر السيدة روپر»، سحب الملف نحوه: «"سأشفق على هذه الحيوانات المسكينة إن استطعتم الوصول إلى قربٍ كافٍ منها، إذ ستموت في غضون عشرين ثانية"».

- هذا لا يبرهن سوى أن *الصهر* كان يظن أن السم من أجل الكلاب. حسنًا، يتوجَّب عليها أن تقول له شيئًا ما، أليس كذلك؟

- ما زلتَ تقول إنها خططت لقتل لويد جورج؟

- أجل.

- وإن الاقتراح جاء منها، لا منك أنت؟

- *أجل*، لم تكن تحتاج إلى أي تشجيع بحق اللعنة!

- حتى في ما يخص التفاصيل؟ حتى بالنسبة إلى اقتراح ملعب غولف والتون هيث بصفته مكانًا مناسبًا للتنفيذ؟

- هذا صحيح.

- كيف لها أن تعرف ذلك؟ لقد أمضت كل حياتها في أزقة سالفورد الخلفية، كيف لها أن تعرف بنفسها أين يلعب لويد جورج الغولف؟

رفع سپراغ كتفيه: «قرأتْ عن ذلك في الجرائد؟ لا أعتقد أن الأمر من أسرار الدولة»، انحنى إلى الأمام: «لعلمك، ينبغي أن تتوخى الحذر. إن كنت تقول إنني تصرفتُ كعميلٍ محرض -وهذا ما تقوله، أليس كذلك؟- فأنت بذلك تقول أيضًا إن الرائد لود وظّف عميلًا *محرضًا*. إما بعلمه، وبهذه الحالة يكون خسيسًا، أو دون علمه، وبهذه الحالة يكون أحمق. في الحالتين لن يجدي ذلك مسيرتَه المهنيةَ نفعًا كبيرًا، صحيح؟ لذا انتبِه إلى نفسك، قد تجد أن رأسك أنت هو الذي تحت الساطور».

مد پراير يديه: «من فتح سيرة السواطير؟ الأمر أنني أُجري مقابلةً مع عميل جديد، جديد بالنسبة *إليَّ*. وقد وضحتُ -أو على الأقل *آمل* أن أكون وضحت- أنني لن أغفل عن أي شطحة خيال صغيرة، كأن يُبعث والت ويتمان من موته. أما إن *لم* يكن ثمة أي شطحات خيال، فحينها... لا داعي إلى القلق». بسيماء رجل وصل أخيرًا إلى الغرض الحقيقيِّ من اللقاء، سحب پراير ملفًا آخر نحوه: «والآن أخبرني ما تعرفه عن ماكدويل».

بعد أن أنهى اعتصار المعلومات -التي يعرفها كلها أساسًا- من سپراغ وأرسله إلى منزله كي ينتظر الاستدعاء، جلس پراير بلا حراك لبعض الوقت، متكئًا بذقنه على يديه.

«السم كان من أجل الكلاب».

«لم يكن ثمة أي كلاب لعينة. ربما أنت لا تعرف ذلك، لكنها تعرف».

أيمكن أن تكون بيتي قد خططت لقتل رئيس الوزراء من متجرها الصغير عند زاوية شارع تايت ستريت؟ لا يمكن لبيتي التي عرفها قبل الحرب أن تفعل شيئًا من هذا القبيل، بيد أن جذور بيتي تلك كانت ضاربة في الحياة المشتركة. أوه، صحيح أنها كانت تُعتبر غريبة عن المألوف، أي امرأة تقطن في تايت ستريت وتعمل لصالح المناديات بحق المرأة في الاقتراع ستكون غريبة، لكنها لم تكن منعزلة، فعزلتها جاءت مع الحرب.

بعد اندلاع الحرب بمدة قصيرة، فُقِد كلب الآنسة بورتون الصغير. كانت الآنسة بورتون عانسًا تُكثِر التردد على كنيسة الأبرشية، وتعمل في تنسيق الأزهار، وتلعب لعبة الكلمات المبعثرة، وتُكِنُّ حبًّا يائسًا للقس، لعل پراير وحده من يعرف كم هو يائس. لقد كان في منزله آنذاك، بانتظار الأوامر للالتحاق بفوجه، وساعدها في البحث عن الكلب. عثرا عليه مربوطًا بسلكٍ إلى سياج سكة القطار، وسط غمامة ذبابٍ أسود يتعالى منها الطنين، وقد نُزِعت أحشاؤه. كان من نوع داشهند[1]، أي أنه من الأعداء.

وسط ذلك المناخ، عثرت بيتي على الشجاعة كي تكون مناصرةً للسلام. انقطع الناس عن قصد متجرها، ولولا حصص المخصصات لتضورت العائلة جوعًا. أُلقِيَ على النافذة عددٌ من الأحجار جعلهم يستسلمون ويكفُّون عن إصلاحها، وعاشوا خلف الألواح. وكانت الفضلات -فضلات البشر والكلاب- تُرمى من فتحة الرسائل في الباب وتسقط على السجادة بانتظام. في تلك العزلة، في ذلك الظلام الجزئيِّ، كانت بيتي تؤوي الفارِّين من الجندية، إضافةً إلى المعارضين الأخلاقيين للخدمة الذين لم يُمنَحوا إعفاءً، لاحقًا بعد إقرار قانون التجنيد الإلزاميِّ. إلى أن دق سپراغ بابها ذات يوم، حاملًا رسالة من ماك، وأماط اللثام عن خطة لاغتيال رئيس الوزراء. أو هذا ما يقوله.

أيمكن أن تكون خططت لقتل لويد جورج؟ كان پراير يظن أنه يفهم كيف من الممكن أن يبدأ الضعفاء بتوهم أنهم كُلِّيو القدرة. رموز الكدح الذي لا أمل منه، المِقشة والطنجرة، تتحول إلى المكنسة الطائرة والمرجل، *وليس في أذهان المضطهدين فقط*. في البداية لا يكون ثمة سوى كلمات هائجة تتطاير هنا وهناك، نبوءات بنهايةٍ بغيضة تنتظر لويد جورج، ثم وبدفعٍ من

(1) داشهند: سلالة كلاب ألمانية. (المترجم)

سپراغ -فمهما كان دور بيتي في هذا، سپراغ لم يكن بريئًا- يظهر التصميم المفاجئ على تحقيق الرغبة المتخيَّلة: تدمير الرجل الذي تلومه على المماطلة في الحرب والتسبب في موت الملايين.

لا شك أن لود لم يجد أي صعوبة في تصديق سپراغ، إذ إن خطة السم تتناسب بكل أناقة مع أفكاره المسبقة تجاه الحركة المناهضة للحرب. ليس ثمة إدراكٌ يُذكَر للواقع في كل هذا، فكر پراير، لا لدى هذا الطرف ولا ذاك. كان معتادًا على التفكير في السياسة بوصفها صراع مصالح، لكن ما يبدو أنه حدث هنا لم يكن صراع مصالح بقدر ما كان تشابكًا كارثيًا لشهواتٍ متخيَّلة.

بدأ يعيد الملفات إلى مكانها. كان هذا وضعًا من الأوضاع التي يتعين فيها التشبث بالحقائق القطعية القليلة، وهو موقن أن سپراغ كذب تحت القسم، وبما أن سپراغ كان الشاهد الوحيد، فهذا بحد ذاته يعني أن الإدانة مشكوك فيها.

أقفل خزانة الملفات وباب غرفته، وسار إلى نهاية الدهليز. كان المصعد عالقًا في الطابق الخامس. قرر ألا ينتظر ونزل على الدرج ركضًا، ثم وصل إلى الشرفة الداخلية وأطل ينظر إلى البهو، كما يفعل غالبًا، إذ يعجبه أن يتخيل الفندق كما -لا بد- كان قبل الحرب، قبل أن يكتسي بالأسود والخاكي.

ثمة رأسٌ لفت شكلُه انتباهَه. *تشارلز مانينغ*، ينتظر المصعد، وبرفقته -رحماك يا الله- ونستون تشرشل وإدوارد مارش. أخذ پراير يراقب. كان مانينغ -رغم أسبقيتهما الواضحة في الترتيب الهرميِّ- على سجيته تمامًا برفقتهما. من الواضح أنه لم يكن يتملقهما وحسب، كانوا يتشاركون الكثير من الضحك، وفيما هم يدخلون إلى المصعد، استقرت يدُ مارش لفترة وجيزة على كتفه. طيب، طيب، طيب -قال پراير في قرارته وهو يتابع طريقه إلى الأسفل- لديه «صِلاته» بالفعل!

كان پراير يقطن في قبوٍ بالٍ في بايزووتر. بوسعه أن يتحمل تكاليف خيارٍ أفضل، لكنه يفضل إنفاق نقوده على البدلات العسكرية ذات الخياطة اللائقة، وهذه لا تكون رخيصة. لغرفة نومه نافذة فرنسية تنفتح على فناء صغير مُسيَّج بأسوار عالية، يسوده الظلام إلى درجة أن فكرة الجلوس في

الخارج لم تُغرِه يومًا، رغم أن صاحبة المنزل بذلت جهدًا. الأسوار مطلية بلونٍ قشديٍّ حتى ارتفاع نحو عشرة أقدام، وثمة عدد من النباتات الناحلة المتفرقة تموت داخل أوانٍ متنوعة للغاية. الغرفة صغيرة وعلى شكل حرف L. سريره موضوع بموازاة ذراع الـــL الطويلة يواجه النافذة، إلى جانب مكتب وكرسي صلب عند الطرف السفليّ للسرير. أما الذراع القصيرة للـــL فتضم خزانة ثياب لها مرآة بيضوية على بابها. ما من مساحة لأي شيء آخر.

الحمام يقع في جوار الغرفة. أخذ حمَّامًا فاترًا، ثم استلقى على السرير متلفعًا بالروب دو شامبر وأشعل لفافة تبغ. كان متعبًا أكثر من أن يستطيع التفكير بشكل بنَّاء، ومع ذلك لم يكُف فكرُه عن الطنين. هذه هي الحالة الذهنية التي تفضي إلى ليلة سيئة، ولقد أغاظه أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك، حتى كاد يبلغ حد الدموع.

فكر في بيتي داخل زنزانتها. ثمانية عشر شهرًا منذ دق ليونيل سپراغ بابها. قبل ثمانية عشر شهرًا كان هو في فرنسا. قبل ثمانية عشر شهرًا كان ويليام روپر في مركز اعتقال واندزوُرث. بدأت صورةٌ لويليام تتشكل في ذهن پراير، ضئيلة إنما ذات سطوة، مثل الحرف الاستهلاليِّ في الإنجيل. ويليام، عاريًا في زنزانته، يخضع لمراقبة لا تنقطع من العين في الباب، وبجانبه على الأرضية الحجرية الزيُّ الذي رفض أن يرتديه. نافذة صغيرة مرتفعة ذات قضبان يضيئها وهجٌ مزرقٌ من الثلج في الخارج.

ألفى نفسه ساخطًا على ما لهذه الصورة من سطوة، ومطالبتِها بتعاطفه. برويَّة، دخل إلى الزنزانة ثم ترك نفسه ينسرب من النافذة، خارجًا من بين القضبان، إلى الثلج المتساقط. إنه في فرنسا الآن، متربصٌ في العراء مع فصيلته. لقد مُسِحت الخنادق وسُوِّيَت بالأرض بفعل القصف، لا وقاء من الريح الجليدية، ولا أمل باستعادة الجرحى. وكذلك ما من ماء، لأن الماء تجمد داخل المطرات. حلَّق صقرٌ في الأعالي، وارتسم ظلُّه أسودَ فوق الثلج؛ الحركة الوحيدة، شكل الحياة الوحيد، في مشهد العراء القاحل كالقمر. ساعةٌ تلو ساعة من الصمت، والثلج يتساقط. ثم دون سابق إنذار، وجهُ ساندرسون يصرخ متشنجًا، فيما هم يقطعون القلاشين ليحرروا ساقيه المصابتين بعضة الصقيع.

لا جدوى من هذا. نهض پراير جالسًا وبدأ يقرأ صحيفة *التايمز*، لكن حروف الطباعة تغبشت وحلَّ محلها وجهُ بيتي، الشعر الأبيض يتطوح حول عنقها. أغمض عينيه. رن جرسُ المتجر في شارع تايت ستريت وهو يدفع الباب ليدخل. كم عمره؟ أربعة؟ خمسة؟ رائحة بول قطط وخيوط مطلية بالقطران تنبعث من حزم الحطب في الزاوية. قِط بيتي لم يكن يومًا قادرًا على مقاومة تركِ علامته فوق هذه الحزم. ألقت السيدة ثورپ ابنَها آلفي على منضدة المتجر ريثما تدفع حسابها، وراح آلفي يمرجح ساقيه القصيرتين في جزمته المتينة، وهو يسحب من عقب لفافة تبغ، رغم أنه لم يتجاوز الثالثة من عمره. بين السحبة والأخرى، كان يرضع من صدر أمه، يسحب من اللفافة ويرضع بالتناوب، محدقًا من خلف الانحناء الأبيض نحو پراير، الذي كان صبيًّا كبيرًا ومن ثم محطَّ اهتمام وريبة. كان الأصيل في أواخره، أي أن السيدة ثورپ في أوج سكرتها. الجعة المرة بكؤوس كبيرة كانت شرابها المفضل، تُتبِعها برشفات من مستحضر دوائيٍّ ما تحتفظ به داخل دورق تُبقيه مربوطًا إلى فخذها بواسطة رباط جوارب مطاطيٍّ منزلي الصنع. الويسكي من أجل القلب، والبراندي من أجل الرئتين، والجن من أجل المثانة. بدا آلفي قرير العين وهو يعب من حليب أمه، ولمَ لا يكون كذلك والحليب يحوي من الكحول ما يصعب أن يكون أقل من نسبة 40%.

الماضي أشبه بالطِرس[1]، فكر پراير، تكون الذكريات المبكرة محجوبةً دائمًا تحت تراكمات المعرفة اللاحقة. حمل نفسه على السير نحو منضدة المتجر من جديد، دون أن يتذكر شيئًا هذه المرة سوى اللحظة الراهنة، دفع قطعته النقدية المبللة بالعرق فوق الرخام البارد وسأل: «ماذا يمكنني أن آخذ مقابل نصف بنس؟».

كان ثمة مئزر أبيض يطوق وسط بيتي، له جيبان ملطخان بالأسود من القطع النقدية داخلهما. تنبعث من هذه القطع رائحة قوية جدًّا حين تفرغ جيبيها على الطاولة كي تعدها، رائحة ثقيلة قاتمة شديدة الرطوبة.

«ماذا يمكنني أن آخذ مقابل نصف بنس؟».

(1) الطِرس: صحيفة أو لوح مُحي ما كُتب عليه ليُكتب غيره. (المترجم)

راح صوت بيتي -حليمًا كأنها لم يسبق أن قالت كل هذا مليون مرة- يعدد القائمة: حبة من سكاكر اليانسون، حلوى الشربات، إصبع عرق سوس، رزمة من السكاكر الصغيرة، وأخيرًا -المفضلة لديه لأن طعمها يستمر طويلًا- حبة من الحلوى الصلبة.

عينٌ تاورز في راحة يده. «ماذا يفترض بي أن أفعل بحبة الحلوى الصلبة هذه؟». مد لوغان يده، أمسك له معصمه المرتجف، وقلبَ العين إلى داخل الكيس.

لا تفكر في *هذا*، قال لنفسه. الساعة متأخرةٌ أكثر من أن تسمح بالمخاطرة بالتفكير في ذلك.

ليس لديه ذكرى عن وجه بيتي. لقد كانت «شيئًا» آنذاك، جبلًا، أحدَ جوانب منزل، شاسعة، أمرًا بديهيًا، لا شخصًا يمكن إلحاق الصفات به. إلا أنه قادرٌ على إلحاق الصفات بها دون سابق تحضير الآن: مفعمة بالحيوية، متعنتة، ذكية، غير متعلمة، بذيئة اللسان، متهورة، كريمة، سريعة الغضب، عطوفة. والدة پراير، والدته الدمثة ومتكلفة *التأنق*، لا بد من ذكر هذا، كانت تكره بيتي روپر. ومع ذلك، حين أصيبت بما اشتُبِه أنه السل، أُرسِل هو إلى بيتي دونًا عن غيرها. لا بد أن ذلك كان قرار والده.

طوال سنة تقريبًا، حين كان يبلغ الخامسة أو السادسة من عمره، سكن مع بيتي ولعب مع ابنتيها: ويني، التي هي الآن في سجن ليدز، وهيتي، التي اتُهِمت بالتآمر على القتل، لكن بُرِّئت. كان يؤدي دور الرضيع حين يلعبون «بيت بيوت»، والزبون حين يلعبون لعبة المتجر، والتلميذ حين يلعبون لعبة المدرسة، والمريض حين يلعبون لعبة الممرضات، وهذه الأدوار كانت مملة للغاية جميعها، باستثناء دور المريض من آنٍ إلى آخر.

كانوا يلعبون تحت الطاولة الكبيرة في المطبخ، لأن غطاءها الأخضر ذا الشراريب يتدلى حولهم ويخلق عالمًا منفصلًا عما حوله. لا سيما في أيام الغسيل، حين تغزو المنزلَ روائحُ الصودا والنيلة والصوف المبلل، وتحمل الريحُ الرملَ من الفناء، آنذاك تكون الطاولة ملجأهم. من بين الشراريب الخضراء، كانوا ينظرون إلى أحذية الكبار تجيء وتذهب، ويشعرون بحسِ سلطةٍ مبهج.

جزمة السيد كاركر. كان السيد كاركر أمين حزب العمل المستقل، وأحيانًا كان يجلس مع بيتي إلى الطاولة، ويتناقشان في السياسة. هذه النقاشات كانت تتجاوز فهم پراير فتمر من فوق رأسه بكل معنى الكلمة، غير أنه يتذكر تعليقًا محددًا أدلى به السيد كاركر يفيد شيئًا من قبيل أن المنادِيات بحق المرأة في الاقتراع كُنَّ ببساطة يستغللن نساء الطبقة العاملة من مثل بيتي. «كل شيء يكون ممتازًا في أثناء الحديث عن الأُختية، بيد أنهن حين يعدن إلى منازلهن ليلًا ويُنزلن سراويلهن الداخلية، يكون رفعُها مهمةَ شخص آخر».

الإشارة إلى خلع السراويل الداخلية هي على الأرجح ما جعل هذا التعليق بعينه يعلق في ذهنه. لعل الأمر أثار السيدَ كاركر هو الآخر، إذ إنه بعد ذلك بقليل زحف بجزمته فوق الأرضية وحكَّها بقدم بيتي. حركَت قدمها، فتبعتها الجزمة، مصحوبةً هذه المرة بيدٍ على ركبتها، يدٍ رفعت الشراريب الخضراء بعض الشيء. نظر پراير حوله فرأى وجه هيتي المنكوب. لقد كان بيتًا دون أب، وجميع الأطفال -لكن هيتي على وجه الخصوص- كانوا يحتدمون في الدفاع عن أمهم. ربما للمرة الأولى في حياته، شعر پراير بوعيٍ تجاه ألم شخصٍ آخر. مد يده خلسةً وعقد رباطَي جزمة السيد كاركر ببعضهما، بحيث -حين نهض كي يذهب أخيرًا- تعثر وسقط بكامل طوله على الأرضية.

لا بد أن تأديب الأطفال كان الموضوع الوحيد الذي لا تملك بيتي آراءً تقدمية فيه. لقد سحبته خارج مخبئه وقلبته فوق ركبتها ودبغت له مؤخرته، وهو أطبق أسنانه، يتنازعه بريقٌ بهجةٍ لكونه يعاني من أجل هيتي وندمٌ لأن هذه المعاناة لم تأخذ شكلًا أكثر وقارًا.

في أثناء مقابلته معه من أجل وظيفته الحالية، كان الرائد لود قد انحنى فوق الطاولة وقال له: «اسمع، أنت تعرف هؤلاء الأشخاص، أليس كذلك؟».

سحب پراير سحبةً أخيرة من لفافته، وانحنى فوق حافة السرير ليطفئها في المنفضة. بلى.

أسدل الستارة واندسَّ تحت الملاءات. كان خائفًا من الخلود إلى النوم، لكنه تعلم من تجربته الطويلة أن إبقاء نفسه مستيقظًا في الليل حتى ينتهي به الأمر إلى أن يغط في النوم قبل الفجر بقليل هو ما يفضي إلى أسوأ الكوابيس

على الإطلاق. استلقى وراح يحدق إلى السقف دون أن يرمش، إلى أن باتت أجفانه تلذعه، حينها انقلب على جنبه وضم ركبتيه إلى ذقنه.

ها هو في مشهد العراء الشتويّ من جديد، مع صوتٍ يشبه اضطراب الريح، بيد أنها لم تكن الريح، بل صوت الخواء. حلّق صقرٌ في الأعلى وراقب ظله على الثلج. إنهم يزحفون عائدين. جزمته اخترقت طبقة الجليد الرقيقة وغطست في الوحل المتجمد، فانهرس الجليد وتجمّع حول قدمه، وراحت خطوطٌ بيضاء ظليلة تنتشر مثل الشعاع حتى صار واقفًا في مركز شبكة متجمدة.

أيقظه البردُ من نومه جزئيًا، فوجد ساقه قد خرجت من تحت الأغطية وغطاها، لكن جسمه كله بات باردًا الآن. إنه مستلقٍ عاريًا على أرضية حجرية. لأن نومه خفيف، كان يعلم أنه يحلم، ويعلم كذلك أن عليه أن يستيقظ قبل حدوث شيء أسوأ. استدار ورأى العين تراقبه، عينًا ليست مرسومة بل حية جدًّا، بياضُها يتألق في ضوء القمر. نفس ضوضاء الخواء التي سمعها في فرنسا تبعته إلى داخل الزنزانة. أخذ يحدق إلى العين، ثم -بقوة إرادة فائقة- أجبر نفسه على النهوض جالسًا.

دَبِقًا من العرق، مد يده إلى سجائره في الأسفل، ثم تذكر أنه تركها على المكتب. نهض وتلمّس طريقه، غير راغب بإشعال الضوء لأن فظاعة الكابوس كانت ثقيلة عليه، لذا كان خائفًا مما قد يكشفه الوهج. كان واقفًا عند المكتب، في الظلمة الجزئية، يطبطب بيديه بين أوراقه باحثًا عن علبة السجائر، حين سمع ضحكةً خافتةً واستدار إلى الخلف. العين تراقبه من الباب. انكمش مستندًا على الطاولة، ويداه تتلمسان خلفه بحثًا عن فتّاحة الرسائل. أطبقت أصابعه على المقبض ووثب نحو الباب، ليطعن العين مرارًا وتكرارًا، فتطرطش جسدُه العاري بالدم وسائلٍ مبيضٍ سميك لم يقطر بل علق على بطنه وبرد بسرعة. بعد ذلك، انزلق على الأرضية مرهقًا واستلقى هناك، غارقًا في النشيج، وصوت نشيجه أيقظه.

اكتفى بالتحديق نحو الباب أول الأمر، وفقط حين تأكد من عدم وجود أي عين بدأ يسترخي ويستوعب غرابة وضعيته. أخذت رؤوس أصابع يده اليمنى تربت على المشمع البارد، كأنه يستطيع بلمسه أن يجعله يتحول إلى فراش

وملاءات. لا، إنه خارج سريره، مستلقٍ على الأرضية. كابوس، قال لنفسه وهو يسحب نفسًا عميقًا. بدأ يُنهِض نفسه، وهو يحس ببللٍ في منفرجه، وفيما هو يفعل ذلك لامست أصابعُه المفرودة فتّاحةَ الرسائل. إذًا فقد كان ذلك حقيقيًّا. بنوبة اشمئزاز متشنج، ضرب الفتّاحة فأطاح بها وانزلقت فوق الأرضية.

5

مهبط الطائرات يتألف من مَدرجين ومجموعة متناثرة من المباني الخفيضة تقع في إحدى زوايا حقل.

ترجّل ريڤرز ودونداس من السيارة ووقفا ينظران إلى السماء، كانت صافية، باستثناء كومة واحدة من الغيوم الداكنة بعيدًا عند الأفق.

«الطقس جيد من أجل ذلك على كل حال»، قال دونداس.

كان يمكن تخمين أنه خائف، لكن هذا فقط لأن ريڤرز يتابعه من كثب منذ أسابيع. دونداس يعاني من ردود أفعال شاذة في الجو، ففي المواقف التي لا يختبر فيها الطيارون الأصحاء أي تأثُّر على الإطلاق، يتحدث دونداس عن إحساسه أن رأسه يهوي منسحقًا داخل جسده، أو فقدانه للحركة في ساقيه. إنه يعاني من الغثيان، والأكثر خطورة من ذلك أنه اختبر أكثر من مرة المراحل التمهيدية للإغماء. وبعد أن جاءت نتيجة كل فحصٍ فيزيولوجيٍّ ممكنٍ سلبيةً، أُحيل إلى ريڤرز من أجل إجراء متابعة سيكولوجية. لسوء الحظ، لم يكن ريڤرز يحرز أي تقدم، بدا أن دونداس بالضبط من نوع الشبان المرحين المحببين قليلي المسؤولية بعض الشيء الذين اعتاد التعامل معهم في الفيلق الجويِّ الملكيِّ. فضلًا عن الطيران، كانت موضوعات اهتمامه الأساسية مسرحيات الهواة والموسيقى والفتيات، وليست بهذا الترتيب بالضرورة. كان يبدو بمظهر طبيعيٍّ تمامًا في الواقع، إلى أن يعتلي متن طائرة، وهما هنا الآن ليفعلا ذلك بالضبط.

«يبدو أننا وصلنا مبكرًا بعض الشيء»، قال دونداس: «أترغب في كوبٍ من الشاي؟».

كان البوفيه خاويًا، في ما خلا مجموعة من الطيارين الشبان المتحلقين حول طاولة في الركن القصيّ، معظمهم في سن العشرينات، وأحدهم -شابٌّ ذو شعر أصهب- يبدو أصغر بشكل ملحوظ. ذهب دونداس ليحضر الشاي، فجلس ريڤرز إلى طاولة سطحها مكسوٌّ كله بدوائر متقاطعة تركتها أكواب الشاي. كان الشبان يقرؤون الجرائد، ويتجاذبون أطراف دردشةٍ متفككةٍ حول أحداث اليوم: التقدم الألماني الهائل، دعوى تشهير مود آلان ضد يمبرتون بيلينغ، طائفة البظر. رفع شابٌّ داكن الشعر صورةً لمود آلان بيده: «إن كانت ترغب بشيء أكبر، فلتطرق بابي متى شاءت، أهلًا وسهلًا».

«إنها لن تلاحظ الفرق»، قال أحدهم.

شجارٌ وديٌّ، سُمِع بعده صوتٌ جديد: «أسمعتم تلك الطرفة عن لورد ألبمارل؟ دخل إلى نادي تورف وقال...»، تابع يلغو بلهجة أرستقراطية جافة: ««يظل يمر معي في الجرائد كلامٌ عن هذا الفتى اليونانيّ، كليتوريس[1]، أيعرف أحدٌ من تراه يكون؟»». راحوا يضحكون جميعًا، والفتى الأصغر ضحك على مضض بصياحٍ عالٍ، كان واضحًا على الفور أن الالتباس لديه يضاهي -على الأقل- ما هو لدى لورد ألبمارل.

عاد دونداس يحمل الشاي وقطعتَي دونات دسمتين جدًّا.

«أنا لا أريد، شكرًا لك»، قال ريڤرز مربتًا على معدته: «عليَّ أن آخذ حذري».

أومأ دونداس دون أن يستوعب؛ من الواضح أن القرحات العفجية والاضطرار إلى الحذر حيالها أمورٌ تبعد مليون ميل عن خبرته. أكلَ قطعتَي الدونات كلتيهما مُظهِرًا كل أمارات الاستمتاع، وراح ريڤرز يرتشف الشاي ويحاول ألا يفكر أنه إن كانت سجلات دونداس الطبية تحمل أي موثوقية (رباه، الأفضل أن تكون كذلك!) فبإمكانه أن يتوقع رؤية قطعتَي الدونات من جديد بعد وقت غير طويل.

لم يدُر بينهما حديثٌ ذو بال. كان دونداس متوترًا أكثر من أن يبادر إلى ذلك، وريڤرز راعى حاجته إلى الصمت. حين انتهيا، سارا إلى حظائر

(1) كليتوريس: «بظر» باللغة الإنجليزية، ولفظها شبيه بالأسماء اليونانية. (المترجم)

الطائرات معًا. غاب دونداس داخل الحظيرة الأولى للحظة ثم عاد يحمل خوذتَي طيران وسترتين وقفازات، فارتدى ريڤرز إحدى السترتين وتبع دونداس إلى الطائرة.

«ها هي ذي»، قال دونداس وهو يربت على بدن الطائرة: «إنها سطل قديم رديء، لا أدري لماذا أعطونا هذه تحديدًا».

لأنها أكثر طائرة يستطيعون تحمُّل خسارتها، قال ريڤرز في قرارته. كان يقصد من هذه الملاحظة أن تكون مزحة سرية صغيرة، لكنها عوضًا عن ذلك وضعته وجهًا لوجه مع خوفه.

«حسنًا»، قال دونداس: «لو تتفضل وتقفز».

استقر ريڤرز على مقعد المراقب وشد حزام الأمان، فانحنى دونداس نحوه ليتحقق من ثبات البكلة، بابتسامة واهية تومئ إلى انعكاس دور الرعاية المعتاد. «تمام؟»، سأله.

- أجل.

- سبق لك أن طِرتَ مرات كثيرة، أليس كذلك؟

- لا أدري إن كانت كثيرة، بعض المرات.

- لكنك جربت حركات الدوران والالتفاف وما إلى هنالك؟

- أجل.

ابتسم دونداس: «إذًا فلا بأس».

استحوذ شيءٌ ما في ابتسامة دونداس على انتباه ريڤرز، وفجأةً شعر أن دونداس يكتم شيئًا، بل ربما يتستر عليه. إنه لا يتمارض، بل العكس في الواقع، فكر أن دونداس ربما كان يقلل من حجم أعراضه. لم تكن اللحظة مناسبةً كي تخطر هذه الملاحظة تحديدًا في باله.

اعتمر دونداس خوذته وجلس في مقعده، ثم تبادل سلسلةً من الصيحات والتلويحات مع الآليات. دمدم المحرك، وبدأ يهدر، ثم راحت الطائرة تَدرج بهما بعيدًا عن الحظيرة.

نظر ريفرز حوله، إلى صفوف من شجيرات تكسوها براعم الأزهار بكثافة، وسماء تضج بالقبرات المحلقة، ثم ثبَّت نظارة الوقاية على وجهه وانكمش كل هذا الرونق متحولًا إلى بِركة موحلة.

إنه الآن خائف دون شك. يكاد يمكن النظرُ إلى الوضع على أنه تجربة صغيرة، وهو نفسه عيِّنتُها. رد الفعل الصحيّ على الخوف لدى الإنسان الطبيعيّ يكون بالانهماك في نشاط يدويّ ما بهدف الإعراض عن الخطر أو تحييده، وفي حال توفر هكذا نشاط يُتوقع من الشخص أن يكون غير مدرك لشعور الخوف، لكنه ليس متوفرًا. وكحال أي شخص يجلس في مقعد المراقب، إنه يتكل بالكامل على طياره. وأي طيار! هو يعتقد منذ زمن طويل أن العامل الأساسيّ في نشوء عُصاب الحرب لدى الفئتين الأكثر عرضةً، المراقبين وجنود الخنادق، هو الطبيعة الثابتة الاتكالية الهاجعة على نحو مميز لتجربتهم. لا يحدث كثيرًا لفرضيةٍ صيغت في القشرة المخية لعالِمٍ أن تؤكَّد بواسطة أحشائه، بيد أن أحشاءه بدت تبذل قصارى جهدها وضوحًا لإثبات هذه الفرضية. عض شفتيه كي يسيطر على الألم وركز بإمعان على مؤخر رأس دونداس، على خصيلات الشعر الذهبيّ المحمر المنفلتة من تحت الخوذة، والعنق الورديّ، وحافة الوشاح الأبيض، والجلد البُنيّ الذي تندب من الاهتراء لسترة الطيران خاصته.

«**تمام؟**»، صاح دونداس.

كانا قد وصلا إلى موضع الإقلاع، وأخذ المحرك يتسارع. شعر ريفرز بنفسه يُدفَع بشدة على ظهر المقعد المهتز. ارتفعت الطائرة، وارتجت، ثم ارتفعت من جديد، لتحلق في زاوية حادة مبتعدة عن المباني المحتشدة.

أطل ينظر من الجانب، حاجبًا فمَه عن الريح. الريف يترامى تحتهما، سطورٌ رمادية من الطرق والشوارع، تلألؤ بِركة، مساحات ذهبية واسعة من أشجار القوطيسوس، خط من الشجيرات المكسوة بأزهار بيضاء، دخان أزرق يتصاعد من نارِ عراءٍ متهاديًا فوق حقلٍ من القمح الأخضر.

ندَّت حركةٌ عن دونداس أعادته إلى المهمة قيد التنفيذ؛ كان يقوم بحركة دورانية بيده. تلعثم هديرُ المحرك المؤاسي، ثم تحول إلى طنين بعوضة مغتاظة فيما بدأت الطائرة تدور. كانت عينا دونداس ثابتتين على آلاته، وريفرز يشاهد الشمس تدور في لولب هائل حول الطائرة الهاوية. بغتةً

اختفت الشمس، واندفعت الحقول الخضراء كي تلاقيهما. شد دونداس المقبض، بيد أن هنالك خطأً حدث. كان الأفق مائلًا. انحنى ريفرز إلى الأمام وأمال يده نحو اليسار، ثم استعاد الأفق استواءه ببطء.

كان دونداس قد فقد إدراكه للبعد الأفقيّ، أصلًا.

«**كيف كان ذلك؟**»، صاح ريفرز.

لوَّح دونداس بيده في إشارة مبهمة، ثم وضع يده على هامة رأسه وضغط ضغطًا متكررًا، يشير إلى أنه أحس برأسه يهوي داخل جسده. كرر الحركة الدورانية بيده من جديد، فهز ريفرز رأسه وأشار بحركة التفاف إلى الخلف. وبعد لحظة من التردد، رفع دونداس إبهامه.

مالت الطائرة بحدة فيما انعطف دونداس وحوَّل الوجهة نحو المدينة. لم يكن من المقرر أن يفعل ذلك، وخمن ريفرز أنه يحاول جعل الرحلة تستمر أطول مدة ممكنة. في غضون وقت قصير، رأى تحته سديمَ لندن الكبريتي. هذا هو المنظر الذي يراه الطيارون الألمان عند قدومهم في غارات القصف على ضوء القمر، متبعين خيط نهر التيمز الفضي، يَعدّون الجسور ويترقبون ظهور نتوء جزيرة الكلاب.

نقر ريفرز على كتف دونداس، فالتفت الأخير إليه وأومأ برأسه. كانت النظارة تحجب من وجهه مساحةً جعلت من المستحيل قراءة التعبير الذي يعتليه. أسند ريفرز ظهره إلى المقعد وركز من جديد على أحاسيسه الخاصة. بعد إتمام الالتفاف الخامس في الهواء، بدأ يشعر أنه غير ثابت فوق مقعده، وتلك ردة فعل يتذكرها من رحلات طيران أخرى ويعلم أنها معهودة -رغم أنها ليست عامة- لدى الطيارين الأصحاء. انطلقت الطائرة من جديد وأحد جناحيها موجَّه إلى الأسفل. انحنى دونداس جانبًا وتهوع، لكنه لم يتقيأ. أشار ريفرز بإبهامه إلى الأرض، بيد أن دونداس تجاهله.

دون أدنى فكرةٍ الآن عن المناورة التي ينبغي له توقُّعها، اعتدل ريفرز في جلسته وحاول أن يسترخي فيما تصعد الطائرة في الجو. تداعى سديم لندن الأزرق الرحب تحت طرف الجناح الأيسر. أعلى وأبرد. خصل الغيم تحجب الشمس؛ أعمدة من الظلال ترفرف بسرعة على وجه المدينة. شعر ريفرز بالهدوء يحل عليه فجأةً، ثمة طرق أسوأ للموت، وهو رأى معظمها.

تلعثم المحرك مرةً أخرى، ممهدًا لطنين البعوضة بينما بدأت الطائرة تهوي. خرج دونداس من حركة الدوران مبيضًا مرتبكًا يشعر بالدوار، ويجد صعوبةً ظاهرة في التركيز على آلاته. كان بوسع ريڤرز أن يراه يحدق إليها، صاح به: «إلى الأسفل!»، مشيرًا بإصبعه نحو الأرض مرارًا. انحنى دونداس إلى خارج الطائرة وتقيأ.

الهبوط كان واعرًا، إلا أنه ليس أسوأ من هبوطات كثيرة غيره سبق لريڤرز أن اختبرها. بعد أن درجت الطائرة حتى استقرت تمامًا، ظل دونداس في مقعده لحظات قبل أن يقفز مترجلًا. ترنح بعض الشيء فتمسك بالجناح، ونزل ريڤرز متجهًا إليه من فوره.

«أنا على ما يرام»، قال دونداس وترك الجناح.

كان ثمة ميكانيكيان يسيران نحو الطائرة، التفت دونداس إليهما وأدلى بتعليقٍ ما عن الرحلة، ثم تجمع الثلاثة يتشاورون وتنحى ريڤرز جانبًا. كان دونداس يبتسم ويتكلم بمرح، غير أنه ممثل ماهر جدًّا.

عندما دنا من ريڤرز لينضم إليه، قال: «أعتذر عن ذلك».

«أنذهب ونجلس؟».

نظر دونداس نحو البوفيه، لكنه هز رأسه نفيًا: «أظن أنني أفضل أن أرجع حالًا، إن لم يكن لديك مانع».

أخذت ساقا ريڤرز ترتعشان في أثناء سيره عائدًا برفقة دونداس إلى السيارة. كان غاضبًا من نفسه لدخوله في حالة كهذه... غاضبًا وخجِلًا، ينزع إلى ادعاء أن خوفه كان أقل مما يعرف يقينًا. رصد ردة الفعل هذه، وهو يفكر أنه في حالة الإجهاد والاعتلال التي تعزز تطورَ العصاب القلقيِّ، ويتصرف بأكثر طريقة ترجح حدوثه. كان يفعل بالضبط ما يوصي مرضاه ألا يفعلوه: كبت إدراك الخوف.

في السيارة على طريق العودة إلى المستشفى، راح دونداس يستعرض ردود أفعاله بإسهاب. خلال حركة الدوران الأولى، بالإضافة إلى شعوره برأسه يهوي، كان قد أحس بالغثيان. «ليس غثيانًا على وجه الدقة بقدر ما هو نوع من الانتفاخ داخل حلقي. ثم خلال الالتفاف شعرت بالغثيان حقًّا، وبالدوار، السماء أظلمت».

- وفي حركة الدوران الأخيرة؟

- هذه كانت مريعة، شعرت بتشوش حقيقيٍّ.

بعد أن ترك دونداس في ردهة دخول المستشفى، ذهب ريڤرز إلى غرفته وألقى قبعته وعصاه على الكرسي. وبعد لحظة دخل عليه هنري هيد: «كيف كان حاله؟».



- سيئ.
- غثيان؟
- ودوار.
- هل أنت على ما يرام؟

«كلا، يبدو أنني أعاني مرحلةً متقدمة من كتم المشاعر. أتعرف كيف لا أنفك أتحدث عن عدم كبت الخوف؟ وما الذي فعلتُه؟»، مد يديه.

- إنه تأثير المدرسة العامة يا ويل، جميعنا تلقينا تدريبًا مفرطًا.

- بل تأثير حماقة الشيخوخة السخيفة، نحن محاطون بالكثير الكثير من الرجال الشبان.

ابتسم هيد: «أجل، حسنًا، أفهم ما تعنيه، فالمرء لا يريد أن يظهر بمظهرِ هَرِمٍ كليًا».

- اعتراني إحساس مفاجئ أن دونداس كان يُخفي شيئًا ما، وهذا لم...

- هذا صحيح.

بدت المفاجأة على ريڤرز.

- لديه زجاجة من دواء بامستيد للإفرازات الإحليلية في خزانته.
- حقًّا؟

- لقد انتبهت الأخت ميتشل إليها، لكن ضع في علمك أن السفلس لن يصيبه بالإغماء.

«لكن استلقاءه مستيقظًا وباله مشغول بالأمر ليلًا قد يفعل»، جلس ريڤرز صامتًا لحظة: «حسنًا، هذا يغير توجيه الاستقصاء قليلًا، صحيح؟».

«يجعل الأمر أكثر بساطة بكثير»، أنزل هيد نبرته إلى طبقة باريتون[1] تليق برقيب أول: ««أرِنا حمامتك يا فتى». هل ستأتي إلى العشاء؟».

«أجل، وبعدها عليَّ أن أنطلق، يُفترض أن ألتقي أحدهم عند الثامنة».

يقيم ريڤرز في الطابق العلويِّ من منزل كبير قرب متنزه هامپستيد هيث. المنزل يقع على مسافة مئة ياردة من المدفع الكبير، وتمر أوقات تظهر فيها علامات هذا التجاور في كل خطٍ من خطوط وجهه.

وصل پراير في الموعد المحدد تمامًا، وكان يوشك أن يرن الجرس حين رأى ريڤرز يسير بسرعة صاعدًا المنحدر.

«هل رننتَ الجرس؟»، سأله ريڤرز وهو يُخرِج مفتاحه.

«كلا، رأيتك قادمًا».

فتح ريڤرز الباب وتنحى مفسحًا الطريق لدخول پراير. كانت السيدة إيرڤينغ -صاحبة البنسيون- تحوم في الردهة، وقد هيأت نفسها للتشكي من اللاجئين البلجيكيين في الطابق الثاني الذين يحوّل إخفاقُهم في فهم حجم نقص الطعام حياتَها إلى شقاء. عندما يُستنزف هذا الموضوع، يكون ثمة موضوع الغارات لنقاشه. أليس من المخزي ألا يستطيعوا النوم طيلة الليل دون أن تذكر *التايمز* كلمة واحدة عن هذا؟ ثم هنالك ابنتها، التي استُدعيت من فرنسا، ظاهريًّا لأن أمها متوعكة، أما السبب في الحقيقة فهو كونها ليست قادرة على حل مشكلات الخدمة المنزلية عندها. كانت الفتيات يتركن الخدمة لديها دائمًا متذرعات بعذرٍ واهٍ هو أن بمقدورهن جني خمسة أضعاف المبلغ في مصانع الذخيرة. لا سبيل لفهم فتياتِ اليوم، وفقًا لقولها. إضافةً إلى أن فرانسيس *مزاجية* جدًّا.

أخيرًا، نادت إحداهن على السيدة إيرڤينغ، هي فرانسيس كما يبدو، أو -على كل حال- امرأة شابة مضفورة الشعر بادرت ريڤرز بابتسامة لطيفة مشفقة لا تخلو من المرح قبل أن تغلق باب الصالة.

«آمل أنها تسمح لك بالإقامة دون أجرة»، قال پراير.

---

(1) الباريتون: طبقة صوت غنائية رجولية. (المترجم)

صعدا على الدرج معًا، وتوقف ريڤرز في الطابق الثاني ليطل على الحديقة. قال إن القوطيسوس رائع على وجه التحديد، ولم يصدق پراير بهذا الاهتمام المفاجئ بالبستنة، هو إنما توقف كي يتيح له وقتًا ليستعيد أنفاسه. إن صدره أكثر ضيقًا مما كان في زيارته الأخيرة، ولا بد أن ريڤرز لاحظ ذلك. اللعنة على ريڤرز، قال في قرارته، مدركًا أن ردة فعله هذه ظالمة للغاية. كلما احتاج إلى ريڤرز اعتراه غضبٌ تجاهه، وكثيرًا ما يبلغ هذا الغضب حد ألا يستطيع الكلام عما يُقلقه. يجب ألا يسمح بحدوث هذا الليلة.

عادةً ما يستغرق پراير وقتًا طويلًا كي يبدأ، لكنه هذا المساء ما إن استقر جالسًا على كرسيه حتى انطلق يسرد زيارته للسيدة روپر. أكثر ما برز بقوة خلال حديثه كان العين في الباب. ظل يرجع إليها مرة تلو أخرى؛ مدى إحكام تفاصيل رسمها، حتى عروق القزحية، كيف كان دلو قضاء الحاجة موضوعًا ضمن مجال رؤيتها، واستحالة الجزم بوجود عين بشرية تنظر عبر العين المرسومة من عدمه. كان واضحًا من تعابير پراير، بل من سلوكه كله، أنه يرى تلك العين فيما هو يتكلم. لطالما كان ريڤرز حساسًا تجاه علامات التوهم البصريِّ الشديد لدى الأشخاص الآخرين، بما أن هذه مقدرة كان هو نفسه يعاني نقصًا بارزًا فيها، وذلك وضع راهن بدا في السابق بسيطًا وبات الآن شديد التعقيد في الواقع. أعاد توجيه انتباهه نحو پراير بحزم، وطرح عليه بضعة أسئلة حول علاقته السابقة بالسيدة روپر، ثم أصغى باهتمام إلى سرده للكابوس. «عينُ من كانت؟»، سأل حين أنهى پراير كلامه.

رفع پراير كتفيه: «لا أعرف، كيف لي أن أعرف؟».

«إنه منامك أنت».

سحب پراير نفسًا عميقًا، متهيبًا من التنقيب في ذكرى لم تزل قادرة على إصابة معدته بالاضطراب: «أرى أن تاورز هو الصلة البديهية».

«هل كنت تفكر في ذلك؟».

«لقد تذكرته حين كنت في الزنزانة مع بيتي، بل... بل إنني رأيته بالفعل للحظة. ثم تذكرتُ في ما بعد أنني اعتدتُ أن أشتري الحلوى الصلبة من متجر بيتي»، سكت قليلًا: «لا أدري إن كنت تذكر، لكنني حين التقطتُ عين تاورز قلت: «ماذا يفترض بي أن أفعل بحبة الحلوى الصلبة هذه؟»».

«أذكر».

صمتٌ طويل.

قال ريڤرز بأناة: «حين ذكَّرَتك إحدى العينين بالأخرى، أكان ذلك بفعل الصلة البديهية وحسب؟ أعني، لأنهما كلتيهما عينان؟».

قدم پراير إحدى حركات كتفيه المحكمة: «أفترض ذلك».

صمت.

«لا أدري. حدث ذلك في السجن، لكن لاحقًا... لا أدري. كنت أعلم أن ليلتي ستكون سيئة، يصير الـــ... الـــ... المرء يعرف الإحساس مع الزمن. شعرت بالأسى على بيتي، ثم بدأت أفكر في ويليام -وهو ابنها- و... كما تعلم، عاريًا في الزنزانة، أرضية حجرية، الثلج في الخارج...»، هز رأسه: «كان ذلك... ذا سطوة حقًا، وأ... *أظن* أن الأمر أثار استيائي. ساءني التلاعب بعواطفي، لأن هذا ليس شيئًا يُذكر، لا؟»، انفجر غاضبًا: «*لقد فقدتُ ثلاثة رجال* بسبب عضة *الصقيع*. لذا رحت أفكر في ذلك، في أولئك الرجال و... كان ذلك بمنزلة طريقة كي أقول: «حسنًا يا ويليام، مؤخرتك خَدِرة، حظًّا أوفر». غير أن هذا ليس ذا صلة بالموضوع طبعًا»، ابتسم بسخرية: «ليست المسألةُ منافسةً في المعاناة».

«ثم فكرتَ في تاورز؟».

«أجل، لكن ليس بـــ... بـ بنفس طريقة تفكيري في الرجال الآخرين. أقصد، لم يكن تركيزي منصبًا على فظاعة الأمر، بل... لا أدري»، مد يده نحو ريڤرز رافعًا راحته إلى أعلى: «كان الأمر نوعًا من التمائم، أتفهم قصدي؟ إن حدث *هذا* لك...»، بدأت اليد الممدودة ترتجف: «فلا مجال للشك بموضع ولائك».

أطرق پراير إلى يده المرتجفة، وبدا كأنه يعي وجودها للمرة الأولى. بلع ريقه: «آسف، هلا عذرتَني لحظة؟».

هبَّ خارجًا من الغرفة، انفتحت أبوابٌ وانغلقت بينما هو يحاول تحديد موقع الحمام. نهض ريڤرز ليساعده، ثم سمع تهوُّعًا يليه تدفُّق ماء يليه المزيد من التهوع. ما كان پراير ليرغب أن يُشاهَد في هذه الحالة. عاد إلى الجلوس.

من الواضح أن اليوم يوم تعامُله مع أشخاص يصابون بالغثيان.

أسند ذقنه إلى يديه المتشابكتين وانتظر. كان الأمر قد استغرق شهرين من العمل الجاد في كريغلوكهارت للوصول ببراير إلى مرحلة أن يتذكر انتشاله لعين تاورز، وحتى حينها تعيَّن اللجوء إلى التنويم المغناطيسيِّ، الأمر الذي لطالما نفذه على مضض شديد. حين وصل براير إلى المستشفى كان أبكمَ، متمردًا، وربما أقلَّ مريضٍ صادفه ريفرز تعاونًا على الإطلاق، كما كان لديه نزوعٌ ملحوظٌ جدًّا إلى الاستقصاء، والإصرار على علاقةِ أخذٍ وعطاء. لقد اتهم ريفرز أنه مجرد «شريط ورق جدران شديد التفهم»، وسأله ما النفع الذي عساه يراه في ذلك. وفي ما بعد، تحول الأمر إلى شيءٍ من قبيل النكتة بينهما، غير أن الاستقصاء استمر، مشفوعًا بنوع من المشاكسة الساخرة التي كان التعامل معها صعبًا على نحو مفاجئ.

كوابيس براير كانت بغيضة، وظل يصر أنه لا يستطيع تذكُّرها، إلا أن هذا لم يكن صحيحًا وضوحًا. وفي آخر الأمر، قال لريفرز بنبرة اشمئزاز ذاتيٍّ قارسة البرودة إن مناماته التي تدور حول التقتيل والتنكيل كانت مصحوبة بقذف.

عاد براير إلى الغرفة. «أعتذر عن هذا»، قال بطريقة عرَضية وهو يعاود الجلوس على كرسيه.

لم يكن قد وصل إلى الحمام في الوقت المناسب، وكانت مقدمة سترته مبللة في الموضع الذي تعيَّن عليه أن ينظفه. انتبه إلى ريفرز يلاحظ البقعة، فتقبض وجهه. سيجعلني أدفع ثمن رؤيتي لهذا، قال ريفرز في قرارته. لا جدوى من التساؤل عن المنطق في الأمر، فهكذا هو براير. «أترغب في أخذ فاصل؟»، سأله ريفرز محاولًا تخفيف التوتر.

أومأ براير برأسه.

«فلنذهب للجلوس قرب النار».

تركا طاولة المكتب وجلسا على كرسيين بأذرع. نزع ريفرز نظارته ومسح عينيه بيده.

- متعَب؟
- قليلًا. كما كانت السيدة إيرفينغ تقول، لقد حظينا بغارةٍ خاصةٍ بنا ليلة أمس. أظن أن شخصًا ما أصيب بالذعر وبدأ يطلق النار.

ساد سكوت قصير وهما يحدقان إلى النار، ثم قال پراير: «لقد صادفتُ أحد مرضاك تلك الليلة، تشارلز مانينغ».

كان ريڤرز قد بدأ بتنظيف نظارته: «أنا إممم...».

«لا تستطيع أن تتحدث عن مريض آخر. أجل، بالطبع، لكنه هو الذي تحدَّث. أتعلم؟ عندما ذكر اسمَك قلت لنفسي: «عُصاب حرب» -بالفعل، هو ينزع إلى الارتعاش بعض الشيء، أليس كذلك؟- لكن لا، يبدو أن لا. التقى بجندي وسيم، وإذا بيد شرطي مقرف على كتفه، ثم -من غامض علمه- بات فجأةً يحتاج إلى علاج. ماذا كان...؟ هنري هيد، هكذا هو اسمه. «هنري هيد يستطيع أن يشفي أي أحد». لذا توجه إلى هيد، الذي قال له: «آسف، أود المساعدة، لكن جدولي ممتلئ»، بأمثال مانينغ على ما يبدو. هذا يُحيِّر العقلَ، أليس كذلك؟ «لمَ لا تجرب ريڤرز؟»»، سكت پراير منتظرًا، وإذ لم يلقَ جوابًا تابع يقول: «لقد أظهر مانينغ انفتاحًا مفاجئًا بخصوص نزواته الصغيرة؛ أتباع الكاميرونية[1] ذوي الأقدام المتعرقة، كما اتضح. أليس مؤثرًا كيف ينشأ لدى بعض الأشخاص إخلاص حقيقيٌّ لأفواج المرتفعات الاسكتلندية؟ أنا أتساءل يا ريڤرز...»، كان پراير يُصدر أصوات تلمظٍ صغيرة من شفتيه، مثل أستاذ جامعة يُعمِل عقلَه في مسألة عويصة على نحو خاص: «كيف تراك تباشر «علاج» شخصٍ ما من الولع بالكاميرونيين ذوي الأقدام المتعرقة؟»».

قال ريڤرز ببرود: «كنتُ لأطبق صابون الكربوليك على الأقدام».

«حقًّا؟ أظنك هكذا تكون تجاوزت الدكتور فرويد بمراحل».

انحنى ريڤرز إلى الأمام: «*كُف عن هذا*. د. هيد «جدوله ممتلئ» بشبان أصيبت أجزاء كبيرة من أدمغتهم بأعيرة نارية. في مجتمع عقلانيٍّ، لا يكون مطلوبًا من رجل يقضي نهاره هكذا أن يقضي مساءه -تذكر أنه وقته الخاص- مع رجال يمكن تركهم يتابعون حياتهم بطريقتهم الخاصة دون أي مشكلة. وكون هيد مستعدًّا لفعل هذا هو أمر يستحق الاحترام بحد ذاته».

- أهو صديقك؟

---

(1) الكاميرونية: عُصبة راديكالية من حركة المعاهدين الاسكتلنديين (حركة دينية سياسية ظهرت في القرن السابع عشر) تقوم على تعاليم ريتشارد كاميرون (1648؟- 1680). (المترجم)

- أجل.

«أظن أن بوسعه أن يرفض تولي هذه الحالات؟»، قال پراير.

«كلا، لا يستطيع. سنتان من الأشغال الشاقة، أنسيت؟».

صمتٌ قصير. «أنا آسف».

فَرَدَ ريڤرز يديه.

لكن پراير لم يترك الموضوع وشأنه: «ومع ذلك، لا بد من وجود أوقات يحتاج المريض فيها بالفعل إلى أن يتكلم عن مريض آخر. أقصد، من الواضح -لا شك- أن هذا الحديث عن الكاميرونيين لا يمكن أن يكون قد دار إلا في السرير؟».

- خطرت لي هذه الفكرة.

- حسنًا، لنفترض أنني أحتاج أن أتكلم عن هذا؟ لنفترض أن الشعور بالذنب يقضُّ مضجعي؟

- هل هذا صحيح؟

«الفكرة أن...»، تخلى پراير عن ذلك بغتةً: «كلا، لا يبدو أنني أشعر بذنبٍ من الناحية الجنسية. على الإطلاق في الحقيقة، ولا حيال أي شيء».

ليس صحيحًا، فكر ريڤرز. كان پراير يشعر بذنب هائل حيال القذف الليليِّ الذي رافق كوابيسه، ذنب حيال فعلٍ لا إرادي.

«كنتُ أفعل في السابق»، قال پراير.

- متى كان ذلك؟

- حين كنت في الثانية عشرة من عمري. في مكان إقامتنا آنذاك، كان ثمة شابٌّ يُدفَع على عربة. لا أدري ما كانت مشكلته، سِلّ في العمود الفقري، شيء من ذلك القبيل، شيء رهيب. وكانت العربة تصدر صريرًا، فيمكن للمرء دائمًا أن يسمعها قادمة. وكان يُضرب لنا به المثل عما يحدث إن انغمسنا في الإساءة إلى أجسادنا.

- من الذي كان يقول لك ذلك؟

«رئيس الكشافة، السيد هيلز. حتى إنه كان يقول إن ذلك الشيء الذي يخرج هو السائل الشوكي، وبطبيعة الحال ليس لدينا سوى كمية محدودة من هذا، وذخيرتي أنا كانت تتناقص بسرعة كبيرة. اعتدتُ أن أضطجع مستيقظًا

وأحاول ألا أفعل ذلك، وراح خوفي يزداد أكثر فأكثر. لسوء الحظ، كان ثمة شيء واحد فقط يشغل تفكيري عن ذلك الخوف، لذا كنت أفعلها مجددًا، وصرير تلك العربة يقترب أكثر فأكثر طوال الوقت. كما قيل لنا إن أولى علامات الانهيار هي شحوب وظلال تحت العينين، لذا كنت أنهض من السرير صباحًا وأنظر في المرآة، ويا للمفاجأة: شحوب وظلال تحت العينين!»، ضحك: «الأمر مضحك الآن، لكنني في إحدى المراحل فكرت في الانتحار فعلًا».

«وما الذي أثناك عن ذلك؟».

ابتسم پراير: «ليس «ما»، بل «من». پادي ماكدويل».

«الرجل الذي نظم إضراب شيفيلد؟».

اتسعت الابتسامة: «أجل، في مرحلة لاحقة. كان منهمكًا في شيء آخر آنذاك؛ «ضرب بيدقِه»، هكذا كنا نسمي الأمر. بيدقُ ماك كان يُضرَب أكثر من بيدق أي شخص آخر، يكاد يُخرجه ويفعلها في العلن، ومع ذلك كان أطول قامةً وأقوى منا جميعًا، هذا ما زرع فيَّ بذرة الشك الأولى. ثم قال هيلز إن التطهر يكون عن طريق إبقاء كأس من الماء البارد قرب السرير، وحين يهاجمنا الإغراء بوسعنا أن نغمر «العضو المشتعل» -هكذا كان يسميه دائمًا- في الماء. أجل، ونقلتُ الخبر إلى ماك. ماك كان من *العوام*، أي أنه لا يرتاد الكشافة. قال لي: «لكن إن كان متصلبًا، كيف لك أن تدخله في الكأس دون إهراق الماء؟». وفجأةً تراءت لي صورة هيلز المسكين واقفًا مكانه و«عضوه» الرخو مغمورٌ في كأس ماء، فأدركت ببساطة أنه كان يتفوه بالهراء. الوغد المسكين، لا بد أنه نسي كيف يبدو الانتصاب. على كل حال، لقد تخليتُ عن شعور الذنب بعد ذلك. أظنني عشتُ من الذنب خلال ستة أشهر ما يكفي عمرًا كاملًا».

- أكانت صداقتكما وثيقة؟ أنت وماكدويل؟

- أتقصد أن تسألني إذا ما كنا...

- لا، أنا...

- أجل، كانت وثيقة. بحكم سننا آنذاك، كما أظن.

كان پراير يبدو أكثر استرخاءً بكثير. «أتريد أن تتابع؟»، سأله ريڤرز.

شيءٌ من التردد. «لا، لكن أظن الأفضل أن أتابع»، انقطع عن الكلام لبعض الوقت، ثم قال يَزِنُ الكلمات بحركات من رؤوس أصابعه المضمومة

إلى بعضها كبرج كنيسة: «الأحلام محاولاتٌ لحل صراع، صحيح؟ حسنًا، لا أستطيع أن أرى أي صراع في هذا الحلم».

- لقد طعنتَ شخصًا في عينه.

- ريفرز، كان *بابًا*.

- *العين* كانت حية.

- أجل.

- إذًا لماذا تقول إنه ما من صراع؟

- لأنني كنت متماهيًا للغاية مع ويليام أو بيتي أو... لا أعلم. ويليام على الأرجح، حيث إنني كنت عاريًا. وكنت أهاجم ما بدا لي أفظع مكونات وضعهما، وهو العين؛ المراقبة المتواصلة. لذا لا أرى أن هنالك أي صراع. أعني أن الأمر قد يكون شاقًا وملتبسًا للغاية في الحياة الواقعية، لكن في الحلم لم يكن ثمة أدنى شك في أي جانب كنت أصطف؛ جانبهما.

انتظر ريفرز، ولما اتضح أن پراير لم يعد يستطيع تقديم المزيد، قال: «تقول إن أسوأ مكونات وضعهما هو العين؟».

- أجل.

- الخضوع لتجسس متواصل؟

- أجل.

سأله ريفرز برفق: «خلال ذلك اللقاء مع السيدة روپر، من كان الجاسوس؟».

«أ...»، التوى فم پراير: «أنا».

ساد سكوت قصير آخر، ثم حفزه ريفرز على المتابعة: «إذًا؟».

«*إذًا*»، قال پراير في نغم رتيب مشمئز وهو يطعن الهواء بسبابته: «كانت «العين» تطعنني في «ذاتي»[1]. ويعلم الله أن لا أحد يرغب أن يشتهر باستخدام جناس كهذا!».

سكوتٌ قصير، سأله ريفرز بعده: «ما رأيك بهذا؟ أيبدو لك...».

---

(1) في النص الأصلي تلاعب لفظيٌ بين مفردتَي «أنا» و «عين» اللتين لهما اللفظ نفسه في الإنجليزية، فالمستمع يفهم جملة پراير على أنها «كنت أطعنُ عيني». (المترجم)

«هذا ممكن، كما أعتقد. أنا أكره ما أفعله، ولعلي شعرت أنني في الموضع الخطأ. حسنًا، من الواضح أنني شعرت بذلك، وإلا لكنت مجنونًا».

«أريد منك أن تفعل شيئًا من أجلي»، قال ريفرز: «أريدك أن تدوّن كل حلم يراودك ويكون... بسوء هذا الحلم. سجله كما هو، لا تحاول تأويله، وأرسله إليَّ. سأراك مجددًا يومَ...».

- كلا، أنا آسف، لا أستطيع. سيتعين إرجاء لقائنا إلى الأسبوع القادم، إن كنتَ لا تمانع، فأنا ذاهب لرؤية هيتي روپر.

- ستعود إلى سالفورد؟ أين ستقيم؟

«في المنزل»، اكفهر وجهه: «أجل، أعرف. كيف لي أن أقيم في أي مكان آخر؟».

أومأ ريفرز برأسه. كانت تحضره ذكرى زيارةٍ أجراها والدا پراير إلى كريغلوكهارت؛ لقد أفسدا -في أصيلٍ واحد- كل علامة صغيرة على التقدم وأثارا هجمةَ ربو. «هل يعرف والدك ما تفعله؟ أقصد، هل يعرف ما يتضمنه عملك؟».

«رباه، آمل أنه لا يعرف»، تململ پراير في مكانه: «إنها حرب خسيسة قذرة يا ريفرز، يمكنني أن أقول بأمانة إنني أفضل لو كنت في فرنسا».

«أجل، أنا متأكد من هذا».

رمقه پراير بنظرة حادة: «أنت قلق، أليس كذلك؟ لماذا؟ لأنني سأذهب إلى المنزل؟».

«كلا، ليس على وجه الخصوص».

«أوه، فهمت. لقد كان حلمَ انتحار»، تغير التعبير على وجهه: «لا داعي إلى قلقك. إن كان ثمة من سيعاني حظًّا عاثرًا بسبب هذا، *فلن يكون أنا*».

بدا مختلفًا إلى حدٍّ بعيد، على حين غرة: حاسمًا، متنبهًا، باردًا، يقظًا، متجردًا، مراوغًا، قاسيًا. أدرك ريفرز أنه يرى -وربما للمرة الأولى- الوجهَ الذي يُظهِره پراير على الملأ. لقد كان عدائيًّا ومراوغًا في كريغلوكهارت، لكن دائمًا من موضع انعدامِ حيلةٍ نسبيٍّ. أحيانًا كان يبدو لريفرز مثل طفل في أول سن المشي يتشبث بكم أبيه كي يتمكن من توجيه ركلة أقوى إلى قصبة ساقه. أما الآن -وللحظة وجيزة- فقد رأى پراير الذي يراه الآخرون: أمثال لود وآل روپر وسپراغ، وجاء هذا بمنزلة صدمة. كان پراير جبارًا.

6

أمام خلفية مسرح قماشية صفراء، امرأةٌ تسجَّت بأستار ذات لون أخضر زاهٍ راحت تلتوي وتتثنى. بدت مثل سحلية إكزوتيكية أو أفعى سامة، هذا هو المظهر الذي أراده وايلد لها كما يبدو. كان روبرت روس يحدِّثهم عن ذلك قبل العرض، متذكرًا أحد الأيام في باريس، حين راح وايلد يجوب البوليڤارات منقلًا نظره بين واجهات المتاجر ويسأل: «ماذا عن هذه؟» أو «أو لعل الأفضل أن تكون عاريةً إلا من المجوهرات؟». الأصفر والأخضر كانا خياره لمخطط الألوان، إلا أن وايلد ما كان ليستطيع التنبؤ بما بدا لتشارلز مانينغ الخاصيةَ الأكثر إزعاجًا في ذلك: أن للأصفر نفس درجة لون بشرة فتيات الذخيرة. لن يلاحظ الآخرون هذا بالطبع، وهو لم يخطر له سوى لأن إحدى مهامه في الوزارة تتمثل في المشاركة بصفة عضو عسكريٍّ ضمن لجنة معقودة بهدف فحص معايير الصحة والسلامة في مصانع الذخيرة. كان المرء يرى صفوفًا متتالية من فتيات كهؤلاء؛ سحنة صفراء، وخصل صهباء منفلتة من تحت قلانسهن الخضراء، ووجوه تحجب الكماماتُ نصفها.

لقد كان حديث روس عن مخططات وايلد لمسرحية «سالومي» مثيرًا للاهتمام، بدرجة تفوق العرضَ نفسه حتى الآن. أكثر معلومة صاعقة كانت أن وايلد قد لعب دور سالومي بنفسه ذات مرة، الأمر الذي يصيب المخيلة بحيْرة كبيرة، بما أنه بدا في الصور الفوتوغرافية لا يداني الرشاقة، حتى وفقًا لمعايير الرجال الموسرين في منتصف العمر. وجَّه مانينغ انتباهه نحو خشبة المسرح من جديد، بما أنه بذل الجهد للحضور -ولقد كان جهدًا بحق،

إذ لم يكن يشعر بارتياح البتة- يحسن به على الأقل أن يعطي المسرحية فرصة، لا سيما أنها كانت تعني الكثير لوايلد كما هو واضح. لقد أُدخِل رأسُ يوكانان[1] على طبق، وكانت سالومي راكعة ويداها ممدودتان نحوه. أحسَّ مانينغ بنوبة اشمئزازٍ غير متوقعة، ليس لأن الرأس كان مروعًا، بل لأنه لم يكن كذلك. شيء آخر ما كان وايلد ليتنبأ به: وجود أشخاص ضمن الجمهور لا تكون الرؤوس المقطوعة في غُرفهم مصنوعةً من عجينة الورق بالضرورة.

أخذت سالومي تداعب الرأس: «*آه! ما كنتَ لتسمح لي أن أقبِّل ثغرك يا يوكانان. حسنًا! سوف أقبِّله الآن. إني لأقضمنه بأسناني كما تُقضَم الفاكهة الناضجة. أجل، سأقبِّل ثغرك يا يوكانان. لقد قلتُها، ألم أقلها؟ بلى، قلتُها. آه! سوف أقبِّله الآن*».

أصاب المللُ مانينغ. لو شاء الصراحة، فكل هذا لا يعني له شيئًا. بوسعه أن يرى ما كان وايلد يفعله؛ كان يحاول نقل إحساسِ شغفٍ عظيم مخنوق، مسموم، محرومٍ من كل متنفَّسٍ حقيقيٍّ، لكنه رغم ذلك يطفو إلى السطح قسرًا، ويُعبَّر عنه على شكل هدمٍ ووحشية لتعذُّر التعبير عنه على شكل حب. ليس أنه رأى هذه الفكرة مبتذلةً أو تافهة أو بالية... ليس الأمر كهذا قطعًا، بل إن اللغة كانت مستحيلة عليه. فرنسا جعلتها مستحيلة.

ما كان عليه إلا أن يفكر لحظةً في الوحل الأصفر النتن الذي يغطي أرض النتوء[2]، تلك العصيدة التي تقوم منها مقام كتل الدقيق أجسادٌ بشرية، أو أشلاء منها، حتى ينهض حاجزٌ منيعٌ بين عقله وهذه الكلمات.

طابور من رجالٍ غطوا وجوههم بأقنعة الغاز يدكون المعبر الخشبيَّ بأقدامهم. أمام هذا الرتل الزاحف شيءٌ يبدو مثل كتلة وحلٍ ملتصقة بحافة الطريق. من قربٍ أكبر، يتضح أنها يد. الأقدام تدبُّ ثقيلةَ الخطى. يحس

(1) يوكانان: الاسم الذي تحمله شخصية «يوحنا المعمدان» في مسرحية «سالومي». (المترجم)

(2) النتوء: مصطلح جغرافي يشير إلى بروزٍ تابعٍ لكيان جيوسياسي ممتد في أراضي كيانٍ آخر. (المترجم)

بأنفاسه تحشرج داخل الكمامة، ثم -مثل تمعُّج الديدان- يجيء عبر الوحل صوتٌ، صوتٌ ماكرٌ وسواسٌ موثوق: «أين سكادر؟ أين سكادر؟ أين...».

على خشبة المسرح يُطرَح سؤالٌ آخر: «*لكن لماذا لا تنظر إليّ يا يوكانان؟ عيناك اللتان كانتا جِدَّ رهيبتين، ممتلئتين حنقًا وازدراءً، ها هما الآن مغمضتان. لمَ هما مغمضتان؟*».

إنه ميت، حبًّا بالمسيح، قال مانينغ في قرارته. لقد دخلت ركبتُه في نوبة تشنُّج، واجتاحه ألم حاد. نظر إلى روس بطرف عينه، فوجد عينيه مسمرتين على الخشبة، تسجلان أضألَ دقائق العرض. كان يبدو مريضًا. حتى في هذا الضوء الذهبيِّ المنعكس، بدا مريضًا. ربّاه، فكر مانينغ، ليت هذا ينتهي.

أخيرًا صاح هيرودس: «اقتلوا تلك المرأة!»، فهب الجنود نحو سالومي، ابنةِ هيروديا، وسحقوها تحت دروعهم.

مرت لحظة صمت، ثم اندلع التصفيق وانحنت مود آلان للجمهور -وقد طلسَ التبرجُ الثقيل شخصَها- وراحت توزع القبلات في الهواء مبتسمة، والرأسُ المقطوع متدلٍّ من يدها البيضاء الصغيرة.

أحاط الحضور بروس حالما أُشعِلت الأضواء. شق مانينغ طريقه إليه وصافحه، مضيفًا تمتمتَه إلى طنين التهاني الذي يعم المكان، ثم أشار إلى ركبته ونحو القسم الخلفيِّ من المدرج، فأومأ روس برأسه قائلًا: «لكن ألن تأتي إلى الكواليس؟».

فيما هو يخوض بين الحشد ليبلغ المخرج العلويَّ، أدرك مانينغ كم كانت ساقه تؤلمه. فتح البابَ الذي كُتِب عليه «مخرج الحرائق» وعبر منه: أمامه يمتد دهليز حجريٌّ معتم الإضاءة، ليس فيه شيء من البريق والترف الذي يَسِمُ بقية المسرح. كان مرحاض الرجال في نهاية الدهليز، بعد نزول شاحطٍ من بضع درجات. تبوّل، ثم تباطأ في عملية غسل يديه، يريد تأجيل لحظة الذهاب إلى الكواليس وتبادلِ الثرثرة المحتومة. لكم يفضّل لو يذهب إلى المنزل. إنه ينام في منزله من جديد، متذرعًا بالحاجة إلى إبقاء عينه على البنّائين،

غير أنه مسرور بالفرصة التي أتاحت له الابتعاد عن النادي. لقد كدرته تلك الحادثة السخيفة، قصاصة الجريدة التي أُرسِلت إلى منزله، لأن المرسل يمكن أن يكون *أي أحد* ببساطة. لم يعد يشعر أنه قادر على الوثوق بالناس، أعضاء ناديه، والأشخاص الذين يعمل معهم. حتى إن نفوره من الحضور الليلة لم يكن نابعًا في المقام الأول من خشيته أن يُرى برفقة روس -رغم أن هذا أحد العوامل بالفعل- بقدر ما هو من مجرد إعراض عن مخالطة الناس. لعله بدأ يصير متقوقعًا بشكل زائد، يبدو أن هذا ما يراه ريڤرز بالطبع.

نظر في المرآة، وكان الضوء في الأعلى يلقي ظلالًا قاتمة على أنحاء وجهه.

•

الأقدام تدبُّ ثقيلةَ الخطى. يحس بأنفاسه تحشرج داخل الكمامة، ثم -مثل تمعُّج الديدان- يجيء عبر الوحل صوتٌ، صوتٌ ماكرٌ وسواسٌ موثوق:

«كيف وجدتَ العرض؟».

كان رجلٌ قد خرج من إحدى الكبائن وراح يحدق إليه في المرآة، ظهوره الصامت المفاجئ جفلَ مانينغ. «أخشى أنه ليس لي»، قال مانينغ وهو يبدأ بتجفيف يديه: «وأنت كيف وجدته؟».

قال الرجل -الذي لم يتحرك من مكانه- بفظاظة: «رأيتُه أشبه بغماغم طفلةٍ ذات بظر متضخمٍ شائهٍ مَؤُوف».

«حقًّا؟ أنا رأيتُ أن الزمن عفا عليه ببساطة».

«لا»، قال الرجل كأن رأيه وحده هو الذي يمكن أن يكون ذا وزن: «العرض ليس باليًا. في الواقع، في ما يخص ما يحاولون فعله، الخيار ذكي للغاية».

نظر مانينغ في المرآة، مصممًا ألا تربكه هذه الصورةُ الهزلية والتوعدية على نحو يثير الفضول في آنٍ معًا: «ترى أن البظور المتضخمة مشكلةٌ معاصرة، أليس كذلك؟».

- يمكن علاج كل سخطِ نساء يومنا عن طريق استئصال البظر.

- الأمر أكثر تعقيدًا بعض الشيء بالتأكيد.

كأنه لم ينطق بشيء، دنا الرجلُ أكثر حتى بات وجهه بجانب وجه مانينغ في المرآة: «في هذه المدينة نساء بظورهن متضخمة تضخمًا شائهًا، وملتهبة التهابًا رهيبًا، إلى درجةٍ لا يشبعهن معها **سوى فُحول الفيَلة**».

صمت. لم يستطع مانينغ التفكير في شيء يقوله.

«ألم أرَكَ في المقصورة برفقة روبرت روس؟».

أدار مانينغ وجهه إليه، وقال ناظرًا في عينيه مباشرةً يشحن كل كلمة ينطقها بالدلالة: «أنا من وزارة الذخيرة»، ثم لمس جنب أنفه ورفع إصبعه محذرًا قبل أن يغادر.

وهو يسير عبر الدهليز، فوجئ إذ ألفى نفسه يرتعد. الرجل مخبولٌ تمامًا، ليس على المرء أن يكون ريڤرز كي يتوصل إلى هذا التشخيص، ومع ذلك فقد كان مثيرًا للإعجاب بطريقة شنيعة بالأحرى.

وسط زحامِ غرفة تبديل ملابس مود آلان، قَبِلَ كأسًا من النبيذ وتقدم في طريقه شيئًا فشيئًا باتجاه روس. «لقد قابلتُ لتوي رجلًا ولا أغرب في مرحاض الطابق السفليّ».

- إممم.

- كلا، ليس «إممم». إنه مجنون، راح يتحدث بلا انقطاع عن البظور المَؤُوفة.

- لا بد أنه النقيب سپينسر، لقد قال غرين إنه شاهدَه.

«من يكون؟»، سأله مانينغ.

- مصدر كل المتاعب يا عزيزي. إنه الرجل الذي رأى الكتاب الأسود، الذي يعرف *الأسماء*.

- لكنه مجنون.

«هذا لن يمنعهم عن تصديقه. الحقيقة أنها...»، نظر روس حوله بحذر: «ما كان ينبغي لها أن ترفع الدعوى. أعرف أنني *آخر* شخص يمكنه أن يقول هذا، لكن...».

«ماذا كان لها أن تفعل غير ذلك؟».

هز روس رأسه: «ما إن يَمثلوا في المحكمة حتى يكون بوسعهم اتهام *أي* شخص».

- أهُم يتركونك وشأنك؟

- لا. عندي شرطي مرابط في الصالة باستمرار تقريبًا، كنتُ لأعرض سريرًا على المسكين لولا ظني أن البادرة سيُساء تفسيرها.

حين غادرا بعد عشرين دقيقة، انتبه مانينغ إلى النقيب سپينسر واقفًا تحت مصباح شارع على الجانب الآخر من الطريق. مد مانينغ يده ليلمس كُمَّ روس، ثم أعاد التفكير في ذلك، فترك يده تهوي.

7

على متن القطار إلى مانشستر، أخذ پراير يقرأ مراسلات آل روپر.

عزيزتي ويني،[1]

لا تقلقي بشأني يا طفلتي فأنا بخير. جاءت هيتي إلى المنزل على عيد الميلاد وحظينا بوقت طيب، حتى إن تومي الصغير انتعش قليلًا، وأنت تدرين بحاله. تلاحظين في هذا العام الجديد أنه لم يكن ثمة كلام بلا معنى كما في العام الماضي، أظن أن العام الماضي قضى على طاقة الكثير من الناس باستثناء ذلك المتبجح الويلزي اللعين، فهو لم يغير نبرته كثيرًا على عكس الشباب المساكين.

لقد جعلتني هيتي أذهب للتسوق في التخفيضات معها لأنها كانت تعلم أنني أريد بلوزة. كان هنالك بلوزة سوداء جميلة -دون زركشات- لكن هيتي قالت: «أوه

(1) الرسالة تفتقر إلى علامات الترقيم، وتحوي أخطاءً إملائية مقصودة في النص الأصلي، ارتأيتُ إهمال ذلك في الترجمة لمصلحة وضوح النص. (المترجم)

يا أمي، أنت تحولين نفسك إلى امرأة عجوز». أيًّا يكن، أنت تعرفين هيتي. عدتُ ببلوزة نيلية اللون عليها وردة صفراء صغيرة، أعتقد أن لا بأس بمظهرها، ولا أستطيع ردها إن لم يكن ذلك لأني اشتريتها في التخفيضات. صادفنا السيدة وارنر، تعرفينها من حركة حق الاقتراع، وبالطبع سألت عن أخبارك، لكنها كانت متحفظة وحذرة، وأبدت رغبة واضحة في الذهاب. قالت إنها ترى الاهتمام بعيد الميلاد مبالغًا فيه، وإن لحم الديك الرومي ناشف جدًّا، فقلت إنني لم أذُقْهُ من قبل لذا لا أدري. تعرفين ماذا كان روني كاركر يقول، أليس كذلك؟ إنهن يستغللنك وحسب يا بيتي، وعندما يعدن إلى منازلهن ليلًا لا يتعين عليهن حتى أن يرفعن سراويلهن الداخلية. ولعلمك، لو كان روني موجودًا، لما احتجنَ أن ينزعنها عنهن كذلك.

في ما يخص زائرتك المتأخرة، لا بد أن تتذكري القلق الذي سببته لك والدة آلف بمعاملتها السيئة، وتصرفات ابنتها آيفي الغريبة بعد ذلك. لكن مهما كان، لا تتركي الأمر يتجاوز الأسبوعين، ***عودي إلى المنزل***، وإلا انتهى بك المطاف إلى التعامل مع بقرة لعينة قذرة يغطيها السماد إلى درجة يمكن زرع البطاطا فيها. النساء من هذا النوع يسببن أذىً لا حد له، لقد رأيت العديد من الشابات يجرجرن أنفسهن جرجرةً بعد سنوات.

هل تسلَّم آلف الرسالة؟ لقد أرسلتُها يوم الخميس، لكن البريد بطيء جدًّا، أليس كذلك؟ أظن أن السبب

هو تراكمات عيد الميلاد. إن كان قد تسلَّمها اطلبي منه أن يرسل إليَّ الأغراض بأسرع ما يمكن، وإن لم يتسلَّمها فقولي له ألا يقلق، سأكتب مجددًا. أريد الأغراض من أجل رجل نزل هنا قبيل عيد الميلاد، هو يحتاج إليها كي ينفذ شيئًا فيه بعض الخطورة، لكن الخطورة تعود عليه وحده، فهو لا يعرف أي شيء عنك وعن آلف، لذا لن يكون توريطكما أمرًا محتملًا. حسنًا، سأختم رسالتي الآن، وآمل أن تصل إليكِ وأنتِ بأفضل حال.

محبات بالجملة

ماما

أمي العزيزة،

عادت المدرسة من جديد، ولا أدري من المتبرم أكثر، أنا أم الأولاد. لقد بدأ سقف الردهة يرشح ماءً خلال العطلة، لا أمل من إصلاحه بالطبع، واليوم أخذ يصب كالنهر. كان الماء يتدفق بغزارة على النوافذ والأضواء مطفأة جميعها وويدل يهذر دون توقف عن الإمبراطورية وكيف علينا كلنا أن نشد الأحزمة ونتشبث استعدادًا، مع أنني لا أراه يلتزم بذلك ويستعد حقًّا، عدا عن أنه لا يستطيع أن يشد حزامه بوجود كرشه تلك. كم دعوتُ أن تحط إحدى قطرات الماء تلك على يافوخه الأصلع، لكن ما من حظ. والأولاد يسعلون بجنون جميعهم، بالكاد يبدأ أحدهم حتى ينضم إليه البقية. لذا تكون الأسطوانة كالتالي: «إمبراطوريتنا المجيدة...» كح

كح «لا بد أن نقاتل حتى آخر رجل» كح كح «شباننا الأشاوس...» كح كح. أوه، كما أنه ساخط بسبب عدد الصبيان الكبار الموجودين في الخنادق. والعدد كبير فعلًا، الأمر الذي فاجأني، إذ كنت لأظنهم يعانون من كساح الأطفال كلهم. توجد حالات كساح في الصف الذي أدرّسه. أتعرفين ذلك التقبب البارز الذي يصيب جباههم؟ حالما نعرف كيف ننتبه إليه نلاحظ كم هو منتشر. ثم علينا أن نصغي بعد ذلك إلى خطاباته المثيرة للغثيان حول ما نقاتل من أجله. ومع هذا، فالحال أحسن مما كان قبل عيد الميلاد، إذ كنت أظنني على وشك أن أتقيأ حقًّا حينها. على الأرض السلام وبالناس المسرة، وكيف أننا نُظهر هذه المسرة جميعنا من خلال الفتك بالألمان وإنقاذ بلجيكا الصغيرة الشهمة. حاولت أن أحكي لصبي الصف السادس ذلك عما أقدمَت بلجيكا الصغيرة الشهمة عليه من أفعال في الكونغو، بيد أنه سرعان ما أسكتني. أخبرته أنني لم أتحدث عن ذلك إلا بهدف المقارنة بين نظام استعماريٍّ سيئ وبين السجل المشرق لإمبراطوريتنا المجيدة، لكن لا أعتقد أنه صدقني. هو لا يثق بي إن غبتُ عن عينيه قيد أنملة. لقد رتب لي أن أدرّس الصغار خلال هذا الفصل الدراسيّ، ولا أظن أن هذه مصادفة كذلك.

لقد تواصل 8 معي. تعلمين كم اجتاحني القلق بشأنه منذ أن اعتُقِل، لكنه قال إن الوضع ليس في غاية السوء. أحد الشبان كانت له لحية، فحلقوها له

بموسى حلاقة. انتهى الأمر بعدة جروح في وجهه، لكن الموضوعات التي يجدونها مضحكة تثير المفاجأة حقًّا. قال إنه لم يرَ ويليام، لكنه بالطبع لن يراه كونه محبوسًا في زنزانة منفردة. وربما تكون هذه آخر أخبار تصلنا يا أمي، فقد قال إن الحارس الذي يهرّب الرسائل سيُنقَل.

ثمة ما بلغني -من 10، لن تعرفيه- بخصوص الوضع الراهن في إتابل، حيث المعسكر الكبير الذي يُرسَلون إليه جميعهم ليتلقوا التدريبات، لقد قال إنه لم يرَ شيئًا يشبهه يومًا. قال إنهم يعاملون المجندين إلزاميًّا أقذر معاملة، إذ يُربَط الرجال إلى الأعمدة عقابًا على أتفه الأمور وأذرعهم فوق رؤوسهم. هذا لا يبدو أمرًا جللًا، أليس كذلك؟ لكنه قال إنه عذاب فظيع. كما أكد لي أن معمعةً ستحدث هناك دون شك. آمل ذلك، آمل ذلك بالفعل. بضعة ضباط يُقتَلون بنيران رجالهم، هذا كل ما سيتطلبه الأمر، شرارة صغيرة لا أكثر، وسوف تنتشر كالنار في الهشيم. أنا موقنة من هذا. لم أسمع أي خبر من ماك. إنني أحاول إبقاء نفسي منشغلة، فترينني أمضي نصف وقتي راكضةً من مكان إلى آخر كقطةٍ لذعتها النار لأنني لا أجرؤ أن أترك نفسي أفكر. الصغار لطيفون والحق يقال، لم تطل أذهانهم يدٌ بعد. لقد خطرت لي أنشودة أطفال جديدة منذ أيام.

جورجي المدلل الحلويات

يومًا ستُبكيه الفتيات

فليبقَ أملنا عاليًا، أليس كذلك؟

الأفضل أن تتموني بالطعام يا أمي. أعلم أن الأمر صعب مع تكفلك بإطعام تومي، لكن إن تسنت لك الفرصة خزّني القليل من المعلبات. فإذا وصل الأمر إلى حد التوزيع على قسائم التموين، ستكون عائلات معارضي الخدمة في ذيل القائمة، هذا إن حصلوا على شيء من الأساس. لا تقلقي عليّ، أنا على ما يرام. فكري في نفسك على سبيل التغيير.

حبّ كبير،

هيتي

ملاحظة: إن لم يكتب ماك اللعين عما قريب، سأمعس له رأسه.

أمي العزيزة،

تجدين الأغراض التي طلبتِها مرفقةً مع الرسالة. أخبري صديقك أن يتبع التوجيهات بدقة. أظنك ستقولين عني طري القلب، لكنني أشعر بالأسى على الكلاب. سأشفق على هذه الحيوانات المسكينة إن استطعتم الوصول إلى قربٍ كافٍ منها، إذ ستموت في غضون عشرين ثانية. على كل حال، حظًا طيبًا. أنعتبر أننا سنحظى بالسلام بحلول عيد الميلاد القادم؟

أتمنى ذلك..

آلف

ملاحظة:ويني تقول لك إن أمورها مرت بسلام.

هيتي الحبيبة،

أنت تتساءلين لماذا لم تسمعي خبرًا مني حتى الآن. حسنًا، لقد كانت أبواب جهنم مشرعة عن آخرها. أتذكرين ذلك الفتى أحدب الظهر؟ ظل يصر على المثول أمام هيئة المحكمة عوضًا عن الحصول على إعفاء لأسباب صحية، رغم كون الأمر مضمونًا. كنت أحاول تأمين عبوره إلى أيرلندا، ونجحتُ في النهاية، لكن قُبِض عليه في أثناء صعوده على متن المركب. الحَدَبة هي ما جعلهم يتعرفون عليه. كنا قد جربنا كل شيء لإخفائها، اقترح تشارلي أن نجعله يرتدي فستانًا ويمشي إلى الخلف في محاولة ليبدو مثل امرأة حبلى، لكن لا أدري كيف يمكن فعل هذا. على كل حال، إنه في واندزوُرث من جديد، حيث يبذلون قصارى جهدهم لتسوية ظهره له دون شك. لكن الأمر مزعج بحق، فهذا يعني أن علينا تخفيف حركتنا، ما سيؤدي إلى تأجيل كل رحلات الآخرين إلى جزيرة الزمرد[1]. هذا يعطل المنظومة بأكملها، وأخشى أن صبري ينفد. أعلم أن كل شخص مهم، لكن العبور بستة رجال أو سبعة إلى أيرلندا لن يوقِف الحرب. ليس هناك إلا طريقة واحدة لفعل ذلك، وكلانا يعلم ما هي.

أنا أقيم برفقة والدة تشارلي غريفز. **لا تكتبي إليّ**. أعلم أنك تعرفين العنوان، لكن المشكلة أنك لست

(1) جزيرة الزمرد: اسم يُطلق على أيرلندا. (المترجم)

الوحيدة التي تعرفه. كل البريد الوارد يُفتَح. لا أريدك أن تتورطي في هذا أكثر مما أنت متورطة أصلًا، ولستُ أعاملك مثل «المرأة الصغيرة». يجب أن يكون ثمة أشخاص لا يعلمون هم بشأنهم، وإلا لن تظل منازل آمنة، ولا شبكة تعمل على العبور بالناس. على ذكر هذا، لقد أرسلتُ شابًا إلى والدتك قبيل عيد الميلاد، هل تراكِ صادفتِه؟ تساءلتُ بعد ذلك إذا ما كان تصرفي صائبًا، ليس الأمر أنني أشك فيه بأي شكل، فهو فتى جيد وله حماسة اللهب، لكن حماسته هذه تخرج عن السيطرة أحيانًا. لا أعتقد أن هذا أمر ذو بال، لكن بوسعك أن تذكّريه إن كتبتِ إلى والدتك، مع أني أظنه قد غادر بحلول هذا الوقت. كيف حالها بالمناسبة؟ أتمنى لو كان بوسعنا إخراج تومي من هناك، فوجوده لا يُحسن إليها على الإطلاق.

أكتب هذه الرسالة وأنا في السرير، وهو سرير كبير من النحاس الأصفر، مساحته شاسعة وله نوابض. الأمطار تقلب الدنيا في الخارج، والريح تعصف، كنتُ لأبذل كل شيء كي تكوني هنا برفقتي. قريبًا.

مع كامل حبي،
ماك

شعر پراير بالغرابة من قراءته لرسائل أصدقائه الخاصة، رغم أنها جميعها -باستثناء رسالة آلف وما تنطوي عليه من ذِكرٍ غير مناسبٍ للكلاب-

قد قُرئت جهرًا في أولد بيلي[1]. حتى أنشودة الأطفال الصغيرة الخاصة بهيتي كان لها وقْعٌ مدوٍ في جنبات القاعة رقم 1، إذ جادل النائب العام أنها تلمح إلى تورطها في المؤامرة. كلا، لم تبقَ أي خصوصية في هذه الرسائل، وهو لا ينتهك حرمة شيء مهم. ومع هذا، فيما تقدم القطار هادرًا داخل نفق وامتلأت العربة برائحة الدخان اللاذعة، التفت پراير ليواجه انعكاسه المزدوج في النافذة وفكر أنه ليس معجبًا بنفسه كثيرًا. كانت الرسالة الأخيرة هي التي شغَلَته: انكشاف رقةِ حبِ ماك لهيتي، في جلسة المحكمة المفتوحة أولًا، والآن من جديد أمامه هو.

لقد عثروا على هذه الرسالة في جيب تنورة هيتي حين ذهبوا إلى المدرسة لاعتقالها.

(1) أولد بيلي: المحكمة الجنائية المركزية في لندن. (المترجم)

8

كان هاري پراير يتجهز للخروج. ثمة قميص نظيف وُضِع ليجف على منشر الغسيل أمام المدفأة، فأضفى على الغرفة شيئًا من القتامة والبرودة. جلس بيلي پراير ووالدته إلى الطاولة، هي ترتدي مئزرًا، وهو قميصًا وحمّالتين، غير قادرَين على متابعة محادثتهما التي قوطِعت ولا على التكلم مع هاري. انحنى فوق حوض المغسلة، يفرك الرغوة على وجهه مغمغمًا بلغو الكلام ويقحم سبابتيه في أذنيه ثم يهزهما. ثم بعد أن غسل الصابون عن وجهه، وضع سبابةً على كل منخر بدوره وقذف كتلًا هائلةً من المخاط الأخضر في الحوض.

أحسَّ پراير بأمه -ومرفقه يلامس جنبَها- ترتعش بترفُّع، فطوّق كوب الشاي الساخن بأصابعه ورفعه إلى شفتيه مُخفِضًا أنفَه القصير داخله برهافةٍ وهو يشرب. كم مرة تعيّن عليه طفلًا أن يحضر هذا المشهد المتوتر غير اللازم، مشاركًا أمَه قرفَها كما كان يشاركها خوفها من البرق. أما الآن، رَجُلًا، في هذه الغرفة بالغة الألفة -التي هرّأت خطواتُ قدميه بلاطَها وصقلَ مرفقاه طاولتها- خطر له أنه يستطيع رؤية هذا الصراع بإنصاف أكبر مما كان آنذاك. فالارتعاش بترفُّعٍ لمدة ثمانيةٍ وعشرين عامًا يتطلب مقدارًا هائلًا من العدوانية.

فكر أنه بات الآن قادرًا أن يتبين مساهمةَ أمه في المأسوية المشتركة، ورأى كيف تعمل الحساسيةُ النافرة لردة فعلها في الواقع على تغذية هذا العرض الوحشيّ. تذكّر صوتها الرقيق المتكلف ذا نبرة التوبيخ المتذمرة

يتدفق بلا انقطاع، حتى بعد وقت طويل من إيقاظ وقْع قدمَي أبيه المتعثرتين له مخضوضًا؛ كيف كان يجلس على الدرج وينصت كي يسمع، إلى أن تؤلمه عضلات أذنيه من الشد، منتظرًا أن تقول الشيء الوحيد الذي لن يستطيع الأبُ احتماله. ثم جرجرة خطوات هاربة، وصرخة مخنوقة، وهنا يكون قد قطع نصف الدرج، منصتًا ليتأكد إذا ما كانت صفعةً واحدة فحسب من ظهر يد أبيه تودي بأمه مترنحةً نحو الجدار، أم أنها واحدة من المرات العصيبة. هي لم تملك يومًا الرشد المطلوب كي تغلق *فمها*.

لكن في المقابل، فكر وحافة كوبه تحجب وجهه، يمكن للمرء أن يقول بالمثل إنها لم تكن يومًا جبانةً بما يكفي كي تمتنع عن قول ما يجول في بالها خوفًا من العواقب. سيكون من السهل كثيرًا -تحت ذريعة «الإنصاف» هذه- أن ينزلق أكثر من اللازم في الاتجاه الآخر ويلقي اللوم في مسألة العنف الذي يسود المنزل لا على وحشيته هو، بل على فشلها في ترويضها.

يتذكر براير نفسه في طفولته وهو يضرب راحة يده بقبضة الأخرى مرارًا وتكرارًا، قائلًا مع كل ارتطامة للحم باللحم: **خنزير، خنزير، خنزير، خنزير**. من الجليِّ أن محاولته الحالية لفهم زواج والديه أكثرُ نضجًا ورشدًا وإدراكًا وحساسيةً ونفاذ بصيرة -وقائمة من الصفات الأخرى أطول من أن يتسع صبر المرء لتعدادها- من «**خنزير، خنزير، خنزير، خنزير**»، بيد أنه لم يقنَع بها، لأنها كذبة أيضًا هي الأخرى: طريقة لادعاء أنه «فوق المعركة». وهو ليس فوقها، بل إنه منتوجها. هو وهي -قوتان من قوى الطبيعة مجردتان من كل السجايا الشخصية تقريبًا- ينقضان على بعضهما بالمخالب في كل خلية من خلايا جسده، وسيظلان يفعلان هذا إلى أن يموت. «إنهما يتشاجران ويتشاجران دون استراحة على تخوم صدري»[1]، قال في قرارته، وأنا طفح كيلي من هذا.

(1) البيت من قصيدة للشاعر الإنجليزي ألفريد إدوارد هاوسمان (1859-1936)، بتصرف بسيط من المصدر. مع الإشارة إلى أن ضمير المثنى اعتُمد في العربية كي يناسب السياق. (المترجم)

كان أبوه قد ارتدى معطفه واعتمر قبعته الآن، ووقف متأهبًا للخروج ينظر إليهما بابتسامة قاسية جافة كالمطاط المشدود، وهما معًا -كما كانا دائمًا- ينتظران ذهابه. «سأراكما إذًا»، قال.

على عكس معظم المنازل، ليس من عادات هذا المنزل أن يخرج الأب والابن لتناول المشاريب معًا.

«متى ستعود؟»، سألته الأم كدأبها.

«في حدود الحادية عشرة، لا تنتظريني».

إنها تنتظر كل مرة. أوه، كانت لتتذرع بحجج مثل تخفيف لهب المدفأة أو تجهيز طعوم الصيد من أجل الغد أو ترتيب الطاولة أو ملء قدر الماء، لكن كلها مهام كان يمكن إنجازها في وقت سابق. حاول پراير -وقد أخفض عينيه ينظر إلى كوبه مرةً أخرى- ألا يسأل نفسه كم من المشاهد العنيفة كان يمكن تجنُّبها لو أن أمه قبلت بما يقوله أبوه ببساطة وخلدت إلى السرير. مئات؟ أم ولا واحد أصلًا؟ الرجل الذي يتحدث الآن بكل هذا اللين والمراعاة ما كان ليتوانى عن جرها من السرير كي تخدمه، حين يعود مترنحًا من الحانة وقد أفرغ غالونًا وبعضَ غالون في جوفه.

دعك من هذا، قال لنفسه، *دعك من هذا.*

بعد مغادرة أبيه، تابع پراير جلوسه مع أمه إلى الطاولة ريثما ينهيان شرب الشاي. لم تأتِ على ذكر فرنسا أو كريغلوكهارت قط، بدت تريد تجاهل كل شيء حدث له مذ غادر المنزل، وكان هذا مستفزًّا ومريحًا في آنٍ معًا. سأل عن أحوال الفتيان الذين كان يعرفهم في المدرسة، فهذا مات وذاك أصيب، وإيدي ويلسون فرَّ من الجندية. إنه يتذكر إيدي، أليس كذلك؟ قالت له إن الجرائد تتحدث عن فارِّين جدد كل أسبوع، والشرطي الذي وجد إيدي ويلسون مختبئًا داخل غرفة تخزين الفحم في بيت أمه كوفئ بمبلغ خمسة شلنات.

«لقد نشرت الصحيفةُ رسالةً ذلك الأسبوع»، قالت: «من الأب ماكنزي. تتذكره، أليس كذلك؟».

أحضرت صحيفة الأسبوع السابق وناولته إياها. قرأ الرسالة، في سره أولًا ثم جهرًا، متقمصًا ألفاظ الأب ماكنزي الشعائرية المنمقة بدقة خبيثة: ««قد يكون بينكم أشخاص غير مؤهلين لخدمة بلادهم، لأسباب تعود إلى إهمالكم المتعمَّد الذي يستحق اللوم لقوانين النمو البدنيّ، لكن...»، أوه، بحق المسيح!»، ألقى الصحيفة من يده: «بينهم *أشخاص* يستمرون بإهمالهم المتعمد الذي يستحق اللوم إلى حد إصابتهم بكساح الأطفال. إن كان هو يتمتع بنمو بدنيٍّ سليم فلأن أمه كانت قادرة على تحمُّل نفقات حشو جوفه بالطعام الجيد أربع مرات يوميًا». وربّاه كم كان يتمتع ببنية سليمة، قال پراير لنفسه وهو يتذكر الأب ماكنزي مرتديًا جواربه.

- الأمر فقط أنه يظن أن الكثير من الناس يتقلصون يا بيلي، لا بد من الاعتراف بصحة وجهة نظره.

- أتعرفين ما هو شرط الطول المطلوب لدى أفواج قصار القامة؟ خمسة *أقدام*. وهل تعلمين كم من رجال هذه المنطقة لا يحققون ذلك الشرط؟

- بيلي، أحيانًا تتكلم مثل أبيك بالضبط.

التقط الصحيفة وتظاهر بقراءتها.

- يدور الكثير من الحديث حول إضراب في مصانع الذخيرة، وأبوك يؤيد هذا بالكامل. حسنًا، هذا ليس مستغربًا منه، صحيح؟

- وما السبب؟

«لا أدري»، أخذت تبحث عن الكلمة غير المألوفة: «تقليص الأجور؟».

- يبدو أمرًا صائبًا.

- حسنًا، يمكنك أن تتخيل أباك، «بعض الفتيان يجنون مبالغ أكثر مني». «تذكري كلامي»، يقول: «بعد الحرب سيوظفون أيادي عاملة تعوزها المهارة. سوف تذهب الزوجة إلى العمل، ويقعد الرجل في البيت ليعتني بالأطفال. إنها نهاية الحِرَفية. ما هذه الحرب إلا حصان طروادة، غير أن الحماقة تُعمي أعينهم جميعًا عن رؤية ذلك».

كعهده الدائب، قال پراير في قرارته. مهما كان أبوه مصممًا على رفع مكانة الطبقة العاملة بمجملها، فهو يظل أكثر تصميمًا على تأكيد الفروق الموجودة ضمنها.

«أوه، كما أنه لا يحب أطقُم الأسنان، وهذا موضوع آخر»، تابعت أمه: «السيدة ثورپ حصلت على واحد كما تعلم. «عجوز هرمة تتصابى»، هكذا قال. لو سمعتَ كيف يتحدث عن أسنانها لظننت أنها عضته بها. ثم هنالك صندوق قمامة السيدة رايلي؛ معلبات لحم الكركند، أتصدق؟ «كانوا يبتهجون بكسرة خبزٍ مدهونة قبل الحرب»».

«فكرتُه عن الاشتراكية مضحكة».

رفعت كتفيها: «ما أدراني؟ ثمة أمور من مثل حقوق النساء، أشياء لم يؤيدها يومًا».

- لا.

- أتذكّره يتكلم على بيتي روپر دون توقف بهذا الخصوص.

سُكوت. «لقد ذهبتُ لرؤية بيتي».

بدا عليها الذهول: «في السجن؟».

- أجل.

- ما من سبب يدعوك إلى توريط نفسك في هذه الأمور.

أمام سورة الغضب المفاجئة هذه، أجابها: «أنا مضطر، فهذا عملي».

«أوه»، أومأت برأسها غير مصدقة بالكامل.

«كيف حال هيتي؟».

جمدت تعابير الأم: «لا أدري، فأنا لا أراها أبدًا».

لقد مرت فترة، حين كان في السابعة عشرة من عمره، «خرج» خلالها مع هيتي روپر. وفي هذا السياق تحديدًا، كان «التعبير قديم الطراز» دقيقًا على نحو مزعج. «الخروج» للمشي كان ما يفعلانه بالضبط، وكذلك الحديث بالطبع: حديث حار مشبوب العاطفة، عن الاشتراكية وحقوق المرأة، الروحانية، وأفكار إدوارد كارپنتر حول العلاقات الرفاقيّة بين الذكور، وإذا

ما كان يمكن أن يوجد شيء اسمه الحب الحر. تذكّر أحدَ الأيام على الشاطئ في فورمبي، حين كانا جالسَين بين الكثبان فيما السماء تعتم والشمس تتدلى خفيضةً فوق البحر. كان طوال اليوم يرغب في لمسها، ولم يجرؤ على ذلك. تباطأت الشمس، محمومةً منتفخة، ثم أراقت نفسها على وجه الماء. «هيا»، قال وهو يلتقط سترته: «يجدر أن نعود».

تلك الليلة، كما في ليالٍ كثيرة أخرى، كانت أمه تنتظره. على ركبتها كتاب مفتوح، لكنها لم تكلف نفسها عناء إضاءة مصباح الغاز. ثم انطلقت الأسئلة. أدرك آنذاك أنها تكره هيتي روپر، ولم يعرف سبب ذلك.

«أما زالت تدير المتجر؟»، سألها.

- لا جدوى، فلا أحد سيشتري شيئًا منها لو فعلت.

- هل تعمل؟



- ليس على حد علمي.

- إذًا كيف تعيش؟

رفعت كتفيها: «ما زالت تحصل على حصص المخصصات».

«كنتُ أفكر أن أمُرَّ وأراها».

صمت

مذكّرًا نفسه أنه لم يعد في السابعة عشرة، نهض پراير ووضع كوبه على المجلى. «لن أتأخر».

قبل الحرب، اعتادت النسوة أن يجلسن على عتبات منازلهن في الأمسيات الدافئة إلى ما بعد الظلام، فيؤجلن بذلك لحظة المواجهة المحتومة مع بق الفِراش الهائج، ويتنعمن بالشكل الوحيد من الاحتكاك الاجتماعيِّ الذي يمكنهن أن يستمتعن به دون خوف من الإدانة. إذ كانت المرأة التي تُشاهَد وهي تدردش مع جاراتها خلال النهار لا تلبث أن تشعر بوطأة استنكار العامة: «إيه، انظروا إلى السيدة ثورپ تلك. أحد عشر ولدًا. يظن المرء أن باستطاعتها إيجاد شيء تفعله، أليس كذلك؟». الآن، وهو يجوّل نظره على

طول الشارع، رأى پراير عتبات الأبواب خاوية. النساء يتحركن في الخارج، لكنهن يسِرن من أجل غاية محددة، كأن لديهن وجهة يقصدنها.

تصور أن اسم السيدة ثورپ هو تحديدًا الذي يخطر في البال لأنها كانت واحدةً من أنكى الآثمات، بصدر له بياض الدهن وحجم كرة القدم، وجورجي أو آلفي أو بوبي غارق فيه، يتوقف من آنٍ إلى آخر كي يأخذ سحبةً من عقب سيجارة. أو لعل اسمها خطر له لأنه قد ميزها بالفعل دون وعيٍ منه، فها هي ذي قادمة نحوه، مجردةً من القبقاب والوشاح اللذين لطالما رآها بهما، غيرَ مكتفية بارتداء معطف وقبعة، بل أيضًا جوارب طويلة لحمية اللون وحذاء. من المستبعد جدًّا أن تكون المرأة الجذابة التي برفقتها هي السيدة رايلي، لكنه لم يعرف من عساها تكون غيرها.

حيَّتاه بهتافات مبتهجة، ثم عانقتاه وقبَّلتاه ووقفتا تمنحانه ابتسامتيهما المدهشتين. تنتشر مقولة في هذه الأنحاء: «مقابل كل طفل يولد تفقد الأم إحدى أسنانها». وبالتأكيد كانت السيدة ثورپ والسيدة رايلي -قبل الحرب- تُعلنان عن خصوبتهما كلما فتحتا فميهما، والآن حلَّ هذا البياض المشرق المتناسق محلَّ الفراغات والقُرَم المسودَّة. «لماذا أسنانك بيضاء يا جدتي؟»، قال.

«كي أستطيع التهامك بها»، قالت السيدة رايلي: «ومن تنادي بـ «جدتي»؟».

سألته السيدة ثورپ: «كم من الوقت لديك يا عزيزي؟»، ثم أردفت قبل أن يتسنى له وقت للإجابة: «إيه، يا لشناعتنا، لا نكف عن طرح هذا السؤال».

- يومان.

- طيب، استمتع بهما إلى الحد الأقصى. لا تفعل أي شيء لا نفعله نحن.

ابتسم: «وما النشاطات التي تظل أمامي في هذه الحال؟».

«العديد منها، هذه الأيام»، قالت السيدة رايلي.

تذكَّر على حين غرة أنه قد رضع من أثداء هاتين المرأتين كلتيهما. لقد مرت أمه بتوعك شديد لمدة شهرين بعد ولادته، وكان يتغذى على معلبات الحليب المكثف من متجر الزاوية الصغير، الحليب نفسه الذي يمزجه البالغون

مع الشاي. كان الرضّع في هذا الشارع يتغذون عليه بانتظام، والرضّع الذين يتغذون عليه يموتون بانتظام. ثم ظهرت السيدة ثورپ والسيدة رايلي آنذاك، وكانتا تبدوان -كما يظن- فتاتين شابتين نابضتين بالحياة تضم كلٌّ منهما مولودها الأول إلى صدرها. تناوبتا على تغذيته، وبذلك أنقذتا حياته على الأرجح. إنه يعرف هذه المعلومة منذ وقت طويل، غير أنها -بطريقة ما- لم تكن *ذات شأن* حين كانت السيدتان رزمتين عديمتَي الشكل تحت وشاحيهما. لكنه الآن، رغم كونه لا يرتبك بسهولة، أحس أن وجنتيه بدأتا تتوردان.

«انظري إلى هذا»، قالت السيدة رايلي: «إنه يتودد إلى إحداهن، يمكنني أن أميز هذه الأمور دائمًا».

«أهذا صحيح بالفعل؟»، سألته السيدة ثورپ.

«أجل. اسمها سارا، سارا لام».

«يا له من اسم قوي الوقْع»، قالت السيدة رايلي.

«وهي فتاة قوية الوقْع».

«ربما ينبغي لها أن تكون كذلك»، قالت السيدة رايلي وهي تنظر إليه من أعلى إلى أسفل متأملة: «أترغب بشراب؟».

- كلا. أود ذلك، لكن عليَّ أن أقابل أحدهم.

- حسنًا، إن غيرت رأيك ستجدنا في حانة روز أند كراون.

ثم مضتا في سبيلهما تقهقهان مبتهجتين. امرأتان متزوجتان خارجتان لتناول الشراب معًا، أمر غير متعارف عليه، بل وفي حانة أبيه أيضًا. لا عجب أن يظن الوغدُ العجوز أن أوان هرمجدون قد حل.

تابع پراير طريقه، ملاحظًا علامات رخاء مستجد في كل مكان. قد تكون اللحوم نادرة، والخبز رماديًا، بيد أن المنطقة مزدهرة رغم كل هذا. ثمة جزء منه مسرور، بل مبتهج حتى. «بعض الفتيان يجنون مبالغ أكثر مني»؟ جيد. معلبات لحم الكركند في صندوق قمامة السيدة رايلي؟ جيد. كان ليدفع أي ثمن مقابل أن يكون مسرورًا ببساطة دون التباس ولا ريب، لكنه يمر بالكثير الكثير من المنازل التي على نوافذها بطاقات مؤطَّرة بلون أسود، ويستطيع أن يتصور وجهًا لكلٍ اسم مكتوب على هذه البطاقات. بدت له الشوارع ملأى

بالأشباح، أشباح رمادية أهزلها الجوع لا يمكن إرضاؤها، تتدافع بالمناكب على الأرصفة، وتنتظر خارج المنازل التي ازدهرت في غيابها. تخيل نارًا تضطرم، وإطار نافذة يهتز، وبابًا ينزلق مفتوحًا، ثم شخصًا يقول: «الريح تشتد، أتشعر بالتيار؟» ويغلق الباب بسرعة.

تلاشى التورد الذي شعر به في أثناء تحدُّثه مع السيدة ثورپ والسيدة رايلي. انسل في الزقاق الخلفيِّ بين شارعَي مارش ستريت وغلادستون تراس، متجهًا نحو تايت ستريت ومتجر بيتي روپر، رحلة خاضها أكثر من ألف مرة في طفولته ومراهقته وشبابه، بيد أنه الآن يتحرك بسكونٍ فوق الحصى، شاعرًا أنه غير مرئيٍّ تقريبًا. هو لا ينتمي إلى الحياة المحيطة به أكثر مما تفعل هذه الأشباح العائدة.

خرج إلى ناصية شارع هوپ ستريت وراح يسير فيه. هذا الشارع يمتد بموازاة القناة، ويُعرَف -ولا غرابة- باسم شارع «الأمل المعدوم»[1]، لأن سكانه ينقلون أنفسهم بخفةٍ من الأمل إلى انعدامه. أو هذا ما كانوا يفعلونه قبل الحرب على الأقل؛ حالات الانتحار نادرة الآن، فالحرب قد روَّحت عن الجميع.

في منتصف المسافة، عند زاوية تقاطع هوپ ستريت مع تايت ستريت، يقع متجر بيتي، ونوافذه مغلقة بالألواح الخشبية. أخذ يطرق الباب بقوة.

«لن يفتح لك أحد يا عزيزي»، قالت امرأة تعبر الطريق. انتظر حتى انعطفت من الزاوية، ثم جثا ونظر من فتحة الرسائل. لقد أزيلت المناضد، والأرضية ممسوحة ونظيفة. نادى قائلًا: «هيتي. هذا أنا، بيلي». كان الباب المفضي إلى غرفة المعيشة مفتوحًا، وأحسَّ أنها تسمعه: «هيتي، هذا أنا».

جاءت أخيرًا، وانحنت في الجانب المقابل من الباب لتتأكد أنه بمفرده. سُمِع الكثير من خشخشة الأقفال والسلاسل، ثم إذا بها واقفة هناك، امرأة نحيلةٌ داكنةٌ ظاهرة الانفعال، أكبر سنًّا مما يتذكر. لم تعد جميلة.

- بيلي.
- لقد ذهبتُ لرؤية والدتك.
- أجل، كتبتْ إليَّ.

---

(1) «هوپ ستريت» تعني «شارع الأمل» في الإنجليزية. (المترجم)

ترددٌ طويل، أنبأه على الفور بما أراد أن يعرفه. نزع قبعته وتقدم إلى الأمام، وبالتزامن تقريبًا تنحَّت جانبًا وقالت: «تفضل».

كانت غرفة المعيشة فارغة، والبابان -واحد يفضي إلى المطبخ الصغير والآخر إلى الدرج- مغلقان كلاهما. أخذ وقته ينظر في أنحاء الغرفة؛ نارٌ متقدة في المدفأة وقدر الماء على الموقد بجانبها، وما زالت الطاولة بغطائها الأخضر تحتل معظم المساحة، وحولها تتوزع ستة كراسٍ شاغرة بأناقة. تبعت هيتي اتجاه نظرته، فرأى كيف عادت التغييرات التي تعودتْها -الكراسي الشاغرة- لتصبح غريبة من جديد، بل ولا تُطاق إذ رأتها بعينيه. «أوه، بيلي»، قالت ذلك ولم تلبث حتى صارت بين ذراعيه تبكي.

عانقها ورفعها عن قدميها، وراح يهدهدها في حضنه. لم يحررها من العناق ويتركها على الأرض إلا بعد أن همد نشيجُها. لامست أصابعُها المفرودة الحزامَ والإبزيم والأزرار والعُرى والنجوم، كل الملحقات التي تمقتها. قال سريعًا: «أرى أن تيبس ما زال لديكِ».

قط مخطط بدين يستلقي متكومًا على نفسه فوق البساط، والوجه السفلي الشاحب لذقنه مكشوف. هبَّت روائح شبحية لبول القطط وزيت القطران من المتجر.

«أجل»، قالت وهي تضحك وتتنشق: «بات يبول على كل شيء».

كانت ضحكتها بمنزلة إقرار بمخزون الذكريات المشتركة. حمدًا لله، قال براير في قرارته وهو يسحب أحد الكراسي ويجلس عليه.

أحضرت الإبريق وبدأت تعد الشاي: «كيف حال أمي؟ هي تقول إنها على ما يرام».

- نحيلة، لكنها تأكل. لقد أوقفت إضرابها عن الطعام.
- إممم. منذ متى؟ أخبرتها أنه لا يجدر بها فعل ذلك، لكنها قالت: «كيف أقنعهم إن لم أفعل؟».
- هل ذهبتِ لرؤيتها؟
- سأذهب الأسبوع القادم. فهمتُ أنك صاحب الفضل في ذلك؟
- لقد تركتُ توصية.

صبَّت الشاي: «كيف أصبحتَ في منصب يسمح لك بترك توصية؟».

- حصلتُ على وظيفة في الوزارة، هذا كل شيء. لم يقبلوا أن يعيدوا إرسالي بسبب الربو.

- لكن ما عملك؟

ضحك: «نفس العمل الذي كنتُ أمارسه قبل الحرب بالضبط، أُمرِّر الأوراق فوق مكتب. بيد أنني استطعت أن أضع يدي على ملف أمك -عن طريق سيدة شابة في الأرشيف- ثم رأيتُ أن أذهب لمقابلتها».

- ودبرت دخولك إلى السجن *بالحيلة*؟

- ليس تمامًا، كانت معي مذكرة من وزارة الذخيرة، إنها كفيلة بتأمين دخولي إلى أي مكان.

- ها! أتمنى لو كان *لدينا* مثلها.

لقد صدقته، كما سبق لوالدتها أن صدقت سپراغ ذات مرة. إنها جالسة عند رأس الطاولة، على كرسي أمها، وتفعل ذلك -دون شك- لأنه يجعل غياب أمها أقل سطوعًا، وهو يكاد يجزم أنه جالس في نفس مكان جلوس سپراغ. نقل نظره نحو منضدة الزينة، وبالطبع وجد صورة ويليام هناك.

رأته هيتي ينظر إليها، فمدت يدها خلف ظهرها. «لا أظنك رأيت هذه الصورة، أليس كذلك؟»، قالت وناولته إياها.

كان ويليام يتكئ على جدار حجريٍّ، عاقدًا ذراعيه دون إحكام، وكان يبتسم، لكن الابتسامة أصبحت متكلفة فيما كان المصور يعبث بآلة تصويره. كما كان يضع مشبكَي بنطال[1]. كُتِب على الوجه الخلفيِّ بقلم رصاص «مايو 1913». خطر لپراير أنه يعرف ذلك المكان، لقد ذهبوا إلى هناك معًا، ثلاثتهم. خلف الجدار، يحتجب منحدر حاد لا تُظهِره الصورة، مكسوٌّ بالعليق والسرخس، مملوء بالأرانب التي تنتشر فضلاتُها الكروية اللامعة في كل مكان.

(1) مشابك البنطال: أطواق معدنية رقيقة تُرتدى حول الكاحل عند قيادة الدراجة، كيلا يعلق البنطال بالجنزير أو ذراع التدوير. (المترجم)

«لماذا يبدو أن زمنًا طويلًا جدًا قد مضى؟»، قال وهو يرفع الصورة أمامه. دون ازدواجية واعية (لكن ليس دون إدراك)، كان يتلمس طريقه باحثًا عن نبرة صداقتهما ما قبل الحرب.

ضحكت، صيحة خشنة لم تبدُ معهودةً من هيتي التي يعرفها.

«لكن الأمر يبدو كذلك فعلًا، لا؟»، ألحَّ: «أقصد، يبدو وقتًا أطول مما هو في الواقع. أتعلمين؟ كنت أفكر في هذا خلال طريقي إلى هنا. خطر لي...»، سحب نفسًا عميقًا: «لو كان المرء يكتب عن شيء من قبيل... أوه، لا أدري، المَرافق، أو ظهور السكك الحديدية، لن يجعل الشخصيات تقف وتقول...»، وضع يده على جبهته يمثل المشهد: ««أوه.. يا إلهي، إننا نحيا في فترة تشهد تغيرات اجتماعية سريعة للغاية، أليس كذلك؟» لأن لا أحد يصدق أن الناس سيكونون بهذا... *الإدراك*. لكن ها نحن أولاء، نعيش في فترة مشابهة، والجميع مدرك لذلك غاية الإدراك. لم أسمع شيئًا آخر مذ عدت. لا أتحدث عن الكلمات الفعلية بالطبع، بل عن *الإدراك*. ورحت أتساءل إذا ما كانت ثمة فترات يصبح الناس خلالها واعين لما يحدث بالفعل، فينظرون إلى ذواتهم اللاواعية السالفة ويبدو كأن ذلك كان قبل عقود كاملة، كما لو في حياة أخرى».

«أجل، أظن أنك على حق»، فكرت لحظة: «لقد ذهبتُ إلى لندن قبل بضعة أشهر، لأقابل واحدة من صديقات حركة حق الاقتراع القلائل اللاتي ما زلن يُرِدن معرفتي. وكنا جالستَين في منزلها، وبدأت غارةٌ، حتى إننا سمعنا الشظايا تتساقط على الأشجار، وهل تعلم أن الصوت بدا مثل صوت المطر بالضبط؟ وهي كانت... معتدّة *بنفسها* للغاية. شعر قصير، سروال يبلغ الركبة، وتقود سيارة إسعاف، كل الأمور التي ما كان ليُسمَح لها أن تفعلها ولو بعد مليون عام. وفجأةً قبضت على يدي وقالت: «هيتي، بالنسبة إلى النساء، اليوم هو أول يوم في تاريخ العالم»».

«وآخر يوم بالنسبة إلى كثير من الرجال».

اكفهر وجهها: «لا تُصدِّع رأسي بهذا الكلام يا بيلي، *أنا* مُناصِرة السلام بيننا، تذكر هذا».

- على الأقل حصلتِ على حق الاقتراع.

- كلا، لم أحصل عليه. أنا لم أبلغ الثلاثين. وأمي لم تحصل عليه، فهي في السجن، ويني كذلك، للسبب نفسه. وويليام هو الآخر، لقد سُلِب حقه في الاقتراع لأنه معارض للخدمة. لذا في ما يتعلق بالاقتراع، فقد زادت هذه العائلة شخصًا آخر محرومًا من حقه مقارنةً بما قبل الحرب.

«أين ويليام؟»، قال پراير وهو ينظر إلى الصورة من جديد.

«في دارتمور. إنه يخضع لبرنامج وزارة الداخلية، ينفّذ «أعمالًا مفيدة غير مرتبطة بالحرب»»، شخرت: «تكسير الحجارة».

- يفاجئني قبوله بذلك.

- ما كنت لتُفاجَأ لو رأيتَه، إنه نحيل بحيث لن تتعرف عليه.

- لقد كان مايك ريوردان بين أفراد فصيلتي. أتذكرين مايك؟ لم أتعرف عليه هو الآخر، الفرق أن السبب في حالته هو أن وجهه كان مفقودًا.

- ليس الأمر منافسةً يا بيلي.

- صحيح، معك حق.

لمست كُمَّه: «أتمنى لو كنا في الجانب نفسه».

«حسنًا، نحن في الجانب نفسه في ما يتعلق بأمك. بالتأكيد لستِ تظنينني في صف سپراغ؟».

تغير التعبير على وجهها: «أوه، ذلك الرجل. أتعرف؟ لقد قابلتُه مرةً واحدة، بضع دقائق لا أكثر، وكنت موقنةً أن فيه خطبًا».

«أما كنتِ على علمٍ بموضوع السم؟».

«كلا، لقد أخفتْ عني كل ذلك. أتمنى لو أنها لم تفعل، لكنتُ أخبرتُها أن من الحماقة الوثوق به. وذلك الوغد ذو الابتسامة المغرورة في أولد بيلي. لقد كان الأمر مريعًا يا بيلي؛ يوقِفونك في قفص الاتهام فتشعر أنك مذنب، رغم معرفتك أنك لم تقترف الجريمة. ظللتُ طيلة شهور بعد ذلك أشعر أن الناس لا يرونني»، توقفت: «هيا، اشرب الشاي قبل أن يبرد».

«كيف تتدبرين أمورك؟».

«لا أعدم الوسيلة. والدك يحضر لي بعض اللحم من آنٍ إلى آخر. لا تتفاجأ يا بيلي»، سكوت: «وسأقول لك من أيضًا يحسن معاملتي، السيدة رايلي. كلما خبزت تحضر لي شيئًا ما. لعله مجرد نصف دستة من الكعك القاسي، لكن كل كسرةٍ مهما قلت تشكّل عونًا لي. أما الأخريات فلا فضل لهن عليَّ، لم يقدمن شيئًا سوى بضعة أحجار رمينها على النافذة. أتعلم؟ ما يثير غضبي هو الطريقة التي كُنَّ يتجاهلن بها أمي في الشارع، كأنهن لا يرينها. لكن ما إن يقعن في مشكلة، هن أو إحدى بناتهن، حتى يجئن ويطرقن الباب الخلفيَّ باليدين. كنت أقول لها: «يا لحماقتك يا أمي، لماذا تغامرين بالحبس من أجلهن؟»، فيكون ردها من قبيل: «أوه، لا بد أنها كانت تملك أسبابًا في المرة الماضية»، أو «الطفلة المسكينة، لم تتجاوز السابعة عشرة»، وتنفذ لهن طلباتهن. وكل هذا ورد ذكره في المحاكمة، فكما تعلم، قتل طفلٍ مضى على بداية حمل أمه شهران يُعتبر جريمة رهيبة، لكن إن انتظرتَ عشرين عامًا ونسفتَ رأس هذا الطفل نفسه لا حرج عليك».

أجفل پراير وهو يفكر كم غريب أن تخرج هكذا كلمات بهذه السهولة من فمها، وألا تدرك الذكريات التي يستحضرها فيه كلامها.

«ماذا عن ماك؟ هل ترينه؟».

اكتسى وجهها بعلامات الحذر: «لا».

- أبدًا؟

- أنت تعلم تمامًا يا بيلي، إنه لا يجرؤ على القدوم إلى هنا.

استند پراير إلى ظهر الكرسي. «أعرف أنه لا يمكن أن يظل بعيدًا»، انتظر: «أظن أنني سمعتُ أحدًا للتو».

اتجهت عيناها إلى باب المطبخ.

- سمعتُ أحدًا يسير ذهابًا وإيابًا.

- إنه منزل مضطرب. عليك أن تتذكر أن أمي كانت تقيم جلسات استحضار أرواح هنا، في هذه الغرفة.

- أنت لا تؤمنين بهذه الأشياء.

- أعرف أن أمي لم تكن دجالة، هناك شيء كان يحدث. هل كانت قوة حاجة الناس وحدها أم أكثر؟ لا أعرف، لكن مرت ليالٍ كانت هذه الطاولة تهتز فيها. هذه الأمور تغير من طبيعة المكان، أجلس هنا وحدي في بعض الليالي فأسمع وقْع أقدام تسير حول الطاولة مرارًا.

كانت بصيرته تصور له بوضوحٍ مفزعٍ الشكلَ الذي لا بد أن حياتها تتخذه، وحدها في هذا المنزل، مع الكراسي الشاغرة والنوافذ المغلقة بالألواح. لم يتفاجأ من كونها تسمع وقْع أقدام تدور حول الطاولة.

«بالحديث عن ماك»، قال وشعر بها تتخشب: «كنت أفكر أن أعرج لمقابلة أمه. لا أظنه ما زال يراها، أليس كذلك؟».

«هذه فكرة جيدة يا بيلي. كنت لأذهب عن طيب خاطر، لكنني أشك أن ترحب بزيارتي. في الواقع، أشك أن تدعوني كي أدخل».

«كلا، ليزي إنسانة وطنية عظيمة»، كان يبتسم لنفسه: «أتعلمين؟ لقد صادفتُها في زيارتي الأخيرة. حسنًا...»، ضحك: «بل تعثرتُ بها بالأحرى. أتعرفين الزقاق خلف حانة روز أند كراون؟ قالت لي إنها تستريح لا أكثر، أنهضتُها على قدميها فلم تلبث أن نظرت إلى الزي حتى قالت: «حمدًا لله، رجل شريف»، ثم أخرجت كل ما في جعبتها من كلام. حسب قولها، لقد قدمت خدماتها إلى سبعة رجال مجانًا يوم اندلاع الحرب لأنهم كانوا عائدين توًا من مكتب التجنيد. هكذا *قالوا*. ثم تابعت: «وهل تعلم؟ خمسة منهم كانوا ما زالوا يتجولون بملابس مدنية بعد عام». قالت إنها وبخت والي سميث على ذلك، فقال: «هم لم يسمحوا لي بالالتحاق بسبب أسناني»، فأجابته ليزي: «ما الذي يريدون منك أن تفعله بحق الجحيم؟ أن تعض أولئك الملاعين؟»».

بدا على هيتي عدم ارتياح شديد. وبما أنها أبعد ما يكون عن التزمت، لم يخطر له إلا أن تكون قصةُ ليزي وبادرتها السخية في الرابع من أغسطس[1] مؤلمةً للشخص الموجود على الجانب الآخر من باب المطبخ. عنّ له أن يقول: «أوه، بربك يا ماك، كُف عن التغابي»، لكنه لم يجرؤ أن يجازف. الأفضل أن يقول ما عنده أولًا، ثم يتركهما وحدهما ليتحدثا في الأمر.

---

(1) تاريخ دخول بريطانيا العظمى في الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

«أود أن أقابل ماك يا هيتي».

«وأنا أيضًا»، ردت مباشرةً: «لكن هيهات».

- كلا، أقصد أنني أحتاج حقًّا أن أراه. إن كنت سأفعل أي شيء من أجل أمك، فعليّ أن أتحدث إليه أولًا. إنه...

- هو لم يكن يعرف شيئًا عن ذلك.

- صحيح، لكنه كان يعرف سپراغ. سپراغ كان برفقته في الليلة التي سبقت قدومه إلى هنا، هو الذي أعطى سپراغ العنوان.

- أتظن أنه لا يعلم هذا؟ لقد تسبب سپراغ في القبض على الكثير الكثير من الأشخاص يا بيلي، كانت بحوزته *رسائل*.

- أعلم. أنا لست... لست *ألقي اللوم* على ماك، أريد التحدث إليه وحسب، فقد يتذكر شيئًا يساعدنا. كما ترين، لو استطعنا إثبات أن سپراغ تصرف كعميل *محرض* مع شخص آخر -أو حتى حاول أن يفعل- سيكون من شأن ذلك أن يساعد على تكذيب الدليل الذي يملكه في قضية أمك.

ألقت نظرة سريعة على باب المطبخ: «أعرف شخصًا يصادف ماك من آنٍ إلى آخر، سأرى إذا كنت أستطيع أن أوصل رسالة إليه».

«هذا كل ما أطلبه»، نهض واقفًا: «والآن يحسن بي أن أغادر».

لم تحاول استبقاءه. وعند الباب، توقف وقال بصوت عالٍ: «أفكر أن أذهب لأتمشى قرب حظائر الماشية. أفكر أن أذهب إلى هناك الآن».

رفعت عينيها نحوه: «ليلة سعيدة يا بيلي».

9

لم يكن الغسق قد حلَّ تمامًا حين وصل پراير إلى حظائر الماشية، التي تكون خالية في هذا الوقت من الأسبوع لذا تُترَك دون حراسة. إن كان ماك يفكر في القدوم أساسًا فسينتظر حلول الظلام، لذا أمام پراير وقتٌ يمضيه. أشعل لفافة تبغ وراح يتمشى جيئةً وذهابًا، متذكرًا طعم لفافته الأولى -التي قدمها له ماك- والجهودَ البطولية التي بذلها كيلا يتقيأ.

وقف لبعض الوقت، ممسكًا بيديه المعدن البارد لإحدى الحظائر. كان يستدعي بذاكرته فترةً مرض فيها -واحدةً من فترات عديدة- وخرج وراح يجوب الشوارع، إذ لم يكن قد استعاد صحته بما يكفي للعودة إلى المدرسة بعد لكنه ضجر من القعود في المنزل. كان يومًا حارًا، وهو متلفع بثياب ثقيلة، وشاح يخز عنقه ولبخة[1] مشدودة إلى صدره. الحرارة تنعكس عن الأرصفة وتجلد وجهه فيما هو يجرجر قدميه ويمضي، وأمامه تتحرك ساقاه البيضاوان اللتان أهزلتهما ملازمة الفراش فصارتا بنحول العصي، فيما تتصاعد رائحة نبات الوينترغرين[2] داخل منخريه. اسمُها يستحضر إلى مخيلته أشجارَ الصنوبر والتلالَ التي يغطيها الثلج، والإحساس الذي ينتاب

---

(1) اللبخة: خِرْقة يُجْعل فيها دواءٌ كالمرهم توضَع حارة أو باردة على مكان الألم لِتُسَكِّنَه. (المترجم)

(2) الوينترغرين: مجموعة من النباتات العطرية التي تكون خضراء طوال فصل الشتاء، والاسم إنجليزي يشير إلى صفة اخضرارها الشتوي هذه. (المترجم)

المرء تحت الأغطية حين يدس ساقيه داخل جزء بارد من سريره بعيدًا عن الرطوبة الدبقة.

سمع وقْع أظلافها قبل أن يراها، وتوقف -كما يفعل الجميع- ليتفرج على الشارع الرئيسيّ يمتلئ بالماشية وهي تُساق إلى المسلخ. رائحة روث ساخن. الغبار يرتفع حوله من كل مكان، فيدخل رئتيه ويجعله يسعل ويتنخع بلغمًا أخضر لزجًا. تراجع مبتعدًا عن الجلبة والهَوشة، وراح يركض في زقاق خلفيٍّ بين الجدران الداكنة العالية، ثم أدرك -كما لو كان في كابوس- أن هنالك بقرة تتبعه بقوائم زَلِقةٍ وعينين محدقتين، وخلفها رجال يطاردونها. جاء المزيد من الرجال يركضون من النهاية الأخرى للزقاق. حاصروها مغلِقين عليها من الجانبين، فزلت البهيمة الخائفة في روثها الأخضر وسقطت، وألقوا حولها شِباكًا سوداء ثقيلة وجروها نحو القطيع من جديد، فيما خرجت ربّات البيوت اللاتي اتسخ غسيلهن النظيف من أفنيتهن الخلفية على طول الزقاق فجأةً ووقفن يصحن ملوِّحات بأذرعهن.

لحظة سقوط الشِباك، جوَّل پراير نظره بين الأجساد الهائجة والمائجة التي تدير ظهورها له فرأى صبيًّا في سنه تقريبًا، يقف ملتصقًا بالجدار، والشعر الأسود الكث يحجب نصف وجهه الأبيض الساكن. ماك.

لم يبارحه منظرُ البقرة داخل الشباك. كثيرًا ما كان يراها في منامه ليلًا فيستيقظ ويحدق مستلقيًا إلى الظلام الذي يلف المكان. في بعض الأحيان يكون الضوء قد انبلج حين يستيقظ، فيتسلل على الدرج خائفًا من العودة إلى النوم، ويفتح الباب بهدوء منسلًّا إلى الشوارع الخاوية المفعمة برائحة الفجر. الشخص الوحيد الذي يُصادَف في تلك الساعة هو الموقِظة، امرأة عجوز لها ظهر محنيٌّ وخصل بيضاء منفلتة من وشاح صوف أسود، تنتقل من منزل إلى آخر لتنقر على النوافذ العلوية بواسطة عصاها الطويلة، وتنتظر الجواب النعسان أو النكِد ثم تتابع طريقها. وإذ ساقته قدماه خلفها، وجد طريقه نحو حظائر الماشية، ونحو أعمق صداقة شهدتها طفولتُه.

ترك الحظائر الآن وسار إلى داخل العنبر ذي السقف المرتفع، الذي كان شاسعًا مثل كاتدرائية، يتردد الصدى في جنباته. راح يسير جيئةً وذهابًا، الارتفاع الشاهق يقزم قامتَه، وهو يتخيل المكان كما كان... وكما ما يزال غالبًا،

إن زاره المرء في الوقت المناسب من الأسبوع. تذكَّر خشخشةَ حبات المطر على سقف الحديد المموج، وتخيلها تنهمر كما حدث في أول ليلة قضاها هنا مع ماك. نظر حوله، فامتلأت المَرابط الخالية بالماشية المذعورة، وتواثبت ظلالٌ ضخمة لقرونٍ مضطربة في أنحاء السقف فيما الحراس يتحركون هنا وهناك حاملين القناديل، ليتوثقوا أن الحيوانات المتزاحمة لا تختنق حتى الموت. إن اختنقت قبل أن تُذبَح، لا يعود لحمها مناسبًا للاستهلاك البشريّ، رغم أنه يجد طريقه إلى السوق تحت اسم «لحم البردسة»، في متاجر لا يرتادها سوى المُعدمين. لم يكن هذا اللحم يعود بأرباح تُذكَر، لذا إن ظهرت المعاناة على أحد الحيوانات وبدا موشكًا على الموت يوقِظ الحراسُ الجزارَ ليأتي ويُجهِز عليه. يُفترض بهؤلاء الحراس أن يلتزموا بالمناوبة طوال الليل، لكن بما أنهم يغيبون لفترات طويلة على طريق رعاة المواشي فهم يرغبون بطبيعة الحال أن يناموا مع زوجاتهم أو صاحباتهم، وهنا يأتي دور ماك. لقد حصل على الوظيفة بموجب اتفاقٍ فرعيٍّ مقابل بنس في الليلة، وكان يجيد عمله. بوسعه أن يهدئ البقرة، حتى بعد أن تكون قد شمت رائحة دم، إلى درجة أن تدر الحليب داخل زجاجة ليموناضة. يكاد پراير يراه أمامه الآن، يحشر نفسه في حائط من اللحم المتعرق، وينزلق فوق الروث الأخضر الذي لطالما كانت له رائحة الرعب، ويبدأ بالملاطفة والهمس والتربيت، دافنًا رأسه في جنب البقرة، ثم يعود مزهوًا بنصره يحمل الحليب الدافئ. كانا يتجرعانه من الزجاجة، جالسَين جنبًا إلى جنب فوق بالات القش المرصوفة في إحدى زوايا العنبر، ثم -ببطء وترف مثل رجال أعمال يتلذذون بصنف فاخر من السيجار الكوبيّ- يدخنان الأعقاب التي يكون ماك قد التقطها من الشوارع.

سار پراير إلى بالات القش وجلس، لفافة تبغه كوكبٌ دُريٌّ صغير يتألق في الظلام، إذ كان الليل يرخي سدوله بسرعة. بالكاد يستطيع أن يرى المسمار في الجدار، الذي كان دائمًا هدف تسديدهما في مباريات التبول. ومن هذا المسمار، انتقل بخياله إلى ملعب المدرسة. لديه الكثير من الذكريات في ذلك الملعب مع ماك، وفي الصف أيضًا، إلا أن قلةً منها فقط ذكريات سعيدة. كان ماك وسِخًا والقمل يغزو شعره، ينتعل حذاءً رجاليًا، ويرتدي معطفًا يبلغ كُماه رؤوسَ أصابعه، ويتعرض دائمًا للضرب. وكما يفعل الأطفال، افترض پراير أول الأمر أن ماك يتعرض للضرب أكثر من الآخرين لأنه شقيٌّ أكثر

منهم، أما الآن فهو يميل إلى اعتقاد أن الجزء القيم *الوحيد* من التعليم الذي تلقاه في تلك المدرسة الرديئة كان اكتشافَه أن هذا ليس صحيحًا. مهنة ليزي كانت معروفة. وفي زيارتها الوحيدة للمدرسة، كان نطقها ثقيلًا وراحت ترفع صوتها في الممر، الجميع تفرج عليها من نوافذ الصفوف، وكان اهتزاز الريش الذي يزين قبعتها يعبِّر عن نقمتها بمختلف درجاتها. لا شك أنها جاءت تحتج بسبب إفراطهم في ضرب ماك. إن صح ذلك، فالزيارة لم تُجدِ نفعًا، إذ تعرض للضرب من جديد حالما غادرت. پراير يتذكر كل ذلك الضرب، ويتذكر الضغط المؤلم للمشاعر التي كانت تنتابه: خوف، شفقة، غضب، إثارة، متعة. تساءل الآن إن كانت تلك المتعة جنسيةً كما يتذكرها. على الأرجح ليست كذلك.

بعد إحدى هذه المرات، جلس پراير مستندًا بظهره إلى الدرابزين الفاصل بين ملعب الصبيان وملعب البنات، يلتهم شطيرة ويراقب ماك. كان ماك يركض في أنحاء الملعب حاملًا جو سميلز على ظهره، مترنحًا تحت وزنه، ويداه القذرتان ببراجمهما المتقرحة تطوقان فخذَي جو سميلز الورديتين البدينتين. لقد كان ماك حصانًا مأجورًا يحمل الصِّبية الآخرين في جولات على ظهره مقابل فتات خبزهم أو لب تفاحهم. ليزي لم تكن فقيرة، حسب مفهوم حيِّهم عن الفقر، لكن الشرب كان يُبقيها في اختلالٍ يمنعها عن توفير وجبات منتظمة. ما أرّقَ پراير هذه المرة، ما جعل عينيه لا تتركان وجه ماك وهو يترنح جيئة وذهابًا، كان معرفتَه أنه يستحق الضرب هو نفسه مثلما يستحقه ماك، لكنه ينجو لكونه نظيفًا ومرتبًا وحسن الهندام، ومرشحًا لحصد منحة دراسية تعود على المدرسة بسمعةٍ تحتاج إليها أمسَّ الحاجة. راح يقضم من شطيرته الثانية، يفكر ويمضغ ويغص. وفجأةً ركض يقطع الملعب، ودفع ما تبقى من الشطيرة بين يدَي ماك، ثم طفرت الدموع من عينيه وجرى مبتعدًا.

من يحتاج إلى ماركس حين يكون لديه مدرسة تايت ستريت ذات الإدارة الأهلية؟ سأل پراير نفسه وهو يطفئ لفافته بحذر بين شرائط القش الذهبية. نهض على قدميه، وهو ما يزال مستغرقًا في ذكريات الماضي، وأخذ يمشي جيئةً وذهابًا. لقد طلع القمر، كان ضوؤه ساطعًا بما يكفي ليلقي بظل پراير على طول الأرضية. فطن إلى وجود ماك على شكل ظلٍّ يكبر بجانب ظله، ثم لمسةِ يدٍ على كتفه، وصوتٍ خفيف يسأله بمرح: «هل أفهم أنك اعتليتها؟».

استدار پراير: «ما الذي يجعلك تقول هذا؟».

- كل ما قلتَه عن «حمدًا لله، رجل شريف» وما شابه، لا أعرف ما يمكن أن يعنيه كلامك غير ذلك.

- لكن هل يمكن أن يبدر مثل هذا التصرف مني أنا؟

- لا أدري. قبل الحرب، كنتَ لتضاجع بقرةً في الحقل لو ضمنت وقوفَها ساكنة من أجلك.

بل وثورًا أيضًا. «ماك، أقسم لك...».

«أوه، انسَ الأمر. لو كنتُ أتحسس من هذا الموضوع لانفلقتُ منذ سنوات»، قال ماك مبتسمًا. كانت هذه مزحة تقريبًا، لكن ليس تمامًا.

قال پراير: «هل نجلس؟».

جلسا على بالتَي قشّ تفصل بينهما بضعة أقدام، وراح سيل الذكريات يجمعهما ويفرقهما. يمكنهما أن يبصرا، عن طريق ضوء القمر والوهج المتقطع للفافات التبغ، بوضوح كافٍ كي يحكم واحدهما على التعبيرات التي تعلو وجهَ الآخر.

«إذًا أنت الذي كنت في المطبخ بالفعل»، قال پراير: «هذا ما ظننتُه».

«لماذا؟ من عساه يكون غيري؟».

تردد پراير: «خشيتُ أن يكون وغدًا مسكينًا مذعورًا هاربًا من الخدمة، خشيتُ أن...».

- وماذا كنتَ لتفعل؟

- أسلّمه.

نظر ماك إليه بفضول: «رغم كونه «وغدًا مسكينًا مذعورًا»؟».

- أجل. ماذا عن الأوغاد المساكين المذعورين الذين لا يهربون من الخدمة؟

- حسنًا، نحن على الأقل نعرف في أي جانب نصطف.

- لا أريد أن أبدأ كلامي برواية مجموعةٍ من الأكاذيب عليك.

ضحك ماك: «لقد رويتَ على هيثي بعضًا منها. تلك الفتاة في الأرشيف، التي أمّنت لك الملفات التي أردتَها. رباه يا بيلي، لا بد أنك تروق لها».

«قل ما عندك يا ماك».

«حسنًا، سأقول. يخطر لي أنك -لا بد- مجندٌ جيد للغاية، *بالنسبة إليهم*. نظرًا إلى رتبتك ولهجة الطبقة العليا التي تجيدها، إضافةً إلى...»، أشار ماك إلى صدره بنوع من الكياسة الساخرة: «أصدقائك *الوضعاء*. فليْلَة تكون في قاعة طعام الضباط، والتالية في أزقة سالفورد الخلفية. وتكون منتميًا إليهما على حدٍّ سواء، أو...»، ابتسمَ مستمتعًا بحميمية قدرتِه على الجرح: «غريبًا عنهما على حدٍّ سواء».

«في حين أنك *أنت* بالطبع الابن البار للبروليتاريا المُحبة؟ حسنًا، دعني أخبرك يا ماك، القسم الذي أكافحه من أبناء البروليتاريا -وهو الغالبية العظمى- لن يتوانى عن شنقك على أقرب عمود إنارة لعين دون أن يفكر مرتين. أما عن عمال الذخيرة المضربين خاصتك...»، هز پراير سبابته وهو يحركها أمامه نحو كل جهات العنبر مقلدًا صوت الرشاش.

سادت لحظة من الصمت والصدمة، كما لو أن الحركة الطفولية قد خلّفت مجزرةً حقيقية.

«ولا تظنَّن أنهم لن يُقدِموا على هذا، لأنهم سيفعلون. *أنا أعرفهم*».

قال ماك: «يفاجئني أن تشعر بكل هذه المتعة من فكرة إطلاق العمال النارَ على بعضهم».

«ليست متعة يا ماك، أنا أواجه الواقع لا أكثر»، أخرج پراير دورقًا من جيب سترته ومد يده: «خذ، سيساعدك على ابتلاع الفكرة».

فضَّ ماك الغطاء وشرب، وراحت عيناه ترمشان دامعتَين، ثم أعاد الدورق دون أن يمسح عنقه. بعد لحظة من التردد، شرب پراير وهو يفكر أن هذا الطقس المقدس أجوف لا معنى له. ثمة عمر كامل يفصلهما عن الحليب الذي شرباه داخل زجاجات ليموناضة دون أن يمسحا أعناقها.

«لم تفسر لي بعد»، قال ماك.

«عن الملفات؟ أنا أعمل في وحدة المخابرات».

صدرت عن ماك حركة لا إرادية طفيفة.

«لو صح ما تفكر فيه لكانوا هنا بحلول هذا الوقت».

ابتسم ماك: «لا بد أنه شعور لطيف حقًا، أن تضع قدمًا في كلٍّ من جانبَي السياج، ما دمتَ لستَ تمانع ما يحدث لخصيتيك بسبب ذلك».

- خصيتاي على ما يرام يا ماك، اقلقْ على خصيتيك أنت.

- أوه، فهمت. كنت أتساءل متى ستقول هذا. *الرجال* هم من يقاتلون، أهذا هو الأمر؟

- كلا. أنا أتفهم الشجاعة التي يتطلبها أن تكون مناصرًا للسلام، أو أظن أن الأمر يتطلب شجاعةً على الأقل. كما ترى، مشكلتي أنني لا أعرف ما تعنيه الشجاعة. لا أستطيع أن أتذكر أي شيء عن المرة الوحيدة التي فعلتُ فيها شيئًا يمتُّ بصلةٍ ولو بعيدة إلى الشجاعة. الأمر يشبه قليلًا أولئك الرجال الذين يسحقون رؤوس زوجاتهم بواسطة عصا مدفأة: «انطفأ كل شيءٍ في عينيَّ يا سيدي القاضي».

أومأ ماك برأسه: «حسنًا، بما أنك تتكلم بصراحة، أظن أن ثمة الكثير من الهراء الذي يقال عما تتطلبه مناصرة السلام من شجاعة. حين رُحِّلتُ من منطقة نهر كلايد، جاؤوا في طلبي منتصف الليل. كنتُ أحلم بشقراء حسناء لها نهدان كبيران جميلان، ثم بعد دقيقة رفعتُ رأسي لأرى ستة رجال شرطة يحملون هراوات كبيرة جميلة. على أي حال، أخذوني إلى المخفر وبدؤوا يدفعونني، واحد يمررني إلى الآخر، يصفعونني بجمع راحة اليد. وكانوا يبتسمون جميعهم، ابتسامات متوترة. وكنت أعلم ما هم بصدده، كنت أعلم أنهم يعملون على زيادة انفعالهم. مفاجئٌ كمُّ الانفعال الذي يحتاج إليه الرجل المتوسط قبل أن يُقدِم على فعلٍ عنيف *حقًا*. حسنًا، لا بد أنك على دراية بهذا».

«أجل»، قال پراير بوجهٍ خالٍ من التعابير.

«كنت أتغوط على نفسي، ثم فكرت: حسنًا، هم لن يُعموك، ولن يُقحموا قطعًا كبيرة قذرة من المعدن الساخن في عمودك الفقري، ولن ينسفوا لك هامة رأسك برصاصة، ولن يبتروا ذراعيك وساقيك دون مخدر، لذا ما الذي يُقلقك بحق اللعنة؟ لو أنك في فرنسا كنت ستواجه كل ذلك. وبالطبع، ثمة دائمًا السؤال الذي لا جواب له: هل كنت *لتستطيع* مواجهة هذه الأمور؟ هل كنت *لتجتاز الاختبار*؟ لكن نقطة الاختلاف بيننا وفقًا لرأيي، يا بيلي، تكمن في أنك تراه *سؤالًا* شديد *الأهمية*، في حين أراه أنا تافهًا لا قيمة له».

نظر براير إليه بطرف عينه: «كلا، أنت لا تراه كذلك».

- حسنًا، لا أراه كذلك.

- يمكن دائمًا قول إنك تُظهِر شجاعةً *أخلاقية*.

- ما من شيء كهذا. الأمر يشبه المحاكمةَ بالنزال[1] بعض الشيء، كما في القرون الوسطى. ففي نهاية المطاف، يجب إثبات الحقائق الأخلاقية والسياسية *بالجسد*، لأن كتلة الأعصاب والعضلات والدماء هذه هي نحن.

- إنها فكرة خطيرة للغاية، فهي قريبة جدًّا من أن نقول إن الاستعداد للمعاناة يُثبت صحة المعتقَد. لكن هذا غير صحيح، فأقصى ما يمكن إثباته بهذه الطريقة هو إخلاص صاحب المعتقَد وصدقُه. كما أنها ليست قاعدة دائمة، فبعض الناس يحبون المعاناة وحسب.

كان ماك يجوّل نظره في أنحاء العنبر، وقال: «لا أظنني أحب المعاناة»، لكن بدا أنه تعب من النقاش، أو لعل الويسكي قد بدأ يطرّي مزاجه: «كثيرًا ما أفكر في تلك الأيام».

أمهله براير ثم قال: «بوسعك أن تثق بي كما تعلم».

- لقد وثقتُ بسپراغ.

- ليس سپراغ من كنتَ تشاركه مباريات تبوُّل.

- أوه، هكذا هو الأمر إذًا؟ أخوّة في *البول*؟

ضحك برايو: «شيء من هذا القبيل».

صمتٌ طويل. «ماذا تريد؟».

«أريدك أن تحدثني عن سپراغ».

صدرت عن ماك ضحكة مخنوقة: «بحق الجحيم، إنه موظفكم».

- لم يعد كذلك، فالمحاكمة أماطت عنه اللثام.

---

(1) المحاكمة بالنزال: أسلوب كان متبعًا في القانون الجرماني لحسم التهم في غياب الشهود أو الاعتراف، إذ يُقام نزال واحد بين الطرفين المختصمَين، ويُعتبر الفائز فيه على حق. (المترجم)

- جيد.

- كان برفقتك، أليس كذلك؟ في الليلة السابقة.

- أنا الذي أرسلته إلى هناك.

ماك يشعر أن هذا لا يطاق دون شك، قال پراير في قرارته. إنه مدين لآل روپر بكل شيء. لولا بيتي، لكان ولدًا مُهمَلًا يأكله الجرب والقمل، بالكاد يمكنه أن يقرأ ويكتب، لا يصلح سوى لطريق رعاة المواشي والمسلخ. لقد أخذته بيتي تحت جناحها. وبحلول ربيعه الثالث عشر، بات يعيش معها أكثر مما مع أمه، فما إن كف الفتية الكبار في شلة الحارة عن التخمين بشأن الجنس وبدؤوا يصعدون سلمَ ليزي بحثًا عن معلومات أكثر واقعية حتى صار ماك يجد منزله لا يطاق. لقد غاب عن الأنظار تمامًا لمدة، فسلك طريق الرعاة ذات صيف، وعاد أكبر سنًا وأشد صلابة، يحيط بفمه وعينيه أولُ آثار النزعة التشاؤمية والجمود. ثم تولت بيتي المسؤولية. «ما خطبك بحق الجحيم؟»، سألته: «أنت تجيد القراءة، أليس كذلك؟ مجرد كون المدرسين يظنونك غبيًا لا يعني أنك غبي، فبعضهم هم أنفسهم ليسوا شديدي الذكاء. خذ، اقرأ هذا. لا، هيا، *اقرأه*. أريد أن أعرف فيما تفكر».

«لقد كان يسعى خلفك أنت، أليس كذلك؟»، سأله پراير.

- بلى.

- أتظن أنها كانت تنوي قتلَ لويد جورج؟

- لا. أنت تعرف بيتي، إذا عثرتْ على عنكبوت في حوض المغسلة تحمله على قطعة ورق جريدة وتضعه في الفناء.

- إممم. لكنني أتساءل ماذا عساها أن تفعل إن عثرت على لويد جورج في حوض المغسلة.

- ستفتح الحنفية اللعينة.

نظرا إلى بعضهما وانفجرا بالضحك.

- اسمع، *إن* كان هنالك أي شيء من هذا القبيل، فالفكرة جاءت من سپراغ. وأظن أن مساعدة الناس على الفرار من مركز اعتقال تبدو خيارًا صائبًا. كما أن سپراغ كان قد جرب ذلك من قبل.

- مع من؟

- تشارلي غريفز، جو هاسويل. لقد عرض عليهما مواد متفجرة من أجل تفجير مصنع ذخيرة، قال إنه يعرف من أين يستطيع الحصول على بعضٍ منها. طيب، حبًّا بالله، المواد المتفجرة لا توجد ملقاةً على الأرصفة، أليس كذلك؟ وحالما رفضا، بدأ يتراجع وادعى أنه لم يقصد ما قاله.

- ومع ذلك أرسلتَه إلى بيتي؟

- هذا *إدراك* متأخر يا رجل، وهو حاضر في ذهني *الآن* بسبب ما حدث. أما آنذاك فكل ما قلته لنفسي هو: «يا إلهي، إنه مجنون آخر».

- أتستطيع جعلهما يكتبان هذا الكلام؟ مع التواريخ إن أمكن.

- أنا لا أعرف مكانهما أصلًا.

- هذا من أجل بيتي يا ماك.

أفلت ماك زفيرًا حادًّا: «لماذا تريده؟».

- من أجل تكذيب سپراغ طبعًا.

- لن يعيدوا فتح القضية.

- ليس علانيةً، لكنهم قد يطلقون سراحها، دون جلبة. سوف تموت هناك يا ماك، يستحيل أن تصمد عشر سنين.

صمتٌ راكد.

- لستُ أطلب أن يورطا نفسيهما، كل ما عليهما فعله هو أن يقولا: «لقد عرض علينا مواد متفجرة ورفضنا».

- وتظن أن كلامهما سيلقى تصديقًا؟

- أظن أن الفرصة أكبر مما في بالك. هنالك أسئلة كثيرة تُطرَح عن طريقة استعمال الجواسيس في مصانع الذخيرة، فبعضهم يجيدون بدء الإضرابات أكثر منك يا ماك.

«حسنًا»، نهض ماك واقفًا: «سيستغرق الأمر بضعة أسابيع».

- كل هذه المدة؟

- قلت لك، لا أعرف مكانهما.

- كيف يمكنني أن أتواصل معك؟

ضحك ماك: «لا يمكنك بأي شكل. هات، أعطني عنوانك».

أخرج براير المفكرة وقلم الرصاص وخربش: «اتفقنا؟».

«لا تكتب إلى هيتي، فالبريد يُفتَح. وثمة شيء آخر بعد»، اقترب ماك كثيرًا، ووضع يديه بكامل ثقلهما على كتفَي براير: «إن كان هذا فخًّا يا بيلي، فأنت في عداد الموتى. أنا لستُ من الكويكرز، ضع هذا حلقةً في أذنك».

ازداد الضغط على كتفيه لحظة، ثم استدار ماك ومضى بخطوات واسعة.

قرر براير أن يسلك الطريق المختصر إلى المنزل عبر حقول القرميد[1]. لطالما ذكّرته رقعة الأرض اليباب هذه بفرنسا؛ أحواض تجميع تعكس ضوءًا باهتًا نحو السماء، عشب طويل ينحني أمام الريح، قطع صدئة من المخلفات المعدنية، نفايات كريهة الرائحة، هيكل سرير حديدي يحمل نفسه على قوائم يأكلها الصدأ، وشكلٌ أسود مُسنَّن -تَظهر خطوطه الخارجية أمام خلفية الأفق- كان ليقوم مقام نقطة علامٍ في جولات الخفر.

إحدى النقاط -الكثيرة- التي كانت تُشعِره بالاختلاف عن إخوته الضباط هي أن إنجلترا *الخاصة* بهم كانت مكانًا ريفيًّا؛ حقول، جداول، وديان شَجراء، كنائس قروسطية تحيط بها أشجار دردار عتيقة. ما كانوا ليستوعبوا أن الجبهة، بنظامها الميكانيكي واختزالِها الفردَ إلى ترسٍ ضمن ماكينة والخرابِ الذي يعم منظرها، لم تكن -بالنسبة إليه وإلى الغالبية العظمى من الرجال- نقيضًا للحياة التي عرفوها في الوطن، في برمنغهام أو مانشستر أو غلاسكو أو قرى مناجم الفحم الويلزية، بل كانت كابوسًا يبلغ ذروته. «غريبٌ عنهما على حدٍّ سواء»، هكذا قال له ماك، وكان محقًّا.

---

(1) حقل القرميد: رقعة من الأرض تُزال تربتها السطحية ثم يؤخذ طينها ويُمزج مع الطبشور والرماد لصنع القرميد. (المترجم)

تلبّث برايز لبعض الوقت، يستمع إلى شوشرة الليل، متذكرًا أماسي طفولته التي قضاها جالسًا على الدرج وقد تعذر عليه النوم، حتى يجيء والدُه فيخلد إلى السرير متوثقًا أن أمه في مأمن. المحركات تهدر وتكحكح وتصفر وتهسهس، والشاحنات تمضي متنقلةً بين المسارات فترتطم مصداتها ببعضها مُحدِثةً رنينًا، وعلى بُعد بضعة شوارع يبدأ سكران بالغناء: «قرب الجدول طاحونةٌ قديمة يا نيلي دين».

يحسن به أن يعود، فهو أصلًا أمضى في الخارج مدةً أطول بكثير مما كان ينوي. بدأ يسير بسرعة عبر حقول القرميد، وبينما هو يمضي بخطوات واسعة واثقة إذا به يسقط، بل ينزلق بالأحرى، على منحدر حاد إلى داخل ظلام مطبق. مستلقيًا على ظهره في قعر الحفرة الموحل، رأى الأعشاب الطويلة تلوح أمام السماء. لم يُصِبه أذىً، لكن أنفاسه انخطفت. وبالتدريج، هدأ خبط قلبه. بدت النجوم أشد سطوعًا من مكانه هنا، كما كانت تبدو من داخل الخنادق. مد يده يبحث عما يتمسك به، فصادفت أصابعُه التائهة حافةً ناتئة. راح يربت عليها، ثم تجمد. إنها منصة تصويب[1]. هذا غير ممكن، لكنها كذلك. محاصَرًا بالتَوَهان والخوف، تابع التلمس بيده فصادف حفرة، ثم أخرى بجانبها، ثم أخرى: حجيرات جانبية[2]، حُفِرت داخل الطين. إنه في خندق. حتى فيما الذهول آخذ بتلابيب ذهنه، كان يتقصى مفتشًا عن تفسير. الصبيان يلعبون هنا، شِللُ الحارات، لا بد أنهم ظلوا يحفرون شهورًا حتى يبلغوا هذا العمق. لكن من المحتمل أن يكون عمر هذا الخندق سنوات، مثل الخنادق الحقيقية، ربما. تسلق خارجًا، ليطل على ما اشتبه أن يكون المنطقة المحرمة، وهناك -هو متأكد بما فيه الكفاية- توجد خطوط العدو.

---

(1) منصة التصويب: درجة تقام عند الجانب الأمامي من الخندق العسكري ليقف الجنود عليها ويطلقوا النار من فوق المتراس. (المترجم)

(2) الحجيرات الجانبية: حُفَرٌ كانت تُحدَث في جدران الخنادق، ويستخدمها الجنود للنوم في أثناء المطر بعد سد مدخلها بمشمع واقٍ من الماء، بيد أن بعض الضباط منع ذلك لخطورته. (المترجم)

تابع المسير بحذرٍ أكبر الآن، مبتسمًا لنفسه، يمانع الاعتراف بعمق الصدمة التي خلّفها فيه هذا الحادث العجيب، ووصل إلى الدرابزين القائم في الجانب القصيّ. كان يرتعد، وتعيَّن عليه أن يتمسك بالدرابزين ليثبت نفسه.

لقد جعلته الصدمة متمردًا، فقرر في النهاية ألا يتوجه إلى المنزل مباشرةً. إن حضوره في هذه الشجارات الصغيرة المقيتة بين والديه لا يجديهما أي نفع، ويعود عليه بقدر كبير من الأذية. حان الوقت كي يضع حدًّا لذلك. سيذهب إلى الحانة. لكن أي حانة؟ طريقه إلى المنزل يمر بحانة روز أند كراون، التي كان بابها النحاسيُّ الأصفر يومض جيئةً وذهابًا، مفلتًا بانفتاحه المتكرر هبّات قوية من الهواء الدافئ المفعم برائحة الجعة. سوف يدخل، سيفعل ما يفعله بقية الرجال العائدين في إجازة: يثمل وينسى.

استقبله جوٌّ يخنقه الدفء البشريُّ، حارٌّ إلى درجة أنه أحسَّ وخزًا خفيفًا في بشرة أنفه مع انفتاح مسامها. وقف ينظر حوله في الوجوه المتوردة الضاحكة، وانتبه إلى السيدة ثورپ والسيدة رايلي وسط ثلة ضخمة من النسوة الأخريات في الركن البعيد. قرر أنه يجدر به دعوتهما إلى شراب على حسابه، فلطالما قدمتا له الكثير من الشراب في أيام عزهما. استقبلته صيحةُ ترحيبٍ لدى اقترابه، وانفتحت أمامه الزمرة الثملة بأكملها لتضمه بين ظهرانَيها.

بعد ساعتين، كان هاري پراير يشق دربه المتعثر نحو المنزل، محدقًا بإعجابٍ أعمش إلى بدر التمام، الذي يعتلي كبد السماء الصافية بكامل سموه البديع. توقف على الجسر الممتد فوق القناة ليتبول سريعًا ويستمتع بالمنظر. كان القمر منعكسًا على وجه الماء، فأطل ينظر إليه فيما انبثقت نافورة من البول الساخن وارتطمت بالجدار قبل أن تسيل بين الحصى على نحوٍ يبعث الرضا، وتعجب لماذا تتمايل هذه الصورة المنعكسة متذبذبةً إلى أعلى وأسفل. رفع رأسه ليتأكد أن القمر الحقيقيَّ يحسن التصرف، ثم أمعن التحديق أكثر إلى انعكاسه.

هذا ليس القمر اللعين أبدًا، إنها مؤخرة. رباه، هذا الفتى غارق حتى أذنيه في ما يفعله. عنَّ لهاري أن يهتف مشجعًا إياه، بيد أنه قال لنفسه: لا، الأفضل ألا أفعل. يُمكن للمرء بكل سهولة أن يظهر بمظهر المتلصص في حالة كهذه. انحنى أكثر إلى الأمام، ضاغطًا بجذعه على الغرانيت الخشن، وهو يتمنى لو

يستطيع أن يرى المزيد. كل ما يمكنه رؤيته من المرأة هو الركبتان. من عساه يرغب بحق الجحيم أن يتفرج على ردفَي ذكرٍ يتمايلان إلى أعلى وأسفل؟ كُرَتا الغولف اللعينتان. ومع ذلك، ولا نصف لمحة من الأشياء المنشودة. الوغد يعرف مقصده ولا يحيد، وركبتاها هي كأنهما ملتصقتان بغِراء. فرك جذعَه بالجدار مستمدًّا المواساة، ثم تابع طريقه الأسيان هائمًا على وجهه.

«يوجد أحدٌ فوق الجسر».

التفت پراير، لكن لم يستطع أن يرى شيئًا. أصغى إلى وقْع الأقدام المتلاشي: «إنه ذاهب».

لقد توتر جسمُها وتشبثت به متأهبة، عليه أن يبدأ كلَ شيء من جديد. أخذ يقبّل فمها وأنفها وشعرها، ثم أخفض وجهه ببهجةٍ خالصة، وهو يشعر بكل تابوهات هذا البلد اللعين تتكسر فوق رأسه، وراح يرضع ثديَي السيدة رايلي.

القسم الثاني

10

عاد برايز إلى لندن ليجد أنفاس المدينة تضيق من الحرارة الدبقة الرطبة المتوعدة. كان الرائد لود أصعب مراسًا من أي وقت مضى، وليس بسبب الطقس وحده. ثمة محاولة تجري على قدم وساق لحصر طواقم المخابرات تحت سيطرة مكتب الحرب، ولود يحارب من أجل نجاة الوحدة. التخطيط للتغييرات يتم على مستوى رفيع، ولا يصل إلى برايز سوى النزر اليسير من المعلومات، لكنه يلاحظ أن شراسة لود تزداد بشكلٍ يوميٍّ؛ العينان الزرقاوان أكثر هشاشة، وحاجة الشارب تزداد إلى لمسات الحماية فيما تنهار إمبراطوريته حوله. من المقرر أن تُنقَل الملفات - «خلايا دماغ الوحدة» كما يسميها لود (ليكن الله في عون هذا الدماغ، قال برايز لنفسه)- إلى مكتب الحرب، وقد أُوكِلت مهمة «ترتيبها» قبل النقل إلى برايز. اعتبرها في البداية مجرد مهمة روتينية من مهام الوظيفة، ربما الهدف منها إبقاؤه في منأى عن المتاعب، لكن سرعان ما اتضح أن لود يريد أن تُحال «المواد الحساسة» إليه. بصياغة أخرى، ستُزال الأدلة التي تشير إلى أسوأ مآزق الوحدة. كان هذا العمل، رغم ضخامته (إذ تجاوز عدد الملفات الثمانمئة)، يناسب برايز كثيرًا، فهو يحل ما شكّل حتى الآن مشكلته الأساسية: كيفية الوصول إلى الملفات القديمة بقدرٍ يكفي لجمع إضبارة عن سبراغ.

كان مشغولًا، وسعيدًا ضمن المعقول، لكنه لا يشعر أنه في أفضل حال. ثم، بعد عودته بأربعة أيام، حدث شيء معكِّر.

لقد خرج لتناول الغداء في حانة قريبة، اشترى لنفسه باينتًا[1] من الجعة وفتح صحيفة *التايمز* -كعادته دائمًا- على قوائم خسائر الأرواح، فانقض الاسمُ عليه.

النقيب جيمس فريدريك هور، قُتِل في المعركة يوم الخامس من أبريل، أصغر أبناء عائلته...

جيمي هور. لقد التقيا في مضمار خيل، كلٌ منهما يدور في حلقة على صهوة حصانه، يداه متشابكتان خلف رأسه والركابان مربوطان أمامه، يحاولان تحقيق وضعية الامتطاء الصحيحة، التي تليق بالجنتلمان. كان پراير -الذي سبق له اختبار وقائع حرب الخنادق- يشعر بالغضب والتسلي، إلا أنه احتفظ بِرَدَّي الفعل كليهما لنفسه، إذ كان مقتنعًا أن لا أحد يستطيع تقدير بلاهة الموقف مثله، ولا سيما هذا المغفل خالي الوجه القادم على حصانه نحوه. لكن بعد ذلك، حين مرَّا ببعضهما، قابلت عينُه عينَ جيمي وأدرك أن وجهه لم يكن خاليًا على الإطلاق، بل متصلب في محاولة لكبتِ الضحك. لمحة التسلي المشتركة تلك كانت أكثر من قدرة جيمي على التحمل، فانفجر ضاحكًا وسقط عن صهوة حصانه.

راح پراير ينظر في أنحاء الحانة. رجال توحي مظاهرهم بيسر الحال يرتدون بدلات مقلمة ويتدافعون بالمناكب عند المشرب، يخشخشون بالقطع النقدية، ويمنحون الساقية الجميلة ذات الشعر الكستنائيِّ ابتساماتٍ سلسة. في حين أن جيمي ميت. كل ما كان الوغد المسكين يريد أن يفعله يومًا هو الزواج من... أيًا كان اسمها، والعمل في مصرف. ما كان پراير ليتمنى في هذه اللحظة سوى أن تقتحم دبابة المكان فتدك أبوابه وتهرس كل من فيه، كما كانت الدبابات أحيانًا تهرس الجرحى الذين لا يتمكنون من الابتعاد عن طريقها في الوقت المناسب. روَّعه عنفُ هذه التخيلات، إذ رأى أطرافًا مقطوعة وسمع صرخات.

لم يستطع أن يأكل، سيُنهي شرابه ويذهب. لكن حين رفع كأسه، التقطت الأضواءُ الكهرمانيةُ التي تتغامز داخل الجعة انتباهَه. ألقى ضوء الشمس، الذي

(1) الباينت: وحدة حجم تساوي ثُمن الغالون. (المترجم)

يتألق عبر الكأس، حلقةً من الوميض الذهبيّ على سطح الطاولة تتراقص كلما حرك يده. أخذ يلعب معها، مُحرِّكًا يده إلى الأمام والخلف.

ها هو خلف مكتبه من جديد. دون فاصل زمنيٍّ. قبل ثانية واحدة كان في الحانة، والآن هو جالس إلى مكتبه. نظر إلى الباب المغلق قبالته، رمش بعينيه وفكر: كان عليَّ أن أذهب وأنام. إنه يشعر بالاسترخاء، لكن دون إحساس الانسداد الذي يعقب قيلولة منتصف النهار. لقد كان يقرأ *التايمز*... جيمي هور *مات*. هو لا يتذكر مغادرته للحانة، لا بد أنه قطع كل مسافة العودة كمن يسير في حلم تام الأركان. نظر إلى ساعته، فناضل دماغُه كي يفهم معنى موضع العقربين. الرابعة وعشر دقائق.

انقضت ثلاث ساعات مذ أخذ استراحة الغداء، ومن كل هذه المدة بالكاد يستطيع تذكُّر عشرين أو ربما خمس وعشرين دقيقة، أما البقية فبياض فارغ.

أرغم نفسه على العمل حتى السادسة. ففي النهاية، لقد سبق له أن أنجز أعمالًا ورقية في فرنسا على طاولة ظلت تقفز عدة أقدام في الهواء، وهو قادر دون شك أن يتوصل إلى تجاهل تشويش بسيط كهذا. ومع ذلك، فيما أخذت الملفات تمر على مكتبه واحدًا تلو الآخر، كان يدرك -في مكان ما على أطراف وعيه- أن الأمر لم يكن «تشويشًا بسيطًا». ثمة شيء فاجع حدث.

بعد السادسة بقليل، ظن أنه سمع أصواتًا، فخرج من غرفته وسار عبر الدهليز قليلًا. كان الرائد لود وليونيل سپراغ غارقَين في حديث عند المصاعد. لم يكن ممكنًا سماع ما يقولانه، بيد أنه انتبه إلى أن لود صافح سپراغ بحرارة لدى وصول المصعد. انسل پراير عائدًا إلى غرفته، لكنه ترك الباب مفتوحًا.

كان يهم بفبركة استفسار صغير من شأنه أن يجلب لود إلى غرفته، غير أنه لم يحتج إلى ذلك في الواقع، إذ وجد لود واقفًا بالباب يبتسم. «لقد رأيتُ سپراغ للتو»، قال بصوته المشذب المتقطع: «ما الذي كنت تفعله به؟».

- أنا؟ لا شيء.

- يقول إنك عرضتَ عليه وظيفة.

- لم أعرض عليه شيئًا، أخشى أنه تفاؤل زائد.

«حسنًا، يبدو أنه يظنك فعلت دون شك. اضطررت أن أقول له أن لا وجود لشيء من ذلك القبيل، *إطلاقًا*». نظر لود إليه لحظةً، ثم قال في نغمة تهديد تليق بمربيات الأطفال: «إنه متحامل *عليك*».

ابن الحرام، قال پراير في قرارته إذ أغلق لود الباب وراءه، ليس ذنبي أن وحدتك اللعينة ستُغلَق.

بدأ الرعد يهدر في نحو الساعة السادسة، دمدمة متقطعة عند الأفق، رغم أن الشمس ظلت مشرقة. تابع پراير العمل نصف ساعة أخرى، ثم استسلم. إنه يعاني نوبات صداع شديدة منذ عودته إلى لندن ويعزوها إلى الطقس، رغم معرفته في الواقع أنها بدأت بعد سقوطه في خندق الأطفال. سوف يذهب لتناول الطعام في مكان معقول، ويدلل نفسه.

بدأ انهمارٌ مفاجئ لدى وصوله إلى عتبات المدخل الرئيسيٍّ، فنظر إلى الأعلى محاولًا تقدير كم سيستمر المطر. ثمة شمس بيضاء تلمع من خلف طبقة غيم رقيقة، لكن هنالك غيوم أكثر قتامة تتجمع فوق عمود نيلسون. صعد الدرج من جديد ليحضر معطفه الطويل، ولدى مروره أمام غرفة لود سمع صوتًا غير مألوف يقول: «أتظنه صدَّق ذلك؟».

أجاب لود: «أوه، أجل، فلا أرى ما يجعله لا يصدق».

تابع پراير السير إلى غرفته، ودس نفسه داخل المعطف الثقيل، ثم توجه عائدًا إلى المصعد الذي وصل فورًا على غير عادته مُصدِرًا الكثير من الجلبة بالأكبُل والباب. قال لنفسه إن ما من سبب يدعوه إلى ربط الحديث الذي تناهى إليه بشخصه هو، لكن كان من الصعب ألا يفعل. هكذا هو الجو السائد في الوحدة إلى حدٍّ ما، مكائد تقابلها مكائد، والعديد منها يبدو بلا مغزى. وقد استطاع حتى الآن أن يُبقي نفسه في معزل عن كل ذلك.

كانت محطة الأنفاق مكتظة، وأخذت تياراتٌ من الهواء الساخن القاحل تتحرك على صفحة وجهه فيما هو ينتظر على حافة الرصيف. ما كان بوسعه أن ينزع معطفه ويحمله فهذا محظور، وراح العرق يسيل على جنبيه. ألفى نفسه يتساءل إذا لم تكن ردة فعله مفرطة، إذا لم يكن مريضًا بحق. قرقعة تحت أرضية، ثم انبثق القطار خارجًا من النفق. عثر لنفسه على مقعد قرب الباب، وألقى نظرة سريعة على الفتاة بجانبه. كان شعرها منهكًا، ولعنقها

بياض مجعد منتفخ، ومع ذلك بدت جذابة في تنورتها المكرمشة وبلوزتها البيضاء. نظر إلى ياقتها، إلى الظل بين نهديها، ثم أرغم نفسه على الإشاحة برأسه. كان يجد هذا المظهر الأشعث لدى النساء جذابًا على نحوٍ مدهش. تناول طعامه في كافتيريا صغيرة ليست بعيدة عن قوس الرخام. لم تكن مبهجةً كما بدت له من الخارج: لقد كلحت الجدران وتحولت إلى لونٍ رمليٍّ شاحب، البخار المتكثف يسيل على النوافذ، وهبَّات الهواء المشبع بالبخار تندفع من الباب الدوار للمطبخ مع الحركة الصاخبة لدخول النادلات وخروجهن. أشعل لفافةً بعد الوجبة، وشرب كوبين من الشاي الساخن الحلو ذي اللون البرتقاليِّ وأقنع نفسه أنه يشعر بتحسن.

ثمة درج ملتوٍ يقود إلى شقته في القبو. صناديق قمامة جميع الشقق توضع في الفناء المسوَّر الصغير خارج نافذة غرفة معيشته، ورائحة الكرنب المتعفن تعلق في الهواء. في الليل، يسمع خشخشة وحفيفًا يحاول إقناع نفسه أن مصدرها القطط. وضع مفتاحه في القفل ودخل. الردهة مظلمة، لكن ليس فيها برودة. ألقى حقيبته الجلدية ومعطفه على كرسي، ثم سار عبر الممر إلى الحمام وهو ينزع ربطة عنقه، وهناك ملأ الحوض بالماء البارد واستجمع شجاعته كي يدخل. بدت بشرته تحت الماء منتفخة، ثم تشبث بطرفَي الحوض وأخفض رأسه تحت الماء.

خرج ولفَّ نفسه بمنشفة، ثم فتح النافذة الفرنسية المطلة على الفناء الصغير واستلقى فوق السرير. لم يكن فتح الشبابيك يُفيد في التنفيس عن الجو المخنوق، الطريقة الوحيدة لتحريك الجو في هذا المكان هي فتح النافذة الفرنسية والباب الأمامي معًا، لكن هذا يُفسِح المجال لدخول رائحة الكرنب أيضًا.

كان رأسه يؤلمه. التفت ونظر إلى صورة سارا بجانب سريره؛ إنها جالسة على العتبة السفلية لنُصُب تذكاريٍّ من نوعٍ ما، أصغر سنًّا، ممتلئة الجسم دون بدانة، وشعرها مُسرَّح إلى الأسفل بحيث يكاد يغطي جبهتها. كانت جميلة، لكنه يرى أن مظهرها بدا اعتياديًّا أكثر مما هو الآن، إذ باتت عظام وجنتيها أكثر بروزًا وصارت تسرح شعرها إلى الخلف فتظهر جبهتها العالية المدورة. ابتسامتها مختلفة أيضًا، إنها تبدو في الصورة ودية تشي بحسن

الظن على نحوٍ قريب من ابتسامة الجراء، أما الآن -رغم أنها ما تزال دافئة- فهي دائمًا تُبقي شيئًا ما لنفسها. هي قادمة لزيارته في وقتٍ ما خلال الأسابيع القليلة القادمة، أو على الأقل يبدو شبه مؤكد أنها ستفعل. إنه يخشى أن يعول على ذلك، يخشى أن يتصورها في الشقة، لمعرفته أنه إن فعل فالفراغ الذي سيهيمن عندما يخذله حضورُها المتخيَّل سيكون لا يطاق.

ما يحتاج إليه هو الخروج. إنه يحاول هذه الأيام أن يراوغ الكوابيس عن طريق الخروج في مشاوير طويلة على القدمين أول المساء ثم تناول ثلاث كؤوس كبيرة جدًّا من الويسكي قبل الخلود إلى السرير. لقد توصل على مضض إلى نتيجة أن ريڤرز كان محقًّا: الشراب المنوم لم يعد يؤدي عمله بعد الأسابيع القليلة الأولى، وما إن فقد تأثيره حتى عادت الكوابيس بقوة مضاعفة. مع المشي والويسكي، بات بوسعه على الأقل أن يضمن بضع ساعات طيبة قبل أن تبدأ الكوابيس.

جائبًا شوارع المدينة في مساء حار، بدا يشعر أن الأرصفة والمصاطب البيضاء الخالية تنفث في وجهه ما خزنته من حرارة النهار. مشاويره المفضلة كانت في حديقة هايد پارك؛ تعجبه الدكنة المغبرة تحت الأشجار، ووميض بحيرة السربينتين الذي يلوح من بعيد. هناك، قرب حافة الماء، ينضاف همس النسيم إلى ما سبق. توقف ليتفرج على بعض الأطفال يجذفون، ثلاث فتيات دسسنَ فساتينهن داخل سراويلهن، ثم حوّل انتباهه إلى فتاتين أكبر بكثير، تتجولان مقتربتين بذراعين متشابكتين، بيد أنهما قرأتا الجوعَ في عينيه بوضوح بالغ فحثتا خطاهما، ومضتا تتضاحكان.

شعر بالجَزَع، وهذه المرة لم يكن لجزعه علاقة بالجنس. كان ينتابه إحساس محدد وشديد الغرابة بالرغبة في أن يكون في مكانٍ ما، مكان معين على وجه الدقة، وبعدم معرفة هذا المكان. بدأ يسير باتجاه تمثال أخيل. كان هذا التمثال هدفًا متكررًا لمشاويره المسائية، لا لسبب محدد سوى أن فخامته البطولية تجذبه وتنفّره في آنٍ معًا. بدا يجسد نفس الإجلال الوطيد للشجاعة الذي يجده في «هجوم اللواء الخفيف»، قصيدة كانت تعني الكثير جدًّا له في صباه، وما زالت كذلك إلا أن ما تعنيه بات أكثر تعقيدًا إلى حدٍ بعيد. شخصَ

إلى القامة المندفعة الجبارة ترفع سيفها وترسها، وفكر -لمرة ليست الأولى- أنه ينظر إلى تجسيدٍ لقيَم فقدت صلاحيتها.

شعر بالامتعاض، كأنه كان يتوقع لمشواره أن ينتهي بشيء أكثر من لقائه الروتينيّ بأخيل، فاستدار يهم بالذهاب، ولاحظ رجلًا يحدق إليه من تحت ظلال الأشجار. حسنًا، من المتوقع أن يتعرض الشبان الذين يتسكعون في الحديقة عند الغسق للتحديق. راح يحث خطاه بتروٍّ، إلا أنه بدأ يشعر بوخز في مؤخر عنقه، وبعد لحظة سمع اسمه ينادى.

اتجه ليونيل سپراغ نحوه بتثاقل، منقطعَ الأنفاس، حزينَ النبرة. «إلى أين تذهب؟»، سأله.

«إلى المنزل».

في تلك اللحظة، تقدمت ثلةٌ من الشبان، خمسة أو ستة جنبًا إلى جنب، يسيرون مندفعين وقد شابكوا أذرعهم، ليتفرقوا حول سپراغ كما يتفرق نهر حول حجر، ثم تابعوا طريقهم. تبعهم شابان آخران يركضان ليلتحقا بهم، ودفعاه بالمرفق بعيدًا عن طريقهما. مستغلًا هذا الاضطراب، سار پراير مبتعدًا.

«مهلًا، انتظر»، اقترب سپراغ والغيظ يعتمل داخله: «لا يمكنك أن تدير ظهرك وتمضي هكذا».

«لمَ لا؟».

نقر سپراغ على ساعة يده: «أخيل، الساعة التاسعة».

«إذًا؟».

بدا سپراغ متحيرًا بصدق: «لمَ تحدد موعدًا إن كنت لا تريد أن تتحدث؟».

كان پراير قد بدأ يشعر بالخوف: «لقد خرجتُ كي أتمشى».

- جئتَ كي تراني.

- حقًّا؟ لا أظن ذلك.

«أنت تعرف أن هذا صحيح»، حدق إلى پراير: «أي تصرُّف! لقد قلتَ: «لا أستطيع التحدث الآن. تمثال أخيل، الساعة التاسعة». ما المغزى من إنكار الأمر؟ قل لي، *ما المغزى*؟».

كانت رائحة سپراغ كريهة، قميصه قذر وعلى وجهه نبت شعرٌ لم يُحلَق منذ ثلاثة أيام. لقد كان يشرب لتوه، فعيناه محتقنتان بالدم، بيد *أن الحيرة صادقة.*

قال پراير: «حسنًا، أنا هنا الآن على كل حال. ماذا تريد؟».

- لو أنك لم تأتِ لذهبتُ إلى منزلك.

- لا تعلم أين أسكن.

- بلى، لقد تبعتك إلى منزلك.

ضحك پراير ضحكةً مثل نباح ذاهل.

«كنت خلفك على رصيف المحطة، وجلستُ على بُعد ثلاثة مقاعد منك في القطار»، أشار سپراغ إلى صدغه بإصبع تهتز: «يجدر بك أن تنتبه إلى هذا، إنها الخطوة الأولى نحو مستشفى المجانين».

«انقلِعْ».

أمسك سپراغ ذراعه: «ألا ترغب أن تعرف ما أريد قوله؟».

«ليس كثيرًا».

«بلى، ترغب في ذلك»، قال سپراغ بنبرةِ مُسَارَّة، وانحنى مقتربًا يزفر أنفاسه في وجهه: «هيا، تعال اجلس».

عثرا على مكان مناسب. على الطرف الآخر من المقعد، جلست امرأةٌ مسنة تُطعم سنجابًا بعض البندق. راقب پراير يدَي الحيوان السوداوين الصغيرتين تقلّبان حبة البندق على أوجهها برقة. «هلّا أوجزت؟».

- لقد تذكرتُ أين رأيتُك.

- حقًّا؟

- اجتماعٌ في ليڤربول. كنتَ تتكلم مؤيدًا الحرب، ووالدك يتكلم ضدها.

- ادخل صلب الموضوع.

- أوه، أنا أعرف الكثير عنك. مدهش ما نستطيع أن نكتشفه حين نحاول، واكتشاف الأشياء كان عملي، أليس كذلك؟ عندما كنت أملك عملًا.

«أنت لم تكتشف هذه الأمور»، قال پراير حاسمًا: «بل اختلقتَها».

«أنت وآل روبر، كنتما مثل هذين»، رفع سپراغ إصبعيه المعقودين في وجه پراير: «طنجرة وغطاؤها، *بالإضافة* إلى ماكدويل».

- لهذا السبب أوكِلَت المهمة إليَّ.

- أوه، أجل، أنا طُرِدت وأنت أُقحِمتَ إقحامًا.

- لقد جئتُ بعد مغادرتك بعام.

- أنت أخبرتَني أنني حصلتُ على عمل.

- لا، لم أفعل.

«بلى، فعلت. لقد عدتُ إلى المنزل مباشرةً وأخبرت زوجتي، ثم حين لم أسمع خبرًا ذهبتُ لأقابل لود، فطردني. لقد ضحك عليَّ، بحق اللعنة»، أدار سپراغ عينيه الفيروزيتين المائلتين إلى الأسفل نحو پراير: «كنت تسعى إلى إثارة حماستي لا غير، محاولًا التوصل إلى أنني أقنعتُ العاهرة العجوز بالأمر».

نهض پراير واقفًا: «اذهب واغسل فمك».

«كنتُ أعلم أن كلامي هذا سيستفزك، فأنت وهي كنتما...».

عقد پراير إصبعيه: «مثل هذين؟».

حدق سپراغ إليه، وبرز عِرقٌ في صدغه مثل دودة تحت الجلد الدَّبِق: «الناس لا يتغيرون».

«صحيح، أوافقك الرأي، لا يتغيرون. كنتُ اشتراكيًا آنذاك، وأنا اشتراكيٌّ الآن. أما في ما يتعلق بالحرب، فلستُ مضطرًا أن أثبت وطنيتي *لك*. أنا لم أعرض عليك عملًا، آسفٌ إن كنتَ قد أخبرتَ زوجتك أنني فعلت، لكنها مسؤوليتك أنت لا مسؤوليتي. والآن، اغرب عن وجهي ودعني».

مضى پراير مبتعدًا. كان يعي صياح سپراغ خلفه، لكنه غاضب أكثر من أن يسمع ما يقوله. فكر أن سپراغ ربما يتبعه، وأنه إن فعل قد ينشب شجارٌ بينهما. سپراغ أطول منه قامةً، بيد أنه أكبر سنًا وأكثر ترهلًا. وهو لا يأبه على أي حال، إنه يريد شجارًا. راح وجه سپراغ يطفو أمامه: الأنف المنتفخ بعض الشيء، غلالة العَرق التي تكسوه، المسام المتوسعة حول المنخرين، نُتَفُ الشعر الأشيب النابتة منهما. لم يسبق له أن اختبر هذا الوعي الشديد بجسد

شخص آخر، إلا في الجنس. ما يشعر به ليس جفاءً بسيطًا، بل بُغضٌ حميميٌّ استحواذيٌّ جسديٌّ حتى الأعماق.

في الشقة بعد عودته، غسل وجهه بماء بارد واستلقى على السرير مرتعشًا بعض الشيء. كوَّم الوسائدَ خلفه، وتلمس بيده داخل جيب سترته بحثًا عن لفافة تبغ فلم يجد، ثم تذكّر أنه كان يرتدي معطفه الطويل. نهض وتفقَّد الجيوب، فعثر على علبة سيجار. هو لا يدخن السيجار، لكن لا بد أنه اشتراها ثم دخن منها أو قدّم بعضها لشخص آخر، لأن العلبة ناقصة سيجارين. تمامًا كما لا بد أنه رتب للقاء سپراغ، إذ إن سپراغ لن يكذب بهذا الشأن، فالأمر واضح للغاية ويسهل نقضه. كلا، لقد حدد الموعد بالفعل، لكن الله وحده يعلم متى ولماذا.

نهض عن سريره وهو يحس بدبق راحتيه. ذهب إلى الباب الأماميّ وأقفله، ثم وقف مديرًا ظهره نحوه، ينظر عبر الممر المظلم إلى باب غرفة نومه نصف المفتوح، ويشعر بارتياح خاطف لكونه محتجزًا في الداخل، إلا أنه سرعان ما أدرك سخافة هذا. فأيًا كان الأمر الذي عليه أن يخشاه، هو موجود على هذا الجانب من الباب.

11

بعد سكوت قصير، سأل ريڤرز: «هل تعرضتَ لأي نوبات أخرى منذئذٍ؟».

«أجل، لكن لا أظن أن أيًّا منها شملَ أشخاصًا آخرين. هذا ما أظنه»، التوى فمُ پراير: «كيف لي أن أعرف؟».

- لا أحد قال أي شيء؟

- كلا.

- كم واحدة؟

- سبع.

- كل هذا؟

أشاح پراير بوجهه.

- وكم تستمر النوبة؟

«أطولها استمرت ثلاث ساعات، وأقصرها... لا أعرف، عشرين دقيقة؟ النوبات الطويلة مخيفة لأن المرء لا يعرف ما يكون قد فعله...»، حاول أن يضحك: «كل ما يعرفه هو أنه كان لديه الكثير من الوقت كي يفعله».

- لا أرى أنه ينبغي لك افتراض أنك فعلتَ أي شيء خاطئ.

- حقًّا؟ حسنًا، إن كان ما فعلتُه جيدًا إلى هذا الحد، فلماذا أحتاج أن أنساه؟

انتظر ريڤرز قليلًا: «ما الذي تظن أنك قد تكون فعلته؟».

«لا أدري، ما أدراني؟ عرّجتُ على وايت تشابل ونهشتُ لحمَ بضع مومسات».

صمت.

«*انظر*»، قال پراير بنبرة شخصٍ يحاول إشراكَ أبلهِ القرية في محادثة عقلانية: «أنت تعلم كما أعلم تمامًا أنني أنني...»، دفع ظهره إلى الخلف فوق كرسيه: «لن أفعل هذا، أنا أرفض ببساطة».

أمهله ريڤرز.

وهو ما زال لا ينظر إليه، قال پراير، أو بالأحرى ترنم: «لدي بعض النزوات التي لا أفسح المجال لها إلا باعتدال صارم وبناءً على طلب *الشخص الآخر*. ليس في هذه الحالة على الأقل. أنا أوضح لك ببساطة أنني قد قد قد قد لا أكون متورعًا إلى هذه الدرجة *اللعينة* في الحالة *الأخرى*. ولا تنظرْ إليَّ هكذا».

- أنا آسف.

- تظن أن هذا ليس إلا حفنةً من هراءَ البطولة المسرحية، أليس كذلك؟

أجاب ريڤرز بحذر: «أظن أنك تعاملتَ مع المشكلة وحدك لوقت أطول من اللازم».

«لا شيء مما قلتُه سخيف».

نظر ريڤرز إلى الوجه الشاحب البارد المتجبر وتنهد: «ما كنتُ لأنعتَ كلامك بالسخف بالتأكيد».

«الحقيقة أنني لا أعرف، ولا أنت كذلك، لهذا لستَ في موضع يسمح لك بالوعظ».

ساد صمت، ثم قال ريڤرز: «كيف وضع الكوابيس؟».

«سيئ. أوه، لقد راودني واحد سيعجبك. كنتُ كنتُ أسير في طريق ضمن صحراء من نوعٍ ما، وكانت أمامي مقلة عين. ليست بهذا الحجم»، ارتعشت وجنتا پراير مثل عصيدة تغلي على النار: «بل ضخمة، وحية. وكانت أمامي مباشرةً، وكنت أعلم أنها ستصل إليَّ هذه المرة»، ابتسم: «وتفعل ما تفعله المقل أيًّا كان. لحسن الحظ، كان ثمة نهر يجري بمحاذاة الطريق، لذا قفزت

في النهر وأصبحتُ على ما يرام»، سدد نظرته نحو ريڤرز مباشرةً: «لكن أظن أن جميع مرضاك يقفزون في الأنهار اللعينة عاجلًا أو آجلًا، أليس كذلك؟».

كان العداء صارخًا، كأنهما في كريغلوكهارت، أولَ فترة علاج پراير: «كيف شعرتَ حيال وجودك في النهر؟».

- تمام. لقد غنى لي، تهويدة من نوعٍ ما، ظل يقول لي إنني سأكون على ما يرام، وكنتُ على ما يرام فعلًا... ما دمتُ في النهر.

- لم تشعر برغبة في الخروج؟

- في الحلم؟ لا. أما الآن، بلى.

فردَ ريڤرز يديه: «مجيئُك إلى هنا طوعيٌّ تمامًا».

«مع هذه الدرجة من الاتكالية؟ حبًا بالجحيم، ليس طوعيًا على الإطلاق»، همَّ بقول شيء آخر ثم تراجع: «آسف».

«لا تعتذر، لا داعي»، انحنى ريڤرز فوق المكتب فجأةً: «لستُ هنا كي أحظى بالاستلطاف».

«أنا آسف فعلًا»، قال پراير، فيما أخذ وجهُه وصوته يخشوشنان: «ظننتُ أنه يفترض بي أن أتقبل مشاعري؟ طيب، أنا أشعر أنني آسف».

«في هذه الحالة أقبلُ اعتذارك».

سكوت قصير. «أتعرف ماذا أفعل عندما أستفيق من إحدى هذه النوبات؟ أنظر إلى يديَّ، إذ إن جزءًا مني يتوقع أن أراهما مكسوَّتين بالشَعر».

لم يُدلِ ريڤرز بتعليق.

«قرأتَ جيكل وهايد؟».

«أجل». كان ريڤرز ينتظر هذه الإحالة، فدائمًا ما يشير المرضى الذين يعانون من حالات الشرود التفارقي إلى حالة انفصالهم -على نحوٍ هزليٍّ لكنه لا يخلو من الخوف- عن طريق تشبيهها بـ«هايد». «في الحياة الواقعية، كما تعلم، لا تكون حالة الشرود... حسنًا، كنت سأقول «أبدًا»، لكن ثمة حالة واحدة في الحقيقة... لذا، تكاد لا تكون الجانب الأكثر إظلامًا من الشخصية، هي عادةً لا تعدو كونَها اختلافًا في المزاج».

«لكننا لا نعلم يقينًا. لو ترى، الحديث الذي أحاول ألا أخوضه هو الذي أبين لك فيه أن بوسعك اكتشاف الأمر في غضون خمس دقائق لا أكثر فتجيب قائلًا: «أجل، أعرف، لكنني لن أفعلها»».

صمت.

- *إذًا؟*

- أرجو المعذرة، ظننتُك قلتَ إنك لا تريد هذا الحديث.

- أتعلم؟ بالنسبة إلى شخص ليس هنا كي يحظى بالاستلطاف، لديك أسلوب ولا أعجب. لقد استخدمتَ التنويم المغناطيسيَّ في كريغلوكهارت.

- صحيح، لكننا في تلك الحالة كنا قادرين على التحقق من صحة الذكرى. كما ترى، أحد الأشياء التي يزعمها من يؤمنون بـ... الاستخدامِ واسع النطاق للتنويم المغناطيسيِّ -حسنًا، هم حتى لا يزعمون هذا، بل يفترضونه- هو أن الذكريات التي تُستعاد بتلك الطريقة تكون ذكريات حقيقية، لكنها كثيرًا ما لا تكون كذلك. يمكن أن تكون أوهامًا، أو أن تكون استجابات لإيحاءات صادرة عن المعالِج. لأن المرء لا يكُف عن تقديم الإيحاءات طيلة الوقت، والإيحاءاتُ التي لا نكون مدركين أننا نقدمها -ولا نَعِيها- هي الأقوى بفارق كبير. وهذا خطير، لأن معظم المعالجين يكونون مهتمين بحالات الانفصال فيشجعون المريض -دون وعيٍ منهم طبعًا- على المضي قدمًا في ذلك الطريق، ولا يمكن للمرء تجنُّب فعل ذلك. حتى لو أقصينا كل شيء آخر، يبقى لدينا توسُّع الحدقتين.

انحنى برايرِ إلى الأمام وأمعن النظر: «حدقتاك متوسعتان».

أخذ ريفرز نفسًا عميقًا: «يمكنك أن تستعيد ذاكرتك بنفس الطرائق التي استخدمناها في كريغلوكهارت، كنتَ جيدًا جدًّا فيها».

«ألهذا السبب تقوم بهذه الحركة؟»، مرَّر برايرِ يده على عينيه.

ابتسم ريفرز: «كلا، بالطبع لا، إنها مجرد عادة. إجهاد في العين. والآن، أيمكننا...».

«لا، هذا ليس صحيحًا. لو كان الأمر بسبب إجهاد العين لقمتَ بالحركة بشكل عشوائيٍّ، وليس هذا ما يحدث. أنت تفعلها عندما... عندما يضغط أمرٌ ما على أعصابك. أو أو... إنها طريقة لإخفاء مشاعرك. لقد قلتَها بلسانك لتوك، العينان هما الجزء الوحيد الذي لا تستطيع تحويله إلى ورق جدران... ولهذا تغطيهما».

وجد ريڤرز هذا مربكًا. حاول أن يستأنف ما كان يهم بقوله، فأدرك أنه أضاع حبل أفكاره. بعد كل هذه الساعات من الاستقصاء والتلاعب والتخمين والاستثارة والاستفزاز، كان پراير قد نجح أخيرًا، وعلى نحوٍ يكاد يكون عَرَضيًّا. ليس بوسعه أن يتجاهل هذا، إنه أمر يجب التعامل معه. «أعتقد... إن لم يكن الأمر عشوائيًّا كما تقول -وأنا لا أعرف لأنه ليس تصرفًا واعيًا- فهو شيء له علاقة بعدم الرغبة في رؤية المريض على الأرجح. بالنسبة إليَّ، ليس لتعابير المريض ولَفَتاته فائدة كبيرة، لأنني لا أملك ذاكرة بصرية، لذا أظنني ربما أمنع نفسي عن رؤيته كطريقة للتركيز على ما يقوله. حسنًا؟ والآن، لعلنا نستطيع...».

- لا تملك ذاكرة بصرية على الإطلاق؟
- على الإطلاق.
- لا أفهم كيف تفكر.
- حسنًا، أظن أنك شخص بصريٌّ جدًّا. هلَّا...
- هل كنتَ هكذا دائمًا؟

قال ريڤرز لنفسه: طيب. نهض وأشار إلى پراير كي يتبادلا مكانَي الجلوس. بدت المفاجأة على پراير، بل والارتباك، لكنه تمالك نفسه سريعًا وجلس على كرسي ريڤرز برباطة جأش ظاهرة. رآه ريڤرز ينظر في أنحاء المكتب، ليستوعب التغير في منظوره للغرفة. «ألا يخالف هذا القواعد؟»، سأله.

«لا تخطر لي قاعدة واحدة لم نكسرها».

«حقًّا؟»، قال پراير بابتسامته الرقيقة: «أما أنا فتخطر لي».

«سوف أُريك كم هذا العمل ممل. حين كنتُ في الخامسة...».

عدَّل پراير وضعيته، انحنى إلى الأمام واتكأ بذقنه على يديه المتشابكتين، وقال بنبرة تفهُّمٍ مائعة: «أجل؟ تابع».

لم يكن ريڤرز يخالف القواعد في الحقيقة، فهو لا ينوي أكثر من أن يقدم إلى پراير مثالًا توضيحيًا من تجربته سبق أن استعمله عدة مرات في محاضرات عامة، لكنه لم يضع في حسبانه أن يفعل هذا وهو أمام صورة كاريكاتيرية عنه هو نفسه.

«يتمثل أحد الأدلة على افتقاري إلى الذاكرة البصرية في عدم قدرتي على تذكُّر التصميم الداخليّ لأي مبنى دخلتُه. لا أستطيع أن أتذكر هذا المنزل عندما لا أكون فيه، ولا أستطيع أن أتذكر كريغلوكهارت رغم أنني أقمتُ هناك أكثر من عام، ولا أستطيع أن أتذكر سانت جون رغم إقامتي فيها عشرين عامًا. لكن ثمة تصميم داخلي واحد أتذكره، وهو لمنزل في برايتون عشتُ فيه حتى بلغت الخامسة. بوسعي تذكُّر جزءٍ منه؛ مطبخ القبو، الصالة، غرفة السفرة، مكتب والدي. لكنني لا أتذكر على الإطلاق شيئًا مما يتعلق بالطابق العلويّ. وقد توصلت إلى الاعتقاد -لن أخوض في الأسباب- أن هنالك شيئًا حدث لي في الطابق العلويّ وكان رهيبًا إلى درجةٍ تُحتم عليَّ أن أنساه. ولكي أضمن نسيانه لم أكتفِ بكبتِ تلك الذكرى وحدها، بل أيضًا القدرة على تذكُّر الأشياء بصريًّا بالمطلق». سكت ريڤرز وانتظر ردًّا.

«لقد تعرضتَ للاغتصاب»، قال پراير: «أو الضرب».

تخشب وجه ريڤرز من الصدمة: «أنا حقًّا لا أظن ذلك».

«حسنًا، بالطبع لن تظن، صحيح؟ الفكرة برمتها أن الأمر رهيب أكثر من أن تستطيع التأمل فيه».

قال ريڤرز شيئًا كان يعلم أنه سيندم عليه، إلا أنه يتعين قوله. «هذا كان مقرَّ والدي الكهنوتيّ».

«أنا تعرضتُ للاغتصاب في مقرٍّ كهنوتيٍّ ذات مرة».

وصل إلى طرف لسان ريڤرز أن يقول إنه لا شك أن پراير قد «اغتُصِب» في عددٍ من الأماكن، لكنه تمكن من ردع نفسه. «عندما قلتُ «رهيب»، قصدتُ بالنسبة إلى طفل في تلك السن. تذكَّر أنني كنت في الخامسة. هنالك أشياء

تحدث للأطفال وتشكل صدمة هائلة لهم، لكنها لا تبدو رهيبة أو أو أو حتى ذات أهمية يُعتَدُّ بها للبالغين».

- وبالمثل، هنالك أشياء تحدث للأطفال وتكون رهيبة بحق، وتظل رهيبة بالنسبة إلى *أي* شخص في *أي* سن.

- أجل، بالطبع. كم كنت تبلغ من العمر؟

- إحدى عشرة. لم أكن أقصد نفسي.

- ألا تعتبر ذلك «رهيبًا»؟

«كلا، كنت أتلقى درسًا خصوصيًا»، ندت عنه ضحكة قصيرة حادة: «رباه، ويا له من درس خصوصيٌّ. من قسيس الأبرشية، الأب ماكنزي. والدتي عرضت عليه شلنًا في الأسبوع -أكثر مما تستطيع تحمُّله- لكنه قال: «لا تقلقي أيتها المرأة الطيبة، نادرًا ما رأيتُ صبيًا واعدًا مثله»»، أضاف بانفعال: «لا تُبدِ كل هذه الصدمة يا ريفرز».

«أنا مصدوم بالفعل».

«إذًا لا ينبغي أن تكون كذلك. لقد تلقى ما يقابل خدماته، هذا كل ما في الأمر»، انحنى پراير فجأةً وقبض على ركبة ريفرز غارزًا أصابعه حول الرضفة: «لا شيء دون مقابل، أليس كذلك؟»، أحكم قبضته على الركبة أكثر: «*أليس كذلك؟*».

«بلى».

أفلت پراير الركبة: «هذا الشيء الرهيب -بين علامتَي تنصيص سوداوين كبيرتين- الذي حدث لك، ماذا كان *برأيك*؟».

- لا أدري. روب دو شامبر مُعلَّقٌ خلف باب؟

- أمر *بهذا* السوء؟ يا إلهي.

تابع ريفرز بإصرار متحديًا ابتسامة پراير: «كان لدي مريض صار يعاني رهابَ الأماكن المغلقة نتيجة احتجازه خطأً داخل ممرٍّ برفقة كلبٍ شرس، أو أنه بدا شرسًا له هو. في هذه...».

- أوه، فهمت. الكلب اللعين لم يكن شرسًا بحقٍّ من الأساس.

- في هذه الحالة، لم يعرف والداه أن الأمر قد حدث أصلًا.

- تقول إنك كنت في سن الخامسة عندما... لم يحدث هذا الأمر الذي لا يرقى إلى صفة «الحدث»؟

- أجل.

- وكم كنتَ تبلغ من العمر حين بدأت تتأتئ؟

- خمـــ.. سة.

أسند پراير ظهره إلى الخلف فوق كرسي ريڤرز وابتسم: «كلبٌ كبير».

- لم أقصد أن ألمح إلى وجود...

- حبًّا *بالله*. أيًّا كان ذلك الشيء، لقد أعميتَ نفسك كيلا تضطر إلى الاستمرار في رؤيته.

- ما كنتُ لأصوغ الأمر بهذه الصيغة الدرامية.

- أنت دمرتَ ذاكرتك البصرية، أطفأتَ عين ذهنك. هل هذا ما حدث، أم لا؟

اعتلجَت دواخلُ ريڤرز، ثم قال ببساطة: «بلى».

- أيحدث أن تظن أنك توشك أن تتذكر؟

- أحيانًا.

- وبمَ تشعر؟

«بالخوف»، ابتسم: «لأن مشاعر الطفل ما زالت مرتبطة بالذكرى».

- عدنا إلى الروب دو شامبر.

- أجل. أجل. أخشى أننا عدنا إليه، لأنني أظن بصدقٍ أن الأمر قد يكون بسيطًا إلى هذه الدرجة

«إذًا ليس بوسعي إلا أن أصفق»، قال پراير، ونفذ ما قاله. ثلاث تصفيقات صاخبة.

«أتعلم؟...»، تردد ريڤرز ثم استأنف كلامه: «يجب أن تحترس من ملء فراغات ذاكرتك بـــ... بالوحوش. أظن أننا جميعنا نميل إلى فعل ذلك، ما إن نجد أنفسنا أمام فراغٍ حتى نبدأ بإسقاط أكبر مخاوفنا عليه. الأمر يشبه الدليل الإرشاديَّ لرسامي الخرائط في القرون الوسطى بعض الشيء، أليس كذلك؟

ضع وحوشًا *في الأماكن التي تجهلها*. بيد أنني أرى بالفعل أنه ينبغي لك ألا تفعل هذا، لأنك بذلك لا تزيد على إخضاع نفسك لتيار متواصل من من نوع شديد السلبية من الإيحاء».

«حسنًا، سأحاول ألا أفعل. سأستعيض عن ذلك بدليل ريڤرز الإرشادي لرسم الخرائط: ضع روبَ دو شامبر *في الأماكن التي تجهلها*. أو ربما، كلابًا. تفضل، استعِذْ كرسيَّك»، استقر پراير من جديد على كرسي المريض مغمغمًا: «أتعرف يا ريڤرز أنك عُصابيٌّ مثلي تمامًا؟ وهذا ينطوي على الكثير».

أسند ريڤرز ذقنَه إلى يديه: «وماذا تشعر حيال ذلك؟».

«يا رباه، لقد عدنا إلى الوضع الطبيعيّ بالفعل. أنت تقصد: «هل ينتابني شعور انتصار خبيث بغيض؟». كلا، أنا خبيث النفس بما يكفي، كل الأمر أنني لستُ غبيًّا بما يكفي»، تأمل پراير أفكاره لحظة: «توجد مشكلة واحدة في دليل ريڤرز الإرشاديّ لرسم الخرائط؛ ماذا إن كان هناك وحوشٌ بالفعل؟».

«أظن أننا -ان صح ذلك- سنقابل الوحوش في أقرب فرصة».

نظر پراير إلى ريڤرز مباشرةً: «أنا خائف».

«أعرف».

حين غادر پراير أخيرًا -بعد الجلسة الطويلة المرهِقة- أطفأ ريڤرز مصباح المكتب وذهب للجلوس على كرسيه ذي الذراعين قرب النار، وأطلق عنان يديه تفركان عينيه بتركيز ودون رقيب. *أتراه* يفعلها فعلًا «عندما يضغط أمرٌ ما على أعصابه»؟ هذا ممكن، كما يظن. لو ثمة نمط متكرر بالفعل، فلا بد أن پراير انتبه له. لكن في المقابل پراير قادر بالدرجة نفسها على اختلاق الأمر من أساسه.

لم يندم على قراره بإعطاء پراير ما ادعى دائمًا أنه يريده -تبادل الأماكن- لأنه في سياق ذلك اكتشف جانبًا من پراير ما كان اللثام ليُماط عنه بأي طريقة أخرى. ليس هذا موضوعَ «الدرس الخصوصي» -رغم كونه أمرًا مثيرًا للاهتمام، لا سيما في ما يتعلق بعادة المغازلة العنيفة لدى پراير- بقدر ما هو

افتراض أن فقدان ريفرز للذاكرة البصرية له تفسيرٌ رَضِّيٌّ صادمٌ للغاية دون شك. لقد كشف هذا أمورًا عن پراير أكثر مما كان يعيه.

غير أن پراير كان جبارًا في الاستنطاق. *أيًّا كان ذلك الشيء، لقد أعميتَ نفسك كيلا تضطر إلى الاستمرار في رؤيته... أطفأتَ عين ذهنك*. بمجرد تصرُّفه بأسلوب أخشن مما كان ليفعل أي زميلٍ من زملاء المهنة، كان پراير قد وضعه وجهًا لوجه أمام كامل أبعاد فَقْدِه. الناس يميلون إلى افتراض أنه لا يعلم ما فقده، لكن هذا ليس صحيحًا. إنه يعلم، أو يدرك لمحةً عن الأمر على الأقل. لقد حضر -ذات مرة في جُزر مضيق توريس- جلسةَ محكمة ترأسها المسؤول البريطانيُّ بالتعاون مع الزعماء المحليين، قدمت خلالها امرأةٌ مسنةٌ شهادتَها بشأن خلافٍ كانت متورطة فيه. فيما هي تتكلم، كانت توزع نظراتها الخاطفة من جانب إلى آخر، وبدا واضحًا أنها تعيش كل تفاصيل الأحداث التي تصفها من جديد، إضافةً إلى أنها ترى أشخاصًا ليسوا موجودين في القاعة. وقد نظر إليها، هذه المرأة المسنة المهزولة الأمية نصف العارية، وحسدَها. لا شك أنه سبق وقابل أوروبيين لديهم ذاكرة بصرية تضاهي قوة ذاكرتها، غير أن قصوره لم يسبق أن قُذِفَ في وجهه بهذه الشدة.

إنه فَقْدٌ بالفعل، وهو يعيه منذ زمن طويل، إلا أنه تباطأ في ربطه بتجربة منزل برايتون، وتباطأ أكثر في الإقرار أن تأثير التجربة تجاوز فقدان الذاكرة البصرية وسبَّب شرخًا بين الجِبِلّة المنطقية التحليلية لعقله وبين عواطفه. من السهل المغالاة في هذا، فهو في النهاية قد خضع لشكلٍ من التعليم مصمَّمٍ ليؤصِّل شرخًا من هذا النوع تمامًا، لكنه يرى أن الانقسام ضرَبَ في داخله إلى عمق أكبر مما يحدث لدى معظم الرجال. يكاد الأمر يكون كما لو أن التجربة -أيًّا كانت- قد قدحت زناد محاولة تفكُّكٍ في شخصيته، لكنها لم تكن محاولةً ناجحة بفضل رحمة القدر. ومع ذلك، فلطالما كان -خلال معظم حياته- رجلًا يعاني انقسامًا عميقًا، ورغم أنه كان يقول في ما مضى إن أثر هذا الانقسام ضئيل -إن وُجِد أصلًا- في تفكيره، فقد توصل إلى الاعتقاد أن الانقسام قد حدد اتجاه أبحاثه.

بعد هذه التجربة الأولية التي لا يتذكرها بسنوات عديدة، أجرى هو وهنري هيد تجربةً علميةً معًا. قُطِع العصب الذي يعصب ساعد هيد الأيسر وخُيِّط،

ثم رصدا تقدُّمَ عملية التجدد العصبيِّ على مدار خمس سنوات. لقد سار هذا التقدمُ في طورين اثنين. تميز الأولُ بعتبةٍ حسية مرتفعة، لكن عندما استُثير الإحساسُ أخيرًا كان «متطرفًا»، وفقًا لتعبير هيد الحرفي. وبالإضافة إلى نزعة «الكل أو اللاشيء» هذه، كان من الصعب حصرُ الإحساس في منطقة واحدة، لم يكن باستطاعة هيد -الجالس إلى الطاولة معصوبَ العينين- تحديدُ موضع المنبه الذي يسبب له هذا الألم الحاد. أطلقا على هذا الشكل الأولي من التعصيب اسمَ «الحس البدئي». أما الطور الثاني من عملية التجدد -الذي سمياه «الحس دقيق التعيين»- فقد بدأ بعد بضعة أشهر، وتميز بالقدرة على إبداء استجابات متدرجة وتحديد مصدر التنبيه بدقة. مع استعادة المستوى دقيق التعيين من التعصيب اندمج المستوى الأخفض -أو البدئي- به جزئيًا وكُبِحَ إلى حدٍ ما، وبهذا باتت المنظومةُ دقيقة التعيين تنجز وظيفتين اثنتين: الأولى هي مساعدةُ العضوية على التكيف مع بيئتها من خلال إمدادها بمعلومات دقيقة، والثانية هي كبح الحس البدئي وإبقاء الحيوان الداخلي مقيدًا. وحتمًا، مع مرور الوقت، اتخذت العبارتان معاني أوسع، فباتت عبارة «دقيق التعيين» تعبر عن كل ما هو منطقيٌّ ومنتظم ودماغيٌّ وموضوعيٌّ، في حين دلَّت عبارة «البدئي» على ما هو عاطفيٌّ وحسيٌّ ومشوَّش وأوليٌّ. بهذه الطريقة، كان من شأن التجربة المذكورة أن تعكس انقسامات ريڤرز الداخلية وتزوده بمفردات تعبر عنها في آنٍ معًا. لم يكن من المستبعد أن يقول بصوتٍ واحد مع هنري جيكل: «تعلمتُ، من خلال النظر إلى الجانب الأخلاقيِّ وداخل ذاتي، أن أميز الازدواجية العميقة والبدائية لدى الإنسان، إذ رأيتُ -في ما يخص الطبيعتين المتنافستين داخل ميدان وعيي- أنه إن كان يمكن القول صدقًا بكوني إحداهما، فما هذا إلا لكوني كلتيهما معًا من حيث الجوهر...».

غريبٌ كيف أخذ مصطلح «جيكل وهايد» مكانه في اللغة، إلى درجة أن حتى الأشخاص الذين لم يقرؤوا قصة ستيڤنسون يومًا باتوا يستخدمون الاسمين اختصارًا يعبر عن الانقسامات الداخلية. پراير ذكر أنه ينظر إلى يديه ليتأكد أنهما لم تتحولا إلى يدَي هايد المشعرتين، ولم يكن وحيدًا في هذا. فكل مريض تعامل ريڤرز معه يومًا وكان يعاني من حالة شرود تفارقي أشار عاجلًا أو آجلًا إلى حالته هذه باسم «هايد»، وهذا يكون عادةً التماسًا للطمأنة. يسهل تقديم تطمينات كهذه في المستشفيات حيث تخضع حالة

الشرود التفارقي للرصد، بيد أن طمأنة پراير ليست بهذه السهولة. السبب في ذلك يعود جزئيًا إلى تعذُّر رصد حالة الشرود التفارقي لديه، لكن إحساس پراير القوي على نحو غير معتاد بالجانب الأكثر قتامة من شخصيته يلعب دورًا في الأمر هو الآخر. ربما كان يتحدث عن انعدام شعوره بالذنب من الناحية الجنسية، بيد أنه -كما يظن ريڤرز- يعاني خزيًا عميقًا من نزواته السادية، بل حتى يخاف منها. هو يعتقد بوجود وحوش في خريطته، ومن بوسعه القول إنه على خطأ؟

ثمة جانب واحد من الموضوع يسبب تشوشًا حقيقيًا: الغرابة الكامنة في تحديد موعدٍ خلال حالة الشرود ثم الذهاب إليه خلال الحالة الطبيعية. هذا يشير إلى أن حالة الشرود قادرة على التأثير في سلوك پراير حتى حين لا تكون حاضرة، بصياغة أخرى: إنها تقوم مقام وعيٍ ثانٍ. وهذا لا يعني حتمية أن ينتج ازدواجٌ في الشخصية عن هذا، إنه ينوي أن يحرص على عدم حدوث ذلك. لن يكون هنالك تنويم مغناطيسيٌّ، ولا خلقٌ اصطناعيٌّ لحالاتٍ تفارقية من أجل أغراض تجريبية، ولا تشجيعٌ لپراير على النظر إلى حالة الشرود على أنها ذاتٌ بديلة. ومع ذلك، من الضروريِّ تذكُّر أن پراير ليس مجرد حزمة من الأعراض، بل هو شخصية مركبة في غاية التعقيد وله آراؤه الخاصة في ما يتعلق بحالته. كما أن مخيلته تؤدي عملها أصلًا، وتفعل كل ما تستطيعه لتُحول حالة الشرود إلى بديلٍ خبيث. إنه يؤمن بالوحوش، وأيًا يكن قرار ريڤرز بخصوص ما سيفعله أو يمتنع عن فعله، فإن إيمان پراير بهذه الوحوش سيمنحها السطوة لا محالة.

12

«والآن أريدك أن ترسم لي فيلًا»، قال هيد.

أجاب لوكاس بصوتٍ مشوَّه كمن ينفخ الفقاعات في ماء يملؤه الصابون: «أجل، ثبق لي أن ثاهدتُ هذه الحيوانات، هناك... على الطرف المقابل».

أخذ الدفتر وقلم الرصاص وبدأ يرسم. كان ريڤرز يجلس بجانب هيد، لكنهما لا يتكلمان، إذ ينبغي عدم التشويش على تركيز لوكاس. إنهما يُجريان الاختبارات منذ نصف ساعة، وقد بدأ لوكاس يتعب. كان لسانه يبرز من بين أسنانه، مما أعطاه مظهر صبيٍّ صغير يتعلم القراءة، إلا أن وضعية اللسان هذه كانت دائمةً في حالة لوكاس.

لاحظ ريڤرز أن هيد ينظر إلى الجرح الذي خلَّفته الشظية في فروة رأس لوكاس الحليقة، وعلم أنه يفكر في المشكلات التقنية الكامنة في نسخ هذا الجرح على جمجمة الجثة التي كان يعمل عليها صباحًا. إنها تقنية مثيرة للاهتمام، قال ريڤرز في قرارته. يقيس هيد أبعاد الجرح لدى المريض الحي، ثم يعيد رسم محيطه الخارجيِّ على جمجمة جثة، ويُحدِث ثقوبًا تفصل بينها مسافات منتظمة على طول المحيط، ويضع صبغةً زرقاء في هذه الثقوب. يمكن بعد ذلك رفع قبة القحف بأكملها وشق البنى الدماغية الواقعة ضمن المنطقة المصبوغة والتعرف عليها. بهذه الطريقة، يكون من الممكن الربط بدقة بين منطقة الموت الدماغي وطبيعة الخلل اللغويِّ الذي يعانيه المريض.

عملٌ مُضنٍ للغاية، ويزداد صعوبةً بسبب وجوب نسخ جروح مريضين اثنين على كل جثة. فإحدى العواقب المفاجئة للحرب كانت نقصَ جثث الذكور المناسبة.

رفع ريفرز يديه إلى ذقنه، فشم رائحة الدهن البشريِّ والفورمالدهيد التي تميز كلية الطب، ولم يكن صابون الكربوليك يغطيها إلا جزئيًّا. راقب التعابير التي ترتسم على وجه هيد وهو ينظر إلى فروة رأس لوكاس الحليقة، فأدرك أنها بالكاد تختلف عما اعتلى وجهه هذا الصباح وهو ينحني فوق الجثة. لقد تحول لوكاس في اللحظة الراهنة إلى مجرد مشكلة تقنية. ثم رفع لوكاس رأسه عن المهمة الموكلة إليه، فانتقل وجه هيد إلى الابتسام على الفور. سُمِعت همهمة تشجيع، وعاد لوكاس إلى الرسم. نظر هيد إلى الندبة الأرجوانية المحززة على الرأس الحليق، فعاد وجهُه نائيًا ومنعزلًا من جديد. ومرةً أخرى، خضع تعاطفُه وإحساسه القويُّ بالإنسانية التي يتشاركها مع مرضاه لتعطيلٍ مؤقت. هذا التعطيل ضروريٌّ، لا تكون ممارسة البحث الطبي -بل والطب نفسه في الواقع- ممكنةً دونه، لكنه على وجه التقريب نفس التعطيل الذي ينبغي أن يحققه الجندي كي يتمكن من القتل. النهاية مختلفة، بيد أن الآلية السيكولوجية المستخدَمة لتحقيق التعطيل هي نفسها من حيث الجوهر في الحالتين. فكر ريفرز أن ما يفعله هيد هو من بعض الجوانب شكلٌ حميدٌ دقيق التعيين من الانفصال المرَضي الذي بدأ پراير يعانيه. فانفصال هيد صحيٌّ، لأن الباحث والطبيب يملك كلٌّ منهما وصولًا مباشرًا إلى خبرة الآخر، وكلاهما يملك وصولًا إلى خبرة هيد في جميع مجالات حياته الأخرى. أما انفصال پراير فمَرَضي، لأن الوصول إلى مناطق من خبرته الواعية بات متعذرًا على الذاكرة. المثير للاهتمام هو السبب الذي جعل انفصال هيد لا يفضي إلى شرخ من النوع الذي حدث لدى پراير. عدل ريفرز وضعيته وتنهد. يجد المرء أول الأمر المرض النفسيَّ محيرًا، ثم تصيبه الصحة بحيرة أكبر في نهاية المطاف.

أنهى لوكاس عمله، فانحنى هيد فوق المكتب وأخذ الرسمة منه. «إممم»، قال وهو ينظر إلى المخلوق الذي يشبه البقرة إلى حدٍّ كبير أمامه، ثم أضاف بعد سكوت طويل: «ما الذي يوجد لدى الفيل في الأمام؟».

تكلم الصوت المندفع من جديد، وهو على وشك التحول إلى نحيب كالعادة: «لديه شيء طويل»، لوَّح لوكاس بيده السليمة إلى أعلى وأسفل: «يمتد بطول ياردة تقريبًا».

- أتعرف ماذا يسمى هذا الشيء؟

- نفس الشيء الذي... نرش... الماء بواسطته.

- ألديه خرطوم؟

تلوَّى لوكاس فوق كرسيه المتحرك وضحك: «لقد فقده».

مد يده إلى رسمته يريد أن يصححها، لكن هيد دسَّها داخل الملف سريعًا: «فلننتقل الآن إلى عمليات الجمع».

مروا سريعًا على مجموعة من عمليات الجمع البسيطة، وقدَّم لوكاس -الذي لم يكن يعاني خللًا في قدرته على فهم الأرقام- أجوبةً صحيحة كما هو متوقَّع. كان من عادة هيد أن يستعيض عن المهام التي يجدها المريض صعبةً أو مستحيلةً بأخرى يستطيع إنجازها والنجاح فيها. تضمنت المهمة التالية -المصممة لاكتشاف ما إذا كان فهمُ لوكاس لـ «اليمين واليسار» متضررًا- محاولةَ تقليد حركات ذراعَي هيد، عبر مرآةٍ أولًا ثم وهو أمامه على الطرف المقابل من المكتب.

شاهد ريڤرز هيد يرفع يده اليسرى («مهنية في شكلها وحجمها؛... كبيرة ومتينة وبيضاء وحسنة المظهر»[1]) وفكر أنه على الأرجح يعرف تلك اليد أكثر مما يعرف أي جزء من جسمه هو. فهو في النهاية أجرى التجارب عليها طيلة خمس سنوات، وبوسعه الآن حتى أن يحدد على جلدها حدود منطقة التعصيب البدئي المتبقية... كونَ عملية التجدد العصبي لا تكتمل أبدًا. لقد احتفظ مثلثٌ من البشرة بين الإبهام والسبابة باستجابات «الكل أو اللاشيء» الأولية وما زال حسَّاسًا على نحوٍ شاذ تجاه تغيرات الحرارة. أحيانًا في الأيام الباردة، كان ينتبه إلى هيد وهو يُخفي مثلث البشرة هذا تحت يده الأخرى.

(1) الاقتباس لوصف يدِ هنري جيكل، من رواية «قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة». (المترجم)

بعد إنهاء الفحوصات، دردش هيد لبعض الوقت مع لوكاس حول النتائج. إنها الموهبة التي تُميز هيد، قدرته على إشراك مريضه في الدراسة التي يُجريها حول حالته. فيما أخذ هيد يصور مدى الأضرار، أضاء وجهُ لوكاس بما يُمكن تسميته اهتمامًا سريريًا. وحين أتى أحد مساعدي التمريض أخيرًا وصحبه إلى خارج الغرفة فوق كرسيه، كان يبتسم.

«لقد... تحسن»، قال هيد: «بعض الشيء». سرَّح شعره الخفيف بيده إلى الخلف بعيدًا عن جبهته وبدا فاترًا تمامًا للحظة. «شاي؟».

- لا أمانع كأسًا من الحليب.

- حليب؟

ربت ريڤرز على بطنه: «إنه يُبقي القرحات هادئة».

- لماذا؟ أتراها تُبدي احتجاجًا؟

- رباه، كم أكره الأطباء النفسيين.

ضحك هيد: «سأحضر لك الحليب».

ألقى ريڤرز نظرةً على صحيفة *التايمز* فيما هو ينتظر. لقد وصلوا إلى الخبرة الطبية في محاكمة بمبرتون بيلينغ، أيًّا كان مستواها. لدى عودة هيد إلى الغرفة، قرأ ريڤرز جهرًا: ««عند سؤاله عما ينبغي فعله بمثل هؤلاء الأشخاص، أجاب د. سيرل كوك: «إنهم وحوش، ينبغي احتجازهم»». هذا صوتُ الطب النفسيِّ».

ناوله هيد الكوب: «اتركها يا ريڤرز».

طوى ريڤرز الصحيفة: «لا أكُف عن محاولة إقناع نفسي أن الأمر مضحك».

«حسنًا، إنه مضحك، في قسم كبير منه. كان مضحكًا للغاية حين قالت تلك المرأة للقاضي إن اسمه وارد في الكتاب الأسود»، انتظر جوابًا، ثم قال: «على كل حال، متى تريد أن ترى لوكاس؟ غدًا؟».

«أوه، أرى أن نمنح المسكين استراحة، أليس كذلك؟ لنقل الاثنين؟».

تحدثًا لبعض الوقت عن لوكاس، ثم انساقا إلى حديث غير مترابط حول الاستعانة بمساعدي التمريض المناصرين للسلام. كان المستشفى يضم عددًا كبيرًا من المرضى المشلولين في مبنى ليس مصممًا لإيوائهم، ثمة مصعدان

اثنان فقط، والممرضات والمساعدون الحاليون -وهم رجالٌ إما يعانون إعاقةً وإما تجاوزوا سن الخدمة العسكرية- يبذلون ما في وسعهم، بيد أن حياة المرضى محكومةٌ بتقييد زائد عما تستدعيه الضرورة. ما يحتاجون إليه أمسَّ الحاجة هو سواعد الذكور الفتية، وهذا ما يوفره مساعدو التمريض المناصرون للسلام الخاضعون لبرنامج وزارة الداخلية. لكنهم في الوقت نفسه يثيرون العداء بين أفراد الطاقم الملزَمين بالعمل معهم، وقد بلغ الأمر الآن درجةً باتت معها إمكانية متابعة استعانة المستشفى بهم موضعَ تساؤل. إن لا منطقية التخلص من قوةٍ عاملةٍ يحتاجون إليها حاجةً ماسَّة تثير سخط ريفرز، وقد عبّر علانيةً عن معارضته لذلك في الاجتماع الأخير للجنة إدارة المستشفى، ولعله فعل ذلك بحدة زائدة عن اللزوم، أو هكذا بدا رأي هيد على الأقل. «لن أعـ... أعود إ.. إلى ذلك»، قال: «لقد أمضيت معـ... معظم حـ... حياتي أخفـ... أخـ... أخفف نبرة ما أر.. أريد أن أقـ... أقوله، لن أفـ... أفعل ذلك بعد الآن».

نظر هيد إليه: «وماذا حلَّ بريفرز ذي الطباع اللينة الذي عرفناه وأحببناه جميعنا؟».

- لقد اختفى، غاب دون إذنٍ في اسكتلندا، ولم يُشاهَد منذ ذلك الوقت.
- أجل.
- أجل ماذا؟
- أجل، هذا هو الانطباع الذي تشكَّل لدي.

كان باب المصعد يوشك أن ينغلق. هرع ريفرز راكضًا، ففتح وانتاج -وهو أحد مساعدي التمريض غير المناصرين للسلام- الباب من جديد. «تفضل يا سيدي»، قال متراجعًا إلى الخلف: «يوجد مكان لشخص نحيل».

كان يعيد رجلًا على كرسي متحرك إلى الجناح، فحشر ريفرز نفسه بجانب الكرسي وضغط زر الطابق الأعلى.

وانتاج أكثرُ المساعدين شعبيةً، وأحد أسباب ذلك هو أن حذاءه ذا النعل الطبيِّ السميك يقدم تفسيرًا فوريًّا لعدم وجوده في فرنسا. إنه رجل بدين

ضحوك لديه قدرة لا حد لها على الكره؛ يكره المتقاعسين، يكره المتهربين، يكره معارضي الخدمة، يكره الهون[1]، يكره القيصر، ويحب الحرب. يداه هما الأكثر رهافةً في المستشفى. وهو مستعد لبذل أي شيء مقابل أن يستطيع الذهاب للقتال. كان ريڤرز، كلما رآه يسير متمايلًا خلف كرسيٍ متحرك، يتذكر الفتى الكسيح في قصة عازف المزمار السحريّ[2]، الذي تخلف عن بقية الأطفال حين ذهبوا إلى الجبل.

توقف المصعد في الطابق الثاني ودخلت ممرضة شابة. كلمها ڤيغرز، قعيد الكرسي المتحرك، وتوردت وجنتاه قليلًا -إذ بدا واضحًا أنها من المفضلات جدًّا لديه- ثم ارتخى جذعه إلى الجانب، وكانت عيناه على مستوى خصرها تحدقان سرًّا إلى ثدييها. وتابع وانتاج ثرثرته. ثم، في الطابق الثالث، توقف المصعد مجددًا وخرج وانتاج دافعًا الكرسي أمامه.

تركا ريڤرز وراءهما يتمنى لو أنه لم يرَ تلك النظرة. في هذا المستشفى، ثمة ما يُذكِّر المرء بقسوةٍ كل يومٍ أن أفظع مآسي الحرب ليست تلك التي تشهد عليها الصلبان البيضاء الصغيرة.

لأسباب تتعلق بالسلامة والأمان -كون مرضاه قادرين على الحركة واستخدام سلالم النجاة- كان كلا الجناحين الموكلَين إلى ريڤرز يقعان في الطابق الأعلى. لقد شُيِّد هذا المستشفى على اعتباره مستشفى أطفال؛ الطابق الأعلى كان يشكل الحضانة، جدرانه مزينة برسوم شخصيات الخروف الأسود والراعية الصغيرة بو پيپ وذات الرداء الأحمر وهمبتي دمبتي، والنوافذ مزودة بقضبان. كان ريڤرز قد طلب لدى وصوله إزالة هذه القضبان، بيد أن مكتب الحرب رفض تحمُّل تكاليف أي تعديلات تتجاوز الحد الأدنى من الأساسيات: توفير أحواض استحمام ومراحيض مناسبة للبالغين، دون أن يشمل ذلك

---

(1) الهون: شعب بدوي عاش في آسيا الوسطى والقوقاز وأوروبا الشرقية بين القرنين الرابع والسادس للميلاد، واعتاد البريطانيون أن يسموا الألمان بـ «الهون» خلال الحرب العالمية الأولى ازدراءً لهم بهدف نعتهم بالهمجية. (المترجم)

(2) القصة الشهيرة التي تتحدث عن عازف مزمار خلّص مدينة من الجرذان التي تغزوها، ثم أخلف عمدتُها وعدَه له ولم يعطه مكافأته، فقرر الانتقام واستدرج أطفال المدينة بعزفه إلى الجبل، ولم يعرف أحدٌ شيئًا عن مصيرهم بعد ذلك، فيما تخلف بضعة أطفال عن مواكبة الركب بسبب إعاقات يعانون منها. (المترجم)

المغاسل. لورنس هناك الآن، يَحلق في حوض مغسلة بالكاد يبلغ ارتفاع ركبتيه. إن العين -في غياب المنظور الطبيعيّ- تراه عملاقًا، ويبدو أن الخبرة مهما كانت كبيرة لا تكفي لتصحيح الانطباع الأولي.

استعاد ريڤرز مفتاحه الذي تركه في الليلة السابقة لدى الأخت، وسار عبر الدهليز إلى غرفته. الغرفة شاسعة، وفيها نافذة ضخمة بارزة إلى الخارج تطل على ساحة ڤنسنت. خرج منها إلى الغرفة المجاورة وطلب من سكرتيرته أن تُدخِل النقيب مانينغ إليه.

لقد قُبِل مانينغ في المستشفى لأن نوبات القلق التي يعانيها مذ عاد من فرنسا ازدادت حدة، وجاء هذا في جزءٍ منه نتيجة هَوَسه بقضية پمبرتون بيلينغ. إن ريڤرز ليود أن يشير عليه بتجاهل المحاكمة لكونها خليطًا ممسوخًا من سفاسف نشر الغسيل الوسخ، بيد أن هذا ليس ممكنًا. لقد أُرسِلَت إلى مانينغ قصاصة جريدة تتحدث عن مود آلان و «طائفة البظر»، كما تلقى في وقتٍ لاحق نسخة من مقالة الـ47,000. إنه يتعرض للاستهداف، من قِبل شخصٍ على دراية بميوله كما يُفترض، وبالطبع لا يمكن أن يُتوقَّع منه تجاهل ذلك.

«أتنتظر منذ وقت طويل؟»، سأله ريڤرز.

«بضع دقائق».

كان التعب باديًا على مانينغ، لا شك أنه قضى ليلته متهيبًا من دخول المستشفى. «هل استقرت أمور مُقامك هنا؟».

«لا بأس. لقد مُنِحتُ غرفة لي وحدي، لم أكن أتوقع هذا».

«أحضرتَ المقالة معك؟»، سأله ريڤرز.

ناوله مانينغ إياها. على عكس ما افترض ريڤرز، لم تكن قصاصة جريدة، بل نسخة طُبِعت خصيصى على ورق سميك، وكُتِبت الرسالة التالية بالآلة الكاتبة على رأس الورقة: *على أمل أن يوقِظ هذا ضميرَك.*

«هل قرأتَها آنذاك؟»، سأله مانينغ: «أولَ صدورها؟».

«كلا»، أجاب ريڤرز بابتسامة واهية: «متعة مؤجَلة».

بغايا على السور

لقد قُدِّمَت أسبابٌ كثيرة تمنع إنجلترا من وضع كامل قوتها في الحرب. وقد أشرتُ، في عدة مناسبات ضمن أعمدة ذي إمپرياليست[1]، إلى أن ألمانيا تستفيد من وسائل غير ملحوظة لكنها ناجعة كي تُحبط جهودنا. لا يمكن أن يكون الأمل في الأرباح السبب الوحيد لخياناتنا. جميع الدول وضعت بغاياها على السور، لكن ذلك اكتُشِف في الاعتداء الأول واتُّخذت بشأنه الإجراءات الضرورية. أما الخطر الحقيقيُّ فيكمن في القلعة نفسها. الفساد والابتزاز اللذان يضطلع بهما الحقراءُ أرخص من الرشوة، وعلاوةً على ذلك، الخوف من الانكشاف يحاصر الرجال الذين لا يستطيع المال شراءهم ويجعلهم عبيدًا. وفقًا لما أراه، ثمة المزيد من الأسباب التي تدفعنا إلى افتراض أن الألمان -بكفاءتهم المعهودة- يستفيدون من أوفر الطرائق إنتاجًا وأقلها تكلفة.

كثيرًا ما لمحتُ، في هذا العمود، إلى توفر اطلاع من شأنه تأكيد هذا الرأي. وخلال الأيام القليلة الماضية، وُضِعت أمامي حقائقُ استثنائيةٌ للغاية تتسق مع معلوماتي السابقة.

---

(1) الإمبريالي. (المترجم)

نشرُ الفجور

في الغرفة السوداء[1] الخاصة بأحد الأمراء الألمان، يوجد كتابٌ جمعَهُ جهاز الخدمة السرية من تقارير لعناصر ألمان توغلوا في هذه البلاد خلال السنوات العشرين الماضية، عملاء شديدي الوضاعة يعملون على نشر الفجور والخلاعة التي لا يمكن أن تبتكرها سوى عقول ألمانية ولا أن تنفذها سوى أجساد ألمانية.

سدوم ولِسبيا[2]

لقد تولى الضّابط الّذي اكتشف هذا الكتاب خلال تنفيذه لمهمّة خاصّة تلخيص محتوياته الصادمة لي. تَرِدُ في بداية الكتاب نبذةٌ تضم إرشادات عامة بخصوص ترويج الشرور التي كان جميع الرجال المحترمين يظنونها اندثرت باندثار سدوم ولِسبيا. كما أن كُتَّاب هذا الكتاب المجدفين يتحدثون عن المرتفعات والأيك المذكورة في الكتاب المقدس. يحوي الكتاب حججًا بالغة المكر كي يستخدمها العميل الألمانيُّ في عمله المثير للاشمئزاز، يليها أكثر من ألف صفحة مملوءة

(1) وردت عبارة «الغرفة السوداء» بالفرنسية في النص الأصلي، والمصطلح فرنسيٌّ تاريخيٌّ يدل على مكتب تجتمع فيه المخابرات الحكومية وتُشرف على فتح الرسائل المتبادلة بين الأشخاص والكيانات وقراءتها قبل إرسالها إلى وجهتها. (المترجم)

(2) سدوم: قرية ذُكِرت في نصوص العهد القديم، خسفها الله بسبب المفاسد التي انتشرت بين أهلها وفقًا لرواية الأديان الإبراهيمية. لِسبيا: اسمٌ مستعار استخدمه الشاعر الروماني غايوس فاليريوس كاتولوس للإشارة إلى حبيبته في قصائده. ويُعتقد أن للاسم علاقة بالشاعرة الإغريقية صافو من جزيرة لسبوس. الاسمان «سدوم ولِسبيا» مستخدمان هنا للدلالة على المفاسد وفقًا لمنظور كاتب المقالة. (المترجم)

بأسماء ذكرها العملاء الألمان في تقاريرهم. ثمة أسماء 47,000 رجل وامرأة إنجليز.

إنه خليط يشكل الكاثوليك معظمه. أسماء لمستشارين من المجلس الخاص، وشبان من الجوقة، وزوجات أعضاء من مجلس الوزراء، وفتيات راقصات، حتى أعضاء مجلس الوزراء أنفسهم، في حين تتالى أسماء الدبلوماسيين والشعراء والمصرفيين والمحررين وأصحاب الصحف والعاملين في قصر جلالة الملك دون مراعاة ترتيب الأسبقية.

وكمثالٍ على الإتقان الذي يميز عمل العميل الألماني، ثمة قوائم واردة بأسماء الحانات والنوادي التي أُفسِدت أخلاقيًّا بنجاح، والتي يمكن الاعتماد عليها بعد ذلك لنشر الرذيلة بمساعدة عميلٍ ثابت واحد لا غير. ومن أجل تأمين أولئك الذين يمكن أن تتأذى مكانتهم الاجتماعية بسبب التردد على الأماكن العامة، وُفِّرت شقق مريحة أُثِّثت بأسلوب شهوانيٍّ. وكذلك جرى توزيع صور فوتوغرافية خليعة، في حين طُبِعت كتيبات إشكالية على أنها أعمال مجهولة لكُتَّابٍ معروفين.

سلاحُ البحرية في خطر

لم يُستثنَ أحدٌ في السُّلَّم الاجتماعيّ من التلوث بهذه المنظومة المتكاملة. لقد جُنِّد العملاء في سلاح البحرية على وجه الخصوص، وتحديدًا في غرف المحركات، وهؤلاء تلقوا تعليماتهم الخاصة. وقد

أُسّست حانات سِفاح قُربى في پورتسموث وتشاتام، وحُجِمَت متانة البحارين البريطانيين في نقاط الاجتماع هذه. والأمر الأخطر من ذلك هو أن العملاء الألمان يستطيعون -تحت مظلة هذه الارتباطات البذيئة- تحصيل معلومات تتعلق بتنظيم الأسطول.

حتى المتسكعون في الشوارع لم يَسلموا، إذ وُزِّعَ عملاء القيصر المخادعون على نقاط مثل قوس الرخام وزاوية هايد پارك. في هذا الكتاب الأسود الأثيم، عُرِضت تفاصيلُ تتعلق بالافتضاض غير السويّ لأطفالٍ استُدرِجوا إلى الحدائق بواسطة حفلات أمسيات الصيف الموسيقية.

عالم السياسة الرفيعة

ضمن القذارة التي تصبغ كل ما سبق، وُجِد أن الخطر الكبير يكمن في تقارير أولئك العملاء الذين حصلوا على مدخلٍ إلى عالم السياسة الرفيعة. لقد وقعت زوجاتُ رجالٍ ذوي مناصب عُليا في الشَرَك، وفي خضم نشوة السُحاق أُفشِيَت أكثر أسرار الدولة قداسةً. استُخدِمَت الانحرافات الخاصة بأفراد من طبقة النبلاء عَتَلةً لفتح حقولٍ خصبة للتجسس.

يتضمن هذا الكتاب مَسردَ مصطلحاتٍ يُفترض أن تُستخدم بين ذوي الأرواح المريضة من ضحايا هذا

المرض الباعث على الغثيان، الذي نجحت پوتسدام[1] في نشره ببراعة فائقة.

حيواتٌ على المِحَك

ليس العميل الألماني متبجحًا عديمَ الجدوى في تقاريره الرسمية. إن فكرة وقوع 47,000 رجل وامرأة إنجليز في العبودية لدى العدو بتأثير الخوف تستدعي جميع الأرواح النقية للقتال حتى الموت. يوجد ثلاثة ملايين رجل في فرنسا وُضِعت حيواتهم على المحك، وبسالتهم تضيع سدىً بسبب انعدام الشجاعة الأخلاقية لدى 47,000 من مواطنيهم، بينهم رجال ونساء يكمن مصير هذه الإمبراطورية في أيديهم.

وفقًا لما أراه، ثمة ممارسات تُنشَر بعناية وترمي إلى إفناء العِرق، تطمح ألمانيا إلى استخدامها وسيلةً لمنعنا من الثأر لمدافن الكلس والوحل التي كانت أجدادَنا البريطونيين[2] ذات زمان.

سقوطُ روما

حين أدركتُ كمالَ هذه الخطة الشيطانية في الوقت المناسب، بدا لي أن كل ما أقدم عليه الألمان في حربهم المفتوحة من فظاعات القذائف والغاز والأوبئة ما كان

(1) پوتسدام: مدينة ألمانية كانت تُعتبر العاصمة الثانية للبلاد قبل نهاية الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

(2) البريطونيون: أول قوم سكنوا جزيرة بريطانيا العظمى. (المترجم)

ليملك، في سبيل إبادة رجولة بريطانيا، سوى جزء يسير من فاعلية الخطة التي مكنتهم بالفعل من تدمير الـ47,000 الأوائل.

كما سبق وقلت في هذه الأعمدة، إنه لمن المريع التفكير في أن تسقط الإمبراطورية البريطانية كما سقطت إمبراطورية روما العظمى، وأن يكون المنتصر الآن -كما آنذاك- هو الهون.

لقد فتحت قصةُ محتويات هذا الكتاب عيني، ويجب عدم إغفال هذه المسألة على الإطلاق.

ألقى ريڤرز الورقة من يده. «لو صح أن هذه الخلاعة لا يمكن أن تبتكرها سوى عقول *ألمانية* ولا أن تنفذها سوى أجساد *ألمانية*، فكيف استطاع الـ 47,000 أن يُقدِموا عليها بحق السماء؟»، نزع نظارته ومسح عينيه بيده: «آسف، أنا أتحذلق». نظر إلى مانينغ، فلاحظ خطوط الإجهاد حول عينيه والرجفةَ الشديدة حين رفع لفافة التبغ إلى فمه. بالنسبة إلى شخص مثل مانينغ، يكرس نفسه بإخلاص لعيش حياة مزدوجة، لا بد أن انكشاف جانبَي حياته كليهما للأعين المجهولة أمرٌ يشبه تحطُّم الباب الذي يحجب أعمق أجزاء هوية المرء. «هل أُرسِلَت هذه المقالة إلى أي شخص آخر؟».

- روس، وشخص أو اثنين غيره.

- من أصدقاء روس؟

- أجل.

- معرفة روس... أمر خطر إلى حد بعيد.

- ماذا عساي أفعل يا ريڤرز؟ صداقتي معه ليست حديثة.

تنهد ريڤرز: «لا أظن أن بوسعك فعل شيء».

جلس مانينغ يفكر: «أظن أنني سأجد عونًا لو شعرتُ أن بوسعي فهم الأمر. أقصد، أستطيع أن أرى أن الحرب تسير على نحوٍ سيئ إلى حدٍّ ما، وأنه سيظل ثمة أشخاص يريدون أكباش فداءٍ عوضًا عن *الأسباب*، لكن... لمَ هذا؟ أستطيع أن *أرى* ما يجعل الأشخاص الذين يحملون أسماء ألمانية يتعرضون للضرب المبرح... أو أو الاعتقال. وكذلك بالنسبة إلى معارضي الخدمة. لا أؤيد ذلك، لكن بوسعي أن أفهمه، بيد أنني لا أفهم *هذا*».

«وأنا لستُ متأكدًا أنني أفهمه أيضًا. أظن أنه نتيجة طُفُوِ نزعاتٍ معينةٍ إلى السطح زمن الحرب، ووجوبِ التبرؤ منها بشكل رسميٍّ. كالمثلية، على سبيل المثال. في الحرب، يسود تمجيدٌ هائلٌ للمحبة بين الرجال، ومع ذلك فالأمر يستحث القلقَ في الوقت نفسه. أهو النوع القويم من المحبة؟ حسنًا، إحدى الطرائق التي تجعلك تتأكد من أن يكون النوعَ القويم تتمثل في توضيح الاستنكار العام للنوع الآخر بشكل لا يقبل اللّبس. وإضافةً إلى ذلك، ثمة متعة في القتل...».

بدا مانينغ مصدومًا: «لا أدري إن كان الأمر كذلك...».

- كلا، أقصد المدنيين. إنها متعة تُشبَع بالنيابة، لكنها حقيقية مع ذلك. وخلال هذا، تستيقظ نزواتٌ سادية عادةً ما تُكبَت في الظروف الطبيعية، وهذا أيضًا يسبب القلق. لذا فإن عرض مسرحيةٍ لمؤلِّف معروف *الميول* تُقبِّل فيها امرأةٌ رأسَ رجلٍ مقطوعًا...
- لقد تحدثتُ عن المحاكمة مع جين، قلتُ إنني أظن أن المستهدف الحقيقيَّ كان روس، وشخصًا أو اثنين غيره، فقالت إنها لا تستغرب أن أظن ذلك. إن نظره إلى... ماذا قالت؟ «إن نظره إلى جنسه على أنه غير وثيق الصلة بالقضية المطروحة هو مأثرةٌ تدل على مرونةٍ ذهنيةٍ قلما امتلكها رجل».
- أنا أتطلع إلى لقاء السيدة مانينغ ذات يوم.
- هي تقول إن إن... *النزعة العاطفية* تجاه الدور الذي تلعبه النساء -مساهمتهن في العمل وما إلى هنالك- هي في الحقيقة قناعٌ يُخفي خلفه نوعًا من الخوف المتأصل حيال تجاوزهن للحدود، وتظن أن التشهير بمود آلان ما هو إلا طريقة لتلقينهن درسًا. ليس المقصودات

وحسب، بل النساء جميعًا. كما هو الأمر في تقديم وايلد لسالومي على أنها امرأة قوية، ومع هذا يتحتم أن تُقتَل في الوقت نفسه. أعني أن النهاية صادمة جدًّا، عندما ينهال كل الرجال عليها ويقتلونها.

- وأنت، ماذا تظن بهذا الشأن؟

- أظن أن هذا الطرح ساذج بعض الشيء، فهو يتجاهل تقمُّص وايلد في سالومي. هو لا يقول إنه لا بد من القضاء على النساء الشبيهات بها، بل يقول إنه لا بد من القضاء على الأشخاص الشبيهين بي. وكم كان محقًّا.. *وما يزال*.

لا بأس بكل هذا، قال ريڤرز في قرارته، لكن مانينغ مريض، وليست النقاشات الأدبية هي ما سيشفيه.

«أتظن أن سپينسر مجنون؟»، سأله مانينغ دون تمهيد.

- بناءً على شهادته، أجل. لكن بخصوص ما إن كان سيعتبر مجنونًا...

- ثمة تباين غريب بين هذا وبين ما حدث مع ساسون، أليس كذلك؟

بدت المفاجأة على ريڤرز.

«أقصد الاحتفاء بسپينسر هكذا. أما ساسون، ما إن قال شيئًا معقولًا تمامًا عن الحرب حتى زُجَّ به في مستشفى أمراض عقلية».

بالطبع، قال ريڤرز لنفسه، لا شك أن جميع أفراد دائرة روبرت روس على دراية بقصة احتجاج ساسون على الحرب، والدور الذي لعبه هو في إقناعه بالعودة.

قال مانينغ: «أظن أنه لا ينبغي لي أن أذكره؟».

- لمَ لا؟

- لأنه من المرضى.

- إنه شخص نعرفه كلانا.

- الأمر أنه يخطر ببالي مؤخرًا. كنتُ أتساءل إذا ما كانوا يملكون الجرأة لإرسال هذه المقالة *إليه*، أو إلى أي أحد هناك.

- أعتقد أن الفكر الذي يُنتِج هذا الكلام ليس قادرًا على استيعاب احتمالية أن يكون أيٌّ من «الـ 47,000» في فرنسا.

حتى الآن، كان مانينغ يجد الحديث عن الحرب مستحيلًا عليه، لكنه عن نفسه سيُنكر هذا إن سُئِل، ويقول إنهما يتحدثان عنها طيلة الوقت: الاستراتيجية، التكتيكات، الأهداف الحربية، ردة الفعل الشحيحة على نحوٍ مستغرَب من الكتّاب المدنيين، قصائد ساسون وغريفز. وفجأةً، رأى ريفرز أنه يلمح طريقةً كي يبدأ بفتح الموضوع عنوةً، لكن برفق شديد. «هل لديك اطلاع على النظرة الفرويدية المتزمتة إلى عُصاب الحرب؟»، سأله وهو يعرف أنه قرأ نسبةً من أعمال فرويد.

- لم أكن أعرف بوجودها.

- أوه، بلى. بشكل أساسيٍّ، يعتقد هذا الرأي أن البيئة المكونة من الذكور بالكامل، مع وجود سوية عالية من الحدة العاطفية، بالتضافر مع التجربة الحربية، تستحث النزعات المثلية والسادية التي تكون مكبوتةً في الحالة الطبيعية. وهذا يقود لدى الرجال الذين في موضع ضعف -والذين تكون الرغبات المكبوتة قوية فيهم بشكل خاص- إلى الانهيار.

- أهذا ما تعتقده أنت؟

هز ريفرز رأسه: «أريد أن أعرف رأيك».

«لا أعلم ما يجعل الآخرين ينهارون، غير أنني لا أظن أن للجنس علاقةً تُذكَر بانهياري أنا»، ابتسامة طفيفة: «لكنني، في المقابل، لستُ مكبوتًا».

رد ريفرز الابتسامة بمثلها: «لكن لا بد أن يكون لديك... ردة فعل غريزية، تقول إن الأمر ممكن، أو إنه محض هراء، أو...».

- أحاول أن أفكر. أتعرف قصيدة ساسون «القبلة»؟

- تلك التي تتحدث عن الحربة، أجل.

- أعتقد أنها أقوى قصيدة كتبها على الإطلاق. كما تعرف، لم يسبق لي أن خدمتُ برفقته لذا ما سأقوله ليس مُستقى من تجربة شخصية، لكنني تحدثتُ كثيرًا إلى روبرت غريفز، وهو يقول إن حجم الالتفاف الذي يقوم به ساسون كي يكون شخصين مختلفين تمامًا على الجبهة مذهل

للغاية. فهو كما تعلم قائد فصيلة ناجحٌ إلى حدٍّ هائل ومتعطّش *للدماء*، ومع ذلك -في الوقت نفسه- ما إن يعود إلى مساكن الجنود حتى يخرج الدفتر ليكتب قصيدة أخرى مناهضة للحرب. والقصيدة تستخدم تجربة قائد الفصيلة، إلا أنها لا تستخدم أيًّا من توجهاته وسلوكياته. لكنه رغم ذلك، لمرة واحدة، في هذه القصيدة تحديدًا، يضع كلتا نسختَي ذاته.

أجل، فكر ريڤرز. «أجل»، قال: «أرى ذلك».

«كما أنها تعج بالمواربات بالطبع، لكنني أظن أن من السهل النظر إلى ذلك على أنه مسألة أمور شخصية... لا أدري ما هي. الحقيقة أن موقف الجيش تجاه الحربة هو ذاته ملتبس إلى حدٍ ما؛ إن قرأتَ كتيبات التدريب وجدتَها تسهب جميعها في الكلام عن أهمية الالتحام القريب. لا بأس في ذلك، لكن الأمر يشكل لديك انطباعًا عن وجود قيمة في هذا الالتحام مستقلة عن تحقيقه لأهدافه من عدمه؛ إنه حرب حقيقية، حرب *رجولية*، على عكس كل ذلك الهراء المتعلق بالرشاشات والقذائف. وهذا ينعكس في التدريب، أعني أنه عبارة عن تيارٍ طويل من التلميحات. «*اطعنه في خصيتيه، لا مزيد من الأعطاب الصغيرة*». لو أن ساسون استخدم مثل هذه اللغة لما نُشِرت قصائده قط»، توقف مانينغ بغتةً: «أتعلم؟ أظنني نسيتُ ما كنتُ أريد قوله. كلا، تذكرت، كنت أحاول... كنت أحاول أن أكون صريحًا وأفكر إذا ما كنت أكره تمرين الحربة أكثر من غيري لأن... لأن الجسد الذي يمثله كيس التدريب هو جسدٌ أُ... هيا يا ريڤرز. مصطلح سيكولوجيٌّ لطيف؟».

- جسدٌ تحبه.

- لا أعرف ما هو الجواب. لا *أظن* ذلك، فجميعنا نكره ذلك التمرين. لا يمكنني أن أعرف ما إذا كنتُ أكرهه أكثر من غيري، لأننا لا نتحدث عن الأمر. كل القصة أنه عمل لعين مريع، ومع ذلك نؤديه دون تردد. أعني أن المرء يزيح أجزاءً ضخمةً من نفسه جانبًا على كل حال.

- أهذا ما فعلتَه أنت؟

«أعتقد ذلك»، بدا يهم بمتابعة كلامه للحظة، ثم هز رأسه.

حين تأكد ريڤرز أن مانينغ لن يضيف شيئًا، قال: «تعلم أنه سيتعين علينا الحديث عن الحرب يا تشارلز».

«أنا أتحدث عنها بالفعل».

صمت.

«كل المسألة أنني لا أرى النفع الذي يمكن جنيُه من خضخضة الأمور. أعلم ما تقوله النظرية»، أطرق ينظر إلى يديه: «حين كان ابني روبرت صغيرًا... اعتاد أن يستمتع بالاستحمام، ثم بات يعارض ذلك على حين غرة. صار يتخشب ويصرخ ملءَ رئتيه كلما حاولت مربيتُه وضعه في الحوض، ثم اتضح أنه كان يشاهد المياه وهي تنزل في فتحة التصريف، فاعتقد -كما يبدو- أنه قد ينزل معها هو نفسه. الجميع قال له إن هذا محض غباء»، ابتسم مانينغ: «لكن يجب أن أقول إن الأمر بدا لي خوفًا منطقيًّا *للغاية*».

ابتسم ريفرز: «لن أتركك تنزل في فتحة التصريف».

على العشاء، دار الحديث بأكمله حول محاكمة پمبرتون بيلينغ. كان الجميع محبَطين بسبب الخبرة الطبية، بما أنها المرة الأولى التي يُستدعى فيها أطباء نفسيون إلى المحكمة لإبداء رأيهم في موضوع كهذا. «وعلامَ حصلنا؟»، سأل أحدُهم: «على حديث سيرل كوك غير المترابط حول الوحوش والانحطاط الوراثي. هذا الرجل أضحوكة».

إن صح ذلك، فلا بد أنني فقدتُ حس دعابتي، قال ريفرز في قرارته.

سرَّهُ، بعد العشاء، أن يفر من المستشفى ليتمشى في أنحاء الساحة. لقد أصبحت لندن مكانًا باعثًا على الكآبة، ما من مُلصقٍ أو هتاف بائع صحفٍ أو عنوان في صحيفة إلا ويسلط الضوء على المحاكمة. اللورد ألفريد دوغلاس يعتلي منصة الشهود الآن، والظاهر أنه يُحمِّل مسرحيات أوسكار وايلد مسؤولية أداء إنجلترا الضعيف في الحرب؛ التحامل اللامنطقي الذي يعربد في أولد بيلي يدحر كل اعتبارٍ جادٍّ للأوضاع الرهيبة في فرنسا إلى المرتبة الثانية. لقد كان مانينغ محقًّا تمامًا بالطبع، الناس لا يريدون أسبابًا، بل أكباش فداء. يمكن رؤية هذا في المستشفى أيضًا، حيث يزداد العداء تجاه مساعدي التمريض المناصرين للسلام مع تردي الأخبار الواردة من فرنسا، بيد أن في ذلك شيئًا من المنطق. الرجال يُساقون بالسياط ليعودوا إلى مكانهم في الصف، *إلى خط القتال*. إلا إذا كان يعاني من المشكلة التي شخصتها جين

مانينغ، أي عدم القدرة على النظر إلى جنسه باعتباره هامشيًا بالنسبة إلى أي شيء. لكن لا، هو يظن أن مانينغ على حق؛ تكاد الصدفة تكون ما وضعَ مود آلان في مرمى النيران، أما المستهدفون الحقيقيون فهم الرجال الذين لا يستطيعون -أو لا يقبلون- التكيف.

تحوَّل تفكير ريفرز نحو ساسون. لقد أظهرت تجربة مانينغ بوضوح أن جميع أفراد دائرة روبرت روس في خطر، وهم معرَّضون لنفس المعاملة التي يتلقاها روس نفسه. وما يزيد الطين بلةً هو كون روس معارضًا للحرب، رغم أنه لم يقر ساسون على احتجاجه، مستندًا في موقفه هذا -استنادًا محقًا برأي ريفرز- إلى أن الاحتجاج سيدمر ساسون دون أن يكون له أدنى تأثير في سير الأحداث. كانت الطريقة التي يتبعها روس في معارضته للحرب -وفقًا لمانينغ- تتمثل في عرض صور الجثث المشوهة على أي مدنيٍّ قد تنفع معه الصدمة. ريفرز مسرور لكون ساسون بعيدًا بما يكفي عن روس، وعن المحاكمة.

لقد حاول ذات مرة في كريغلوكهارت أن يحذر ساسون من الخطر، وأخبره في نوفمبر الماضي عن *الغرفة السوداء*، والكتاب الأسود، وأسماء الـ 47,000 شخصية بارزة من رجال ونساء جعلَتْهم حيواتُهم المزدوجة هدفًا سائغًا للابتزاز الألمانيّ.

- *هوِّن عليك يا ريفرز، أنا لستُ شخصيةً بارزة.*
- *كلا، لكنك صديقٌ لروبرت روس، كما سبق لك أن ناصرت التوصلَ إلى السلام بالتفاوض علانيةً، وهذا كافٍ! أنت في موضع ضعفٍ يا سيغفريد، لا جدوى من الادعاء بعكس ذلك.*
- *وكيف يفترض بي أن أتصرف حيال هذا؟ أمشي لصق الحائط، أم أفضّل آرائي... لكن ما تقوله فعليًا هو التالي: إن كنتُ لا أستطيع أن أتكيف في أحد مجالات الحياة، يجبُ عليَّ أن أتكيف وأكون مطيعًا في المجالات الأخرى. لا في ما يخص الأمور السطحية فقط، بل كل شيء، حتى ما يخالف ضميري. حسنًا، أنا لا أستطيع أن أعيش هكذا. لا أحد ينبغي أن يعيش هكذا.*

كان من المبهج التحدث مع مانينغ عن سيغفريد، فباستثناء روبرت غريڤز الذي يراه ريڤرز أحيانًا، مانينغ هو الشخص الوحيد الذي يعرفانه كلاهما.

الساحة مهجورة، ففي ليالي بدر التمام يسارع الناس في العودة إلى أمان أقبيتهم. بدا وقْع قدمَي ريڤرز كما لو كان يتبعه، مرددًا صداه على طول الرصيف الخاوي. لقد انزلق القمر وبان من خلف غبش آخر كومة غيم، فاستطال ظلُّه أمامه بحواف تكاد تكون حادةً كما هي في وضح النهار.

يا لها من ليلةٍ رائقة.. ليلةٍ هادئة جدًّا. هذه الليلة تُخبِّئ لنا الكثير، قال لنفسه. هذا أمرٌ لم يكن عليه أن يتحمله في كريغلوكهارت: قنابل تهوي ضمن مدى سمعِ المرضى الذين يقفزون إلى خارج جلودهم إن اهتزت ملعقة شايٍ في صحنِ كوب. استدار وبدأ يسير سريعًا نحو المبنى المظلمِ مغلَقِ المصاريع.

13

هيد هو المستيقظ الوحيد داخل المستشفى النائم. الكمامة تحجب وجهَه والرداء الجراحي يستر جسده، وفوق رأسه يضيء مصباحٌ وحيد، وهو واقف عند طاولة تشريح يرقد فوقها رجلٌ، عاريًا، وجهُه نحو الأعلى، ينضح برائحة الفورمالدهيد. أعضاء التناسل منكمشة، وللجلد لون الورق القديم الذهبيُّ الكالح. هيد يُتِمُّ رسمَ محيط شكلٍ على الرأس الحليق، ويقول: «حسنًا إذًا»، ثم يمد يده المكسوة بقفاز نحو المثقب. لكن ثمة خطأ؛ فيما يتصاعد أزيز المثقب، يتزحزح الرجل ذو الجلد الذهبيِّ. يحاول ريڤرز أن يقول: «توقف، إنه حي»، لكن هيد لا يستطيع -أو لا يريد- أن يسمعه. صوتُ صريرٍ يصدر عن العظم، وفمٌ ينشدُّ مفتوحًا عن آخره، ثم يدٌ تقبض على يد هيد من معصمها، والجثة -بكامل رعب عريِها وجلدها نصف المسلوخ- تنهض عن الطاولة وتدفعه إلى الخلف.

الدهليز خارج غرفة ريڤرز يمتد طويلًا خاويًا، أرضيته تومض مُلمَّعة. ثم ينفتح الباب في نهايته بصوت يشبه اصطفاق الأجنحة وتقفز الجثة عبره، تدب من باب إلى باب وهي تتشمم محاولةً تحديد موقعه بالرائحة أكثر مما بالبصر. وأخيرًا، تجد البابَ الصحيح، وتندفع نحو السرير لتنحني فوقه، ثم تُقحم وجهها الشبيه بالرسم التشريحيِّ في وجهه، فيما هو يناضل كي يستيقظ ويتذكر أين هو.

يا للمسيح. عاد إلى الاستلقاء، واعيًا تدفُّقَ العرق على صدره وفي منفرجه. إنه على سرير مستشفى، مرتفعٍ للغاية، ضيق للغاية. والفراش مكسوٌّ بمطاط

يطقطق مع حركته. كان يستطيع أن يرى رميم الوجه ذاك منحنيًا فوقه. في هذه اللحظات الفاصلة بين النوم واليقظة، بوسعه أن يفعل -لهنيهة- ما يعتبره الآخرون أمرًا مسلَّمًا به: رؤية أشياء لا وجود لها.

بسرعة، قبل انقضاء اللحظة، بدأ يحلل الصور التي ألّفت الحلم. لم تكن غرفةُ التشريح التي في الحلم غرفةَ معهد التشريح التي راقب فيها هيد في أثناء عمله هذا الصباح، بل مدرج التشريح في كلية بارت حيث تلقى تدريبه.

الانطباع الشعوريُّ الذي خلَّفه الحلم يتصف عمومًا بشيءٍ من... استلقى مغمضًا عينيه في الظلام، يغربل الانطباعات. شيء من التدنيس. أن يتخيل هيد، أكثر الرجال دماثةً، يثقب جمجمة بشريٍّ واعٍ هو نوع من الخيانة. إن صلة الحلم بتنفيذ هيد للفحوصات على لوكاس واضحة؛ لقد فكر ريفرز -وهو يراقب هيد ينظر إلى لوكاس- أن تعطيل التعاطف الضروري لأداء الطبيب مهامَّه هو نفسه، في سياقات أخرى، أساسُ كل الفظاعات. ليس الجندي فقط، بل الجلاد أيضًا، يطبق هذا التعطيل ذاته.

الحلم يدور حول الانفصال التفارقي، وهو -كحال معظم أحلامه هذه الأيام- حلمٌ عن العمل. يبدو أنه ما عاد يحلم أحلامًا عن الجنس أبدًا، رغم أن الصراعات الجنسية كانت قبل الحرب موضوعًا متكررًا للأحلام. لعل النظرة التشاؤمية تردّ ذلك إلى كونه منهَكًا للغاية، بيد أنه يرى المسألة أكثر تعقيدًا -وإثارةً للاهتمام- من ذلك على الأرجح لكن وقته لا يسمح له باستبطان ذاته. لا وقت لذلك الآن قطعًا. نهض جالسًا وراح يهز سترة منامته كي يطرد العرق، ثم استلقى من جديد وحاول تركين نفسه لينام. هو لا ينام جيدًا على الإطلاق في الليالي التي يقضيها في المستشفى، وذلك بسبب السرير غير المريح من جهة، ولأن توقُّع أن يوقَظ يُبقي نومه خفيفًا من جهة أخرى.

بالكاد كان قد بدأ ينزلق إلى النوم حين انطلقت الصافرات.

عندما دق مساعدُ التمريض على بابه، كان قد نهض من سريره وأخذ يربط الروب دو شامبر. تبع الرجلَ عبر الدهليز إلى الجناح الرئيسيِّ، حيث استقبلته الأخت والترز. إنها جوردية[1] نحيلة، لها أنف طويل وبشرة

(1) الجورديون: أهالي منطقة تاينسايد الواقعة شمال شرقي إنجلترا، وثمة إجماع على أن كلمة جوردي مشتقة من تصغير لاسم «جورج». (المترجم)

باهتة وعرقُ حقدٍ طبقيٍّ دسّاسٌ يذكّره بپراير، ومن الغريب أن هذا الحقد يبدو موجهًا بكامله نحو بنات جنسها. فهي تكره فتيات مفرزة المساعدات التطوعية[1]، ومعظمهن بنات عائلات حسنة «يؤدين دورهن» -والحق يقال- بدرجات متفاوتة من الجدية، وتحب مرضاها الضباط وتناديهم «فتياني»، أما فتيات المفرزة -وهن في النهاية من خلفية اجتماعية مماثلة- فتبغضهن فعلًا. في إحدى ليالي ديسمبر الماضي، بينما كانت المدافع تضرب والأرض تهتز تحت القصف المباشر لجسر ڤوكسهول، جلسا يحتسيان الكاكاو معًا، فذُلِّلَت حواجزُ التراتبية الوظيفية بينهما بما يكفي على الأقل كي تقول بمرارةٍ لاذعة: «إنهن يثرن اشمئزازي، هن وأسطوانتهن المشروخة: «أوووه! انظروا إليَّ! أنا أمسح الغبار!»، «أنا أكنس الأرضية». أتعلم؟ في أثناء خضوعي للتدريب كنا نتلقى ثمانية جنيهات *في العام*، مقابل سبعين ساعة عمل أسبوعيًّا، وكان ذلك يقيم أودنا».

كان يجري تحضير الكاكاو الآن وتوزيعه على الصواني، وأخذ ريڤرز يتنقل من سرير إلى آخر في الجناح الرئيسيّ. معظم الرجال هادئون إلى حدٍّ معقول، غير أن التشنجات والرعشات أشد من الحالة الطبيعية. في الغرف الفردية، حيث يقيم المرضى ذوو الاضطرابات الأخطر، كانت علامات الضيق تسترعي الشفقة. هؤلاء رجال سبق لهم أن اجتازوا بالمزاح غاراتٍ اهتزت لها أكواب الشاي في كِنت، والآن فقدوا صلابتهم تمامًا. لقد بلَّل ويستون نفسَه، ووقف وسط غرفته ينتحب فيما جثتْ أمامه ممرضة تتحايل عليه كي يخرج من دائرة القماش المبللة. تولى ريڤرز الزمام عنها، فألبس ويستون منامة نظيفة وأعاده إلى السرير. ظل معه حتى هدأ، ثم سلّم الأمر إلى أحد مساعدي التمريض وذهب يبحث عن الأخت والترز.

ناولته كوب الكاكاو خاصته: «النقيب مانينغ يدخن، أتظن أن بوسعك...».

«أجل، بالطبع».

---

(1) مفارز المساعدات التطوعية: وحدات من المتطوعين المدنيين كانت تقدم رعاية تمريضية للطاقم العسكري في المملكة المتحدة ودول أخرى تابعة للإمبراطورية البريطانية، بلغ نشاطها أوْجَه في الحربين العالميتين، ولم يكن أفرادها خاضعين لسلطة الجيش رسميًّا. شكلت النساء والفتيات ثلثَي عدد الأعضاء الإجمالي في عام 1914. (المترجم)

في كريغلوكهارت، كانت رائحة السجائر معشعشة في الدهاليز، وتوصّلَ الطاقمُ إلى عدم ملاحظتها. أما هنا، بوجود جناحين مملوءَين بالمرضى المشلولين، لا بد من فرض قاعدة عدم التدخين. نقر ريفرز على الباب مرةً ودخل.

كان مانينغ يجلس على السرير متكئًا. «أهلًا»، قال بنبرة تشي بمفاجأته.

«أخشى أن عليَّ أن أطلب منك إطفاءها، فلدينا مصعدان وعشرون كرسيًّا متحركًا».

«أجل، بالتأكيد»، سحق مانينغ لفافته: «يا لغبائي. لم أكن أعلم أنك تناوب ليلًا».

- فقط في ليالي اكتمال القمر.

- كنت أظن أن نظرية الأمراض العقلية هذه نُسِفت.

ابتسم ريفرز: «تعلم ما أقصده».

- قالت الأخت والترز إنهم ضربوا جسر ڤوكسهول مرتين، أهذا صحيح؟

- أجل، لكن لا حاجة إلى القلق حين يصيبونه، علينا أن نقلق فقط إذا أخطؤوه.

- هذا يذكّرني بالميلاد الماضي. أتتذكر تلك الغارة؟ كنت أَبيت عند روس، وساسون كان هناك أيضًا، وكان الأمر مضحكًا جدًّا لأنها أول غارة أختبرها، وعقدتُ عزمي على أن أكون المحارب القديم المتزن هادئ الأعصاب وأهدّئ روع المدنيين المتوترين المساكين. أخفقت في ذلك أيما إخفاق، مدبرة منزل روس أبلت أحسن مني، وكذلك كان حال ساسون، بل إنني أتذكره يقول: «الجلبة كلها تدور حول ما إذا كان يجدر بي أن أعود أم لا، لكنني لن أكون ذا نفع على الإطلاق حين أعود».

سُمِع صوت غناء أجش. قال مانينغ: «أصغِ»، وبدأ يغني معهم، بصوت مسموع بالكاد.

قُصِفنا ليلة أمس

وقُصِفنا الليلةَ التي قبلها

وسنُقصَف الليلة

ولو لم نُقصَف بعد الآن أبدًا.

حين نُقصَف نكون خائفين إلى أقصى حد...

«أول مرة أسمع هذه الأغنية خارج فرنسا»، سكوت: «أتعرف؟ كنت أفكر في ما قلتَه... بشأن التذكر ومحاولة الحديث عن الأمر».

أسند ريڤرز ذقنه إلى يديه وقال: «تابِع». حتى فيما هو يتكلم، تذكر تقليد پراير لهذه الوضعية بدقة خبيثة. *اللعنة على پراير.*

«أتتذكر تلك النوبات التي تصيبني؟ إنها تميل إلى أن تبدأ بحلم يقظة من نوعٍ ما. ليس شيئًا ذا بال في الواقع، ليس مروعًا، مجرد طابور من الرجال يتقدمون فوق معبر خشبيٍّ وهم يرتدون أقنعة غاز وحرامل[1]. ثمة لون أصفر مخضر يصبغ كل شيء، اللون الذي تراه حين تنظر من خلف قناع غاز، المنظر المعهود للـ... عصيدة»، بلع ريقه: «إن انزلق رجلٌ عن المعبر لا يكون بالإمكان دائمًا انتشاله، وأحيانًا يغرق وينتهي الأمر. الحقائب ثقيلة جدًّا كما تعلم، وعمق الوحل يبلغ خمسة عشر قدمًا. ليس كالوحل المعتاد، هو أشبه بمستنقع، إنه... يبتلع. يُفترض أن يتمسك كلٌّ بحقيبة الرجل الذي أمامه».

- وأنت تقول إن هذا... الحلم يقدح الزناد للنوبة؟

- لا أدري، هذا ما أفترضه.

- أي جزء بالتحديد؟

حاول مانينغ أن يجيب، ثم هز رأسه.

- إن كان عليك أن تختار الأمر الأسوأ، فماذا عساه يكون؟

- ثمة يد تخرج من الوحل، إنها ممسكة بالمعبر الخشبيِّ و... لا شيء آخر، كل ما سوى ذلك في الأسفل.

صمتٌ قصير.

---

(1) حرامل: جمع حرملة، وهي رداء قصير وواسع مشقوق من الأمام يُحيط بالعنق ويقع على الكتفين مُتدليًا فوق الظهر والذراعين. (المترجم)

«أوه، وهنالك صوت»، مد مانينغ يده نحو سجائره ثم تذكّر أنه لا يستطيع أن يدخن: «هو لا يصدر عن أي شخص، لكنه ببساطة... هناك».

انتظر ريڤرز. «ماذا يقول؟».

««أين سكادر؟»»، ابتسم مانينغ: «إنه صوت ضئيل بغيض *عارف*. «أين سكادر؟ أين سكادر؟»».

«وهل تُجيبه؟».

هز مانينغ رأسه: «لا جدوى، فهو يعرف الجواب».

صمْت، باستثناء صوت الغناء الذي أخذ يخفت، ثم ضربات المدفعية المكتومة القادمة عبر المسافة.

قال ريڤرز: «أتعرف؟ إن نزلنا إلى غرفتي سيكون بوسعك أن تدخن».

بدت المفاجأة على مانينغ: «*الآن؟*».

«لمَ لا؟ إلا إن كنت تعتقد أن بمقدورك العودة إلى النوم؟».

لم يُجِب مانينغ عن هذا السؤال، فما من حاجة.

«هاك»، قال ريڤرز وهو يضع منفضةً عند مرفق مانينغ. كان المصباح يخلق دائرةً من الضوء حول المكتب، عالَمًا.

«أنت لا تدخن، أليس كذلك؟»، سأله مانينغ وهو يشعل لفافته.

«سيجار من آنٍ إلى آخر».

سحب مانينغ الدخان بعمق مغمضًا عينيه. «أحد الأسباب التي تجعلني لا أتحدث عن الأمر»، قال مبتسمًا: «إلى جانب الجبن، هو أن ذلك يبدو عديم الفائدة للغاية».

- لأن من المستحيل أن تجعل الناس يفهمون؟

- أجل، حتى في ما يخص الأمور الصغيرة نسبيًا. الإحساس الذي يعتريك حين تدخل النتوء، لا سيما إن كان قد سبق لك الوجود هناك وكنت تعرف ما تواجهه. أنت تودِّع كل شيء بالفعل، تضع قدمًا أمام الأخرى، خطوة، ثم التالية، ثم التالية.

أمهله ريفرز.

«الأمر... عصيٌّ على الاستيعاب»، قال مانينغ أخيرًا: «لا أقصد أنك لا تستطيع استيعابه لأنك لم تكن حاضرًا هناك، بل أقصد أنني *أنا* لا أستطيع استيعابه رغم أنني كنت هناك. عقلي لا يقدر أن يحيط به».

- كنتَ ستخبرني عن سكادر.

- حقًّا؟

التقت أعينهما.

ابتسم مانينغ: «أجل، أظنني كنت سأفعل. لقد كان أحد رجال سَريتي. كما تعلم، الأمر برمته يستند إلى فكرة أنك إن كنت تملك العدد الصحيح من الأذرع والسيقان ولا تعاني اعتلالًا عقليًا فعليًا فمن الممكن تحويلك إلى جندي. حسنًا، سكادر كان دليلًا حيًّا على عدم صحة ذلك. لقد كان ميئوسًا منه، وكان يعلم هذا. في الليلة التي سبقت موعد تحرُّكنا، شرب حتى نال السكر منه. كثيرون فعلوا ذلك، لكنه كان... بلا ساقين. لم يأتِ إلى الاستعراض العسكريِّ، ولذلك خضع لمحاكمة عسكرية. لقد ذهبتُ لرؤيته في الليلة السابقة، كان محتجَزًا في حظيرة، فجلسنا على بالة قشٍّ وتحدثنا. اتضح أنه تلقى علاجًا لصدمة القصف العام السابق، بالصعق الكهربائيِّ. لم أكن أعرف أنهم يفعلون ذلك».

«أوه، بلى»، قال ريفرز: «يفعلونه».

«لقد كان في مِيسين عندما انفجرت الألغام. يبدو أنه اعتاد أن يحلم بالألغام والدماء، ويهز رأسه بعنف مُصدِرًا أصواتًا غبية. هكذا سماها الطبيب، *أصواتًا غبية*. على كل حال، نجح ذلك إلى حدٍّ ما، الصعق الكهربائي. في الليلة التي تلت تلقيه العلاج لم يحلم بالألغام، بل رأى في منامه أنه في الخنادق من جديد يتلقى علاجًا بالصعق الكهربائيِّ. ظللتُ معه بضع ساعات كما أعتقد»، ابتسم مانينغ ابتسامةً واهية: «كان شابًا لا أتعسَ من مظهره. أذكر لك هذا تحسبًا لاحتمال وجود فرويديٍّ عقائديٍّ يقبع تحت طاولة مكتبك».

تظاهر ريفرز أنه ينظر: «كلا، ولا خلف المكتب كذلك».

ضحك مانينغ: «الأمر أنه كان لامع الذهن إلى أبعد حد. ولا أدري إن كان هذا بسبب العنجهية أم... أم ماذا، لكنني كنتُ أفترض أنه ليس ذكيًّا. في

الواقع لا أظن أنها كانت العنجهية، كل الأمر أنه كان سيئًا للغاية في كل شيء. لا يمكن تصديق أن عقلًا ذكيًا يقف وراء كل تلك... الإخفاقات، لكن الأمر كذلك»، صار التعبير عن وجهه نائيًا للحظة: «بعد ذلك، بتُّ ألاحظه أكثر. كنتُ أظن...».

- بمَ عوقِب؟

- في المحاكمة العسكرية؟ بساعتين من العقاب الميدانيّ يوميًّا. بينما يستريح الآخرون جميعهم -هه!- ينظف هو عربات المدافع، وما إلى هنالك من مهام. كنتُ أتوقف وأتبادل معه بعض الكلمات. لا أظن أن هذا ساعده، لأنه كان يُبعده عن الرجال الآخرين، والرجال الآخرون هم من يجعلونك تستمر في نهاية المطاف.

- تابِع. تقول إنك كنت تظن...

- كنت أظن أنه أخرق. ثم بعد هذا الحديث، رحتُ أراقبه. راقبتُه خلال التدريب على الحربة، وهو ينقض ويطعن و... *يخطئ الهدف*. الهدف بهذا الحجم كما تعلم، ومع ذلك كان يخطئه. وفجأةً أدركتُ أن الأمر لا علاقة له بالخُرق، هو لم يكن قادرًا على ضغط زر الإطفاء، لم يكن قادرًا على... إيقاف الجزء الذي يبالي فيه. أنا موقن تمامًا أنه، حين يتمكن من إقحام الحربة أخيرًا، كان يرى دماءً، وهذا نقيض ما ينبغي أن يحدث. أتعلم؟ لقد رأيتُ ذات مرةٍ رجالًا... في الالتحام القريب، وفقًا لتعبير إرشادات التمرين، وكان أحدهم يردد التوجيهات في أثناء التنفيذ: *اطعن*، واحد، اثنان، *اقتلِها*، واحد، اثنان، *أخرِجها*، واحد، اثنان... قتلٌ بالخطوات حرفيًّا. وهكذا ينبغي أن يسير الأمر؛ إن كان الرجل قد تلقّى تدريبًا لائقًا، سيؤدي عمله في اليوم الفصل كالآلة ذاتية التشغيل تقريبًا. وسكادر كان على النقيض من ذلك، الأمر برمته يسير معه عكس المفروض بطريقةٍ ما. وأعتقد أن ذلك على الأرجح بسبب الانهيار، إذ بوسعي تصور شيء من النوع نفسه يحدث معي. فالأحمر على سبيل المثال، اللون الأحمر أينما كان، حتى لو في زهرة أو كتاب، أراه دمًا دائمًا.

كان قد حلَّ على ريفرز سكون شديد، وانتظر.

- حين كنتُ هناك، كان الدم يغمرني حتى المرفقين أحيانًا دون أن يزعجني ذلك. كأن المشاعر الطبيعية فيّ لم تنقطع، بل عوضًا عن ذلك زال كل شكلٍ للفصل بينها، باتت كلها تتلاطم كالأمواج متداخلةً في بعضها. لا أدري إن كان لهذا معنى.

- بل مفهوم جدًّا.

سكوت. «على أي حال، سرنا إلى الأمام. كانت تمطر. لا أعرف لماذا أحمِّل نفسي عناء قول هذا، فقد كانت تمطر طوال الوقت، أبواب السماء كانت مفتوحة. وقد أُمِرنا بالوصول إلى *المقبرة*»، ضحك مانينغ، ضحكةً صادقة من القلب: «قلتُ لنفسي: «رباه، أحدهم قد تطور لديه حسُّ دعابة». لكن ذلك كان صحيحًا تمامًا، لقد تم *إيواؤنا* في المقبرة. وكان الأمر استثنائيًّا؛ القذائف دمرت جميع القبور، وبوسع المرء أن يرى ما في داخل المدافن، كل هذا في منطقة تترامى الجثث في جميع أنحائها أصلًا. فعملية جمْع الموتى ودفنهم تعطلت بأكملها، أينما نظرتَ وجدتَ جثثًا أو أشلاء جثث، ومع ذلك فقد فتنت هذه المدافنُ بعض الشبان الأصغر سنًّا، وسكادر كان من بينهم. كنت تصادفهم مستلقين على بطونهم يحاولون النظر عبر الثقوب، لأن الماء كان يفيض داخل المدافن، والتوابيت تطفو في الأنحاء. بدا الأمر تقريبًا كما لو أن هؤلاء الأشخاص موتى *حقًا*، والجثث الملقاة على الطريق ليست كذلك. هذا إن اعتبرنا أننا أنفسنا كنا أحياءً في الأساس.

تعرَّضنا للقصف تلك الليلة، وأصيب ثلاثة رجال. كنت أنظِّم حَمَلة النقالات -ليس عملًا سهلًا كما قد تتخيل- وما إن انتهيتُ حتى جاء هاينز وقال: «اختفى سكادر». لقد نهض وسار مبتعدًا ببساطة، ظن الرجال أنه ذهب إلى المرحاض، بيد أنه لم يرجع. شكَّلنا مفرزة بحث. قلت لنفسي إنه ربما سقط داخل أحد المدافن، فأخذنا نزحف في الأرجاء وننادي اسمه، وأنا أعلم طيلة الوقت أن هذا ليس ما حدث. قررت أن أذهب وراءه. أعرف، ليس هذا ما يجدر بقائد سَرية أن يفعله، لكن كان لدي نائب جيد جدًّا وكنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون ابتعد كثيرًا. كما ترى، كل شيء كان يمهد للهجوم، والطريق مسدود تمامًا. أملتُ أن أستطيع الوصول إليه قبل أن تمسك الشرطة العسكرية به، فلو حدث ذلك لأطلقوا النار عليه، إذ كنا قد تقدمنا بما يكفي كي يُعتبر

تصرفه فرارًا عند مواجهة العدو. رحت أسير بمشقة متخبطًا، وكان الأمر شبه مستحيل بحق، ثم رأيته. لم يكن قد ابتعد كثيرًا. عندما أدركته في السير لم ينظر إليَّ حتى، بل تابع طريقه ببساطة، وأنا سرتُ بجانبه وحاولت أن أكلمه، وكان واضحًا أنه لا يصغي، لذا دفعتُه إلى خارج الطريق، فانزلقنا إلى الأسفل وتوقفنا عند حافة حفرة خلَّفتها قذيفة. ثمة دائمًا غاز عالق على وجه الماء، وحين تقترب تشعر بوخز في عينيك. كان كئيبًا، وحاولت التحدث إليه، فقال: «هذا جنون»، وأجبته: «أجل، أعرف، لكننا ملزمون بالتنفيذ جميعنا». ثم انتهى بي المطاف ببساطة إلى تعداد أسماء، رجالٍ في فصيلته، وقلت: «عليهم أن يفعلوا هذا، وأنت لن تفعل شيئًا إلا أن تزيد صعوبة الأمر عليهم». في النهاية، نهض ببساطة وتبعني، مثل حَمَل صغير».

تقلَّب مانينغ في مقعده ومد يده ليأخذ لفافة أخرى: «تابعنا التقدم حالما عدنا تقريبًا. كانت الأوامر تمتلئ بكلمات مثل «خنادق» و «مواضع هجوم»، لكن لم يكن ثمة أي خنادق، وموضع الهجوم عبارة عن خط من العصي المربوطة بقطعٍ من الأشرطة البيضاء. كنا قد تأخرنا في الوصول، وبدأ الضوء يبزغ، لو أننا لم نتأخر لتابعنا زحفنا متجاوزين تلك العصي في الظلام. «خط القتال» كان صفًا من الحُفر التي خلَّفتها القذائف وامتلأت بذلك الوحل المريع الذي يبتلع من يخطو فوقه، وكنا نكتفي بالجثوم خلف الحافة و... الانتظار. تحركنا، لم يحدث اشتباك من قرب، بل كانت الرشاشات أمامنا مباشرةً أعلى المنحدر. سقط *الكثير* من الضحايا. *الكثير*، وما من أمل باستعادتهم. كان قطع مئة ياردة يستغرق من حمَلة النقالات بضع ساعات. لذا هناك كنا، جاثمين في صف جديد من حفر القذائف يماثل الأول تمامًا، وأبواب جهنم مشرعة عن آخرها. ما إن هدأت المعمعة قليلًا حتى رحتُ أحاول الزحف من حفرة إلى أخرى. استغرقتُ ساعةً للزحف بين حفرتين، وفي الحفرة الأخرى عثرت على أربعة رجال، لم يكن بينهم مصابون. قلت لنفسي: «الحمد لله»، ثم قال أحدهم فجأةً: «أين سكادر؟». حسنًا، لم يكن ثمة ما أستطيع أن أفعله حيال ذلك. لم أكن قادرًا على الحركة، فالقصف شديد جدًّا. ثم ساد هدوء مؤقت، وسمعنا صيحة. بدت قادمةً من حفرة قذيفة تقع خلفنا بعض الشيء، ليست بعيدة، فزحفنا إلى هناك ووجدناه.

إما أنه انزلق وإما ارتدَّ بفعل انفجار فسقط عن المنحدر. أظن أنها الثانية، لأنه كان قد غاص مسافةً لا بأس بها داخل الحفرة، وغمره الوحل حتى صدره. حاولنا أن ننتشله، لكننا لم نستطع الوصول إليه رغم أننا شكَّلنا رتلًا ومددنا بندقيةً نحوه. بالكاد استطاع أن يلمس العقب برؤوس أصابعه، بيد أن يديه ظلتا تنزلقان بسبب الوحل. رأيت أننا إن تابعنا المحاولة سوف ينزلق شخص آخر ويسقط معه، وكان سكادر مذعورًا وظل... *يتوسل* إلينا أن نفعل شيئًا، لم يسبق لي أن رأيت شيئًا مثل وجهه حينها. استمر ذلك *طويلًا*، وكان ينزلق ويغوص أكثر طيلة الوقت، لكن *ببطء*. علمتُ ما عليَّ أن أفعله. جعلتُ الرجال يصطفون وأخبرته أننا سنحاول مجددًا، وفيما هو ينظر إلى الآخرين زحفتُ نحو الطرف المقابل، وأطلقتُ النار»، أغمض مانينغ عينيه: «أخطأتُ الهدف. وكان ذلك مريعًا، لأنه علم حينها ما كان يحدث. أطلقتُ من جديد، وهذه المرة لم أخطئ.

قضينا بقية الليلة هناك، في تلك الحفرة. كان الأمر غريبًا جدًّا. كما تعلم، لا أظن أن أيًّا من الرجال كان ليقول: «لقد أخطأتَ التصرف، كان ينبغي أن نتركه يموت ببطء»، لكن مع ذلك لم يُرِد أحدٌ أن يكلمني، وظلوا على مسافة مني».

صمتٌ طويل. «كتبتْ والدته إليَّ في المستشفى، كي تشكرني. يبدو أن سكادر كان قد كتب إليها وأخبرها أنني كنت لطيفًا معه».

قال ريفرز بحزم: «لقد كنتَ كذلك».

نظر مانينغ إليه ثم أزاح عينيه سريعًا: «تمَّت مؤازرتنا في الليلة التالية. عدتُ إلى مقر الكتيبة، وهناك عبَّروا عن استياء بالغ. اتضح أننا قد تجاوزنا خط القتال، إذ كنا جالسين في حفر القذائف الخاطئة. كانوا يتناولون العشاء، فطيرة لحم عجل وخنزير ونبيذًا أحمر، ثم أدركت فجأةً أنهم لا ينوون حتى أن يقدموا لنا بعض الشراب اللعين. هاينز كان برفقتي، بالكاد تحمله قدماه، لذا انحنيتُ فوق الطاولة وأخذت كأسين، أعطيتُ هاينز إحداهما وقلت: «أيها السادة، نخب الملك»، وبالطبع اضطروا جميعًا أن ينهضوا على أقدامهم بمشقة»، ضحك: «ثم خرجنا من هناك سريعًا قبل أن يتسنى لهم إيجاد طريقة يوجهون بها تهمةً إلى ضابط بسبب اقتراحه نخبَ الولاء. سرنا في الطريق

مترنحَين نقهقه في ما بيننا مثل تلميذَي مدرسة، وكنا ما زلنا نضحك عندما أصابتنا القذيفة. فهمتُ الأمر. هاينز العزيز المسكين... زحفتُ نحوه، فنظر إليَّ مباشرةً وقال: «أنا على ما يرام يا أمي»، ثم مات».

تزحزح ريڤرز في مكانه، كان على وشك أن يتكلم عندما سمع صوت أبواق في الشارع. قال: «ما رأيك أن نفتح الستائر؟».

سحب الستائر الثقيلة، فتدفق ضوء الفجر الرماديُّ إلى داخل الغرفة. أجفل مانينغ، نهض وانضم إلى ريڤرز عند النافذة في اللحظة المناسبة ليرى سيارة أجرة تسير على الجانب الآخر من الساحة. فتح ريڤرز النوافذ، فملأ تغريدُ الطيور الغرفة.

«أتعرف؟»، قال مانينغ: «عندما أخبرني روس أنهم يعلنون عن انتهاء الغارات من خلال سَوْقِ كشافة يحملون الأبواق عبر الشوارع في سيارات أجرة، لم أصدقه».

شاهدا سيارة الأجرة تغادر الساحة، وقال مانينغ: «اعتدتُ أن أجد جاذبيةً في نوعٍ محدد من *الإنجليزَويَّة*، لكنني ما عدت أفعل».

14

سارا قادمة. أنعشت الفكرةُ روحَ پراير وهو يسير في شارع بايزووتر رود متجهًا نحو محطة الأنفاق، لكن حين صار على متن القطار، يحدق -دون أن يبصر- إلى صورته المنعكسة على الزجاج الأسود، تحولت أفكاره إلى سپراغ. هو لم يره وجهًا لوجه منذ ذلك المساء في الحديقة، لكنه اشتبه أكثر من مرة أنه يلاحقه. من المحتمل أن يكون ذلك من صُنع أعصابه. لقد كانت حالة أعصابه سيئة بالفعل، كما أن القيظ الدَّبِق الذي لا يطاق لا يساعد. الفجوات في ذاكرته تزداد طولًا وتكرارًا، وهي ترعبه. مثل المناطق غير المكتشفة في الخرائط القروسطية، هكذا قال ريڤرز، ضع وحوشًا *في الأماكن التي تجهلها*. لكن المنطقة المحرمة كانت تشبيهًا أفضل، لأنه أقرب إلى تجربته. تذكَّر نفسه وهو ينظر عبر طريق ضيق في فرنسا، في الطريق انعطاف، وثمة سياج طويل من الشجيرات يُخفي ما خلف ذلك الانعطاف. وراء كل ذلك كانت المنطقة المحرمة، ووراءها الخطوط الألمانية، المملوءة برجال مثله، رجال يأكلون وينامون ويتغوطون وينفخون على أصابعهم ليخففوا ألم البرد ويقربون الشمعة ويضيقون أعينهم ليعيدوا قراءة رسائل يحفظونها أصلًا عن ظهر قلب. كان يعرف ذلك، جميعهم يعرفونه، لكن تصديقه مستحيل، لأن الطريق يقود إلى بلد لا يستطيعون الذهاب إليه، وهذا التحريم وحده يعني أن كل ما بعد تلك النقطة عجيبٌ بشكل تهديدًا.

في هواء الأنفاق الجامد شيء يشجع الأفكار السقيمة. أما فوق الأرض، في هواء كينغز كروس الأبرد نسبيًا والذي ينضح برائحة فحم الكوك، فهو يشعر

بالبهجة أكثر. أرجوك يا ربي، قال في قرارته، امنع هذه الفجوات حين تكون سارا هنا.

انتظر قرب الحاجز، وهو يشعر بغثيان من فرط التشوق. تباطأ القطار وتوقف، نخر وأزّ وتجشأ، ثم همدت الأصوات متحولةً إلى سلسلة من الدمدمات الساخطة، وانفتحت الأبواب على كامل طوله وأخذ الناس يترجلون. الشوق الذي ولّدته معرفته أنه سوف يراها منعه من رؤيتها، وللحظة مفزعة جميع النساء على الرصيف كُنَّ سارا. ثم صفا ذهنُه، ولم يعد هناك إلا امرأة واحدة، تسير نحوه مباشرةً.

حضنها بين ذراعيه ورفعها عن قدميها، وعندما أنزلها أخيرًا راحا يحدقان إلى بعضهما. لاحظ البشرة الصفراء والظلال الداكنة حول عينيها، والشراريب الصهباء التي ليست بلون شعرها الطبيعيّ بل نتيجة تأثير المواد الكيماوية التي تعمل بها.

«إذًا؟»، قالت له.

«تبدين جميلة، لكن هذه حالك دائمًا».

أخذ حقيبتها وقادها نحو مَصف سيارات الأجرة.

«ألا يمكننا أن نستقل مترو الأنفاق؟»، توقفت وسألته.

بدا متفاجئًا.

«لم يسبق لي أن ركبته».

أضاء وجهُها وهي تخطو على الدرج النازل. كانت حماستُها تمنعها من الكلام، إلى أن صارا على متن القطار وتوقف عند عدة محطات، فبهتت جِدةُ تجربة ركوب الكبسولة المضاءة المندفعة في الأنفاق المظلمة، عندئذٍ التفتت إليه وقالت: «تبدو متعبًا بعض الشيء، هل أنت على ما يرام؟».

«إنه الحَر»، أجابها: «لست أنام جيدًا في الآونة الأخيرة».

«ستنام جيدًا الليلة».

ابتسم: «كنت آمل ألا أنام على الإطلاق الليلة».

بيد أن تعليقه كان مباشرًا أكثر من اللازم، فابتسمت لكنها أشاحت بوجهها.

- كيف حال والدتك؟

- كما هي. أمور المتجر ليست جيدة جدًا، ما من طلب على الأغراض المستعملة هذه الأيام.

- ماذا عن عقار د. لوسن[1] لكل ما يعترض طريق الأنثى؟ أراهن أنه يوفر لها تجارة رابحة.

- دع عنك هذا يا رجل، الجميع يستخدم واقيات سعرها ستة بنسات هذه الأيام.

«*حقًا؟*»، سألها پراير ببراءة.

ابتسمت، وتحولت ابتسامتها إلى ضحك في نهاية المطاف.

«كيف كانت رحلتك إلى منزلك؟»، سألته بعد قليل.

- ليست سيئة، قابلتُ بضعة أصدقاء قدامى.

- هل أخبرتَ والدتك عني؟

تلكّأ.

«لم تخبرها»، قالت.

- لقد مهدتُ للموضوع.

- بيلي، تظن أنني لن أروق لها، أليس كذلك؟

هو موقنٌ أنها لن تروق لها، فلديه فكرة واضحة جدًا عن نوع الفتيات اللاتي تريد له أمه أن يتزوج إحداهن؛ فتيات يتسمن بالفجاجة، صدورهن ممسوحة، يرتدين بلوزات بيضاء رقيقة ولا ينسين مناديلهن. الوزارة ملأى بهن، والعجيب أنه كان يراهن جذابات، لكن ليس بطريقة تعجبه، فهن يوقِظن شياطينه، الشياطين التي تضمن ممارسة الحب مع سارا خلودَها إلى النوم.

«ليس هذا هو الأمر»، قال لها.

«حقًا؟»، ابتسمت فأدرك أنها لا تبالي ببساطة: «وماذا عن والدك؟».

- أنا لا أخبره أي شيء.

- أتظن أنني سأروق له هو؟

---

(1) عقار د. لوسن: خلطة تسبب الإجهاض. (المترجم)

لم يسبق له أن فكر في هذا، لكنه -حالما تأمل الأمر- علم أنها ستروق لوالده، وأنه سيروق لها. لن يلقى الوغد العجوز *استحسانها*، لكنها ستنسجم معه بشكل لا بأس به. على الفور، أصبحت فكرة اصطحابها إلى المنزل أقل جاذبيةً مما هي. «أمامنا متسع من الوقت»، قال لها.

شعر بالخجل من صناديق القمامة الطافحة والرائحة وهو يقودها إلى القبو على الدرج، لكن لم يكن هنالك داعٍ إلى القلق، فسارا مبتهجة بالشقة. أدرك، وهو يأخذها من غرفة إلى أخرى، أنها ستظل مسرورة بها ولو كانت مظلمة ومخنوقة الجو ضعف ما هي عليه. ستكون بيتَهما ليومين بليلتيهما، وهذا هو كل ما يهم. أنهت الجولة بجلوسها على السرير المفرد في غرفته، تتنطط بلا خجل فوق الفراش كي تختبره. ثم رفعت عينيها ووجدته يشاهدها، فتشرَّب وجهُها بتورّدٍ بدَّدَ اصفرار بشرتها. علقت أنفاسه في حلقه، فابتلع ريقه بمشقة: «إن وددتِ أن تغتسلي أو تستحمي، فالحمام خلف الباب المجاور».

- أجل، أنا...

- سأحضر منشفة.

كان پراير يتمنى أحيانًا لو أنه لا يعرف شعور التعرض للمسات عابثة، وأن ينقض أحدهم عليك قبل أن تكون جاهزًا. فيما هو يأخذ منشفةً عن أحد رفوف التجفيف[1]، سمع باب الحمام يُفتح ثم أحس بذراعيها تلتفان حوله وتطوقان صدره. دفنت وجهها بين كتفيه، وضغطت بفمها على عموده الفقري. سألته: «أتحس بهذا؟»، وبدأت تتأوه، بأصوات عميقة جعلت عموده الفقري وجوف صدره يهتزان مع أنفاسها. أبعدها عنه برفق وقال: «لا بد أنك متعَبة».

ترددت ضحكتها، وأحسَّ بها في عظامه. «لستُ متعَبةً أكثر من اللازم».

(1) رفوف التجفيف: خزانة أو رفوف تكون بجانب سخان الماء (وقد يكون السخان ضمنها) في بعض الحمامات، توضع عليها المناشف وما شابهها. (المترجم)

لقد استحمَّا في نهاية الأمر. بعد ذلك، وهما مستلقيان في السرير، مرَّرت رؤوس أصابعها على ضلوعه، واتكأت على مرفقها، فغطاهما شعرُها كليهما. «أتعرف ما هو أكثر جزء يعجبني في الرجال؟»، قالت وهي تحرك إصبعها إلى الأسفل.

«*الرجال؟*»، وضع يديه حول فمه وراح ينادي باتجاه الممر: «جورج؟ ألبرت؟ هل أنتما هنا؟».

ابتسمت، لكنها تابعت بإصرار: «هذا الجزء». انزلقت إصبعها في المنخفض تحت ضلوعه ثم مرت على بطنه.

- هنا؟

- أجل.

«ها؟ ها؟»، قال وهو يرفع وركيه إلى أعلى.

«أوه، *ذاك*».

«*«ذاك»!*»، حاول النهوض جالسًا بمشقة، لكنه همد حين انسلت إلى الأسفل فوق السرير وأخذت تداعبه.

نظرت إلى الأعلى وابتسمت: «هذا جميل أيضًا».

- الوضع مُخزٍ الآن، انظري.

- لا يمكن أن نتوقع المعجزات.

أغمض عينيه: «تابعي ما تفعلينه، وقد تحصلين على معجزة».

فيما هو فوقها، يشاهد فمها المشدود وعينيها المشقوقتين ورأسها الملقى إلى الخلف حتى ليبدو أن عمودها الفقري سينكسر لا محالة، تذكَّر وجوهًا أخرى. المحتضرون يبدون هكذا.

«ماذا سنفعل؟»، سألها: «هل أنت جائعة؟».

- ليس تمامًا.

- يمكننا أن نذهب إلى شارع أكسفورد، ونتفرج على المحلات.

- لا تبدو متحمسًا كثيرًا.

- أو نذهب إلى كيو[1].

- ماذا تريد أنت أن نفعل؟

- كيو، كما أعتقد. هذا الطقس لن يستمر، وبوسعنا القيام بنشاطات داخلية غدًا.

- المزيد؟ سوف تستنزف قواي.

- نشاطات *أخرى*.

- أوه.

حين وصلا إلى الحدائق، راحا يهيمان على غير هدى واهتمامُهما منصب على بعضهما أكثر مما هو على النباتات. ومع تقدُّم ساعات الأصيل، تفاقم الحَر حتى اكتسبت السماء وهجًا نحاسيًّا، كأن باب فرنٍ كبير انفتح. تابعا المشي رغم ذلك، كلٌّ منهما يضبط خطوه على وقْع خطوات الآخر، دون أن ينتبها حين تلاشى ظلُّهما الموصول من فوق العشب.

حطَّت قطرات مطر على وجهيهما فأجفلا مما هما غارقان فيه، ونظرا حولهما ذاهلَين. بدأ المطر ينهمر بقوة، ويجلد رأسيهما وأكتافهما. وخلال وقتٍ أقل مما بدا ممكنًا، تدلَّى شعر سارا في خصل بنية محمرة داكنة وشفَّ كُمًّا بلوزتها. بحث براير عن ظلة، بيد أنه لم يرَ إلا بعض الأشجار. توجها نحوها ووقفا تحتها، لكنها لم تقِهما إلا قليلًا، إذ أخذ المطر يسيل على جذوعها ويتساقط عن الأوراق على عنقيهما من الخلف.

بدأت سارا ترتجف بردًا. لم يكن براير يعرف أين هما، رأى معبدًا إغريقيًّا صغيرًا زائفًا فوق رابية معشبة، لكنه مفتوح أمام الريح. تذكَّر دفيئة النخيل من زياراته السابقة، وهي دافئة بالتأكيد، ستكون المكان الأفضل لو تمكن من تحديد موقعها. استدل على مكان البوابة الرئيسية، وتذكَّر أن عليه الانعطاف إلى اليسار. «أظن أنه ينبغي لنا أن نركض»، قال: «لن يهدأ المطر».

---

(1) كيو: منطقة تشتهر بوجود الحدائق النباتية الملكية فيها. (المترجم)

ركضا حانيَين رأسيهما، وپراير يحيط سارا بذراعه، يخوّضان في البِرك الصغيرة. كان الوحل ينز من مساكب الأزهار ويجري عبر المماشي الفاصلة بينها في غدران صغيرة. رفضت سارا سترته التي عرضها عليها، وتابعت تقدمها في الوحل، مبللةً بشدة وتنورتُها محشورة بين ساقيها، وقد شفَّت بلوزتُها وتَخصَّلَ شعرُها وتوردت بشرتها، واتسعت خطواتها بما يكفي لتقطع جبالًا. قالت إنها قررت أن تستمتع بما يحدث.

كانت البحيرة فوضى تنفجر فيها الدوائر والفقاعات، مضطربةً أكثر من أن تعكس السماءَ الحبرية. تابعا الركض قاطعَين الياردات القليلة الأخيرة، ثم دخلا إلى دفيئة النخيل. أحس پراير بآثار تَرَقرُقِ الماء على وجهه ورقبته، ثم باغتته موجة مزعجة من الرطوبة والحرارة. بدأ يسعل، فالتفتت سارا إليه: «أليس هذا مضرًا لصدرك؟».

«كلا»، قال وهو يُجلِّس ظهره: «بل إنه مثاليٌّ في الحقيقة».

كانت المماشي مكتظة إلى درجة جعلت الحركة صعبة، اللفائف الخضراء الكثيفة تحيط بهما وتسمو نحو الزجاج الباهر في السقف فوق رأسيهما. رائحة تربةٍ مبللة، أوراق تقطر منها الرطوبة، تقاطرُ ماءٍ متواصل، وشحرورٌ محاصر يغرد في مكان ما. لكن رائحة الناس هي التي سادت مع توغلهما داخل الزحام: قماش رطب وشعر مبلل وبخار يتصاعد من الجلد.

أخذ پراير ذراع سارا وأشار إلى المعبر المرتفع في الأعلى: «هيا بنا، سيكون أقل ازدحامًا».

كان يساوره شعورٌ غامض أن الهواء قد يكون أكثر هناك في الأعلى، فهو يجد الجو مُجهِدًا رغم ما قاله لسارا. تبعته سارا ببطء راغبةً في التفرُّج على النباتات، جذبت ذراعه وأشارت إلى زهرة لها أَسْدِية[1] تشبه أعضاءً ذكرية بشرية وردية اللون بشدة. «أليس جميلًا؟».

- ظننتُك تفضلين القفص الصدري والضلوع.

- ليس الضلوع، بل الـ...

---

(1) أسدية: جمع سَداة، وهي عضو التذكير في الزهرة. (المترجم)

ضحك وشدها إليه. كانا واقفَين عند أسفل الدرج اللولبيّ. دسَّت يدها بين ساقيه وراحت تدلّك: «من الممكن أن أغير رأيي».

ضمَّها إليه أكثر، ودفن فمه في شعرها المبلل ناظرًا من فوق رأسها دون أن يركز على شيء محدد. فجأةً، التقطت عيناه شكلًا مألوفًا. اتضحت الغبشة الخضراء، فألفى نفسه ينظر -عبر أغصان نبتة مرتفعة في أوراقها ثقوب- إلى وجه ليونيل سپراغ. لا مجال للخطأ. راح واحدهما يحدق إلى الآخر عبر اللفائف الخضراء، لا يفصل بينهما سوى أربعة أقدام أو خمسة، ثم استدار سپراغ واندمج في الحشد الذي ابتلعه.

رفعت سارا عينيها: «ما الأمر؟».

«فلنصعد إلى الأعلى».

أخذ يدها وسحبها نحو الدرج. راح ينظر عند كل انعطاف من خلال قبة الأوراق الخضراء إلى الرؤوس والأكتاف في الأسفل، حتى ما عاد لها شكل أشخاص فرادى في النهاية. مع صعودهما أكثر، ازداد ارتفاع صوت المطر على السقف الزجاجيّ. كانت الغشاوة تكسو النوافذ، وانتشر ضوء أبيض مشتت مشبع بالبخار فوق كل شيء. أطلَّ ينظر نحو قبة الأوراق المتلألئة، ثم إلى المماشي، باحثًا عن كتفَي سپراغ العريضتين ورأسه المربع. ظن أنه رآه عدة مرات في أثناء سيره هو وسارا في المعبر، لكنه لم يكن واثقًا. هتفت سارا أول الأمر تتحدث عن الأشكال والأنماط المختلفة للأوراق، التي كانت جميلة بالفعل كما أقر هو بعد نظرة متعجلة، ثم حط الصمت عليها شيئًا فشيئًا بعد أن استشعرت انكفاءه.

كان يجدر بي أن أكلمه، قال پراير لنفسه، رغم أنه لم يستطع تخيُّل ما كان يمكن أن يقوله، لكن امتناعه عن محادثته بدا -وهو يتأمله الآن- يضفي على اللقاء سمةً هذيانية. نظر إلى الأسفل من جديد، وشعر هذه المرة بالراحة لرؤية رأس سپراغ المربع يتحرك هناك.

أحسَّ بسارا تراقبه فبذل جهدًا كي يتصرف على نحوٍ طبيعيٍّ أكثر، وهو يمسح البخار المتكثف عن الزجاج في محاولة لرؤية الخارج. «أتعلمين؟ أرى أن لا مانع من الخروج والركض».

كان قد بدأ يشعر أنه مكشوف، هنا فوق الأوراق، والضوء الأبيض يغمر كل شيء. ليس على سپراغ -من مكانه في الأسفل وسط الحشد- إلا أن ينظر عبر فجوةٍ بين اللفائف ليراه حيث هو، مغمورًا بالضوء الأبيض المتدفق من السقف المقبب.

«أجل، لا بأس»، أجابت سارا.

بدت حائرة، لكن مستعدة لمجاراة أي اقتراح يقدمه. إلا أن سارا حبيبته هذه ليست حمقاء، سيتعين عليه أن يقول لها شيئًا.

ثمة آخرون قرروا أيضًا أن يخرجوا سريعًا، وأخذت مجموعة من النساء اللاتي تبللت تنانيرهن بشدة يركضن نحو البوابة الرئيسية بسيقان متخشبة.

«أيمكنكِ أن تركضي؟»، سألها.

قالت بومضة مرح: «أيمكنك أنت؟».

سؤالٌ وجيه. مع وصولهما إلى محطة الأنفاق، كانت أنفاسه متقطعة أكثر من أنفاسها. تذكّر، وهو يضغط بيده على جنبه، سپراغ عندما قال له: «كنتَ خلفك على رصيف المحطة». فجأةً، ما عاد يريد دخول الأنفاق، لم يُرِد أن يُحاصَر في الداخل. «اسمعي، لدي فكرة أفضل»، قال: «لمَ لا نذهب في رحلة عبر النهر؟ إن نزلنا عند جسر وستمنستر يمكننا أن نرى الدير».

كان المركب راسيًا عندما وصلا إلى رصيف المرفأ، وقد بدأ يكتظ بالركاب. في اللحظة الأخيرة، إذ بدأ المحرك يرتج، انسلت إلى المتن زمرةٌ من الأشخاص تتضمن ما بدا مجموعةً من مدرسة فتيات. نهض پراير وقدّم مقعده إلى إحدى المعلمات. «سأحضر لك كوبَ شاي»، همس لسارا وذهب إلى المشرب.

فيما هو واقف ينتظر دوره، تزايد الهدير وأزبد النهر وبدأ المركب يدخل مسارَه في منتصف المجرى. أخذ الشاي وعاد به إلى سارا، وحاول أن يشرب كوبه لكنه وجد صعوبة بالغة في الحفاظ على توازنه فوق ظهر المركب المائل، لذا سار مبتعدًا عنها وذهب كي يقف في المدخل الواصل بين القسم المسقوف والمقاعد الطويلة المفتوحة في مؤخر المركب. حتى هذه كانت مملوءة، وفي الواقع كان المطر يشارف على التوقف. يمكن للمرء من آنٍ إلى آخر أن يلمح شمسًا بيضاء من خلال ستار غيوم أغبش.

على المقعد الأماميِّ مجموعة رجال لندنيين مسنين يحاولون الاستمتاع بالوضع المفروض عليهم، فيضحكون ويلقون النكات على كل شيء. وخلفهم بقليل، على طرف المقعد الثالث، يجلس رجل كتفاه عريضتان على نحوٍ غير معتاد. بدا يشبه سپراغ، لكن من الصعب الجزم بذلك لأنه يعتمر قبعة ولا يقابل پراير بوجهه. مد پراير عنقه كي يرى جانب وجهه. إنه سپراغ، لا بد أن يكون، ومع ذلك هو ليس متأكدًا. ثمة شيء غريب في كون الرجل لا يلتفت ولا يتحرك. فيما راح پراير يتقدم بطيئًا نحوه بمحاذاة الإفريز، انتبه إلى بطءٍ في حركاته، كما لو كان يخوض في غراء. شاهد نفسه -بعين ذهنه- يقترب من الرجل وينقره على كتفه، ثم ينتظر أن يلتفت، فيكون الوجهُ الذي يلتفت نحوه... وجهَه هو نفسه. جلس، وكانت عيناه في مستوى الإفريز الذي علق عليه صفٌّ من قطرات المطر المتلألئة. مد يده وراح يمحق تلك القطرات برأس سبابته واحدةً واحدة، فأعاده البلل المزعج -الذي أخذ يجري تحت طرف كُم قميصه- إلى نفسه. نظر مرة أخرى؛ قد يكون سپراغ وقد لا يكون، بيد أنه قطعًا لا يشبهه هو بأي شكل. ثمة فرق شاسع بين كتلة ذلك الرأس وتينك الكتفين الضخمة الوحشية وبين بِنيته الضئيلة، ورغم ذلك فقد شعر -وهو ينهض ويبدأ التقدم- كما لو كان ينظر إلى مؤخر رأسه هو. تنفس بعمق محدقًا عبر الإفريز إلى النهر البُنيِّ المنتفخ المتموج، وحمل نفسه على تعقُّب بعض الغصينات والأوراق المحمولة على وجه الماء، فلاحظ التيارات المختلفة وهي تلتقي وتفترق كيف تتغضن مثل العضلات تحت الجلد. كان المركب يقترب من جسر آخر. تمالك اتزانه، وسار إلى الرجل ونقر على كتفه.

ارتاح حين رأى وجه سپراغ، إلى درجةٍ استغرق الغضبُ معها عدة ثوانٍ كي يطفو على السطح. «ما الذي تفعله هنا بحق الجحيم؟».

«أنا عائد إلى لندن. ما الذي تفعله أنت؟».

بدا متفاجئًا بصدق، إلا أن پراير التقط أثرًا لضحكة مكبوتة في صوته. لقد تكلم سپراغ بصوت أعلى من الحاجة، كأنه يؤدي عرضًا لجمهور اللندنيين الصغير، وللجمهور الأكبر على المقاعد في الخلف.

أخفض پراير صوته: «أتتبعني؟».

«أتتبعك؟»، بصوتٍ عالٍ جدًّا من جديد: «لمَ عساي أفعل هذا؟».

بدا أشبه بممثل مسرحٍ غنائيٍّ من الطراز الأخير يؤدي دور مَن جُرِحت براءته. لم يوحِ الانطباع الذي ولّده بشخص اختار التمثيل من بين عدة استجابات محتملة تجاه موقفٍ ما، بل شخص لا يمكنه إلا أن يمثل. من يراه يشعر أنه يمثل حتى أمام مرآة الحمام، ويظن أنه لو تمكن أن يمزق له قناعَه لما وجد وجهًا خلفه. شعر پراير باشمئزاز يمور داخله، فقال: «إن كنت تتبعني، سوف...».

«نعم، ماذا سوف تفعل؟»، أمهله سپراغ، كأن السؤال يثير اهتمامه بحق: «تطلب الشرطة؟ تجعلهم يعتقلونني؟ الذهاب إلى كيو لا يخالف القانون»، ابتسم: «فتاة جميلة»، قال وهو يومئ برأسه نحو مقدم المركب، ثم كوَّر يديه ووضعهما على صدره.

«إن خطر لك أن تقترب منها، لأدُقَّنَّ عنقك اللعين».

ضحك سپراغ واهتز لُغداه، ثم وضع يده على صدر پراير ولطمَه، لطمةً ودية. «لا بأس»، قال وعاد إلى الجلوس ينظر إلى النهر، ولم يبدُر منه أكثر من نظرة سريعة بطرف العين إلى اللندنيين وابتسامة باهتة.

داخل شيءٍ لا يتحرك، شيءٍ أكثر ثباتًا من أن يكون مركبًا، يدان مرقشتان بالأرجوانيِّ والأخضر تتحركان فوق خشبٍ ملمع. ثم عاد إلى رشده، يحدق شاخصًا إلى نافذةٍ من رقائق ضوءٍ أرجوانيٍّ وأخضر. بحث عن سارا ولم يرها، فهبَّ ناهضًا وراح يفتش في الدير، دافعًا السياح ومجرجرًا النظرات العدائية خلفه.

وجدها أخيرًا، واقفةً قرب تمثالٍ لأسقُف من القرن الثامن عشر تمرِّر يدها على الرخام الأملس، وقد لاقى شعاعٌ من نور الشمس الأضواءَ الكستنائية في شعرها.

رفعت عينيها لدى وصوله، وقالت بأنفاس متقطعة: «عدتَ الآن؟».

كان السؤال سديدًا إلى درجةٍ أسكتته. فكر للحظة قائلًا: *إنها تعرف*، لكنه نبذ الفكرة على الفور. هي لا تعرف بالطبع.

استقلّا سيارة أجرة إلى المنزل. كان پراير يفكر في سپراغ، لأنه خائف من التفكير في أي شيء آخر. ما أثار غضبه هو فكرة أن يكون سپراغ قد رأى ذلك المشهد الحميميّ الصغير في دفيئة النخيل، عندما اقتربت سارا منه ودلّكت شيئه من فوق قماش سرواله الخشن. لحظة جيدة. وسط كل ذلك الحشد من المبتلين ذوي البشرة المشبعة بالبخار التي تتفصد عرقًا، كانا وحدهما، ثم لاح وجهُ سپراغ من خلال الأوراق. *هل رأى*؟ لا بد أنه فعل. ينتاب پراير شعورٌ يكاد يكون مفرطًا بالانكشاف، بل حتى بالانتهاك، كأنه شوهِد مُبرِزًا مؤخرته إلى الأعلى في أثناء تلك اللحظة الحميمية.

راحت السيارة ترتج وتتمايل. ثمة ذكرى بدأت تطفو على السطح، لم تبدُ ذات صلة على الإطلاق بأحداث ما بعد الظهيرة. إنه متوعك من الربو، يمشي ممسكًا يد أبيه. إلى أين تراهما يذهبان؟ أبوه لم يصحبه يومًا إلى أي مكان، إذ كان يخجل للغاية من القزم الصغير الذي -من غامض علمه- انبجس من صلبه. لعل أمه كانت مريضة. أجل، هذا هو الأمر.

لقد جلسا على مقعد في مكانٍ ما، وأحضرت له امرأةٌ ليموناضة. ليموناضة *حقيقية*، قال أبوه بفخر (لكن لماذا بفخر؟)، لا تلك الأشياء الغازية المعبأة. كان هناك أيضًا حلوى هلام بالليمون الأخضر، وُضِعت داخلها قطع جيلاتين على شكل أطفال. بينما أخذ ينقّر منها دون حماسة، صعد أبوه والمرأة إلى الطابق العلويّ. كان بوسعه أن يسمع أصواتًا قادمة من النافذة المفتوحة فوق رأسه. *الصبي يا هاري*. ثم صوت أبيه، غليظًا ومتعجلًا: *إنه على ما يرام، منغمس في ما يأكله ولن يكون لديه ما يتذمر بشأنه*.

لم يكن «الانغماس في ما يأكله» سهلًا. كان يحب حلوى الهلام، لكنه يكره أطفال الجيلاتين، وسبب هذا بمعظمه هو طريقة أكل الناس لهم، إذ يقضمون أقدامهم ثم وجوههم شيئًا فشيئًا، ليقطعوا بعدها الرأس بأسنانهم بوقاحة، ثم يقلّبون الجسد مبتور الرأس مستعرضين الجرح المفتوح اللامع. فكر أن يتجنب الأطفال ويأكل ما حولهم، محررًا إياهم من سجنهم المترجرج، لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع فعل هذا. الحلوى مصنوعة خصيصى -فهي ليست طعامًا للكبار- وأبوه سيغضب، لذا أجبر نفسه على ابتلاعهم كاملين واحدًا واحدًا، مثبّتًا عينيه على الأشجار كيلا يضطر أن يفكر في ما يفعله. ومع هذا

تهوع مرةً أو اثنتين ودمعت عيناه، فيما ظلت الهمسات الغليظة في الأعلى تجيء وتذهب ونوابض السرير تصر.

في طريق العودة إلى المنزل، قال أبوه بنبرة عرَضية: «يحسن بك ألا تخبر أمك»، ثم أقعده على كتفيه وحمله طوال الطريق. قطع به الشارع بأكمله والجميع ينظرون، ويداه المكتنزتان تطوقان فخذَي ابنه البيضاوين النحيلتين. لمرةٍ في حياته يركب إلى المنزل مزهوًا بالنصر. ولم يخبر أمه، رغم أنه وقف قرب فراش مرضها واستمع إلى أبيه يصف زيارةً إلى الحديقة. لقد دُعي إلى المشاركة في المؤامرة الكبيرة، وحتى في سن الخامسة كان يعلم قيمة ذلك؛ ما كان ليجازف بالنزهات المستقبلية عن طريق إخبارها بأي شيء.

استيقظ ليلتئذٍ يشعر بالحر والدبق، وكان يعرف أنه سيستفرغ. طفق يبكي، وبعد وقت طويل دخل أبوه عليه متخبطًا وارتطمت أصابع قدميه قبل أن يعثر على الضوء. رفع رأسه ينظر إليه، الرجل الضخم بقامته التي تلوح فوق السرير. ثم، ببطءٍ، راح فمُه يقذف أطفال الجيلاتين، سليمين تمامًا أو يكادون، فيما وقف أبوه فاغرًا فاه.

لا بد أنه كان مشهدًا منقطع النظير، فكر پراير في قرارته وهو يساعد سارا على الترجل من السيارة ثم يستدير ليدفع للسائق، *أشبه بمشاهدة حصان بحر يلد.*

حين صارا داخل الشقة، أشعل الغاز وأعدَّ كوبين كبيرين من الشاي الحلو الثقيل، ريثما ذهبت سارا كي تنزع ملابسها المبللة. عادت ترتدي الروب دو شامبر خاصته وهي ترتجف من البرد، فأقعدها بين ركبتيه ونشَّف لها شعرها.

«كنتِ تتحدثين عن أكثر جزء يعجبك. أتعلمين؟ شعرك هو المفضل بالنسبة إليَّ»، قال وأحسَّ بلسانه غليظًا لا يطاوعه ويعترض طريق أسنانه: «هو أول ما لاحظته، الألوان المختلفة».

«أخبرتَني»، أجابت وهي تلتفت بجذعها: «ولا داعي إلى جعل الأمر يبدو رومانسيًا هكذا. كنتَ تتساءل أي لون عساه يكون في الأسفل، أليس كذلك؟».

ابتسم: «بلى».

جلسا يحتسيان الشاي. قالت: «طيب، هل ستخبرني؟».

«أجل»، ملأ راحتيه بخصل شعرها وأخذ يجذبه: «لكن الأمر أسوأ مما تظنين، أحتاج منك أن تخبريني أنتِ بما حدث».

- متى؟

- حين كنا على متن المركب.

اتسعت عيناها، لكنها لم تجادله. «قدَّمتَ مقعدك إلى تلك المرأة وأحضرتَ كوب شاي ثم ذهبت ووقفت عند المشرب. لم أرَ ما حدث بعد ذلك، كنتُ أنظر إلى الضفة. ثم سطعت الشمس فخرجت بعض الفتيات إلى ظهر المركب ورأت المرأةُ أنه يجدر بها الذهاب وإبقاء عينيها عليهن، لذا كان ثمة مقعد شاغر بجانبي حين عدتَ بعدها. سألتُك عن الجسر الذي كنا نعبر تحته ولم تجبني، تبيَّن لي أنك تمر بأحد أطوارك المزاجية لذا تركتُك وشأنك. ثم حين خرجنا، كان ذلك الرجل الذي رأيناه في دفيئة النخيل ينتظر عند أعلى الدرج. قال شيئًا عني -وصدقًا لم أسمع ما قاله- فضربتَه. همّ بالرد، فرفعتَ عصاك وكان واضحًا أنك تنوي شج رأسه، لذا تراجع. عبَرَ الجسر، فأمسكتَني وسحبتني إلى داخل الدير. ظللتُ أسألك: «ما الأمر؟»، ولم أستطع الحصول على جواب، لذا قلتُ لنفسي سحقًا لذلك، ورحتُ أسير وأتفرج بمفردي»، انتظرت: «أتقول لي إنك لا تتذكر كل هذا؟».

- أتذكَّر القسم الأول.

- لا تتذكر أنك ضربته؟

- لا.

- من هو؟

- لا يهم.

- بل يهم كثيرًا.

- لا علاقة للأمر بك.

تجمَّد وجهها.

همَّت بالابتعاد عنه، فقال: «لا، اسمعي، لم أقصد الأمر بهذه الطريقة»، دفن وجهه في يديه: «لو شئتِ لأخبرتك كل شيء عنه، لكن هذا ليس الجزء المهم. المهم هو أنني لا أستطيع أن أتذكر».

- هل سبق أن حدث هذا؟

- إنه يحدث منذ... آه... شهرين.

رأى أن ذهنها راح يعمل بانهماك، محاولًا تقليص جسامة ما قاله إلى الحد الأدنى. «لكن سبق لكَ أن فقدتَ ذاكرتك ذات مرة، أليس كذلك؟ أعني، لقد قلت إنك لم تكن تستطيع تذكُّر شيء حين عدت من فرنسا»، انتقلت إلى نبرة إدانة: «لقد تركتَ نفسك تُستنزَف، هذا ما فعلتَه».

«اسمعي، أحتاج منك أن تخبريني عن الأمر»، حاول أن يبدو خَلِيَّ البال: «أنتِ أول شخص يقابله».

«ألا تقصد أن تقول «يقابلني»؟ فهو أنت في نهاية المطاف، أليس كذلك؟».

هز پراير رأسه: «لستِ تفهمين»، هبَّ ناهضًا وأخرج ورقة من درج المنضدة الجانبية العلوي: «انظري».

نظرت سارا وقرأت: *لمَ لا تترك سيجاراتي اللعينة وشأنها؟*

- عثرتُ على بعض لفافات السيجار في جيبي، فرميتها.

- لكنه خط يدك أنت.

- أجل. كيف لي أن أتحدث بصيغة المتكلم عن هذا؟

أخذت سارا تفكر: «عندما قلتُ إنه أنت، لم أقصد فقط... ما هو واضح، بل قصدت أن... قصدتُ أنني عرفتُ طورك المزاجي ذاك. هل تتذكر أول مرة خرجنا فيها معًا؟ ذلك اليوم على الشاطئ».

«أجل، بالطــ...».

«كنتَ هكذا حينئذٍ، تكره الجميع. على متن القطار كنتَ على ما يرام، لكن حالما وصلنا إلى الشاطئ، لا أدري ما حدث، بتَّ نائيًا عني ولم أستطع الوصول إليك. كنت أشعر بالكراهية تشع منك، كأن أي شخص لم يكن في فرنسا هو محض *قذارة*. أجل، هكذا كنتَ على متن المركب، ولا يمكن التحدث

معك حين تكون في ذلك الطور، تحتقر الجميع ببساطة»، تلكأت: «بمن فيهم أنا».

«ليس طورًا يا سارا، فالناس يتذكرون أطوارهم المزاجية».

تلك الليلة في السرير، وهو يلفُّها بجسده، راح يلثمها على طول عمودها الفقري، بأناة، كيلا يوقِظها، وشفتاه تتنقلان من فقرة إلى أخرى.

كمن يقطع نهرًا، عابرًا صخرةً تلو أخرى، نحو ضفة سلامة العقل.

لكنها، بعد غدٍ، ستكون قد غادرت.

15

غادرت سارا مبكرًا صباح الاثنين. تعانقا بشدة عند الحاجز في كينغز كروس، وهما يتنفسان دخان فحم الكوك، ولم يتبادلا كلمات الوداع.

ظل يعمل حتى وقت متأخر، مؤجلًا لحظة مواجهة الشقة الخاوية المحتومة. وفي طريق العودة إلى المنزل، أخبر نفسه مرارًا أن الأمر لن يكون في غاية السوء، أو على الأقل ليس بالسوء الذي يتوقعه.

كان أسوأ.

راح يطوف على أركان الشقة، مفتشًا عن آثار لها، وحاول إقناع نفسه أن الانخفاض الذي يراه في حشية الأريكة هو الموضع الذي أسندت إليه رأسها. جلس ووضع رأسه هناك، لكن ذلك لم يزوده إلا بمنظورٍ أشد إيلامًا يمسح منه خواء الغرفة بعينيه.

سيتحسن الوضع، هكذا قال لنفسه.

لم يتحسن.

عوَّد نفسَه أن يمشي في الشوارع ليلًا، سعيًا إلى أن يتعب بمقدار كافٍ كي ينام. لندن ليلًا تفتنه. يسير على الأرصفة، ينظر إلى أسماء الأماكن: قوس الرخام، بيكاديلي، تشارينغ كروس، توتنهام كورت رود. ثمة خنادق سُميَت على أسماء كل هذه الأماكن. وشيئًا فشيئًا، فيما هو يعبر شوارع مدينة

الليل، تأخذ تلك المدينةُ الأخرى -المتاهةُ العصية على التصور- تنمو حوله، ويومض في ضوء الوهج اللونُ الأبيض الشاحب لجدرانها التي قوامُها أكياس رمل، إلى أن يطرأ عارضٌ ما -قطعة ورق تطير فوق الرصيف أو ضحكة فتاة- فيعيد إليه إدراكه لمكانه.

وصلته رسالةٌ من سارا ووضعها على رف المدفأة، تحت تمثال خزف صغير لفتاة تنزه كلبًا في مهب الريح، حيث يراها أول دخوله من الباب.

خلال نزهاته الليلية هذه، كثيرًا ما يفكر في سپراغ، وكلما فكر ازدادت حيرته. كل ما في مظهر الرجل المتعرق الأشعث الناضح بالكحول يوحي بشخصٍ عاطلٍ مُعدم، رجلٍ يتخبط في حياته، ومع ذلك فالجهد المطلوب لمراقبة الشقة وتعقُّبِه كل المسافة إلى كيو يكشف عن درجة معتبرة من المثابرة. الأمر لا يبدو منطقيًّا.

أحد التفسيرات التي تتبادر إلى الذهن هو أنه يعمل لصالح لود، لكن پراير ارتاب بالفكرة. الجو في وحدة المخابرات يجعل المرء يخلط بين الشكوك التي لا أساس لها وبين الواقع مع كل حركة. وهذا يذكِّره بصورة خدعةٍ بصرية رآها ذات مرة، فيها أدراجٌ يرى الناظر أنها تربط بين الطوابق المختلفة لمبنى. لم يُدرك آنذاك -إلا بعد أن أمعن النظر مُطوَّلًا- أن المنظور غير منطقيٍّ، وأن الأدراج المرسومة بإحكام لا تربط أي شيء بأي شيء.

•

ظهرت صاحبة منزله، السيدة رولاستون، عند عتبة الباب، تحضن صدرها بذراعيها كما تفعل النساء حين يشعرن بالتهديد. «رأيتُ أن أعلمك أن ثمة من سيأتي لينظف صناديق القمامة. أعرف أنني قلت يوم الاثنين، لكنني لم أستطع العثور على أحد».

كان واضحًا أنها تستأنف حديثًا.

أومأ پراير برأسه وابتسم.

لم يستطع أن يتذكر أي حديث دار بينه وبين السيدة رولاستون عن صناديق القمامة.

كان بحاجة إلى مقابلة سپراغ، إلا أن العنوان الوارد في الملف -كما اكتشف وهو واقف على رصيف مبرغل مكشوف للريح في وايت تشابل- عنوانٌ قديم. الفتاة الشاحبة التي كلمته من القبو، حاملةً رضيعًا ينقنق متذمرًا بين ذراعيها، قالت إنها تعيش هناك منذ عام، وكلا، لا تعرف إلى أين انتقل الساكن السابق. لكن لعل صاحبة المنزل تعرف.

أكدت صاحبة المنزل، التي وجدها -كما قيل له- في مقصورة داخلية في الحانة المحلية، أن اسم الساكن هو سپراغ، وهي لا تعرف أين هو الآن. سألته إن كان يعلم أن هذه هي الحانة التي كانت ماري كيلي تشرب فيها ليلة مصرعها على يد السفاح[1]، وأخبرته أنها كانت تعرف ماري كيلي مثلما تعرف أختها، وقد عُثِر على قلبها في مكان وكبدها في آخر وأمعائها متناثرةً فوق الأرضية، *كانت تجلس على ذلك الكرسي لا غيره*...

اشترى لها كأسًا من نبيذ پورت بالليمون وتركها لذكرياتها. فكر كم هو غريب أن يستمر الافتتان بقصة السفاح وضحاياه *الخمس* البائسات في وقتٍ يشتعل فيه نصف أوروبا.

إنه يفقد المزيد من الوقت، ليس على شكل فترات ضخمة، بل على نحوٍ متكرر، ربما أربع مرات أو خمس يوميًا. بات يبقى في منزله مساءً، إلا إن كان سيقابل ريڤرز. هو يعلم أن الشقة سيئة له، من الناحيتين الجسدية والعقلية معًا، لكنه يخشى المغامرة بالخروج لأن ذلك يزيد الفرص أمام شخصيته الأخرى. محض هراء بالطبع، فشخصيته تلك تستطيع الخروج، وتخرج بالفعل، رغم أن رائحة الهواء الطلق على بشرته تكون أحيانًا العلامة الوحيدة التي تدل على أنه كان في الخارج.

---

(1) الحديث هنا عن «جاك السفاح»، وهو الاسم الأشهر الذي أُطلق على قاتل متسلسل مجهول الهوية كان نشطًا في المناطق الفقيرة جدًّا ضمن وايت تشابل وحولها عام 1888. ويُعتقد أن ماري جين كيلي كانت آخر ضحاياه. (المترجم)

ذات صباح، أرسل لود يطلبه.

«قلت لنفسي أن أشاركك الأخبار الجيدة»، قال له: «بما أنها قليلة هذه الأيام. لقد قبضوا على ماكدويل».

اعتصر الغثيانُ جسدَ پراير من الصدمة، لكنه تمكن من الحفاظ على وجهه بلا تعابير: «أوه؟ متى؟».

- قبل بضعة أيام، في ليڤربول، منزل تشارلز غريڤز. قبضوا على غريڤز أيضًا.

- إممم، هذا تقدُّم حقيقيٌ.

- خبر جيد، أليس كذلك؟

أومأ پراير برأسه.

«أتعلم؟»، قال لود وهو يراقبه من كثب: «كنت أظن أنني أفهمك. كنت أظن أنني أحيط بك علمًا»، انتظر: «آه، حسنًا، عُد إلى عملك».

تساءل پراير عما جعل مداعبة لود المتواصلة لشاربه تبدو له يومًا علامة ضعف، فالأمر لم يبدُ كذلك الآن.

الليالي سيئة. ما زال يتناول الشراب المنوم، ويكرر الجرعة أحيانًا عندما تخفق الأولى في أداء عملها. ريڤرز يحثه على الامتناع عن ذلك، لكنه يتجاهل نصيحته، فعليه أن ينام.

ذلك المساء، بعد أن غطَّ في نومٍ عميق عقب الجرعة الثانية، أيقظه طرْقٌ على الباب. كان البروميد ملتصقًا به كالصمغ. وحتى حين تمكن أن ينهض من سريره، شعر بالغثيان يسري في بدنه. وفيما هو يرتدي سرواله وقميصه سريعًا، ظن للحظة أنه قد يتقيأ بالفعل. استمر الطرْق، ثم توقف.

يبدو أن الطارق -أيًّا كان- قد سئم وغادر. كان پراير على وشك أن يرتمي على السرير مجددًا، حين تذكر أنه قد ترك الباب مفتوحًا. تصرفٌ ولا أغبى، لكنه السبيل الوحيد إلى إدخال بعض الهواء.

لا مناص، عليه أن يذهب ويغلقه.

رائحة الكرنب المتعفن تملأ الممر؛ لم تُنظَّف منطقة صناديق القمامة رغم وعد السيدة رولاستون. سار پراير متعثرًا، يثبت حمالتَي بنطاله.

كان الباب مفتوحًا، وأطل ينظر منه. لم تكن السماء بأزرقها المعتاد في أمسيات الصيف، بل تشوبها مسحة بُنية كالزبدة المغشوشة. عاد إلى الداخل وأغلق الباب.

كان قرب باب غرفة المعيشة حين سمع حركة.

ببطء، دفع الباب نصف المفتوح، فوجد سپراغ جالسًا ببلادة على الكرسي ذي الذراعين، وأصابعه الغليظة مسترخية فوق فخذيه المفلطحتين. رفع رأسه بتعبيرٍ مرتبك -وساذج إلى حدٍّ ما- يعلو وجهه، مرتبك إنما مكابر. قال له: «إذًا؟ لأي شأن تريد أن تراني؟».

«هل تدخل بيوت الناس دون دعوة دائمًا؟».

«ظننتُني سمعتُك تقول تفضَّل»، لم يُتعِب نفسه بجعل الكذبة مقنعة: «علمتُ أنك لا بد في الداخل لأن الباب كان مفتوحًا. عليك أن تنتبه، فقد تتعرض للسطو». ألقى على أنحاء الغرفة نظرةً سريعة تشير إلى عدم وجود ما يستحق السرقة.

كان پراير غاضبًا، ليس لأن سپراغ دخل بلا دعوة، الأمر أعمق وأقل منطقيةً من ذلك. كان غاضبًا بسبب الطريقة التي يثني سپراغ بها أصابعه على فخذيه؛ أصابع يوحي مظهرها بالبراءة، ولها لونٌ ورديٌّ شمعيٌّ كلون المقانق الرخيصة للغاية.

«سأنهض وأطرق الباب من جديد إن أردت»، قال سپراغ بتعبير هزليٍّ.

«لا يهم»، أجابه پراير وهو يجلس: «ماذا تريد؟».

«أنت ماذا تريد؟».

بدا پراير مشدوهًا.

«أنت الذي كنت تطاردني».

كان سپراغ مخمورًا. أجل، لقد أخفى ذلك بشكل جيد، باستثناء أثر ضئيل لضبطه المفرط لنطقه، نوع من الشراسة يقبع تحت السطح.

«ما رأيك بشيء تشربه؟»، اقترح پراير.

«طيب، لا بأس».

كان پراير يحتاج إلى وقتٍ كي يفكر، كي يتوصل إلى الطريقة التي سيتعامل بها مع سپراغ. دخل إلى المطبخ، حيث يحتفظ بالويسكي. المشكلة أنه يمقت سپراغ إلى درجة تصبح معها المناورة الضرورية أمرًا بغيضًا. المرء لا يناور أشخاصًا مثل سپراغ، بل يسحقهم.

ملأ إبريقًا بالماء، وفي الصمت الفجائيِّ الذي ساد بعد إغلاق الصنبور سمع حركة -بدت له مختلسةً- في الغرفة المجاورة. هبَّ نحو الباب سريعًا.

كان سپراغ يأخذ رسالة سارا من تحت التمثال على رف المدفأة. كلا، لم يكن يأخذها، بل *يُرجعها*.

«هل قرأت هذه؟»، اقتحم پراير الغرفة وهو يتذكر لغةَ سارا الصريحة في الكلام عن ممارسة الحب بينهما: «هل قرأتها؟».

بلع سپراغ ريقه بمشقة: «هذا ما يُمليه العمل».

«كان ينبغي لك ألا تفعل ذلك».

«أوه، حبًّا بالله»، قال سپراغ: «أتظنها ستمانع؟ لقد رأيتُها في دفيئة النخيل، كانت يدُها داخل بنطالك يا رجل».

قبض پراير على ساعدَي سپراغ دون شدة ونطحه على وجهه، فحطَّ رأسُه على أنفه مُصدِرًا صوتَ انسحاقٍ غضروفيٍّ يبعث على الرضا. حاول سپراغ الفكاك، لكنه تهاوى إلى الأمام يشخر والدم يطفر منه، ووضع يده المرتجفة كي يوقِف التدفق دون جدوى.

حاول پراير أن يُنهِضه، مثل طفلٍ يحاول جعل لعبته تعمل. تراجع سپراغ مترنحًا فسقط على المصباح ذي العمود، الذي انقلب وهوى عليه. ظل راقدًا مكانه، وأصابعه مفرودة فوق أنفه المهشم، يحاول أن يتكلم فيغرغر بدلًا من ذلك.

مشمئزًا من نفسه مثلما من سپراغ، ذهب پراير إلى المطبخ، وبلَّل فوطةً بالماء البارد وعصرها، ثم عاد وناول سپراغ إياها: «خذ، ضع هذه على أنفك».

راح سپراغ يربت بالقماش المبلل على وجهه مُجفلًا مع كل لمسة، ودمعه يسيل. «مكسور»، استطاع أن يقول. أومأ دون إيضاح إلى الفوطة، التي

تخضبت بدمائه. أخذها پراير منه وأحضر واحدة أخرى. نظر إلى طية الدهن المتجمعة فوق بنطال سپراغ، وتصور نفسه ينزل بجزمته على كليتيه. لكن لا يمكنك أن تفعل هذا، الرجل في حال يُرثى لها. ألقى الفوطة نحو سپراغ وجلس على الكرسي الأقرب، يهتز غضبًا، غير مكتفٍ بما حدث. كان يريد *قتالًا*، لكنه يضيع وقته في العبث بالفوط اللعينة مثل فلورنس نايتنغيل[1] عوضًا عن ذلك.

بعد قليل، بدأ سپراغ يبكي. حدق پراير إليه بقرفٍ مرتاعٍ وقال لنفسه: رباه، لن أتحمل هذا. «هيا»، قال وشد سپراغ من كُمِّه: «*إلى الخارج*».

- لا أستطيع المشي.

- سأحضر لك سيارة أجرة.

لف پراير قلاشينه[2] وانتعل جزمته بمشقة، ثم عاد إلى غرفة المعيشة وجرَّ سپراغ منهضًا إياه على قدميه. مضى سپراغ إلى الباب في تمايلٍ عاثر، خطوةً بإرادته وأخرى يجره پراير إليها جرًا. *ابن الزنى*، فكر پراير وهو يدفعه على الدرج، لكن الغضب أخذ ينحسر، تاركًا إياه وحيدًا.

سارا في الشارع يترنحان، سپراغ يستند بثقله على پراير، مثل سكرانَين. «أتدرك كمَّ المتاعب التي سأواجهها إن شوهِدتُ هكذا؟»، سأله پراير.

مرت أول سيارتَي أجرة دون أن تتوقفا. كان وجه سپراغ يبدو عَكِرًا في الهواء البُنيِّ، لكن النزف أقل وضوحًا مما كان في الشقة. وقف يتمايل رويدًا، نافرًا عن كل ما حوله من ضجة وحَرٍّ وحشودٍ مارَّةٍ ووجوه متعرقة. كان يحضن كربَه المرير واضحًا للعيان، يحمله معه مثل كأسٍ مترَعة. «لقد عرض لود عليَّ الذهاب إلى جنوب إفريقيا، هل تعلم؟ رحلة مدفوعة التكاليف».

«هل ستذهب؟».

«ربما»، نظر حوله، ثم اندلق كل ما فيه من مرارة: «سحقًا لكل شيء هنا».

---

(1) فلورنس نايتنغيل (1820-1910): ممرضة بريطانية برزت خلال حرب القرم (1854-1856)، وتُعرف برائدة التمريض الحديث. (المترجم)

(2) قلاشين: جمع قلشين، وهو رباط يُلف بإحكام حول الساق من الكاحل إلى الركبة. (المترجم)

تذكّر پراير أن ثمة أشياء يحتاج أن يعرفها: «هل لود هو من طلب منك أن تتعقبني؟».

- أجل.

- أكنتَ تتبعني حين ذهبتُ لرؤية هيتي روپر؟

- كلا، ليس هناك.

إما أن سپراغ ممثل أفضل مما بدا حتى الآن، وإما أنه يقول الحقيقة. أخذ يلوح ويصيح: «تاكسي!».

توقفت السيارة أمامهما ببضع خطوات. قال: «سوف أحتاج إلى نقود».

فتش پراير في جيوب سرواله: «هاك، خذ هذه».

انحنى سپراغ وقال: «قوس الرخام». ما كان سيقدم عنوانًا دقيقًا على مسمعٍ من پراير.

«لا بد أنك كنت تتبعني»، قال پراير: «أنت من أخبر الشرطة أين يجدون ماكدويل».

نظر سپراغ من داخل السيارة المعتم: «لست أنا يا سيدي»، كانت نبرته تهكمية وغير مبالية: «لود قال إنك أنت الذي بلّغت».

16

في مستشفى الإمبراطورية، مسح تشارلز مانينغ رقعة الشطرنج بعينيه، وبرأس سبابته أسقط الملك الأسود برفق.

«أنت الفائز»، قال: «مجددًا».

ابتسم لوكاس، ثم أشار من فوق كتف مانينغ إلى حيث لاح رجلٌ في الزيِّ العسكريِّ واقفًا بمدخل الجناح.

نهض مانينغ. لعل الخوف رفَّ داخله لثانية. الخوف كلمة أشد من المطلوب، ربما، بيد أن مانينغ قطعًا لم يكن مرتاحًا، رغم أنه مثَّل ذلك -بطريقته المعتادة التي اكتسبها مقابل ثمن باهظ- وهو يتجه نحو پراير مادًّا يده ليصافحه. «حسنًا»، قال: «هذه مفاجأة بالفعل».

- كيف حالك؟

- إنني أتحسن. دعنا نذهب إلى غرفتي.

راح مانينغ يدردش بأريحية وهما يعبران الدهليز: «إنه مميز، ذلك الفتى. أتعلم؟ هو لا يتذكر اسم أي حجر، لكن، رباه، كم يجيد اللعب».

غرفة مانينغ لطيفة، فيها آنية ورد على الكوميدينا، وكتاب ذو غلاف بألوان صفراء وحمراء زاهية مقلوب على وجهه فوق السرير.

«ستعرف الكاتب»، قال مانينغ وهو يلتقط الكتاب.

قرأ پراير العنوان: هجوم مضاد، والاسم: سيغفريد ساسون.

«لا بد أنكما كنتما في كريغلوكهارت في الفترة نفسها»، قال مانينغ.

«أجل، إلا أنني لستُ متأكدًا إن كان ذلك يمثل علاقةً يُعوَّل عليها بصراحة».

أغلق پراير الكتاب ووضعه على الكوميدينا بجانب صورةٍ لزوجة مانينغ وابنيه، الصورة نفسها التي كانت على البيانو الكبير في منزله. «كان يكره ذلك المكان».

- حقًّا؟

- أوه، أجل، لقد وضح ذلك غاية الوضوح. وكذلك كان يكره الأشخاص؛ المضطربين التالفين، المتهربين، المنحطين.

«حسنًا»، قال مانينغ وهو يشير نحو كرسي داعيًا پراير إلى الجلوس: «من مضطرب متهرب منحط إلى آخر... قل لي، كيف حالك؟».

«على ما يرام، كما أظن. جارٍ إغلاق وحدة المخابرات، لذا لستُ أعلم تمامًا ما سيحدث».

ابتسم مانينغ: «أظن أنك تريد البقاء في الوزارة؟»

- ليس على وجه التحديد.

- أوه؟ حسنًا، قد يكون هذا أصعب بعض الشيء. لدي صديق في مكتب الحرب، تشارلز مونكريف، لا أدري إن كنت تعرفه؟ أيًا يكن، إحدى مهامه اختيار مدربين لكتائب الطلبة العسكريين. أرى أن هذا قد يكون احتمالًا؟

انحنى پراير إلى الأمام: «على رسلك لحظة. لم آتِ إلى هنا كي أتملقك أنت أو صديقك اللعين في مكتب الحرب، ما أردتُ قوله -إن كنت لا تمانع أن تصغي- هو أنني أود أن أكلمك بخصوص شيء».

- ماذا؟

- بل «من». امرأة تُدعى السيدة روپر، بيتي روپر.

بدت الحيرة على مانينغ: «السيدة روپر لا غيرها؟ روپر صاحبة مؤامرة التسميم؟».

«أجل»، أخرج پراير ملفًا من حقيبته الجلدية: «باستثناء أنها لم تفعلها».

أخذ مانينغ الملف منه: «أتريدني أن أقرأه؟».

«لقد لخصتُه، لن يستغرق منك أكثر من بضع دقائق».

راح مانينغ يقرأ بكامل تركيزه، وعندما انتهى رفع رأسه: «أيمكنني الاحتفاظ به؟».

«أجل، لدي نسخة. وكذلك لدي نسخ من الوثائق».

«أتعني أنك سحبتَ نسخًا شخصيةً عن ملفات خاصة بالوزارة؟»، زمَّ مانينغ شفتيه: «أنت بالتأكيد لا تراعي القوانين، أليس كذلك؟».

«ولا أنت».

«كلانا على المركب نفسه إذًا، صحيح؟»، خشنت نبرته: «كنتُ لأظن أننا على متن المركب نفسه *بالضبط*».

بالكاد ألقى پراير نظرةً على الصورة الفوتوغرافية: «ليس تمامًا».

نهض مانينغ وسار إلى النافذة. لم يقل شيئًا لبعض الوقت، ثم استدار وقال: «لماذا؟ ما الذي يمنعك بحق السماء أن تأتي وتقول ببساطة: «اسمع، أنا قلق بشأن هذا الأمر. هلّا قرأتَ التقرير؟» لا بأس، كانت الفرصة سانحة أمامك كي تفعل ذلك، لأن... لم يكن هنالك داعٍ لأي شيء من هذا القبيل».

أدرك پراير فجأةً أن مانينغ محق: «هراء. بيتي روپر امرأة تنتمي إلى الطبقة العاملة من أزقة سالفورد الخلفية، أنتم لا تلقون إليها أدنى بال. لا أقصدك شخصيًا -مع *أن هذا* صحيح *أيضًا*- بل أقصد طبقتك».

بدا الاهتمام الآن على مانينغ أكثر من الغضب: «أنت تعتقد بالفعل أنَّ الطبقة تحدد كل شيء، أليس كذلك؟».

- بخصوص أخذ الناس على محمل الجد من عدمه؟ بلى.
- لكن المسألة ليست مسألة أفراد، صحيح؟ حسنًا، أنا لا أعرف أي شيء عن النساء في أزقة سالفورد الخلفية، ولا أدَّعي أنني أعرف، ولا أريد أن أفعل، لكن هذا لا يعني أنني أريد أن أراهُن يُحبَسن بناءً على شهادة زور. لا هن ولا أي أحد غيرهن، كائنًا من كان.
- انظر، أيمكننا أن نتخطى الغضب الأخلاقيَّ؟ حين أتيتُ إلى هنا، افترضتَ أنني أسعى إلى وظيفة هينة، ولم أكن قد تفوهت حتى بجملتي الأولى

حبًّا باللعنة. أتقول جادًا إنك كنت لتفترض الافتراض نفسه بشأن شخص من طبقتك؟

- أجل.

- لا أصدقك.

- بلى، كنت سأفترض ذلك.

- إذًا أعتقد أنك تقابل العشرات منهم، الذين يستجدون وظائف آمنة؟

«أجل»، أجاب مانينغ بنبرة كئيبة.

نظر پراير إليه: «رباه، يا لها من متعة».

«ليس حقًّا».

جلسا صامتَين، كلٌّ منهما يتأمل التغيير الذي اعترى الجو دون أن يوقن معناه. «معك حق»، قال مانينغ أخيرًا: «كان افتراضي ذلك مهينًا، أنا آسف».

لحظتئذٍ فُتِح الباب ودخل ريڤرز.

«تشارلز، أنا...»، توقف فجأةً حين رأى پراير: «مرحبًا. آسف، لم أعرف أن لديك زائرًا»، ابتسم لپراير: «آمل أنك لستَ تُتعب مريضي؟».

«بل هو الذي ينهكني»، أجاب پراير بحدة.

«ماذا كنت تريد مني؟»، سأله مانينغ.

قال ريڤرز: «ما من شيء مستعجل».

خرج وتركهما بمفردهما.

ساد صمت قصير. «أنا أيضًا آسف»، قال پراير: «أنت على حق بالطبع، التحامل الطبقي لا يكون أقل سوءًا حين يُوجَّه إلى الأعلى»، لكنه مبرر أكثر بحق اللعنة. «أتعتقد أنه ينبغي لي أن أُطلِع عضو برلمانها على الملف؟».

- أوه، رباه، كلا، لا تفعل هذا. ما إن يُذكَر في المجلس حتى تثبت التهمة إلى الأبد. لا، سأكلم إيدي مارش، لكن لا تتوقع الكثير. أقصد، من الواضح تمامًا -حتى وفقًا لتقريرك- أنها كانت تؤوي الفارِّين من الجندية، وهذا حكمه عامان من الأشغال الشاقة، وهي لم تُتم إلا عامًا واحدًا.

- لم تُوجَّه إليها هذه التهمة.

قال مانينغ: «لن يُطلقوا سراحها الآن».

- ماذا سيفعلون إذًا؟

- ينتظرون حتى تنتهي الحرب، ثم يتركونها تذهب بهدوء.

هز پراير رأسه: «لن تصمد كل هذه المدة».

تلك الليلة، عند الساعة التاسعة، خرج پراير لتناول شراب. ثاب إلى رشده بعد منتصف الليل، وهو يعبث بالمفتاح متخبطًا في محاولة لإدخاله في القفل. إنه لا يتذكر أي شيء من الساعات الخمس التي انقضت.

فرك ريڤرز زاويتَي عينيه بصوت احتكاك مسموع: «هذه هي الفترة الأطول، أليس كذلك؟».

- بلى، تقريبًا.

- أمَا من إشارات مفسِرة؟ أقصد، هل كنت تشرب؟

- كالأسماك. ما زلت أعاني الصداع.

ارتدى ريڤرز نظارته من جديد.

«إحدى... كيف أصوغها؟»، تنفس پراير بعمق: «*المنغصات* المرتبطة بوضعي الحاليّ هي أن المطاف بات كثيرًا ما ينتهي بي إلى خُمارِ[1] شخصٍ آخر، وهذا يتكرر كثيرًا بالفعل».

«ليس «خُمار شخصٍ آخر»».

أشاح پراير بوجهه: «لا فكرة لديك كم هو مقرف أن يتفقد المرء سرواله الداخليَّ بحثًا عن علامات «نشاطٍ حديث»».

أطرق ريڤرز ينظر إلى ظاهر يديه: «سوف أقول شيئًا لن يعجبك على الأرجح».

بدأ الهاتف يرن في الغرفة المجاورة.

---

(1) الخُمار: ما يعقب شربَ الخمر من صداعٍ وأذى. (المترجم)

ابتسم پراير: «وسيتعين عليَّ أن أنتظر كي أسمعه أيضًا».

المكالمة كانت من النقيب هاريس، اتصل كي يرتب تفاصيل رحلة جوية سيُجريانها غدًا. دوَّن ريڤرز الموعد لديه، وأخذ بضع لحظات ليستجمع أفكاره قبل أن يعود إلى پراير.

كان پراير واقفًا قرب رف المدفأة، يلقي نظرةً على كدسة من بطاقات البريد الميدانية. حسنًا، لا بأس بهذا، قال ريڤرز لنفسه وهو يغلق الباب. بطاقات البريد الميدانية لا تحتوي على معلومات عن المرسِل، باستثناء تبيان أنه على قيد الحياة، أو أنه كان كذلك وقت الإرسال. «لقد صدر كتابه، هل عرفت؟»، قال پراير رافعًا إحدى البطاقات بيده: «مانينغ لديه نسخة».

«أجل».

جلس ريڤرز وانتظر أن ينضم پراير إليه.

«أعتقد أن هذا هو التحدي الحقيقي»، قال پراير: «بالنسبة إليك؛ أولئك الذين يرجعون. لا بد أنهم هم من تطرح الأسئلة حولهم. أقصد، من الواضح أن كل تلك الـ «واجِهْ عواطفَك، اعترِف بالخوف، اسمَح لنفسك أن تشعر بالأسى»... تصنعُ العجائب. *هنا*»، اقترب پراير وانحنى نحوه: «لكن ماذا عن *هناك*؟ أتظن أن هذا يقدم عونًا *هناك*؟ أم أنهم يُجَنون بسرعة أكبر وحسب؟».

- لم يسبق لأحد أن أجرى متابعة. للعلاج بالصدمة الكهربائية معدلُ انتكاسٍ مرتفع جدًّا، أما معدل الانتكاس الخاص بعلاجي فلا أعرفه. المرضى الذين يبقون على تواصل يمثِّلون مجموعة منتقاة ذاتيًّا[1] بشكل واضح، والدليل الذي يقدمونه هو دليل سرديٌّ[2]، ما يجعله عديم الجدوى تقريبًا.
- رباه، يا ريڤرز، ما أبرد قلبك.
- سألتَني سؤالًا علميًّا، وحصلتَ على إجابة علمية.

(1) أي أنهم يتواصلون بناءً على اختيارهم. (المترجم)

(2) الدليل السردي: دليل مبنيٌّ على القصص، وتُجمع هذه الأدلة على نحوٍ عرَضي لا يخضع لنظام دقيق، وهي تعتمد على الشهادة الشخصية بشكل كبير أو كلي. (المترجم)

جلس پراير: «أحسنتَ المراوغة».

نزع ريڤرز نظارته: «أنا حقًّا لستُ أحاول المراوغة أو التملص من أي شيء. ما كنت أريد قوله هو: أظن أنه ربما يجدر بك التفكير في الدخول إلى المستشفى. الـ....»

- لا، لا يمكنك أن تأمرني بفعل هذا.

- صحيح، لكنني كنت آمل أنك تثق بي بما يكفي كي تأخذ بنصيحتي.

هز پراير رأسه: «لا أستطيع أن أواجه الأمر».

أومأ ريڤرز: «إذًا علينا أن نتدبر أمرنا في الخارج. هلّا أخذتَ إجازة مرضية على الأقل؟».

هز پراير رأسه بشدة من جديد: «ليس الآن».

ظل پراير يتجنب التفكير في اللقاء مع بيتي روپر إلى أن وجد نفسه يقطع فناء السجن. كانت مُضرِبة عن الطعام مجددًا، هكذا قالت السجانة وهي تخشخش بمفاتيحها، وقد أصيبت بالأنفلونزا، ما من مقاومة، قضت الأسبوع الماضي بأكمله في عنبر المرضى، سيراها ضعيفة، طبيب السجن أراد أن يُطعِمها قسريًّا، لكن وزارة الداخلية قررت بحكمتها ألا تُستخدَم هذه الأساليب.

كانت أكثر نحولًا مما يتذكر.

وقف داخل الباب. إنها مستلقية على السرير، والضوء من النافذة ذات القضبان يلقي ظلًّا على صفحة وجهها. وقفت السجانة أمام الحائط، عند الباب المغلق.

«أحتاج أن أراها على انفراد».

توقَّع جدالًا، لكن السجانة انسحبت على الفور.

«إنها نبرة السطوة يا بيلي».

كان المخاط عالقًا على زاويتَي شفتيها وهي تتكلم، بحيث بالكاد بدا فمها مفتوحًا.

اقترب من السرير: «سمعت أنك كنت مريضة».

«أنفلونزا، الجميع أصيب بها».

ظل واقفًا، كأنه يحتاج إلى إذنها كي يجلس. أومأت برأسها نحو الكرسي.

«كنت أفعل ما أستطيع»، قال: «أخشى أن ذلك لم يُفضِ إلى شيء ذي بال. كنت آمل أن يستطيع ماك المساعدة، لكن...».

تحرك صدرها في ما قد يكون ضحكة: «لن يستطيع حيث هو الآن. تعرف إلى أين أرسلوه، أليس كذلك؟ واندزوُرث».

«كما تعلمين، أنت آوَيْتِ فارّين من الجندية، ويظنون أنك قد تفعلينها مجددًا».

أنهضت نفسها على السرير: «معهم كل الحق. قد أبدو أشبه بفزاعة لعين، لكن *هنا*»، نقرت على جانب رأسها، «ما زلتُ على حالي».

سعلت السجانة خارج الباب.

- أتتذكر فتىً يُدعى برايتمور؟

- كلا.

- هيا، أنت تتذكره.

لم يكن يتذكره، لكنه أومأ برأسه.

- فتى لطيف. لقد أرسلوه إلى كليثوربس، حبسٌ لمدة اثني عشر شهرًا. بالطبع ظل يرفض إطاعة الأوامر، لذا عوقِب بالحبس الانفراديّ ثمانية وعشرين يومًا، وما فعلوه هو أنهم حفروا حفرةً غُمِر قاعُها بالماء ووضعوه فيها. لا يستطيع الجلوس، لا يستطيع الاستلقاء، لا شيء يمكن النظر إليه سوى الجدران الطينية. جاء شخص ووقف عند الحفرة وأخبره أن رفاقه أُرسِلوا إلى فرنسا وقُتِلوا بالرصاص، وإن لم يمشِ لصق الحائط ويحاذر سيحدث له الشيء نفسه. فكر أن عقله سوف يستسلم، ثم بدأ المطر ينهمر فامتلأت الحفرة وشعر الجنود الذين يتولون حراسته بالأسف عليه إلى درجة جعلتهم يُخرِجونه ويتركونه ينام في خيمة. تعرضوا لعقابٍ وخيم حين بلغ ما حدث الضابطَ الآمر،

وفي اليوم التالي أعيد إلى الحفرة. لو لم يُعطِه أحدُ الجنود علبة سجائر يكتب عليها لمات هناك. المهم، لقد هرَّبوا رسالةً إلى الخارج...

- وخضع الضباط الذين فعلوها لمحاكمة عسكرية. بيتي، في فرنسا مليون رجل غارقون في الماء حتى *خُصاهم*، من ذا الذي سيُحاكم عسكريًا على ذلك؟

«كل جنرال لعين في فرنسا، لو كان الأمر بيدي. لستَ الوحيد الذي يهمه أمر أولئك الفتيان، ما سبب كل هذا برأيك إن لم يكن من *أجلهم*؟»، سكوت: «ما كنتُ *أحاول* قوله هو أن هذا المكان قصر فاخر مقارنةً بحفرة في الأرض، وأنا محظوظة لكوني هنا».

نظر إليها، ورأى قلبها ينبض بشكل مرئيٍّ تحت ثوبها الرقيق: «هل رأيتِ هيتي؟».

- مرتين. اليوم موعدها في الواقع. فهمتُ أن الفضل في ذلك يعود إليك؟

- ليس شأنًا ذا بال.

«بلى، هو كذلك يا بيلي، إنه أمر يعني الكثير»، ترددت: «ثمة شيء عليَّ أن أقوله لك، لكنني -لعلمك- لا أقول إنني أصدقه. ابنتنا هيتي تظن أن القبض على ماك، وفقَ الطريقة التي حدث بها، يصعب أن يكون مصادفة. هي...»، هزت بيتي رأسها: «هي تعتقد أنك من دللتهم على مكانه».

- هذا ليس صحيحًا.

- لا، أنا أعلم أنه غير صحيح. لا عليك يا بُني، سأكلمها.

وضع يده على ذراعها العارية وأحس بملمس العظم. «عليَّ أن أذهب»، قال لها. ذهب إلى الباب ودق عليه، ثم استدار نحوها وقال: «سوف أراك مرة أخرى». نظرت إليه، لكنها لم تُجِب.

تبع السجانةَ عبر الفناء، وهو بالكاد يعي الجدران الهائلة بصفوف نوافذها المزودة بالقضبان. لم يرَ هيتي تتجه نحوه، حاملةً حقيبةً برباط، تصحبها سجانة أخرى، إلى أن أوشكت أن تحاذيه. عندئذٍ نادى اسمها، فتوقفت على مضض.

وقفت السجانتان وراقبتاهما.

جاءت هيتي نحوه: «أنا متفاجئة من أنك تملك الجرأة كي تُريني وجهك».

على الرغم من كلامها، انحنى نحوها متوقعًا أن ترحب به. بصقت في وجهه. قبضت السجانة على ذراعها. مسح خده ببطء، دون أن يرفع عينيه عن هيتي، وقال: «لا بأس، اتركيها».

تحرك كلٌّ منهما مع مرافِقتِه بعكس اتجاه الآخر، يقطعان الأسفلت مترامي الأطراف بمشقة مثل الخنافس. التفتت هيتي قبل أن يبتلعها المبنى، وصاحت بصوت يصدّعه الإحباط: «أيها الوغد، *ماذا عن ماك؟*».

في الخارج، حدق پراير إلى المبنى شاخصًا، فيما اكفهرت واجهةُ الدم والأضمدة تحت رذاذ المطر الخفيف. كان يحس ببصقة هيتي كأنها تحرق جلده. رفع يده ومسح خده مجددًا، ثم استدار وبدأ يسير بسرعة نحو المحطة. في رأسه لازمةٌ تتكرر وفق إيقاع، يسمعها مع كل خطوة من جزمته التي تجرجر الحصى وتسحنه: لقد انتصرَ الأوغاد، لقد انتصرَ الأوغاد، لقد انتصرَ...


القسم الثالث

17

كان ريڤرز قد فرَّغ فترة ما بعد الظهيرة لإنهاء العمل على تقرير حول التدريب العسكريّ يُعدُّه لصالح مجلس البحوث الطبية. كُتيبات تدريب المشاة الإرشادية مكدسة على مكتبه منذ أيام، وقد أمضى الساعة الأولى غارقًا فيها، قبل أن يعود إلى آخر مقطع كَتبه.

معظم الذين يجتازون الحروب الحديثة سالمين يفعلون ذلك بسبب خمول مخيلتهم. لكن إن كانت المخيلة نشطة وقوية، يكون السماح لها أن تشطح في مِحن الحرب ومخاطرها أفضل بكثير على الأرجح من التزامٍ نَسَق كبتٍ مطوّل...

نقرةٌ على الباب. لقد هاجم النقيبُ بولدِن إحدى الممرضات. ركض ريڤرز عبر الدهليز مُخفيًا عجلتَه، ثم رأى أن المصعد في القبو فنزل على الدرج ثلاثًا ثلاثًا. وجد مجموعة من الممرضات ومساعدَين اثنين تجمعوا حول باب بولدن، يبدو أنه يرفض السماح لهم بالدخول. استطاع أن يستخلص من بعبعة اللغط الساخط أن بولدن قد رمى سكينًا على الممرضة پرات؛ ليست حادةً جدًّا، ولم تُصِبها، لكنها سكين رغم ذلك. الممرضة پرات واحدة من أقدم ممرضات الجناح وأكثرهن خبرة، لقد اكتسبت خبرتها هذه -لسوء الحظ-

من الأجنحة المقفَلة في مستشفيات أمراض عقلية ڤيكتورية ضخمة، حيث يُعتبر المريض مخطئًا بشكل أوتوماتيكيٍّ لا يقبل الجدل في أي مشاحنة تحدث بينه وبين أحد أفراد الطاقم. يمكن للمرء أن يرى الأمر بوضوح من كلتا وجهتَي النظر. بولدن يلجأ إلى العنف بسرعة وسهولة، لكنه في المقابل قد أمضى الأعوام الأربعة الأخيرة يُدرَّب على فعل هذا بالضبط، والممرضة پرات مطلوبٌ منها -للمرة الأولى خلال حياةٍ مهنية امتدت على ثلاثين سنة- أن تتعامل مع مرضى اعتادوا توجيه الأوامر مثلما اعتادوا تلقّيها. أعطى ريڤرز عصاه لواحد من المساعدَين ونقر على الباب: «هل لي أن أدخل؟».

جاءه الرد على شكل نخير، ليس رادعًا بشكل قطعيٍّ، ففتح الباب ودخل. كان بولدن واقفًا عند النافذة، وما زال غاضبًا ومرتبكًا وخَجِلًا. عمد ريڤرز -الأطول قامة من بولدن- إلى الجلوس، سامحًا للأخير أن يعلو بقامته عليه. بولدن رجلٌ خوّافٌ جدًّا. «إذًا ما الأمر هذه المرة؟».

- قلتُ لها إن لحم البقر لا يؤكل، فقالت إن عليَّ أن أعتبر نفسي محظوظًا لأنني أحصل عليه.
- ولذلك رميتَ عليها سكينًا؟
- لم أُصِبها، أليس كذلك؟

تحدَّثا مدة نصف ساعة، ثم نهض ريڤرز يريد الذهاب.

«سأقول لها إني آسف»، قال بولدن.

«حسنًا، هذه بداية جيدة، ما دام ردها لن يثير غيظك».

«أنا أحاول حقًّا»، قال بولدن محملقًا فيه.

«أعلم أنك تفعل. ومعك حق بخصوص لحم البقر، أنا أيضًا لم أستطع أن آكله».

كلم ريڤرز الأختَ والترز، آملًا أن تستطيع إقناع الممرضة پرات أن تتقبل الاعتذار بدماثة، ثم رأى أن يكلم مانينغ أيضًا، بما أنه موجود في الجناح على كل حال. همّ بالانطلاق نحو غرفة مانينغ، ثم توقف حين تذكر أن احتمال وجود مانينغ أكبر في جناح الأمراض العصبية، حيث كوَّن صداقة وثيقة مع

لوكاس وبعض المرضى الآخرين المولعين بالشطرنج. مانينغ يحرز تقدمًا ملحوظًا، وشارفَ على أن يكون جاهزًا للعودة إلى منزله.

كانا يلعبان الشطرنج بالفعل، بصمتٍ واستغراقٍ كاملَين، ولم يرفعا رأسيهما إلى أن صار واقفًا بجانبهما.

لقد بدأ شعرُ لوكاس ينمو من جديد بعد انقطاع نزيز جرحِه، وكسا فروةَ رأسه البيضاء بزغب داكن. منظر مؤثر إلى حدٍّ ما، كان يبدو مثل صوصٍ بشعٍ متنافرِ الهيئة. «كيف الوضع؟»، قال ريفرز موجهًا السؤال إلى مانينغ.

«إنني أُهزَم شر هزيمة»، أجاب مانينغ بمرح: «19-17 لصالحه».

أشار لوكاس إلى الرقعة: «بل *20*-17»، غرغر وابتسم.

إنه يعرف الأرقام دون شك، قال ريفرز لنفسه وهو يبتعد مبتسمًا. على سرير غير محجوب بالسواتر إلى الأمام داخل الجناح، كان أحد مساعدي التمريض المناصرين للسلام ينظف مريضًا مصابًا بالسلَس. ساقا ڤيغرز لا تكفان عن التحرك بصورة لا إرادية، والتغيير له يتطلب شخصين، واحدًا لتنظيفه والثاني كي يمسك ساقيه. إنه يلطخ كعبيه بالبراز السائل، وينشره في كل أنحاء الملاءة التحتية. وجه مارتن (مساعد التمريض) محمر من الارتباك، وڤيغرز ممتقع من الغيظ والخزي.

توقف ريفرز عند السرير وقال: «ألم تسمع بشيء يُدعى سواتر السرير؟».

رفع مارتن رأسه: «لقد قال وانتاج إنه سيُحضِرها».

كان وانتاج يتسكع في مدخل غرفة الطاقم ويدخن لفافة تبغ، دون أن يبدي أي استعجال لإنقاذ مساعد تمريضٍ معارضٍ للخدمة من موقف تعجيزيٍّ. اتسعت عيناه: «كنتُ لتوي...».

«أعرف ما الذي تفعله تمامًا. ضع السواتر حول ذلك السرير، *الآن*. واذهب وقدِّم المساعدة»، أدار رأسه وصاح وهو يسير مبتعدًا: «وأطفِئ تلك اللفافة».

كان ريفرز ما يزال يرتعد غضبًا حين عاد إلى مكتبه. حمل نفسه على التركيز في المقطع غير المكتمل.

... لكن إن كانت المخيلة نشطة وقوية، يكون السماح
لها أن تشطح في مِحن الحرب ومخاطرها أفضل بكثير

على الأرجح من التزامِ نَسَق كبتٍ مطوّل قد يكون من شأنه تخزين طاقة سقيمة تشكل ما يشبه مستودعَ ذخيرةٍ جاهزًا للانفجار حالَ التعرضِ لصدمة نفسية أو توعكٍ بدنيٍّ.

فكر أن مستودعات الذخيرة المنفجرة أصبحت من الكليشيهات الرائجة. ومع ذلك، بولدن يضرب مثالًا جيدًا لهذه الصورة، وهو الآخر نفسه ليس بعيدًا عنها كذلك.

نقرةٌ على الباب. «لا»، قال ريفرز: «أيًا يكن الأمر، لا».

ابتسمت الآنسة روجرز: «لقد تلقينا مكالمةً هاتفية، حين كنتَ في الجناح، إنها بشأن نقيب يُدعى ساسون».

هبَّ ريفرز على قدميه: «ما الأمر؟».

- إنه في مستشفى الصليب الأحمر الأمريكي في لانكستر غيت، قالوا إنه تعرض لإصابة في الرأس. هل تذهب لرؤيته؟
- ما مدى خطورة الإصابة؟
- لا أدري، لم يقولوا.

في سيارة الأجرة المتجهة إلى لانكستر غيت، راحت الكلمات التي خطَّها ريفرز تدور وتدور داخل رأسه. *إن كانت المخيلة نشطة وقوية، يكون السماح لها أن تشطح في مِحن الحرب ومخاطرها أفضل* بكثير... أطل من النافذة، وهز رأسه كأنما يريد أن يصفي أفكاره. النصيحة هنا ليست في محلها حتى، فهو لا يحتاج إلى المخيلة حبًا بالمسيح، إنه طبيب أمراض عصبية، ويعرف تمامًا ما تفعله الشظايا والرصاص بالدماغ.

كان الجناح عبارة عن غرفة كبيرة مُزينة بزخارف الجص، ولها نوافذ طويلة تنفتح على إطلالة لحديقة هايد بارك. ثمة سريران خاليان، وبقية الأسرة تؤوي رجالًا بإصابات خفيفة يبدون مبتهجين بالحد المعقول جميعهم. على طاولة في منتصف الجناح، غراموفون يبث أغنية حب رائجة. *جعلتِني أحبك.*

هبَّت ممرضةٌ نحوه: «عمَّن...».

«النقيب ساسون».

«لقد نُقِل إلى غرفة مفردة، ألم يقولوا لك؟ أخشى أنها فوقنا بطابقين، لكنني لا أظن أن من المسموح...»، حطت عيناها على شارات الفيلق الطبيِّ في الجيش الملكيِّ: «حضرتك د. ريڤرز؟».

- أجل.

- أظن أن د. سوندرز ينتظرك.

كان د. سوندرز ينتظر خارج باب غرفته. رجل ضئيل البنية ممتلئ الخدين، له شعر أصهب منحسر وعينان زرقاوان أصغر بعشر سنوات من بقية وجهه. «لقد أرسلوك إلى الجناح الرئيسيِّ»، قال وهو يصافحه.

تبعه ريڤرز إلى داخل الغرفة: «ما مدى خطورة وضعه؟».

«بالنسبة إلى *الإصابة*، فهي ليست خطيرة على الإطلاق. في الحقيقة، يمكنني أن أريك»، سحب صورة أشعة سينية من ملفٍ على مكتبه ورفعها أمام الضوء، فأطلت جمجمة ساسون تحدق إليهما. «الرصاصة عبرت من هنا»، حدد الموضع على رأسه هو: «وأصابته بشقٍّ بسيط إلى حدٍّ ما في فروة الرأس».

زفر ريڤرز نفَسه: «رجل محظوظ»، قال بقدر ما استطاع من خفة.

«لا أظنه يظن ذلك».

جلسا متقابلَين حول المكتب. «أخشى أن الرسالة التي وصلتني لم تكن واضحةً تمامًا»، قال ريڤرز: «لم أفهم أكنتَ *أنت* من طلب مني أن أراه أم...».

«أنا الذي طلبتُ ذلك. لقد رأيتُ اسمك في الملف، وقلت لنفسي بما أنك قد تعاملت معه سابقًا ربما لا تمانع أن تراه مجددًا»، تردد سوندرز: «فهمتُ أنه كان مريضًا خارجًا عن المعتاد إلى حد بعيد».

نظر ريڤرز إلى توقيعه في نهاية تقرير كريغلوكهارت. «لقد احتج على الحرب، فكان... »، أخذ نفسًا عميقًا: «من الملائم أن يقال إنه تعرض للانهيار».

- من الملائم لمن؟

- لمكتب الحرب، ولأصدقائه، ولساسون نفسه في النهاية.
- وأنت أقنعته أن يرجع؟
- هو من قرر أن يرجع. ما الخطب؟
- إنه... لقد كان على ما يرام عند وصوله، أو هكذا بدا. ثم استقبل نحو ثمانية زوار حول سريره دفعةً واحدة. قوانين المستشفى تحدد العدد باثنين فقط، لكن الممرضة التي كانت مناوبة آنذاك فتية جدًا، ولم تشعر أنها قادرة على طلب المغادرة منهم كما يبدو. لن تقترف *ذلك* الخطأ مجددًا. على أي حال، عندما غادروا في النهاية كان في حالة مريعة، متضايقًا جدًا، ومرَّ بليلة سيئة -كانت سيئة على الجميع- فقررنا أن نجرب وضعه في غرفة مفردة دون زوار.
- هل هو مكتئب؟
- كلا، بل العكس بالأحرى. إنه متحفز، لا يستطيع التوقف عن الكلام، والآن ليس لديه أحد يتحدث إليه.

ابتسم ريفرز: «ربما يجدر بي أن أذهب وأقدم له جمهورًا».

دهاليز مفروشة بسجاد سميك، وصور مذهبة الإطارات على الحائط. سار يتبع سوندرز، وتذكَّر دهاليز كريغلوكهارت المظلمة المعرَّضة لتيارات الهواء والتي تعشعش فيها رائحة السجائر. لكن هذه الدهاليز ثقيلة الوطأة هي الأخرى، بأثاثها الفاخر وهوائها الراكد. أطل من نافذة على مَنوَرٍ مظلم عميق بين مبنيَين، ورأى حمامةً تقف على عتبة إحدى النوافذ، مثبّتةً قدمَها الوردية المتشققة على حافة الهاوية.

قال سوندرز: «يبدو أنه يحظى بفترةٍ جيدة بعد الظهيرة، قد يكون نائمًا»، فتح الباب بهدوء ودخلا.

كان ساسون نائمًا، وجهه شاحب ومُجهَد تحت الأضمدة التي تغطي رأسه. «أتريدني أن...»، همس سوندرز مشيرًا نحو ساسون.

«كلا، اتركه. سأنتظر».

«سأترك الأمر لك إذًا»، قال سوندرز وانسحب.

جلس ريڤرز قرب السرير. في الغرفة سرير آخر، لكنه ليس مجهزًا. ثمة أزهار وفاكهة وشوكولاتة وكتب مكوَّمة على الكوميدينا. لم يكن ينوي إيقاظ سيغفريد، لكن ذكرى أصواتٍ مهموسة بدأت تعكر الوجه النائم شيئًا فشيئًا. رطّب سيغفريد شفتيه، ثم فتح عينيه بعد ثانية. ثبتهما على ريڤرز، فظهرت البهجة على وجهه لحظة، ثم تبعها الخوف مباشرة. مد يده ولمس كُم ريڤرز. يتأكد من كوني حقيقيًا، قال ريڤرز في قرارته. حركة تكشف الكثير.

انزلقت اليد إلى الأسفل ولمست ظهرَ يده. بلع سيغفريد ريقه، وبدأ ينهض جالسًا. «يسرني أن أراك»، قال مادًا يده: «ظننتُ للحــ...»، كبح نفسه: «لن يدَعوك تبقى»، قال بابتسامة اعتذارية: «ليس مسموحًا لي أن أرى أي أحد».

«كلا، لا بأس. هم يعلمون أنني هنا».

«أظن أن هذا بسبب كونك طبيبًا»، قال سيغفريد وأسند ظهره: «لم يسمحوا لليدي أوتولين بالدخول، سمعتُ السيدة فيشر تتحدث إليها في الدهليز».

سلوكه مختلف بالفعل، فكر ريڤرز. كثير الكلام، ضَجِر، سريع النطق، كما أنه ينظر إلى ريڤرز مباشرةً، وهذا شيء لم يكن يفعله على الإطلاق تقريبًا، لا سيما في بداية اللقاء. لكنه بدا رشيدًا تمامًا، والتغيرات لا تتجاوز حدود الطبيعي. «لماذا لا يسمحون لك برؤية أحد؟».

«بسبب ما حدث يوم الأحد. لقد جاء الجميع: روبرت روس، ميكلجون، سيتويل، يا إلهي، إيدي مارش. وكانوا يتحدثون عن الكتاب جميعهم، فتحمستُ و...»، رفع يديه إلى جبهته: «**بوووم**. خرجت الأمور عن السيطرة. مررتُ بليلة سيئة، وأبقيتُ الجميع مستيقظين، فوضعوني هنا».

«وكيف كانت ليلة أمس؟».

تجهم وجه ساسون: «سيئة. لا أنفك أفكر كم هي أمر جلل، *الحرب*، وكم الكتابة عنها مستحيلة، وكم الغضب أمر غير مُجْدٍ، إنه ردة فعل تافهة، لا يفي الــ... الــ... المأساة أي قدرٍ من حقها، تُمضي كامل حياتك هناك مهووسًا بذلك القسم الضئيل من الجبهة، أعني ثلاثين ياردة من أكياس الرمل، هذه هي الحرب، لا يكون لديك مفهوم عن أي شيء آخر، والآن أظن أن بوسعي رؤية الأمر كاملًا، الجيوش العريضة، الانفجارات والحرائق، ملايين من البشر، ملايين، ملايين».

أمهله ريڤرز: «تقول إنك ترى ذلك؟».

«أوه، أجل، كله ينبسط أمامي»، حركة دورانٍ من ذراعيه: «وهذا مدهش من إحدى النواحي، لكنه رهيب أيضا، وينتابني خوف كبير لأن على المرء أن يكون تولستوي»، قبض على يد ريڤرز: «يجب أن أرى روس، لا آبه بالآخرين، لكن عليك أن تجعلهم يتركونني أراه، يبدو في حالة شنيعة، تلك المحاكمة *اللعينة اللعينة اللعينة*. هل تعلم أن اللورد ألفريد دوغلاس سمَّاه «قائد كل الشواذ في لندن»؟ غير أنه قال ذلك على منصة الشهود، لذا روبي لا يستطيع أن يقاضيه».

- ربما ما من فرق.
- كما قد طُلِب منه أن يستقيل من كل اللجان. أعني هو عرض ذلك، لكنهم قبلوا الأمر بحماسة. يجب *أن أراه*. بمعزل عن كل شيء آخر، هو الذي يجلب لي مراجعات الكتاب.
- الأصداء جيدة، أليست كذلك؟ أنا أتابعها.
- جيدة *بمعظمها*.

ابتسم ريڤرز: «لا تستطيع أن تكتب كتابًا مثيرًا للجدل وتتوقع ثناءً من الجميع يا سيغفريد».

«لا أستطيع؟».

ضحكا، وللحظةٍ بدا كل شيء طبيعيًا، ثم اكفهر وجه سيغفريد. «أتعلم أننا كنا نجلس في المخابئ الخندقية في فرنسا ونتحدث عن تلك المحاكمة؟ أخبارها كانت تملأ الجرائد، أظن أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي كان يمكنه أن يجعلني *مسرورًا* لكوني هناك. أعني حبًا بالله، الألمان عند نهر المارن، وخمسة آلاف شخص وقعوا في الأسر، ولا تقرأ في الجرائد إلا من ينام مع من وهل يتعرضون للابتزاز؟ رباه».

- سأرى ما أستطيع فعله بشأن روس.
- أتظن أنهم سيسمعون منك؟

تردد ريڤرز: «أظنهم قد يفعلون». من الواضح أن سيغفريد لا يعرف أنه استُدعي بصفة مهنية. «كيف حال رأسك؟».

بدا عليه الازدراء: «إنه خدش. ما كان ينبغي لي أن أتركهم يُرجعونني، أتعرف أن آخر شيء قلتُه لخادمي الشخصي هو «سأعود»؟ صحتُ له وهم يقتادونني بعيدًا: «سأعود في غضون ثلاثة أسابيع»، ثم سمحتُ لنفسي أن أفسد».

- تفسد؟ هذه كلمة قاسية، أليس كذلك؟

- كان ينبغي أن أرفض العودة.

- سيغفريد، ما كان أحد ليصغي إليك لو رفضت. لا بد أن تؤخذ إصابات الرأس على محمل الجد.

- لكن ألا ترى كم كان التوقيت مثاليًّا؟ هل رأيتَ قصيدتي في مجلة *ذا نيشن*؟ «كنتُ أقف مع الموتى». حسنًا، ها أنت ذا. أو بالأحرى، هناك كنتُ أنا، جاثمًا فوق أعلى غصن، أترنم مرحًا. بوووم! أوبس! آسف. لقد أخطأَت هدفها.

- يسرني أنها أخطأت.

نظرةٌ كئيبة بطرف العين من سيغفريد: «أما أنا فلا».

صمت.

«أشعر أنني مبتور. أنا لا أنتمي إلى هنا، أنظر إلى هذه الأشياء طوال الوقت...»، لوَّح بيده مشيرًا إلى الفاكهة والأزهار والشوكولاتة: «وأتمنى لو أستطيع أن أحزمها كلها وأرسلها إليهم. لقد استطعتُ بالفعل أن أرسل إليهم جهازَ غرامافون، ثم... توعكْت».

«أتعلم؟ ما لا أفهمه»، قال ريڤرز: «هو كيف أمكنَك أن تتعرض للإصابة هناك».

- كنتُ في المنطقة المحرمة.

- كلا، قصدتُ تحت *الخوذة*.

«كنتُ قد نزعتُها»، سكوتٌ مرتبك: «خرجنا لنلقي بعض القنابل اليدوية على مدفعٍ رشاش، كنا اثنين، وكانوا قد بدؤوا يتواقحون كما ترى، إذ تقدموا بالمدفع مسافةً كبيرة للغاية، لذا أعدنا...»، ابتسم ابتسامةً واهية: «ترسيخَ السيطرة. أيًّا يكن، ألقينا القنابل، ولا أظن أننا أصبنا أحدًا -أقصد بهذا أننا

لم نسمع صراخًا- ثم انطلقنا عائدين، وبحلول هذا الوقت كان الضوء قد أخذ ينبلج، وكنتُ سعيدًا جدًّا»، لمعت الغبطة في وجهه: «رباه يا ريڤرز، لن تصدق كم كنتُ سعيدًا. وقفتُ ونزعتُ الخوذة، واستدرتُ لأنظر إلى الخطوط الألمانية. حينئذٍ أصابتني الرصاصة».

غضب ريڤرز إلى درجةٍ علم معها أن عليه الابتعاد. سار إلى النافذة، وراح يحدق -دون أن يرى- إلى الطريق والأسوجة والتألُّق البعيد لبحيرة السربينتين تحت شمس الصيف. فكر أنه كان يكذب على نفسه، إذ ادعى أن هذه ليست سوى أزمة أخرى ضمن يوم عمل مزدحم، لكن هذا الغضب جرَّده من كل ادعاء. «*لماذا؟*»، قال مستديرًا نحو سيغفريد من جديد.

- أردتُ أن أراهم.
- تقصد أنك أردت أن تُقتَل.
- كلا.
- تقف في منتصف المنطقة المحرمة، صباحًا تحت الشمس المشرقة، وتنزع خوذتك، وتستدير لتواجه الخطوط الألمانية، وتقول لي إنك لم تكن تحاول أن تُقتَل.

هز سيغفريد رأسه: «قلت لك، لقد كنتُ سعيدًا».

سحب ريڤرز نفسًا عميقًا، ثم اتجه عائدًا نحو السرير، مدربًا نفسه على استعراض دماثة مهنية: «كنتَ سعيدًا؟».

«أجل، كنتُ سعيدًا معظم الوقت، وأظن أن السبب بمعظمه يعود إلى كوني استطعت أن أستأصل الجزء الذي يكره ذلك مني»، ابتسامة واهية: «إلا عند كتابة القصائد لمجلة *ذا نيشن*. لقد كنتُ... ثمة كتاب يجدر بك أن تقرأه، سأحاول أن أعثر لك عليه، إنه يقول شيئًا من قبيل أن الرجل الذي يعقد عزمه على الموت يتخلى عن العديد من الأشياء، ويكون -بشكلٍ أو بآخر- ميتًا *أصلًا*. طيب، كنتُ قد عقدتُ عزمي على أن أموت. هل كانت لدي أي حلول أخرى؟ لكن عقد العزم على الموت لا يساوي محاولة التعرض للقتل. ليس أن الأمر شكّل فرقًا كبيرًا»، لمس الأضمدة بتردد: «لا بد أن أقول، كنت أظن أن مستوى مهارة القنص لدى البريطانيين أعلى من هذا».

«لدى *البريطانيين*؟».

«أجل، ألم يخبروك؟ ضابط الصف التابع لي، ظنني الجيشَ الألماني، فهرع إلى داخل المنطقة المحرمة يصيح: «تعالوا أيها الملاعين»، وأطلق النار عليَّ»، ضحك: «يا إلهي، لم أرَ رجلًا يُبدي كل هذا الرعب في حياتي».

جلس ريڤرز بجانب السرير: «لن تقترب من الموت أكثر من هذا».

«لقد سبق واقتربتُ أكثر. حطَّت قذيفةٌ على بُعد قدم مني، حرفيًا، لكنها لم تنفجر». ارتعش سيغفريد فجأةً، وتلك حركة سبق لريڤرز أن رآها آلاف المرات لدى مرضى آخرين، رآها مرارًا وتكرارًا حتى ما عادت تصدمه.

«لا يمكن للمرء أن يصاب بصدمة قصف، صحيح؟»، سأله سيغفريد: «جراء قذيفة لم تنفجر؟».

أطرق ريڤرز ينظر إلى يديه: «أعتقد أن هذه القذيفة ألحقت ضررًا لا بأس به على الأرجح».

نظر سيغفريد نحو النافذة: «أتعلم؟ سوف يشنون هجومًا عما قريب. جُويت، وخمسة أو ستة من الآخرين. رجالي يا ريڤرز، *رجالي*. رجالٌ دربتُهم بنفسي، ولن أكون موجودًا حين يرجعون».

- هم ليسوا رجالك الآن يا سيغفريد، بل رجال شخصٍ آخر. عليك أن تدع الأمر وشأنه.

- لا أستطيع.

18

دُعي ريڤرز إلى العشاء مع آل هيد، ووصل ليجد أن آل هادون وغرافتون إليوت سميث قد سبقوه. لم تسنح فرصةٌ لحديثٍ خاصٍ مع هنري وروث حتى نهاية الأمسية، حين تدبر ريڤرز الأمر كي يكون آخر من يغادر. لم يكن من غير المعتاد أن يبقى بعد عشاءٍ مع آل هيد ليستمتع بصنفهم الخاص من النميمة غير الخبيثة، مدركًا تمام الإدراك أن نقاط ضعفه وزلاته ستخضع للتحليل الدقيق ما إن ينصرف، وواثقًا من حبهما له بما يكفي كيلا يمانع ذلك.

بيد أنه لم يكن ميالًا إلى النميمة الليلة. حالما انفرد بهما راح يحدثهما عن سيغفريد، موضحًا تصورَه الخاص للوضع في أثناء كلامه.

«تقول إنه متحفز؟»، سأله هنري.

- أجل.

- بشكل هوَسي؟

«أوه، كلا، كان بعيدًا كل البعد عن ذلك. إلا أنني لاحظتُ مسحةً من... الانتشاء، كما أعتقد، مرةً أو اثنتين، لا سيما حين كان يتحدث عن مشاعره قُبيل تعرضه للإصابة مباشرةً. كما أن الأصيل هو أفضل الأوقات لديه، ويبدو أن الليالي سيئة. لقد وعدتُه أن أعود. في الحقيقة، يحسن بي أن أذهب»، نهض واقفًا: «لستُ *قلقًا*، سوف يكون على ما يرام».

«هل يندم على عودته؟»، سألت روث.

«لا أدري»، أجاب ريڤرز: «لم أسأله».

بعد أن رافق ريفرز إلى الباب، عاد هيد إلى غرفة المعيشة ليجد روث ترنو إلى النار متفكرة.

«حسنًا، لن يفعل، أليس كذلك؟»، قالت وهي ترفع رأسها.

«لعله لا يعتقد أن ثمة جدوى حقيقية من الأمر»، أجاب هنري، وجلس قبالتها أمام النار.

ساد صمتٌ طويلٌ أنيس. كانا متخمَين من الرفقة والحديث أكثر من أن يرغبا في الكلام، ومرتاحَين أكثر من أن يبادرا إلى التوجه نحو السرير.

«لقد جاء لرؤيتي العام الماضي، أتعلمين؟»، قال هنري: «طلبًا للمشورة تقريبًا. لقد أقحم نفسه في حالة لا تسُر بشأن ساسون».

«أجل، أعلم. لم أكن أعرف أنه حدَّثك بالأمر».

تلكأ هيد: «أظنه أدرك فجأةً أنه كان يستخدم... مهاراته المهنية، إن صح التعبير، ليخفف وطأة وضعٍ ليس... *طبيًّا*. ما من شيء آخر يمكن فعله حقًّا حين يكون المرء طبيبًا في الجيش زمن الحرب، احتمالُ التضارب بين ما يحتاج إليه الجيش وما يحتاج إليه المريض يظل قائمًا طيلة الوقت، لكن هذا التضارب كان في حالة ساسون... شديدَ الحدة. ما قلتُه له هو -بإيجاز- ألا يكون سخيفًا».

ندَّت عن روث ضحكة متفاجئة: «وِيل المسكين».

- كلا، كنتُ أقصد ما قلته.

- أنا واثقة من ذلك، لكنك ما كنتَ لتقوله لأحد مرضاك.

- قلتُ له إن ساسون قادر على اتخاذ قراره بنفسه، وإن تأثيره فيه لم يكن بالحجم الذي يظنه على الأرجح. رأيتُ أنه كان يتصرف بـ... لا أدري، ليس اغترارًا...

- بتدقيق زائد؟

- بصراحة، رأيتُ أنه كان يتصرف بشكل عُصابيٍّ. لكنني شاهدتُه مع مرضى كثر منذ ذلك الوقت، لذا أنا لستُ واثقًا تمامًا. أتعلمين كيف تصبح فكرتك عن الناس قديمة حين لا ترينهم لفترة طويلة؟ أظن أن فكرتي عنه كانت قديمة. لقد حدث له شيء في اسكتلندا، اكتسب

-بطريقة أو بأخرى- هذه السطوةَ الهائلة على الشبان، وربما الناس جميعًا، لكن الشبان على وجه الخصوص. الأمر مدهش بحق، إنهم مستعدون لفعل أي شيء من أجله، بما في ذلك أن يتحسنوا.

- وأن يرجعوا إلى فرنسا أيضًا؟

- أجل، أظن ذلك.

رفعت روث كتفيها قليلًا: «أنا لا أرى التغير، لكنني على كل حال أظن أنه لطالما أظهر لي جانبًا مختلفًا بعض الشيء من نفسه»، ابتسمت: «أنا أُكِنُّ له معزةً كبيرة، لكن...».

- وهو كذلك.

- أتساءل أحيانًا عما يجعلنا نستلطف بعضنا من الأساس. أقصد، إن فكرنا كيف بدأ الأمر، كنتَ تذهب إلى كامبريدج كل عطلة أسبوع كي يغرز الدبابيس في ذراعك، ولم أحظَ ولو بعطلة أسبوع واحدة معك طيلة العام الأول من زواجنا.

- لم يكن الأمر بهذا السوء. على كل حال، لقد مضت الأمور على ما يرام معك.

- أتظنه ما زال يعتقد أن ساسون عاد بسببه؟

تردد هيد: «أظن أنه يعرف حدود تأثيره».

«إممم»، قالت روث: «أتظنه واقعًا في حبه؟».

«إنه أحد مرضاه».

ابتسمت روث وهزت رأسها: «هذا ليس جوابًا».

نظر هيد إليها: «بلى، إنه جواب. يجب أن يكون جوابًا».

كان سيغفريد في وضعية نصف جلوس فوق سريره، وقد نزع سترة منامته، وجهُه وصدره يتلألآن بالعرق. «هل الجو حار يا ريفرز؟»، سأله، كأن محادثتهما لم تُقاطَع قط: «أم أنني وحدي من يشعر بذلك؟».

- دافئ.

- إنني *أغلي*. أنا جالسٌ هنا أجيش كالإبريق منذ مدة.

جلس ريڤرز بجانب السرير.

«كنتُ أكتب إلى غريڤز، شِعرًا. أتود أن تقرأ؟».

أخذ ريڤرز الدفتر وألفى نفسه يقرأ سردًا لزيارته ذلك الأصيل. كان الألم شديدًا إلى درجة اضطرته أن يبقى ساكنًا بالكامل لحظة. «أهكذا تراني؟»، قال أخيرًا: «شخصًا سيجعلك تعود إلى فرنسا حتى تنهار انهيارًا تامًا؟».

«أجل»، قال ساسون بمرح: «لكن لا بأس، أريدك أن تفعل ذلك. أنت ضميري الخارجي يا ريڤرز، كاهنُ اعترافي. لا يمكنك أن تخذلني الآن، يجب عليك أن تجعلني أعود».

قرأ ريڤرز القصيدة من جديد: «لا يجدر أن ترسل هذا».

«لمَ لا؟ لقد استغرقَت كتابتُه مني وقتًا طويلًا. أوه، أعرف قصدك، ترى أنه لا يجدر بي أن أقول ما قلتُه بشأن الرفاق الجنود المحبَّبين. حسنًا، إنهم محببون بالفعل. تعتقد أن غريڤز سيُصدَم. بصراحة يا ريڤرز، لا يهمني، إصابة غريڤز بالصدمة واحدة من ملذاتي القليلة المتبقية. لقد كتبتُ إليه -كيلا أصدمه- مجرد رسالة عادية، غير أنني اقترفتُ خطأً وتكلمتُ بحماسة عن التدريب في فقرة، وفي التالية وصفتُ الحرب بالعمل اللعين المريع، وما الرد الذي تلقيتُه؟ محاضرة عن الاتساق والتجانس، أوه، وبعض التوبيخ المثير للشفقة من قبيل «لا تروِّعْ أصدقاءك بتظاهرك بالجنون»، هذه الدعابة على وجه التحديد راقت لي. لقد فعلتُ شيئًا *واحدًا* في غاية الاتساق ورجاحة *العقل* في حياتي كلها، وهو الاحتجاج على الحرب. ومن الذي أوقفني؟».

غريڤز، قال ريڤرز في قرارته. لكن ليس غريڤز وحده. هذا صحيح، إنه يفهم الأمر الآن، وربما بوضوح أكبر مما كان آنذاك. أيًّا كان المعنى *العام* لاحتجاج سيغفريد، فمعناه الخاص مستمد من سعيٍ حثيثٍ نحو الاتساق، نحو وحدة الكينونة في رجلٍ عمقت الحربُ انقساماته الداخلية إلى حدٍّ خطير.

- يجب ألا تلوم غريڤز، فقد فعل ما...

- لستُ ألومه، كل الأمر أنني لستُ جاهزًا لتلقِّي المحاضرات منه. إنني أنجو هناك من خلال أن أكون شخصين اثنين، بل وأتوصل أحيانًا إلى

أن أكون كليهما في أمسية واحدة. أتعلم؟ تجدني جالسًا برفقة ستيفي وجويت -جويت جميل- فأروح أتحدث عن رغبتي في الذهاب للقتال، يُشعل كلامي الحماسةَ فيهما، فيخبطان على الطاولة ويقولان: «أجل، كفانا تدريبًا، آن أوان الانخراط في الأمور الحقيقية»، ثم أتركهما وأذهب إلى غرفتي فأفكر كم هما فتيَّان. تسعة عشر يا ريفرز.. تسعة عشر. وهما لا يملكان أدنى فكرة. رباه، أتمنى أن ينجوَا.

فجأةً، بدأ يبكي. مسح فمه بظهر يده، ثم تنشّق وقال: «آسف».

«لا عليك».

«أتعرف ما الذي وضع الحد أخيرًا لتمثيلية جيكل وهايد التي أعيشها؟ كلا، أصغِ، فالأمر مضحك. لقد عُيِّنَ لي نائبٌ جديد، پينتو. إنه جوهرة حقيقية، غير أنه حين التقينا للمرة الأولى كان يقرأ «*هجوم مضاد*»، فرفع رأسه وقال: «هل أنت ساسون نفسه؟». رباه يا ريفرز، ما ألعنه من سؤال. لكنني أجبتُ بالإيجاب طبعًا، ماذا عساي أقول غير ذلك؟ ومع هذا، أتعلم؟ أظن أن الأمور بدأت تتكشف حينئذٍ»، تغيرٌ ملحوظٌ في النبرة: «فآنذاك بدا لي غباء الأمر واضحًا وضوح الشمس».

بدت الحيرة على ريفرز: «أي أمر؟».

«الوصفة المثيرة للشفقة التي تبنيتُها كي أحمل نفسي على العودة إلى فرنسا»، اتخذ نبرة خُنثوية متكلفة: ««لستُ عائدًا كي أقتل الناس، أنا عائد فقط كي أعتني ببعض الرجال»»، استعاد نبرته: «لماذا لم تركلني على رأسي يا ريفرز؟ لماذا لم تخلصني من بؤسي؟».

أرغم ريفرز نفسه على الإجابة: «لأنني كنتُ أخشى ألا تعود من الأساس لو أنك بدأتَ تفكر في ذلك».

وكأنه لم يقُل شيئًا. «ما عليك إلا أن تقرأ كُتيب التدريب. «على القائد أن يطلب المستحيل ولا يفكر في حقن دماء رجاله. يجب تركُ الجنود الذين يسقطون والمتابعةُ دونهم، ويجب ألا يتوقف المضي بسببهم، مثلما لم يتوقف الهجوم بسبب الخسائر». هكذا هو الأمر، وحداتٌ قابلة للاستبدال من الأضاحي، هذا هو ما عدتُ كي «*أعتني به*»»، سكوت: «كل ما أردتُه كان أن أساندهم خلال مهمتهم الأولى، ولم أستطع حتى أن أفعل هذا».

«پينتو موجود هناك»، قال ريڤرز بتردد.

«أوه، أجل، وهو جيد. إنه جيد حقًّا».

كان العرق يجري على وجه سيغفريد وعنقه. «أأفتح النافذة؟»، سأله ريڤرز.

«من فضلك. إنهم يوصدونها دائمًا، لا أعرف لماذا».

ذهب ريڤرز كي يفتح النافذة، وقال سيغفريد من خلفه: «يؤسفني أن رفاقي الجنود المحببين لا يعجبونك».

- لم أقل إنهم لا يعجبونني، قلتُ إنه لا يجدر بك أن *ترسل* ذلك.

- كان ثمة واحد على وجه التحديد.

«جويت»، قال ريڤرز.

«لقد كتبتُ قصيدة عن جويت. ليس أنه سيعلم بذلك يومًا، فقد كان نائمًا. بدا كأنه ميت»، ساد صمت: «أليس غريبًا كيف يمكن للمرء أن يشعر بشعور أبويٍّ تجاه أحدهم (أقصد شعورًا أبويًّا *صادقًا*، لا أن يستغل الموقف، أو حتى تغريه فكرةُ أن يستغله) وتكون النزعة الأخرى موجودة مع ذلك؟ ولا أظن أن إحدى النزعتين تُبطِل الأخرى، أظن أن من الممكن تمامًا أن تكونا صادقتين كلتاهما».

«أجل»، قال ريڤرز بصوت يظهر فيه أثر ضئيل للجفاء: «أتخيل ذلك»، عاد نحو السرير: «قلتَ إن الأمور «بدأت تتكشف»؟».

«أجل، لأنني كنتُ أغالب الوضعَ طيلة الوقت من خلال حجبِ الجانب المتعلق بالقتل، استئصالِه، ثم فجأةً يُوضَع المرء وجهًا لوجهٍ مع الحقيقة التي تقول: «كلا، ليس ثمة إلا شخص واحد في الواقع، وهو قاتلٌ محتمَلٌ للهون». هكذا اعتاد ضابطُنا الآمرُ أن يسمينا، وكان لهذا وقْعٌ شديد الغرابة. أقصد، رحتُ أخرج في جولات الخفر وما إلى هنالك، لكنني لطالما فعلتُ ذلك، لم أكن قادرًا على الجلوس في خندقٍ قط، هذه ليست شجاعة، القصة أنني لا أستطيع فعل ذلك ببساطة، غير أن الوضع كان مختلفًا هذه المرة لأنني لم أخرج كي أقتل أو حتى أختبر جرأتي، علمًا أن هذا كان له علاقة بالأمر. *لقد أردتُ أن أرى* وحسب. أردتُ أن أرى الجانب الآخر. اعتدتُ أن أمضي الكثير من الوقت

وأنا أنظر عبر منظار الأفق: كان حقلَ ذرة، أرضًا زراعية، أحيانًا ترى عمودَ دخان يتصاعد من الخطوط الألمانية، وكثيرًا ما لا ترى أي شيء»، سكت قليلًا ثم تابع بنبرة عرَضية: «عبرتُ إلى هناك ذات مرة، هبطتُ إلى داخل الخندق، ومشيتُ فيه، وكان ثمة أربعةٌ من الألمان واقفون قرب مدفع رشاش. أحدهم استدار ورآني».

- ماذا حدث؟

- لا شيء. نظر واحدنا إلى الآخر وحسب، ثم قرر هو أنه يجدر به إخبار أصدقائه، وأنا قررتُ أن الوقت حان كي أغادر.

ران صمتٌ متوتر.

«أفترض أنه كان ينبغي لي أن أقتله»، قال سيغفريد.

«الأكيد أنه كان ينبغي له هو أن يقتلك».

«كان لديه عذر المفاجأة. أتعلم يا ريڤرز؟ ليس من الجيد تشجيع الناس على معرفة أنفسهم و... مواجهة مشاعرهم، لأن الأفضل لهم هناك ألا يكون لديهم أي مشاعر. إن كان سيتحتم على الناس أن يقتلوا، فيجب إعدادهم بحيث يتوقعون ذلك. يجب تدريبهم على *ألا يبالوا*، وإلا...»، قبض سيغفريد على يد ريڤرز بشدة جعلت وجهه يتقبض من الجهد الذي بذله لإخفاء الألم: «سيكون الأمر في غاية الوحشية».

لقد مضى على وجود ريڤرز برفقة سيغفريد أكثر من ساعة، وما من شيء قيل حتى هذه اللحظة إلا وكان بالإمكان أن يُتعامَل معه في وقت أكثر ملاءمةً خلال النهار. لكن تحفُّزَه بدأ يتزايد الآن، وأخذ يتلعثم بالكلمات، وراح عقله يتعثر في أثر أفكاره، باذلًا قصارى جهده كي يلحق بها. تحدَّث عن جسامة الحرب، واستحالة أن يحيط عقلٌ واحدٌ بكل أبعادها. مرارًا وتكرارًا تحدث عن الحاجة إلى تدريب الفتيان على القتل، قال إنه يجب تعليمهم منذ الطفولة المبكرة ألا يتوقعوا أي شيء آخر، وإنه يجب ألا يُسمَح لهم بأي شكل كان أن يتساءلوا عما يختبئ أمامهم في الطريق. كل هذا كان ممزوجًا مع ما يعتريه من قلق حيال الهجوم الذي سوف يشنه جويت والآخرون. كان كلامُه مفعمًا بالحياة والتفاصيل إلى درجة بدا يصدق معها بشكل واضح أحيانًا أنه في فرنسا.

لا جدوى من الجدال حول أيٍّ من هذا. استغرق ريڤرز ثلاث ساعات كي يهدئ له روعه ويحمله على النوم. وحتى بعد أن انتظم وقْع أنفاسه، ظل ريڤرز جالسًا بجانب السرير، يخشى أن يتحرك فيتسبب سحبُ يده في إيقاظه. كان الضوء ينعكس على الشعر الطويل الذي يكسو ظهْر ساعِد سيغفريد، وريڤرز ينظر إلى المشهد بإنهاكٍ يمنعه من التفكير بذهنٍ صافٍ، متذكرًا التجارب التي أجراها هو وهيد على منعكس انتصاب الشَّعر. شَعرُ هيد كان ينتصب كلما قرأ قصيدة محددة. القشعريرة المقدسة، كما يسميها الألمان. بالنسبة إلى هيد، كان الشِّعر هو ما يوقِظها، أما بالنسبة إلى ريڤرز، فأكثر من مرة كان جمال فرضيةٍ عِلمية هو الذي يفعل ذلك، فرضية تصل بمجموعة كبيرة من الحقائق المتفاوتة إلى انسجامٍ غير متوقَّع. أكثر ما لفت فضولَ ريڤرز في الموضوع كان استجابةَ الكائنات البشرية لأعلى الإنجازات الفكرية والروحية التي حققتها ثقافتُهم من خلال نفس المنعكس الذي يجعل شَعر ظهر الكلاب ينتصب. إنه الحس دقيق التعيين الذي يستمد أُسُسَه من الحس البدئي، التعبير الأقصى عن انسجام الذات الذي نصر على النظر إليه بوصفه الشرط اللازم لتمام الصحة. لكن الله وحده من يعلم ما يجعلنا ننظر إليه بهذه الطريقة، بما أن معظمنا يعتمد على تنمية الانقسامات الداخلية كي ينجو ويستمر.

سيغفريد الآن يغط في نومٍ عميق. سحب ريڤرز يده بحذر، وراح يثني أصابعه. لقد ازدادت برودة الجو، وسيغفريد أغفى فوق أغطية السرير. ذهب ريڤرز كي يوصد النافذة، ووقف لحظةً يحاول أن يرتب القصة التي رُوِيَت له في صيغة مترابطة، غير أن هذا لم يكن ممكنًا، رغم كون خطوطها العريضة واضحةً بما يكفي. لطالما تحايل سيغفريد على الحرب من خلال أن يكون شخصين اثنين: الشاعر ومناصر السلام المناهض للحرب، وقائد السَّرية الكفؤ المتعطش للدماء. لا يمكن نعتُ هذا الانفصال بالمَرَضيِّ، بما أن الخبرة التي يكتسبها سيغفريد في إحدى حالتيه تكون متاحةً في حالته الأخرى. ليست متاحةً وحسب، فخبرةُ خدمتِه العسكرية بوصفه ضابطًا هي التي أمدته بالمواد الخام -أو الذخيرةِ إن جاز التعبير- للقصائد التي يكتبها. والأهم من هذا، وربما الأكثر التباسًا، هو أن خبرة سفكِ الدماء هذه هي ما وفر له الحجة

الأخلاقية اللازمة من أجل احتجاج مناصر السلام: تصريح جندي[1]. لا عجب أن سؤال پينتو البريء قد شكَّل مأزقًا من نوعٍ ما.

لكنه كان لينهار على كل حال هذه المرة، فكر ريڤرز. لقد رجع وهو يبغض الحرب، مُشيحًا بوجهه عن واقع القتل والتمثيل بالجثث، وما إن استوعب هذا الواقع حتى وجد الوضع لا يُحتمَل. كل شيءٍ يمكن توقُّعُه كان متوقَّعًا.

الليل حوَّل النافذة إلى مرآةٍ سوداء راح وجهُه يطفو فيها، ومن خلفه سيغفريد والسرير الغارق في الفوضى. إن كانت محاولة سيغفريد للانفصال قد فشلت، فكذلك حال محاولته هو. إنه يجد صعوبةً في أن يكون منخرطًا وموضوعيًّا في الآن نفسه، في أن يظل يقابل سيغفريد بكلا وجهَي الطب دون كلل. لكن هذه مشكلته هو، ويجب ألا يكون سيغفريد على علمٍ بها أبدًا.

الظلام ما يزال سائدًا، وريحٌ خفيفة تحرك الأشجار السوداء في الحديقة. نزع جزمته واستلقى على السرير الآخر، لم يكن يتوقع أن يستطيع النوم لكنه رأى أن يستريح على الأقل. أغمض عينيه. راحت أفكاره تطن في رأسه أول الأمر، بنفس نشاط أفكار سيغفريد تقريبًا دون أن تكون أكثر ترابطًا منها بكثير. وَضْعُه هذا يذكِّره -لسببٍ ما- بالنوم على متن باخرة شحنٍ جوالةٍ تطوف بين جُزر ميلانيزيا. هناك ينام المرء في كبينةٍ مسقوفة على ظهر المركب، فوق مقعد طولاني يترك خطوطًا عمودية على كامل ظهره، محاطًا برفاقه المسافرين، وكم كان هؤلاء مجموعةً متنافرة. تذكَّر رحلةً على وجه التحديد، كان أحد مرافقيه فيها قسًّا أنغليكانيًّا شابًّا، مصممًا على الالتزام بالاحتشام المقدس في تلك الظروف الصعبة إلى درجة أنه غسل القسم السفليَّ من جسمه تحت حاشية ثوبه الكهنوتي، بينما تجرد ريڤرز من ملابسه وجعل البحارة الذين صعدوا كي يمسحوا ظهر المركب يلقون عليه دلاءً من الماء.

مرافقه الآخر في تلك الرحلة كان تاجرًا يقدم نفسه باسم شيموس أوداود، رغم أنه لا يُبدي أي أثرٍ للهجة الأيرلندية. أوداود كان يشرب. بعد العَشاء في الصالون الذي يملأ الدخانُ جوَّه، وهو يتجشأ الجنَ ونخورَ الأسنان في وجه

---

(1) تصريح جندي: هكذا عنوَنَ سيغفريد ساسون خطابَه الاحتجاجيَّ الذي تستهل هذه الثلاثية جزأها الأول به. (المترجم)

ريڤرز، راح يتفاخر بمآثره في تجارة الرقيق، إذ كان قد بدأ حياته بخطف أفرادٍ من السكان الأصليين كي يعملوا في مزارع كوينزلاند، ثم صار يخدعهم ببساطة. أحدث خبطاته الناجحة آنذاك تمثلت في إقناعهم أن الملكة العظيمة (لا أحد في التابعية المشتركة كان يجرؤ على إخبار السكان الأصليين بوفاة ڤيكتوريا) تجد أعضاءهم التناسلية مثيرةً للاشمئزاز، ولن تستطيع أن تنعم بالنوم في سريرها في وندسور قبل أن يستروها بالسراويل الداخلية الطويلة التي اشتراها سهوًا ضمن صفقة سلعٍ بالجملة أنجزها وهو مخمور أكثر من عادته. كانوا يعتمرون تلك السراويل على رؤوسهم، كما يتذكر ريڤرز، وكان هذا من المظاهر التي ميزت الجزيرة آنذاك في الخريف الأول من الحرب، شبان عراة يعصبون رؤوسهم بسراويل داخلية طويلة ملفوفة بإحكام. لقد بدا مظهرهم جميلًا. وفي تلك الأثناء، في إنجلترا، كان ثمة شبان آخرون يسارعون لارتداء أزياء أقل جاذبية.

متهاديًا بين النوم واليقظة، راح ريڤرز يتذكر روائحَ الزيت ولب جوز الهند المجفف، تَناشُزَ الشخير والصفير الصادر عن النيام المحشورين داخل الكبينة الصغيرة على ظهر المركب، ارتجاجَ المحرك الذي بدا ينفذ إلى ألباب أسنان المرء، نجومَ الجنوب الغريبة المتألقة الضارية. ما كان ليستطيع -مهما حاول- أن يعرف منبع هذا الفيض من النوستالجيا[1]. لعل تجربته الخاصة في الازدواجية هي ما شكل هذا الربط، إذ إنه لا ريب اختبرَ -خلال السنوات التي سبقت الحرب- انفصامًا في شخصيته يضاهي عمق ما يعانيه سيغفريد أيًا كان. لم تكن مجرد مسألة عيش حياتين مختلفتين، مقسومتين بين طاقم كامبريدج وبين المُبشِرين وصيادي الرؤوس في ميلانيزيا، بل هي مسألة كونه شخصًا مختلفًا في كلٍّ من هذين المكانين. إنه يفضل النسخة الميلانيزية من ذاته، لكن مساعيه إلى دمج هذه النسخة في طريقة معيشته في إنجلترا لم ينتج عنها إلا الإحباط والبؤس. ربما تكون الازدواجية -على عكس الافتراض المعتاد- هي الحالة المستقرة، والسعي إلى الاندماج هو الخطِر. هذا ما يراه سيغفريد بالتأكيد.

(1) النوستالجيا: الحنين إلى الماضي. (المترجم)

أنهض نفسه متكئًا على مرفقه، ونظر إلى سيغفريد الذي كان نائمًا ووجهُه إلى النافذة. لعل انفجار النوستالجيا لم يكن ناتجًا عن شيء أكثر غموضًا من هذا: محاولة النوم في غرفةٍ فيها شخص آخر يتنفس بصوت مسموع. فالنوم في الغرفة نفسها مع شخص آخر تجربة تنتمي إلى ذاته الميلانيزية، هذا أمر لم يكن يحدث في إنجلترا ببساطة. لكن صعود الأنفاس وهبوطها يبعث شعورًا مريحًا، مثل أمواج تغسل مقدم المركب. وشيئًا فشيئًا، مع هلهلة أول الضوء، أخذه الوسنُ بهدوء.

استيقظ ليجد سيغفريد جاثيًا عند سريره. كانت النافذة مفتوحة، والنسيم يشيل الستارة، وتغريد الطيور يسيل رقيقًا إلى داخل الغرفة.

قال سيغفريد بنبرةٍ لا تخلو من الإحراج: «يبدو أنني تفوهتُ بكمٍ هائلٍ من الهراء ليلة أمس»، كان يبدو بردان ومُرهَقًا، لكنه هادئ، «أظن أنني كنتُ مصابًا بحُمى؟».

لم يُجِر ريڤرز جوابًا.

«على أي حال، أنا بخير الآن»، لمس كُمَّ ريڤرز بحياء: «لا أعرف ما كنتُ لأفعل دونك».



19

بعد أسبوع، كان ريفرز جالسًا على كرسيه ذي الذراعين أمام النار، والتعب الجسديُّ يكاد يشغل كل حاسةٍ فيه. إنه شعور نادر بالنسبة إليه، فمعظم الأيام تتمخض عن إنهاكٍ عاطفيٍّ يأتكِل داخله ولا يُفضي به إلى النوم طبعًا. لكنه كان في رحلة جوية، ولطالما استنزفه هذا بدنيًا، كما أنه رأى سيغفريد وهو أكثر هدوءًا وسعادةً مما كان عليه مؤخرًا، رغم أنه ما يزال بعيدًا جدًّا عن تمام الصحة.

پراير هو المسألة المُلغَزة. لقد تخلف پراير عن موعدٍ معه، وهو أمر لم يسبق له أن فعله، وريڤرز ليس متأكدًا مما ينبغي له أن يفعله حيال ذلك. ليس ثمة الكثير مما بوسعه فعله، باستثناء أن يكتب إلى پراير رسالةً مقتضبة يعبر فيها عن استعداده المتواصل للمساعدة، لكن كان هنالك مؤخرًا ما يوحي أن پراير قلقٌ بخصوص مقدار اتكاليته. لو كان قد قرر أن يوقِف الانفصال، فليس أمام ريڤرز ما يستطيع -أو يجدر به- فعله بهذا الشأن. لن يأتي الآن، فقد تأخر أكثر من ساعتين.

بينما أخذ ريڤرز يفكر أن عليه حقًا بذل الجهد المطلوب للتصرف حيال الأمر، سمع نقرةً على الباب ودخلت الخادمة. «هنالك سيدٌ اسمه پراير يريد أن يراك»، قالت بنبرة مترددة، إذ كان الوقت قد تأخر كثيرًا: «هل أقول له...».

«كلا، كلا. اطلبي منه أن يصعد».

كان يشعر أنه غير جاهز على الإطلاق للتعامل مع هذا، أيًّا كان، لكنه زرَّر سترته ونظر حوله بشرودٍ بحثًا عن جزمته. بدا أن پراير يصعد الدرج

بسرعة كبيرة، خطوات خفيفة سلسة لا تشبه خطوَه المعتاد. لقد كان وضع الربو لديه متأزمًا في زيارته الأخيرة، وتوقف عدة مرات على الشاحط الأخير من الدرج، ثم دخل الغرفة رغم ذلك متقطعَ الأنفاس على نحوٍ كاد يمنعه من الكلام. لا بد أن الخادمة سمعت الاسم خطأً، أو أن...

دخل پراير إلى الغرفة، وتوقف قليلًا عند الباب لينظر حوله.

«هل أنت على ما يرام؟»، سأله ريڤرز.

«أجل، أنا بخير»، نظر إلى ساعة الحائط وبدا قد أدرك أن تأخُّر الوقت يتطلب شيئًا من التفسير: «كان لا بد أن أراك».

أشار ريڤرز نحو كرسي داعيًا إياه إلى الجلوس وذهب ليغلق الباب.

«حسنًا»، قال بعد أن استقر پراير في جلسته: «صدرك بات أحسن حالًا بكثير».

سحب پراير نفَسًا ليختبر ذلك، ثم أمعن النظر إلى ريڤرز وأومأ برأسه.

«كنتَ تنوي الذهاب إلى السجن آخر مرةٍ تكلمنا فيها»، قال ريڤرز: «كي ترى السيدة روپر. هل ذهبت؟».

راح پراير يهز رأسه، لكن ليس على سبيل إجابةٍ للسؤال كما قال ريڤرز في قرارته. قال پراير أخيرًا بصوت فيه صفير ملحوظ: «لم أظن أنك سوف تدَّعي».

«أدَّعي ماذا؟»، سأله ريڤرز. أمهله قليلًا، ثم استحثه بلطف: «ما الذي أدَّعيه؟».

«أننا التقينا من قبل».

أغمض ريڤرز عينيه للحظة، وحين فتحهما كان پراير يبتسم: «كنتُ أفكر أن أقول: «د. ريڤرز، كما أفترض؟»».

«إن كنا لم نلتقِ من قبل، فكيف لك أن تعرفني؟».

«أنا أكون حاضرًا»، فرد پراير يديه: «*أكون حاضرًا*. حسنًا، فلنواجه الحقيقة، ما من خيارٍ يُذكَر، أليس كذلك؟ لا أعرف كيف تحتمله، ما كنتُ لأستطيع لو أنني مكانك. هل أنت *واثق* أن التجاوز له عن هذا فكرة جيدة؟».

- التجاوز عن ماذا؟

- عن تصرفه بهذه الوقاحة.

«مسموحٌ للمرضى ببعض التجاوزات»، قال ريڤرز بنبرة جافة.

«أوه، وهو مريض، أليس كذلك؟»، قال پراير بجدية منحنيًا إلى الأمام: «أتعلم؟ أعتقد أن حالته تزداد *سوءًا* بصراحة».

صمتٌ طويل. وضع ريڤرز يديه متشابكتين تحت ذقنه: «أتظن أن بوسعك التحدث بصيغة المتكلم؟».

«كلا، أخشى أنني لا أستطيع».

كانت الخصومة واضحةً لا ريب فيها. ريڤرز يعي أنه سبق ورأى پراير في هذا المزاج من قبل، خلال الأسابيع الأولى في كريغلوكهارت. هذا المزاج بالضبط، نفس الخليط المتنافر من التخنُّث والوعيد.

«أتعلم؟ المسألة بسيطة حقًّا»، تابع پراير كلامه: «إما أن نجلس ونخوض جدالًا عقيمًا عن ضمير المتكلم وضمير الغائب، وإما أن نتحدث. أظن أن الحديث أهم».

- أتفق.

- جيد، أتمانع أن أدخن؟

- ليس من عادتي أن أمانع، أليس كذلك؟

راح پراير يطبطب على جيوب سترته. «سوف *أقتله*»، قال مبتسمًا: «آه، كلا، لا بأس»، رفع علبة سيجار: «لقد دربتُه، كان يظل يرميها».

«عمَّ تود أن تتحدث؟».

ابتسامة عريضة: «قلتُ ربما تكون لديك *أنت* بعض الأفكار».

- تقول إنك «تكون حاضرًا» خلال جلساتنا، أيعني هذا أنك تعرف كل ما يعرفه؟

- أجل، لكنه لا يعرف أيًّا مما أعرفه. إلا أن... إلا أن الأمر ليس بهذه البساطة، فأنا أرى أحيانًا أشياء لا يستطيع أن يراها، حتى حين يكون موجودًا.

- أشياء لا يلاحظها؟

- بل لا يريد أن يلاحظها. على سبيل المثال: هو يكره سپراغ. أقصد، لديه أسباب وجيهة تمامًا كيلا يحبه، لكن مشاعره تجاهه تتعدى ذلك بكثير. وهو يعلم هذا، ولا يعرف سببه، رغم أن الأمر واضح كالشمس أمام عينيه. دون مبالغة. سپراغ يشبه أباه.

- يشبه أباه هو... يشبه أبا سپراغ؟

«كلا. حسنًا، ربما، ما أدراني؟ يشبه أبا بيلي. أقصد أن الشَبه لافت، وهو ببساطة لا يراه»، سكت پراير قليلًا، محتارًا من شيء يصبغ صمتَ ريڤرز: «أتفهم ما أقصد؟».

- أبوه هو؟

- أجل.

- أتقول لي بحقٍّ إنه ليس *أباك*؟

- بالطبع ليس أبي، كيف يكون أبي؟

- كيف لا يكون؟ ففي النهاية أحد الجسدين أنجب الآخر.

ازدادت خشونة التعبير الذي يعلو وجه پراير: «لقد وُلِدتُ قبل عامين، في حفرة خلَّفتها قذيفة في فرنسا، وليس لي أب».

شعر ريڤرز أنه يحتاج إلى وقتٍ للتفكير، لعل أسبوعًا يفي بالغرض. قال: «لقد التقيتُ بالسيد پراير في كريغلوكهارت».

- أجل، أعرف ذلك.

- ذكرَ أنه كان يضرب بيلي. هل كان ذلك أمرًا متكررًا؟

- كلا، للغرابة.

- وكيف تعلم ذلك؟

- قلتُ لك، أنا أعرف كل ما يعرفه.

- إذًا لديك صلاحية للوصول إلى ذكرياته؟

- أجل.

- وكذلك لديك ذكرياتك الخاصة؟

- هذا صحيح.

- لماذا قلت «للغرابة»؟

نظرة فارغة.

«قلتَ إن من الغريب أن والده لم يكن يضربه».

«ببساطة، لأنك حين تنظر إلى علاقتهما تظن أنه لا بد من وجود شيء من هذا القبيل، لكن هذا ليس صحيحًا. ذات مرة كان والداه يتشاجران، فنزل من الطابق العلويّ وحاول أن يفصل بينهما، فحمله أبوه وألقاه على الأريكة، غير أنه -لكونه في حالة سيئة بعض الشيء آنذاك- أخطأ الأريكة وأصاب الجدار»، ضحك پراير: «لم ينزل بعدها قط».

- إذًا بات يستلقي في سريره ويكتفي بالإصغاء.

- كلا، بات ينهض ويجلس على الدرج.

- وبماذا كان يشعر؟

- لستُ ماهرًا في موضوع المشاعر يا ريڤرز، من الأفضل أن تسأله هو.

- أيعني هذا أنك لا تعرف بماذا كان يشعر؟

«بالغضب. اعتاد أن يفعل هذا»، أخذ پراير يضرب راحة يده بقبضة الأخرى: «**خنزير، خنزير، خنزير، خنزير**. ثم يعتريه الخوف. أظنه كان يخشى أن ينزل إن ازداد غضبه أكثر من اللازم، لذا يثبت عينيه على مقياس الضغط الجوي ويطمس كل شيء».

- وماذا يحدث بعدها؟

- لا شيء، لا يعود موجودًا.

- ومن الذي يكون موجودًا؟

رفع پراير كتفيه: «لا أدري، شخص لا يبالي».

- ليس أنت؟

- كلا، *أخبرتُك*...

«وُلدتَ في حفرة خلَّفتها قذيفة»، سكوت: «أيمكنك أن تحدثني عن الأمر؟».

رفع كتفيه بحركة محكمة: «لا يوجد الكثير كي أقوله. لقد أصيب، ليست إصابة خطرة لكنها مؤلمة. كان يعلم أن عليه المتابعة، ولم يستطع، لذا أتيتُ أنا». انطباع الصبيانية المراوغ ذلك من جديد. «لماذا كنتَ قادرًا على المتابعة حين لم يستطع هو؟».

- أنا أفضل منه في ذلك.

- أفضل منه في...؟

- القتال.

- *لماذا* أنت أفضل؟

- أوه، حبًا بالله...

- كلا، ليس سؤالًا غبيًا. فأنت لست أطول منه، ولا أقوى، ولا أسرع... ولم تتلقَّ تدريبًا أفضل. وكيف لك؟ إذًا لماذا أنت أفضل؟

- أنا لا أخاف.

- الجميع يخافون أحيانًا.

- أنا لا أفعل، كما أنني لا أحس بالألم.

- فهمت، إذًا لم تكن تحس بتلك الإصابة؟

«لا»، نظر إلى ريڤرز مضيقًا عينيه: «أنت لا تصدق حرفًا من هذا، أليس كذلك؟».

لم يستطع ريڤرز أن يحمل نفسه على الرد.

«انظر»، سحب براير من سيجاره بقوة إلى أن توهج طرفه محمرًا، ثم -وبطريقة تكاد تكون عرَضية- أطفأه في راحة يده اليسرى. انحنى نحو ريڤرز مبتسمًا: «هذا ليس تمثيلًا يا ريڤرز، راقب الحدقتين»، قال وشد جفن إحدى عينيه إلى الأسفل.

امتلأت الغرفة برائحة جلد محروق.

«والآن بوسعك أن تستعيد صبيك الصغير ذا العينين الزرقاوين».

نظرةٌ نائية كأنها تحت تأثير مخدر، مثل صدمةٍ بالغة أو بداية نشوة، ثم تشنجت الملامح من الألم على حين غرة، ورفع پراير يده الراجفة -بأسنان تصطك خارجةً عن السيطرة- وضمها إلى صدره يهزها.

«ليس لدي أي مسكنات»، قال ريڤرز: «يحسن بك أن تشرب هذا».

أخذ پراير البراندي ومد يده الأخرى كي يكمل ريڤرز تضميدها. قال: «ألن تخبرني بما حدث؟».

- لقد حرقتَ نفسك.

- لماذا؟

تنهد ريڤرز: «بادرة درامية لم تسِر كما ينبغي».

لقد قرر ألا يخبر پراير عن فقدان الإحساس الطبيعيّ. إنه من الأعراض الشائعة للاضطرابات الهستيرية، لكن الدراية به لن تزيد على أن تعزز اعتقاد پراير أن الحالة المتبدلة لوعيه وحشٌ لا يمكن أن يجمعه به شيء.

«كيف بدا؟»، سأله پراير.

- كيف بدوتَ؟ عنيدًا.

- وعنيفًا؟

«أجل، *كما* هو *واضح*»، أجاب ريڤرز مشيرًا إلى الحرق.

«كلا، كنت أقصد...».

«هل حاولتَ أن تضربني؟ لا»، ابتسم ريڤرز: «آسف».

«تجعلني أبدو كأنني *أ*ريد ذلك».

كان ريڤرز يفكر بعمق. «أظن أن هذا صحيح»، قال وهو يربط طرفَي الضمادة.

- لا، لمَ عساي أريده؟ هذا الأمر يولِّد فوضى لعينة.

- أتعلم يا بيلي؟ الأمر الذي يثير الاهتمام حقًّا ضمن ما حدث الليلة هو أنك أتيتَ وأنت *في الحالة الأخرى*. أقصد أنك ظللتَ تريد أن تحضر إلى الموعد رغم كونك في الحالة الأخرى.

- ماذا ناديتَني؟
- بيلي. هل تمانع؟ أنا...
- كلا، الأمر أنك استخدمت الاسم الأول. هل كنت تعلم هذا؟ ساسون كان سيغفريد، وأندرسون كان رالف، كما أنني لاحظتُ ذلك اليوم أنك تنادي مانينغ تشارلز. أما أنا فلطالما كنتُ «پراير»، بل وفي لحظات السخط كنتُ *السيد* پراير.

«أنا آسف، إنني....». يا إلهي، فكر ريڤرز. إن پراير عاجز عن تفسير ذلك بكونه أي شيء إلا عنجهية، وربما كان الأمر كذلك، بجزء منه، رغم أن له علاقة أكبر بعادته في الإيحاء التهكميّ. «لم تكن لدي فكرة أنك تمانع».

«لا، حسنًا، لستَ حاد الملاحظة كثيرًا، أليس كذلك؟ أيًّا يكن، لا يهم»، نهض واقفًا: «يحسن بي أن أهم بالمغادرة».

«لا يمكنك الذهاب الآن، فرحلات القطار توقفت. وعلى كل حال، لستَ في حالة تسمح ببقائك وحيدًا، الأفضل أن تنام هنا».

تردد پراير: «حسنًا».

«سأعدُّ السرير».

لازمَ ريڤرز پراير حتى أوى إلى الفراش، ثم اتجه إلى غرفته وهو يقول لنفسه إنه سيكون خطأً قاتلًا في هذه الساعة المتأخرة أن يُجري أي محاولة لتقييم وضع پراير، على الأمر أن ينتظر حتى الصباح. لكن ظهر أن الجهد المطلوب من أجل عدم التفكير في پراير على درجةٍ تكاد تكون مساويةً من الكارثية، إذ إنه انساق إلى حالةٍ نصف حلمية، وهي الظرف الوحيد -في ما خلا الحمى المرضية- الذي يتمتع فيه بقدرة طبيعية على التصور البصريّ. أخذ يتقلب ويتلوى، وهو بالكاد واعٍ تجاه محيطه، فيما تطفو أمامه صورٌ متواصلة. فرنسا.. حفرٌ خلَّفتها قذائف.. وحلٌ يغطي كل ما يطاله البصر.. أشجارٌ مفلوقة.. ثم استيقظ وظل في سريره ينظر في الظلام، شاعرًا ببعض الطرافة من أن يبلغ به توحُّدُه مع مرضاه درجةً أن يحلم أحلامهم عوضًا عن أحلامه هو. سمع جرس الكنيسة يدق مشيرًا إلى الساعة الثالثة، ثم غرق من جديد في حالة نصف النوم. هذا مكان رهيب، لا شيء يمكن أن يعيشه

الإنسان هنا، لا شيء يفعله الإنسان. كان وحيدًا تمامًا، إلى أن تغضَّن السطحُ من اندفاعة أبخرةٍ خبيثة، وبدأ الوحل يتحرك، ليتكوم ويرتفع ثم يقف أمامه بشكل رجل، رجلٍ استدار وبدأ يمد خطواته نحو إنجلترا. حاول أن ينادي: «لا، ليس في هذا الاتجاه»، وكادت حركةُ شفتيه توقِظه، لكنه غرق مرةً أخرى، ومرةً أخرى كوَّم الوحلُ نفسَه في شكل رجل، أسرع وأسرع حتى بدا أن الليل برمته ممتلئ بمخلوقات على هذه الشاكلة، مخلوقات مكونة من أوحال فلاندرز[1] ولا شيء سواها، تحرك أطرافَها الشائهةَ في اتجاه الوطن.

ضوء الشمس يتدفق إلى الغرفة. استلقى ريڤرز يفكر في الحلم، ثم حوَّل أفكاره إلى مساء الأمس. لقد زعم پراير وهو في حالة الشرود (رغم أنها كانت أكثر من ذلك) أنه لا يشعر بأي ألم أو خوف، وأنه وُلِد في حفرة خلَّفتها قذيفة، وأنه لا يملك أبًا، أو أي علاقات تسبق تاريخ تلك الولادة الشاذة كما يُفترض. عدم الشعور بألمٍ أو خوفٍ في موقف بدا يستدعيهما كليهما ليس أمرًا مستحيلًا، ولا شاذًّا حتى. سبق له هو نفسه أن مر في حالة كهذه ذات مرة، وهو في طريقه نحو جُزر مضيق توريس، عندما كان يعاني من سفعة شمسٍ حادة، حادة إلى درجةٍ اسودت على أثرها بشرةُ ساقيه. كان قد استلقى على ظهر مركبٍ شراعيٍّ، وراح يتدحرج من جانب إلى آخر فيما تتكسر الأمواج على المركب من كل صوب، وجسمُه في ألم مستمر يسببه الماء المالح الذي ينفذ إلى حروقه، يتقيأ بعجزٍ ولا يستطيع النهوض أو حتى الجلوس. ثم انفلتت مرساةُ المركب من مستقرها في القاع وبات خطر التحطُم وشيكًا، وطوال هذا الوقت الذي استطاع فيه أن يتحرك بحرية لم يتقيأ ولم يشعر بألم أو خوف، وراح ببساطة يؤدي الإجراءات اللازمة لتلافي الخطر بهدوء وبرود أعصاب كما فعلوا جميعهم. وبعد رُسُوِّ المركب، آلمته ساقاه ألمًا مبرحًا وبات عاجزًا عن المشي من جديد. حُمِل من الشاطئ على نقّالة، وأمضى أيامه الأولى هناك يقابل المرضى من فراش مرضِه، فيجرجر قدميه من أمام المريض إلى

(1) مقاطعة فلاندرز: قسم في شمال بلجيكا يتحدث سكانه الهولندية، ونتيجة للأهمية التاريخية التي اكتسبتها المقاطعة، صار المصطلح يُطلَق على كل مناطق بلجيكا التي تتكلم باللغة الهولندية. (المترجم)

خزانة الأدوية ثم يعود للجلوس على مؤخرته من جديد. ابتسم لنفسه، وفكر أن هذه القصة ستروق لپراير. أَيُّهَا الطَبِيبُ اشْفِ نَفْسَكَ[1].

ثمة أشخاص آخرون مروا بتجارب مشابهة. سبق لرجالٍ كثر أن فروا من الخطر عن طريق الركض بسيقانهم المكسورة، بيد أن پراير خلق حالةً حريتُها من الخوف والألم دائمة، حالةً معزولة عما حولها كما لو داخل كبسولة، يتعذر على الوعي الطبيعيِّ أن يصل إليها. كأن عقله خلق له بديلًا محاربًا، كائنًا تشكل من أوحال فلاندرز، كما اقترح حلمُ ريڤرز، وجلبَه إلى الوطن معه.

وفيما كان ريڤرز يتفكر في المساء السابق، وجد أنه احتفظ بانطباع محدد شديد السطوة. كان في حديث پراير وسلوكه عنصرٌ صبيانيٌّ مثابر، لقد قال: *لقد أصيب، ليست إصابة خطرة لكنها مؤلمة. كان يعلم أن عليه المتابعة، ولم يستطع، لذا أتيتُ أنا*. لذا أتيتُ أنا، بكل ما في الجملة من بساطة، كأن المرء يتحدث إلى طفل ما زال يؤمن بالسحر. ثم على الدرج: وماذا *يحدث بعدها؟ لا شيء، لا يعود موجودًا*. مثل طفلٍ دارجٍ[2] يظن أنه لم يعد مرئيًّا لأنه أغمض عينيه. وذلك الادعاء الاستثنائي: *ليس لي أب*. خلف صوت الراشد بالتأكيد صوتٌ آخر حاد النبرة يقول بتحدٍّ: هذا *ليس بابا*. على كل حال، لقد كانت هذه نقطة انطلاق، ولا يخطر بباله غيرُها.

لم يعتقد ريڤرز أن پراير سيحضر على الفطور، لكنه ما إن اتخذ مقعده حتى فُتِح الباب ودخل پراير منه، وقد بدا مغتمًا يظهر عليه ألمٌ واضح. «كيف كان نومك؟»، سأله ريڤرز.

- لا بأس، لقد حظيتُ ببضع ساعات منه.
- طلبتُ من الفتاة أن تحضر لنا المزيد.
- لا يهم، أنا لستُ جائعًا.
- طيب، على الأقل اشرب بعض القهوة. يحسن بك أن تتناول شيئًا.

---

(1) إنجيل لوقا 4: 23. (المترجم)

(2) الطفل الدارج: من هو في سن بداية تعلُّم المشي. (المترجم)

- حسنًا، شكرًا لك، لكن بعدها عليَّ أن أذهب.
- أفضِّلُ لو تبقى، بضعة أيام، إلى أن تصبح الأمور أسهل.
- لا أريد أن أتطفل عليك بأي شكل.
- لن تكون «متطفلًا».

«طيب»، قال پراير أخيرًا: «شكرًا لك».

جاءت الخادمة تحمل صينية ثانية. استمتع ريڤرز برؤية پراير يلتهم الطعام بتركيز لا يحيد، فيما هو يرشف القهوة بالحليب ويقرأ *التايمز*. «لدي ساعة قبل أن يحين موعد ذهابي إلى المستشفى»، قال عندما أنهى پراير طعامه: «أتشعر أنك في حال جيدة بما يكفي؟».

حين استقرا على الكرسيين بجانب المكتب، قال ريڤرز: «أود أن نرجع في الزمن مسافةً طويلة حقًّا».

أومأ پراير برأسه، كان يبدو مرهقًا أكثر من أن يستطيع فعل هذا.

«هل تتذكر المنزل الذي كنتَ تسكن فيه في الخامسة من عمرك؟».

ابتسامة واهية: «أجل».

- هل تتذكر أعلى الدرج؟
- أجل. ليست هذه مأثرةً عظيمة يا ريڤرز، فمعظم الناس يستطيعون تذكُّر مثل هذه الأمور.

ابتسم ريڤرز: «لقد جنيتُ على نفسي بهذا السؤال، أليس كذلك؟ أتتذكر ما كان يوجد هناك؟».

- غرف نوم.
- كلا، أقصد على بسطة الدرج.
- لا شيء، لم يكن ثمة... بلى، مقياس الضغط الجوي. هذا صحيح. كانت الإبرة تشير دائمًا إلى الجو العاصف، ولم أكن أجد الأمر مضحكًا آنذاك.
- هل تتذكر أي شيء آخر بشأنه؟
- لا.
- ماذا كنتَ تفعل حين يعود والدك سكران؟

- أضع رأسي تحت أغطية السرير.

- لا شيء آخر؟

- لقد نزلتُ ذات مرة، فألقى بي على الجدار.

- هل تأذيت كثيرًا؟

- كدمة. انقلب كيانه رأسًا على عقب، لقد بكى.

- وأنت لم تنزل بعد تلك المرة قط؟

«لا، بتُّ أجلس على البسطة وأردد: **خنزير، خنزير، خنزير، خنزير**»، جهز قبضة يده كأنه يريد أن يضرب بها راحة الأخرى، ثم تذكر الحرق.

- وأين تكون بالضبط؟ تقف متكئًا على الدرابزين؟

- لا، كنتُ أجلس على الدرجة العليا. وإن بدأا بالصياح أنتقل إلى الأسفل قليلًا.

- وأين كان موقع مقياس الضغط بالنسبة إليك؟

- على يساري. آمل أن يقودنا هذا إلى وجهةٍ ما يا ريفرز.

- أظن ذلك.

- لقد كان بمنزلة دبدوب كما أعتقد، أقصد أنه كان رفيقًا من نوعٍ ما.

- أيمكنك أن تتخيل نفسك هناك من جديد؟

- لقد قلت لك، أنا...

- كلا، خذ وقتك.

«حسنًا»، أغمض پراير عينيه، ثم فتحهما من جديد والحيرة تبدو عليه.

«إذًا؟».

«لا شيء. لقد كان يعكس الضوء، إذ ثمة مصباح شارع...»، أشار فوق كتفه إشارة مبهمة: «سيبدو هذا جنونًا صِرفًا. كنت أدخل في الضوء المنعكس على الزجاج».

صمتٌ طويل.

- حين يزداد الوضع سوءًا أكثر من اللازم، ولا أعود أريد أن أكون هناك.

- وماذا يحدث بعدها؟ هل كنت تعود إلى السرير؟

- لا بد أنني كنتُ أعود، أليس كذلك؟ اسمع، إن كنتَ تقول إن هذه الحالة كانت موجودة منذ ذلك الوقت، فأنت على خطأ. لقد بدأت فجواتُ الذاكرة في فرنسا، وتحسن الوضع في كريغلوكهارت، ثم بدأت من جديد منذ بضعة أشهر. ليس للأمر علاقة بمقاييس الضغط اللعينة.

ساد الصمت.

- قل شيئًا يا ريڤرز.

- أظن أن ثمة علاقة. أعتقد أنك حين كنت صغيرًا جدًّا اكتشفتَ طريقة للتعامل مع وضع كريهٍ للغاية، أظنك توصلت إلى طريقةٍ لإدخال نفسك في غشية، حالة انفصال. ثم في فرنسا، تحت ذلك الضغط الذي لا يطاق، أعدتَ اكتشاف ذلك.

هز پراير رأسه: «أنت تقول إنه ليس شيئًا يحدث، بل شيء أفعله».

«ليس عمدًا»، انتظر: «اسمع، أنت تعرف الأمور التي تحدث عادةً. الناس يفقدون أعصابهم، ينفجرون بالبكاء، تراودهم الكوابيس. إنهم يتصرفون مثل الأطفال، من عدة نواحٍ. كل ما أقترحه هو أنك أعدت اكتشاف أسلوب مواجهةٍ خدمك بشكل جيد في طفولتك، لكنه...».

«لقد دخلتُ في الضوء المنعكس على الزجاج».

بدت الحيرة على ريڤرز: «أجل، قلتَ هذا».

«لا، في الحانة، حين حدث هذا الأمر لأول مرة. لأول مرة في إنجلترا. كنتُ أراقب ضوء الشمس المنعكس على كأس جعة»، فكر للحظة: «وكنتُ غاضبًا جدًّا لأن جيمي مات، في حين... كان الجميع يستمتعون بوقتهم. بدأت أتخيل كيف سيكون الأمر لو اقتحمت دبابةٌ المكان وهرستهم، وأظن أنني خفت. كانت الصورة نابضةً بالحياة للغاية، أتفهمني؟ كما لو أن ذلك حدث بالفعل»، سكوتٌ طويل: «تقول إنه تنويمٌ ذاتيٌّ».

- أظن أنه لا بد أن يكون شيئًا من هذا القبيل.

- إذًا إن كان بوسعي أن أفعل ذلك وآمر نفسي أن أتذكر، فهذا سيتكفل نظريًا بملء الفجوات. كل الفجوات، لأنني سأعود ومعي جميع الذكريات.

- لا أدري إن كان هذا تصرفًا صائبًا.

- لكنه سينجح نظريًا.

- إن استطعت أن تكون واعيًا تجاه هذه العملية بما يكفي، أجل.

شرد پراير في أفكاره: «هل المسألة مجرد تذكُّرٍ بالفعل؟».

- لا أظنني أفهم قصدك.

- إن تذكرت، فهل يكفي هذا كي يُشفى الانفصام؟

- كلا، لا أظن ذلك. أعتقد أنه لا بد من لحظة... إقرار، لحظة قبول. لا بد من لحظةٍ تنظر فيها إلى المرآة وتقول: أجل، هذا أيضًا هو أنا.

- قد يكون هذا صعبًا.

- لماذا؟

التوَت شفتا پراير: «ثمة أجزاء مني أجدها غير مقبولة إلى حد بعيد، حتى في أفضل الأوقات».

السادية من جديد. «لا شيء مما رأيتُه أو سمعته ليلة أمس يقودني إلى اعتقاد أن شيئًا... مريعًا قد يكون يحدث».

- لعلك لستَ من نمطه المفضل لا غير.

- «سيد پراير».

ابتسامة على مضض: «حسنًا».

نهض ريڤرز واقفًا: «أظننا بلغنا أقصى ما نستطيع بلوغه حاليًا. لا تُمضِ النهار في التفكير السوداويِّ، اتفقنا؟ ولا تترك نفسك للإحباط. لقد أحرزنا تقدمًا كبيرًا، والاستراحة ستُجديك نفعًا أكبر بكثير. هاك، ستحتاج إلى هذا»، ذهب ريڤرز إلى طاولة المكتب، فتح الدرج العلويَّ وأخذ منه مفتاحًا: «سأخبر الخدم أن يترقبوا قدومك».

20

استيقظ پراير مُطلِقًا صيحة، ووجد نفسه مستلقيًا في الظلام، يتفصد عرقًا، تائهًا عما حوله، غير قادرٍ أن يفهم لماذا مربع النافذة الرماديُّ على يمينه، لا قبالة سريره كما يُفترض به أن يكون. إنه برفقة ريڤرز منذ ما يربو على الأسبوعين، ومع ذلك ما زال يمر بلحظاتٍ يستيقظ فيها ولا يستطيع أن يتذكر أين هو. سمع وقْع أقدامٍ تمشي نحو بابه.

«هل أنت على ما يرام؟»، صوتُ ريڤرز.

«تفضل»، أضاء پراير المصباح: «آسفٌ أنني أيقظتُك».

- لقد أطلقتَ صيحة، ولم أعرف ما الأمر.

- أجل، أعلم، أنا آسف.

نظرا إلى بعضهما، فابتسم پراير: «طيفٌ من ذكريات كريغلوكهارت».

«أجل»، أجاب ريڤرز: «سبق وفعلنا هذا مرات كثيرة».

- آنذاك كنتَ في دوامك. هيا، عُد إلى سريرك، تحتاج إلى الراحة.

- هل ستستطيع العودة إلى النوم؟

«أوه، أجل، سأكون على ما يرام»، نظر إلى وجه ريڤرز المرهَق: «وهذا ما ينبغي لك أن تفعله أنت أيضًا دون شك. هيا، عُد إلى السرير».

كان الحلم عن ماك، فكر پراير ما إن انغلق الباب خلف ريڤرز. لم يستطع أن يتذكره بوضوح، باستثناء أنه كان يمتلئ بحيوانات تُنازِع ورائحةِ الدم. ريڤرز يرى أن ابتعاد كوابيسه عن موضوع الحرب وعودتَها إلى طفولته

علامةٌ جيدة، لكن هذه الكوابيس لم تكن أقل ترويعًا، بل وما تزال متعلقة بالحرب على كل حال، إنه موقن من ذلك. لقد جعله ريڤرز يتكلم بلا توقُّف عن طفولته، طفولتِه المبكرة على وجه التحديد؛ الشجارات بين والديه، خوفه، الأمسيات التي قضاها عند أعلى الدرج مصغيًا إلى الكلمات والضربات التي تنطبع داخله مثل وشم النار إلى أن يفقد قدرته على التحمل ويقرر ألا يظل هناك. هو ما يزال غير قادر على تذكُّر ما حدث في فجوات الطفولة، إلا أنه بات يتذكر أن ثمة فجوات، لكن فقط في أول حداثته. ذات مرة، في حالةٍ من السخط الصِّرف، سأل ريڤرز كيف يتعامل مع فجوة ذاكرته هو، الظلمةِ في أعلى درجه هو، بيد أن ريڤرز اكتفى بالابتسام ودفعِ الحديث قُدمًا. الناس ينظرون إلى ريڤرز طوال الوقت على أنه رجل دَمِث، لكن پراير يتساءل أحيانًا عما يجعلهم يفعلون ذلك. لعل عبارة «رجل لا يلين» تليق أكثر. ومع ذلك، لم تكن الكوابيس عن الشجارات بين والديه. الكوابيس كانت عن ماك، وهذا غريبٌ لأن معظم ذكرياته عن ماك ذكرياتٌ سارَّة.

مساحة واسعة من الأسفلت المبرغل. بناءٌ وطيءٌ نوافذه مزودة بأقفاصٍ من الأسلاك. روائح كاسترد وجوارب مشبعة بالعرق. درسُ الغناء، صباحَ الاثنين، عقب الاجتماع الصباحيِّ مباشرةً، وهورتون يطوف بين صفوف المقاعد، ويحف ساق بنطاله بعصاه، متسمعًا يتربص للنوتات الخاطئة. كانت ذائقتُه قد نمَت إلى أغاني البالاد العاطفية، «النغمة المفقودة[1]» تتصدر قائمة مفضلاته. تلك هي الفترة التي كان السيد هيلز يغرس في الأذهان خلالها الرعبَ من الاستمناء، عن طريق محاضراته حول الأعضاء المشتعلة والاستنزاف الذي ينتج عن اللعب بها. جلس هورتون أمام البيانو وغنى بطبقة الباريتون الرجولية خاصته:

جلستُ ذات يومٍ أمام الأورغن

كَليلًا غيرَ مرتاح

(1) The Lost Chord.

ندَّت عن پراير ضحكةُ سخريةٍ مبتورة، وكبتَ واحدٌ أو اثنان من الآخرين ضحكهما، فيما قهقه ماك. تعثر صوت البيانو ثم صمت، نهض هورتون ونادى ماك إلى مقدمة غرفة الصف ثم طلب منه أن يشارك النكتة. «إذًا؟»، قال هورتون: «أنا واثق أن لا أحد بيننا يمانع سماع طرفةٍ مسلية».

«لا أظنك ستجدها مضحكة، سيدي».

تعرَّض ماك لضربٍ وحشيٍّ بالعصا، أما پراير فتُرك بلا عقاب. هورتون سمع پراير أيضًا يضحك، وكان متأكدًا من ذلك، لكن پراير كان حسن الهندامِ دائمًا بفضل تدبير والدته واقتصادها. بقمصانه المكوية وأحذيته الملمعة، كان يبدو صبيًّا من النوع الذي قد يحصل على منحة دراسية، كما فعل في الواقع، وفضلُ ذلك يعود بجزءٍ منه إلى نهج الأب ماكنزي الأمتن في عزف الأورغن. *ابن الحرام*، قال پراير في قرارته، فيما تكيل ذراعُ هورتون الضربات.

بعد ذلك بسنوات، بعد أن شهد فظائع حرب الخنادق الوحشية، كان ما يزال يقول في قرارته: *ابن الحرام*.

كان قد عقد عزمه آنذاك على الانتقام، مدفوعًا بغضبه لماك أكثر مما قد يغضب لنفسه يومًا.

هورتون كان رجلًا ذا عادات منتظمة. قبل عشرين دقيقةٍ بالضبط من قرع الجرس الذي يأذن بانتهاء استراحة الطعام، يُشاهَد مرتجِلًا عبر الملعب نحو حمَّام المدرسين. لا يناسبه ورق الجرائد الذي على الصبيان أن يتدبروا أمورهم به، أحد جانبَي معطفه منتفخ مثل ثدي مفرد، هناك يخبئ لفة مناديل حمام. يدب قاطعًا أرض الملعب بخطوٍ عسكريٍّ مضبوط، يكاد الصِّبية لا يلاحظونه وسط صياحهم وتراكضهم. حسُّ الدعابة في الملعب يتمحور حول البراز بالإجماع، غير أن تغوُّط هورتون المضبوط مثل عقارب الساعة بات نكتةً أقدم من أن تثير الضحك.

ذات مرة في أثناء استراحة الطعام، طلب پراير من ماك أن يرابط حيث يستطيع رؤية المدخل الرئيسيِّ للمدرسة، وذهب في مهمة استطلاع. وفي اليوم التالي، انسلا إلى الحمام وأقفلا باب أحد المراحيض. أشعل پراير عود ثقاب وأوقد به فتيل شمعة، ثم داراه بكلتا يديه إلى أن اشتعل اللهب تمامًا، وثبَّت الشمعة بشمعها الذائب على قطعة مربعة من الخشب المعاكس.

دخل هورتون في تمام موعده، وتحيَّر من المرحاض المقفَل: «سيد بارنز؟».

بذل پراير جهدًا شديدًا ليُصدِر نخيرًا رجوليًا، فلم يُضِف هورتون شيئًا. حتى نخير الإمساك ذلك لم يُغرِهما بالضحك، فالتعرض للضرب من هورتون ليس مسألةً هزلية. انتظرا بصمت، وواحدهما يحس بكل ارتفاعٍ وهبوط لأنفاس الآخر، ثم أنزل پراير الشمعة ببطء ووضعها في الماء الجاري تحت مقعد الحمام. كان مقعدًا واحدًا طويلًا في الواقع، تقسمه جدران المراحيض. ارتعش لهب الشمعة قليلًا، لكنه سرعان ما هب من جديد وتابع اتقاده بثبات. دفع پراير الشمعة لتسير على وجه الماء الداكن، فمضت تتمايل بسرعة أكبر بكثير مما كان بباله، وهنا كان ماك يهم بفتح مزلاج الباب. راحا يركضان عبر الملعب، إلى حيث تجري لعبة قفزٍ على الأكتاف (كما خُطِّط لها سلفًا)، وألقيا نفسيهما فوق كومة الصبيان المتدافعين.

خلفهما، كان لهب الشمعة قد وصل إلى المؤخرة المستهدفة. لعلعت ولولةٌ تشي بالألم وعدم التصديق، ثم ظهر هورتون يحملق حوله وقد فقد أعصابه. لا جدوى من بحثه عن علامات ذنب، فهو يبعث من الرعب ما يجعل الذنب يرتسم بجلاء على كل واحد من الوجوه المئتين التي التفتت إليه. وعلى كل حال، ثمة وقاره الذي ينبغي أخذه بالحسبان. راح يعرج عبر الملعب، ولم يُسمَع شيء بخصوص الأمر بعد ذلك.

حالما ابتعد عن الأنظار وبات الوضع آمنًا، ذهب پراير وماك بهدوء وانعطفا عند الزاوية نحو المنطقة المحظورة قرب كومة فحم الكوك، وهناك انخرطا في رقصة نصر شعائرية خيم عليها الصمت التام.

ولماذا أكلف نفسي عناء استحضار حدث عَرَضيٍّ كهذا بكل هذه التفاصيل؟ سأل پراير نفسه. لأن كل ذكرى صداقة أستدعيها تُمثل حجابًا واقيًا أمام بصقة هيتي في وجهي، طريقةً أقول بها إنه يستحيل أن أكون مَن فعلها بالطبع. ما يفاجئه الآن هو *البراءة* التي شعر بها حين ذكرت بيتي للمرة الأولى اعتقاد هيتي أنه خان ماك. «هذا ليس صحيحًا»، قال آنذاك بشكل أوتوماتيكيٍّ، واثقًا تمام الثقة، كأنه يستطيع تحمُّل مسؤولية كل دقيقة يقظةٍ

في حياته. لكنه، فقط حين صار على متن القطار العائد إلى لندن، أرغم نفسه على تقبُّل *إمكانية* أن يكون قد خان ماك، أو استحالة إنكاره للأمر على الأقل.

لقد حصل بعد ذلك على حقيقةٍ من ريڤرز، حقيقة ملأته خوفًا. بات يعلم الآن أنه -خلال حالة الشرود- أنكر أن أباه أبوه، وإن كان مستعدًّا لإنكار ذلك (وهو حقيقة بيولوجية بسيطة في النهاية) فأي أملٍ عساه يكون لصداقات ما قبل الحرب؟ ريڤرز أظهر ترددًا واضحًا للعيان وهو يخبره ما قالته حالته الأخرى، ومع ذلك كانت ردة فعل پراير على ذلك أكثر تعقيدًا من مجرد الرفض أو الإنكار. قول المرء إنه وُلِد في حفرةٍ خلَّفتها قذيفة هو أمر فيه مقدار سخيف من الدرامية الذاتية، حتى وفقًا لمعاييري أنا، قال پراير في قرارته ساخرًا. ومع ذلك، إن سُئِل أي شخص قاتَل في فرنسا ما إن كان يظن أنه نفس الشخص الذي كانه قبل الحرب، الشخص الذي ما زالت عائلته تتذكره، فالأغلبية الساحقة... كلا، ليست الأغلبية فقط، بل جميعهم، جميعهم سيجيبون بالنفي. المسألة مجرد اختلاف في الدرجات. والمرء بالفعل يشعر أحيانًا -شعورًا قويًا جدًّا- أن الولاءات المهمة بحق هي فقط الولاءات التي صيغت هناك. طين پيكاردي غراءٌ شديد القوة، لكن إذا طُبِّق على صداقات ما قبل الحرب التي جمعت بين الجنود وبين معارضي الخدمة، ألا يمكن أن يصبح مادةً مذيبةً لها القوة نفسها؟

ليس في هذه الحالة، إنه لم يزل هو. لقد جازف، في هذه الحالة، بالتعرض لمحاكمة عسكرية من أجل بيتي، ونسَخ وثائق تُدين سپراغ. لكن بيتي امرأة، ولا تستطيع القتال. قد تكون ذاتُه الأخرى أقلَّ تسامحًا مع الشبان الأصحاء الأشداء الذين يقضون سنوات الحرب في محاولة تعطيل إمداد الذخائر التي تعتمد عليها حيوات أخرى.

لكنه *ماك*، قال لنفسه، ماك.

أخذه النومُ في نهاية المطاف، واستيقظ بعد ثلاث ساعات ليجد ضوء الشمس يغمر الغرفة. نظر إلى ساعة يده بعينين ناعستين، ثم مد يده إلى الروب دو شامبر خاصته. كان ريڤرز جالسًا أمام بقايا الفطور بوجه حليق وهندام كامل. «بدا الأفضل أن أتركك تنام»، قال له: «أخشى أن القهوة باردة».

- هل عدتَ إلى النوم؟

- أجل.

الوغد الكذاب، قال پراير في قرارته. شرب القهوة الباردة وهو يحلق ويرتدي ملابسه، وكان ريڤرز ينتظر عند طاولة المكتب. شعر پراير بميل إلى التمرد للحظة، لكنه سرعان ما نظر إلى ريڤرز ورأى كم هو متعَب فقال لنفسه: رباه، إن كان يستطيع فعل ذلك، فأنا أيضًا أستطيع. جلس، وجعلته الوضعية المعتادة والضوء النازل على وجه ريڤرز يدرك أنه اتخذ قرارًا. قال: «سوف أقابل ماك».

صمت. «أظن أن السبب الذي يحول دون إحرازي أي تقدمٍ هو أن... ثمة ثمة ثــ.. ثمة *أوه، بحق المسيح*»، ألقى رأسه إلى الخلف: «ثمة حاجزًا، وأظن أن للأمر علاقة به».

- التوصل إلى حقيقةٍ واحدة بشأن سلوكك خلال الأسابيع القليلة الماضية لن يغير أي شيء.
- أظن أنه قد يغير.

صمتٌ طويل آخر. عدَّل ريڤرز وضعيته: «أجل، أتفهم ذلك بالفعل».

«ورغم أنني أفهم الفكرة، أقصد، أفهم مدى أهمية أن أصل إلى جذر المسألة، فأنا أحتاج إلى التخلص من العطالة *الآن*. بطريقةٍ ما، مراجعة ما حدث مع والديَّ تجعلني أشعر كأنني شخصٌ يعاني حالة عُصابٍ ميئوسًا منها استمرت طيلة حياته. تجعلني أشعر أنني لن أكون قادرًا على *فعل* أي شيء أبدًا».

«أوه، ما كنتُ لأقلق بهذا الشأن»، قال ريڤرز: «فنصف أعمال العالم ينجزها عصابيون ميئوس منهم».

كان قوله هذا مشفوعًا بنظرةٍ لا إرادية إلى سطح مكتبه. ضحك پراير بصوتٍ عالٍ: «أتود أن أساعدك في شيء منه؟».

ابتسم ريڤرز: «كنتُ أقصد داروين».

«صدقتُك. لمَ لا تدعني أفعلها؟»، سأله پراير مشيرًا إلى كدسة أوراق على المكتب: «أنت تطبعها على الآلة الكاتبة لا أكثر، أليس كذلك؟ لستَ تُجري عليها أي تعديلات».

«هذا لطفٌ بالغ منك، لكنك لن تستطيع قراءة الخط. لهذا يتعين عليَّ طباعتها، فحتى سكرتيرتي لا تستطيع أن تقرأها».

«فلنُلقِ نظرة، هل تمانع؟»، التقط پراير إحدى الأوراق: «ريڤرز، هل تدرك أن هذا هو المعادل الكتابي للتأتأة؟ أقصد، إن كان ثمة أمر لا تستطيع أن تقوله، فأنتَ لا تنوي أن تكتبه دون ريب».

رفع ريڤرز سبابته: «أنت تتحسن».

ابتسم پراير. ودون جهدٍ ظاهر، قرأ إحدى الجمل جهرًا: *وعلى هذا، نجد أن الاضطرار إلى كبت التعبير عن الكره أو الازدراء تجاه ذوي الرُّتَب الأعلى واحدٌ من العوامل المتكررة التي تساهم في نشوء عُصاب الحرب.* «إذًا لا أمل لي، أليس كذلك؟ أتساءل ما الذي يجعلك تُتعب نفسك»، دفع ريڤرز عن الكرسي برفق: «هيا، اشتغل بشيء آخر».

هز ريڤرز رأسه: «أتعلم؟ لم يسبق لأحد أن فعل هذا».

- أنا ماهر في كسر الأعراف.

- هل هذا تبجُّح؟

- كلا، بل ترويعٌ صِرف.

حين انعطف ريڤرز عند الزاوية، شاهد رجلًا يغادر غرفة ساسون. تقابلا وجهًا لوجه في الدهليز الضيق، وتوقفا.

- د. ريڤرز؟

- نعم.

- روبرت روس.

تصافحا. وبعد القليل من العبارات المجامِلة حول الطقس، قال روس: «لا أدري إن كان سيغفريد قد تحدَّث عن المستقبل بأي شكل؟».

- أعتقد أن لديه مخططات متنوعة، لكن الواضح أنه ليس في حالة تسمح بفعل أي شيء يُذكَر حاليًّا.

- غوس لديه فكرة أنه قد يكون مفيدًا في البروباغندا الحربية، ويظهر أن سيغفريد قال له إن مؤهله الوحيد لهذه المهمة هو الإصابة التي تعرض لها في رأسه.

ضحكا، تجمع بينهما مَعَزَّتُهما المشتركة لسيغفريد، ثم تودَّعا. وبقي ريفرز مع انطباعٍ مفادُه أن روس كان يريد إخباره بشيءٍ ما، لكنه تراجع عن ذلك.

كان سيغفريد جالسًا فوق سريره، وعلى ركبتيه دفتر. «هل روس هو الذي كنتَ تتحدث إليه؟».

- أجل.

- يبدو مريضًا، أليس كذلك؟

كان يبدو أسوأ من «مريض»، يبدو كأنه يحتضر. «من الصعب أن نجزم حين لا نعرف الشخص».

«لن أراه الأسبوع القادم، سيذهب إلى الريف».

جلس ريفرز قرب السرير.

«كنتُ أحاول أن أكتب إلى أوين»، قال ساسون: «هل تتذكر أوين؟ ذلك الفتى ضئيل البنية، الذي اعتاد أن يروِّج مجلة *الهيدرا* في قاعة الإفطار».

«أجل، أتذكر. مريض بروك».

«حسنًا، لقد أرسل إليَّ قصيدة وأغدقتُ عليها الـ المديح، والآن إذ انتشرت بين الناس...»، غيَّر سيغفريد تعبير وجهه: «لم تعجب أحدًا. والآن، أنظر إليها مجددًا فأجد نفسي غير واثق أنا الآخر. الحقيقة أن...»، قال وهو يضع الدفتر على الكوميدينا: «قدرتي على المحاكمة اختفت. وليس فقط بالنسبة إلى أعمال أوين. كنتُ أظن أنني أنجزتُ شيئًا جيدًا أو اثنين، لكن حين أنظر إليهما من جديد أجدهما يستحقان الرمي في الحاوية. في الحقيقة، لا أعتقد أنني أنجزت أي شيء جيد مذ غادرتُ كريغلوكهارت».

قال ريفرز بحذر: «أنت تفكر هكذا الآن لأنك مكتئب، هوِّن عليك».

- هل أنا مكتئب؟

- تعلم أنك كذلك.

«لا أعرف ما الجدوى من هذا على أي حال، ماذا يكون الشاعر المناهض للحرب سوى شاعر يعتمد على الحرب؟ ثمة أشياء كثيرة كنت أظنها بسيطة يا ريفرز، و...»، سكوت: «جاء إيدي مارش ليراني. هو يظن أن بإمكانه أن يعثر لي على عمل في وزارة الذخيرة».

- وما رأيك بذلك؟
- لا أدري.

أومأ ريفرز برأسه: «حسنًا، لديك الكثير من الوقت».

- أنا لا أعرف حتى إن كنت سوف أعود إلى فرنسا، هل سأعود؟
- سوف أفعل كل ما أستطيعه لأحول دون ذلك. لا أظن أن أحدًا يتوقع منك العودة هذه المرة.

«لم أندم على العودة قط، كما تعلم، ولا مرة»، نهض جالسًا فجأةً، وطوّق ركبتيه بذراعيه: «أتعرف ما أود أن أفعله حقًا؟ أن أذهب إلى شيفيلد وأعمل في مصنع».

- في مصنع؟
- أجل، لمَ لا؟ لا أريد أن أمضي بقية حياتي محاطًا بنفس الشرنقة التي كانت تحيط بي قبل الحرب، أريد أن أعرف عن الناس العاديين، العمال.
- ولماذا شيفيلد؟
- لأنها قريبة من إدوارد كاربنتر.

صمت.

«لمَ لا؟»، ألحّ سيغفريد: «لمَ لا؟ لقد فعلتُ كل ما أراده مني الجميع، كل ما أردتَ مني أنت أن أفعله. أذعنتُ، وعدت. والآن لماذا لا أستطيع أن أفعل شيئًا صائبًا بالنسبة *إليّ*؟».

- لأنك لم تزل في الجيش.
- لكنك تقول بلسانك إن أحدًا لا يتوقع...
- هذه مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن التسريح النهائيّ، ولا أرى أسبابًا تؤهل لذلك.

- هل يعود القرار إليك؟

«أجل». نهض ريڤرز وسار إلى النافذة. كان يتمنى أن يتمكن هذه المرة من استخدام مهاراته لما فيه منفعة سيغفريد على نحوٍ لا يقبل اللبس، لكنه وجد نفسه عوضًا عن ذلك يواجه مهمة وضعِ عقباتٍ في طريق مخططٍ أبله آخر، لأن هذا احتجاجٌ آخر، أصغر وأكثر خصوصية وأقل أملًا من تصريحه العلنيّ، لكنه احتجاجٌ رغم ذلك.

قال سيغفريد من خلفه: «كان في الحديقة احتفالٌ كبير البارحة، فِرَقٌ موسيقية تعزف».

استدار ريڤرز كي ينظر إليه: «بالطبع، غاب عن بالي. الرابع من أغسطس».

- كانوا يدشنون نُصبًا من نوعٍ ما للموتى، أو يحمدون الله على الحرب، إما هذا وإما ذاك. ثمة لجنةٌ للأنصاب التذكارية الحربية، وهي إحدى اللجان التي تعيَّن على روبي أن يستقيل منها. لا يمكنهم السماح لشخصٍ من أمثاله أن يتولى الاحتفاء بذكرى الموتى المبجلين، حتى إن كان بعض هؤلاء الموتى المبجلين أنفسهم أشخاصًا من أمثاله.

- لهجتُك لاذعة جدًا.

«وأنت على حق، لا نفع من هذا. يمكن للمرء أن يمتطي الغضب»، مد سيغفريد يديه مُقلدًا الفرسان، وفرد سبابتيه كأنه يمسك عنان الحصان: «أما اللهجة اللاذعة فلا أعرف ماذا يمكن أن يُصنع بها. لا شيء، على الأرجح».

بدأ ريڤرز بتنهيدةٍ ثم حبسها: «ثمة شيء أريد أن أقوله، دفاعًا عن نفسي كما أظن. إن كنتَ قد قلتَ لي في *أي* وقت: «أنا مناصر للسلام، وأؤمن أن القتل عملٌ خاطئ دائمًا وفي جميع الظروف»، ما... ما كنتُ لأوافقك الرأي، بل ولجعلتُك تجادل وتحاول أن تبرهن صحة موقفك في كل مرحلةٍ نبلغها، لكنني في النهاية كنت سأفعل كل ما في طاقتي كي أساعدك على الخروج من الجيش».

«لستَ بحاجة إلى دفاع. لقد أخبرتُك، أنا لم أندم على العودة قط».

«إذًا عليك أن تواجه حقيقةَ أنك *ما تزال* جنديًا»، فتح ريڤرز فمه، ونظر إلى سيغفريد من موضع وقوفه، ثم أغلقه من جديد: «أتعلم؟ لا يحسن بك أن

تكون مستلقيًا على سريرك في يومٍ كهذا. لمَ لا ترتدي ملابسك؟ يمكننا أن نخرج».

نظر سيغفريد إلى سترته المعلقة على ظهر الباب: «كلا، شكرًا، أفضّل ألا أفعل».

- أنت لم ترتدِ ملابس الخروج منذ وصولك.

- ليس لدي استعداد لإبهار فتيات مفرزة المساعدات التطوعية.

- *إبهار*؟ أليس في هذا شيء من الخيلاء؟

«إنها حقيقة يا ريڤرز»، ابتسم سيغفريد: «واحدة من المفارقات الساخرة الثانوية في الحياة».

قطع ريڤرز الغرفة، وأخذ سترة سيغفريد عن الوتد وألقاها على السرير: «هيا يا سيغفريد، ارتدِها، لا يمكنك أن تمضي بقية حياتك وأنت ترتدي المنامة».

- ولا يمكنني أن أمضي بقية حياتي وأنا أرتدي هذه كذلك.

- صحيح، لكن عليك أن تمضي بقية الحرب وأنت ترتديها.

بدا للحظة أن سيغفريد سيرفض، ثم -ببطء- دفع عنه أغطية السرير ونهض. كان يبدو في حالة مريعة، أبيض، مرتعشًا، منهَكًا.

«ليس علينا أن نبتعد»، قال ريڤرز.

ببطءٍ شرع ساسون يرتدي الزي.

كان ترتيبُ زيارةٍ لماك أسهلَ مما توقع پراير. ما تزال بحوزته مذكرات مروَّسة باسم وزارة الذخيرة، إذ كان قد أخذ معه حفنةً منها حين أخلى مكتبه. لكن حتى دونها على الأرجح، سيكون من شأن الزي وشريط الإصابة وجديته في التعبير عن رغبته في إنقاذ صديق قديم من عار السِّلمية أن تكفي لتؤمِّن له لقاءً.

كان ماك جالسًا على سريره غير المفروش، يضع رأسه بين يديه.

قال پراير: «مرحبًا يا ماك».

نزلت اليدان، ونظر ماك... كما ينظر الأشخاص الذين خاضوا خلافات متكررة مع حراس معسكرات الاعتقال.

«واقفًا»، قال الحارس.

«لا»، قال پراير بحدة: «اتركنا».

بدا الرجل مبهوتًا، لكنه أطاع الأمر، وساد شعورٌ بالانفراج حين جلجل الباب منغلقًا خلفه. كان پراير متخوفًا من أن يرفض ماك أداء التحية له، فيمضي الحراس نصف الساعة التالي وهم يشجُّون له رأسه بالجدار.

«حسنًا»، قال پراير.

ما من كرسي، ولا زجاج في النافذة. ثمة رائحة بول آسنٍ تفوح من الدلو الموضوع حيث يمكن رؤيته من الباب. وخلفه... أجل، بالطبع. العين.

«لم أتوقع أن أراك»، قال ماك. ما من ودٍّ في صوته ولا في أسلوبه، لكنه لا يُظهِر ضغينة واضحة. لعله بات معتادًا، كما هي حال الجنود، على توجيه الضربات القاسية اللاشخصية وتلقيها، ولا مكان للعواطف في هذا.

«لقد منحوك بطانية على الأقل».

كان ماك عاريًا تحت البطانية، والزنزانة باردة حتى في الصيف.

«بمناسبة زيارتك، سيأخذونها ما إن تغادر».

جلس پراير عند نهاية السرير العاري وراح ينظر حوله.

«هذا أحد الأسلحة الأساسية»، قال ماك، يفتح حديثًا: «يجعلونك تسير في أنحاء المكان عاريًا. لا سيما أنهم لا يقدمون لك أي مناديل تمسح نفسك بها، والطعام هنا كفيل بقلب معدتك ولو كنتَ تمثالًا معدنيًا»، انتظر: «الخراء يلعب دورًا كبيرًا في جعل الناس ينهارون، هل تعرف هذا؟».

«تبدو كأنهم أشبعوك ضربًا».

«إنهم مستمتعون...»، قال ماك مشيرًا بيده: «استمتاعًا لا تُخطئه عينٌ من يراهم».

- وهل انتهى الأمر الآن؟

- الضرب؟ سينتهي حين أستسلم.

على طرف السرير، وُضِع زيٌّ مطويٌّ بعناية.

- هل لي أن أطرح عليك سؤالًا يا بيلي؟ هل تتحدثون عن الحرب في الخنادق؟ لا أقصد الأحاديث اليومية المعتادة، عن توزيع الذخيرة والمهام والمتابعة وما إلى هنالك. بل أقصد أحاديث مثل: «لماذا نقاتل؟» و «ما جدوى كل هذا؟».

- كلا، نحن هناك لأننا هناك.

- وكذلك الأمر هنا.

بدت الحيرة على پراير: «ما من أحد تتحدث إليه».

ابتسم ماك: «شفرة مورس على المواسير. أفهم أنني أستطيع الاعتماد على أنك لن تخبر الضابط الآمر؟».

- بالطبع.

- «بالطبع» يا بيلي؟

- لستُ أنا من فعلها.

ابتسم ماك وهز رأسه: «لماذا أتيت إلى هنا إن كنت ستقول هذا؟ لماذا أتيت من الأساس؟ لا أدري. هل تريد أن ترى ما فعلتَه وحسب؟».

فتح پراير فمه لينكر مرة أخرى، ثم عاد وأغلقه. «لدي شيء من أجلك»، قال وهو ينقب في جيب سترته، ثم أخرج لوحَين من الشوكولاتة. شاهد حدقتَي ماك تتوهجان، ثم تنطفئان من جديد. «أجل، أعلم، إنهما ملوثان، فقد لمستُهما»، مد الشوكولاتة إليه، مستخدمًا جسده ليحجبه عن العين: «لكن عليك أن تبقى حيًّا».

استتر ماك أمام پراير تمامًا كي يتسنى له أن يأخذ الشوكولاتة دون أن يُرى: «هذا صحيح».

«الأفضل أن تأكلها، سيفتشونك».

«لن يفعلوا، فهذا سيعني أنهم يشكون في إخلاصك، وأنت ضابط وجنتلمان على سنٍّ ورمح. لكن لا فرق كما أظن، سأتناول بعضها». شقَّ الغلاف بظفره، وقطع قطعةً بدأ يأكلها. كانت حركات فمه وحلقه خرقاء، لقد حوَّل الجوعُ الأكلَ إلى عملٍ له خصوصية ضرب البيدق. حاول پراير أن يشيح بوجهه، لكن

لم يكن ثمة ما ينظر إليه، لم تستطع عيناه سوى أن تطوفا على أنحاء الزنزانة ثم تعودا إلى ماك.

- تسع خطوات بذلك الاتجاه، وسبعٌ بهذا. أنا أمشي كثيرًا.

- كم مدة حجزك هنا؟

- في المنفردة؟ تسعون يومًا. وإن عاودتُ انتهاكاتي -وهذا ما أنوي أن أفعله- فتسعون يومًا آخر.

أطرق پراير ينظر إلى يديه: «وما من رسائل؟».

«كلا».

اجترحَ ماك ابتسامةً بين لقمتين ملء فمه: «لماذا أتيتَ يا بيلي؟».

- لأعرف ما رأيك.

- بك؟ يا لك من وغد خسيس متمحور حول ذاته.

- أجل.

«لم أصدق. لقد أخبرني الرقيب في ليڤربول أنك أنت من فعلها، أقصد أنه ذكر اسمك. كان واقفًا على خصيتيَّ آنذاك، لذا بوسعك أن تتخيل، بدا لاسمك رنينٌ خاص. ولم أصدق رغم ذلك، لكنني كلما فكرت في الأمر أكثر قلتُ لنفسي: بلى». كان ماك يتحدث بتركيز، لكن دون مبالاة تقريبًا، كأنه لا يأبه إذا ما كان پراير مصغيًا أم لا. لعل الكلام من أساسه مجرد طريقة لتسكين كبريائه، لتشتيت انتباه پراير في أثناء سير عملية التهام الشوكولاتة شديدة الأهمية. «ثم قلتُ لنفسي: لقد أخبرك. أتتذكر حين سألتُك في عنبر الماشية عما كنتَ لتفعله إن عثرتَ على جنديٍّ فارٍّ من الخدمة في مطبخ هيتي فأجبت: «أُسلِّمه، ماذا عساي أفعل غير ذلك؟»؟ ثم تذكرتُ قصة سمعتُها، عن رجل عثر على أفعى نصف ميتة فتعهدها بالرعاية حتى عادت إلى الحياة. أطعمها واعتنى بها، ثم تركها تمضي، وحين التقيا في المرة التالية عضته. وكانت أفعى شديدة السُّمِّيَّة، لقد... عرف أنه سيموت. وقال مع آخر أنفاسه اللاهثة: «لكن لماذا؟ لقد أنقذتُكِ، وأطعمتُك، ورعيتُك. لماذا عضضتِني؟»، فأجابت الأفعى: «لكنك كنتَ تعلم أنني أفعى»».

صمتٌ طويل، ثم تحرك پراير أخيرًا: «قصة جيدة».

«إنها قصة مدهشة حبًا باللعنة، لكن...».

أمهله پراير: «لكن ماذا؟».

- هل أكون جشعًا وآكلها كلها؟

- لا تتردد، هذا ما كنت لأفعله لو أنني مكانك.

«أنا أكرهك أقل بكثير مما تظن على الأرجح. لستُ أقول إننا صديقان حميمان تمامًا، بل في الحقيقة لو أنني تعرفتُ عليك بعد الحرب لحاولتُ أن أقتلك غالبًا...»، ابتسم وهز رأسه: «هل كان ما قلتَه عن رغبتك في مساعدة بيتي محضَ كذب؟».

- كلا، كان صحيحًا بأكمله.

- أتعرف ما أوده؟ أود أن تنظر إلى عينيَّ وتتشدق بلكنة المدرسة العامة المزيفة خاصتك تلك وتقول: أجل، أنا الذي أخبرتُ الشرطة أين يعثرون عليك، ولا أشعر بالخجل من ذلك، هذا واجبي.

- لا أستطيع.

كان ماك يراقبه من كثب: «إذًا فلستُ أفهم، ظننتُ أنك توصلتَ أخيرًا إلى معرفة الجانب الذي تصطف فيه».

«لم يكن ثمة أي شكٍ في هذا على الإطلاق»، قال پراير وهو يرفع كُمَّه: «أنا في جانب الذين يرتدون هذا الزي، أيًا كانت درجة فخرهم به»، نهض واقفًا: «لن أقول إنني آسف».

رفع ماك رأسه ينظر إليه: «لا تفعل، الشوكولاتة أثمن من أن أستفرغها».

دق پراير الباب، وانتظر ظهور الحارس بفارغ الصبر. أدرك أن العين المرسومة تنظر -لا بد- إلى إبزيم حزامه مباشرةً، فأقحم إصبعه في الثقب خلسةً إلى أن لمس زجاجًا باردًا. تذكر أن عين تاورز، وهي في راحة يده، كانت دافئة.

ظهر الحارس، فألقى پراير نظرةً سريعة إلى الخلف وتبعه فوق بسطة الدرج الحديدية، ثم نزلا. عليه أن يعبر ما تبقى من نهاره قبل أن يتمكن من التكلم إلى ريڤرز، لكن هذا يسرُّه. صحيحٌ أنه يجدر بالمرء حملُ أول الارتباك

والألم وحده. لم يشك لحظة أن قصة ماك صحيحة، ليس لدى ماك سبب كي يكذب. ورغم أنه ما زال لا يتذكر أنه أقدم على ذلك، فهو خان ماك.

هو يتذكر أنه مد يده المرتجفة نحو ريفرز ذات مرة، وراح يتأتئ بكلام عديم الترابط عن عين تاورز، كيف تحولت ذكرى حمْله لها بيده إلى تميمةٍ تذكِّره أين تكمن أعمق الولاءات. لم يزل هذا صحيحًا، وهو مع ذلك لا يستطيع تبرير ما فعله بماك. حتى لو كانت ذاتُه الأخرى تكره ماك لرفضه القتال، لمحاولته تعطيل مصانع الذخيرة، يظل صحيحًا أنه من خلال ترتيبه للقاء ماك كان قد قدَّم له معبرًا آمنًا عمليًا... من أجل مصلحة بيتي. حتى إن وضع صداقة الطفولة جانبًا، ثمة تعهُّدٌ شخصيٌّ مُنِح في الحاضر، واؤتمن في الحاضر، وتعرض للخيانة في الحاضر. لا يمكنه -سواءً أكان من أجل إرضاء ماك أم مواساة نفسه- أن يقول: «لقد أديتُ واجبي». ما حدث كان أكثر قتامةً وتعقيدًا من ذلك في جملته.

ثمة تدريب يجري في الفناء الخارجيّ. صيحات مألوفة، خبطُ جِزَمٍ وانسحاق حصى، صفوفٌ من الأجساد المنظمة تتحرك كجسدٍ واحد. في الصف الأماميّ أحدُ معارضي الخدمة «يُقنَع» بالمشاركة، أي أنه يُحرَّك بالقوة ليتخذ وضعيةً، ثم يُنقَل إلى التي تليها بالطريقة نفسها. تمرين «المراوحة في المكان» يتألف من التعرض للركل على الكاحلين بالتناوب من قِبل الحراس، ولا أحد يحاول إخفاء ما يحدث، إذ يُفترض أن إقرار الأمر من قِبل ضابطٍ شيء بديهي.

تفرَّج پراير لبعض الوقت، ثم أشاح بوجهه.

31

هبَّ نسيمٌ منعشٌ على وجه بحيرة السربينتين، فعبث بالورد، وقطف منه بتلات حمراء وصفراء تناثرت فوق التربة الجافة وعلى المماشي. كان ريڤرز وساسون يتجولان قرب البحيرة لمدة لم تتجاوز خمس عشرة دقيقة، لكن التعب بدا ظاهرًا على ساسون بالفعل.

«إنني في حالة جيدة جدًّا»، قال: «في الأيام القليلة الأخيرة، أنهض من السرير وأرتدي ملابسي قبل الإفطار».

«جيد».

نور الشمس الأصفر اللزج المنحدر من بين الأشجار يلقي ظليهما على صفحة الماء.

«أتتذكر حين أخبرتُك عن ريتشارد داد؟»، سأل سيغفريد فجأةً: «أنه أغرق أباه في السربينتين؟».

«أجل»، أجاب ريڤرز، وانتظر المزيد. عندما لم يتكلم سيغفريد، سأله: «أينبغي لي أن أتشبث بإحدى الأشجار؟».

ابتسم سيغفريد: «لا، ليس أنت».

كانت كراسي الاستجمام قرب البحيرة شاغرة، والريح تنفخ قماشها، لكن على ضفةٍ مستترة يغمرها نور الشمس ثمة جنود في إجازتهم يجلسون أو يضطجعون حاضنين فتياتهم، وفساتين الفتيات الصيفية أشبه بضربات فرشاة زاهية الألوان بجوار أزيائهم الخاكية. ظهرت امرأةٌ ترتدي زيًّا أسود

على قمة المنحدر، وبدأت تشق طريقها المائل نزولًا. مع تقدمها مثل خنفساء سوداء تسعى بين العشب، تفارَق العشاق، وراحت فتاةٌ قريبة من الممشى تشد على حاشية تنورتها بقلق.

«لقد دخلتُ قاعة الجلوس»، قال سيغفريد: «أتعرف عما كان يدور الحديث؟ عن التغيرات التي يلاحظها المرء حين يعود في إجازة، وما إن كان أيٌّ منها نحو الأفضل. وأحدهم قال: أجل، كل مرة نعود فيها نجد تنانير النساء أقصر. أخشى أن ليس في هذا عزاءٌ يُذكَر بالنسبة *إليَّ*».

حبس ريڤرز تنهيدته. لقد بات الاكتئاب والمرارة الحالةَ المستقرة لدى سيغفريد. إن بدا في حال أفضل مما كان أول وصوله، فهذا يعود بشكل أساسيٍّ إلى كون إخفاء الاكتئاب -في حال لم يبلغ مرحلةً فتور الوعي- أسهل من إخفاء النشوة. إنه في الواقع مريض بشدة دون شك.

«لا بد أن أقول إنه سيسرني الخروج من لندن»، تابع سيغفريد كلامه: «هل سمعتَ أي خبر جديد عن دار التمريض تلك؟».

- أوه، أجل. بوسعهم أن يستقبلوك.

- هي... أنا آسف، نسيتُ موقعها الذي ذكرتَه.

- كولدستريم، قرب بيرويك أون تويد.

- وهل هي قريبة من سكاربورو؟ الأمر أن فرز أوين جاء في سكاربورو.

«ليست قريبة، لكنك تستطيع على الأرجح أن تذهب وتعود في اليوم نفسه»، تردد ريڤرز: «ثمة أمرٌ واحد أظن أنه... قد لا يروق لك. لا بد أن تمثل أمام لجنة طبية قبل ذلك».

«أجل».

بدت الحيرة في نبرة سيغفريد. هذه ليست أول مرة يدخل فيها إلى مستشفى؛ حادثة ركوب خيل خلال التدريب، حمى خنادق، إصابة، «صدمة قصف» في كريغلوكهارت، إصابة من جديد. إنه يحفظ الإجراءات الروتينية عن ظهر قلب.

«في كريغلوكهارت»، قال ريڤرز.

صمتٌ ذاهل. «لا. لماذا كريغلوكهارت؟».

«لأنك مريضي. لأنني أريد أن أكون في اللجنة».

لم يستطع سيغفريد استيعاب الأمر: «لا أستطيع أن أعود إلى هناك».

«أخشى أن عليك أن تفعل، لن يزيد الأمر على بضعة أيام يا سيغفريد».

هز سيغفريد رأسه: «لا أستطيع، أنت لا تعرف ما الذي تطلبه مني».

كان يوجد مقعد شاغر على بُعد بضع ياردات منهما، جلس ريڤرز وأشار إلى سيغفريد كي ينضم إليه: «قل لي، إذًا».

ساد صمتٌ اصطرعت خلاله دواخلُ ساسون بشكلٍ بادٍ للعيان.

«لماذا لا تستطيع؟»، حثَّه ريڤرز برفق.

«لأن هذا سيكون بمنزلة اعترافي أنني واحد منهم».

شعر ريڤرز بالغضب يتأجج فيه، لكنه أخضعه للسيطرة سريعًا: «واحد ممن؟».

ظل سيغفريد صامتًا، ثم قال أخيرًا: «تعرف قصدي».

«أجل، أخشى أني أعرف بالفعل. واحد من المنحطين، المجانين، المتهربين، الجبناء»، انتظر ردًا، لكن سيغفريد كان قد أشاح بوجهه: «أتعلم يا سيغفريد؟ أحيانًا... أوبخ نفسي لأنني مارستُ عليك تأثيرًا فادحًا، في وقتٍ كنتَ خلاله ضعيفًا سائغًا... وربما احتجتَ أن تُترَك بمفردك كي تتوصل إلى قرارك بطريقتك الخاصة»، هز ريڤرز رأسه: «حسنًا، لن أفعل *ذلك* من جديد. إن كنتَ ما تزال تفكر بهذه الطريقة، فهذا يعني أنني لم أؤثر فيك بتاتًا، لم أستطع أن أنقل إليك شيئًا، ولا أي شيء بحق اللعنة». رنا نحو البحيرة، وكانت الريح تحرك تموجاتٍ داكنة على صفحة الماء مثل قشعريرة تنتشر في الجلد: «لعل الأفضل أن نهم بالعودة».

- ليس بعد.

- عليك أن تعود إلى كريغلوكهارت. أنا آسف، سأجعل إقامتك هناك قصيرة قدر ما أستطيع، لكن عليك أن تذهب.

أومأ سيغفريد برأسه. كان يجلس مشابكًا يديه الكبيرتين بين ركبتيه. «حسنًا. لكنك تفهم ما أحاول أن أقوله، أليس كذلك؟ أنا *أعلم* أنك تجد كلامي

مهينًا، لكن... لن يكون هذا اعترافًا أنني واحد منهم *الآن* فقط، بل أنني كنتُ منهم طيلة الوقت. ألا تفهمني؟».

«بلى، وهذا هراء محض. ذات يوم سأعطيك نسخةً من تقرير قبولك. «ما من علامات جسدية أو عقلية لأي اضطراب عصبيٍّ». إن كنتَ تعذب نفسك بفكرة أن احتجاجك كان من أعراض حالةٍ ما، فكُف عن هذا حبًّا بالله، لأن الأمر ليس كذلك. احتجاجك كان استجابةً مسوغةً عاقلةً للوضع الذي نحن جميعًا فيه»، سكت قليلًا: «وهذا *خاطئ*، بالطبع».

- حين كنتُ في فرنسا، اعتدتُ أن أفكر في الأمر على أنه انهيار. كان ذلك أسهل من...

- من تذكُّر ما كنت تؤمن به؟

«أجل»، أطرق سيغفريد ينظر إلى يديه: «أما الآن بتُّ أشعر كأن فخًّا قد نُصِب لي وحسب»، ضحكة خفيضة: «ليس من قِبلك، لا أقصد أنك من نصبته. لكن ثمة فخٌّ نُصِب، أليس كذلك؟ إنها *دائرة مكتملة* من غير ريب. عودةٌ إلى البداية *حرفيًا*. غير أن الوضع أسوأ، لأنني صرتُ الآن أنتمي إلى هناك».

«ثلاثة أيام، أعدك».

نهض سيغفريد واقفًا: «حسنًا».

ظل ريڤرز جالسًا لحظة. أراد أن يقول: «إن كان ثمة فخ، فأنا واقعٌ فيه أيضًا»، لكنه لم يستطع. «هيا»، قال ناهضًا: «فلنعُد».

•

لقد نُظِّف الموقع المقصوف، كما رأى پراير. أُزيلت الأنقاض، وكُنِس العفر الأبيض عن الأرصفة، ودُعِّمَت المنازل على كلا جانبَي الفجوة. صفرت ريحٌ باردة تعبر الفجوة، معكرةً صفو الأشجار، حاملةً المخلفات في دوامات تجري بمحاذاة البواليع. الشمس تلمع على نوافذ المنازل المقابلة للفجوة، محوِّلةً الطرف القصي من الساحة إلى جدار ناريٍّ.

كان الوقت ما يزال مبكرًا على موعد پراير، فراح يمشي الهوينى، ملاحظًا ما لم يلاحظه خلال زيارته السابقة في أثناء سيره برفقة تشارلز مانينغ تحت ظلمة الربيع، أن للعديد من هذه المنازل الأنيقة أقبية مهلهَلة، مثل أسنان بيضاء مصفرة الأعناق عند اللثة.

ضغط زر جرس منزل مانينغ، ثم أعرض عن الباب قليلًا، متوقعًا أنه سينتظر، لكن الباب لم يلبث أن انفتح، ومانينغ نفسه هو الذي فتحه، بسرعةٍ يظن المرء معها أنه كان يحوم في الردهة. لعله بدا متلهفًا، غير أن ابتسامته وحركاته كلها كانت تعطي انطباعًا بالعفوية المتحررة من الشكليات.

«لا بأس، فتحتُ الباب»، قال موجهًا كلامه من فوق كتفه لشخصٍ ما، ثم تنحى مفسحًا المجال لدخول پراير: «يسرني أنك استطعت القدوم. خطر لي أن أنتظر حتى نعود إلى العمل كلانا، لكن...».

«لن أعود»، قال پراير بسرعة.

«آه».

كان باب غرفة المعيشة مفتوحًا، ولم يعد ثمة أغطية واقية من الغبار.

«أوه، أجل، تعال انظر»، قال مانينغ إذ انتبه إلى اتجاه نظرته.

دخلا، واستقبلتهما رائحةُ مُلمِّعِ أثاثٍ وورد.

«عثرتَ على بنّاءٍ إذًا»، قال پراير وهو ينظر إلى فوق الباب.

«أجل. لا بد أن أقول إنه لم يكن يبعث الكثير من الثقة، لكن يبدو أنه أبلى بلاءً حسنًا، إلى الحد الظاهر للعيان»، نقر مانينغ على الجدار: «لدي حدسٌ يقول إن ورق الجدران هو الذي يثبت الجص في مكانه».

ألفيا نفسيهما يحدقان أطول من اللازم إلى الموضع الذي كان فيه الصدع، فألقى واحدهما نظرة سريعة نحو الآخر، ولم يجدا ما يقولانه للحظة. «تعال واجلس»، قال مانينغ.

داخل المدفأة، حلَّت آنيةُ وردٍ أحمر وأصفر في الموضع الذي كانت تشغله جرائد مكرمشة غطاها السخام. ما من مرآةٍ كذلك، فهذه أزيلت هي الأخرى. لقد تغير ديكور الغرفة بأكملها، وكان التغيير كبيرًا إلى درجة أن قماش الأريكة المقصب القاسي بدا صادمًا. ثنى پراير كتفيه وراح يتذكر، كأن

الجسد يملك مخزن ذكريات بديلًا في نهايات الأعصاب، فالإحساس بوضعية الجلوس المتيبسة حفَّز حالةً من الوعي الحسيِّ. نظر إلى مانينغ، فأدرك أنه هو الآخر يتذكر.

«أترغب في شراب؟».

اتجه مانينغ نحو المنضدة الجانبية. وإذ انتبه پراير إلى كتابٍ مُلقى على وجهه فوق الأرضية قرب كرسيٍ بذراعين، ذهب إليه والتقطه. قضية *الملك* ضد پمبرتون بيلينغ. إنه النص الكامل للمحاكمة، من الغريب أن يقرأ مانينغ شيئًا كهذا. عاد مانينغ يحمل المشروب. «أهو جيد؟»، سأله پراير رافعًا الكتاب بيده.

«رائع»، أجاب مانينغ: «أدركتُ في أثناء قراءتي له ما... ما... ما حدث حـ... حقًا. كل الأمر أن الناس متخمون بالمآسي، وما عادوا قادرين على التجاوب معها ببساطة، لذا قرروا أن يؤدوا ما تبقى من الحرب على شكل مسرحية هزلية».

«لا أستطيع القول إني مستعد لبذل مال كثير مقابل هذا».

«لم أدفع شيئًا»، قال مانينغ وهو يتخذ مقعده: «الكتاب أُرسِل إليَّ، من قِبل «أحد المحِبين»».

رفع پراير حاجبيه: «حقًّا؟».

- أوه، أجل. لقد تلقيتُ العديد من... الرسائل الصغيرة.

- النقيب سپينسر جاء كي يقابلنا، لمعلوماتك.

- «يقابلنا»؟

«وحدة المخابرات. لا بد أن أحدًا أخبره -كما أظن- أن السؤال الأول الذي يُطرَح عليه في المحكمة هو ما إن كان قد بلّغ الجهات المناسبة حين اكتشف المؤامرة العظيمة، لذا انطلق يتنقل في أنحاء لندن مبلغًا هذه الجهات»، ضحك پراير.

«هل أتى على ذكر أي أسماء؟».

«رحماك يا إلهي، أجل»، رفع پراير رأسه فرصد القلق الذي اعترى تعبيرَ وجه مانينغ للحظة: «اسمك ليس بينها».

- كلا، لم يخطر لي ذلك، فأنا لستُ مهمًّا بما يكفي. روبرت روس؟

- أجل.

أومأ مانينغ برأسه: «تقول إنك لن تعود؟».

- ليس ثمة ما أعود من أجله. لقد ذهبتُ لأتفقد رفوف طاولة مكتبي، فـــ.. وجدتُها متروكةً مثل سفينة *ماري سيليست*[1]، اختفت الملفات، واختفى لود.

- إنه...

- يدرب الطلبة العسكريين، في ويلز. لا شك أن هذا يسرُّه.

- لماذا؟ أهو ويلزي؟

- كان تعليقي تهكميًا، لا أظن الأمر يسرُّه بأي شكل. أما سپراغ، لا أدري إن كنتَ...

- المُخبر؟

- صحيح، لقد ذهب -أو يهم بالذهاب، لستُ متأكدًا- إلى جنوب إفريقيا. رحلة مدفوعة *التكاليف*.

تردد مانينغ: «أنا... لا أظن أنه ينبغي لك أن تشعر أن لا شيء مفيدًا نتج عن ذلك. لقد أطلعتُ إيدي مارش على تقريرك و... نال إعجابه في الحقيقة، كما نال إعجابي أنا. رأى أنه... يطرح حججًا مقنعة للغاية، وأنه فعال جدًّا».

«ربما كان مُقنِع الحجة، لكنه ليس *فعالًا* بالتأكيد، فهي ما تزال في السجن».

ابتسم مانينغ: «الفكرة أن...».

فُتِحت النافذة الفرنسية بعنف، وأطلَّ منها طفلٌ ممتلئ الخدين يرمش بعينيه ناظرًا إلى داخل الغرفة المظلمة: «بابا؟».

«ليس الآن يا روبرت»، قال مانينغ مستديرًا: «اطلب ما تريده من إيلسي».

---

(1) ماري سيليست: سفينة تجارية أمريكية عُثِر عليها مهجورةً في المحيط الأطلسي قرب جزر الأزور عام 1872، ولم يُعرَف شيء عن طاقمها منذ ذلك الوقت. (المترجم)

لانَت قسماتُ وجه مانينغ وهو يشاهد الطفل يغلق الباب خلفه بحذر. كانت بهجتُه ببيته وعائلته واضحةً إلى حدٍّ بدا معه التساؤل عما إذا كان يحن إلى الغرف الخاوية في أول الربيع وروائح السخام والجص المتساقط ووقْع الأقدام الذي تبعه آنذاك إلى غرفة نوم الخادمات في الأعلى أمرًا فظًا.

«الفكرة أن القدرة على تنظيم مجموعة من الحقائق المعقدة وتقديمها بصيغة مختصرة مفيدة هي مهارة نادرة إلى حد بعيد، وهذا هو تمامًا ما نبحث عنه في مجال عملي».

- والذي هو...
- الصحة والسلامة. دعنا نتجاوز المقدمات، أنا أعرض عليك عملًا.
- آه.
- أظنك قد تجده جديرًا بالاهتمام، بما أنه يتعلق بحماية مصالح العمال بشكل أساسيٍّ.

لم يكن پراير في عجلة من أمره كي يجيب. لقد أذعن -وليس على مضضٍ بالكامل- للعودة إلى سكاربورو، واستئناف حياة معسكرات الجيش المضنية المملة في إنجلترا. وهو، في الوقت نفسه، يعلم أن الكثير من الرجال سيضحّون بذراعٍ أو ساقٍ من أجل الحصول على عرض مانينغ هذا، وهذا ليس تعبيرًا فارغًا من المعنى كما يُستخدم عادةً. «هل يقف ريڤرز وراء هذا؟».

«كلا».

پراير ليس واثقًا إن كان يصدقه: «أنا ممتن للغاية يا تشارلز، لا يخطرنَّ لك أنني لا أقدِّر هذا، لكنني أخشى أنني لن أستطيع القبول».

- لمَ لا؟
- بسبب سارا، صاحبتي. إنها تقيم في الشمال، وسأستطيع أن أراها كثيرًا إن كنتُ في سكاربورو، هذا عاملٌ يساهم مساهمةً كبيرة في قراري. إضافةً إلى أنني... لستُ واثقًا كم أريد وظيفة هينة.

تردد مانينغ: «للأمر ميزة كبيرة جدًّا، وهو أن احتمال إعادة إرسالك إلى فرنسا سيكون ضئيلًا للغاية. رغم أنني لا أظن ذلك محتملًا جدًّا على أي حال».

- أوه، لستُ أدري.

- ما هو تقييمك؟

- A4.

- هذا متدنٍّ جدًّا.

- إضافةً إلى أنني سأمثل أمام لجنة في غضون أسبوعين.

- لن يسمح ريڤرز بحدوث هذا.

- ليس لريڤرز علاقة بالأمر، لقد حصلتُ على تقييمي البدني بناءً على إصابتي بالربو.

- لكنه سيكتب إلى اللجنة إن طلبتَ منه.

- أعرف. في الحقيقة، أظن أن بوسع ريڤرز الاستفاضة في موضوع عدم أهليتي لفرنسا. الفكرة أن ذلك لن يُطلَب منه.

- وكيف حالك حقًّا؟

- أفضل بكثير.

أخذ مانينغ يعبث بنظارته: «ماذا كانت المشكلة بالضبط؟».

ابتسم براير، وظل صامتًا مدةً تكفي كي يشعر مانينغ بالإحراج من سؤاله المتطفل، ثم أجاب: «زلات في الذاكرة، بل فترات مطموسة كما أعتقد. لكن يبدو أنني تجاوزتُ الأمر فعلًا».

«وهل بت تعرف ماذا فعلتَ خلال تلك الفترات؟».

«أجل»، ابتسم براير من جديد: «لم أفعل شيئًا ليس لدي استعداد مسبق لفعله».

أدرك مانينغ أنه يُبدي فضولًا يكاد يكون غير لائق، فصحح تعبيرَ وجهه بسرعة.

«ماذا عنك؟»، قال براير.

- إنني أتحسن. كان عملًا أصعب بكثير مما ظننت.

- ريڤرز؟ أوه، أجل.

- أقصد أنه مستبد، لا يرحم، وليس للمرء أن يتذمر، فهو حتى يعامل نفسه بقسوةٍ أكبر.

تبادلا نظرة استطراف وتعاطف مشترك، ثم قال مانينغ: «كلامك يكاد يوحي أنك تريد العودة».

- أجل، أظن أنني أريد ذلك بطريقة أو بأخرى. هذا غريب، أليس كذلك؟ فرغم كل شيء، أقصد رغم عدم إيماني بالحرب وعدم ثقتي بجنرالاتنا وما إلى هنالك، ما زال ميدان القتال يبدو المكان *النظيف* الوحيد الذي يمكن للمرء أن يوجد فيه.

- أجل. *هذا* صحيح وحق الله.

راح واحدهما يحدق إلى الآخر، مدركَين أن التفاهم بينهما يبلغ عمقًا ليس من شأن الوقائع السطحية لعلاقتهما أن تشرحه.

«أخشى أن هذا ليس خيارًا بالنسبة إليَّ»، أردف مانينغ وهو يفرد ساقه: «لكنني أفهم قصدك فعلًا».

- أتظن أننا مجنونان؟

- كلانا كان في مستشفى المجانين.

- الأفضل لك ألا يسمعك ريفرز تستخدم هذه التسمية.

«ما كنتُ لأجرؤ. العرض قائم لبضعة أيام كما تعلم»، قال مانينغ وهو يضع نظارته من يده: «فلن أرى مارش قبل...».

ابتسم براير وهز رأسه: «كلا. شكرًا لك، لكن لا».

«ألا تظن أنك قد تندم؟».

ضحك براير: «تشارلز، إن أعيد إرسالي -إن، إن، إن، إن- سأتذكر هذا الأصيل وأنا جالس في مخبأ خندقي، وأقول لنفسي: «يا لك من أحمق لعين»».

«حسنًا»، قال مانينغ ناهضًا: «لقد حاولت».

في الردهة، جاءت خادمةٌ تحمل قبعة براير وعصاه، فألقى نظرةً نحوها. كانت شاحبة البشرة، في منتصف عمرها، تقارب سن والدته كما رأى. حدق إلى زيِّها، متذكرًا كيف دفن وجهه في موضع الإبط وتنشَّق الرائحة الحزينة

المضناة بالهموم. كان مانينغ يقول شيئًا، لكنه لم يسمعه. التفت نحوه وقال: «الآن إذ أعيد التفكير، بلى، أتذكر أن سبينسر ذكر أسماء أخرى».

قال مانينغ بدماثة: «شكرًا لك يا أليس، سأرافق السيد پراير إلى الباب».

«ونستون تشرشل وإدوارد مارش».

ندَّ عن مانينغ هتافٌ مشدوه: «*تشرشل؟*».

- أجل.

- إذًا فهو مجنون بالفعل.

«أجل، هذا ما قلتُه لنفسي»، سار پراير نحو الباب، ثم توقف: «قال إن تشرشل ومارش أمضيا أصيلًا كاملًا وهما يتبادلان الضرب على المؤخرة بعصا من القش المجدول».

- أجل.

- ماذا تقصد بـ «أجل»؟

- تشرشل كان وزيرَ الداخلية آنذاك.

- أوه، حسنًا، هذا يفسر كل شيء.

«كان نوعًا جديدًا من العصي»، بدا مانينغ نافد الصبر: «لا أعرف التفاصيل، لقد ساد شيءٌ من الجدل بخصوصه. أظن أن الناس كانوا يصفون هذه العصي بالوحشية، لذا بطبيعة *الحال*...».

«جرباها على بعضهما».

«أجل»، خشنت تعابير وجه مانينغ: «كانا يؤديان واجبهما».

- وما النتيجة التي توصلا إليها؟

- أظن أن كليهما اعتقد أنه تعرض لضرب أقسى في المدرسة.

أومأ پراير برأسه، ونظر حوله كي يتأكد من عدم وجود من يراقبهما، ثم أمسك خدَي مانينغ الممتلئين وربت عليهما. «سيظل ثمة إنجلترا دائمًا»، قال له، وانطلق ينزل على درجات المدخل ضاحكًا.

ملاحظات الكاتبة

قد يجد القارئ فائدةً في الاطلاع على موجز للأحداث التاريخية الواقعة بين عامَي 1917 و1918، التي بُنِيَت هذه الرواية عليها.

تستند قصة بيتي روپر -بتصرُّف- على «مؤامرة السم» التي حدثت عام 1917. لقد اتُّهِمت أليس ويلدون (تاجرة ملابس مستعملة كانت تعيش في الشوارع الخلفية لمدينة ديربي) وأُدِينت بالتآمر لقتل لويد جورج وآرثر هندرسون وأشخاص آخرين بالتسميم، والأداة التي كان من المقرر استخدامها في حالة لويد جورج هي سهم نفخٍ ذو رأسٍ مسمومٍ بالكورار. شهاداتُ المحاكمة الخطيةُ موجودة في مكتب السجل العام الواقع في شارع تشانسري لين، وهي تقدم صورةً مذهلة عن حياة مناصري السلام المطلق الفارِّين من العدالة وعملاء وزارة الذخيرة الذين كانوا يتجسسون عليهم. أُدِينت السيدة ويلدون بناءً على أدلةٍ ضعيفة قدّمها أمثال هؤلاء المخبرين وحُكِم عليها بعشر سنوات من الأشغال الشاقة، رغم إصرارها على أنها كانت تنوي استخدام السم الذي في حوزتها لقتل كلاب الحراسة في أحد مراكز الاعتقال. أُفرِج عنها بعد الحرب، لكنها تُوفيت عام 1919 متأثرةً بالنظام الغذائيِّ للسجن والأشغال الشاقة وإضراباتها المتكررة عن الطعام.

يضم كتابُ «أصدقاء أليس ويلدون» لِـ «شيلا روبوتهام» (پلوتو پريس، 1986) مقالة مفيدة تحمل عنوان «الشبكات الثورية في الحرب العالمية الأولى».

في يناير 1918، نُشِرت في صحيفة *ذي إمپرياليست* (التي حملت في ما بعد اسم ڤيجيلانتي)، وهي صحيفة كان عضوُ البرلمان نويل پمبرتون بيلينغ مالكَها ومحررَها، مقالةٌ تحت عنوان «الـ47,000 الأوائل». ادُّعِيَ أنها كُتِبت بقلم پمبرتون بيلينغ شخصيًّا، لكن كاتبها الحقيقي كان النقيب هارولد سپينسر، الذي زعم أنه كان عنصرًا في المخابرات البريطانية حين رأى الكتاب الأسود وقرأه في *الغرفة السوداء* الخاصة بـ «أحد الأمراء الألمان».

في أبريل، أردفت هذه المقالةَ مادةٌ قصيرة عُنوِنَت بـ «طائفة البظر»، وكذلك ادُّعِيَ أن پمبرتون بيلينغ مَن كتبها هي الأخرى، وأيضًا كان هارولد سپينسر هو الكاتب. أشارت هذه المادة إلى أن قائمة حضور عرضٍ خاصٍ أقيم لمسرحية «سالومي» لأوسكار وايلد قد تضم أسماء كثيرة من بين الـ47,000. قاضت مود آلان -التي عُهِد إليها بأداء دور سالومي الراقص- پمبرتون بيلينغ بتهمة التشهير، إذ تطرقت المادةُ بشكلٍ واضح إلى ميولها.

ترأس اللورد دارلينغ القضاء في هذه المحاكمة، وتولى پمبرتون بيلينغ الدفاع عن نفسه. ولأن اسم دارلينغ ورد خلال الإجراءات المبكرة ضمن أسماء الـ47,000، فقد خرجت قاعةُ المحكمة عن سيطرته.

لمع نجمُ هارولد سپينسر بين شهود الدفاع. وبالإضافة إلى إطلاقه العنان لهوسه بالنساء ذوات البظور المتضخمة المَؤُوفة التي تجعل فحول الفيلة الكائناتِ الوحيدة القادرة على إشباعهن، زعم أن العديد من أعضاء مجلس وزراء حرب أسكويث الائتلافي كانوا يعملون لصالح الألمان، وأن مود آلان عشيقة زوجة أسكويث وعميلة ألمانية، وأن الكثير من الضباط ذوي الرتب الرفيعة في الجيش البريطانيِّ ألمان، وأن الأشخاص الذين يمتلكون الشجاعة والوطنية الكافيتين للإشارة إلى هذه الحقائق كانوا يُترَكون على جُزر قاحلة يضطرون فيها إلى الاعتماد على مؤن الطوارئ الغذائية من الغواصات ليقيموا أودهم.

كما انتهز اللورد ألفريد دوغلاس، الذي كان من بين شهود الدفاع هو الآخر، الفرصةَ لتصفية نزاعه الشخصيِّ مع روبرت روس (صديق أوسكار وايلد المخلص، والوصي على أعماله الأدبية) إذ وصفه بـ «قائد كل الشواذ في لندن».

وبعد ستة أيام متواصلة من الفوضى التي سادت في قاعة المحكمة والهستيريا التي ملأت الصحف، فاز پمبرتون بيلينغ بالقضية وحُمِل وسط الهتافات على أكتاف الجموع المحتشدة خارج أولد بيلي.

في وقت لاحق من ذلك العام، أُعلِن رسميًا عن إصابة هارولد سپينسر بالجنون.

توفي روبرت روس بالسكتة القلبية في الخامس من أكتوبر، عن تسعة وأربعين عامًا.

وعاش پمبرتون بيلينغ ليحظى بمسيرة برلمانية مرموقة.

في عام 1917، بعد احتجاج سيغفريد ساسون (1886-1967) على الحرب، أقنعه صديقُه روبرت غريڤز أن يقبل المثول أمام لجنة طبية، فقررت اللجنة أنه يعاني انهيارًا عقليًا وأوصت بإرساله إلى مستشفى كريغلوكهارت الحربيِّ في إدنبرة. وهناك تولى ملفَه الدكتور و. هـ. ر. ريڤرز (1864-1922)، الحائز على زمالة الجمعية الملكية، طبيب الأمراض العصبية وعالم الأنثروبولوجيا الاجتماعية المرموق. في كريغلوكهارت، توصل ساسون إلى نتيجةٍ مفادُها أن من واجبه -رغم عدم تغير آرائه المتعلقة بالحرب- العودة إلى الخدمة الفعلية، حيث يتسنى له على الأقل أن يشارك رجالَه معاناتهم.

بعد قضائه فترةً في فلسطين، رجع إلى فرنسا في التاسع من مايو عام 1918. وفي أثناء عودته متأخرًا من إحدى جولات الخفر في الثالث عشر من يوليو، تعرض لإصابة في فروة الرأس جراء عيار ناريٍّ أطلقه أحد ضباط صفه، وأعيد حينئذٍ إلى إنجلترا، إلى مستشفى الصليب الأحمر النسائي الأمريكي في لانكستر غيت. وقد وردت حقيقةُ أنه كان مريضًا بما يكفي ليجد ريڤرز ضرورةً للسهر على العناية به ضمن رسالة من كاثرين ريڤرز إلى روث هيد (رسائل عائلة ريڤرز غير المنشورة، متحف الحرب الإمبراطوري).

يرد ذكر إخلاص ونستون تشرشل وإدوارد مارش لواجبهما خلال عملهما في وزارة الداخلية ضمن كتاب «إدوارد مارش، راعي الفنون: سيرة» لـ «كريستوفر هاسال» (لونغمانز، 1959).

مكتبة
١١١

ترجمة: علاء عودة

PAT BARKER

بات باركر

THE GHOST ROAD

طريق الأشباح

الرواية الحائزة على جائزة البوكر لعام ١٩٩٥





الكتاب الأخير من ثلاثية "التجدد"، والحائز على جائزة البوكر لعام ١٩٩٥،
"طريق الأشباح" هي رائعة بات باركر التي تبلغ فيها ذروة ثلاثيتها الروائية
المتصاعدة عن الحرب العالمية الأولى. تدور أحداث الرواية في الأشهر
الأخيرة من أعتى نزاعات العصر الحديث وأكثرها همجية. في فرنسا،
انخرط ملايين الرجال في حرب خنادق وحشية، وهم كلهم "أشباح قيد
التحضير". وفي إنجلترا، يعالج الطبيب النفسي ويليام ريڤرز -الذي يعاني
وخزات ضمير حادة- ضحايا الحرب المتضررين نفسيًا ليعيد تأهيلهم بما
يكفي كي يستأنفوا القتال. يقرر أحد هؤلاء الضحايا، وهو بيلي براير،
الفتى الشجاع الساخر الذي رُفّع من الطبقة العاملة إلى طبقة الضباط،
أن يعود إلى فرنسا برفقة زميله الضابط، الشاعر ويلفريد أوين، كي يقاتل
في حرب ما عاد يؤمن بها.

وفي هذه الأثناء، يصاب ريڤرز بالإنفلونزا وتنال منه الحمى، فيرجع في
ذاكرته إلى التجارب التي خاضها في أثناء دراسته لقبيلة من جنوب
المحيط الهادئ تعيش في ظل أعراف أسست لها ثقافة موت. وبين
ضفتي مجتمعه ومجتمع هذه القبيلة، يبدأ ريڤرز بتشكيل روابط تلقي
ضوءًا جديدًا على فهمه -وفهمنا- للحرب.

تجمع صفحاتُ هذا الكتاب بين التكثيف الشّعري والواقعية الجريئة،
مازجةً الدعابة اللاذعة بالدراما التراجيدية، لتتحرك نحو خاتمة حتمية
وشديدة الوطأة في آنٍ معًا. "طريق الأشباح" روايةٌ تحيط بالتاريخ وتتجاوزه،
ما يجعلها تحفةً أدبيةً معاصرة.

تصميم الغلاف:
عبد الرحمن الصواف









contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

"طريق الأشباح رواية جيدة على نحو مروّع... تشكّل مع جزأي الثلاثية الآخرين واحدًا من أغنى الأعمال الروائية في يومنا وأبعثها على الرضا. متشابكة الحبكة، مكتوبة بأسلوب جميل، أحداثها تتداخل بمهارة، رقيقة، مروّعة ومضحكة، تظل حيّة في المخيلة، مثل الحرب التي تسبر أغوارها بتصوير مجازي خصب وذكاء عالٍ".

– بيتر باركر، الملحق الأدبي لصحيفة The Times

"إنجاز بارز لروائية تستحق التقدير لما تتمتع به من مزايا نادرة تتجلى في رحابتها الفكرية وفهمها التصويري".

– بول بيلي، Daily Telegraph

"في كتابة باركر شهوانية ضارية... تصويرها لبراير لا ينسى: مرعب ومرغوب... وفي حين تعتمد الرواية على عواطف الحرب الحبيسة لخلق أجوائها المتوترة، تتيح كذلك فسحة للضحك والأسى لدى القارئ. لقد جرت الدموع على وجنتيّ مع نهايتها".

– كيت كيلاواي، The Observer

"هذه الرواية عرض استثنائي للمهارة، وتستحق أن تكون روايتها الأكثر مقروئية حتى الآن... أنا موقن أن الثلاثية ستلقى التقدير بوصفها واحدة من تحف الرواية البريطانية الحقيقية القليلة في نهايات القرن العشرين".

– جوناثان كو

"كاتبة جريئة وحكيمة، القراءة لها متعة".

– أ. س. بيات، Daily Telegraph، قائمة أفضل الكتب السنوية



لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
The Ghost Road – The Regeneration Trilogy 3
- العنوان العربي:
طريقُ الأشباح – ثلاثيّة التّجدُّد 3
- طُبع بواسطة: Viking Books

- ترجمة: علاء عودة
- تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: فبراير/ 2023م
- رقم الإيداع: 1875/2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6902-91-6






طريق
الأشباح


عصير
الكتب

إلى ديڤيد

والآن، كل الطرق تؤدي إلى فرنسا،
وثقيلٌ هو خطو الأحياء،
لكنَّ الموتى العائدين
بخفةٍ يرقصون.

- «طُرُق»، إدوارد توماس

القسم الأول

1

فوق كراسي الاستجمام المصفوفة على طول الواجهة، رُكَبُ رجال أعمال برادفورد الورديةُ المَرداءُ تتمرغ في الشمس.

اتكأ بيلي پراير على السور البحريّ، وكانت تحته بعشرة أقدام أو اثني عشر عائلةٌ تجمع أغراضها استعدادًا لرحلة العودة إلى البنسيون أو محطة القطار: امرأة بدينة في منتصف عمرها قدماها متورمتان تطفحان من تحت حذائها ذي السيور، ورَجل ذو صلعة بلون الكركند -رباه، كم سيندم على هذا غدًا- وطفل صغير تنشف امرأةٌ شابة له جسمه بمنشفة. راحت دندوشةُ الصبي الصغيرةُ تتمايل، إذ وقف يولول مشرعًا فمه من الألم: «مااااما». الرمل المبتل هو المشكلة، ولطالما كان كذلك، حسبما يتذكر پراير. مهما بلغ حذرك وأنت ترجع على رؤوس أصابعك بعد آخر جولةٍ من البطبطة في الماء، سيكسو الرمل ساقيك من جديد، والمنشفة مؤلمة دائمًا.

تلوى الولد فصفعته أمه بقوة، تاركةً آثارًا حمراء على ردفيه الممتلئين. كَفَّ عن الصراخ وقد أخمدته الصدمة، ثم استقر على نقنقة ثابتة. احتجَّت المرأة الأكبر سنًّا: «هيه يا لُوِي، لا حاجة إلى هذا»، انتزعت المنشفة منها وأردفت: «هاتي، أعطيني إياها، كم أنتِ عديمة الصبر».

انسحبت الفتاة (لكنها ليست بفتاة، بل امرأة ربما في الخامسة أو السادسة والعشرين) ممتعضةً إنما تشعر بالراحة في الوقت نفسه. إن مشكلتها واضحة للعيان: متزوجة، لكن الحرب -إما عن طريق ترميلها وإما إبعاد زوجها ببساطة- قد أنزلتها إلى موضع الخضوع للوصاية في بيت

أمها، وأي جدوى بعد ذلك؟ سائل ساخن يسيل على فخذها، شهورُ الثقَل، الطفل يولد مع دفقة من الدم... إن كان كل هذا لا يخول المرء منزلةَ امرأةٍ واستقلاليتَها، فما الذي عساه يفعل؟ أوه، ولا بد أنها محبَطة كذلك. العودة إلى سريرها المفرد القديم، أو ربما سرير مزدوج مع الولد، والاستماع إلى الشخير والصرير والضراط القادم من سرير والديها على الجانب الآخر من الجدار. أخذت تنقب في حقيبة يدها، وأخرجت تذاكرَ حافلةٍ ومشطًا ومحفظةَ نقود لتصل أخيرًا إلى علبة سجائر وودباين، ثم تركت اللفافة تتدلى رطبةً من شفتها السفلية ريثما تتلمس الطريق إلى أعواد الثقاب. شفتاها مكتنزتان، لونهما ورديٌّ سلمونيٌّ شاحب في الوسط يدكن إلى الأحمر البُنيّ عند الحواف. ألقت نظرة إلى الأعلى، فضبطته ينظر إليها وتوردت وجنتاها، ليس من الحبور، إذ إن شهوته صارخةٌ أكثر من أن تُشعِرها بالإطراء، لكن النظرة أرجعتها مع ذلك إلى ذكرى صباها الخَلِيّ السلِس.

كانت أمها تساعد الولد على ارتداء سرواله الداخليّ، ويدُه ذات الغمازات مستلقية مثل نجمة بحر على كتفها العريضة. لفت وهجُ عود الثقاب انتباهها، فهتفت منفعلة: «حبًّا بالله يا لوي، ليتك ترين كم تبدين مثل العوام...».

تحديقة لوي لم تتزحزح. استدارت أمها وضيقت عينيها تنظر في الشمس، فرأت الصورة الظلية المميزة التي تقول «ضابط». «ابحثوا عن الرُكَب النحيلة»، هذا ما يقال للقناصة الألمان، لكن ما يرونه فريسةً رأته هذه المرأة مفترسًا. لو أنه مجند لسألَته إلى ماذا يظن نفسه يحدق فاغرًا فاه بحق الجحيم، لكن الذي حدث هو أنها قالت: «يا له من جو لطيف يا سيدي».

ابتسم براير مستطرفًا، وقد ميز لهجة أمه، لهجة التأنق المتكلف لدى الطبقة العاملة. «فلنأمل أن يدوم طويلًا».

لمس قبعته وانسحب، يفكر وهو يبتعد على مهله أن الفتاة ليست أرملة ولا متزوجة؛ تصدُّعُ صوت أمها من الذعر لدى لفظها كلمة «العوام» شرحَ كل شيء. من الواضح أن رُكبتَي لوي لا تعرفان كيف تنطبقان، حتى بعد الطفل. وأمها محقة تمامًا، فقد بدت مثل العوام فعلًا بتلك اللفافة المقحمة في فمها. بدت مثلهم على نحوٍ متألقٍ فتاكٍ *قابلٍ للمضاجعة*.

يجدر به أن يعود إلى الثكنة. لقد تبقّى على موعد فحصه الطبيِّ أقل من ساعة، ولن يكون لصالحه أن يصل لاهثًا بالطبع. لا يحق له أن يتمشى على الواجهة البحرية ويتفرج على الفتيات، غير أنه تفرج على كل حال، مختزِنًا من الزغب الذهبيِّ لذراعٍ عارية هنا، والظلَّ ذي المسحة الزرقاء بين نهدين يضكهما مِشَدٌ هناك، متنشقًا رائحة الخزامى يشحذها العَرق.

اجتذبه دويُّ الموسيقى داخل أرض المعارض إلى الوقوف عند المدخل. حتى الآن، لم يرَ اليوم شبانًا إلا وكانوا متهندمين بالزي، لكن هنا رجال شبان في مثل سنه يرتدون ملابس مدنية. عمال ذخيرة، أحدهم يدردش مع فتاة شابة لبشرتها لون أصفر ساطع. أحس بالكُدرة تبدأ تدفُّقَها الأوتوماتيكيَّ إلى مزاجه، فأشاح بوجهه وأرغم نفسه أن يتأمل رُقع العشب المتفرقة. استدارت نحوه طفلةٌ تمسك عود غزل بنات وأخذت تراقبه، إذ لفتها الرجل الواقف بهذا الثبات وسط الهرج والمرج. رآها تنظر إليه فابتسم، وتذكَّر الحلاوة الناعمة نعومةَ القطن المندوف للحلوى التي تتحول إلى خثرة تلتصق بسقف الحلق. ارتدعت الطفلة وأدارت وجهها، متشبثةً بتنورة أمها. تصرفٌ حكيم جدًا.

فيما تابع مسيره، تلاشت ابتسامته. كان يمكنه هو أن يكون عامل ذخيرة -راح يفكر- في منأى عن الخطر، يحشو جيوبه مالًا. كان أبوه ليدبر له مكانًا في وظيفة لطيفة آمنة منتقاة، دون حتى أن يحتقره جراء ذلك، على عكس الكثير من الآباء. كان القزم الصغير الهزيل ليتصرف مثل قزم صغير هزيل واعٍ على الأقل، فيرفض القتال في «حرب الزعماء». بيد أنه لم يأخذ فعل ذلك على محمل الجد قط.

لمَ لا؟ راح يتساءل الآن. لأنني لا أريد أن أكون واحدًا منهم، قال لنفسه، متذكرًا يدَ عامل ذخيرة وهي تربت على مؤخرة فتاة في أثناء مساعدته لها على ركوب لعبة القارب المتأرجح. ليس الواجب، ولا الوطنية، ولا الخوف مما قد يفكر فيه الآخرون، لا شيء من ذلك قطعًا. كلا، بل هو نوع من... الارتفاع الزائد في معاييره. ذات مرة في طفولته، دسَّ قطعًا ممضوغة من لحم الضأن المُدهِن في جيب بنطاله، لأنه لم يستطع حمل نفسه على ابتلاعها، وحين انكشفت الجريمة قال والده بنبرة اشمئزاز رنان: «هذا الولد أصعب إرضاءً من أن يعيش». أصعب إرضاءً من أن يعيش، فكر پراير. ها أنت ذا، أبعد ما تكون

عن فرنسا ولديك عبارة جاهزة لتُنقَش على شاهدة قبرك. أبهجته الفكرةُ أيما إبهاج.

إنه الآن يسير على الطريق الصاعد نحو الثكنة، صعود يتقبض له الصدر، لكنه يتدبر أموره على نحوٍ حَسن. بات وضع الربو لديه جيدًا في الوقت الحاليّ، أفضل مما كان طيلة شهور. ومع ذلك، ربما لا ضير من الجلوس بهدوء في مكانٍ ما بضع دقائق قبل دخوله غرفة المعاينة. ففي نهاية المطاف، كل ما يستطيع فعله هو أن يمثُل أمامهم في حالة معقولة، ويجيب عن الأسئلة بصراحة (أو على الأقل لا يقدم أكاذيب يُحتمل أن تُكشَف). القرار سيُتّخذ من قِبل أشخاص آخرين، هذا ما يحدث على الدوام.

إلا أنه قد تمكن من اتخاذ قرار *واحد* بنفسه.

تحولت أفكاره نحو تشارلز مانينغ وآخر أمسية أمضياها معًا في لندن.

- *هل توقفتَ لتفكر ماذا سيحدث إن لم يُرجعوك؟* هكذا سأله مانينغ. *ستة أشهر، على الأقل ستة أشهر، وربما حتى نهاية الحرب، سوف تقضي كل ذلك الوقت في التأكد من أن المجندين الجدد يغسلون ما بين أصابع أقدامهم.*

- *لعل هذا لا يخلو من لحظاتٍ لطيفة.*

- *ستتولى مئة عملٍ وعملًا روتينيًا بالكامل، وجميعها يمكن أن تُنجَز بالجودة نفسها على يد شخص آخر. العمل في الوزارة أفضل لك بكثير. لا أستطيع أن أعدك بإبقاء الوظيفة شاغرة.*

- *كلا، شكرًا لك يا تشارلز.*

كلا، شكرًا لك. ها هو يمر بفندق كلارنس غاردنز، حيث جاء فرزُه لفترة قصيرة الشتاء الماضي قبل قدوم الاستدعاء إلى لندن. كان ثمة وفرة من الأعمال الروتينية. لقد وصل هو وأوين –زميله في الجنون– في اليوم نفسه، وكلاهما لم يُستقبل بالترحاب من قِبل الضابط الآمر. أوكِلت إليهما «مهام خفيفة». أصبح برايز مَرْمَطُونًا إداريًا، يعمل على تبويب نظام حفظ الملفات الغارق في الفوضى لدى الكتيبة. وكان نصيب أوين أسوأ حتى، إذ تولى ملاحقة عاملات التنظيف، وطلبَ الخضروات، والنظرَ داخل مقاعد المراحيض

بحثًا عن بقعٍ تخالف أعراف الحياة العسكرية. لقد سامَهُما ميتشل عذاباتِ جهنم. كان پراير يتعرض له في الصباح حين يكون بكامل وضاعته، أما أوين فيقابله مساءً وقد ليَّنَ البراندي طباعَه بعض الشيء.

- *ماذا تتوقع؟* قال پراير عندما تذمر أوين. *لقد فقد ابنين اثنين، ومَن يا تُرى ظهر أمامه بدلًا منهما؟* مخنثان لا يكفان عن *الارتعاش قادمان من مستشفى مجانين في اسكتلندا.*

قابله أوين بالصمت.

- *هذا هو رأيه، لمعلوماتك.*

لدى بلوغه مدخل الثكنة، اعترضته فرقةُ رجالٍ يرتدون قمصانًا بلا أكمام وسراويل قصيرةً عائدين من جولة عَدْوٍ ريفيٍّ، فتنحى ليسمح لهم بالمرور. أفخاذ عارية ملطخة بالوحل، بخار متصاعد من صدور تتفصد عرقًا، أعين ساهية، أفواه مرتخية. ومع مرورهم قربه وهم يدكون الأرض بأقدامهم لاهثين، انتبه إلى أوين في مقدمة الرتل يلتفت ليلوح بيده.

«يا ألطاف السماء»، قال ميذر لما نزع پراير قميصه: «لستَ تتمرن في الخارج كثيرًا، أليس كذلك؟».

«كنتُ أعمل في وزارة الذخيرة».

كان ميذر داهيةً في منتصف العمر، ذا خدين مجعدين، وشعرٍ بلون الرمل.

«حسنًا، أنزِلْ سروالك وانحنِ».

إنهم يتوجهون إلى المؤخرة دائمًا، فكر پراير وهو ينفذ ما طُلِب منه. الجيوش تزحف على مَعِداتها، وتعرج على بواسيرها. أحس بالأصابع المكسوة بالقفاز على ردفيه، تُباعد بينهما، وقال في قرارته: ثمة رجال أفضل منك دفعوا ثمن هذا.

«أرى أنك تعاني من الربو».

هناك؟ «أجل، سيدي».

«استدِر».

بادرة حميمية أخرى دون مسوغ.

«اسعل».

تنحنح پراير مُسلِّكًا حَلقَه.

«قلتُ «اسعل»»، نكزته الأصابع، «مجددًا»، غيرت اليد موضعها، «مجددًا».

انتبه پراير أن صدره يصفر حين التقط أنفاسه.

«منذ متى؟».

بدا پراير مبهوتًا، ثم أجاب متأتئًا: «ســـ. ستة أشهر، سيدي».

- ستة أشهر؟ لكن مكتوب هنا...

- أقصد، الطبيب أخبر والدتي أنني مصاب به حين كنت في سن ستة أشهر يا سيدي.

«آه»، قلب ميذر صفحة الملف: «هذا منطقيٌّ أكثر».

«لم أكن أستطيع أن أتحمل الحليب كما اتضح».

رفع ميذر عينيه: «كنتَ وغدًا صغيرًا غريب الأطوار، أليس كذلك؟ حسنًا، يجدر بنا أن نصغي قليلًا»، مد يده نحو سماعته واقترب من پراير: «ماذا كنت تفعل في وزارة الذخيرة؟».

- مخابرات، سيدي.

- أوووه، كم هذا مثير للإعجاب. قبضتَ على أي أحد؟

نظر پراير أمامه بكآبة: «أجل».

«لقد أمسكت دوريةُ خفرٍ هنا جاسوسًا ألمانيًا على الجروف الصخرية»، شخر ميذر وهو يثبت السماعة: «أو بالأحرى دغدغوا ريفيًا من أبناء هذه الأنحاء بحِرابهم».

همَّ پراير يقول شيئًا، لكن ميذر كان يصغي إلى صدره. وبعد بضع دقائق، استقام في جلسته: «أجل، لديك بعض الصفير». لفتت الندبةُ على مرفق پراير انتباهه، فأدار الذراع نحوه.

«معركة السوم»، قال پراير.

- لا بد أنها آلمتك.

- لم يبدُ مصطلح «العظم الطريف[1]» في محله آنذاك.

عاد ميذر إلى طاولة المكتب وجلس: «فلنرَ إن كنتُ فهمتُ هذا. لقد أُعِدتَ إلى البلاد بسبب عدم صلاحيتك للخدمة نتيجة صدمة قصف، صحيح؟ أبريل العام الماضي؟».

«أجل، سيدي».

«وأرسِلتَ أولًا إلى نِتلي، ثم إلى مستشفى كريغلوكهارت الحربي، حيث بقيت حتى... نوفمبر»، رفع رأسه: «أظن أن الديبسومانيا[2] تراود المرءَ كثيرًا، في أماكن كتلك؟ *الكحول* يا رجل»، شرح حين رأى براير ما يزال مبهوتًا.

- لم أكن أرى أي كحول يا سيدي، لو رأيتُ لشربتُه دون شك.
- وماذا كانت أعراضك إذًا؟
- كنتُ أعاني البكم، سيدي. بعض الناس رأوا في ذلك تحسينًا على النموذج الأساسيّ.

لكن ميذر كان يقرأ، وليس يصغي. «و. هـ. ر. ريفرز»، قال: «أعرفه، كان يسبقني بعامين في كلية بارت. تأتأة شَلَلية».

بدت الحيرة على براير: «كلا».

«آه؟ لقد أعاد النطقَ لنفسه أيضًا، لا بد أنه ماهر»، نقر على إحدى الأوراق: «تقرير التخريج يذكر الربو».

«لقد تعرضتُ لهجمتين خلال وجودي هناك».

«إممم»، ابتسم ميذر: «هل من مشكلات في الأعصاب الآن؟».

- كلا.
- والشهية؟
- بوسعي أن آكل أكثر مما أحصل عليه.
- هذا ينطبق علينا جميعًا يا فتى. تنام جيدًا؟

---

(1) العظم الطريف: اسم يُطلق على موضع ارتكاز العصب الزندي في المرفق. (المترجم)

(2) ديبسومانيا: مصطلح تاريخي كان يُطلق على حالة طبية تتضمن هوسًا شديدًا خارجًا عن السيطرة بتناول المشروبات الكحولية. (المترجم)

- ليس ليلة أمس، الخيمة اللعينة تَرشَح.

- وعمومًا؟

- أنام جيدًا.

أرجع ميذر ظهره فوق كرسيه: «كيف دخلت؟».

«عبر طية الخيمة».

رفع ميذر سبابته: «حذارِ يا فتى، كيف دخلت إلى *الجيش*؟».

صراع وجيز مع الإغراء، انتهى كما تنتهي صراعات پراير مع الإغراء عادةً. «لقد كذبتُ على الدكتور، يا دكتور».

للمفاجأة، ضحك ميذر، ضحكةً قصيرة نابحة.

«الجميع كانوا يكذبون»، قال پراير.

«هذا صحيح، أتذكر ذلك جيدًا. لقد قابلتُ رجالًا هربوا من نافذة مستوصف دار العمل[1] ليأتوا ويلتحقوا بالخدمة. سفلس، صَرع، سل، كساح. أحد الفتيان (كان صوته خفيضًا ذا صرير، وما من شعرة واحدة في ذقنه، بالكاد يبلغ الرابعة عشرة) نظر إلى عينيَّ دون مواربة وأقسم بحياة أمه إنه في التاسعة عشرة»، ابتسم ميذر كاشفًا عن أسنان بُنيَّة: «لم أغفل عن ابن امرأةٍ منهم». *سحقًا*.

«تدريبات الغاز»، قال ميذر.

صمت.

«إذًا؟».

«فكرة جيدة على نحوٍ مريع»، أجاب پراير جديًا.

- هل عبرتَ العنابر[2]؟

- كلا.

- لا بد أنك تتأثر بتراكيز منخفضة للغاية؟

---

(1) دور العمل: كانت مرافق توفر فرصة عمل ومحل إقامة لغير القادرين على إعالة أنفسهم ماديًا في بريطانيا. (المترجم)

(2) عنابر الغاز: هياكل نصف أسطوانية مسبقة الصنع (تشبه البيوت البلاستيكية) تقي من الغازات، استُخدمت بكثرة خلال الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

- كنتُ معروفًا بكناري[1] الكتيبة يا سيدي. والسبب يعود إلى ذلك من جهة، وإلى شخصيتي المبهجة السارة من جهة أخرى.

نظر ميذر إليه: «ارتدِ ملابسك».

«الفكرة أنني تدبرت أمري بشكل ممتاز *طوال ثلاثة أعوام*، لم أطلب *ولو مرة واحدة* إجازةً مرضيةً بسبب الربو ولا بسبب آثار الغاز».

«أجل يا فتى»، بدا على ميذر تعاطفٌ غير متوقَّع: «ويمكن قولُ إنك فعلتَ ما عليك».

ظهر تقبضٌ على الوجه الشاحب ذي الكبرياء: «عن نفسي، ما كنتُ لأقول هذا».

- والربو لم ينَل منك قط في فرنسا؟
- على الإطلاق.
- هجمتان في كريغلوكهارت، ولا هجمات في فرنسا. أتساءل عن السبب.
- لقد واتَت الحياةُ في الهواء الطلق صدري، سيدي.
- نحن لا ندير مصحةً يا فتى. هيا، ارتدِ ملابسك. ثم اذهب إلى اليسار في الدهليز، وانعطف يسارًا عند نهايته، سترى صفًا من الكراسي. انتظر هناك.

دخل ميذر إلى الغرفة المجاورة وباشر العمل على ضحيته التالية. شرع پراير يرتدي ملابسه، وتوقف قليلًا ليمسح العرق عن شفته العلوية. هذا يشبه اعتلاء المتراس[2]، قال لنفسه. كلا، غير صحيح. لا شيء يشبه ذلك. بدا أن المدنيين باتوا يستخدمون هذا المصطلح طيلة الوقت. يقول واحدهم: «لقد اعتليتُ المتراس قليلًا ليلة أمس»، قاصدًا أنه تناول كأسًا ثانية من نبيذ پورت. نظر پراير في المرآة الصغيرة خلف المغسلة، متفقدًا عقدة ربطة عنقه. إن لم يُرجعوه سيعاني وحدةً شنيعة، سيكون مهجورًا وسط المدنيين وكلامهم

---

(1) الكناري في الجيش: الشخص الذي يُرسَل في المقدمة بمنزلة طُعم لاستجلاء المنطقة الأمامية. (المترجم)

(2) في الحرب العالمية الأولى، كان الأمر باعتلاء المتراس يعني أن يترك الجنديُ موضعَه الآمن في الخندق ويخرج لمهاجمة العدو، وبات المدنيون يستخدمون المصطلح لوصف التصرفات المتهورة أو غير المحسوبة عمومًا. (المترجم)

اللغو. تهكمَت صورتُه المنعكسة: *وحيد؟ أنت؟ أوه، بحقك يا بطة، يمكنك دائمًا أن تنفصم إلى اثنين*. على الأقل، اللجنة لا تعرف عن *هذا* الأمر. أو بالأحرى، لا تعرف إن كان ريفرز لم يكتب إليها. تأتأة *شَلَلية*. ليست أي تأتأة عادية وحسب، بل شَلَلية. هذا مثير للاهتمام، فكر براير وهو يخرج من الغرفة.

للمكان رائحة ثكنة عسكرية. حسنًا، إنها ثكنة بالفعل، بيد أن فندق كلارنس غاردنز لم يكتسب ولو بعض هذه الرائحة بعد شهور من استخدام الجيش له. تقبَّض أنفُه، مميزًا روائح آباط وأقدام وجوارب وزيت وملمع جِزَم وصابون كربوليك وآخر فقاعات انفقأت بين الأصابع المتسحجة لصبيٍ يفرك الأرضية؛ مؤخرة أشبه بشاحنة ووجهٌ يتماشى معها، لكن براير كوَّن ابتسامةً ساحرة رغم ذلك، لأنه مدين لنفسه بهذا، وتابع التقدم بخطوات واسعة تاركًا سلسلةً من آثار الأقدام الموحلة فوق الأرضية المبتلة.

ثمة رجل واحد ينتظر. أوين.

«إنهما حرفانا الأولان المتتاليان من جديد»، قال أوين، وهو يرفع كومةً من مجلات جون *بُل*[1] عن الكرسي الشاغر ويلقيها على الأرض. آخر مرة انتظرا فيها معًا هكذا كانت في كريغلوكهارت، من أجل المثول أمام اللجنة النهائية.

أومأ براير برأسه نحو الباب: «من في الداخل؟».

- نِسبيت، دخل قبل نصف ساعة.

- لماذا يستغرق كل هذا الوقت؟

تردد أوين، ثم قال بشفتيه دون صوت: «قرقعة[2]».

هكذا إذًا، فكر براير، يا لها من طريقة للتملص من الخدمة. ثم قال لنفسه: أيها الوغد متصيد الزلات، ما أدراك أنه أصيب متعمِدًا؟ ثم استدرك: حسنًا، أنا وغد متصيد للزلات فعلًا.

---

(1) جون بُل: شخصية تُستخدم رمزًا للمملكة المتحدة، ولا سيما في رسوم الكاريكاتير السياسية والملصقات المحفزة على الالتحاق بالجيش، على غرار شخصية العم سام الأمريكية الشهيرة. (المترجم)

(2) القرقعة: تسمية يُطلقها العوام في بعض البلدان الناطقة بالعربية على مرض السَّيَلان، رأيتُ اعتمادها هنا بسبب استخدام تسمية «clap» (المقاربة لها من حيث الاستعمال والمعنى) في النص الأصلي. (المترجم)

«أنا لن أستغرق طويلًا»، قال أوين: «فقد فُرِزتُ ضمن الخدمة العامة أساسًا».

- لماذا أنت هنا إذًا؟

- اختلال في ضربات القلب. لقد أضفتُ اسمي إلى قائمة السَّوْق، لكن حين خضعتُ للفحص الطبيِّ النهائيِّ شطبوه مجددًا دون إبطاء.

- أضفتَ اسمك إلى القائمة؟ واثقٌ أن الخلل في قلبك لا في غيره؟

ضحك أوين، وأشاح بنظره: «كنتُ قد سمعتُ توًّا أن ساسون تعرض لإصابة، فلم أرَ ما يمكنني فعله غير هذا».

أجل، فكر براير، هذا ليس غريبًا. كان يتذكرهما في كريغلوكهارت: الثنائي المتنافر، قامة ساسون الطويلة وقامة أوين القصيرة، الحب الذي لم يستطع أوين -أو لم يكلف نفسه- تمويهَه.

«*أضف إلى ذلك*»، قال أوين: «أنني كنت قد بدأت أسأم حقًّا من النظر إليَّ على أني «مخنث لا يكف عن الارتعاش قادم من مستشفى مجانين في اسكتلندا»».

ابتسم براير: «لقد شملتُ نفسي أيضًا في هذا الوصف».

لاحظ أن أوين قد جرح نفسه في أثناء الحلاقة؛ قشور بُنية لامعة من الدم تملأ الغَضَنَ الممتد بين خده وشحمة أذنه.

«أتظن أنك ستكون على ما يرام هذه المرة؟».

أجاب أوين بمرح: «أوه، أجل، أعتقد هذا. إنني أمارس الركض كثيرًا».

«رأيتُ ذلك».

فُتِح الباب، وخرج منه نِسبيت بسحنةٍ واضحة الشحوب.

نهض أوين واقفًا: «أيريدونني أن أدخل؟».

«لا أدري».

عاد أوين إلى الجلوس: «أسوأ من الوضع عند طبيب الأسنان، أليس كذلك؟»، قال مرغمًا نفسه على ضحكة.

بعد بضع دقائق، نوديَ اسمُ أوين للدخول. جلس براير يصغي إلى غمغمة الأصوات، وهو يفكر أي حظٍّ مسخوط ذاك الذي جعل فحصه يكون على يد ميذر. قد يُرجع بعضُ الضباط الأطباء جثةً إلى الجبهة إن هي أفلحت في

الحفاظ على انتصاب قامتها أمامهم، ولا سيما الآن والحاجة في أمسِّها إلى كل رجل، ضمن أحدث حلقات سلسلةٍ طويلةٍ من «خطوةٌ أخيرةٌ بعدُ وننتهي». على حين غرة، قبل أن يكون مستعدًا، فُتِح الباب وخرج أوين. همَّ الأخير بالكلام، ثم لاحظ أن أمين اللجنة يتبعه، فاكتفى برفع إبهامه، ما استنتج منه پراير أن فرص أوين في إنهاء عامه أصم أو أعمى أو أخرس أو مشلولًا أو عاجزًا عن ضبط إطراح الفضلات بنوعيها أو مخبولًا أو تالفَ الدماغِ أو -إن حالفه الحظ- صريعًا ببساطة قد ازدادت بدرجة هائلة. كلنا مجانين هنا، فكر وهو يتبع أمين اللجنة إلى داخل الغرفة، ثم يؤدي التحية ويجلس على الكرسي المنفرد قبالة الطاولة الطويلة، ملاقيًا كل العيون بثقة، إنما ليست ثقةً أكبر من اللازم. وحقًّا، وسط كل الجنون العام، أتُراه من العدل أن يُعاقَب المرء لمجرد نزوعه -في ظروف الإجهاد المفرط- إلى إظهار شخصيتين منفصلتين؟ كلا، بل إنه لَيَجوز له أن يقول بالفم الملآن إن المَربح في هذا يكون لصالح الجيش.

بعد الأسئلة القليلة الأولى، بدأ يسترخي. كان تركيزهم منصبًّا على الربو ومخاطر التعرض للغاز، وكان لديه جواب واحد مقنع تمامًا أمام هذه الأسئلة: لقد سبق له أن ذهب إلى فرنسا ثلاث مرات، ولم يحدث في إحداها أن أعيد إلى القاعدة أو إلى إنجلترا بسبب عدم صلاحيته للخدمة نتيجةً للربو. حمى خنادق، بلى، إصابة معركة، بلى، صدمة قصف، بلى. أما الربو، فلا.

بعدما طُرِح السؤال الأخير وأجيب عنه، سحب ميتشل الأوراق وجمعها أمامه، ثم دقّها على الطاولة ليرتبها. راقب پراير اليدين البيضاوين الكبيرتين ببقع الشيخوخة المتناثرة عليهما والشَعرِ الذي يرسم ظلًا على جوانبهما.

«طيب»، قال ميتشل أخيرًا: «أظن أن هذا كل شيء...».

استطالت السكتة إلى درجة بدأ پراير يتساءل معها إذا ما كان سينطق من جديد على الإطلاق.

«حالة الربو لديك أسوأ مما تُفصح عنه، أليس كذلك؟»، نقر على تقرير التخريج: «وفقًا لما ذُكِر هنا على أي حال».

«لقد كانت سيئة بالفعل في كريغلوكهارت يا سيدي، لكن بوسعي أن أقول صادقًا إنها كانت هناك أسوأ مما حدث يومًا في فرنسا».

«حسنًا»، قال ميتشل: «ستُعلن النتائج بعد الظهيرة»، ابتسم بحيوية: «لن تنتظر طويلًا».

2

نُسخٌ غير بارعة من رسوم تينيل الخاصة بـ «*أليس في بلاد العجائب*» تُزين إحدى نهايتَي الجناح رقم سبعة، إذ كان هذا المبنى مستشفى أطفال في زمن السلم. أليس، ضئيلةً بما يكفي لتسبح في بحر من دموعها؛ أليس، تتطاول مثل تلسكوب حتى تبلغ قامتُها تسعة أقدام؛ أليس، وقد كبر جسدُها إلى أن برزت ذراعُها من النافذة؛ والصادم أكثر من كل هذا، أليس بعنقِ الحنش، يلتف ويسمو فوق الأشجار.

خلفَ ريڤرز، عربةٌ تمر من سرير إلى سرير مُصدِرةً صريرًا: جارِ جمعُ أطباق فطور المرضى.

«هيا يا حضرة النقيب ماكبرايد، أنهِ شرابك»، قالت الأخت روبرتس وهي تقرقع في أثناء مرورها: «ليس لدينا النهار بأكمله كما تعلم».

قيل هذا بصوت مرتفع، بُغيةَ أن يسمعه هو. لقد وصل إلى الجناح مبكرًا جدًّا، قبل أن يكونوا مستعدين له.

«كنتَ تعرفه، أليس كذلك؟»، قال إليوت سميث وهو يقترب نحوه وينظر من فوق كتفه.

بدت الحيرة على ريڤرز.

- لويس كارول[1].

---

(1) لويس كارول: الاسم المستعار الذي استخدمه كاتبُ «أليس في بلاد العجائب» في النشر، وقد ذُكر الكاتب باسمه الحقيقي «تشارلز دودجسون» في الرواية الأولى من الثلاثية. (المترجم)

- أوه. بلى. بلى.

- كيف كان؟

بسط ريفرز يديه.

«هل كان يروق لك؟».

«أظن أنني أردت كثيرًا أن أروق له، وهذا لم يحدث»، ابتسامة طفيفة: «أنا آخر شخص يمكن أن يُسأل عنه على الأرجح».

أشار إليوت سميث إلى الرقبة الثعبانية: «هذا مثير للاهتمام، أليس كذلك؟».

«جاهزون الآن يا حضرة النقيب ريفرز»، قالت الأخت روبرتس، ثم شاهداها تنطلق مبتعدة.

««حضرة *النقيب*»»، غمغم إليوت سميث.

«أنا مطرود من الرحمة»، قال ريفرز: «هي لا تناديني بـ «دكتور» إلا حين تكون راضيةً عليَّ».

خلف السواتر، رقد إيان موفيت عاريًا من خصره إلى الأسفل. كانت تبدو عليه الشكاسة والنرفزة، وتملؤه كبرياء هشّة عديمة الأساس. لبشرته شحوبٌ ضارب إلى الخضرة، لكن هذا قد يكون مجردَ انعكاسٍ للضوء عن السواتر الخضراء التي تحيط بسريره، خالقةً عالَمًا، بِركةً خلّفها المدُّ بين صخور الشاطئ تملؤها حياةٌ سِريّة. دفع ريفرز أحد السواتر إلى الخلف كي يُدخِل فيضَ الضوء القادم من النافذة، والآن اكتسبت ساقا موفيت الممدودتان فوق غطاء السرير كثافة اللون الرماديّ الأبيض الذي يميز أسماك القد الكبيرة الرخيصة. العضلات مترهلة لكنها ليست ضامرة، كما تكون في حالة إصابة العمود الفقريّ، بيد أنه عاجز عن المشي منذ ما يربو على ثلاثة أشهر، وليس من المعتاد أن يعند الشللُ الهستيريُّ لفترة بهذا الطول.

القصة المرضية بسيطة من إحدى نواحيها. لقد سقط موفيت خلال «نوبة غشيان» وهو في طريقه إلى الجبهة، بُعَيد سماعه صوت المدافع للمرة الأولى، ولما استرد وعيه لم يكن قادرًا على تحريك ساقيه.

«كان من السخف أن يُتوقَّع مني الذهاب إلى الجبهة»، هكذا قال في مقابلتهما الأولى: «أنا غير قادر على تحمُّل الضجة، بل لم يسبق لي أن استطعت البقاء في الغرفة حين تُفتَح سدادةُ زجاجة شامبانيا».

أيها الوغد المسكين، قال ريڤرز في قرارته آنذاك، وقد ألهاهُ الذهول عن الشفقة. كان موفيت يستجلب جملة «تمالك نفسَك يا رجل» إلى طرف لسانه أكثر من أي مريض آخر.

لكن عوضًا عن ذلك، سأله: «لماذا لم تتقدم بطلب إعفاء؟».

نظر موفيت إليه كمن اتُّهِم لتوه بتناول البازلاء بالسكين: «لأنني لستُ من مناصري السلام».

لقد جرَّب كل شيء مع موفيت. كلا، هذا غير صحيح. فهو -على سبيل المثال- لم يجرب أن يصل أقطابًا كهربائية بساقَي موفيت ويشغل الدارة، كما كان د. ييلاند ليفعل دون ريب بحلول هذا الوقت، وكذلك لم يثبت أنابيب راديوم على جلده إلى أن يحترق، ولا هو حقنه بالإيثر تحت الجلد. كل هذه تدابير تُتخَذ في سبيل إرجاع الرجال إلى الجبهة أو إبقائهم عليها. كما أنه حتى لم ينوِّمه مغناطيسيًّا، ما جربه في الواقع هو المنطق. لا يروق له ما يهم بفعله الآن، لكن بات واضحًا أن المقاربات المنطقية أيًّا كانت لن تحظى بفرصة للنجاح على الإطلاق ما دام موفيت يعوِّل على العَرَض البدنيّ.

«أنت تفهم ما سوف أفعله؟»، سأله.

«أنا أعرف ما سوف تفعله».

ابتسم ريڤرز: «أخبِرني إذًا».

«حسنًا، إلى الحد الذي أستطيع تبيُّنَه، أنت... إممم... تعتزم أن ترسم...»، تقبضت عضلاتٌ دقيقةٌ حول أنف موفيت وشفتيه، ما أضفى عليه مظهر أرنب متكبر: «*مِشدات جوارب*؟ على ساقَي، هنا»، رسمت أصابعُه الرقيقة خطين في أعلى فخذيه: «ثم، بالتدريج، يومًا بعد يوم، تنوي أن... إممم... تُخفِض الجوربين. وفيما يُفرَد الجوربان، إن صحَّ التعبير، سيأخذ الـ... إممم... الشلل بـ...»، راحت التقبضات تعربد على وجهه: «...ـالانحسار».

«هذا صحيح».

سأله موفيت بنبرة طافحة بالازدراء: «وليس لديك شكٌ أن هذا الإجراء سينفع؟».

نظر ريڤرز في بؤبؤَي عينيه بتركيزٍ جعل بصرَه لا يسجل لونًا غير الأسود للحظة: «البتة».

حدق موفيت إليه، ثم أشاح.

«هلّا باشرنا؟»، رفع ريڤرز ساقَ موفيت اليسرى وبدأ يرسم خطًّا أسود سميكًا على جلده، تحت طية المغبن بإنشين.

- آملُ أن يكون هذا قابلًا للمحو.

- هو كذلك طبعًا، سيتعين عليَّ أن أزيله بالماء صباحًا.

نظر ريڤرز إلى طول ساقَي موفيت وحاول أن يحسب كم من الوقت سيستغرق حتى يصل إلى أصابع القدمين. أسبوعين؟ ويجب أن يتضمن هذا أيام الأحد، الأمر الذي سيقوض خطتَه لقضاء نهاية أسبوعٍ في رامسغيت برفقة أختيه. صحة كاثرين متراجعة، بل في الواقع هي طريحة الفراش فعليًّا، ولأسباب لا تختلف كثيرًا عن حالة موفيت. كشّر ريڤرز من التركيز وهو يُكمل خط قلم الرصاص تحت الفخذ، فجِلد موفيت المترهل ظل يعترض طريق سن القلم.

تعليق إليوت سميث على الحنش: «هذا مثير للاهتمام»، لا يختلف عما كان يقوله لنفسه وهو ينظر إلى الرسم. من الجليّ أن الأفاعي فقدت حقها في أن تكون أفاعي ببساطة. دودجسون كان يكرهها، كراهيةً شديدة استثنائية بحق، والغابات المحيطة بِنولز بانك كانت ملأى بها، لا سيما في الربيع حين يكون من المألوف أن يصادف المرءُ مجموعةً من الثعابين، يصل عددها إلى ثلاثين أو أربعين أحيانًا، عليها آثار النعاس من سباتها الشتويّ. لقد ذهبوا في نزهة على الأقدام ذات مرة، العائلة بأكملها؛ إيثل وكاثرين ممسكتان بيدَي دودجسون، وهو وتشارلز يسيران في أعقابهم، مقلدَين مشيته المتحفظة إلى حدٍّ ما والتي تشبه مشية دجاجة مصابة بالإمساك، مع توخيهما الحذر كيلا يضبطهما أبوهما وهما يفعلان ذلك. استداروا عند منعطف، يتصدرهم دودجسون والفتاتان، وهناك في منتصف الطريق وجدوا أفعى. خطوط سوداء متعرجة على الجلد الأصفر، وعينان برتقاليتان، ولسان مشطور يهتز

خارجًا من ذلك الفم العريض الساخر (التجسيم[1] وهراؤه). ابيضت سحنة دودجسون، فقعد -أو انهار بالأحرى- على جذع شجرة مقطوعة وراحت الفتاتان تهوِّيان له بقبعتيهما، فيما أمسك الأبُ الأفعى بعصا ذات شعبتين وألقى بها بعيدًا، لتحلق في السماء مثل حرف S أسود ينبسط في أثناء سقوطه.

رجع في ما بعد ليبحث عنها، فأمضى ساعةً يفتش بين نبات السرخس ذي الألوان النارية، لكنه لم يعثر سوى على جلد مطروح فوق حجر، شفَّ واختفت منه الخطوط المتعرجة فبات شبحَ أفعى.

لماذا يُعرَض الشيطان على شكل أفعى؟ كان يسأل والدَه، لأن هذا هو السؤال الوحيد الذي كان يعرف كيف يطرحه.

صار هناك أسئلة أخرى لاحقًا، وطرائق أخرى للعثور على إجابات. ذات مرة، في أثناء إحدى زياراته في عطلة الأسبوع، جلست كاثرين على أفعى، فركضت إلى المنزل وهي تصرخ. وقتها خرج من فوره وقتل الأفعى، أو هذا ما ظنه، وقد وضع في نيته أن يشرِّحها في كلية بارت. عندما وجد العائلة في الصالة، أفرغ الكيس على بساط المدفأة ليُريهم إياها، فألفى نفسه أمام أفعى أبعد ما تكون عن الميتة. أخذت الفتاتان تصرخان واختبأتا خلف الأريكة، فيما داسها هو وأبوه وتشارلز حتى ماتت.

كيف تفكر في حادثة كهذه *الآن*؟ تعجَّب وهو يبدأ رسم الدائرة الثانية. ما من جيل على الأرجح إلا ويعتقد أن عالَم شبابه قد تغير إلى درجة بات يتعذر معها تمييزه، لكنه يرى أن مهمة عقد روابط ذات معنى أصبحت بالنسبة إلى جيله -وجيل موفيت كذلك بالطبع- صعبةً على نحوٍ غير معتاد حقًا. لقد فُقِدَت نسبةٌ لا بأس بها من البراءة خلال السنوات الأخيرة، ولم يحدث هذا في ساحات المعارك فقط.

أنزل ساق موفيت وسار حول السرير. يستطيع من هنا، عبر الفرجة بين السواتر، أن يرى رسومَ أليس. فجأةً، فيما هو يُتِم الدائرة وساقُ موفيت المشلولة مثبَّتة على جنبه، لم يعد ريفرز يرى الرسوم على أنها بقايا في غير

---

(1) التجسيم: إسباغ الصفات والمشاعر والنوايا البشرية على الكيانات غير البشرية. (المترجم)

محلها من الأيام التي كان هذا الجناح فيها مخصصًا للأطفال، بل أصبحت مناسِبةً بشكل وحشيٍّ ضارٍ. هذه التحولات الجسمانية التي تسبب كل هذه المشكلات. *لكنها تحلها كذلك*. أليس في بلاد الهستيريا.

«ها نحن أولاء»، قال وهو يضع الساق على السرير: «والآن، هل يمكنك أن ترفع جذعك قليلًا؟».

رفع موفيت نفسه على مرفقيه ونظر إلى ساقيه. «بمعزل عن أي شيء آخر»، قال حريصًا على لفظ كل كلمة بوضوح: «هذا يبدو فاحشًا للغاية».

نظر ريڤرز إلى الأسفل: «أجل»، قال موافقًا: «لكنه لن يعود كذلك حين نصل إلى تحت الركبة، وغدًا سيكون الحس في هذه المنطقة...»، رسم حدودها بسبابتيه: «طبيعيًّا».

التقت أعينُهما. كان موفيت يود أن ينكر إمكانية حدوث ذلك، لكنه أزاح عينيه. لقد بدأ بالفعل يمنح الدوائر قدرةً على التأثير.

لمس ريڤرز كتفه وقال: «أراك صباح الغد».

بسرعة، نزل على الدرج راكضًا وانطلق داخل الدهاليز الأشبه بجحور الأرانب، متسائلًا إذا ما كان الوقت سيسمح له أن يقرأ ملفات المرضى الجدد قبل وصول أولهم من أجل موعد المقابلة. ألقى نظرة على ساعته، فأيقظ شيءٌ ما في حركته هذه ذاكرتَه. *هذا* ما يُمكن أن يقال عنه «مثير للاهتمام»، فكَّر. صبي بريء يدرك أنه محطٌّ لعاطفةٍ غير سوية صادرة عن شخص بالغ. بصياغة واضحة، الموقَّر تشارلز دو... دو.. دو.. دو.. دودجسون لا يستطيع أن يُبعِد يديه عنه، *لكن* -بفضل الضمير الجليل الذي يتمتع به ذلك الرجل المحترم- لا يحدث شيء مشؤوم. تمر السنوات، تحل سنُّ البلوغ، تتلاشى الصداقة. خلال حياة ذلك الطفل الراشدة، لا تظهر أي اختلالات، ربما باستثناء بعض الصعوبة في الدمج بين الدافع الجنسيِّ وبقية مكونات شخصيته (ماذا تقصد بـ «ربما»؟ سأل نفسه)، إلى أن يبدأ المريض في منتصف العمر يعاني من توهُّمٍ مفادُه أنه يتحول إلى أرنب أبيض ضخم الحجم غريب الهندام، يركض في الدهاليز إلى الأبد مراجعًا ساعته باستمرار. يا لها من قصة مَرضية. من المؤسف أنها لم تحدث، قال لنفسه وهو يفتح باب غرفة الاستشارة خاصته، فهي كفيلة أن تفسر الكثير جدًّا.

كان يظن أحيانًا أنه يفهم طفولة كاثرين بشكل أفضل من فهمه لطفولته هو نفسه.

قط تشيشير! قط تشيشير! أخذ هو وتشارلز يُنشدان ذات مرة حين كانت تجلس بأُبهةٍ في حضن دودجسون، وابتسامتُها تمتد من الأذن إلى الأذن. لقد التصق بها هذا اللقب -الذي أُطلِق عليها بنحوٍ عَرَضيٍّ هكذا- طوال طفولتها، وعزاؤه الوحيد أنها لم تكن تمانع على الإطلاق. مسكينةٌ كاث، لم تحظَ منذئذٍ بأسباب تُذكَر كي تبتسم.

الملفات، قال لنفسه. أخرجها من حقيبته الجلدية وبدأ يقرأ. جيفري وانسبِك، في الثانية والعشرين من عمره. لقد أقدم وانسبِك على... حسنًا، *اغتيال* -هذه هي الكلمة المناسبة كما يفترض- أسيرٍ ألمانيٍّ، لسببٍ لا يعدو (وفق أقوال وانسبِك) أنه كان يشعر بالسأم والغيظ وأزعجه أن يُضطر إلى مرافقة الرجل في طريق العودة من خط القتال. وطوال... ثمانية أشهر -بل أقرب إلى عشرة في الواقع- لم يشعر بأي ندم. لكنه، في ما بعد، في أثناء وجوده في المستشفى إثر تعرُّضه لإصابة بسيطة، بدأ يعاني من هلاوس نعاسية يستيقظ خلالها فجأةً ليجد الألماني الميت واقفًا عند سريره، وتكون الهلوسة البصرية كل مرة مترافقةً مع رائحة التفسخ القوية. وبعد بضعة أسابيع، بدأت الهلوسة الشمية تحدث على حدة، إلا أن الرائحة بدت تنبعث من وانسبِك نفسه. كان مقتنعًا أن بوسع الآخرين شمَّها، وبات يتجنب التواصل القريب مع الناس قدر استطاعته رغم كل التطمينات.

إممم. نزع ريفرز نظارته وفرك عينيه، مستديرًا بكرسيه ليواجه النافذة. لقد كانت ليلته سيئة، لذا يجد صعوبةً في التركيز. تدفق ضوءُ شمس أواخر أغسطس ذو لون العصير المتخمر إلى داخل الغرفة، واستولى عليه الحزن فجأةً، حزنٌ بائتٌ تفرضه الروزنامة، على الصيف الذي مضى وكل صيفٍ سبقه.

ذات مساء على العشاء، مال السيد دودجسون نحو الأم وقال: «أنا أ... أ.. أ.. أ.. أحب كُـ.. كـ.. كـ.. كـ..».

«المحرك لا يدور»، همس تشارلز.

«كل الأطفال يا ســـ سيدة ر.. ريڤرز، ما دا... دا.. دا.. داموا فـــ... فـــ.. فـــ.. فتيات».

نظر إلى الطرف المقابل من الطاولة نحو الولدَين، وبدا لريڤرز أن قوة حقده بحد ذاتها حلَّت له عقدة لسانه.

«الصبيان غلطة».

لم يأبه تشارلز لكون السيد دودجسون لا يحبهما، أما هو فبلى. السيد دودجسون كان أول بالغٍ صادفه يعاني تأتأةً تبلغ سوء تأتأته، لذا آلمه الصدود.

«هل نـــ.. نحن غـــ.. غـــ.. غـــ.. غـــ.. غلطة؟»، سأل والدته حين خلد إلى السرير: «لـــ.. لـــ.. لماذا؟».

«لستما غلطةً بالطبع»، أجابت الأم وهي تمسد على شعره كاشفةً جبهته.

- لـــ.. لماذا إذًا يـــ.. يـــ.. يقول إ.. إننا كـــ.. كـــ.. كـــ.. كذلك؟
- أظن الأمر وما فيه أنه يحب الفتيات أكثر من الصبيان.
- لـــ.. لـــ.. لـــ.. لكن لـــ.. لـــ.. لماذا؟

كانت عينا وانسبِك ملتهبتَين، يصعب الجزم إذا ما كان ذلك بسبب البكاء أو إصابته بالزكام.

انتظر ريڤرز مرور نوبة السعال الأخيرة. «تعلم أننا لسنا مضطرين إلى فعل هذا الآن، بوسعي أن أراك حين تتحسن حالتك».

مسح وانسبِك أنفَه المتسحج بظهر يده. «كلا، أفضِّل أن أنتهي من الأمر»، غيَّر وضعيته في مقعده ممررًا لسانه على شفتيه المتشققتين، وحدق بضيقٍ إلى أنحاء الغرفة: «أتظن أن من الممكن أن نفتح النافذة؟».

بدت المفاجأةُ على ريڤرز، فالريح كانت قارسة رغم أشعة الشمس، غير أنه نهض وفتح النافذة، مدركًا في أثناء ذلك أن طلب وانسبِك كان مدفوعًا بخوفه من الرائحة. جذب النسيمُ الستائرَ الرقيقة من فرجة النافذة، وعاد ريڤرز إلى كرسيه وانتظر.

«استخدمتُ حربةً وجدتُها لدى إحدى الجثث. كنا نعبر في أيكة، وكان الاشتباك عنيفًا في الأنحاء. أتذكر الرجل الذي أخذتُها منه، كان قد مات وعلى وجهه تعبيرٌ يشي بكربٍ مرير. رجل ضخم، داكنٌ جدًّا، حول أنفه الكثير من الدم المسود، يكسوه الذباب، أشبه بـ... شارب ذي طنين. أتذكره أكثر مما أتذكر الرجل الذي قتلتُه. كان يسير أمامي، لم أستطع أن أطعنه في ظهره، لذا صحتُ به كي يستدير. عرف من فوره. أقحمتُ الحربة، وصرخ، ثم... أخرجتُها، وأقحمتُها. مجددًا. ومجددًا. صار على الأرض فأصبح الأمر أسهل. ظل يقول: «بيتِه، بيتِه[1]»، ويعترضني بيديه...»، رفع وانسبك يديه، باسطًا راحتيهما إلى الخارج: «الغريب أنني سمعتُها بالإنجليزية. يا للمرارة، يا للمرارة[2]. كنتُ أعرف الكلمة، لكنني لم أفهم ما تعنيه».

«وهل كان هذا ليشكل فرقًا؟».

تغضَّنت شفتاه.

- فيمَ كنت تفكر قبل أن تلتقط الحربة مباشرةً؟

- لا شيء.

- لا شيء على الإطلاق؟

- كنتُ أريد أن أخلد إلى النوم وحسب، وهذا اللقيط كان يُعيقني عن ذلك.

- كم كان قد مضى لك وأنت على خط القتال؟

«اثنا عشر يومًا»، هز وانسبك رأسه: «ليس جيدًا بما يكفي».

- ما هو؟

- هذا العذر.

- الأسباب ليست أعذارًا.

- لا؟

كان ريفرز يفكر بعمق: «ماذا أستطيع أن أفعل كي أساعدك برأيك؟».

- لا شيء، مع احترامي.

---

(1) Bitte: «أرجوك» بالألمانية. (المترجم)

(2) اللفظة الإنجليزية «Bitter» قريبة من اللفظة الألمانية «Bitte». (المترجم)

- أوه، تبًّا لهذا.

ابتسم وانسبِك: «كما تقول». وضع منديله على فمه إذ استولت عليه نوبة سعال أخرى: «سأحاول ألا أنقل إليك هذا على الأقل».

كان وانسبِك رجلًا ذا بنيةٍ بدنية حسنة على نحو فريد؛ طويل القامة، عريض المنكبين والصدر. وبينما كان ريفرز يقيِّم طوله ووزنه ومقويته العضلية، ملاحظًا ارتجاف اليدين الضخمتين وتقبضًا طفيفًا في الجفن الأيسر، أدرك -في مستوى آخر- كمَّ الشفقة الذي يثيره انكسارُ الأجسام القوية... مع أنه لا يدري ما الذي جعل كلمة «انكسار» تخطر له، فمعاناة وانسبِك البدنية لا ترقى -بموضوعية- إلى كونها أكثر من زكام قويٍّ، إذ إنه تعافى جيدًا من إصابته.

«متى لاحظتَ الرائحة للمرة الأولى؟».

«في المستشفى. اسمع، الجميع يُكثِر الكلامَ عن الرائحة. أنا أعرف أنها ليست موجودة»، ابتسامة واهية: «الأمر أنني أشمها رغم ذلك».

- متى كانت المرة الأولى؟

- كنتُ في جناح جانبي. ثلاثة أسِرة. حالة أحد الرَّجُلين كانت سيئة حقًّا، انغرزت شظية في ظهره. كان يُدعى جيسوب، ليس أن هذا مهم. أما الآخر فكان يعاني إصابة طفيفة في الذراع، وكان يتحسن بوضوح، فأدركتُ أن ثمة احتمالًا أن أبقى وحيدًا مع جيسوب، الذي لا يستطيع الحركة. وبدأ الأمر يقلقني، لأنه كان عاجزًا وكنت أعلم أنني إن أردتُ قتله لاستطعت.

- هل كنت تكرهه لأي سبب؟ جيسوب.

- بتاتًا، لا.

- إذًا فالأمر هو مجرد أنه عاجز؟

فكر وانسبِك لحظة: «أجل».

- وهل ظللتَ وحيدًا برفقته فعلًا؟

- أجل.

- ماذا حدث؟

ند عنه صوتٌ بين الشخير والضحك: «كانت ليلة طويلة».

- هل كنت تريد أن تقتله؟

- أجل...

- كلا، فكِّر.. هل كنت تريد أن تقتله، أم كنت تخشى أنك تريد ذلك؟

صمْت. «لا أدري. ما الفرق؟».

«فرقٌ هائل».

«كنت أخشى، كما أظن. بعد ذلك سألتُ إذا ما كان بوسعي الانتقال إلى الجناح الرئيسيّ. وللإجابة عن سؤالك، أول مرة لاحظتُ فيها الرائحة كانت في الصباح التالي»، ساد صمتٌ طويل، همَّ بالكلام خلاله عدة مرات قبل أن يقول أخيرًا: «أتعلم؟ عندما أخبرتُ الطبيب أنني لا أريد أن أُترَك وحدي برفقة جيسوپ، قال: «منذ متى تعاني من النزوات؟»»، نظرة سريعة عرَضية، لكنه لم يستطع تمويه غضبه: «لم أكن أريد أن أن أن *ألمسه*، كنت أريد أن *أقتله*».

«أمَا زال يزعجك أن تبقى وحيدًا مع الناس؟».

دار وانسِك بعينيه سريعًا على أنحاء الغرفة: «أتجنب ذلك حين أستطيع».

تبادلا الابتسام، ثم رفع وانسِك يده ومسّد عنقه.

- هل يزعجك حلقك؟

- يؤلمني قليلًا.

نهض ريڤرز من خلف مكتبه وتحسَّس غُددَ وانسِك، فثبَّت الأخير تحديقته في اتجاه آخر. من الواضح أن الرائحة سيئة أكثر من المعتاد. «أجل، إنها متورمة قليلًا»، لمس جبهة وانسِك، ثم فحص له نبضه: «أظن أنك ستكون أفضل حالًا في السرير».

أومأ وانسِك برأسه: «أتعلم؟ يمكنني التوثُّق من أن الرائحة ليست حقيقية، لأنني ما زلت أستطيع أن أشمها. أنفي مسدود إلى درجة تمنعني من شم أي شيء آخر».

ابتسم ريفرز. كان قد بدأ يستلطف وانسبِك. «أخبِر الأخت روبرتس أنني قلت لك أن تخلد إلى السرير، واطلب منها أن تقيس حرارتك مشكورة. سآتي كي أراك لاحقًا».

عند الباب، استدار وانسبِك: «شكرًا لك على ما *لم* تقله».

- وما هو؟

- «لقد كان وغدًا ألمانيًّا لا أكثر، لو أن الأمر لي لمنحتُك وسامًا. لا أحد سيشنقك عقابًا على ذلك».

- أتقصد أن *هنالك* من قال لك هذا؟

- أوه، أجل. لا يخطر لهم أبدًا، كما يبدو، أن العقاب قد يجلب لي الراحة.

أمعن ريفرز النظر إليه: «عقاب تُنزِله أنت بنفسك؟».

«لا».

هل تلكأ قليلًا؟

«اذهب إلى السرير»، قال ريفرز: «سأتبعك بعد لحظات».

بعد مغادرة وانسبِك، اتجه ريفرز إلى النافذة كي يغلقها، فوقف قليلًا يتفرج على صبيان يلعبون في الساحة. صرخات عالية حادة، مثل النوارس.

«هل نـ... نحن غـ... غـ... غـ... غلطة؟ لـ... لـ... لماذا؟».

«لستما غلطةً بالطبع»، أجابت والدته وهي تمسد على شعره كاشفةً جبهته.

- «لـ... لماذا إذًا يـ... يـ... يقول إ.. إننا كـ... كـ... كـ... كذلك؟».

- «أظن الأمر وما فيه أنه يحب الفتيات أكثر من الصبيان».

- «لـ... لـ... لـ... لكن لـ... لـ... لماذا؟».

ابتسم ريفرز. أعرف، قال لنفسه، أعرف. الأسئلة. الأسئلة.

- «الصبيان خشنون ويثيرون الضجة، كما أنهم يتشاجرون».

- «لـ... لـ... لكن على الـ... الـ... المرء أن أن يـ... يـ... يتشاجر أ.. أ.. أحيانًا».

أجل.

3

راح پراير يسير متسكعًا، وهو يحك كُم سترته بالسور البحريّ، مُطلًّا على الرمال الشاحبة الممهدة القذرة التي تنحسر عنها الأمواج. أتاه الصمت راحةً بعد الهرج والمرج الذي ساد في قاعة الطعام: من سيذهب ضمن قائمة السَّوْق التالية، من سيحصل على ترقية، من حظي بتوصية لنيل صليب عسكريٍّ. الأعين التي تنسلّ إلى صدر المرء ثم كُمِّه الأيسر. ورق اللعب، النمائم، الأحاديث التافهة، تبادل الفضائح والهراء. إنه لمن دواعي سروره أن يتخلص من كل هذا.

هو عائد إلى فرنسا. لقد أمضى مساءه يكتب إلى الناس: سارا، والدته، تشارلز مانينغ، ريڤرز. والرسالة الأخيرة ذكَّرته بكريغلوكهارت، لذا ها هو الآن يسير على غير هدى، ويتذكر وميض الضوء على نظارة ريڤرز، وصوت تناوب المضارب الأبدي القادم من ملاعب التنس الذي يدخل بطريقةٍ ما في نسيج الكلام والصمت بينهما، فيما يقتلع ريڤرز منه ذكريات فرنسا واحدةً تلو الأخرى، كطبيب أسنان يُعمِل كلابتَه في فمه.

تساءل عما قد يكون رأي ريڤرز بعودته. لن يروقه الأمر كثيرًا.

الشاطئ مظلم تحته. لقد غادر الجميع، عمال الذخيرة وفتياتهم، أثرياء الحرب بأصابعهم الغليظة التي تقلِّب صفحات مجلة جون بُل. كانت القوارب الألمانية تقترب في بعض الأحيان. «ليست مسافةً كافية»، هكذا قال أوين وهما ينتظران تعليق قائمة السَّوْق على الجدار، وضحك بتلك النظرة المتنبهة بعض الشيء التي تعلو محياه أحيانًا.

بحرٌ ودودٌ متكاسل مثل كلب يستلقي على ظهره، بوسع المرء أن يسبح فيه دون الإحساس بالبرد. بدأ يمشي دون أن يدري أين تأخذه قدماه ولا لماذا. وبعد بضع دقائق، استدار على اللسان الصخريّ ونظر -عبر الخليج الجنوبيّ الممتد في نصف دائرة- نحو الجروف الصخرية المقابلة التي تعلوها شرفات جورجية[1] بيضاء. بعض إخوته الضباط موجودون هناك الآن، يعيشون حياتهم بالطول والعرض في مطاعم المحار الأبهظ ثمنًا ضمن المدينة. هو نفسه كان هناك قبل ليلتين، لكنه لا يرغب في الذهاب الليلة.

على مقربة منه تنتشر متاجر الهدايا التذكارية، وأكشاك رمي جوز الهند[2]، والقوارب المتأرجحة، والقبعات المضحكة، وطقطقة البواريد، وصيحات الفزع القادمة من البيت المسكون الذي تقفز من خزائنه هياكل عظمية مصنوعة من الكرتون تلمع في محاجرها مصابيح كهربائية خضراء. لو أنهم رأوا... *أوه، دعك من هذا، دعك من هذا.*

خلفه، على طول الطريق المؤدي إلى الثكنة، تنتصب بنسيونات متكلفة الاحتشام بستائر دانتيل سميكة تحجب عنها سوقيةَ متنزهي النهار. لا يمكن للمرء أن يتمشى في أي مكان ضمن سكاربورو دون أن يرى النظام الطبقيّ الإنجليزيّ منبسطًا أمامه بكامل فظاعته المتشابكة.

سمع شهقةً متألمةً قربه، ثم قبضت يدٌ على كُمّه. امرأة بشعر أحمر، مبهرجة الملابس ووحيدة. «المعذرة يا عزيزي، إنه حذائي»، ابتسمت له ابتسامة مشرقة: «لا أكف عن التعثر بسبب الكعب».

وضعت ذراعيها بجانب ذراعه على الإفريز، ولامس مرفقُها الأيمن كُمَّه قليلًا.

- كلا، شكرًا لكِ.

- لماذا؟ هل عُرِض عليك شيء؟

---

(1) العمارة الجورجية: اسم يُطلق على مجموعة الأنماط المعمارية التي وُجِدت بين عامي 1714 و1830 في معظم البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية، نسبةً إلى الملوك البريطانيين الأربعة: جورج الأول والثاني والثالث والرابع. (المترجم)

(2) رمي جوز الهند: لعبة تقليدية تنتشر في مدن الملاهي، تعتمد على تصويب كرات نحو ثمار جوز الهند، وباتت تستخدم أنواعًا أخرى من الهدايا عوضًا عنها. (المترجم)

تابعَت الغمغمة. بئس الحال إن لم يعد بوسع امرأةٍ محترمة أن تستريح لهنيهة دون أن تتعرض... *للمضايقة*. ومن عساه يظن نفسه على أي حال؟ يضعون بعض البهرجة الذهبية على أزيائهم، ويظنون أن لخرائهم رائحة البنفسج...

«أنا لا أدفع».

انفجرت ضاحكة: «حسنًا، المؤكد أنك لن تنال شيئًا بالمجان».

ابتسم، مُتيحًا لنبرةٍ من الأسى أن تتسلل إلى صوته: «أنا عائد إلى فرنسا الأسبوع القادم».

«أوه، اغرب عن وجهي».

للحظة، تمنى لو تعمل هي نفسها بنصيحتها هذه، لكنها لم تفعل. ظلا واقفَين جنبًا إلى جنب، يكادان يتلامسان، لكنه كان في الواقع على بُعد أميال، يتذكر ليزي ماكدويل ويوم الحرب الأول. «ليز الطويلة»، هكذا كانوا ينادونها. فمن بين الفتيات اللاتي يعملن في كوميرشال رود، ومعظمهن يأوين في دار العمل، كان طول قامة ليزي -الذي يبلغ خمسة أقدام كاملة لا أقل- يجعلها عملاقة. لقد كانت والدةَ صديقه الأقرب، وهذه الحقيقة لم تكن تتصدر فكرَه حين التقاها في زقاقٍ خلفيٍّ لدى عودته إلى منزله من الحانة وأخبرها أنه التحق بالجيش.

«*فتى طيب!*»، قالت له آنذاك.

ليزي كانت من أعظم المتحمسين للإمبراطورية. وبطريقة أو بأخرى، عاد إلى المنزل معها، فعبرا الممر متعثرَين ودخلا غرفة النوم الخلفية، إلى أن اضطجعا أخيرًا -تكسوهما طبقة من العَرق الذي بدأ يبرد- على السرير المترهل معًا، فيما كان بقُّ الفِراش منغمسًا في ولائمه ورائحةُ البول تنبعث من القعَّادة[1] في الأسفل. حدَّثته عن زبائنها الدائمين. ثمة رجل يأتيها كل شهر، يقلب كرسيًا رأسًا على عقب ويُقحم قوائمه الأربع واحدةً واحدةً في استِه. قالت إنه لا يريد منها أن تفعل أي شيء، بل أن تشاهد فقط.

- *وأنت تعرف كم أبالغ في القلق. أظل أفكر ماذا سأفعل إن علِق.*

---

(1) القعادة: أداة حوضية تستعمل لقضاء الحاجة. (المترجم)

- *تقطعين قائمة الكرسي اللعينة بمنشار.*

- *بالله؟ هذا هو الكرسي اللائق الوحيد لدي.*

«ما الذي يُضحكك؟».

«أفكر في صديق قديم لا أكثر».

لم تغادر أي نقودٍ جيبَه ليلتئذ، وكانت تلك بادرةً وطنيةً من ليزي: واحدة من أصل سبع. مسكينة ليزي، لقد خاب أملها للغاية حين تبين أن خمسة من الشبان السبعة لم يكونوا قد التحقوا بالجيش من الأساس.

«أترغب في بعض الصحبة إذًا؟».

نظر إليها: «أنت لا تستسلمين، أليس كذلك؟». وفجأةً، باتت الصرخات وقرقعة البواريد وأبواب الحانة التي تتجشأ روائح الجعة الفاترة لا تُحتمَل. سيقبل بأي شيء يعفيه من أن يظل مثل قطرة الزيت على وجه هذه المياه القذرة. «حسنًا».

كانت صادقة في ما قالته عن حذائها، لو أنها لم تتشبث بذراعه لسقطت أكثر من مرة في أثناء صعودهما على الدرج الحاد نحو الشوارع الأكثر هدوءًا خلف مقدمة الشاطئ.

«ماذا ينادونك؟»، سألته وهي تنفث رائحة البورت في وجهه.

- بيلي، وأنتِ؟

- إلينور.

بالطبع، قال في قرارته. «أينادونكِ «نيلي»؟».

«أحيانًا»، قالت بنبرة لا تخلو من بعض الوقار. «المكان بعد الزاوية هنا»، لعلها شعرت أنه يفكر في التراجع، إذ ضيَّقت قبضتَها على ذراعه: «ليس بعيدًا».

صعدا بعض الأدراج نحو الباب. وفيما هي تعبث بالمفتاح، أخذ ينظر حوله فكاد يتعثر بكومة من زجاجات الحليب غير المغسولة التي اكتست بطبقة خضراء.

«حذارِ»، قالت له: «ستتسبب في خروج الجميع إلينا».

الردهة مظلمة، تنبعث فيها روائح المجارير والفئران. ثمة وجهٌ -لا يزيد على شريط من البشرة الشاحبة وعين واحدة- يُمعن النظر عبر فرجة الباب على يساره.

«عليك أن تتحرك بهدوء»، همست نيلي، ثم -حين لاحظت الوجهَ لحظة انغلاق الباب- صاحت: «لدينا بعض الأوغاد الحشريين في هذه الأنحاء».

صعدا الدرج، ذراع واحدهما تحيط بخصر الآخر، وكتفاهما ووركاهما ترتطم ببعضها في المساحة الضيقة، كلٌّ ينفث ضحكته في وجه رفيقه، إلى أن أفشى سَكَرُها بنفسه أمامه فتلاشى كل ما فيه من شكٍّ وتردُد.

فتحت الباب المقفَل، فكشفت حبابةُ مصباح عارية في الأعلى عن سريرٍ غير مرتب وكرسي تتراكم فوقه القمصان الداخلية والمشدات ومنضدةِ مغسلة، إضافةً إلى منشفة نظيفة وقطعة صابون صفراء توحيان بمسحةِ احترافيةٍ مفاجئة.

«لن تمانع أن تغتسل قليلًا».

هو لا يمانع، لكن لتلعنْه السماء إن كان يرى ذلك مُجديًا.

«أتعلم؟»، قالت وهي تحل أزرار بلوزتها: «كان عندي ذلك الأسبوع شابٌّ مسكين غسل يديه!».

فكَّ براير ربطة عنقه، باحثًا في الأنحاء عن مكان يضع فيه ملابسه، فلاحظ كرسيًّا عند المدفأة. مدفأة كبيرة فاخرة إلى حدٍّ ما، نُقِش على رفها إكليلُ زهر وفاكهة، لكنها مسدودة بالألواح الآن، بالطبع، وقد أُشعِلت النار داخلها بالغاز. كان ينزع سترته التي حلَّ نصف أزرارها من فوق رأسه عندما انتبه إلى رائحة غاز، ضعيفة إنما لا يمكن إخطاؤها. وفيما القماش الخاكي الداكن يغطيه مثل خيمة، راح يقاوم نوبة الهلع، والعرق يتصبب على جنبيه. ليس العرق التدريجي المعتاد عند التمرين، بل غَمرٌ مفاجئ زَنِخٌ لزج ساخن، ثم بارد دون تمهيد. حرر نفسه من السترة وذهب ليفتح النافذة، مُطلًّا من فوق السطوح المنحدرة التي يضيئها القمر نحو البحر. أخبر نفسه أن ما من سبب للخوف، بيد أنه كان خائفًا. كل ردود الفعل المعتادة: جفاف الفم، تبلُّل الإبطين، تسرُّع القلب، انتفاخ في الحلق يسبب السعال. تقبُّضٌ في كيس الصفن، وذبول في العضو. يا للمسيح، سوف يتعين أن يضع واقيًا على هذا الشيء، وسيبدو مثل

ولد يرتدي معطفَ أبيه. سمع صوتَه وهو يتكلم، أخرقَ، يبدو أصغر سنًّا مما يشعر: «أخشى أن الأمر لن ينفع».

«أوه، لا تقُل هذا يا عزيزي، كل شيء سيكون على ما...».

لُطفٌ حميميٌّ زائف. إنها معتادة أن تبث الثقة في الأعضاء الرخوة.

«كلا، لن يحدث».

استدار مبتعدًا عن النافذة ونظر إليها. كان شعرها قد انسدل على كتفيها، ليس في كومة منفوشة بل لفائف مخصلة بترتيب، لكلٍّ منها شكلُ هلال دقيق، كالتي يراها المرء على أرضية صالون حلاقة. التقط إحدى هذه الخصل، وراح يلفها حول أصابعه. ثمة خطوط حمراء تُعلِّم المواضعَ التي عضتها أسلاكُ مِشدها في جلدها. لما انتبهت إلى وجهة نظرته، راحت تفرك الخطوط دون جدوى. هو لم يكن يتصرف مثلما يتصرف الزبائن عمومًا، وكان أي انحراف عن السير المعتاد للأمور يجعلها تتوتر. بات في الغرفة خوفُ شخصين اثنين الآن. لكن نظرتها ظلت ثابتة، ثابتة على نحوٍ مفاجئ، إن أخذنا بالحسبان أنها -منذ ما لا يزيد على خمس دقائق- كانت سكرانة أكثر من أن تمشي باستقامة. *أما الآن*... حسنًا، لقد تناولت بضع كؤوس، غير أنها بالتأكيد ليست مخمورة. لعلها تحتاج إلى قناع السُّكر أكثر من حاجتها إلى الشرب نفسه.

«ألدي لطخة على طرف أنفي أم ماذا؟».

«كلا»، أجاب بغباء.

حدق واحدهما إلى الآخر.

«لن يضرنا أن نستلقي»، قالت له.

أكمل نزع ملابسه، ثم مدَّ يديه إلى صدرها مترددًا وأخذه يقيسه. أدرك أنه لم يسمع قائمة التسوق حتى الآن، البنودَ البغيضة التي تبدأ ما إن تلتقي عيناك بعينَي امرأة في كوفنت غاردن أو شارع ستراند: «... وخمسة شلنات إضافية إن أردت أن تتذوق بفمك».

«جنيهان اثنان»، قالت إذ قرأت أفكاره: «على الطاولة هناك».

استلقى على السرير، ثم راح يُقنع نفسه أن البقعة الرطبة الباردة تحت ردفه الأيسر من صُنع خياله. أنزل يده إلى هناك فتأكد أنه لا يتخيل. هنا

وهناك، على ملاءة السرير، تناثرت قصاصات من شعر الجسد. تساءل من عساه يكون صاحب الماء الذي يستلقي فوقه، وإذا ما كان يعرفه، وهل تراها اغتسلت جيدًا بعد انتهائها منه. راح يتلمس في أنحاء فكره بحثًا عن شعور الاشمئزاز المناسب، فعثر على الإثارة عوضًا عنه. لا، بل أكثر من ذلك، اليقين اليقظ بالسطوة.

كل الرجال الذين مروا، عبْر سكاربورو، وعبْرها هي، في طريقهم إلى الجبهة... وكم منهم بات ميتًا؟ فيما هي تجلس القرفصاء فوق الحوض كي تغتسل (وهو مشهد يعلق في الذاكرة، سرَّهُ أن يراه)، أحس بهم يجتمعون في الردهة، يسدون الدرج الضيق، وأجسادهم تنضغط على الباب. لا يكبح تقدُّمهم عند العتبة سوى وهج الضوء.

«أيمكننا أن نطفئ هذا؟»، قال لها: «إنه يضرب في عينيَّ».

والآن صارت لهم حرية الدخول، لكنهم ينتظرون حتى يبدأ صرير نوابض الفِراش تحت وزن جسدها. يداه أيديهم، وأعينهم الميتة من الجوع عيناه. أحداقٌ متوسعة في ضوء النجوم، مثبتة على بطنٍ قشديٍّ وبقعةٍ من الشعر الداكن. أخذ يداعب ويتمتم، فطوقته بأصابعها. «ها أنت ذا، أرأيت؟ قلتُ لك إن الأمور ستكون على ما يرام».

ضاجعها ببطء. وبعد قليل، التفت يداها حوله وقبضتا على مؤخرته، غارزتَين أظفارهما فيها. لم يستطع الجزم إذا ما كان ذلك تمثيلًا بهدف تسريع الأمر أم استجابة راعشة حقيقية. كان يشعر بوزنهما عليه، وسندَ ذراعيه كي يحمله...

وعندئذٍ حدث أمرٌ لم يكن في الحسبان. نظر إلى الأسفل نحو الوجه المنغلق على مصراعيه، وميز السيماء التي تعلوه. ميزها، لا بعينيه، بل بعضلات وجهه، فهو أيضًا سبق واستلقى هكذا، منتظرًا انتهاء الأمر. عام كامل من المضاجعة، قبل أن يتمكن من بلوغ نشوته، فوق سرير رهباني ضيق، يعلوه تمثال مسيح مصلوب، وعلى الجدار القصي -يستحيل أن ينسى هذا- صورة للقديس لورنس وهو يُشوى على المِنصَب. أول مرة جثا فيها الأب ماكنزي، يضمه من خصره، ويبكي: *نحن بلغنا القعرَ حقًا تلك المرة، أليس كذلك؟* هذه صيغة واردة لوصف الأمر، لكن «نحن»؟ بحق اللعنة، ما

الذي قصده بـ «نحن»؟ بعد فترة (وليست فترة طويلة، إذ كان طفلًا مبكر النضوج)، بدأ يتقاضى المال. ولم يكن بذلك يلجأ إلى الدعارة قدر ما كان يخترعها، إذ لم يسمع حينها بشخص آخر يحصل على المال بتلك الطريقة. الأب ماكنزي بدايةً، ثم آخرون.

الطريقة الوحيدة كيلا يَكُونَها هي أن يبغضها. ضيَّق عينيه وغبش ملامحَها، مازجًا إياها في الوجه الذي يثبتونه على أهداف تدريب الرماية. وغدٌ ألمانيٌّ متوحش يفترس الأطفال الرُّضَّع. لكنهم لا يريدون ذلك، الرجال الذين يستخدمون عينيه ويديه عوضًا عن أعينهم وأيديهم. أحس بهم ينسحبون، مثل موجة تنحسر.

حسنًا إذًا، هذا من *أجلي*. أنزل جبهته نحو جبهتها، وهو يعرف -دون حاجة إلى إخباره- أنها لن تتركه يقبِّلها. أخذت تتلوى تحته محاوِلةً التملص، فرفع وزنه عنها. ببطء وروية، وضعت سبابتها عميقًا داخل فمها، وأخرجتها بطرقعةٍ جفَّلَتْه، ثم -وقد تسنى له الوقت كي يخمن ما تنويه- خمشت أسفل ظهره برقة جعلته يرتعش ويولج فيها أعمق، وأقحمت إصبعها بقوة داخل استِه. *آه*، صاح من الصدمة أكثر مما من المتعة. بيد أنه كان قد انفجر وأراق ماءه، متطوحًا فوقها يلهث خلف أنفاسه، ضاحكًا، لاهثًا من جديد، الدموع تلسع عينيه وهو ينقلب عنها ويرقد ساكنًا. ها قد انفجر لغمُه في وجهه، فلطالما كانت هذه إحدى الخدع التي يلجأ إليها كي يضع حدًّا لزواره حين يتباطؤون أكثر من المعقول.

نهضت من فورها وقرفصت فوق الحوض، ففهم تلميحها وبدأ يرتدي ثيابه، متنشقًا بصوت مسموع قرب المدفأة وهو يزرِّر سترته.

- ما خطبك؟

- ظننتُ أنني أشم رائحة غاز.

- أوه، هذا. أجل، صحيح على الأرجح. الصنبور يسرب، لقد سئمتُ من إخبارها.

لن يفعل هذا مرةً أخرى، قرر وهو يثبت إبزيم حزامه. قد ينفع الأمر مع بعض الرجال، لكن... ليس معه. بالنسبة إليه، كانت العملية متعثرة، كمن يركض فوق الحصى. لم يكن متأكدًا في النهاية مَن يضاجع مَن. حتى الإثارة

التي شعر بها من فكرة التمرغ في ماء رجلٍ آخر كانت ملتبسة، على أقل تقدير. ليس أنه يمانع الالتباس (فلو صح ذلك لما استطاع أن يعيش على الإطلاق)، بيد أن هذا الالتباس كان من النوع الذي يختبئ الناسُ خلفه، وكبرياؤه هو لا تسمح له أن يختبئ.

•

نسي أمرها في طريق عودته إلى الثكنة. وقبل البوابة ببضع مئات من الياردات، مر بمجموعة ضباط. كان معظمهم يسيرون بخطوٍ جيد، وهم الآن صاحون إلى حدٍّ ما أكثر مما كانوا حين صادفهم في وقت سابق من المساء. إلا أن دالريمپل في حالة يُرثى لها، يوسِّع خطواته برفقتهم وعلى وجهه سيماء حالمة مهيبة توحي بشخصٍ هدفه الوحيد في الحياة هو الوصول إلى المرحاض قبل فوات الأوان.

«هل سيكون على ما يرام؟»، سأل پراير.

«سنحرص على ذلك»، أجابه بينبريغ.

مع دخولهم من بوابة الثكنة، لعلع الرعدُ على خط الأفق، وأضاء البرقُ الغيومَ للحظات. انتظر پراير تفرُّقَ الحشد قبل أن يسير نحو المبنى الرئيسيِّ كي يغتسل، وراح يفكر -وهو يتجرد من ثيابه ويرش الماء البارد على صدره ومغبنه- أن حجرة المغاسل المهجورة في الليل، ببلاطها الأبيض ومصابيحها العارية، هي أكثر تصويرٍ مقنع يستطيع العقل البشريُّ أن يرسمه للجحيم. حدق إلى المرآة الملطخة ببقع بُنية، متذكرًا اللحظة التي تفكك فيها وجهُ نيلي متحولًا إلى وجه الجندي الألمانيِّ على هدف الرماية.

«*ما أسوأ شيء يمكن أن تكون فعلتَه؟*»، هكذا كان ريڤرز يسأله.

سؤال مصطنَع. ريڤرز لا يؤمن بالأشياء الأسوأ، ويظن أن پراير يتكلف الدراما. ولعل هذا صحيح، قال پراير في قرارته، محدقًا في المرآة إلى صف الكبائن الخالية خلفه، شاعرًا أن «الأشياء الأسوأ» تحتشد وراءه، وتتدافع بالمناكب لتحظى بامتياز الالتصاق به. سبق له أن استفاق ثائبًا إلى رشده في

الرابعة أو الخامسة صباحًا دون أدنى فكرة عن الكيفية التي أمضى بها ليلته، مفكرًا في احتمال أن يكون قد قتل شخصًا. ومع ذلك، لمَ قد يكون هذا «أسوأ شيء»؟ رد له انعكاسُه التحديق، بعينين غائرتين في محجريهما. لا يكون القتل جريمةً سوى إن حدث في المكان الخطأ.

كانت الريح تشتد وهو يهرع فوق المكادام[1] المبرغَل نحو خيمته. أحنى قامتَه، وتهيأ لمواجهة روائح الآباط والجوارب التي تؤججها حرارةُ النهار المختزَنة. فرغم تركهم الطيات مفتوحة، ما من شيء يردع تحوُّلَ الخيام إلى أفران في الطقس الحار. سحب نفَسًا عميقًا، بقدر ما استطاع، ثم زحف إلى داخل الظلام النتن.

قال صوتٌ: «أهلًا».

بالطبع، إنه هاليت. لقد انفرد بالخيمة الأسبوع الماضي، لأن هاليت كان قد ذهب لحضور دورة قصفٍ في ريپون.

«هل ترى جيدًا؟».

أضاءت حزمةُ كشافٍ العشبَ الأصفر وأعقابَ السجائر المتناثرة فيه.

«بوسعي أن أدبر أمري، شكرًا».

رمَش پراير ليتكيف مع الظلام من جديد، وأدخل نفسه في كيس نومه.

«عدتَ لتوك من لندن، أليس كذلك؟».

سلَّمَ باضطراره إلى الكلام: «أجل، قبل أسبوع».

ومض البرق وكشف بياضَ عينَي هاليت. «هل مثلتَ أمام اللجنة أم ليس بعد؟».

- سأذهب ضمن قائمة السَّوْق التالية، وأنت؟

- القائمة التالية كذلك.

الصوت على سجيته، لكن الفم جاف.

«المرة الأولى؟»، سأله پراير.

«أجل، هي كذلك في الحقيقة».

---

(1) المكادام: مادة شبيهة بالأسفلت تُستخدم لتعبيد الطرق. (المترجم)

الآن إذ اعتاد پراير الظلامَ بات بوسعه أن يرى هاليت بوضوح: بشرة زيتونية، سحنةٌ تكاد تكون متوسطية، فمٌ أعوج لطيفٌ بأسنانٍ أمامية بارزة من الواضح أنه يستحي بها، فهو يتجنب رفع شفته العلوية كي يُخفيها. جذابٌ بحق، بيد أن پراير لا يسمح لنفسه أن ينجذب بتاتًا في هذه الظروف.

«الحق أنني أتطلع إلى الذهاب بالأحرى».

ظلت الكلمات معلقةً في الهواء، بانتظار جوابٍ من نوعٍ ما وضوحًا، لكن ماذا بوسع المرء أن يقول؟ إن الخوف يجمِّد أمعاءه، يحق له أن يجمِّد الخوف أمعاءه، وقد يكون من شأن أي تعليقٍ «مطَمئِنٍ» أن يسلط الضوء على واحدةٍ أو أخرى من هذه الحقائق البائسة.

«بعض الرجال في فصيلتي ذهبوا ثلاث مرات»، قال هاليت: «أظن أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يُقلقني، حقًّا. كيف يمكن بحق الجحيم أن تقود رجالًا يعرفون أكثر منك؟».

- فلتدعُ الله أن تحظى برقيبٍ جيد. الرقيب الجيد بحقٍ سيُعلِمك بالأوامر التي ينبغي أن توجهها إليه، ولن يدعَ أحدًا يراه وهو يفعل ذلك، كما لن يدع نفسه يعلم أنه يفعل ذلك.
- كم مرةً سبق لك أن...
- ستكون هذه المرة الرابعة. إصابة، صدمة قصف، حمى خنادق. ليس بهذا الترتيب.

كان هاليت مستلقيًا على ظهره، يشابك يديه خلف رأسه، لا شيء يُرى من زاوية پراير تقريبًا باستثناء ذقنه. يا للعشوائية الرهيبة التي يسير كل شيء وفقًا لها. لو أن والد هاليت أجَّل لحظة الترفيه التي عاشها عامين فقط لما كان هاليت هنا، بل ربما كانت الحرب لتفوته من الأساس، فيُمضي ما تبقى من حياته ينخزه خزيٌ لا منطقيٌّ من كونه أفلت. «خضوعٌ مُذعِنٌ لأشباح الأصدقاء الذين ماتوا»[1]. هذا هو الأمر بالضبط، ما من صياغة أفضل. الأشباح في كل مكان. حتى الأحياء، ما هم إلا أشباح قيد التحضير. يتعلم المرءُ أن يقتصد

(1) الاقتباس من إحدى قصائد مجموعة «هجوم مضاد» لـ «سيغفريد ساسون». (المترجم)

في ارتباطه بهم. هذه اللحظة في هذه الخيمة تصطبغ -منذ الآن- بطابع الذكرى، أو لعله يتقدم في السن ببساطة. لكنه، في المقابل وبعد كل شيء، كان متقدمًا في السن خلال وجوده في الخندق. جيلٌ استمر ستة أشهر، وأقل من ذلك على نهر السوم، بالكاد اثنا عشر أسبوعًا. إنه بمنزلة جد أبٍ بالنسبة إلى هذا الصبي.

نظر إلى هاليت من جديد، إلى عنقه الدافئ، وحاول أن يفكر في شيءٍ يقال، شيءٍ لطيفٍ خفيفٍ على القلب، لكن لم يخطر له أي شيء. راح -عوضًا عن ذلك- يحدق إلى قماش الخيمة المبقع، الذي تضيئه ومضاتُ البرق الصيفيِّ، ولاحظ أن البقعة الأكبر تشبه خريطة إفريقيا.

4

خطان أسودان يطوقان ساقَي موفيت فوق الركبة مباشرةً.

«أغمِض عينيك»، قال ريڤرز: «أريدك أن تقول لي ما تحس به بالضبط».

- وخزٌ بالدبوس.

- كم وخزة؟

لمسته الدبابيس مجددًا.

«اثنتان».

مجددًا.

«واحدة».

مجددًا.

«اثنتان»، بدا موفيت ضجِرًا: «اثنتان، اثنتان»، سكتة، «لستُ متأكدًا».

«حسنًا، بوسعك أن تفتح عينيك الآن».

لم يكذب ولو مرة واحدة. كان مستلقيًا وقد أغمض عينيه، تحت الجفنين الرقيقين رفرفةٌ مرئية، وريڤرز قرأ غواية الكذب في كل خطوط وجهه وطياته، ومع ذلك كانت متوالية أجوبة الـ «نعم» والـ «لا» دقيقةً تمامًا. صحيحٌ أنه ما كان ليطمح أن يكذب بشكل مقنع، أو أن يفعل ذلك لفترة طويلة، لكن كان لافتًا أنه لم يجرب. إنها هستيريا صِرفة، لا يشوبها التمارُض.

«ريڤرز، أيحدث أن تفكر أنك وُلِدتَ في القرن الخطأ؟».

بدا ريفرز متفاجئًا: «لعلك تقصد «بقيتُ حيًا خلال القرن الخطأ»».

- القصة أن هذا يذكّرني بمطاردي الساحرات في القرن السابع عشر، أتعلم؟ كانوا يخزون الناس بالدبابيس أيضًا.

- أظنهم كانوا يبحثون عن الشيء نفسه، مناطق الإحساس غير السويّ.

- أتعتقد أنهم كانوا يجدونها؟

رفع ريفرز ساق موفيت اليسرى وبدأ يرسم خطًا تحت الخط الذي رسمه صباح الأمس بثلاثة إنشات. «لا أرى ما يمنع ذلك. بعض الساحرات كُنَّ مصابات بالهستيريا على الأرجح، على الأقل كثيرٌ من الظواهر الموثقة تقترح ذلك».

- وماذا عن *مطاردي* الساحرات؟

- لا أدري. أبسط، وأكثر بذاءة.

- لا أحب هذه الكلمة، حين تُستخدم لوصف هذا.

«الهستيريا؟». يمكنه حقًا تفهُّمُ أن مصطلح «صدمة القصف»، رغم كل افتقاره إلى الجدوى والدقة، قد يروق لموفيت أكثر، فهو على الأقل يبدو مناسبًا للذكور. «لا أظن أن أحدًا يحبها. المشكلة أن لا أحد يحب بدائلها كذلك».

«إنها مشتقة»، تابع موفيت مُخشِّنًا نبرته: «من كلمة ***hysterā*** اليونانية، التي تعني «الرحم»».

«أجل»، قال ريفرز بجفاء: «أعلم».

مشكلةُ موفيت أنه أكثر ذكاءً من أن ترضيه أجوبةٌ بدائية مثل الشلَل. الأعراض الهستيرية من هذا النوع الفادح -كالشلل والصمم والعمى والبكم- تحدث بتواتر كبير في أعقاب الرَّضّ النفسيّ مباشرةً، لكنها لا تطيل البقاء عادةً إلا لدى المرضى الأميين أو ذوي الغباء الظاهر، وموفيت ليس من هؤلاء ولا أولئك.

أما مسألة إذا ما كان هذا الأسلوب العلاجيُّ ذو الصبغة الدرامية الواضحة يُجدي نفعًا... أوه، سوف يُفضي إلى التخلص من الشلل فعلًا، لكن ألا يوجد احتمال أنه أيضًا قد يعزز إيمانًا بالحلول السحرية؟ تنهد ريفرز واستدار حول السرير. كل غرائزه تعارض الأمر، لكنه يعلم أنه سيُنهض موفيت على قدميه

من جديد. بوسع طبيبٍ مشعوذٍ أن يفعل هذا، قال لنفسه إذ بدأ يرسم، وربما على نحوٍ أفضل مني. وإذا فكر في الأمر جيدًا، فثمة شخص معين كان ليفعل هذا على نحوٍ رائع...

خلال وجوده في ميلانيزيا، لم يلبث طويلًا حتى تكونت لديه عادةُ مرافقة نْجيرو في جولاته. كانا ينطلقان معًا، ودائمًا في رتلٍ أحاديٍّ، لأن الطريق الملتف عبر الآجام الكثيفة أضيق من أن يتيح لهما السير جنبًا إلى جنب.

لدى النظر إليه من الخلف، كان اعوجاجُ عمود نْجيرو الفقري ظاهرًا بشكل مفزع. وتساءل ريفرز كيف تُفسَّر تشوهاتٌ كهذه؛ أي أرواح تنزلها بالناس، ولماذا؟ العرق يلسع أجفانه المتقرحة، فيُضطر دائمًا إلى مسح وجهه بساعده. السبب الأول هو الحَر، لكن القلق كان يلعب دوره كذلك. الأمر يشبه بعض الشيء اليوم الأول في مدرسةٍ جديدة، قال لنفسه، تُدرك أن *عليك* فعل الأمور على النحو الصائب، وأن فرصتك في ذلك متناهية الصغر لأنك لا تعرف شيئًا. إلا أنك في المدرسة، كونك تبدأ مع الآخرين في الوقت نفسه، تستطيع أن تحل المشكلة من خلال التماهي مع المجموعة، والتحرك ذات اليمين وذات الشمال برفقة بقية الأسماك الرمادية الصغيرة، ملتمِسًا الأمانَ في الجماعة. لكنه هنا وحيد، في ما خلا هوكارت، وهوكارت هذا يعاني الحمى منذ أول وصولهما، وقد اختار اليوم أن يبقى في الخيمة ولا يخرج.

في القرية، دخل زاحفًا إلى أحد الأكواخ وجلس القرفصاء على الأرضية الترابية يشاهد ويصغي، فيما عُنِيَ نْجيرو بمريضته. امرأة مسنة، وواضحٌ أنها من مرضاه المعهودين حكمًا على الطريقة التي يتبادلان بها الضحك والمزاح. قُدِّمَت إليه باسم نامبوكو تارو، لكن تبين أن كلمة «نامبوكو» -التي اعتبرها اسمًا في البداية- كانت لقبًا بمعنى «أرملة». الكلمة نفسها تعني «أرمل» أيضًا، لكنها لا تُستعمَل لقبًا لدى وصف الرجال. حقيقتان أخريان غير مترابطتين تُضافان إلى كومته الصغيرة إلى حدٍّ مُحبِط.

استلقت نامبوكو تارو، ودفعت شريط قماش اللحاء الذي ترتديه إلى الأسفل مسافةً كافية للكشف عن بطنها. صبَّ نْجيرو زيت جوز الهند على البطن وبدأ يدلكه، فيما حاول ريفرز أن يكتشف العلة. إنه الإمساك، كما يبدو.

أراد أن يسأل إذا ما كان إمساكًا مزمنًا -نظرًا إلى سنها- أم ثمة تغير حديث في التبرز وحركة الأمعاء. وهل هو مجرد إمساك، أم أن الحالة تترافق مع نوبات من الإسهال؟ لكن مساعيه إلى إيصال مصطلح «نوبات الإسهال» عن طريق مزيج من اللغة الهجينة والتمثيل الإيمائيّ هددت بتعطيل الإجراءات برمتها، لذا تراجع عن ذلك، فيما كانت نامبوكو تارو تمسح دموع الضحك عن وجنتيها. هو ربما لا يساهم في العلاج، بيد أنه يشغلها عن حالتها دون ريب.

في تلك الأثناء، بدأت حركات يدَي نْجيرو تركز على منطقةٍ إلى أسفل ويسار السرة. كان يترنم بصوت خفيض، متمايلًا إلى الأمام والخلف، ويجمع اللحم المترهل بين عَقِبَي راحتَيه، مثل امرأة تعجن. بدا للتمتمة الخفيضة المستمرة والحركة الإيقاعية أثرٌ منوم. ثم فجأةً، ندت عن نْجيرو صيحة تشبه العواء، وبدا أنه قد أمسك شيئًا. حمله بين يديه المضمومتين زاحفًا نحو الباب، ثم رماه أبعد ما استطاع في الآجام. دار حديث مقتضب بين الطبيب والمريضة، ثم شدت نامبوكو تارو لباسَها ومضت بين الآجام، لتظهر من هناك -بعد عشر دقائق- امرأةٌ تُبدي سعادةً أكبر بكثير.

أخذ ريڤرز ونْجيرو يتحدثان في تلك الأثناء. الحالة التي تشتكي نامبوكو تارو منها تنتمي إلى مجموعة أمراض تُسمى تاغوسورو، تُسببها روحٌ تُسمى ماتيانا. وهذه الحالة تحديدًا -واسمُها نْغاسين- سببُها أخطبوط استقر في القسم السفليِّ من الأمعاء، وقد تمتد مجساتُه من هناك إلى أن تبلغ الحنجرة، آنذاك يصبح المرض مميتًا. وكما يحدث كثيرًا، يستطيع المرء أن يستبين -خلف معتقدات السكان المحليين- المعالمَ المبهمةَ لمرضٍ مألوفٍ جدًّا لدى الطب الغربيِّ، لكن هذه قد لا تكون طريقةً مفيدةً للنظر إلى الأمر. لقد صدَّقَت نامبوكو تارو أنها شُفِيَت، ومن الصعب تقديم علاج يتفوق على ذلك التدليك للإمساك البسيط بالطبع، كما أنه لم يختلف عن التدليك الغربيِّ في أيٍّ من النواحي الأساسية، باستثناء ما حدث في نهايته.

أشار ريڤرز إلى نفسه ثم إلى زيت جوز الهند، فأومأ نْجيرو برأسه وصب الزيت في راحتيه، ثم بدأ التدليك وهو يترنم ويتمايل... ذلك التأثيرُ المنوم الذي يثير الفضول من جديد، إحساسٌ بالخضوع لتركيز كامل، وعناية كاملة. نْجيرو طبيبٌ جيد، بغض النظر عن عدد الأخطبوطات التي يعثر عليها في

القولون. راحت الأصابع تجس أعمق، والترانيم تزداد سرعة، وشارفت حركات اليدين على بلوغ ذروتها، ثم... لا شيء. اعتدل نْجيرو في جلسته مبتسمًا، وأنهى التلامسَ البدنيَّ بنفس اللباقة التي بدأه بها.

قلد ريڤرز الحركة التي لم يفعلها نْجيرو: «أنت لا يرمي الـ... *نْغاسين*؟».

ومضةُ تَهَكُّم. «أنت ليس عنده *نُغاسين*».

أما *أنت* فلديك، قال ريڤرز في قرارته وهو يمسح خطوط الأمس السوداء بالإسفنجة عن ساقَي موفيت.

«وغدًا»، قال بنبرةٍ سُلطوية، راسمًا الحدود بسبابتيه: «ستكون هذه المنطقة طبيعية».

حملق موفيت إليه: «أنت تحطم احترامي لِذاتي بشكلٍ واعٍ ومتعمَّد».

«أظنك ستجده قد بدأ يرجع إليك ما إن تنهض على قدميك».

كانت الأخت كارمايكل تحوم على الجانب الآخر من السواتر، بانتظار أن تنتزع العربةَ منه. إنها مصدومة من إصراره على فعل كل شيء بنفسه، بما في ذلك مسح الخطوط السابقة. الاستشاريون لا يغسلون المرضى، بل الممرضات هن من يفعلن ذلك. لن يزداد ضيقُها إلا قليلًا إن حدث ودخلت الجناح فوجدته يمسح الأرضية. الأمر الذي لم يستطع جعلَها تستوعبه هو أن قواعد الطب شيء وقواعد الدراما الشعائرية شيء آخر تمامًا.

لقد مر وانسبِك بليلةٍ سيئة، قالت له حالما انتزعت العربة. بلغت حرارته 103 درجات[1]، وظل يحاول أن يفتح النافذة.

«حسنًا، سأراه الآن».

---

(1) أي ما يقارب 39.5 درجة على مقياس سيليزيوس. يُذكر أن مقياس فهرنهايت (الوارد هنا) ظل قيد الاستخدام الرسمي في المملكة المتحدة حتى مطلع ستينيات القرن العشرين. (المترجم)

كانت الممرضات قد أنهين لتوهن غسل جسد وانسِك، وهو يرقد نصفَ عارٍ، بشرته بيضاء تشوبها زُرقةٌ متخثرةٌ مقارنةً ببياض الملاءات الناصع. بينما كان ريڤرز يشاهد، سرَت رجفةٌ في ذراعيه وصدره، فخشَّنَت البشرةَ وقتَّمَت لونَها. انتهينَ من تنشيفه وغطينَه، فصار يستطيع أن يتكلم، إلا أن ضعفه بالكاد سمح له أن ينبس ببضع كلمات.

لقد بدأ ريڤرز يشعر بالقلق على وانسِك. إن فَوعة الإنفلونزا الإسبانية شديدةٌ على نحوٍ غير معهود، وإصابته بها بليغة، مع ذلك يبدو غير مُبالٍ بما سيؤول إليه. قبض ريڤرز على معصمه بحزم: «تعلم أن عليك أن تحارب مرضَك هذا».

لعل «المحاربة» هي الكلمة الوحيدة التي فهمها. «فعلتُ ذلك بما يكفي»، تمتم وأشاح بوجهه.

في وستمنستر، كان لون أوراق الشجر قد بدأ يتحول. ليس إلى الأحمر والذهبيِّ المتألقَين المعهودَين في الريف، بل إلى أصفر كامدٍ رث. ما هي إلا بضعة أسابيع حتى تبدأ بالتساقط. أسوأ ما في لندن هو أن الصيف ينتهي بهذه السرعة.

«أتعلم؟ أحيانًا»، قال ريڤرز بأناة، وومضَت نظارتُه وهو يُدير ظهره إلى النافذة: «يكون من المفيد أن نراجع الأمور ونحاول أن أن أن أن... نستجمع زمامها. لذا، دعنا نرَ إن كنتُ فهمتُ بشكل صحيح. لقد دخلتَ إلى المستشفى بعد حادثة ركوب خيل...».

- أجل، هذا صحيح. لم أنتبِه أن الفرَس...

- أجل. وفي أثناء وجودك هناك، قطعَت لك إحدى الممرضات عضوك ووضعَته في مرطبان مملوء بالفورمالدهيد في القبو.

هز تيلفورد رأسه: «لم أقُل فور.. فور...».

- فورمالدهيد. كلا، أعلم أنك لم تقل ذلك. لكنهم لا يستخدمون الخل لهذه الأغراض.

- آه، كما ترى، هذه أمور تعرفها أنت.

نفَسٌ عميق. «لماذا تعتقد أنها فعلت ذلك؟».

رفع تيلفورد كتفيه: «لا أدري».

«لكن لا بد أن تكون *تساءلتَ*. أقصد أنه تصرفٌ صاعقٌ بحق، أليس كذلك؟».

«لم أكن في موضعِ طرح الأسئلة»، انحنى تيلفورد إلى الأمام، ليُطلق ما يظنه -كما هو واضحٌ- رصاصةَ الرحمة: «لن يروق لك أن أعلِّمك عملَك، صحيح؟».

في هذه اللحظة، كان ليرحب بأي عونٍ يُتاح له. «ألم يقل الطبيب شيئًا؟».

«لم ينبس ببنت شفة».

«تيلفورد»، شابكَ ريڤرز يديه: «من أين تبول؟».

- من عضوي، أيها الوغد الغبي، من أين تبول أنت؟

ركز ريڤرز على تعديل وضعية دفتره. «أتساءل إذا ما قد يكون من المفيد أن نتحدث قليلًا عن النساء؟».

ربما كان ذلك مفيدًا، لم يُقيَّض له أن يعرف. بعد بضع دقائق، قال تيلفورد: «لا أستطيع ادعاء أن نبرة هذا الحديث تروق لي يا ريڤرز. ربما فاتك أن تلاحظ هذا، لكننا لسنا في ثكنة عسكرية»، نهض واقفًا: «يعلم الله أن آخر ما أريد فعله هو استغلال رتبتي، لكنني سأكون ممتنًّا إن ناديتَني *الرائد* تيلفورد في المستقبل».

خرج وصفق الباب خلفه.

استلقى موفيت على ظهره، مغمضًا عينيه، يكز على أسنانه: «*أجل، أجل، أجل، أجل*»، فيما كان الدبوس يخز جلده.

الروتين المعتاد نفسه، ومع ذلك ثمة شيءٌ مختلف. لقد اختفَت مسحةُ اللامبالاة. متعمدًا، ترك ريڤرز الدبوس يخرج عن الخط إلى الجلد الذي يُفترَض أنه ما يزال خَدِرًا.

«*أجل، أجل، أجل*».

توقف الدبوس، ففتح موفيت عينيه وابتسم بضجر: «يمكنك أن تتابع حتى أخمص قدمي إن أردت». أغمض عينيه من جديد، وحرك ريڤرز الدبوس على طول الساق يخز في نقاط بفارق إنشين. «أجل. أجل. أجل. أجل». صار يقولها بملل، وتأتي كل «أجل» في لحظة لمسِ الدبوس لبشرته تمامًا. فوق قصبة الساق، مرورًا بقوس القدم، وصولًا إلى رأس الإصبع الكبيرة. «**أجل**».

لفظ موفيت الكلمةَ صياحًا. وعبر الفرجة بين السواتر، رأى ريڤرز المرضى الآخرين يستديرون محدقين إلى السرير المحجوب. ترك الدبوس من يده: «حسنًا».

لم يفاجئه الأمر تمامًا، كثيرًا -بل يكاد يمكن أن يقال عادةً- ما يكون زوالُ الشلل الهستيريِّ مفاجئًا مثل ظهوره. ظل موفيت يرقد ساكنًا، وجهُه شاحبٌ فوق بياض الوسادة، لا يبذل أي محاولة لإخفاء إحباطه. وبالفعل، لمَ عساه يفعل؟ لقد سُلِب دفاعه الوحيد أمام ما لا يطاق وظل محلُّه خاويًا.

- متى حدث هذا؟

- أولَ الصباح.

- هل حاولتَ أن تمشي؟

- ليس بعد.

- أتريد أن تفعل؟

- تبدو هذه الخطوة التالية منطقيًّا، إن جاز التعبير.

- هل تستطيع أن تُدير جسدك؟ اجلس على الطرف.

جثا ريڤرز وبدأ يدلك ربلتَي موفيت، ويفرك اللحم المترهل بين يديه.

«يُتوقَّع مني أن أكون ممتنًا كما أعتقد».

«كلا»، نهض واقفًا: «حسنًا، هلَّا جربنا؟ ضع يديك على كتفيَّ».

رفع موفيت نفسَه عن حافة السرير.

- كيف تشعر؟

- لا أدري، شعور غريب.

«أتود أن تجرب بضع خطوات؟». بارتباكٍ أخرق، مثل راقصين تعوزهما الموهبة، جرجرا أقدامهما على الأرضية، والستائر تنتفخ حولهما. رفع ريڤرز يديه وتحرر من قبضة موفيت. «كلا، أنت تُبلي حسنًا، أنا معك». خطوتان اثنتان، ثم تطوَّحَ موفيت إلى الأمام بين ذراعيه. أرخاه ريڤرز على السرير مجددًا. «أظن أن هذا كافٍ في الوقت الحاليّ».

هوى موفيت على الوسائد.

«من المهم أن تثابر على المحاولة، لكنني لا أنصح بذلك مبدئيًا دون وجود مساعد تمريضٍ برفقتك»، تردد: «تعلم أنه سيتعين علينا الكلام عن سبب حدوث هذا».

انتظر، بيد أن موفيت ظل على صمته العنيد.

«سوف آتي لأراك من جديد لاحقًا».

في وقتٍ لاحقٍ بعد تلك الظهيرة، اقترب منه الرائد تيلفورد -كما بات عليه أن يتذكر مناداته- ونقر على كتفه برصانة. «نعم، حضرة الرائد تيلفورد، ما الأمر؟».

همسةٌ تآمرية: «مشكلة صغيرة في المراحيض».

تبعَه ريڤرز إلى حجرة المغاسل، متسائلًا أي جزء تشريحيٍّ عساه يكون سقط من تيلفورد هذه المرة.

أشار تيلفورد إلى الحمام: «الفتى في الداخل منذ دهور».

- أجل، لكن...

- إنه يتأوه طيلة الوقت. حسنًا، لقد... لقد توقف الآن.

هز ريڤرز مقبض الباب: «مرحبًا؟».

«جربتُ هذا، إنه مُقفَل».

مُحال - لا توجد أي أقفال. انبطح ريڤرز ونظر من تحت الباب. الكثير من الماء طفَّ واندلق على الأرضية، ويمكنه أن يرى ذراعًا متدليةً عن حافة حوض الاستحمام: ذراع بيضاء منتفخة ينز الدم من معصمها. لقد حُشِرَ

كرسي تحت مقبض الباب. حاول أن يدفعه، لكن لا جدوى. نهض واقفًا وركل الباب. كان الباب بالكاد أسمك من الكرتون -ليست الحمامات أكثر من كبائن أُلحِقَت بالبناء بكلفةٍ بَخسة حين طوَع مكتبُ الحرب المستشفى للاستخدام العسكريّ- فتكفلت الركلةُ الثانية بخلع المفصلات. اندفع إلى داخل الحمام، وأجفل لرؤية وجهه في المرآة. وجد موفيت راقدًا في حوض الاستحمام، والماء الورديُّ يلف بطنَه اللامع مع ارتفاعه وهبوطه. إنه يتنفس على كل حال. رأسه منزلِقٌ إلى الجانب، لكنَ منخرَيه خارج الماء. تدحرجت زجاجة ويسكي على الأرضية عندما جثا ريڤرز أمام الحوض. المعصمان مقطوعان كلاهما، الجرح الأيمن سطحيٌّ، لكن الأيسر عميق. لقد فقد كميةً معتبَرةً من الدم على الأرجح، إلا أن الجزم بذلك مستحيلٌ في الماء اللعين. رفع جفنَي موفيت، وشمَّ نفَسَه، وتلمَّسَ النبض...

«ميت، أليس كذلك؟»، سأله تيلفورد بمرح.

ميتٌ من السَّكر. «أظن أنه سيكون على ما يرام».

المشكلة تكمن في انعدام المساحة، بالكاد يوجد مكانٌ يكفي كي يحشر ساقه إلى الركبة بين المغسلة والحوض. تعيَّن عليه أن يحني جذعَه ليضع يديه حول صدر موفيت، ثم انزلقت رؤوس أصابعه على الجلد البارد المنتفخ. ظل تيلفورد واقفًا يتفرج.

«أمسِكْ ساقَيه».

راحا يرفعان، لكن دون تنسيق، إلى أن تمكن ريڤرز أخيرًا أن ينتشل الكتفين من الماء لحظةَ سئمَ تيلفورد من الانتظار وترك الساقين تسقطان من جديد. كانا يلهثان خلف أنفاسهما، والكتفان ترتطمان داخل المساحة المحصورة.

«حسنًا، كلانا معًا»، قال ريڤرز: «واحد، اثنان...».

انتُشِل موفيت من الماء، لكنه سرعان ما هوى مجددًا بموجةٍ هائلةٍ طارت وغرَّقتهما كليهما.

«سأجرب أن أضع ساقي تحته»، قال تيلفورد.

رفعاه مرةً أخرى، وأدخل تيلفورد رجلَه في الماء كي يهدئ موفيت على فخذه، فيما سندَ ريڤرز الرأس والكتفين. تجمَّدا على هذه الوضعية، في نسخةٍ بعيدة الاحتمال وفاحشةٍ على نحوٍ مبهم من تمثال پييتا[1]. «تمام؟»، سأله ريڤرز.

«أجل، أنا أمسكه».

خرُّوا متكومين فوق بعضهم على الأرضية، وأخذ الدم يتدفق من معصم موفيت الأيسر بغزارة أكبر؛ تناثرت القطرات القانية فرادى على البلاط المُرقَش. سحب ريڤرز منشفةً نظيفةً عن العلَّاقة وضغط بها بشدة على الجرح الأعمق. «هاك، تولَّ الأمر»، قال: «سأحضر الأخت روبرتس. الآن اضغط فقط، لا حاجة إلى أي شيء آخر. لا تستخدم *مرقأة*».

«ما كان هذا ليخطر لي»، أجاب تيلفورد نافشًا منكبَيه.

اعترض ريڤرز طريقَ الأخت روبرتس في أثناء تجولها في الجناح.

«موفيت»، قال مشيرًا إلى وراء ظهره: «لقد شرَطَ معصمَيه، نحتاج إلى كرسي متحرك».

عاد ليجد تيلفورد مُنبَرِيًا لتسلية موفيت -الذي بات نصفَ واعٍ الآن- بقصةٍ عن سائسِ خيلٍ غِرٍّ شدَّ مِرقأةً على ساق حصان الصيد المفضل لديه. «سرَت الغنغرينة فيها، تخيل! اضطررنا أن نطلق النار على البهيمة المسكينة»، أطرق تيلفورد ينظر إلى الجفنين الراعشين: «ولم يكن إلا خدشًا سطحيًّا».

كان موفيت يتخبط مثل سمكة ألقاها البحر، يئن ويستفرغ عصارة صفراء. دق ريڤرز بأصابعه على خده: «هل تناولتَ أي شيء؟».

وصلت الأخت روبرتس إلى الباب يرافقها صرير الكرسي الذي تدفعه. رفع تيلفورد نظرَه إليها، مُرتاعًا، ثم جذب فوطة فلانيل عن حافة الحوض وغطى بها أعضاءَ موفيت.

---

(1) Pietà: تمثال من الأعمال الخالدة للفنان ميكيلانجلو، يجسد تصويرًا للمسيح في حضن أمه مريم العذراء عقبَ إنزاله عن الصليب. والكلمة إيطالية تعني «العطف» أو «الشفقة»، وتُستخدم للدلالة على إحدى ثيمات الفن المسيحي التي تصور هذا المشهد من آلام المسيح. (المترجم)

«حبًّا بالله يا رجل»، صاح ريفرز بانفعال: «إنها ممرضة». لكن بالنظر إلى قصة تيلفورد، لم تكن حِشمةُ الأخت روبرتس هي ما يظن أنه يحميه على الأرجح. «لو أمكن أن تجلبي لنا بعض البطانيات»، قال وهو يتلوى داخل المساحة الضيقة.

تدلَّى رأس موفيت جانبًا وهم يحملونه إلى الكرسي ويلفونه بالبطانيات، إلا أن ريفرز بدأ يشتبه أنه أكثر يقظةً مما يبدو عليه.

«حسنًا»، قال منتصبًا بقامته: «أعتقد أنني أستطيع أن أدبر أمري الآن يا حضرة الرائد تيلفورد. شكرًا لك، لقد كنتَ لي خيرَ عون».

«لا بأس»، نظر إلى موفيت، وتنشَّق من منخرَيه: «ساعدَني هذا على تزجية فترة الأصيل. أيًّا يكن، ما كلُّ تُرَّهاتِ «حضرة الرائد» هذه؟»، سأل مسددًا لكمةً هازلةً إلى عَضُد ريفرز: «لا تكن شققةً واحدةً هكذا يا رجل».

ثم سار مبتعدًا، يصفر لحنَ «يا لي من عازبٍ خَليِّ البال[1]».

دفعا موفيت على كرسيه متجهَين نحو جناحٍ جانبيٍّ، إذ لا شيء أسوأ للمعنويات في جناح «صدمة القصف» من محاولة انتحار، باستثناء الانتحار الناجح طبعًا. إنه يتذكر الرجل الذي نجح في شنق نفسه في كريغلوكهارت؛ عدا عن مأساته الخاصة، فقد أضاع جهدَ أسابيع من العمل المتأني على أشخاصٍ آخرين.

كان الجرح الأعمق يتطلب تقطيبًا، لذا بدأ ريفرز العملَ فورًا، وفاجأه بعضَ الشيء أن يجد موفيت متجلِّدًا. أخذ يشاهد الإبرة تنغرز وتخرج، ولم يبدر عنه سوى أنه لعق شفتيه مرةً فقط قبل النهاية.

«ها أنت ذا»، قال ريفرز: «انتهينا».

أدار موفيت رأسه متبرمًا: «لم أنجز العمل على وجهٍ جيد، أليس كذلك؟».

«هذا لا يحدث مع الكثير من الناس. الشخص الوحيد الذي نجح بهذه الطريقة ممن أعرفهم كان جراحًا؛ لقد بتر يدَه اليسرى عمليًّا»، نهض وفرد ساقيه، ضاغطًا يده بقوة على أسفل ظهره: «كم من الويسكي تناولت؟».

«نصف زجاجة، وربما أكثر بقليل».

---

(1) A Bachelor Gay Am I.

لا جدوى من الكلام معه إذًا.

- من أين حصلتَ عليه؟

- من والدتي. هل هذا مهم؟

- والشفرة؟

بدت الحيرة على موفيت: «إنها لي».

- حسنًا، حاوِل أن تنال قسطًا من النوم.

- هل سيتعين عليك أن تخبر الشرطة؟

«لا»، أطرق ريڤرز ينظر إليه: «أنت جندي، وتخضع للنظام العسكريّ».

وجد الأختَ روبرتس تنتظره. «أخشى أننا لا نستطيع التغاضي عن هذا»، قال لها: «من المفترض أن يجري تفتيش الخزانات بانتظام».

«سأسأل الآنسة بانبيري، هي آخر من فعل ذلك».

وهي أيضًا أبغض الناسِ إلى الأخت روبرتس، لسببٍ لا يعدو كونها طيبة النية وخرقاء متحمسة ناقصة الأهلية وتنتمي إلى الطبقة العليا.

- والدته هي من أعطاه الويسكي.

- لا أستطيع قول إني متفاجئة. امرأة ساذجة.

الأخت روبرتس -وفقًا لما يعلمه من عدة أحاديث دارت في أثناء الغارات الجوية في الشتاء السابق- هي الفتاة الأكبر في عائلة تتكون من أحد عشر فردًا. لقد شقت طريق خروجها من أحياء غيتسهيد الفقيرة بالمخالب، لذلك تشعر أنها مُلزَمة بالإيمان بالتأثير المتلِف الذي يخلفه الطعام الجيد والسكن الجيد والتعليم الجيد في النفس البشرية.

«لقد كشف تيلفورد عن جانبٍ خفيٍّ بعض الشيء من نفسه، أليس كذلك؟»، قالت: «رباطة جأشٍ مفاجئة».

«أوه، لا بأس بتيلفورد. قبل أن يفتح فمَه الكبير لم يلحظ أحدٌ أنه مجنون»، أضاف، ولم تكن ملاحظتُه مُلحقةً إلحاقًا بالكامل: «إنه يعمل لدى مكتب الحرب».

بعد خروجه، التقى وانسبك في الدهليز، وقد بات أفضل حالًا بكثير إنما ليس بما يكفي للنهوض والتنقل بالتأكيد.

«كيف تشعر؟»، سأله ريڤرز.

– أحس ببعض الضعف. ما زال حلقي يؤلمني، لكنني ما عدت أسعل بالقدر نفسه.

– الأفضل لك أن تبقى في سريرك. هيا، فلتعُد.

حالما انصفق الباب منغلقًا خلف وانسبك، انتبه ريڤرز إلى طقطقةٍ ثابتة. ما من شيء يفسرها. الدهليز الطويل يمتد أمامه خاويًا، وظلال أُطُر النوافذ ترسم خطوطًا واهيةً على أرضيته الرمادية ذات اللمعان الشاحب. طق، طق، طق. ثم أدرك أن الصوت ناتج عن الخرَز المعلق بطرف خيوط الستارة وهو يرتطم ببعضه مع النسيم الخفيف، لكن لم يبدُ أن تحديد مصدر الصوت خفَّف سطوتَه. كان يشبه صوت حبال أشرعة يختٍ تقريبًا، بيد أن الذكرى موغلة أعمق من ذلك.

كان قد وصل إلى المصعد قبل أن يتمكن من نبش تلك الذكرى. ذلك اليوم، أخذه نْجيرو كي يرى بيوت الجماجم في پا نا غوندو. سارا أميالًا في الحر القائظ؛ الهواء بالكاد يتحرك، وما من صوت إلا طنين الذباب. ثم، وعلى حين غرة، خرجا إلى فسحة تترامى فيها نِصالٌ حادةٌ من ضوء الشمس المنسل من بين الأشجار، فلاحت أمامهما فوق المنحدر ستة بيوت جماجم أو سبعة، أسْوِجَتُها مُزينةٌ بخيطان أصدافٍ متدلية. شعور الخضوع للمراقبة الذي تبعثه الجماجم دائمًا. منبهرًا بالضوء المفاجئ، تَبِع نْجيرو صاعدًا المنحدر نحو عقدةٍ من الظلال المتشابكة، ثم تحرك أحدُ هذه الظلال، ليستقر متخذًا شكلَ ناريتي، كاهنِ المدفن الأعمى الذي يجلس القرفصاء هناك، ركبتاه ومرفقاه مدببة، والقيحُ يرسم من زاويتَي عينيه خطين يشبهان أثرًا خلَّفته بزاقة.

كان بيت الجماجم الأبعد يخضع للترميم، وقد أُخرِجَت محتوياتُه وصُفَّت على الأرض بحيث بدت الفسحةُ –لدى النظرة الأولى– مرصوفةً بالجماجم. أبطأ السيرَ، إذ لم يكن متأكدًا كم يُسمَح له أن يقترب، ولحظتئذٍ هزت عصفةُ ريحٍ قوية مفاجئة الأشجار فراحت خيطانُ الأصداف النذرية تخشخش مرتطمةً ببعضها.

انفتح باب المصعد في وجهه مُصدِرًا صليلًا، فأعاده من غفلته إلى حاضره.

5

كانت آدا لام ترتدي الأسود دائمًا، ليس حِدادًا على زوجها -إن كانت قد حدَّث يومًا من الأساس- بقدر ما لأن الأسود يُمَكِّن من الاحتفاظ بمسحةٍ من البهاء المحترم مقابل كلفة في الحد الأدنى.

نَيلُ الاحترام يقوم عند آدا مقام الإله. لقد وصلت إلى هذا الحي قبل ثمانية عشر عامًا، أرملةً مستجدة -أو هكذا ادعت- ترافقها ابنتان صغيرتان جميلتان لا غبار على ملبسهما. كان المنزل مِلكًا لرجلٍ يُدعى ديرتي ديك[1]، يهذر ويغمغم ويرعب الأطفال على زوايا الشارع، وتتكوم في كل غرفِه أكداسٌ مرتفعة من الجرائد المصفرة. في غضون أسابيع قليلة، أتمت آدا طلاء المنزل، وفرك عتبةِ الباب، ودهن الموقد بالغرافيت، وتركيب الستائر الرقيقة على كل النوافذ. وعلى مسافة أمانٍ من المنزل، اشترت محلًّا صغيرًا تبيع فيه أحذية جلدية وملابس مستعملة، إضافةً إلى تشكيلة واسعة -تحت الطاولة- من الأدوية التجارية المُعدة لإحداث الإجهاض أو علاج القرقعة. عصارة النعناع الأوروبي، عقار د. لوسن لكل ما يعترض طريق الأنثى، شراب د. مورس المقوي، عقار كورتيس للرجولة، علاج السير صامويل هاناي النوعي، دواء بامستيد للإفرازات الإحليلية، العقار الصديق لذوي الحظ العاثر، ديفيز لاك-

(1) ديرتي: قذر، ومن المعتاد في المجتمعات المتحدثة بالإنجليزية -لا سيما الريفية منها- إلحاق صفةٍ يكنى بها الشخص حتى تلازمه وتصبح جزءًا لا يتجزأ من اسمه. (المترجم)

إيليفانتيس، وهو معلَّقٌ كريه الرائحة يحتوي على الطبشور وما لا يعلمه إلا الله، يُزعَم أنه حليب فيَلة ممزوج بمواد طبية.

لكن أيام الأحد كانت تُقفِل المحل وتستضيف القس، الموقر آرثر ليندزي، في غرفة توحي أنها خُصِّصَت لهذا الغرض. أثاث من خشب السنديان الداكن، نباتات لها أوراق مطاطية سميكة متينة -لم تكن آدا تطيق صبرًا على الأزهار التي تذبل وتموت دائمًا- وإنجيل العائلة المعروض بشكل بارز فوق طربيزة، مفتوحًا على نصٍّ مشجعٍ اختير عمدًا. في هذا المحيط، تصب آدا الشاي في أكواب خزفية، وتمسح فمها الذي يشبه مصيدة فئران بمنديل منشًّى، ثم تنخرط في محادثة خفيفة قد تتطور -مراعاةً لليوم المقدس- لتغطي موضوعات الساعة الراهنة.

جلس بيلي پراير على الطرف المقابل من الطاولة، وهذا امتيازٌ اكتسبه نتيجةَ منزلته الجديدة صهرًا مستقبليًّا. ما من امتيازات مهمة أخرى تلوح في الأفق: هو لم يُترَك وحيدًا برفقة سارا ولو للحظة واحدة، رغم أن آدا راضية عن الخطوبة. إنها تؤمن بالزواج، ويزيد إيمانَها -كما يظن پراير- كونُها لم تختبره بنفسها قط. *أنت لا تعلم هذا علم اليقين*، ذكَّر نفسَه. بيد أنه أجال النظر في أنحاء الغرفة ثم قال في قرارته: *بلى، أعلم*. على المنضدة الجانبية صورٌ لسارا وسينثيا، لكن ما من صور لأجدادهما، ولا للأب. ما من صورة واحدة حتى لـ «آدا، العروس المُستحية». والنص المشجع الذي اختارت أن تعرضه هو إصحاح سِفر أيوب الذي يتحدث عن زيارة أليفاز التَيمانيِّ لصديقه كي يواسيه على ما ابتُلِيَ به من دمامل غطَّت جلدَه من رأسه حتى أخمص قدميه مشيرًا إلى أنه جنى ذلك على نفسه. ما تملكه آدا دون شكٍّ هو حس الدعابة. أوه، إضافةً إلى عينٍ تُحسِنُ اقتناص اللحم الذَّكَريِّ. لقد ساعدها البارحةَ في تعليق الستائر، وكانت تحديقتُها إلى مغبنه وهي تناوله الستائر من الأسفل مملوءةً بثناءٍ صريحٍ كادت وجنتاه تتوردان أمامه. *لعلك تخدعين ليندزي*، قال بينه وبين نفسه، *لكنكِ لا تخدعينني*.

بذل جهدًا كي ينتبه إلى الحديث. كانوا يتكلمون عن منح حق التصويت للنساء بدءًا من سن الثلاثين، وهو أمر تستنكره آدا بشدة. قالت إن الله القدير شاء أن يخلق أحد الجنسين متفوقًا على الآخر بشكلٍ جليٍّ لا لبس فيه، وهذا

هو القول الفصل في كل المسألة. من الطريقة التي تكلف ليندزي بها الابتسامَ والضحك، لم يكن للمرء إلا أن يفترض اعتقادَه أنه يعرف أي الجنسين تقصد. إنه واحد من أولئك الشبان الأنغليكان الكاثوليك الذين ما إن يتحركوا حتى تفوح منهم روائح بخورٍ ومفرزاتٍ بشرية بائتة لا يُخطئها أنف. پراير يعرف هذا الصنف، وفقًا للكتاب المقدس أيضًا.

لمسَت سارا إبريق الشاي ثم نهضت: «أظن أن لا ضيرَ من تجديده. بيلي؟».

- وهل يتطلب الأمر ذهابكما كليكما يا سارا؟

- أحتاج إلى بيلي كي يفتح الباب يا أمي.

انفجرت في المطبخ: «بحقك، في أي قرنٍ تظن نفسها تعيش؟».

رفع پراير كتفيه. من نافذة المطبخ، لاحت ملبورن تراس تمتد في انحدارٍ قاسٍ؛ سربٌ من سطوح المنازل الحمراء الرمادية تخفي شطحاتُ الضباب والمطرِ نصفَه. تساءل إذا ما كانت آدا قد اختارت هذا المنزل لإطلالته: الطريق المرصوف الممتد، وصفوف المداخن المتتالية. مشهدٌ يضاهي -بطريقته الخاصة- سلاسلَ الجبال دراميةً، ولعل دلالته تفوق ذلك بالنسبة إلى آدا. فهناك، تحتها، تقبعُ الحياةُ التي أنقذت ابنتيها منها: أطفال تغطي القشور أفواهَهم، نساء ترك الضربُ كدماتٍ على أعينهن، بقُّ فِراش، شجارات شوارع، شهادات زواجٍ أُلصِقت على زجاج النوافذ الأمامية من الداخل للاستهزاء بالجيرانِ الذين لا يملكون مثلها كي يعرضوها. يستطيع أن يفهم حقًّا كيف لا يعني حقُّ التصويت شيئًا لامرأةٍ منخرطة في معركة كهذه.

اقتربت سارا وانضمت إليه عند النافذة. لفَّت صدرَه بذراعيها من الخلف وأسندت وجهَها إلى كتفه. «آمل أن يكون الجو ألطفَ غدًا. لم يحالفك الحظ كثيرًا مع الطقس، أليس كذلك؟».

ليس هذا هو الجانب الوحيد الذي لم يحالفه الحظ فيه. استدار ليواجهها: «متى سنحظى ببعض الوقت وحدنا؟».

«لا أدري»، هزت رأسها: «سأجد حلًّا ما».

- اسمعي، يمكنكِ التظاهر أنك ذاهبة إلى العمل، و...

- لا يمكنني أن *أتظاهر* بالذهاب إلى العمل يا بيلي، نحن بحاجة إلى المال. هيا، لا بد أنها تتساءل أين نحن.

وجد برايز طبقًا من كعك شحم الخنزير قد دُفِعَ إلى يده، فتبعها عائدًا إلى الغرفة الأمامية.

وجدا ليندزي يُسِرُّ بأفكاره حول عِظة الأسبوع المقبل، قال إن فكرة التضحية تجذبه. أحقًّا؟ فكر برايز وهو يُلقي الطبق من يده. سينثيا، التي ترملت من فترة ليست طويلة، كانت تتلقف كل كلمة، وتفعل ذلك غالبًا بتوجيهٍ من أمها؛ إنها الأسهل انقيادًا بين الفتاتين بفارقٍ كبير. لدى جلوسه، لكز برايز قدم ليندزي تحت الطاولة، وأبهجه أن يرى توردًا خفيفًا يبدأ حول طوق ياقته ثم يشق طريقه صاعدًا. نظرة جانبية سريعة رامشة، مناوَشة من العينين لم تلبث أن ارعَوَت، و... *أنتِ تهدرين كعك الشحم خاصتك على هذا الشخص يا أماه*، قال برايز لِحماته المستقبلية دون كلام، عاقدًا ذراعيه.

بعد ذهاب ليندزي، بدلت آدا ملابسها وارتدت ثوبها المعتاد في بحر الأسبوع، ثم اتخذت ركنًا برفقة كيس سكاكر ورواية. جلست على مقربة من النار، رافعةً تنورتها بما يكفي لتكشف عن مِشَدَّي جوارب مطاطيَّين ومساحةٍ من الفخذين البيضاوين. وإذ سرى الدفءُ في تنورتها، انبعثت منها رائحة بولٍ واهية، لأن آدا -كما يعرف من سارا- تتبع العُرفَ القديم؛ حين تباغتها الحاجةُ في الشارع تُباعدُ بين ساقيها مثل فرسٍ وتبول في البالوعة. السماح له أن يشهد هذه التفاصيل الحميمية امتيازٌ آخر يتيحه الخاتم الذي يزين إصبع سارا.

اجتمع الشبان حول البيانو، وبعد المرور الصاخب على الوصلة الضرورية من التراتيل عزفًا وغناءً، انتقلوا إلى بعض الأغاني العاطفية المفضلة من زمن ما قبل الحرب.

«ستعرفين هذه الأغنية يا أماه»، قال برايز مبالغًا في حروف المد، يسدد نحوها نظرات الإعجاب من فوق كتفه. وفوجئ إلى حدٍّ ما عندما رافقته في الغناء.

لأن جمالَها يبعَ
لشيخٍ هَرِمٍ مقابل ذهبه،
ما هي إلا طائرٌ في قفصٍ مُذهّب!

«واحسرتاه، حظي اللعين لم يحالفني يومًا»، قالت آدا، وعادت إلى كتابها.

نظر پراير إلى ساعته. «أترغبين في لَفةٍ في الحي؟»، سأل سارا، مُطبِقًا غطاء البيانو.

«أجل»، نظرةٌ سريعةٌ نحو سينثيا.

«أنا متعَبة جدًّا»، قالت سينثيا.

«لستما تفكران أن تخرجا للمشي في هذا الطقس؟»، قالت آدا: «ألا تسمعان؟ الجو عاصف».

كان كذلك بالفعل.

«على كل حال، لديكِ عملٌ في الغد يا عزيزتي سارا»، أردفت آدا وهي تغلق كتابها: «أرى أن الأفضل لنا جميعًا أن نُنهي سهرتنا مبكرًا. هل ستكون مرتاحًا على تلك الأريكة يا بيلي؟».

«تمام، شكرًا لك». باستثناء ذلك السيخ اللعين الناتئ من الطراحة.

«لعلك تجرب الاستلقاء على ظهرك».

لو أنها تعيش في القرون الوسطى لأحرقوها. أحضرت سارا بطانيات ووسائد من غرفتها في الأعلى، وفيما آدا تراقبها من أسفل الدرج، قبّلته باحتشامٍ وتمنت له ليلة سعيدة.

إنها إجازتي قبل مغادرة البلاد، أراد أن يصرخ بعالي صوته، ونحن مخطوبان.

انغلق الباب خلفها. لم يكن جاهزًا للخلود إلى الفراش، أو بالأحرى، لم يكن جاهزًا للخلود إلى الفراش بمفرده. نزع سترته وجزمته، وراح يتجول في الغرفة ويتفرج على الصور، ثم ألقى نفسه على الأريكة أخيرًا والتقط الرواية التي تركتها آدا.

لدى آدا مخزون هائل من الكتب. بعض الروايات الغرامية، التي تقرؤها مُبديةً كل مظهرٍ ممكنٍ للاستمتاع، وينبجس الضحك مُقرقِرًا من البومبازين[1] الأسود كانبجاس ينبوعٍ ساخنٍ من تربةٍ بركانية. لكنها تفضل قصص البنس البوليسية المسلسلة، تسندها على زجاجة الحليب وتقرؤها في أثناء تحضير وجبة المساء. بصمات الأصابع، التي غبَّشتها الزبدةُ ودبَّقها المربى ويبست عليها آثارُ التتبيلة، تلطخ حوافَّ كل صفحةٍ من صفحاتها، وثمة بصماتُ إبهامٍ دامية تقود إلى جريمة بارزة الشناعة والدموية. كل الكتب تحوي جرائم قتلٍ بين دفاتها، وكل هذه الجرائم تنفذها نساء. سيداتٌ أرستقراطيات في جولة خارج البلاد، يدفعن أزواجهن إلى أنهار، عن شرفات أو جروف صخرية، تحت قطارات، أو -في حالة نمط النساء الأكثر أنثويةً وتعلقًا بالحياة المنزلية- يبقَين في البيت ويَقُدنَهم نحو موتهم بخطى حثيثة. الصفحات الأخيرة فقط هي التي تكون خالية من بُقَع الطبخ، وهذا الأمر حيَّره لفترة طويلة، إلى أن أدرك أن القاتلات الزانيات يُقبَض عليهن وينلن عقابهن في الفصل الأخير. آدا ترفض التواطؤ مع هذا، فبطلاتُها يفلتن بفعلتهن.

كانت الساعة تتكُّ بصوتٍ عالٍ، كما فعلت طيلة الليلة الماضية، تكةً حقودةً تبقيه مستيقظًا. حملها بيده، وفي نيته أن يضعها في المطبخ، بيد أنها كفت على الفور ولم تستأنف تكَّاتها إلا عندما أعادها إلى مكانها على رف المدفأة. حبًّا بالمسيح، قال في قرارته، حتى الساعة اللعينة مدرَّبة على إبقاء ركبتَيها مضمومتين.

بوسعه أن يسمع الفتاتين تنضوان ثيابَهما في الغرفة فوق: ارتطام الحذاءين بالأرض حين ركلتاهما عن أقدامهما، نُتَفُ الحديث، الكركرة، وتقريبًا -كما أقنع نفسه- تنهيدة التنورتَين الداخليتين إذ هوَتا على الأرض. عُريُ سارا اللحظي، قبل انسدال ستار ثوب النوم الأبيض. نهض واتجه إلى البيانو، وداعب المفاتيح يغني بصوت أخفض من أنفاسه.

(1) البومبازين: قماش كان يُنسج أصلاً من الحرير أو الحرير والصوف، وربما يدخل القطن في نسيجه. وقد انتشر البومبازين الأسود في السابق لصنع أثواب الحِداد، لكن هذه الخامة لم تعد رائجة منذ بدايات القرن العشرين. (المترجم)

بعيدًا بعيدًا عن إيبر[1]

أتوق أن أكون،

حيث لا يستطيع القناصةُ الألمان

أن يطالوني.

رطبٌ مخبئي في الخندق،

باردتان قدماي،

وأنا أنتظر القذائف

كي تُسلِمَني إلى النوم.

فُتِح الباب. استدار ورأى سارا، عِمادًا أبيض من قماش ثوب النوم، تتدلى ضفيرةٌ سميكةٌ عن كتفها اليسرى.

«أنا آسف»، قال مُطبِقًا غطاء البيانو: «هل كنتُ أُثير الكثيرَ من الجلبة؟».

«لا، أردتُ أن أراك وحسب».

على نحوٍ لا يُصدَّق، بل مستحيل، استمر صوتُ الهمس والكركرة البناتية في الأعلى.

«سينثيا»، قالت سارا وهي تغلق الباب: «تتظاهر أنني ما زلت هناك».

جثَت على بساط المدفأة، وبدأت تُلقم النارَ الأعوادَ القليلة المتبقية. ثم، بحذرٍ لئلا تطفئ اللهب، أسقطت قطعًا لامعة من الفحم في الأغوار المتوهجة التي أحدثتها النارُ الذاوية. سُمِع حسيسٌ، إذ كان المطر قد رطب الفحم، ثم أعتم الوهج على وجهها وشعرها لحظة، ولم يلبث حتى التهب من جديد.

«يبدو أننا لسنا نحظى بأي فرصة للانفراد ببعضنا»، قالت.

«تقصدين أن ثمة من يحول بيننا».

هذا الشَّعر المذهل... راح يفكر؛ حتى في هذه اللحظة، وهو مُسرَّحٌ ومروَّضٌ بكامله استعدادًا للنوم، يرى فيه خمس درجاتٍ مختلفةٍ أو ستًّا،

---

(1) إيبر: مدينة بلجيكية شهدت اثنتين من كبرى معارك الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

للنحاس والسُمرة المحمرة والبرونز، بل وكذلك خصلة من الذهب الخالص تبدو كأنها -لا بد- تخص شخصًا آخر.

استدارت لتنظر إليه: «المنزل منزلها يا بيلي».

«هل قلتُ شيئًا؟».

ضوء النار يموِّهُ وجهَها بمسحة ذهبية تُخفي الصُفرة التي خلَّفها مصنع الذخيرة على بشرتها.

«يمكننا أن نتزوج بموجب ترخيصٍ خاص»، قال لها: «على الأقل أعتقد أننا نستطيع، لا أدري كم من الوقت قد يتطلب ذلك».

«كلا، لا نستطيع».

لا، قال لنفسه، فبعد الحرب ستتغير الأحوال، قد تضحك الدنيا لي، وربما لن أرغب أن أحمل على كاهلي زوجةً من بيل ستريت. عليَّ أن أتقي شر نفسي. سارا تتمتع بحس أنَفةٍ عظيم، وفائدة هذا للمرأة لا تتجاوز فائدة حزام وقاية الخصيتين، كما كان ليقول، لكنه يراه أمامه مع ذلك، حملًا يُثقل كاهلَ سارا. «أحبكِ يا سارا لام».

«أحبكَ يا بيلي پراير».

أرجعَت ظهرَها، وحلَّ لها أزرار ثوب نومها، ثم دفعه عن كتفيها حتى انطبع الذهبُ الراجفُ على جنب ثديها الملآن. انسل على الأرض بجانبها وأخذها بين ذراعيه، فأحسَّ بتوتر جسدها في حضنه: «لا بأس.. لا بأس».

وكل ما كان يريده، في هذه اللحظة، هو أن يدفن وجهَه في صدرها ويُسكِت تكَّات الساعة العنيدة. بيد أن صوتًا صاح في الأعلى: «سارا؟ سينثيا؟ بات يُفترض أن تكونا نائمتين».

- عليَّ أن أذهب.
- لا بأس.

لكن يديه رفضتا أن تُرخيا قبضتَهما، فتعيَّن عليها أن تنتزع نفسها انتزاعًا.

«اسمع، هي ستذهب ليلة غدٍ إلى جلسة الاستحضار. سأقول لها إني أعاني صداعًا، وأرى إن كان بإمكاني أن أظل هنا».

في الصباح التالي، بعد أن ذهبن إلى العمل ثلاثتهن، صعد إلى غرفة سارا، منهَكًا من ليلة سيئة أخرى قاسَ قرعُ الساعة طولَها. كان بحاجة إلى الاستلقاء في السرير الذي نامت سارا فيه، ولفّ نفسه بهذه الملاءات المبقعة؛ فحتى في هذا المنزل المتشدد في النظافة، يتقشر جلدُ الفتيات تاركًا على الملاءات بقعًا صفراء، وغسيلُها -مهما تكرر- لا يتكفل بإزالة هذه البقع. هو لا يمانع هذا، سوف يستلقي سعيدًا هنا، في الوهدة التي صنعها جسمُها خلال الليل، متنشقًا رائحة الخزامى والصابون الواهية.

على الكوميدينا بجانب السرير صورةٌ له، التُقِطَت أول ترقيته إلى رتبة ضابط. وجهٌ ناقصُ التشكُّل لتلميذ مدرسة. أحقًّا سبق له أن كان صغيرًا إلى هذا الحد؟ عاريًا، من موضعه في السرير، زمَّ أجفانَه ونظر نحو الستائر نصف المسدَلة، سائلًا نفسه إذا ما كان إغلاقها يستحق جهد النهوض. كلا، قرر أنه سيدير ظهره للضوء ببساطة.

انقلب على جنبه، وأغمض عينيه لحظة، دون أن يترجم دماغُه من فوره ما لمحه في تلك النظرة المقتضبة، ثم نهض جالسًا. على منضدة الزينة صورةٌ لشابٍّ يرتدي الزي، زيَّ مجند. ليس زوجَ سينثيا، فهو يعرف وجهَه من صور الزفاف. قام عن السرير وذهب كي ينظر من قرب. جوني، بالطبع. ومن غيره؟ خطيب سارا الأول.

الوجه المعهود ذو الابتسامة الخالية من المعنى، وقد طمست الشمسُ نصفَه بالبياض. وخلفه بضعة أقدام غير مقصوفة من فرنسا. ولمَ عساه ينزعج من هذا؟ *لأنني ظننتُ أنني أخذتُ مكانه*. لم يكن حتى قد فكر في الأمر، بل افترضه ببساطة. هي لم تتكلم عن جوني إلا مرةً واحدة، وكانت حينها مخمورة من البورت الذي تحايل عليها به كي يبلغ مراده منها. لوس[1]. هناك كان، حين ارتدَّ الغاز على الخطوط البريطانية. حدق من جديد إلى الوجه الذي لا يعرفه؛ البياض يبدو كأنه رمز غير مقصود للنسيان الذي يأخذنا جميعنا. في الليلة الماضية، كان يتساءل عن لون بشرة سارا تحت اليرقان الذي خلّفه ما تتعامل معه من مواد كيميائية. هذا الرجل كان يعرف. كان

(1) معركة لوس: من المعارك الشهيرة في الحرب العالمية الأولى، وهي أول معركة شهدت استخدام البريطانيين للغاز السام. (المترجم)

يعرف هذه السارا (التقط إحدى الصور بيده)، هذه الفتاة السعيدة خلية البال الممتلئة بعض الشيء، التي تناضل لمنع تنورتها من الارتفاع وهي على متن القارب المتأرجح. ما يلاحظه المرء في سارا الآن هو جبهتها العالية المدورة، وعظام وجنتيها البارزة، والتحديقة الساطعة الهادئة المستطرفة. شعورٌ دائم بشيء مكبوت. لقد كان ينظر طوال الوقت إلى وجهٍ صقله الأسى، ولم يعرف ذلك قبل الآن.

•

«مشوار لطيف على الأقدام في الهواء الطلق»، قالت آدا وهي تغرز الدبوس في لباد قبعتها السوداء: «هذا هو الدواء الأمثل للصداع».

«لن أكون في الهواء الطلق يا أمي، الجو في تلك الغرفة يصبح خانقًا إلى حدٌ فظيع كما تعلمين».

انحنت آدا، ودفعت وجهَها نحو وجه ابنتها: «سارا، اذهبي واجلبي معطفك».

نظرت سارا إلى بيلي ورفعت كتفيها بالكاد.

«سآتي معكن»، قال ناهضًا.

«هل أنت متأكد؟»، سألته آدا: «جلسة الاستحضار ليست شيئًا يستسيغه الجميع».

«لن أفوِّت هذا مهما حدث».

ساروا معًا في الشارع، آدا تتصدر الطريق، جارَّةً ذيل تنورتها السوداء خلفها، فهي لا تقدم أي تنازلات إلى موضة اليوم في ما يتعلق بطول التنورة. كانت تمشي كأنها تنزلق على عجلات خفية.

«أفترض أنها تعرف أن التواصل مع الموتى هرطقة؟»، سأل بيلي: «لن يروق هذا للقس».

«أوه، هي لا تؤمن بهذه الأشياء، إنما تذهب من أجل قضاء الليلة في الخارج فقط».

الاجتماع يُعقَد فوق محل يبيع أدوات جراحية، تشكيلة من المنتجات التي يستلزم ترويجُها السِرية. الواجهة مكسوة بورق زينة أحمر وأخضر متبقٍّ من عيد الميلاد، ولا تحوي شيئًا سوى صورة لرجل أشيب الشعر يحمل حفيدته على كتفيه.

صعدوا على درج ضيق إلى غرفة صغيرة. بيانو، طاولة عليها مزهرية تحوي أزهارًا، خمسة أو ستة صفوف من الكراسي، ستائر رقيقة مزخرفة تترك ظلالُها وشومًا على البشرة. لم يعثروا على أربعة مقاعد متجاورة، لذا وجد پراير نفسه يجلس خلف سارا.

«كيف صار صداعك يا سارا؟»، سألتها آدا.

«أفضل قليلًا، شكرًا يا أمي».

كيف صار ألم بيضتَيك يا بيلي؟ مريع للغاية، شكرًا يا أماه.

تقدَّم رجلٌ واعتلى المنبر، مجولًا نظرَه بأناةٍ في أنحاء الغرفة. أهو يحسب البنسات المدفوعة مقابل الشاي والبسكويت؟ يقيِّم المستوى العام للسذاجة؟ أم لعله ليس مخادعًا على الإطلاق، إنما مجنون ببساطة؟ كلا، ليس مجنونًا. إنه رجل صغير قانع بذاته وله أسنان بُنية.

راح پراير يتتبع نظرته المتنقلة عبر الغرفة، فيما أُغلِقَت الستائر حاجبةً الشمس. نساء ترتدي أغلبهن ثيابًا سوداء، قلة متناثرة من الرجال جميعهم في منتصف العمر أو أكبر، باستثناء واحد لا يتحكم بارتعاش يديه ووجهه. الكثير من الأرامل، الكثير من الأمهات الباحثات عن تواصلٍ مع أبنائهن المفقودين، وهذا مكان يجمع كل هؤلاء. كل يوم يملأ الفقدانُ شوارع جديدة. وهذا الرجل، الذي يمسد شعره الخفيف معلنًا رقم الترتيلة، يعرف كل المفقودين، بوحماتِهم وأسماء تحبُّبِهم وعاداتهم الصغيرة المضحكة. يعرف تمامًا ما تريد كل امرأة في هذه الغرفة أن تسمعه. نصبٌ واحتيال، قال پراير في قرارته، وكونُه يخدع نفسه لا يجعل الأمر أقل سوءًا.

ملائكة يسوع، ملائكة النور
يغنون مرحبين بحُجَّاجِ الليل.

جلسوا وسط الأصوات المعتادة من سعال وجرجرة كراسٍ وقرقعة بطون، ووقف هو أمامهم، يرسّخ الصمتَ ويزيده عمقًا.

بات جاهزًا أخيرًا. قال إن أحبابهم موجودون معهم، حاضرون في هذه الغرفة. وبدأت الرسائل ترِد.

يبدأ بتقديم وصف، ثم يرمش بعينيه نحو المرأة التي ينطبق وصفُه على زوجها أو ابنها، وبعدها ينقل الرسالة. رسائل مُسكّنة. إنهم يقضون وقتًا ممتازًا -كما بدا- في الجانب الآخر، بعد وادي البكاء[1] هذا؛ ينشدون التراتيل، مبتهجين بصحبة الحمَل[2]، وأكاليل الذهب على رؤوسهم تلمع حول بحر الزجاج. آه، أجل، بيد أن پراير يريد أن يسأل: لكن كيف حال المضاجعة؟

ثم، دون سابق إنذار، نهض الرجل المرتعش وبدأ يتكلم. لم تكن كلمات، بل صوتٌ مقرقر انطلق من فمه مثل تدفق مياهٍ فائضة في مزراب تصريف، لكن دون أن يخلو من نبرات وسكتات وتوكيدات؛ خطاب يحوي كل شيء باستثناء المعنى. التفت الناس نحوه، يراقبون الأصوات تُقذَف من فمه، وهو يقف ملقيًا رأسه إلى الخلف بعينين ساهمتين، فيما اعتلَت وجهَ الرجل الواقف على المنبر ابتسامةٌ سقيمة مُرغَمة. مُهَسترٌ يخطف الأضواء من آخر. كم أود أن أبرحكما ضربًا كليكما، قال پراير في سره.

لمس كتف سارا: «لن أستطيع تحمُّل المزيد من هذا، سأنتظر في الخارج».

نزل على الدرج ركضًا، ثم قطع الشارع وانسل في الزقاق المقابل، متخذًا موضعه في منتصف المسافة بين حفرتَي تجميع قاذورات تفوح رائحتهما. أشعل لفافة تبغ، وقال لنفسه: *التكلم بالألسنة*. «موهبة روحانية ليس لها أهمية في حد ذاتها، إلا إن كان بوسع الرجل الذي يمتلكها أن يترجم ما يتلقاه بطريقة تُفضي إلى تهذيب المؤمنين». هكذا قال الأب ماكنزي، وهو يُعِده لسر التثبيت، حين كان في... الحادية عشرة من عمره؟ الثانية عشرة؟ أي معلم كان هذا الرجل... بثوبه الكهنوتي أو دونه.

---

(1) وادي البكاء: تعبير مستخدم في الكتاب المقدس، يشير إلى الحياة الدنيا الملأى بالمِحن. (المترجم)

(2) حمَل الله: تسمية تُطلَق على المسيح لكونه ذبيحة الخطيئة. (المترجم)

من موضعه، وهو يراقب مثل الغرباء، رأى سارا تخرج وتنظر في أنحاء الطريق الخالي.

«سارا».

ركضت تقطع الشارع، بوجهٍ شاحب تحت صُفرة مصنع الذخيرة. «ما الذي حدث؟».

«لا شيء. لم أستطع تحمُّل ذلك، لا أكثر»، سكتة: «علينا أن نموت، لكن ليس علينا أن نعبد الموت».

وقفا معًا، يجوِّلان نظرهما في أنحاء الشارع، الذي ترقطه بِرَكُ المطر الحديثة هنا وهناك. ومضات متقطعة من ضوء الشمس.

- لن أعود إلى الداخل.

- كلا.

انتظرت، وهي ما تزال قلقة.

«يمكننا أن نعود إلى البيت»، قالت.

- هل معك مفتاح؟

- أجل.

حدق واحدهما إلى الآخر.

«هيا»، قال وجذب ذراعها.

ركضا في الشارع المتلألئ، أقدامهما تطرطش ماء البِرَك، وانحل شعر سارا ناثرًا ما فيه من دبابيس، ثم عبَرا زقاقًا عُلِّقت فيه ملاءات بيضاء يُلعِّبُها الهواء، وقمصان علِقَت أكمامُها بهما، فلسعَ القطنُ المبللُ وجهيهما وعنقيهما. وصلا إلى الباب بوجهين محمرين، وشعر سارا يتدلى مثل أذناب الجرذان على ظهرها.

أعملت المفتاحَ في القفل، فيما وقف هو ينظر خلفه نحو الطريق الذي جاءا منه، نصفَ متوقِّعٍ أن يرى آدا تندفع نحوهما فوق عجلات أرملة وندسور خاصتها. كادا يسقطان إلى داخل الممر سقوطًا، ثم ركض نحو الدرج. «لا»، قالت. لا، فكر. الغرفة الأمامية إذًا. اتجه نحو الستائر كي يغلقها. «كلا، لا تفعل

هذا، سيظنون أن أحدًا مات. خلف الأريكة». لم يلبث حتى صار على ركبتيه أمامها، يداه تحت تنورتها تتلمسان طريقهما نحو تكة سروالها الداخليّ، ثم تُنزلانه وتلقيانه جانبًا، لا يهمه أين يحط. في اللحظة الأخيرة، قال لنفسه: هذا لن ينفع. كان عليهما أن يتركا الباب الأماميّ مفتوحًا، إذ سيستحيل شرح إقفاله، لكن فكرة أن تحدق آدا لام إلى مؤخرتك العارية كانت كافيةً لتُفقِد التماثيلَ المعدنيةَ حماستَها.

«على رسلك»، قالت سارا وهو يَلِجُها.

لكنه دائمًا على رسله، دائمًا متهيئ... مع أنه لم يكن متهيئًا قط لموجة المتعة التي يحسها الآن. إنه أشبه بحيوان مائيٍّ، ثعلبِ ماء، عائدٍ إلى وِجارِه، يسلّم على شريكه أنفًا لأنف، ثم يضمه بجسمه، في أمان ودفء وظلام وبلل. عقله يتقلص إلى نقطةٍ تصغي مترقبةً وقْع الأقدام، لكن شيئه ينتفخ، ضخمًا وأعمى، حتى يملأ العالمَ بأسره. وُلوجُه يزداد عمقًا وسرعة، إلا أنه سرعان ما يرغم نفسه على التريث، وإبقاءِ مناوراته ضحلة، مثل رفرفة الفراشة التي يعرف أنها تحبها. ترتفع يداها وتقبضان على ردفيه -لحظةٌ خطيرةٌ دائمًا- فيتعين عليه أن يوقِف كل شيء لبعض الوقت، ويَثبت في مكانه، بفمٍ مفتوح. ثم، بحذر، يبدأ من جديد. الأوتار تبرز في عنقها، وبطنها يتضيق، الأصابع القابضة على مؤخرته باتت مخالب الآن. تتأوه، ويحس بحركة العضلات في بطنها. تتأوه من جديد، صيحة، والآن صار التوقف مستحيلًا، كل ولوجٍ أكثرُ تعذرًا على المقاومة من سابقه، كالنفَس التالي لرجلٍ يغرق. ترفع ساقيها أعلى، داعيةً إياه إلى الأعمق، ويحاول ألا يسمع اليأس في شهقاتها، وخيبةَ الأمل في صيحتها الأخيرة، وهو يندلق داخلها.

«ها؟»، يقول لاهثًا حالما يستعيد قدرته على النطق.

«لا».

رباه. يحث نفسه على المتابعة، يولج ويولج بهيجان لا احتكاك فيه، شيئه سهمُ نار، يحس بها تترنح على الحافة، ثم تسقط في الآخر الأخير، تهوي، تقبض راجفةً على شيئه المتقلص إلى أن يصيح من الألم. أوه، لكنها وصلَت، إنها تضحك، يسمع ضحكتها في عمق صدره.

غير أن مغبنه مبلل، مبلل للغاية. رفع نفسه عنها ونظر إلى الأسفل. سائله جامدٌ مثل بياض البيض المخفوق، وقد تناثر على شعرهما، بُقعَ رغوةٍ على خطم حصان، زبدًا تركته موجةٌ تكسرت، لكن هذا -بالنسبة إليه- لا يعني إلا شيئًا واحدًا. الجوني(1) -ويا لها من تسميةٍ غير موفقةٍ في حالته هذه- ما يزال داخل سارا. انتشله منها، وراحا يحدقان إليه.

تحسست سارا داخلَها. «أظن أنني على ما يرام»، قالت: «كله في الخارج».

لم تكن عجلات مُزيَّتة، بل خطوٌ وطيدٌ يطأ مقتربًا من المنزل. ألقى الواقي إلى النار، مليون بيلي وسارا أو أكثر يندثرون في شهقة لهب. وليس في هذا عزاء يُذكَر إن كان ما يزال داخلَها مليون آخرون. عدَّلت تنورتها وجلست على كرسي أمها يائسةً تتعرق. كان على وشك الجلوس هو أيضًا عندما لمح سروالها الداخليَّ مرميًّا فوق إنجيل العائلة، وإحدى ساقيه تُسدِل حجابًا لائقًا فوق أيوب ودماملِه. خطف السروالَ ودسَّه داخل ياقة سترته، فلم يتبقَ له وقتٌ من أجل سحَّابه. التقط الإنجيل وجلس واضعًا إياه في حضنه.

«حسنًا»، قالت آدا: «ماذا حدث لكما؟».

أجابت سارا: «تذكَّر بيلي أحدَ أصدقائه فراح يفكر فيه يا أمي».

كان براير جالسًا يضع رأسه على يده، في محاكاة مقبولة لحِداد داوود على يوناثان.

تنشقت آدا بأنفها: «أرى أنه لم يخطر لك أن تضعي قدر الماء على النار يا سارا. صحيحٌ ما يقال في هذه الحياة: ما حكَّ جلدَك مثلُ ظفرك».

دخلت إلى المطبخ. وجلست سينثيا على طرف الأريكة، تنقِّل نظرها بين أحدهما والآخر بخجل. سحب بيلي سروال سارا من سترته وألقاه إليها، فزعقت سينثيا وضمت ثيابها بين ساقيها مثل فتاة صغيرة تخاف أن تبلل نفسها. نهضت سارا بهدوء وارتدت السروال، فيما راح براير يعبث بالأزرار تحت الإنجيل.

---

(1) في العامية البريطانية، يُسمى الواقي الذكري باسم «جوني» (اسم العلم المعروف). ورأيتُ تركها على حالها هنا خدمةً للنص. (المترجم)

عادت آدا إلى الغرفة. «لقد فاتَك عرضٌ جيد»، قالت: «تعيَّن حملُ السيدة روپر إلى الخارج حملًا. أيًا يكن، لا شك أنك استغلَلت وقتك في ما هو أفضل»، أشارت إلى الإنجيل.

«كنت أحاول إيجاد المقطع الذي يتكلم عن جواد الحرب كي أُريه لسارا. لكن لا بأس، أنا أحفظه عن ظهر قلب»، نظر نحو آدا مباشرةً: «*يَبْحَثُ فِي الْوَادِي وَيَنْفِزُ بِبَأْسٍ. يَخْرُجُ لِلِقَاءِ الأَسْلِحَةِ. يَضْحَكُ عَلَى الْخَوْفِ وَلاَ يَرْتَاعُ، وَلاَ يَرْجعُ عَنِ السَّيْفِ. عِنْدَ نَفْخِ الْبُوقِ يَقُولُ: هَهْ! وَمِنْ بَعِيدٍ يَسْتَرْوِحُ الْقِتَالَ صِيَاحَ الْقُوَّادِ وَالْهُتَافَ*[1]».

نهض وأعاد الإنجيل إلى مكانه، شاعرًا بثلاثة وجوه تحملق فيه مشدوهة. لحظةٌ عابرة. «والآن، إن لم يكن لديكن مانع»، قال: «أظن أنني أرغب في الاستلقاء».

سُمِح لسارا أن ترافقه وحدها إلى محطة القطار. وقفا على الرصيف الخاوي، مرهَقين ذهنيًا وبدنيًا، مُجبرَين على إظهار تقديرهما لهذه اللحظات الأخيرة لهما معًا، وكلاهما يرغب في سره أن تنتهي شاعرًا بالذنب.

أمسك يدها وقبَّل الخاتم. «لا تقلقي يا سارا».

«لستُ قلقة»، ابتسمت: «في مثل هذا الوقت من العام القادم».

لم يكن قد فكر في الزواج الفعليّ بتاتًا، إذ كانت قد وضحت له أنها لا تريد زفافًا سريعًا. ثمة عمرٌ كاملٌ يفصلهما عن العام القادم، وربما حتى أكثر بقليل. راح يراقب حمامةً تسير على حافة الرصيف، قدماها المتشققتان تتكتكان فوق الأسمنت. «تعالي»، قال لها: «دعينا نمشي».

توقفا يحتميان بالسقف، إذ كانت الريح تنثر مطرًا ناعمًا. الضوء القطبيُّ الأبيض يرتشح من الزجاج المسخَم، والبرد يقرص وجهَ سارا.

«اكتب إليَّ حالما تصل إلى هناك»، قالت له.

«سأكتب من لندن. بل سأكتب على متن القطار إن أردتِ».

(1) سفر أيوب، الإصحاح 39، الآيات 21-22-25.

ابتسمت وهزت رأسها: «يسرني أنك أخبرت أمك على أي حال».

«لقد ابتهجَت لذلك».

بل ارتاعت.

- *الزواج بفتاة مصنع. هذا لا يهم بالطبع، طالما كنتَ سعيدًا، لكنني ظننتُ أنك تستطيع اختيار ما هو أفضل بعض الشيء.*

والده لم يصدق.

- تتزوج؟ *أنت*؟

- *أوسكار وايلد* تزوج *يا أبي*. لم يستطع پراير أن يقاوم قول هذا.

لكن أباه جاء إلى المحطة ليودعه بعد ذلك... للمرة الأولى منذ أربعة أعوام، *بل* وتعيَّن عليه أن ينهض من سريره ليفعل هذا، لأنه كان يعمل في ورديات ليلية، *كما* أنه ارتدى بدلة الأحد خاصته، وحلق ذقنه *أيضًا*، ولم يكن مخمورًا فوق *كل ذلك*. يا ليسوع المسيح، قال پراير في قرارته آنذاك، لا ينقصنا إلا الإكليل.

كتلة صغيرة قاسية من الجزَع عالقةٌ في حلقه. توجُّس؟ كلا، الأمر لا يُنذر بالشؤم إلى هذه الدرجة. لعله شعورٌ طفيف بكونه يستنزف حظَّه. هذه هي المرة الرابعة، والرابعةُ ثابتةٌ للغاية.

«أتوقع أن يدعواك إلى زيارتهما».

ابتسمت سارا: «أظنني سأنتظر حتى ترجع».

اختلس نظرةً إلى ساعته. أين القطار اللعين؟ ثم رآه، من بعيد، يزحف مترددًا ويجرّ خلفه غمامة البخار. ما من صوت بعد، بيد أنه ما إن اقترب إلى حافة الرصيف حتى شعر أو تحسس اهتزازًا في السكة. التفت ليواجه سارا، حاجبًا القطار عنها.

كانت تنظر إلى الأعلى نحو العوارض الخشبية: «هل رأيتَها؟».

تبع نظرتَها فرأى حمامًا يصطف على كل العوارض. «إنه الدفء، أعتقد»، قال بنبرة مبهمة.

أجفلت الطيور من هدير القطار المقترب. هبَّت هبةَ طائر واحد، متدفقةً من تحت السقف الزجاجيِّ وسط معمعة هائلة من الرفرفة واضطراب الأجنحة، تدور وتنحرف وتنقض وتنعطف في موجة سوداء أمام السماء الملأنة بالدخان. راح پراير وسارا يتفرجان، فاغرَين فمَيهما، سكرانَين من منظر كل هذا القدر من الحرية، يداهما المتشابكتان ترتخيان، ويصير بمقدورهما -أخيرًا- ألا يفكرا في شيء، فيما يصل القطار نافثًا بخاره.

6

بعد تناول الشاي، أخذ ألبوم صور كاث وصعد إلى غرفتها. عادةً ما يُحضر معه صورًا لأفراد العائلة والأصدقاء في هذه الزيارات، لأنه يعلم كم من السرور يمنحها هذا. كانت جالسةً في سريرها، وقد رُبِط شعرُها البُنيُّ الباهت بشريطة زرقاء، وأُسدِل على كتفيها معطف منامة ورديٌّ. الأزرق والوردي: ألوان غرف الأطفال. أخذ الصينية عن حضنها وأعطاها الألبوم والصور.

توقفت عند صورة لأفراد الطاقم في مستشفى الإمبراطورية. «على وجهك تعبيرُ «لا أريد أن أُصوَّر» المعتاد»، قالت رافعةً الصورة أمام الضوء.

«طيب، بالفعل لم أكن أريد».

كانت قد انهمكت في وضع الغراء على ظهر الصورة. «أصحيحٌ أن السكان الأصليين يعتقدون أن آلة التصوير تسرق أرواحهم؟».

«بعضهم، العاقلون منهم».

مرَّرت منديلها على حواف الصورة بحرص، ماسحةً زوائدَ الغراء. «صورة جميلة لـ د. هيد».

- أوه، هنري لا يقلق، فهو لا يملك روحًا.

- *وِيل*.

نظر إلى الصينية: «لم تتناولي شيئًا يُذكَر».

«يسرني أن تأخذ إيثل استراحة. كان عامًا فظيعًا».

لقد تعرضت رامسغيت لقصف شديد، أودى بحياة الكثير من المدنيين، معظمهم نساء وأطفال. ونتيجةً لذلك، تدهورت صحة كاث، التي كانت موضع تخوُّفٍ منذ زمن طويل، على نحوٍ مفاجئ. وبدأت إيثل -التي اعتنت بوالدهم في شيخوخته ثم بهذه الأخت الصغرى المريضة- تُظهِر علامات إجهاد هي نفسها، فقرر الأخَوان أن عليهما التصرف. لم يكن احتمال الإجازة قائمًا، إيثل نفسها هي التي شطبته -فهي لا تستطيع الذهاب ولن تذهب- لكنها وافقت أن تُمضي عطلة نهاية أسبوع طويلة مع بعض الأصدقاء.

«أظن أن السيارة جاءت»، قال ريفرز: «يجدر بي أن أُنزِل الحقيبة».

وجد إيثل في الردهة، تثبت قبعتها بالدبابيس.

«حسنًا»، قالت، عاجزةً عن ترك الأمور على عواهنها: «لديك رقم الهاتف؟».

- أجل.

- متأكد أنه في حوزتك؟

«أجل»، دفعها برفقٍ نحو الباب.

- لا، *أصغِ* يا ويل. إن شعرتَ بالقلق، فلا تتردد، اتصل بالطبيب.

- إيثل، *أنا* طبيب.

- كلا، أقصد طبيبًا *ملائمًا*.

كان ما يزال مبتسمًا حين عاد إلى الأعلى.

- هل غادرَت؟

- أجل. اضطررتُ أن أدفعها من الباب دفعًا، لكنها غادرت. هل انتهيتِ من إلصاقها؟

أخذ الألبوم منها وبدأ يقلّب صفحاته، متوقفًا عند صورة له مع بقية أفراد بعثة جُزر مضيق توريس. كانوا حفاةً، عراةَ الأذرع، اللحى تغطي وجوههم، والشمس لوحت جلودَهم، يعتمرون تشكيلةً من القبعات مذهلة الرداءة، يشبهون من كل النواحي نسخةً منخفضة الميزانية من أوبرا *قراصنة بينزانس*. نخبةُ الأنثروبولوجيا البريطانية، قال في قرارته، ليكن الله في عوننا. قلّب بضع صفحات أخرى، واستوقفته لقطةٌ من الأيام التي قضاها في هايدلبرغ. ما الذي جعله يظن أن إطلاق شعر فودَيه فكرة جيدة بحق السماء؟

«كنت أعرف أن هذه الصورة ستستوقفك»، قالت كاثرين: «هي السبب، أليس كذلك؟ الفتاة البدينة».

«ألما؟ بالطبع لا». لقد عابثته أختاه بلا رحمة آنذاك، لأن وقوفه صادف بجانب ألما في الصورة. «على أي حال، لم تكن بدينة، كانت... مرتاحة مع جسمها».

- بل كانت بدينة. ظنناك ستتزوجها حقًّا، أتعلم؟ فهي المرأة الوحيدة التي رأيناك برفقتها يومًا.
- هذا أيضًا غير صحيح، أتتذكرين كل السيدات الشابات اللاتي كانت أمنا تدعوهن إلى الشاي؟
- أتذكرك وأنت تتسلل إلى الطابق العلويِّ بغيةَ الابتعاد عنهن. كنتَ مثل السيد دودجسون تمامًا، فهو اعتاد أن يفعل هذا.

كانت كاث تجمع أحيانًا بين البراءة الطفولية وحِدَّة ملاحظة الأطفال.

- مثل دودجسون؟ قال الله ولا قالك.
- لم يكن يروق لك، صحيح؟

تردد: «أجل».

«كنتما تغاران، أنت وتشارلز».

«أجل، أظن هذا. آه، هذه هي الفتاة التي أبحث عنها»، قال رافعًا صورة لفتاة صغيرة ترتدي فستانًا أبيض. حتى في الألوان البُنية الناصلة، يمكن تبيُّن كم كانت طفلةً استثنائية الجمال.

حطَّ ضوء المصباح ذي العمود على جانب وجه دودجسون وهو يفتح الكتاب.

«أ..ألا ينبغي أن نـــ.. ننتظر كـــ.. كـــ.. كاث؟»، سأل، والاسم يعقد له لسانَه. فكر ويل، جالسًا على الأريكة بجانب تشارلز: هذا لأن له صوت السي الشديدة[1]

---

(1) السي الشديدة: حرف C حين يُلفظ كافًا. (المترجم)

نفسه. حرف السي كان أسوأ الحروف الساكنة لدى دودجسون، أما بالنسبة إليه هو فحرفا الفاء والميم.

«كلا، أظن أن علينا البدء»، أجاب أبوه: «ليس من العدل أن نترك الجميع منتظرين لمجرد أن كاث تأخرت».

«ستكون هنا قريبًا»، قالت الأم: «ساعةُ معدتِها مضبوطة بدقة».

- ألستِ قــ.. قــ.. قــ.. قــ.. قلللقــ...؟

- ليس حقًّا، هي تعرف أنها يجب ألا تغادر محيط المنزل.

اعترض ويل سبيلَ نظرةٍ بين والديه. ما كان ينبغي لأمه أن تكمل جملة السيد دودجسون نيابةً عنه هكذا. يُفترض بالمرء أن يترك الناس يتلعثمون، مهما استغرق هذا من الوقت.

كانت تأتأة السيد دودجسون تقِل عندما يقرأ. وما السبب؟ لأنه يعرف الكلمات معرفةً تغنيه عن التفكير فيها؟ أم لأنه، رغم كون صوته مرتفعًا، كان في الحقيقة يقرأ فقط لإيثل، التي تجلس منطويةً على نفسها خلف ذراعه المضمومة، حيث تتسنى لها رؤية الصور؟ هو لم يكن يتأتئ على نحوٍ يُذكَر حين يتكلم إلى الفتاتين. أم هل لأن هذه كلماته هو، وأنه مُصِر على التلفظ بها مهما كان؟ ليس السبب بالتأكيد أنه يفكر في حركات لسانه، كما ينبغي للمرء أن يفعل حسب قول الأب.

«سار جحر الأرانب»، أخذ السيد دودجسون يقرأ، أو بالأحرى يُسمِّع، إذ لم يكن ينظر إلى الصفحة، بل إلى هامة رأس إيثل: «على شكل نفق مستقيم لبعض المسافة، ثم انحدر إلى الأسفل بشكل مفاجئ بحيث لم يترك لأليس المجال كي تفكر في التوقف قبل أن تجد نفسها تهوي عبر بئر عميقة...»».

اقتحمت كاث الغرفة، حرَّانةً متسخةً شعثاء، تجر قبعتها من شريطتها الزرقاء الطويلة، حول فمها بقعٌ من العُلَّيق، ويداها القذرتان ملطختان بزبد الحشرات. توجهت من فورها نحو السيد دودجسون وأعطته حزمة أزهار أذبلت الحرارةُ سوقَها فتدلت على ظهر يدها.

أخذ الأزهار منها، وظل جالسًا يبدو عليه الغباء، لا يدري أين يضعها، إلى أن لفت شيءٌ انتباهَه. «انظري»، قال لها: «لـــ لـــ لديك د... د... د... دعسوقة في شَـــ شَعرك».

وقفت كاث تتنفس من فمها بتركيز، فيما فرَّق لها خُصلَ شعرها وأقنع الحشرةَ بالصعود على رأس إصبعه. أراها إياها، ثم نهض واقفًا بتأنٍّ، يقصد أن يحملها إلى النافذة، لكن الغمدين القرمزيَّين تفرقا، وانفرد الجناحان الأسودان، ثم انطلقت الحشرة بقعةً داكنة يحملها الهواء الأزرق.

قعد دودجسون وسحب كاثرين إلى حضنه، ثنى ذراعه الأخرى حول إيثل من جديد، والتقط الكتاب.

«... جدًا»، قال، فضحك الجميع.

«أتتذكر كم كان يكره الأفاعي؟»، قالت كاث وهي تُرجع ظهرها على الوسائد، وضوءُ الشمس يحط على شعرها الذي في طور المشيب.

«أجل، أتذكر».

كان يفكر أن حياة كاث كلها كانت تتقلص عبر مسارها إلى مساحة أصغر فأصغر. في طفولتهما، كان لديهما مئة فدان من الأحراش والحقول الآمنة يهيمان فيها. لكن بدءًا من تلك المرحلة، توسعت حياته هو: كلية الطب، جولات في أنحاء العالم باعتباره طبيب سفينة، ألمانيا، جُزر مضيق توريس، الهند، أستراليا، جزر سليمان، جزر هيبريديز الجديدة. وخلال الفترة نفسها، أصبحت الفتاة الصغيرة -التي كانت تهيم طيلة النهار على وجهها في الأحراش والحقول- صغرى الآنستين ريفرز، خاضعةً لرقابة أبناء أبرشية والدها الذين لا يغفلون عن أصغر تجاوزٍ للحشمة. ثم، بعد تقاعُد أبيها، منزلٌ صغير في رامسغيت، صحة متدهورة، حبس في المنزل، ثم في غرفة النوم، ثم في السرير. ومع ذلك، حالة الوهن العصبيّ لديها لا تفوق حالتَه هو. لكن لا بد للعقل السليم مما يتغذى عليه، وعقلها المحروم من الأغذية الأخرى تغذى على نفسه.

قال بِرَويَّة: «أظن أن أكثر ما أتذكره هو مباريات الكروكيه التي لا تنتهي». رباه، إنه يتذكر، ساعات وساعات من الكروكيه، شمسٌ حمراء هائلة تتدلى فوق الأشجار، جسد دودجسون يشكل طوقًا حول جسد كاث، يداه تُطبقان على يديها، طقطقة المطارق الخشبية على الكرات، وصوت الأم يتوارد عبر المرج سائلًا كم سيستغرقون بعد، فقد حان الوقت كي تدخل كاث إلى المنزل.

«كروكيه الرياضيات»، قال ريڤرز: «لم يكن بوسع أحد أن يفوز».

- أنا كنت أفوز.

- كان يساعدك على الغش.

«أجل»، ابتسامة واهية: «أعلم أنه كان يفعل».

ذات مرة، في النهر، حاول دودجسون أن يثبت طبقات تنورة كاث إلى الأعلى كي تتمكن من التجذيف. لقد سبق له أن فعل ذلك مرات كافية، وكان في الواقع يحمل مشابك الثياب في طيات صدر ستراته من أجل هذا الغرض تحديدًا، لكنها هذه المرة دفعَته عنها. هل كانت تحديقته شديدة الوطأة بعض الشيء؟ أم كان للمسته طابعٌ ما؟ أمهم وبَّختها بحدة، لكن دودجسون قال: «كلا، دعيها وشانها».

«من المؤسف أننا أضعنا رسائله»، قال ريڤرز.

- أوه، والرسوم. لقد ضاعت صناديق كاملة ملأى بالأغراض، أنا واثقة أن تلك اللوحة للعم ويل فُقِدت في ذلك الوقت...

- لا أتذكرها.

- بلى، تتذكرها.

- أين كانت؟

- أعلى الدرج. لم يكن من الممكن وضعها في الصالة، لقد كانت مرعبة للغاية.

- ماذا كانت تصور؟

- العم ويليام في أثناء قطع ساقه. وكان فيها شخص ينتظر ومعه مِرجل مملوء بالقار الساخن مستعدًّا لدلقه على موضع البتر.

- هل أنت متأكدة؟

«لم تكن تروق لك، كنت أراك لا تنظر إليها لدى نزولنا على الدرج في الصباح. هكذا كنت تفعل»، أدارت رأسها جانبًا.

«حسنًا، لقد فاجأتِني».

ابتسامة نصرٍ خجولة: «أنا أتذكر أكثر منك».

بيد أنه، فيما هي تتكلم، راودته ذكرى باهتة، باهتة جدًّا، عن أبيه وهو يحمله كي ينظر إلى شيءٍ ما. إحساسٌ غريبٌ بالانكشاف في مؤخر عنقه. «كان أبي يحاول بجدٍّ كبير معنا أنا وتشارلز، أليس كذلك؟».

«معك أنت أكثر مما مع تشارلز».

«آه، طيب، أجل. كنت أنا فأر التجارب، لا؟ هذه حال الولد الأول دائمًا». المرارة في صوته كانت أكبر من أن يعرف كيف يبررها، فتجاهلها قائلًا: «سأعد لنا بعض الكاكاو، ما رأيك؟ وبعدها عليك أن تحاولي نيل قسط من النوم كما أظن».

- *أتتذكر كم كان يكره الأفاعي؟*

- *أجل، أتذكر.*

هذه هي المشكلة، فكر ريڤرز وهو يخلع قميصه في غرفة النوم الاحتياطية التي كانت مكتبَ أبيه ذات زمان، أتذكر طفولتها أفضل مما أتذكر طفولتي أنا. لكن حياة شخصٍ آخر، لدى مراقبتها من الخارج، يكون لها دائمًا شكلٌ ووضوحٌ تَعدمهما حياةُ المرء نفسه.

كان غريبًا ألا يستطيع تذكُّرَ تلك الصورة، في حين أن كاث -الأصغر منه بعشر سنوات- تتذكرها بهذا الوضوح. لا بد أنهم أرَوه إياها، العديد والعديد من المرات. لقد سُمِّيَ على اسم ويليام ريڤرز أحدِ أفراد طاقم سفينة ڤيكتوري، الذي أطلق النار -حين كان ضابطَ صفٍّ بحريًّا شابًا- على الرجل الذي قتل اللورد نيلسون. هكذا تقول أسطورة العائلة على أي حال. والرجل العظيم، في أثناء

احتضاره، لم يهذِ بأي هراء خائرِ القوى له علاقة بتقبيل هاردي[1]، ولا ائتمن ضميرَ الأمة الممتنة على الليدي هاملتون. كلا، كلماته الأخيرة كانت: «اعتنوا بويل ريڤرز الشاب من أجلي». وكان ويل ريڤرز الشاب بحاجة إلى العناية فعلًا، بعد أن تعرض لإصابة في فمه وساقه، ووجب بترُ الساق، دون تخدير، إذ لم يكن يوجد أيُ مخدر سوى الرم، ثم صُبَّ القار الساخن ليكوي موضع البتر الذي يطفر منه الدم. رباه، كانت أعجوبةً أن ينجو واحدٌ منهم. وطوال هذه المحنة -وفقًا لأسطورة العائلة مجددًا- لم تصدر عنه ولو صيحة واحدة. لقد نجا، وتزوج، وأنجب أولادًا، وأصبح مراقبَ مستشفى غرينتش. يوجد تمثال نصفي له هناك، في قاعة الرسوم.

هو يتذكر أنه أُخِذَ ليرى هذا. أحينذاك حمله والده كي ينظر؟ كلا، لا بد أنه كان في الثامنة أو التاسعة.

ثم تذكَّر، على نحوٍ عرَضيٍّ للغاية، مثل فقاعة تنفقئ على السطح. كان شعره قد قُصَّ مؤخرًا، ومراسم لبسِه للبنطال[2] أقيمت للتو، أجل، لهذا كان يحس إحساسًا غريبًا في عنقه، وكذلك في ساقيه. وكان يبكي. أجل، الذكرى ترجع إليه بأكملها. لقد أحرج أباه عند الحلاق إذ صدَّع رؤوسَهم بولولته. أجزاءٌ منه تُقَص، أجزاءٌ منه تهوي على الأرض. أمره أبوه أن يسكت، وحين لم يفلح هذا، صفعه على ساقه. شهق من الصدمة، ملأ رئتيه هواءً وراح يولول

(1) في أثناء احتضار اللورد هوراشيو نيلسون (1758-1805) في معركة طرف الغار، كانت كلماته الأخيرة -حسب ثلاثة شهود عيان ناجين على الأقل- هي «Kiss me, Hardy»: أي «قبلني يا هاردي»، (والمقصود هو السير توماس هاردي، 1769-1839، أحد ربابنة سفينة ڤيكتوري)، غير أن العديد من أبناء الحقبة الڤيكتورية اعتقدوا أن الكلمات سُمِعت على نحو خاطئ، فاقترح بعضهم أنها كانت «Kismet, Hardy»: أي «إنه القدر (بالتركية) يا هاردي» -ما ينفيه المؤرخون المعاصرون لكون أقدم استخدام في اللغة الإنجليزية لهذه الكلمة التركية لم يُسجَّل قبل عام 1805م- بينما زعم آخرون أن ما قاله نيلسون هو «Kiss Emma, Hardy»: أي «قبِّل إيما يا هاردي»، إشارةً إلى عشيقته الليدي إيما هاملتون. (المترجم)

(2) مراسم لبس البنطال: مراسم كانت تقام لدى ارتداء الصبيِ الصغير البنطالَ للمرة الأولى، شاعت في العالم الغربي منذ منتصف القرن السادس عشر حتى أواخر التاسع عشر أو مطلع العشرين، إذ كان الصِبية الصغار يرتدون الأثواب حتى سنٍّ تتراوح بين الثانية والثامنة. (المترجم)

بصوت أعلى. فهل أراه الصورةَ ليلقنه درسًا إذًا؟ عليك ألا تتصرف كما فعلت، بل تصرفْ *هكذا*. «هو لم يبكِ»، قال له أبوه وهو يحمله: «*لم يتفوه بحرف*».

وأنا أتأتئ منذئذٍ، فكَّر ريڤرز محاولًا أن يرى الجانب المضحك في القصة. لكن ما الذي يعنيه كلُّ ذلك -معركة طرف الغار والحروب النابليونية- لطفلٍ في الرابعة من عمره يرى أن النهار الصيفيَّ يمتد بلا نهاية؟ لا شيء، لا يمكن أن يعني شيئًا البتة. أو أنه، وهو الأسوأ، قد عنى له شيئًا بسيطًا على نحوٍ مخيف. الاسم نفسه، الصفعة على الساق، الأمر بعدم البكاء. أتُراه يكون نظر إلى الصورة واستنتج أن هذا ما يحدث للمرء إذا كان اسمُه ويليام ريڤرز؟

كان يتجنب النظر إليها كما تقول كات، بل حتى يشيح برأسه عنها كيلا يلمحها خطأً في أثناء مروره. أيكون أيضًا كبَتَ ذكراها البصرية عمدًا، ليجعل رؤيتها بعين ذهنه مستحيلة؟ حين علم پراير أن ريڤرز يعزو الانعدام شبه الكامل لذاكرته البصرية إلى حدثٍ من طفولته كان قد نجح في نسيانه، قال بوحشية: «لقد تعرضتَ للاغتصاب أو الضرب... أيًا كان ذلك الشيء، لقد أطفأتَ عين ذهنك كيلا تضطر إلى الاستمرار في رؤيته. هل هذا ما حدث، أم لا؟». «بلى»، أُكرِهَ ريڤرز على الاعتراف، إلا أنه جادل بقوة شديدة لصالح تفسيرٍ أقل درامية للأحداث. قال إنه ربما كان شيئًا هامشيًّا جدًّا، إنما رهيب بالنسبة إلى طفل. شيء بسيط قد لا يعدو عن كونه ظلًا مخيفًا يلقيه روب دو شامبر معلَّقٌ خلف باب غرفة الأطفال. أصر أن الأطفال الصغار يختلفون عن البالغين، وأن ما يرعبهم قد يبدو لنا تافهًا.

هل هذه هي الذكرى المكبوتة؟ لا يعرف. وهل هي هامشية؟ حسنًا، أجل، بطريقةٍ أو بأخرى، مقارنةً بتخيُّلات پراير الشنيعة. صفعة على الساق، درسٌ في الرجولة من أبٍ مفرط التدقيق لكنه محب. فرقٌ شاسعٌ بين هذا وبين الضرب الساديّ أو الاعتداء الجنسيّ. ومع ذلك فالحدث ليس هامشيًّا بالمقدار الذي يبدو عليه للوهلة الأولى. ذلك الصمت... بالنسبة إليه الآن هذا هو محور الصورة؛ ليس الدم، ولا السكين، بل ذلك الفم المغلَق عن سابق تصميم. كلَّ يومٍ في حياته المهنية ينظر إلى أفواه متشنجة أغلقها أصحابُها بحزمٍ ذات مرة. لا عليك، ابكِ. هكذا يقول، وإن كان نادرًا ما يستخدم هذا العدد من الكلمات. لا بأس في الأسى. الانهيار ليس شيئًا يستوجِب الشعور بالخزي،

فالضغوط كانت لا تطاق. لكن، أيضًا، كُف عن البكاء. انهض على قدميك. امشِ. إنه يرتاب من ذلك الصمت ويُقِرُّه في آنٍ معًا، ولا مناص من أن يفعل ذلك -كما قال لنفسه- كونَه ابن أبيه.

ذهب إلى غرينتش بالقطار، وزارَ التمثال النصفي في قاعة الرسوم، ثم تابع رحلته بالباخرة، ليصل إلى درج وِستمنستر آخر الأصيل. كانت محطة الأنفاق مزدحمة، ولم يستطع إيجاد سيارة أجرة، وحين انعطف عند زاوية شارع هولفورد رود وجد پراير -الذي سبقه- واقفًا على العتبات. «هل طرقتَ الباب؟»، سأله ريڤرز.

«كلا، رأيتُك قادمًا. كنتَ في المستشفى؟».

«لا، للتو عدتُ من رامسغيت»، أدخل المفتاح في القفل: «والآن لو أمكن أن نعبر الردهة على رؤوس أصابعنا...».

ابتسم پراير، إذ كان قد صادف صاحبة البنسيون الذي يقيم فيه ريڤرز مراتٍ كثيرة في ما مضى.

«الطريق سالك»، قال ريڤرز.

صعدا إلى الطابق العلويِّ جنبًا لجنب، ولاحظ ريڤرز السهولة التي يتنفس پراير بها. أحيانًا، خلال الصيف الماضي، كان يصغي إلى خطوات پراير على هذا الدرج ويعد الوقفات. لم يكن يخرج إلى البسطة العليا قط كي يرحب بپراير كما يفعل مع جميع مرضاه الآخرين، لمعرفته أنه لن يطيق أن يُرى وهو يصارع من أجل أنفاسه. لكن صدره الآن رائق بشكل ملحوظ، وربما كان هذا انعكاسًا للرضا الذي يشعر به تجاه عودته إلى فرنسا. فتح ريڤرز الباب المفضي إلى غرفه، ووقف جانبًا ليتيح لپراير أن يدخل.

بطريقة أو بأخرى، كان عليه أن يمنع هذا اللقاء من التحول إلى مواجهة، كما هي عادةُ مراجعات پراير حتى الآن. پراير يستمتع بالمناوشة في وقتها -ما من شيء يروق له أكثر من هذا- لكنه يندم لاحقًا. «حسنًا، اجلس واسترح»، قال ريڤرز وأخذ من پراير معطفه مشيرًا نحو كرسي عند النار: «كيف حالك؟».

- جيدٌ حقًّا. الصدر يعمل، واللسان كذلك.
- والكوابيس؟
- إمممم... قليلة. راودني واحدٌ تتحول فيه الوجوهُ التي على أهداف الرماية -تعرفها، وجوه الوغد الألمانيِّ المتوحش الذي يفترس الأطفال الرُضَّع- إلى وجوه أشخاصٍ أحبهم. لكن ذلك لا يحدث إلا بعد ضغطي على الزناد، لذا لا يكون ثمة ما أستطيع فعله حيال الأمر. أخشى أنني قتلتُك في كل مرة.
- آه، إذًا هو ليس كابوسًا سيئًا؟

ابتسم واحدهما للآخر. ظن ريڤرز أن پراير لا يعي ما قاله بتاتًا، بيد أن هذا الافتراض يكون خطيرًا دائمًا حين يتعلق الأمر بپراير. ربما لأن ريڤرز يفكر مؤخرًا في والده، بات واعيًا أكثر من المعتاد تجاه عنصر الأب والابن القوي في علاقته مع پراير. هو ليس لديه ابن، وپراير ينبذ أباه الحقيقيَّ بالمطلق. «أوه، بالمناسبة، تهانينا على خطوبتك».

إممم، قال پراير لنفسه. تهنئة تشارلز مانينغ كانت موجزةً هي أيضًا، لكن من الممكن إيجاد عذرٍ للإيجاز في حالته، فقد كان فمُه منشغلًا بأشياء أخرى بالكاد استطاع معها أن ينطق بشيء من الأساس. «شكرًا لك».

- هل حددتُما موعدًا؟
- أغسطس المقبل. تقابلنا في أغسطس، وتمت خطوبتنا في أغسطس، لذا...
- ومتى تغادر إلى فرنسا؟
- الليلة. يسرني أنني ذاهب.
- أجل.

ابتسم پراير: «أتظن أنت أنني جاهز للعودة؟».

ترددٌ بسيط. «أظن أنني سأكون أسعد لو أنك أتممتَ اثني عشر أسبوعًا آخر من الخدمة المحلية، وهكذا أيضًا»، أصرَّ في وجه محاولات پراير لمقاطعته: «سترجع إلى فرنسا مع نهاية نوڤمبر».

- لماذا؟

- أنت تعرف لماذا. قبل شهرين كنت تعاني من زلات في الذاكرة، بل في الواقع زلات بليغة إلى حدٍّ ما. على كل حال، هذا الكلام افتراضيٌّ تمامًا. لم يكن قراري...

انحنى پراير إلى الأمام: «كنت أخشى أن تكتب إليهم».

- لم يخطر لي قط أن يفكر أحدٌ في إعادتك.

- أظن أن الضابط الطبيب كان ضد القرار. حسنًا، هكذا كان انطباعي على أي حال. أنَّى لي أن أدري؟ أما بالنسبة إلى اللجنة، أجل، لقد أرادوا أن يعيدوني. وأنا أردت أن أذهب.

- عمَّ سألوك؟ عن أعصابك؟

- لا، لم يأتوا على ذكرها. هم لا يؤمنون بصدمة القصف، قد يدهشك عدد لجان الجيش الطبية التي لا تؤمن بها.

شخر ريڤرز: «أوه، لا أظن أن هذا سيدهشني. على كل حال، ها أنت سترجع، لقد حصلتَ على ما أردتَه».

- في هذه اللحظة، لا أطيق صبرًا حتى أرى عرضَ كتفَي إنجلترا.

- هل من سبب محدد؟

«لا شيء يستحق الذكر، كل القصة أن هناك أمرًا عكَّر مزاجي»، تلكأ: «لقد أخذني مانينغ للقاء روبرت روس. لا أعرف إن كان قد سبق لك لقاؤه؟ عن طريق ساسون؟».

- لقاء مقتضب.

- راق لي، كان ساحرًا. بيد أنني لم أولَع ببعض أصدقائه بالقدر نفسه.

أمهله ريڤرز.

«أحدهم على وجه التحديد. ظهر أن صاحبه الحميم أخلَّ بموعده معه؛ كان متهيئًا لعطلة أسبوع غرامية، والشاب المسكين قرر أن الأمر لا يستحق أجرة القطار من ليدز. وهذا الرجل -اسمه بيرتويسل- كان يقول: «بالطبع، لا يمكن

للمرء أن يعول عليهم. قِيَمُهم مختلفة تمامًا عن قيمنا. إنهم نوعٌ مختلف، حقًا. أولئك *الدبليو سيز*(1)»، ثم ابتسم متهكمًا.

بدت الحيرة على ريڤرز.

- أبناء الطبقة العاملة. دورات المياه. الرجال الذين تطير خصاهم برصاص الحرب كي يظل هو زنبقةً فوق كومة الروث. رباه، إنهم يثيرون غثياني.

- أنا واثقٌ أنك دافعتَ عن نفسك على أتم وجه.

- كلا، لم أفعل، هذا ما يزعجني. اختلطت الأمور عليَّ لكوني ضيفًا مضطرًا إلى التصرف بتهذيب، مع روس طبعًا، لا معه هو. على أي حال، قررتُ أن أُذيق هذا الأحمقَ الأمرَّين، لذا انسحبنا إلى الطابق العلويِّ في ما بعد.

- أنت ومانينغ؟

- كلا، بل أنا وبيرتويسل. معذرةً، بيرتويسل وأنا.

- هذا لا يبدو لي عقابًا بحق.

- أوه، لقد كان عقابًا. لا شيء مثل الإذلال *الجنسيِّ* يا ريڤرز، ما من أحد يستطيع أن ينساه أبدًا.

نظر ريڤرز في العينين الغدارتين وقال لنفسه: رباه، ما كنتُ لأرغب في تحديك. غير أنه قد تحداه مرات عديدة، خلال مسار العلاج، ورفض أكثر من دعوةٍ إلى «الانسحاب إلى الطابق العلويِّ».

«أتمنى لو كانت أمسيتك الأخيرة ألطف».

رفع پراير كتفيه: «كانت مقبولة. الأمر فقط أن هذا الرجل... يصادف أن يجسّد كلَّ شيء لا يستحق القتال من أجله في إنجلترا، مما جعل صحبتَه منعشةً بالأحرى»، نظر إلى ساعته: «يحسن بي أن أذهب، عليَّ اللحاق بقطار منتصف الليل».

تردد ريڤرز: «رجاءً، لا تظنن أنني -لكوني كنت سأوصي شخصيًا بثلاثة أشهر أخرى في إنجلترا- لا أثق تمام الثقة في قدرتك على... على...».

---

(1) وردَ هنا الاختصار «WCs»، ورأيتُ إبقاءه على حاله، فهو يشير إلى أبناء الطبقة العاملة «Working class» مع كونه الرمز المعروف عالميًا لدورات المياه. (المترجم)

- أداء واجبي تجاه الملك والبلاد.

- أجل.

- ريڤرز، أنت ترى أنه لا يجدر بي الرجوع أساسًا.

تردد ريڤرز: «لقد أوصت اللجنة في كريغلوكهارت بالخدمة المحلية الدائمة، ولم يكن هذا بسبب أعصابك، بل بناءً على إصابتك بالربو وحدها. وأنا لم أرَ أي شيء يجعلني أغير رأيي».

نظر پراير إليه وابتسم، ثم صفعه على ذراعيه. «عليّ أن أذهب».

قال ريڤرز بأناةٍ، وهو ذاهبٌ لإحضار معطف پراير: «أتتذكر ما قلتَه لي ذات مرة عن أن الـ... الـ... الأشخاص الذين يـ... يعودون هم عينات الاختبار *الحقيقية*؟ من ناحية اكتشاف ما إن كان العلاج الذي طُبِّق على واحدهم ناجحًا؟».

«أجل، أتذكر»، ابتسامة أخرى: «كنتُ أشاكسك».

«كنت تفعل ذلك دائمًا. حسنًا، يخطر لي أنك في الواقع أفضل جهوزيةً من معظم الناس لمراقبة هذه السيرورة. أظن أن لديك قدرات عظيمة على التجرد».

««وغدٌ خسيسٌ باردُ الدم»»، ترجم پراير، ثم فكر لحظة: «أنت تعطيني كرةً أركلها إلى الطرف المقابل، أليس كذلك؟ تتذكر تلك القصة؟ عن جنود فوج سوفولك الذين ركلوا كرة قدمٍ عبر المنطقة المحرمة حين انطلقت الصافرات على نهر السوم؟ جنونٌ ما بعده جنون».

- كلا، المعركة هي التي كانت مجنونة، أما كرة القدم فهي زينةُ العقل. الشخص الذي أمرهم بفعل ذلك طبيبٌ نفسيٌّ ماهرٌ جدًّا، كائنًا من كان.

- *آه!*

- لكنني أفهم قصدك. لقد تحول هذا إلى حدثٍ من النوع الذي ما عاد بوسع المرء أن يأخذه على محمل الجد، غير أنني لستُ واثقًا من صواب ذلك، كما ترى. أعتقد أن السؤال الذي ينبغي طرحه هو ما إذا كانت المثاليات تبطل لأنها تخذل من يتمسكون بها.

- إن كان التمسك بها يجعلهم سُذجًا حمقى، فالجواب هو *أجل*.

- وهل كانوا كذلك؟

- إن كانوا كذلك، فلا أستطيع التحدث. أنا عائد.

ابتسم ريڤرز: «إذًا لا تريد كُرَتي؟».

«بل على العكس، أظنها فكرة لامعة. سوف أرسل إليك نتيجة الشوط الأول».

ناوله ريڤرز معطفه الطويل، بعد أن عاينه أولًا: «مثير للإعجاب».

«ينبغي أن يكون كذلك نظرًا إلى سعره»، شرع پراير في ارتدائه: «أتعلم أنك تستطيع الحصول على مثل هذه المعاطف ببطانةٍ من الحرير القرمزي؟».

- معاطف عسكرية طويلة؟

- أجل، شاهدتُ أحدها في كافيه رويال، يرتديه واحدٌ من زملائي القدامى في المخابرات. يا للمنظر المباغِت حين يضع ساقًا على ساق، لا يُلاحَظ، مثل مؤخرة قرد بابون. المُفترَض به -كما يبدو- أن يجلس هناك و «يلفت انتباه العناصر المناهضة للحرب».

- وهل كان يفعل ذلك؟

«كان يلفت الانتباه، لكن لا أعرف آراء من لفتَ انتباههم بشأن الحرب. هذا أمرٌ آخر جعلني مسرورًا لخروجي من تلك المعمعة»، مد يده: «لا ترافقني إلى الأسفل».

أخذ ريڤرز بكلامه، لكنه اتجه إلى نافذة غرفة النوم وأطل ينظر منها، مُزيحًا الستارة بمقدار إنش إلى الجانب. صوتُ السيدة إيرڤينغ، وداعٌ ضاحك، ثم ظهرَ پراير، بقامةٍ تبدو أقصر من علٍ، ينزل العتبات ركضًا.

في جزيرة ڤاو، يقتضي العُرف عند ولادة ولدٍ غير شرعيٍّ أن يتبنى أحدُ القادة الطفلَ ويربيه على أنه ابنه. يناديه الصبيُّ أبي، وينشأ محاطًا بالحب والرعاية. وحين يصل سنَّ البلوغ، يُمنَح -كما يليق بابن رجلٍ عظيم- شرفَ اقتياد الأضحية، التي تكون خنزيرًا ذا نابَين ضخمين، من تلك الحيوانات التي يُقاس بها ثراءُ أصحابها. يُعطى الفتى أساورَ جديدة، وقلائدَ جديدة، وغطاءً جديدًا للقضيب. ثم، أمام كل الجمهور الذي يعرف ما يوشك أن يحدث، يقتاد

الخنزيرَ إلى حجَر التضحية، حيث يكون الأب منتظرًا يرفع هراوةً بيده. وعند اقتراب الصبي، يهبط الأب بالهراوة محطمًا جمجمةَ ابنه.

في إحدى كنائس أبيه، كنيسة سانت فيث في ميدستون، تُظهِر النافذةُ الواقعة على يسار المذبح إبراهيمَ وهو يرفع السكين ليذبح ابنه، وتحت الشخوص البشرية كبشٌ قرناه عالقان في الدغل. الحدثان يمثلان الفرق بين الهمجية والحضارة، ففي السيناريو الثاني صوتُ الله على وشك أن يمنع التضحية، وسوف يلقى أذنًا صاغية. لقد ركع عند سياج ذلك المذبح لسنوات، أحدًا تلو الآخر، متناولًا كأس القربان من يدَي أبيه.

حدَّث ريفرز نفسَه وهو يشاهد رأسَ برابر يعلو وينخفض مع سيره خلف سياج الشجيرات ثم يغيب عن الرؤية؛ ربما لأنه يفكر كثيرًا في الآباء والبنين مؤخرًا عاودَته ذكرى التضحيتَين، لكنه تمنى لو أن هذه الذكرى تحديدًا اختارت لحظةً أخرى لتطفو على السطح.

القسم الثاني

7

29 أغسطس 1918

اشتريتُ هذا الدفتر من متجر قرطاسية قرب شارع فليت ستريت قبل وقت طويل حقًّا. منذئذٍ وأنا أحمله معي دون أن أستخدمه، وهذا يعود بشكلٍ أساسيٍّ إلى كونه فاخرًا جدًّا. اشتريته من أجل غلافه ذي النقش الرخاميِّ وصفحاته السميكة قشدية اللون، وهذه الصفحات السميكة القشدية تقول لي منذ ذلك الحين: اغرب عنا، ما الذي بوسعك *أنت* أن تكتبه علينا نحن ويكون يستحق القراءة؟ إنه متجر ساحر، محل قرطاسية حقيقيٌّ قديم الطراز. محلات القرطاسية، متاجر الكتب المستعملة، دكاكين الخردوات. أشعر بحاجة هائلة في هذه اللحظة إلى التركيز على المباهج الصغيرة. إن استطاع المرء أن يجمع كامل حياته في راحة يده، خلال *اللحظة الراهنة التي يعيشها*، فلن يعني الوقتُ شيئًا. عالمٌ بلا نهاية، آمين.

حفنةٌ من الهراء. الحقائق هي ما نحتاج إليه يا رجل، الحقائق.

وصلتُ إلى لندن ولم أجد أي عتّالة أو سيارات أجرة، وكانت الفنادق ملآنة. لاقاني تشارلز مانينغ على رصيف المحطة (كان القطار قد تأخر حتى بتُّ متأكدًا أنه عاد إلى منزله)، وعرض عليَّ -حلًّا لمشكلتي- غرفتَه التي استأجرها في شارع هاف مون ستريت، «من أجل الليالي التي يعمل فيها في المكتب حتى وقت متأخر ولا يرغب أن يزعج سكان المنزل». بحقك يا تشارلز

-أردتُ أن أقول- هذا *أنا*، أتتذكر؟ كنتُ على أتم الاستعداد لأجُر قدميَّ وأمُر على بضعة فنادق أخرى. لكنه كان يعرج بشدة والألم واضح عليه، إضافةً إلى كونه غاضبًا مني لأنني سأعود في حين بوسعي أن أثبت قدمي في مكان مريح خلف مكتبٍ تتناثر فوقه الأوراق في وزارة الذخيرة، مثله. (هو لن يتردد في الرجوع إلى فرنسا غدًا لو أنهم يقبلونه).

عندما وصلنا إلى هاف مون ستريت، صعدنا على الدرج مباشرةً وأخرجَ زجاجة ويسكي. لم تكن سيئة (لكنها ليست بجودة ما اعتاد أن يشربه كذلك)، وانتظرتُ منه أن يفعل ما يفعله أي شخص آخر في هذه الظروف ويحصِّل مني الأجرة. لم يفعل ذلك بالطبع، أنا مبتلى بالناس الأفاضل. قلتُ في قرارتي: أوه، حبًّا بالمسيح، إن لم يكن لديك ما يكفي من النباهة كي تطلبها فأنت في غنىً عنها. كنت أحس بالتعب والدبق، وأريد أن أستحم. بعد عشر دقائق من شطف جسدي بالماء والصابون وأحشائي بالويسكي، بدأتُ أشعر بتحسن. شاورتُ نفسي طويلًا في مرآة الحمام، متوردَ الجلد يتصاعد مني البخار والتآمر. وبعد ذلك خرجتُ وقضينا وقتًا في الغرفة.

ثم ذهبنا لتناول العشاء، وعدنا، بعد أن تلبّث تشارلز فترةً كافيةً ليعرفني على روس... رجل استثنائيٌّ، له هيئةٌ صينية إلى حدٍّ ما، وليس من الناحية البدنية فقط، فهو يجعلك تشعر أنك أمام حضارة قديمة جدًّا. صافحتُه، وقلتُ لنفسي إنني أصافح اليد التي... حسنًا، صِلَتُه بوايلد أمرٌ واقع. وشعرتُ أنني في مكاني المناسب وسط هذا المجتمع الصغير المحاصَر بالأحرى. محاصَر، لأن روس يعتقد أنه سيُعتقل، يعتقد أن قضية پمبرتون بيلينغ المقززة إلى أبعد حد قد منحتهم ختمًا على بياض ليقدموا على فعل ذلك دون تردد. ربما كان يبالغ في وصف الخطر، فهو يبدو سقيمًا، يبدو كمن يخلد إلى سريره ويطيل التفكير، لكن شخصًا أو اثنين من الحضور، بمن فيهم مانينغ، لم يعبرا عن استبعاد احتمال الاعتقال. بيد أن المناخ كان مريحًا رغم ذلك. جنودٌ لا يؤيدون النزعة العسكرية، مناصرو سلامٍ ليسوا متزمتين، والجميع يحدِّث بعضهم. هذا ما يمكن أن أسميه معجزة.

لكن في المقابل، هناك بيرتويسل. إنه أستاذ في كامبريدج، ذكيٌّ جدًّا، كما يبدو. ومما يثير الفضول أنه في الواقع يُفاخر بامتلاكه فهمًا أوسع للمجتمع

البريطانيّ مما لدى الشخص العاديّ، يقصد بهذا أن له علاقاته أيًا كانت مع فتيان من الطبقة العاملة. وقد يكون هذا صحيحًا، كما أفترض، غير أن نظراءه من ذوي الميول المغايرة لا يفاخرون بتوسيع خبرتهم الاجتماعية كلما اختلسوا لقاءً غراميًا في بيثنال غرين. آه، لكنني أتحدث عن *علاقات*، هكذا سيقول بيرتويسل. بل قال ذلك فعلًا. «حُـــــب»، كامل الأركان. ومع ذلك كان يتحدث عنهم بنبرةٍ ملؤها الازدراء، بل سمّاهم دبليو سي. ولم ينجح في تحديد خلفيتي الاجتماعية، أو لم يفعل ذلك بدقة كافية. ثم يقول لك «فهمٌ أوسع»! لعبتُ معه في ما بعد لعبةً قاسية ملتوية إلى حدٍ ما، وهذا بعث فيَّ الكثير من الرضا وقتها، لكنني الآن أشعر أنني مُلوَّث، على عكس ما كنت لأشعر به لو أنني ركلته بين فخذيه (ولكان هذا أكثر رفقًا أيضًا).

صار مانينغ -بعد عودتنا ومتابعتنا السهرة وحدنا- غريبًا جدًا، انفتحت بيننا مسافات شاسعة. وهذا لأنه لم ينوِ حدوث ما حدث -أو لم يعتقد أنه نوى- من جهة، ولمجرد أنني عائدٌ وهو لا من جهة أخرى. إنشان اثنان يفصلان بيننا في الغرفة... *أميالٌ وأميالٌ* مترامية. سُررتُ حين ذهب، وأنا حتى مسرورٌ أكثر لأنه ليس هنا الآن. قليلةٌ للغاية مباهجُ الحياة التي تعادل سريرًا ضيقًا وملاءات نظيفة لطيفة البرودة. (إن لم يكن هذا تجليًا تاليًا للسهرات فماذا؟).

30 أغسطس

أحضرتُ معطفي اليوم. لن أدوِّن حتى كم كلفني، لكنه دافئ وخفيف وجميل المظهر، وأنا أحتاج إلى كل هذا.

قضيتُ بقية النهار أتسكع في الأنحاء لا أفعل شيئًا يُذكر. العشاء في غرفتي في هاف مون ستريت، وبعده قابلتُ ريڤرز. كنتُ قد عقدت عزمي على ألا أسأل عن رأيه بعودتي، وعلى وجه الخصوص ألا أسأل إذا ما كان يراني مؤهلًا، ثم سألتُ رغم ذلك، وأثار الجواب سخطي كما هو متوقَّع.

انتابني إدراكٌ شديد الوضوح في أثناء حديثنا -لأنني كنتُ بعيدًا لفترة كما أفترض- مفادُه أن سطوته على الناس، القدرةَ على الشفاء إن جاز التعبير، تنبع مباشرةً من جرحٍ أو تشوهٍ ما فيه. لديه نقاط قوة كثيرة، لكن عمله لا

يستند إلى القوة. يصعب قول هذا دون أن يبدو صادرًا عن شعورٍ بالفوقية، وأنا لا أشعر بذلك. في الواقع، هذا أفضل شيء فيه بالنسبة إليَّ، بل الشيء الوحيد الذي يجعله محتمَلًا إن تحرينا الدقة: أنه لا يجلس خلف المكتب منصّبًا نفسه معيارًا للصحة النفسية ضمنيًّا. لقد قال لي ذات مرة إن نصف أعمال العالم ينجزها عُصابيون ميئوس منهم، وأعتقد أنه كان يأخذ نفسه بعين الاعتبار. ويأخذني أنا كذلك.

وصلتُ إلى المحطة قبل ساعة من الموعد، وجاء مانينغ. أتمنى لو لم يأتِ، لكنه كان هناك، وبالطبع خضنا واحدةً من محادثات المحطات الشنيعة تلك. الأخذ والرد الذي يجري بين الذاهبين والباقين شنيعٌ إلى درجةٍ يُفضَّل معها تجنُّب الأمر برمته. على أي حال، تجاوزنا ذلك، ونظر واحدنا إلى الآخر عبر النافذة بشعور انفراجٍ مشترك، ثم انطلقنا مبتعدَين. أو انطلقتُ أنا.

وصلتُ إلى هنا (فولكستون) في قلب الليل، منهَكًا. ثمة شيءٌ ما بشأن محطات القطار، وأنا مررتُ بالكثير منها مؤخرًا. كلمات الوداع تنحبس تحت السقف وتمتص الأكسجين من الهواء، وإلا فما من سببٍ يجعلني أشعر بما أشعر به.

السبت، 31 أغسطس

استيقظتُ متعَبًا. لكنني نهضتُ رغم ذلك، دون أن أبدد الوقت –«تبديد الوقت» و «قتل الوقت» هي عبارات تبدأ تلاحظها– مستلقيًا في السرير، وجلستُ مدةً على الشرفة أشاهد شروق الشمس، ثم قررت أن أفعل ما يفكر الناس دائمًا في فعله قبل أن يعيدوا التفكير ويرجعوا إلى النوم، قررت أن أسبح قبل الإفطار. وهكذا نزلتُ إلى الشاطئ. ترددتُ على الحصى عند حافة الماء، فقلتُ لنفسي «لا تكُن فاترَ الهمة»، وما إلى هنالك، ثم غطست. كان الماء رماديًا بلون اللؤلؤ، قارسَ البرودة، لكنه منعش للغاية بعد الصدمة الأولى. بعد ذلك وقفت لبعض الوقت والماء يبلغ ركبتيَّ، أحس به يندفع ويرتد حول ساقيَّ، وأنا لا في البحر ولا على اليابسة. مذهل. ولم يزل ضوءُ الصباح الباكر يتحدر من السماء. كانت نُتَفُ الرمل التي طرحتها الديدان حول مداخل أنفاقها

بارزةً جدًّا، الشمس تلقي ظلالًا شاسعةً لأصغر الأشياء، وفكرتُ في الشاطئ على أطراف إدنبرة حيث مارستُ الحب مع سارا للمرة الأولى. رجعتُ مباشرةً وكتبتُ إليها. ثم ذهبتُ أتمشى في البلدة، مانحًا نفسي مكافآت صغيرة، قطع شوكولاتة وما شابه، وأنا أتحاشى الضباط الآخرين.

صادفتُ هاليت برفقة عائلته، ورأيتُ اليأس جليًّا. كلهم بدوا يائسين، لكنني أتحدث عن هاليت. الوغد المسكين يعيش وداعَ محطةٍ مستمرًا منذ *أيام*. لوَّحتُ له وتابعت سيري.

على متن السفينة

الناس يلعبون الورق تحت ظهر المركب، لكن البحر هائجٌ حقًّا، وأنا أفضل أن أبقى هنا في الخارج وأشاهده. الزبد يفور بغزارة بين الأثلام الهائلة التي يخلفها المركب على وجه الماء الأخضر الشاحب، وطيور الخرشنة ترفرف، بل تمتطي الهواء بالأحرى، إذ لا تحتاج إلى أكثر من تعديل ضئيل لأجنحتها كي تبقى ساكنة، وهي تقترب من المركب كثيرًا.

راقبتُ الجروف تختفي. حاولتُ أن أفكر في شيء يليق بالمناسبة، فتوصلتُ إلى ما يلي: *كلما ابتعدنا عن إنجلترا زاد قربُنا من فرنسا*، ثم لم أستطع التخلص من هذه الفكرة اللعينة، ظلت تدور وتدور داخل رأسي.

صعد هاليت ووقف على بُعد بضع ياردات مني، إذ لم يرغب أن يتطفل على ما ظنه وداعًا حميميًّا للوطن. أذعنتُ آخر المطاف، فجلسنا وتكلمنا. المثالية تملؤه، كنت أفضل لو خضتُ الحديث مع الفظِّ والنجار[1].

---

(1) الفظ: من الثدييات البحرية كبيرة الحجم التي تستوطن المياه القطبية الضحلة حول منطقة القطب الشمالي. والفظ والنجار شخصيتان من قصيدة قصصية لـ «لويس كارول» (تشارلز دودجسون)، وردت في كتابه «عبر المرآة» (الجزء الثاني من مغامرات أليس في بلاد العجائب). تتناول القصيدة فكرة الدهاء والخداع في الطبيعة البشرية، إذ تحتال الشخصيتان على مجموعة من المحارات الصغيرة الساذجة وتأكلانها بعد نزهة على شاطئ البحر. (المترجم)

من الواضح جدًّا أن هاليت قد اختار أن يتخذني قدوةً ويتبعني، كما تفعل أسماك الزامور[1] الصغيرة أو طيور الخرشنة على سبيل المثال. يظنني أعرف ما يحدث لكوني سبق وذهبتُ ثلاث مرات. الشاب يبدو ذكيًّا بما فيه الكفاية، أتساءل كم من الوقت سيستغرق حتى يفهم أن *لا أحد* يعرف ما يحدث.

الأحد، 1 سبتمبر

إتاپل أقل وحشيةً مما أتذكر بمقدارٍ طفيف. ومع ذلك، مرت بي جماعة رجال معاقَبين يركضون بين صفين من المُخبرين، الذين يصيحون بالشتائم في وجوههم كعادتهم دائمًا. وتقول لنفسك: «لا بأس، ينبغي أن تكون المعاملة وحشية، خذ في الحسبان الخشونة التي يتطلبها ما يُعدونهم لملاقاته»، بيد أن الأمر ينحرف عن غايته الأساسية في الواقع. *التجرد من الروابط الإنسانية* هو أكبر العناصر المساهمة في تشكيل القرف الذي يطغى على هذا المكان. لا أحد يعرف أحدًا. تُلقي الأوامر على مسامع الرجال، لا هم يعرفونك أو يثقون بك (لمَ عساهم يفعلون؟)، ولا أنت تستثمر شيئًا فيهم.

الشعور نفسه يسود بين الضباط، لكنه يتخذ شكلًا أكثر اعتدالًا. إننا ننام في مهاجع، وهناك تشعر بالشعور الذي ينتابك في الأجنحة الكبيرة داخل المشافي، تتخلى عن الخصوصية دون أن تكسب الألفة.

سرير هاليت مجاورٌ لسريري. هذا المساء، جلس على سريره وأراني صورةً لفتاته... خطيبته، كما ينبغي أن أقول. والداه يريان أنه أصغر سنًّا من أن يتزوج، وهو يعترض على ذلك بضراوة، مشيرًا إلى أنه يبلغ سنًّا كافيةً ليخوض في هذا الذي نحن فيه. أنا بالطبع لا أرى حتى أن سنه كافية من أجل *هذا*، لكنني لا أفصح. عوضًا عن ذلك، أخبرته أنني خطبتُ أنا الآخر، وأريته صورة لسارا. ثم جلس واحدنا يبتسم للآخر بلا مغزى، شاعرَين أننا أحمقان تمامًا. حسنًا، أنا شعرت بذلك على الأقل.

---

(1) يتبع سمك الزامور أسماك القرش التماسًا للحماية من أعدائه الطبيعيين. (المترجم)

الأربعاء، 4 سبتمبر

الوقت يمر سريعًا هنا. لدينا ما يكفي كي نفعله خلال النهار، وقِسطٌ لا بأس به من وقت الفراغ. لكن المناخ السائد بغيض. في قاعة الطعام مشمع أرضية بالٍ لا لون له -بلون البؤس، لو كان للبؤس لون- وطاولة مستديرة كبيرة في المنتصف، تغطيها نُسخٌ زوايا صفحاتها مطوية من مجلتَي پانش وجون بُل، تمامًا مثل غرفة انتظار عيادة أسنان؛ الخوف الطاغي نفسه، وكذلك عدم الرغبة في إضاعة الوقت على أشخاصٍ يرجح أنك لن تراهم مجددًا على أي حال.

أخرجُ كلما سنحت لي فرصة. لقد مشيتُ أميالًا اليوم؛ تلالُ رملٍ سفحية هائلة مكشوفة للريح، وصفٌ طويل من أشجار الصنوبر القزمية تميل جميعها بعكس جهة البحر.

السبت، 7 سبتمبر

جاء فرزي في فوج مانشستر الثاني. سنغادر غدًا.

إنه المساء الآن، والجميع يخربش على الورق، يبلّغون الناسَ الأخبار، أو المقدار المسموح لنا أن نخبر الناس به منها. أنقّل نظري في أنحاء المهجع، فلا أجد صوتًا سوى تقليب الأوراق، وقلم يخربش هنا وهناك. هكذا الحال كل مساء. وليست رسائل فقط. يوميات. قصائد. في هذا العنبر وحده اثنان على الأقل من أدعياء الشِعر.

لا بد أن تسأل نفسك لماذا. أعتقد أنها طريقة في استحقاق الحصانة؛ الرواة بصيغة المتكلم لا يمكن أن يموتوا، لذا نحن في أمان ما دمنا نروي قصة حياتنا بأنفسنا. هاها، يلعن أُم الضحك.

8

التفت ريڤرز ليشاهد الشمس تنتفخ وتحمر في مغيبها؛ قرصٌ دمويٌّ متوحش، تثلّمه أبراج الكنائس ومداخن المصانع، ويغشّيه سديمٌ من الدخان البُنيّ والأصفر الطافي في الهواء.

لقد خرج ليتمشى في متنزه هامپستيد هيث لأنه كان يشعر بالتوعك، واحتاج أن يصفي رأسه قبل أن يستهل أعمال المساء، لكن لم يكن الأمر مجديًا. شعوره يزداد سوءًا مع كل خطوة؛ عضلاته تؤلمه، حلقه يوجعه، عيناه تخزانه، وجلده دبِق. مع عودته إلى مسكنه، كان قد قرر أن يفوّت العشاء ويتجه إلى السرير مباشرةً. دقَ الباب المفضي إلى شقق السيدة إيرڤينغ الخاصة، وأخبرها أنه يشعر بشيء من التوعك ولن يحضر على العشاء، ولمح عبر الباب المفتوح صورةَ ابنها الميت المعلقة فوق رف المدفأة، تحتها أزهار وعلى جانبيها شمعدانات.

فيما هو يصعد الدرج ببطء، متوقفًا مرارًا كي يتكئ على الدرابزين، راح ريڤرز يفكر في ما رآه لتوه: الصورة، الأزهار. إنه مقام، لا يختلف في جوهره عن بيوت جماجمِ پا نا غوندو التي ذهب إليها برفقة نْجيرو؛ الحافز البشري نفسه يقف وراء هذا وتلك. يصعب أن يعرف ما الذي ينبغي فهمه من هذه الملاحظات عبر الثقافية التي تمر في ذهنه. فمن وجهة نظر مهنية صِرفة، هي بلا معنى تقريبًا، لكن المرء لا يكتسب مثل هذه الخبرات بصفته نابغةَ أنثروبولوجيًا منسلخًا عن الواقع، بل إنسانًا، وبصفته إنسانًا ينبغي له أن يستجلي شيئًا من المعنى فيها.

بدأ يرتجف حالما خلد إلى السرير، وأحس بالملاءات باردةً على ساقيه الساخنتين. نام وحلم بمرج الكروكيه في نولز بانك؛ أمه تخرج بفستان أبيض طويل لتنادي الأطفال كي يدخلوا، والشمس تغرب فوق الأحراش مُلقيةً ظلالًا رقيقةً بالغة الطول عبر المرج. ظلال أقواس الكروكيه تحديدًا كانت طويلة ومخيفة. كان قد أفاق ومرت عدة دقائق قبل أن يُدرك أنه يحاول تذكُّرَ قواعد كروكيه الرياضيات، التي ابتكرها دودجسون، ويشعر بضيقٍ حقيقيٍّ لأنه لا يستطيع تذكُّرها. ثم أدرك أنه ما زال -رغم يقظته التامة- يستطيع أن يرى المرج، ما يعني أن حرارته عالية جدًّا. ذاكرته البصرية ترجع إليه دائمًا في الحمى الشديدة، فيمنحه ذلك متعةً سريةً بالمرض تبعث شعورًا غامضًا بالخزي. لن يعود إلى النوم، فحرارته أعلى من أن تسمح بذلك، لذا اكتفى بالاستلقاء وتركَ عينَ ذهنه التي انفتحت حديثًا تسترسل.

على متن سَذرن كروس، في الطريق إلى جزيرة إيديستون، وقف على ظهر المركب يشاهد الأثلام الخضراء الشاحبة تمخر عباب البحر الداكن، رافضًا أن يستبدل بالنسيم الخفيف الحَرَّ الخانقَ تحت الظَّهر.

في إحدى المحطات، صعدت مجموعةٌ من السكان المحليين، الرجال يرتدون بدلات أوروبية من سقطِ المتاع، والنساء فساتينَ ذات نقوشٍ أزهار. القليل من النساء كُنَّ عاريات الصدور، لكن من الواضح أن معظمهن تلقَّين التبشير. بدوا أشبه ببقايا قليلة تثير الشفقة وهم يجلسون القرفصاء هناك، جزءًا من جيش السكان الصغير الذي اقتُلِعَت جذوره وراح يهيم من جزيرة إلى التالية، من مركز تبشيرٍ إلى التالي، دون أن ينتمي إلى مكان. للوهلة الأولى، تبدو جميع مراكز التبشير محاطةً بمعتنقي المسيحية الجدد، وقليلو الخبرة يفترضون دائمًا أن هؤلاء أفراد من الجزيرة *نفسها* تحولوا حديثًا. لا يفطن المرء إلا لاحقًا لهذه الشريحة السكانية المهجرة التي تتنقل من مركز إلى التالي، ومعظمها قادم من جزر كان فيها تأثيرُ الثقافة الغربية أشدَّ بطشًا مما في غيرها.

جلس القرفصاء بجانبهم، ووجد في نفسه -كما توقع- إلمامًا باللغة الهجينة يكفي لجعل المحادثة ممكنة. كان قد صاغ استبيانًا يستخدمه في المناسبات التي يحتاج فيها أن يستخلص أكبر كم من المعلومات بسرعة.

السؤال الأول هو دائمًا: على فرض أن الحظ حالفك وعثرت على جنيه، مع من تقتسمه؟ هذا السؤال يفضي إلى قائمة من الأسماء، أسماء يطلب منهم أن يشرحوا قرابتهم بها. ومن هذه النقطة، يكون بوسع المرء أن ينتقل إلى الناحية التي يريدها من نواحي مجتمعهم.

حين شعر أنهم بدؤوا يسأمون، قدم لهم عيدان التبغ ثمنًا ونهض ليذهب، لكن إحدى النساء أمسكت ذراعه وشدته كي يجلس من جديد. نكزته في صدره مازحة، واستحضرت كلمتين من ذخيرتها الإنجليزية القليلة: «دورك أنت».

طُرِحت الأسئلة مجددًا وبالترتيب نفسه. وعندما قال لهم إنه لن يشعر بالضرورة أنه مُلزَم باقتسام الجنيه مع أحد لكونه أعزب وليس لديه أولاد، رفضوا تصديقه أول الأمر. أليس له أبٌ أو أمٌّ على قيد الحياة؟ بلى، الأب. وماذا عن الإخوة والأخوات؟ أخٌ واحد، وأختان. من الأم والأب نفسيهما؟ أجل. لكنه لن يقتسم الجنيه معهم *تلقائيًا*، مع أنه ربما *يختار* أن يفعل ذلك.

بدت المرأة التي شدت ذراعه تستطرف الحديث في البداية، لكن ما إن تأكدت أنها فهمت كلامه حتى ارتاعت. واستمر الأمر على هذه الحال. لأن الأسئلة منتقاة بعناية كبيرة، فقد شكلت بالتدريج انطباعًا -وليس انطباعًا مبهَمًا، بل دقيق إلى حدٌّ بعيد في بعض جوانبه- عن حياة أستاذ أعزب في إحدى كليات كامبريدج. تمثلت ردة الفعل الأساسية في الضحك الصاخب. ولو كانت الأسئلة تقود إلى منطقة أكثر حميمية، لو كان يستطيع -أو يريد- أن يطرح أمامهم كل ما يتعلق بمحاولة الاندماج في المجتمع والعيش تحت القانون أو حوله أو خارجه بما في ذلك من تعقيدات، ماذا ستكون ردة فعلهم يا ترى؟ الضحك. كانوا سيستمرون في الضحك. ما كانوا ليعرفوا كيف يشفقون عليه. رفع رأسه ناظرًا إلى السماء الزرقاء الخالية، وأدرك أن نظرتهم إلى مجتمعه لم تكن أكثر ولا أقلَّ تسويغًا من نظرته إلى مجتمعهم. ما من شيخ أبيض ملتحٍ ينظر إليهم من علٍ، ويقر مجموعةَ قيمٍ ويدين أخرى. ومع إدراكه هذا، انهار إطارُ القواعد الاجتماعية والأخلاقية الذي يحبس الأفراد -ويبقيهم عاقلين- برمته، وأصبح للحظة في نفس وضع هؤلاء الناس المطرودين التائهين على غير هدى. حالة مطلقة من السقوط الحر.

ثم، في اليوم التالي، بعد ليلةٍ أرِقة، انتقل هو وهوكارت إلى باخرة متجولة تُقلهما في المرحلة الأخيرة من الرحلة، وهناك التقى بالناتج النهائيِّ المنطقيِّ لعملية السقوط الحر... الاصطدام بأرض الرصيف إن جاز التعبير: برينان.

روائح زيتِ المحرك ولبِّ جوز الهند المجفف، وعرقِ النيام المحشورين داخل الكبينة الصغيرة على ظهر المركب. وفوق رؤوسهم كوكباتُ نجومٍ أجنبية تسبح وتدور، دون أن تقدم علامة مرجعية واضحة لأعين الشماليين.

برينان نائم قبالته، رسمة وجهِه الجانبية -تحت شراريب شعره التي يخطها الشيب- تبدو كأنها لغلام إمبراطور الرومان الأثير بعد أن فقد نضارته. كان يشخر، ثم تغرغر وانقطع نفَسه، فتغرغر من جديد وغمغم محتجًا كأنه ظن أن أحدًا أيقظه، قبل أن يعود إلى النوم. في الطرف الآخر من الكبينة كان الأب مايكل، وقد جر معه أجواء كلية اللاهوت التي تركها منذ وقت غير طويل: أكواب الكاكاو ونقاشات آخر الليل حول العفة في غرف نوم الآخرين. ثم هناك هوكارت، يبدو أصغر سنًا بكثير من خمس وعشرين سنة، شفته العلوية تبرز مع كل نفَس.

افترض ريڤرز أنه لا بد نام في نهاية المطاف، غير أنه لم يشعر بانقضاء أي وقت قبل أن يبدؤوا بالتمطط مترنحين فوق ظهر المركب.

خرج عمال المركب من حفرة جحيمهم الخالية من الهواء بجانب المحرك، ومسحوا الركاب فيما هم يمسحون ظهر المركب، ثم أنهوا عملهم بإلقاء دلوٍ من الماء البارد على وجوههم أعمى أبصارَهم وتركهم يلهثون. وقف برينان مغمضًا عينيه يضع يده بين ثدييه الممتلئين، مثل أفروديت مُشعِرة، والماء يقطر من أنفه وقُلفته والشعرات على كيس صفنه المتدلي المجعد. من المستحيل ألا تحب شخصًا يبث كل هذه الحماسة في معيشة دقائق اليوم.

ما إن أشرقت الشمس وضربت أشعتُها ظهر المركب الذي يتصاعد منه البخار، حتى بدؤوا بحثهم الممتد طيلة النهار عن رقع الظل. أوشك الأب مايكل وهوكارت أن يتشاجرا بشأن سجل المبشرين في الجُزر. هوكارت كان نتاجَ مقرٍّ كهنوتيٍّ ڤيكتوريٍّ، ومتمردًا بعض الشيء. وكان واضحًا أن مايكل يظن نفسه قد وقع وسط مجموعة من الملحدين، أو أسوأ. استمع برينان إلى

الخِلاف، وحكَّ عنقه، ثم جمع البلغم في حلقه بصوتٍ دسِمٍ فوار -حماسته للحياة تتجاوز الحدود أحيانًا- وبصقه على ظهر المركب، ثم تفحَّصه بعناية. ووجد ريڤرز نفسَه يتفحص البلغم هو الآخر، لاعنًا تدريبَه الطبيَّ. «كنتُ أعرف مبشرًا»، قال برينان، وعلى وجهه سيماء خبثٍ هادئ كسول: «لا يفقه كلمةً واحدةً من اللّغة، مبتدئ في أوّل مسيرته، ليكن يسوع في العون. ثمّ بدأ القلق ينتابه، لأنّ الجميع احتشدوا حوله، لكنّه لم يستطع أن يجعلهم يركعون. لذا ركع على ركبتيه وقال: «ماذا تسمّون هذا؟». حسنًا، كما نعلم أنا وأنتم»، أردف ملتفتًا إلى ريڤرز: «هنالك شيء واحد فقط يفعلونه راكعين. ويومَ الأحد التّالي، أمام جمهور مصلّين كبير، وقف ورفع ذراعيه قائلًا:»، نظر إلى مايكل، وترنّم بطبقة كاونترتينور صافية على نحو مذهل: ««فلنفعلها»».

علَت ضحكةٌ أشبه بالنهيق من باب غرفة المحرك المفتوح، حيث كان الربان يقف ويمسح أصابعه بخرقة ملطخة بالزيت.

«أتمنى لو تترك مايكل وشأنه»، قال ريڤرز لهوكارت بعد أن نزل الآخرون إلى تحت ظهر المركب.

- لماذا؟ إنه وغد متغطرس...

- إنه طفل.

لكن هوكارت، الطفل هو الآخر، لم يرَ حاجةً إلى الرحمة.

بعد حلول الظلام، احتشدوا حول الطاولة المتقلقلة التي يتناولون عشاءهم عليها، حيث لا مفر لواحدهم من صحبة الآخر. أكواعهم تتضارب، رُكَبهم تتمايل، والمقاعد الجلدية تشع حرارةً واخزةً تحتهم. اندلع حكُّ المؤخرات، في الخفاء تارة، ودون الكثير من التحفظ تارة. انضم الربان إليهم لتناول الوجبة، لكن لم تبدر عنه مساهمة تُذكَر في الحديث، إذ فضَّل أن يتسلى بصمت. لقد جعلته مهنتُه خبيرًا بالضيق الاجتماعيِّ. ما إن شعر برينان أن ريڤرز يستلطفه حتى طفق يتكلم ويتكلم كأن في نيته أن يروي قصة حياته، وهو يتجرع الويسكي من آنٍ إلى آخر كاشفًا بأنفاسه عن نخور أسنانه. عرض على ريڤرز صورةً لأطفاله الرُّضَّع الثلاثة العراة ذوي البشرة البُنية وهم يتعثرون ببعضهم في التراب، ووراءهم فتاة شابة تغطي الوشوم وجهَها وعنقها وصدرها. «لا بد أنها من جزيرة ليبرز»، قال ريڤرز.

استرد بريتان الصورة وحدق إليها: «أجل، هذا صحيح. *العاهرة*».

بدا يهم بقول المزيد، لكن ريڤرز قال بسرعة: «لم أكن أعرف أنك ذهبتَ إلى جُزر هيبريديز الجديدة».

«لقد بدأتُ من هناك».

كان قد بدأ العملَ تاجرًا للرقيق -كحال الكثير من التجار القدامى- يخطف أفرادًا من السكان الأصليين كي يعملوا في مزارع كوينزلاند، وهو صريح بشأن الطرق التي يتبعها كذلك. أقِمْ أواصرَ الصداقة معهم، ادعُهم إلى الصعود على متن السفينة، اجعلهم يسكرون، ويعطيك ألفَ عافية. عندما يستفيقون سيكونون في عرض البحر، ولن يملكوا من أمرهم شيئًا. والفتيات، لعلمكَ، كُنَّ يُمرَّرن من يدٍ إلى أخرى على ظهر المركب. ولمَ لا؟ جميعهن سيُضاجَعن حتى تنحلّ رُكَبهن حالما يصلن إلى المزارع على أي حال. «أتعلمون؟»، تابع كلامه متكئًا على الطاولة يبحث عمن يصدمه، ثم استقر على مايكل، رغم أن التعبير الذي يعلو وجهَ هوكارت كفيلٌ بجعله الخيار الأكثر بديهية: «يمكنكم شراء امرأة -*بيضاء* لعلمكم- مقابل أربعين جنيهًا في سيدني؟».

«أرى أن أربعين جنيهًا سعرٌ باهظ بعض الشيء»، قال هوكارت.

- *شراء* يا رجل، لستُ أقول أن تستأجرها بحق اللعنة.

- ولماذا لم تفعل ذلك إذًا؟

«لا»، أجاب بريتان متجهمًا، يدوّر الويسكي في كأسه: «إنهن يبلغن من العمر عتيًاه»، التفت إلى ريڤرز، «لن تقطع نصف شهر العسل إلا وأنت تبول قنافذَ بالمقلوب. هو يفهم قصدي»، قال مشيرًا بإبهامه نحو ريڤرز.

«جميعنا نفهم قصدك»، قال هوكارت.

انحنى الربان إلى الأمام، بابتسامة عانسٍ مسنة: «ما رأيكم بجولة ورقٍ لطيفة؟».

ثم انقطع الكلام، لا شيء إلا طقطقة المصباح الكحولي فوق رؤوسهم، وخبط ورق اللعب على الطاولة. تسلى ريڤرز بمراقبة هوكارت وهو ينتبه شيئًا فشيئًا أن الأب مايكل يغش عندما يتقلص مخزون القطع النقدية أمامه، في حين أن بريتان لا يفعل.

في الصباح التالي، وهذا انتصارٌ صغير لميلانيزيا، تجرَّد الأب مايكل -الذي كان حتى الآن يقرفص فوق دلوٍ كي يغتسل- من ملابسه مع البقية، فبدا جسده الأشبه بزهرة لوف بيضاء مع سداتها[1] غير المتوقَّعة صادمًا بجانب جسد بريثان.

تشعب الحديثُ ذلك الصباح على نحوٍ وديٍّ بما فيه الكفاية، وهم متكئون معًا يتعرقون في رقع الظل خاصتهم، إلى أن فرقتهم من جديد رؤيةُ لطخةٍ من الأزرق والأخضر على الأفق.

ومع أواخر الأصيل، كانوا قد رسوا عند رصيف إنزال متعفن في إيديستون، وتسلقوا إلى الشاطئ كي يشرفوا على تفريغ الحمولة. كان ريڤرز معتادًا على الجزر التي بلغها التبشير، حيث تخرج زوارق الكانو إلى البحر لتلاقي الباخرة القادمة، تعلوها وجوهٌ بُنية وأعين بيضاء وابتسامات لامعة، في حين يتجمع آخرون عند رصيف الإنزال متأهبين لحمل الحقائب إلى مركز التبشير مقابل بضعة عيدان تبغ أو حتى لمجرد المودة المسيحية لا أكثر. صورةٌ مبهجة، ما دمتَ لا تلاحظ صفوف الصلبان المتتالية في مقبرة البعثة التبشيرية؛ رجال ونساء في ريعان الشباب قضوا نحبهم بسبب أمراضٍ إنجليزية المنشأ: السعال الديكي، الحصبة، الدفتيريا، جدري الماء، الحمى القرمزية... كلها مميتة هنا، ومركب البعثة حملَها من جزيرة إلى أخرى، من مركز إلى آخر، بلا رحمة، سنةً تلو أخرى.

لكن هذه المرة، لا شيء. لم يظهر أحد. ظل ريڤرز وهوكارت يلوّحان حتى تضاءلت الباخرة إلى نقطة فوق الماء المتلألئ، ثم حملا الخيمة وطعامًا يكفي ليلتهما إلى فسحة صغيرة فوق الشاطئ بنحو مئة ياردة. كان خليج ناروڤو ينبسط تحتهما، والقرية التي تلوح أكواخُها لهما من بين الأشجار تُدعى ناروڤو هي الأخرى.

«ألسنا قريبين بعض الشيء؟»، سأله هوكارت.

- لا نريد أن نكون بعيدين للغاية. إن نأينا بنفسَينا سنبدو لهم مخيفين، فالساحرة الشريرة تعيش في *الغابة*، تذكَّر.

---

(1) السداة: عضو التذكير في الزهرة. (المترجم)

- ماذا تظن أنهم سيفعلون؟

رفع ريڤرز كتفيه: «سيأتون».

حين فرغا من نصب الخيمة، كان الظلام الاستوائيُّ المباغت قد بدأ يحل. تنفست الجزيرة بصمت للحظةٍ بعد الغروب، تصاعدت من الآجام أصواتٌ مختلفة بين طنين حشرات وصياح طيور. كان ريڤرز متنبهًا بشدة لسرعة تقلص المساحة الصغيرة المضاءة حول الخيمة، فظل يحدق إلى الأشجار وخُيِّل له أنه رأى ظلالًا داكنة تتنقل بسرعة بين جذوعها، لكن أحدًا لم يظهر رغم ذلك.

بعد أن تناولا وجبةً من اللحم المعلب والأناناس الذابل، قال هوكارت إنه سيستلقي. بدا مرهَقًا للغاية، واشتبه ريڤرز أن يكون قد أصيب بحمى خفيفة. تكلم هوكارت من خلف ناموسيته لبعض الوقت، ثم أطفأ مصباحه اليدويَّ وانقلب على جنبه لينام.

جلس ريڤرز إلى طاولة أمام الخيمة مباشرةً، وحاول أن يصلح مصباح الزيت الذي كان الدخان يتصاعد منه بكثافة. ظلٌّ صغير وحيد في الفسحة، وسط عاصفة من الأجنحة الشاحبة، إذ لم تبقَ عثةٌ إلا وخرجت من الآجام لترفّ حول الضوء. من حينٍ إلى آخر، تنجح إحداها في إيجاد طريق إلى داخل المصباح، فتُسمَع طقطقة سريعة، ثم يتوهج اللهب، ويتصاعد المزيد من الدخان. عندئذٍ ينفض ريڤرز الحشرةَ المتفحمة ويبدأ من جديد. عملٌ مُتلِفٌ للأعصاب على نحوٍ غريب. بسبب عمله على هذه المقربة من الضوء، انبهر بصرُه ولم يستطع أن يرى شيئًا تقريبًا حتى عندما رفع رأسه. كان يعي الظلمة الكثيفة في الآجام حوله، لكن على شكل ضغطٍ ذهنيٍّ أكثر مما هي إحساس تلتقطه الحواس. توقف عن العمل فجأةً، إذ ظن نفسه سمع عزفَ مزمار قادمًا من القرية. شمَّ الزيت الذي يلطخ أصابعه، ومسح ذقنه بظهر يده، ثم اعتدل في جلسته ليستريح، وكانت شبكيتاه تؤلمانه كما يحدث بعد أن يسلط النظاراتيُّ مصباحه عليهما. نزع نظارته ومسحها بقميصه، وحين ارتداها من جديد رأى ظلًا قد خرج من بين الأشجار ووقف عند طرف الفسحة. رجل في بدايات منتصف العمر، في شعره خطوطٌ من الجير الأبيض، وحول عينيه، وكذلك على طول الوجنة وعظم الفك، بحيث شعر أنه ينظر إلى

جمجمة قبل أن يلمح وميض بياض العينين. ظل جالسًا بسكون تام، فيما اقترب الرجل نحوه، بمفرده، أو هكذا يبدو. أشار إلى الكرسي الآخر، ظانًا أن دعوته قد تُقابَل بالرفض، لكن الزائر جلس، وأحنى رأسه قليلًا، ثم ابتسم.

أشار ريڤرز إلى نفسه وقال اسمه.

رفع الرجل يده البُنية النحيلة إلى قلادة الصَدَف حول عنقه. «نْجيرو».

راح واحدهما يحدق إلى الآخر. رأى ريڤرز أن عليه أن يعرض الطعام، لكن الطعام الوحيد المتوفر بسهولة هو بقايا الأناناس، ولم يتشجع على أن يقطع اللقاء ويدخل الخيمة للبحث عنها.

نْجيرو كان مشوَّهًا، لولا الاعوجاج في عموده الفقريّ لكان رجلًا طويل القامة، بل فارع الطول وفقًا للمعايير الميلانيزية، وهو يتصرف بسطوة واضحة. بالإضافة إلى قلادة الصدف، كان يرتدي أقراطًا، وأساور حول ذراعيه ويديه، كلها مصنوعة من الصدف، وبدا واضحًا على الفور بطريقة ما أن لهذه الحلي قيمة كبيرة. كانت شحمتا أذنيه، المتطاولتان بسبب ارتداء الصدف الثقيل بشكل مستمر، تكادان تلامسان كتفيه حين يتحرك. والعينان تلفتان النظر: تعلوهما طيتان من الجلد تحت الحاجبين، ثاقبتان، ذكيتان، داهيتان، ويقظتان.

ظلا يحدقان إلى بعضهما، مترددَين في استكشاف مخزونهما المشترك من اللغة الهجينة، ربما لكونهما يعيان -حتى في هذه اللحظات الأولى- كم ستكون أداةً قاصرةً عن الإيفاء بما يحتاجان أن يقولاه لبعضهما.

فجأةً، أشار نْجيرو إلى المصباح: «خربان».

ضحك ريڤرز بصوتٍ عالٍ من المفاجأة: «لا، لا خربان. أنا يُصلِّح».

كان نْجيرو أكبر أبناء ريمبو، الزعيمِ الذي يحكم أهم جماعات الجزيرة. بسبب عاهته الجسدية، لم يكن بمقدوره يومًا أن ينافس بقية الشبان، لا في قيادة زوارق الكانو ولا صيد السمك ولا البناء ولا الحرب. وكطريقة للتعويض، كرس نفسَه للفكر والتعلم، ولفن الشفاء على وجه التحديد. كانت قدراته لتتكفل بإبرازه ضمن أي مجتمع. أما في إيديستون، فقوته ترتكز

بصورة أساسية على عدد الأرواح التي يسيطر عليها. الناس هنا لا يفرقون بين المعرفة والقوة، لا في لغتهم ولا في اللغة الهجينة. جملة «نْجيرو يعرف ماتيانا» تعني أن نْجيرو يملك القوة المطلوبة لعلاج الأمراض التي تسببها ماتيانا. وعلى نحوٍ مماثل، قيل لريڤرز في الأيام الأولى التي تلت وصوله إلى الجزيرة إن نْجيرو «يعرف» آڤي، فكرر ذلك على مسمع نْجيرو دون أدنى فهمٍ لدلالته: «كوندايتي يقول أنت يعرف آڤي».

شخر مستهزئًا: «كوندايتي يتكلم *هراء*».

كان المترجم الأفضل بلا منازع، وكذلك -حين يريد- أكثر مصادر المعلومات موثوقيةً؛ يستطيع التمييز بدقة كبيرة بين ما يعرفه وبين ما يفترضه افتراضًا، بين الأمر المُثْبَت والفرضية. لكنه لم يكن يختار مشاركة المعلومات عمومًا. إن كانت المعرفة قوة، فنْجيرو يُحكِم قبضته على معرفته. وبالفعل، كان -أولَ الأمر- لا يزيد على ترجمة ما يقوله الآخرون دون تدخُّل، وقام مقام المترجم بين ريڤرز وريناميبيسي على وجه التحديد.

ريناميبيسي هو الرجل الأكبر سنًّا في الجزيرة، والأكثر امتلاءً بالحياة، إضافةً إلى كونه الأنشط بعد نْجيرو. يبدو منيعًا على ما يشعر به معظم سكان الجزيرة الأكثر شبابًا من فتور وإحباط، ولعل سبب هذا هو أنه يعيش في أمجاد الماضي إلى حدٍّ بعيد. وكحال الشيوخ الهرمين في أنحاء العالم، تكون أحداث البارحة غائمةً بالنسبة إليه، في حين يتذكر انتصارات شبابه بوضوح ساطع. لقد كان صيادَ رؤوسٍ عظيمًا ذات زمان، وتحلى بضراوة كافية ليكسب امتياز الزوجة الثانية النادر. ذاكرته هائلة في ما يتعلق بأنساب سكان الجزيرة، وهذا هو ما جعل ريڤرز يقصده في المقام الأول. ومع ذلك، كان تدفقُ المعلومات يتلعثم مرارًا وتكرارًا، دون أن يتضح السبب للوهلة الأولى.

الاتصالات الجنسية بين غير المتزوجين من الشبان والشابات تتمتع بحرية كبيرة، رغم أن «الحرية[1]» قد لا تكون الكلمةَ المناسِبة، إذ يجب على الشاب أن يدفع مقدارًا من الصَّدَف لذوي الفتاة قبل أن يقترب منها. أما بعد الزواج، يكون الإخلاص التام لازمًا، ومن أمثلة ذلك حظرُ التلفظ بأسماء الأحباء السابقين.

---

(1) في اللغة الإنجليزية، تؤدي كلمةٌ واحدة «free» معنى «حر» و «مجاني». (المترجم)

توجَّب على ريناميبسي أن يترك محل أسماء جميع النساء من بنات جيله خاليًا. نظر ريڤرز إلى صف البطاقات الموضوعة أمامه، ثم التفت إلى نْجيرو قائلًا: «هذا الرجل فعل كذا وكذا مع جميع النساء؟».

أجاب مستطرِفًا: «أجل».

ألقى ريڤرز قلم الرصاص من يده، وكان ريناميبسي يبتسم ابتسامة درداء، في محاولة غير موفقة على الإطلاق لإظهار الحشمة. بدأ ريڤرز يضحك، وانضم نْجيرو إليه بعد قليل، فسادت لحظةٌ طريفةٌ من القرابة العابرة للثقافات.

انبعث نحيبٌ خيطيٌّ من الطفلة الرضيعة التي يحملها نْجيرو بيديه؛ يدٌ تسند رأسها والأخرى ردفيها، وبينهما تتلوى حفنةُ بؤسٍ صغيرةٌ لها عينان سوداوان.

كان اسمُها كْويني، وأمها ميتة. والأسوأ من ذلك أنها ماتت في أثناء الولادة، ما يجعلها روحًا شريرة، يُحتمَل أن تحاول استرجاع طفلتها. لقد أُلقِيَت جثتُها في البحر، ورُبِطَت حزمةٌ من الخرَق بين ثدييها لجعلها تظن أن رضيعتها معها، لكن رغم ذلك... كان قصورُ نمو كْويني يُعزى إلى مساعي أمها في استرجاعها.

نموها قاصرٌ من غير ريب: جلد فخذيها مترهل على شكل طيات رخوة. جال ريڤرز بنظره حول حلقة الأشخاص المحيطة به؛ ثديا جدتها المتغضنان، الصدر المسطح لدى أختها التي تبلغ التاسعة من عمرها، والعضلات الصدرية النامية بشدة لدى أبيها. سأل عن الغذاء الذي يُقدَّم إليها، فأتاه الجواب: بطاطا حلوة مهروسة يضاف إليها البصاق من أجل تليينها. كانت يداها الصغيرتان تخرمشان الهواء كأنها تريد اعتصار الحياة منه.

مرَّر نْجيرو أوراق الشجر التي يمسكها بين ساقيه عدة مرات، ثم مدَّد جسمَه بالطول الكامل وثبتها بالعوارض الخشبية عند طرف السقف المحدب، حيث ترتعش فزاعةُ الأشباح في تيار الهواء. «انزل وارحل أيها الشبح، يا شبح أمها؛ لا تطارد هذه الطفلة، واتركها تعِش».

«*هل ستعيش؟*»، سأله ريڤرز.

كان له رأيه، لكنه أراد أن يعرف ما سيقوله نْجيرو. بسط نْجيرو يديه.

في طريق عودتهما إلى ناروڤو، أخذ ريڤرز يطرح عليه أسئلةً حول أشباح النساء اللاتي يمتن في أثناء الولادة. لم تكن هذه مِيتةً نادرة، إذ إن العُرف يقضي أن تلد النساء بمفردهن، والقِبالةُ ليست من ضمن التقاليد. يجب ألا تُذكَر أسماء هذه الأشباح، وهو يعرف هذا أساسًا. كان يشار إليهن في مخططات الأنساب باسم الأرواح الشريرة، وقد أجفل أول الأمر لدى سماعه عرَضًا أن فلانًا الفلاني تزوج سابقًا من «روحٍ شريرة».

كُنَّ يُسمَّين *توماتي پا نا ساڤو* -أي أشباح بيت النِفاس- حسبما شرح له نْجيرو، كما أنهن مَخوفات الجَناب، لأن غايتهن الأساسية هي ضمان أن يلقى أكبر عدد ممكن من النساء الأخريات حتفهن بالطريقة نفسها.

هناك شبحٌ محدد يثير الفزع أكثر من غيره: أنغي ماتي. هي أكثر قوة وحقدًا من بقية أشباح بيت النِّفاس. لقد أُخِذَ ريڤرز ليرى بئر أنغي ماتي، وهي حفرة في الأرض كانت ذات زمان ينبوعًا متدفقًا، لكنها الآن مسدودة بقشور جوز الهند. ومع ذلك، شعر أن هنالك المزيد، وأن نْجيرو متردد في الإفصاح عنه. «*وماذا تفعل؟*»، أراد أن يعرف. حيَّره أن الرجال يخافونها بوضوح، إذا صح أن الـ «*توماتي پا نا ساڤو*» ينتقين ضحاياهن من النساء.

على مضض، قال نْجيرو إنها تربض وتنتظر الرجال، لا سيما الرجال الذين يأخذهم النوم على الشاطئ في پا نجالي. «لكن ماذا تفعل؟». لاحت التسلية على وجوه حاشية نْجيرو، وهذه ردة فعل غريبة بالنظر إلى الذعر الواضح الذي تبثه. حينئذٍ خمن الجواب؛ عندما تصادف أنغي ماتي رجلًا نائمًا، ترغمه على ممارسة الجنس معها. «وهل يبقى جيدًا بعد ذلك؟»، سأل ريڤرز.

بدا أن الجواب هو «لا»، فالرجل يعاني قائمةً طويلة من العِلل، ليس أقلها اختفاء عضوه. ود ريڤرز لو يسأل عن الآثار النفسية، بيد أن هذا كان مستحيلًا تقريبًا. لغة استبطان الأفكار والمشاعر غير متاحة ببساطة.

لدى وصولهما إلى ناروڤو، كانت الشمس قد انخفضت في السماء. نزل ريڤرز إلى الشاطئ، سالكًا المعبرَ الضيق بين الآجام الذي ينتهي إلى رمل

أبيض ناعم. لاح رأسُ هوكارت كرةً ملساء داكنة، في البعيد، لكنه سرعان ما رأى ريفرز وراح يلوّح ويصيح.

خوّض ريفرز في الماء ببطء، ينظر إلى الأسفل معجبًا بالتشويش الذي يخلقه انكسار الضوء؛ الاختلال في تراصُفِ الركبتين والقدمين. كالعادة، انضم إليه سربُ أسماكٍ سوداء صغيرة راحت تتقافز حوله، وقادته نحو المياه الأعمق، لحظةٌ من السحر الصِرف دائمًا. وراءه، كانت الظلال المزرقة للصخور تزحف فوق الرمل الأبيض.

بعد السباحة، استلقيا في المياه الضحلة يتجاذبان أطراف الكلام عن أحداث يومهما. وفقًا لمخطط تقسيم العمل الأولي الذي وضعاه بينهما، كانت شؤون الموت وشعائر الدفن وبيوت الجماجم من حصة هوكارت، أما الأشباح والجنس والزواج والنَّسَب فهي لريفرز. لكن بات واضحًا بالفعل أن التقسيمات على اختلافها لا تجدي نفعًا حقيقيًا، فكلٌّ منهما يتحصل باستمرار على معلومات مرتبطة بأحد اختصاصات الآخر.

غير أن هوكارت كان في مزاجٍ رائقٍ للمشاكسة. «لماذا يكون الموت من نصيبي في حين تأخذ أنت الجنس؟»، سأله: «الأشباح والجنس لا يتماشيان، أما الأشباح و*الموت*...».

«لا بأس، يمكنك أن تأخذ الأشباح».

«لا...»، همَّ هوكارت بالجواب، ثم راح يضحك.

ليس صحيحًا على أي حال، فكر ريفرز. في إيديستون، الأشباح والجنس يتماشيان فعلًا، أو هكذا على الأقل سيكون رأيُ الرجال الذين يغطون في النوم على الشاطئ في پا نجالي ليستيقظوا بين فخذَي أنغي ماتي المفترستين.

ظلا مستلقيَين بصمت، يكاد الكسل يمنعهما من الكلام، فيما استطالت الظلال وبدأت الشمسُ هبوطَها المتعجل. الغروب في إيديستون مفاجئ، كأن قوةً صارمةً لظلمة مياه الخليج ترتفع وتبتلع الشمس. في نهاية المطاف، أعادهما الماء الذي أخذ يبرد إلى الشاطئ، فالتقطا ملابسهما، وركضا إلى الخيمة يضحكان.

كان مْبوكو يُحتضَر نتيجةَ مرضٍ سبَّبته أرواح كيتا، ولم يتبقَّ أمامه أكثر من بضع ساعات يعيشها.

شرح نْجيرو أن كيتا تسبِّب للرجال الضمورَ «حتى يصير صغيرًا كثيرًا، كله عظم ولا لحم». ومن الواضح أن الهزال بلغ بمْبوكو حدًّا لا بعده، إذ بدا أشبه برسمٍ تشريحيٍّ منه برجل، في ما خلا الرفرفة المثابرة لقلبه تحت جلده المتمطِّط. كان مستلقيًا على الدكة الخشبية المرتفعة التي تُستخدَم للنوم، ولو أن لا أحد غيره ينام الآن في الكوخ، إذ قال نْجيرو إنهم يخافون. في الخارج، ضوء الشمس ساطع، والناس غادون رائحون. من آنٍ إلى آخر، يطل أحد الجيران إلى الداخل ليرى إذا ما كان لم يزل حيًّا. «قَرُبَت»، يقول الجالسون حوله، بلا مبالاة، وهم يهزون رؤوسهم. بعض الوجوه تُظهِر التسلي، وبعضها الآخر النفورَ من بلواه. «*راكيانا*» هي الكلمة التي تتكرر على مسامع المرء. *راكيانا*. نحيل.

حتى نْجيرو، الذي يُعَد رجلًا رؤوفًا حسب معايير ثقافته (ولا أحد منا يستطيع أن يزعم لنفسه أكثر من ذلك، قال ريڤرز في قرارته)، بدا يشعر... ليس باللامبالاة أو الاستهانة تمامًا، بل أن مْبوكو أصبح مجرد مشكلة تنتظر حلًا. نظر نْجيرو إلى ريڤرز من فوق كومة العظام التي بالكاد تتنفس وقال: «*ماتي*».

كل القواميس تترجم «*ماتي*» إلى «ميت».

«ليس *ماتي*»، قال ريڤرز وهو يتنفس بعمق مشيرًا إلى صدر مْبوكو.

من موضعه بجانب الرجل المحتضر، كان يتلقى بين الآن والآخر درسًا خصوصيًّا، لا يختلف كثيرًا عن الدروس التي يتذكرها من أيام دراسته في كلية بارت. كلمة «*ماتي*» لم تكن تعني «ميت»، بل تدل على حالة يكون الموت نتيجتَها المناسبة. كان مْبوكو ماتي لأنه مريض إلى حدٍّ حَرِج. ورينامبيسي -رغم أنه يتمتع بالصحة على نحوٍ يثير الاشمئزاز ولم تزل عينه تواقة إلى البنات- *ماتي* هو الآخر، لأنه بلغ سنًّا إن لم يكن ميتًا فيها فَحَريٌّ به أن يكون، بحق اللعنة. أما المصطلح المستخدم للموت الفعليّ، الذي يعبر عن اللحظة التي تغادر فيها الـ «*ساغينا*» (وهنا أخذ نْجيرو شهيقًا، وصفع بطنَه في منطقة الحجاب الحاجز)، أي «الشيء الموجود في البطن»، فهو *ماتي نْدابو*.

وفي اللغة الهجينة: «مات وخلص». «هل الـ «*ساغينا*» هي الروح نفسها؟»، أراد ريڤرز أن يعرف. «لا طبعًا»، أجاب نْجيرو بانفعال، وقد توسع منخراه من نفاد الصبر. يا إلهي، كلية بارت تُعاد بحذافيرها. *فلتكن السماء في عون العامة الغافلين* حين *نطلتك عليهم*. المشكلة مع مْبوكو -تابع نْجيرو بحزم- كما هي حال كل من يقعون تحت سطوة كيتا، هي أنه لا يستطيع أن يموت. لكن يبدو أنه يبذل جهدًا مشرِّفًا بحقٍ في سبيل ذلك، فكر ريڤرز معترضًا. بوسع كيتا أن «تجعله صغيرًا»، لكن لا تستطيع أن تقتله. «كيتا *پاوسيا*»، قال نْجيرو وهو يمسد على مْبوكو. «كيتا تحبه؟»، اقترح ريڤرز. كلا، كان نْجيرو ليعرف هذه الكلمة. بل كيتا كانت ترعاه.

علَّق نْجيرو أوراق المالانجاري لتتدلى من طرف سقف الكوخ المحدب حيث ترتعش فزاعةُ الأشباح في تيار الهواء، وبدأ يرتل صلاة طرد الأرواح. ظِلُّه يروح ويغدو فوق وجه الرجل المحتضَر. وفي لحظة معينة، تشنجت ساقا ريڤرز فحاول أن ينهض، لكن الشخصين الجالسَين على جانبيه شدَّاه. قالوا إنه يجب ألا يمشي تحت أوراق المالانجاري، وإلا سيضمر ويصير مثل مْبوكو.

دخل هوكارت إلى الكوخ، يسير لصقَ الجدران متجنبًا أوراق المالانجاري، حتى وصل إلى ريڤرز. الآن، بما أن جميع الأعين تركز على نْجيرو، بوسع ريڤرز أن يجس نبضَ مْبوكو. هز رأسه: «لم يتبقَّ الكثير».

قِطعُ الكاليكو وقماشِ اللحاء الملطخةُ بالمخاط تتناثر في كل الأنحاء، وهنا وهناك رشَّاتٌ كبيرة من اللون الأحمر حيث نزف مْبوكو. الآن، تتصاعد كتلٌ من البلغم إلى فمه، وهو لا يملك حتى أن يبصقها. عثر ريڤرز على قطعة قماش نظيفة، فرطبها بلعابه ونظف للرجل المحتضَر فمَه. خرج لسانه ومر سريعًا على شفتيه الجافتين، ثم ترددت حشرجةٌ في حلقه، وارتفع قفصُه الصدريُّ متوسعًا، وانتهى الأمر. ولولَت إحدى النسوة للحظة، لكن الولولة ذوَت إلى صمت، ووضعت المرأةُ يدها على فمها كأنها شعرت بالإحراج.

مدَّ ريڤرز يده أوتوماتيكيًّا ليغمض العينين، ثم أوقف نفسه. ثُبِّتَ جثمانُ مْبوكو في وضعية جلوس باستخدام شرائط كاليكو مُرِّرَت حول عنقه وتحت

ركبتَيه، ثم رُبِطَ إلى عمود، وحمله رجلان إلى العراء في الخارج. تبع ريڤرز وهوكارت الجماعة الصغيرة في المعبر المؤدي إلى الشاطئ.

رُكِّزَ الجثمان -وهو ما يزال بوضعية جلوس- في مؤخر زورق كانو، ووُضِع بجانبه ترسه وفأسه، ثم جُذِّفَ به إلى داخل البحر سريعًا. انتظر ريڤرز حتى صار الزورق ظلًّا فوق مياه الخليج المتلألئة، وحينها عاد إلى الكوخ وجمع قطع القماش المتسخة، ليدفنها بعد ذلك على مسافة آمنة من القرية. وبينما هو يلقي التراب الجاف على كومة الخرق، أحس بتوقٍ شديد إلى فرك ذراعيه حتى المرفق بماء مغليٍّ. سيتعين إرجاء هذا إلى أن يرجع إلى الخيمة، لذا صبَّر نفسه مؤقتًا بمسح راحتيه بمقعدة بنطاله بقوة عدة مرات.

عاد إلى الشاطئ، وهناك وجد هوكارت يتسكع عند حافة الماء مستاءً. كلاهما كان يأمل أن يُلقي هذا الموتُ ضوءًا على عقيدة الجمجمة، لكن عوضًا عن ذلك...

«إنهم لا يحتفظون بالجمجمة»، قال هوكارت.

وفيما هما يراقبان، أسقط المجذفون الجثمانَ عن جانب الزورق بجلافة، حيث غارَ في الماء بعد طشةٍ بالكاد تُذكَر.

هز ريڤرز رأسه: «أخشى أن ما نحتاج إليه هو مِيتةٌ طبيعية».

9

كان وايات منهمكًا في سرد أطروفةٍ لا تبدو لها نهايةٌ عن ماخور زارَه، وفيه عاهرةٌ بدينة على نحوٍ عجيب القباحة حتى إنك تسترد نقودك إن أفلحتَ في الإيلاج بها.

أسند پراير خده على زجاج نافذة القطار البارد، ينظر جانبيًّا إلى الانعكاس المضاعَف لعظم الوجنة والعين، ثم أعمق إلى داخل المقصورة الظلية وركابِها الشفافين وهم يضحكون ويومئون، أشكالًا طافيةً على الزجاج الذي تتعرج فوقه قطراتُ المطر.

اصطخب الضحكُ مع بلوغ القصة ذروتَها. أما غريغ -المتزوج زيجةً سعيدةً وله ابنة صغيرة- فابتسم متسامحًا، وهاليت انضم بارتياك. ثمة شابٌّ فتيٌّ لعلعَت ضحكتُه إلى درجة أظهرت عذريَتَه بوضوحٍ مؤلمٍ أمام الجميع باستثنائه. غير أن أوين لم يبذل جهدًا لتمويه قرفِه، لكن يجدر ذِكرُ أنه يكره «الإعلانات»، كما يسمي هذه الأحاديث.

إنهم على متن القطار منذ ثلاث ساعات، محشورون معًا فوق مقاعد مصنوعة من شرائح خشبية، والعرَق بائتٌ في الآباط والمغابن والأقدام، إضافةً إلى رائحة بولٍ مخلوطة بالدخان حيث أقدمَ أحمقُ بنصف عقلٍ على التبول في وجه الريح.

بعد خمس دقائق، انسل القطارُ إلى داخل المحطة المظلمة، وكان مصدرُ الضوء الوحيد يتمثل في بضعة مصابيح نفثا خجولة.

سار پراير بمحاذاة القطار نحو عربات الشحن المكشوفة، حيث تسود بين الرجال حركةٌ قلقة. شخصت الوجوهُ الغريبة نحوه بأعين عمشاء وهو يمرر ضوء مصباحه اليدويّ عليها، مظللًا الحزمةَ بيده المضمومة، فرآها -لا مجازيًا بل حرفيًا إلى حدٍّ بعيد- تسبح وسط وهَجِ دماء. هم ليسوا رجاله ولا رجال أحد، بل مجرد جماعة مجهولة من الجنود قادهم إلى المحطة التالية في طريق وجهتهم.

لقد توقف هذا القسمُ من القطار على مسافة بعيدة من الرصيف، والحمولة البشرية التي ينبغي إنزالها من عربة الشحن كبيرة. تتابعت أصواتُ انسحاق الحصى تحت الجِزَم، فيما كان الرجال -الذين لم تغادرهم آثار النوم- يتصارعون مع صدمتهم بالمطر والظلماء التي تتناهبها الرياح. نُظِّموا في صفوف، وتقدموا بين تعثرٍ ومسيرٍ عسكريٍّ بمحاذاة القطار، ثم اعتلوا الرصيف وتابعوا إلى داخل فناء المحطة، حيث ظهر المرشدون أخيرًا بعد انتظارٍ بدا لن ينتهي، وكانت حراملُهم[1] المبللة تعكس وميضًا أشبه بوميض الأسماك نحو السماء وهم يشوِّرون ويبربرون موجهين الوحدات نحو مآويها.

أشرف پراير على استقرار جماعته في قاعة تابعة لكنيسة، ثم ودعهم وتمنى لهم حظًّا طيبًا. لم تُظهِر وجوهُهم الملتفتة نحوه أي تعبير، إذ كانت تحت تأثير التجرد الذي تتصف به الإجراءات المستحوذة عليهم.

بعدها بات حُرًّا. بل وأحس بذلك إحساسًا، وهو يتبع المرشد عبر شوارع غير مضاءة، مارًّا بتلك الكاتدرائية التي تشبه حلمةَ ساحرةٍ متمترسةً خلف أكياس الرمل، ثم يسير بمحاذاة القناة يصحبه على وجه الماء قمرٌ كأنه حيزبون شمطاء راعشة.

الليل، المرشد الصامت، الجهد المبذول لئلا يتعثر على الأرصفة المكسورة، كل ذلك شحذ حواسَه. نترَ غصنُ شجرةِ قوطيسوس متدلٍّ رشةً باردةً من قطرات المطر في عينيه فأجفل لشدة بهجته، ولعلها بهجة لا تعدم الصلةَ بالدمار الظاهر على هذه المنازل. لا بد أنها كانت منازلَ برجوازيةً قُحة زمن السلم، بيوت رجال يشقون طريقهم في الدنيا، رجال كانوا واثقين أن بعض

(1) حرامل: جمع حرملة، وهي رداء قصير واسع مشقوق من الأمام يحيط بالعنق ويقع على الكتفين مُتدليًا فوق الظَّهر والذراعين. (المترجم)

الأشياء لن تتغير أبدًا، وأين هم الآن؟ ما من منزل في الطريق إلا ولحقته الأضرار، حتى إن بعضها تهدَّم بالكامل. الأنقاض بارزة لا تخطئها عين، حوافٌ سوداء مثلمة في الفيض الأبيض الذي يدلقه ضوءُ القمر.

«ها أنت ذا يا سيدي».

بوابة تتدلى عن مفصلاتها، وردٌ يحتشد حول تعريشة مكسورة، أزاهير بيضاء مكشكشة لها ضوعٌ كثيف، تُرِكَت بلا تشذيب فالتفَّ بعضُها على بعضٍ التماسًا للدعم. ووراء ذلك كله، مماشٍ ومصاطب أكلَتها الأعشابُ الضارة. ستائر الدانتيل متهدلة خلف الزجاج المتصدع أو المهشَّم؛ النافذة الوحيدة التي لم تزل سليمة في الطابق الأول التقطَت القمرَ للحظة.

سار المرشد أمامه على الممشى. لا قفل للباب، بلاط الردهة أبيض وأسود (داهمته ذكرى حادة لكريغلوكهارت)، ثم انبعث وميض ضوء من أعلى الدرج، وظهر هاليت يحمل شمعة. «تعال اصعد، واحذر من هذه الدرجة».

لقد أخرج هاليت كيس نومه ورتَّب أغراضه بحرصٍ في زاويةٍ ما كانت ذات يوم غرفةَ النوم الرئيسية دون شك. صورة خطيبته منتصبة فوق كرسي.

«يوتس وأوين في الطابق العلويّ».

توجه براير نحو النافذة وأطل ينظر إلى المنازل المقابلة، مُمرِّرًا أصابعه على ستائر الدانتيل التي تيبست من المطر الجاف والوسَخ. «هذا جيد، أليس كذلك؟»، قال فجأةً، مديرًا ظهره إلى النافذة.

ابتسم واحدهما للآخر.

«الحمام في الجهة المقابلة»، قال هاليت، وأشار بيده مثل مضيفٍ حريص.

- تقصد أنه شغال؟

- حسنًا، الدلاء شغالة.

قعد براير على الأرض بغتةً وتثاءب، كان متعَبًا أكثر من أن يكترث للمكان الذي هو فيه. أشعلا لفافتَي تبغ وتقاسما لوحَ شوكولاتة؛ براير متكئ إلى الحائط، وهاليت يجلس متربعًا فوق كيس نومه، كلاهما يحدق إلى ما حوله بعينين واسعتين مثل طفل ذاهل، مغالبًا نفسَه كي يستوعب الغرابة.

هذا الذهول سيبهت، قال پراير في قرارته وهو يشعل شمعةً ويغامر بالخروج إلى بسطة الدرج ليجد لنفسه غرفة يستأثر بها، كل شيء سيبدو عاديًّا في الصباح.

لكن ذلك لم يحدث. استيقظ پراير مبكرًا، وظل في سريره متكاسلًا يشاهد ظلال أوراق الشجر على جدارٍ قلبت الشمسُ البازغةُ بياضَه لونًا ذهبيًّا. كان يهم لتوه أن ينقلب ليعود إلى النوم، عندما عبر شيءٌ أسود الغرفةَ مرفرفًا. انتظر مكانَه، ثم رأى طائرَ سنونو يرتفع وينعطف في الهواء نافذًا من الشباك المفتوح إلى الجو الباهر.

ها هو في صباحه الأول يطل على غَيضةٍ خضراء تقوم مقام الحديقة؛ الشمس تَصليها، جنباتها تضج بطنين الحشرات، مساكب الزهر -التي كانت تقليديةَ الطرازِ في ما مضى- تحولت إلى جحور شائكة تصول داخلها أشكالُ الحياة الخفية وتجول. أسند ذراعيه إلى عتبة النافذة، وحدق باحتراسٍ من خلال حواف الزجاج المسننة، إلى أوين وپوتس اللذَين كانا يحملان طاولةً من أحد المنازل على الطرف المقابل من الطريق. صاح بهما من علٍ لمَّا توقفا لالتقاط أنفاسهما، فردَّا عليه بالتلويح.

كان ليقول إن الحرب لا تستطيع أن تفاجئه، إنه أضاع القدرةَ على التفاجؤ في مكان ما على ضفاف السوم، بيد أن الأيام القليلة القادمة ستكون سلسلةً متواليةً من المفاجآت.

ليس لديهم ما يفعلونه. ليسوا مسؤولين عن أحد. لقد نسيت الحربُ أمرَهم. هنالك قطعتان فقط من الأثاث كانتا ضمن المنزل، إحداهما منضدةٌ جانبية ضخمة من خشب السنديان المنقوش لا بد أن تركيبها تم داخل غرفة السفرة، إذ يستحيل أن تكون قد أُدخِلت من الباب، والأخرى حصانُ أطفالٍ هزَّازٌ ملوَّن في الطابق العلويِّ من المنزل، داخل غرفةٍ زُوِّدَت نافذتُها بالقضبان. أما كل شيء آخر فقد عثروا عليه بأنفسهم. راح پراير يتنقل من منزل مهدم إلى آخر، ويأخذ أي شيء يلفت نظره، وكانت المنازل -المظلمة لطيفة البرودة في قيظ الظهيرة- تستقبله استقبالًا هادئًا. ثم يرجع إلى المنزل بصحبة غنائمه، ويرتبها بأناةٍ في غرفته أو في غرفة السفرة التي يتقاسمونها جميعهم.

في المساء، يشعل الشموعَ هو وهاليت وأوين وپوتس، ويتحلقون حول الطاولة التي مثلت لُقيةَ أوين الأهم. بين النوافذ الطويلة، وتحت الأسقف ذات القوالب الجصية المتقَنة، كانت أواني الورد تخلق مع النبيذ تحضُّرًا هشًّا، رفقةً متآلفة على شفير كارثة.

ثم يخربون كل ذلك بجدالهم حول الحرب. أو بالأحرى پوتس وهاليت هما اللذان يتجادلان. لقد كان پوتس طالبَ علوم في جامعة مانشستر، وهو ذكي، وفصيح، وساخر متشائم بالطريقة النزِقة التي تميز من لم يصادفوا بعد الكثير مما يستدعي السخرية والتشاؤم. أصر بعالي صوته، ووجهُه متوردٌ من النبيذ، أن الحرب تحشو جيوب المستفيدين منها. إنها تُخاض من أجل تأمين وصولٍ إلى آبار النفط في بلاد الرافدَين، وليست لها أي علاقة -على *الإطلاق*- بحيادِ بلجيكا أو حقوقِ الدول الصغيرة أو ما إلى هنالك. وإن كان هاليت يرى عكس ذلك، فهو غشيم أحمق. هاليت يتحدر من عائلة عسكرية قديمة، وقد تلقى تعليمًا جيدًا مكلفًا درَّبه ألّا يفكر إلا بأقل قدرٍ ممكن؛ راح يتخبط أمام پوتس، لكنه سرعان ما بدأ يعبر عن مبادئ ومعتقدات كان حتى الآن يفترض أن الجميع يشاطره إياها.

تبادل پراير وأوين الابتسامات سرًّا، مع أن أحدًا منهما ما كان على الأرجح ليستطيع أن يقول مِمَّا يتألف هذا السر. كان أوين يلعب ببتلات الورد المتساقطة التي جمعها ذلك الأصيل، ورد زهري وأصفر وأبيض، لكن ما من أحمر، كما رأى پراير.

«ما رأيك أنت؟»، سأل پوتس پراير، إذ أغاظه صمتُه.

«ما رأيي؟ أرى أن ما تتحدث عنه هو في جوهره نظرية مؤامرة، وهي متفائلة مثل كل نظريات المؤامرة. ما تقوله هو: حسنًا، الحرب لا تُخاض من أجل الأسباب التي قيلت لنا، لكنها تُخاض من أجل سببٍ ما. وهي لا تعود بالنفع على الأشخاص الذين يُفترض أن يستفيدوا منها، لكنها تعود بالنفع على أحدٍ ما. وأنا لا أعتقد هذا، كما ترى. أظن أن الأمور في الواقع أسوأ بكثير مما تحسب، إذ لم يتبقَّ تبريرات منطقية من أي نوع. لقد تحولت الحرب إلى منظومةٍ تُمد ذاتَها بالديمومة؛ لا أحد يستفيد، لا أحد يتحكم، ولا أحد يعرف كيف يتوقف».

أخذ هاليت ينظر من واحدهما إلى الآخر. «اسمعا، هذا كله ليس صحيحًا ببساطة. أنتما... كلا، ليس أنتما، بل *الناس* يتركون أنفسهم للإحباط لأنهم يضطرون إلى دفع ثمن أكبر مما ظنوا أنهم سيدفعونه، لكن هذا لا يغير الحقائق الأساسية. إننا نقاتل من أجل المصالح الحقانية لبلادنا، نقاتل دفاعًا عن حياد بلجيكا، نقاتل من أجل استقلال فرنسا. لسنا نحن في ألمانيا، بل هم الذين في فرنسا»، نقّل نظرَه حول الطاولة، ثم قال مثل صبي صغير يرد على خصومه: «هذه الحرب ما تزال محقة».

«أنت تقول إننا نقتل الوحش»، قال أوين على مهل: «وأنا أقول إننا نقاتل لأن هنالك رجالًا ضلوا طريقهم في الليل»، ابتسم أمام التعابير التي اعتلت وجوهَهم، ثم نهض واقفًا: «أنفتح زجاجةً أخرى؟».

وحيدًا تلك الليلة، ورائحة الشموع المطفأة عالقة في الهواء، تذكَّر پراير آنية الورد الزهريِّ والذهبيِّ والأبيض، لكنه لم يكلف نفسَه عناءَ استحضار جدالات پوتس وهاليت. كان هذا المنزل الذي يتقاسمونه غريبًا من ناحية ما عنَتْهُ الحرب حتى الآن، إلى درجةٍ أراد معها أن يثبّت المناظر والأصوات والروائح في ذهنه بدقة. إنه يحس نفسَه مسحورًا، محاطًا بشرنقة تَحُول بينه وبين أي شيء يمكن أن يسبب الألم. ومع ذلك، فيما الفكرةُ تتشكل، تساقط بعضُ الجص من سقف غرفة النوم الخلفية، في موضعٍ سبق أن أصابته قذيفة، وراح المنزل ينزف بهدوء من جرحِه الذي لا يرقأ.

في الصباح، ينزل إلى البلدة ويتجول بين الأكشاك التي نُصِبَت أمام الكاتدرائية لبيع «التذكارات». إن عدد التذكارات التي يمكن إيجادها بين أنقاض المدينة المقصوفة يجعل هذه التجارة غير رائجة. لم يكن پراير يرى شيئًا يريد شراءه، ومع ذلك فقد أقام رفًّا في بيته للتذكارات، التي جمع معظمها خلال زيارته الأولى لفرنسا. كثيرًا ما فكر فيها في كريغلوكهارت، حين كان ريڤرز يسبر له عقلَه بحثًا عن ذكريات دفينة تتعلق بآخر أسابيعه في فرنسا. تذكارات، يا إلهي... في الوقت الذي لن يتوانى العقلُ فيه عن مسح نفسه بالكامل في سبيل أن ينسى.

في طريقه إلى المنزل، رأى أوين وپوتس أمامه فأسرع كي يدركهما. كان أوين قد عثر على جُبَّة أطفالٍ موشاةٍ بالدانتيل بين الأنقاض قرب الكاتدرائية وارتداها وشاحًا، فبدا بياضُ قماشها صادمًا بالمقارنة مع عنقه الذي سفعته الشمس. أما پوتس فكان يضم دورقَ توبي[1] إلى صدره، رافضًا بعناد أن يعترف ببشاعته. انعطفوا عن الطريق وعبروا الحدائق الخلفية، داخلين عالمًا ما كان أحد ليتصوره بالنظر إلى الطريق الاعتيادي نسبيًّا.

متاهةٌ من المماشي الخضراء تصل الحديقةَ بالأخرى، راحوا ينسلّون عبرها من واحدةٍ إلى التي تليها، مجتازين جدرانًا مهدمة أو أسوجةً ممزقة. يعبرون على حافة حفرة خلَّفتها القذائف وملأها العُلّيق هنا، وينفذون في معابر احتلتها الأعشابُ الضارة هناك، بين زهرٍ زرع نفسه بنفسه ففسد وأنتن، وورد تمادى في النمو يعلق بأكمامهم ويشدها. الحلازين تنسحق تحت جِزَمهم، والقُرّاص يخز أيديهم، وزبد الحشرات يلطخ كلَّ عنقٍ عارٍ يطاله، لكن المعبر السري يتابع التفافَه. لم يترك مئات الرجال -الذين تم إيواؤهم هم أيضًا في هذه المنازل الخربة- جدارًا أو سياجًا إلا حطموه، ليشقوا بالقوة عبر صفوف الشجيرات ممرًّا يتيح لهم الانسلالَ دون عائق من رقعة أرض إلى التالية. الحرب التي خيضت مرارًا وتكرارًا فوق أراضٍ موحلةٍ منحتهم -للمفارقة- حريةَ الحيوانات في العبور من منطقة إلى أخرى، دون رقيب. إضافةً إلى شيءٍ من يقظة الحيوان أيضًا، إذ ما إن أزاح أوين غصنَ بيلسان عند مدخل حديقتهم حتى التقطت أذناه صوتًا خفيضًا، فرفع يده.

كان هاليت في الحديقة، ينزع ثيابَه. الضوء المرقَّط يلعب على جسده، فيُضفي عليه وهمَ الهشاشة، ومسحةً مخضرةً توحي بالسقم، رغم أنه صلب ومُسمَرٌّ من الشمس مثلهم جميعًا. وفيما هم يشاهدون، دون الهتاف بالتحية كما يُفترض أن يكونوا قد فعلوا بحلول هذا الوقت، تجردَ من سرواله الداخليِّ

(1) دوارق توبي: هي أوانٍ فخارية تقليدية تُصنَع على شكل رجل جالس (يمثل شخصيةً معروفةً غالبًا) ذي هيئة طريفة تميل إلى البدانة، يحمل في العادة إبريق جعةٍ بإحدى يديه وغليونًا بالأخرى، ويرتدي ملابس من القرن الثامن عشر: معطفًا طويلًا وقبعةً ثلاثية الزوايا. (المترجم)

ومن الزمن، واقفًا عند حافة البِركة، نحيلًا، شاحبًا، بياضُ جسمه صارخٌ في المواضع التي أخفاها الزي. عظما ترقوةٍ حادان، تحتهما ظلالٌ ضاربةٌ إلى الزُّرقة. كان يهم بالاستلقاء في بركةِ السمك الذهبيِّ التي نمت على وجهها زنابق بيضاء وأزهار شاحبة تعبث بها حشراتٌ ذهبية. انحنت أصابع قدميه على الحافة المكسوة بالطحلب، ثم بدأ ينزل بحذر شديد، وشهق حين لامس الماء خصيتيه.

تمشوا على العشب الطويل باتجاهه، ووقفوا ينظرون إليه من فوق. الساقان تبدوان منتفختين تحت الماء، فقاعاتٌ فضية انحبست في شعره، وشيئه مرتخٍ على فخذه مثل فقمةٍ سُحِبَت من الماء إلى الصخور. نظر إليهم من مكانه بكسل، وأصابعه مفرودة في شعر جسمه تحرر الفقاعات.

«تستمتع بوقتك؟»، سأله پراير مشيرًا إلى اليد برأسه.

ضحك هاليت مظللًا عينيه بيده الأخرى، لكنه لم يحرك ساكنًا.

«لو كنتُ مكانك لتوخيتُ الحذر»، قال أوين بنبرةٍ متوترة: «أتوقع أن تكون هذه الأسماك نَهِمة».

ليست الأسماك وحدها، أضاف پراير في سره.

«هل يرغب أحدٌ في بعض النبيذ؟»، سأل پوتس وهو يدخل المنزل.

شربوا النبيذ على المصطبة، وظل هاليت مستلقيًا في البِركة إلى أن صارت برودة الماء بالغة.

«تعلمون أنهم قد يتركوننا هنا»، قال أوين، مضيقًا عينيه نحو الشمس.

«اخرس!»، أجابه پوتس.

دق الجميع على الخشب، وعقدوا أصابعهم، وتلمَّسوا يبحثون عن التمائم الجالبة للحظ: كل تلك البِدَع الصغيرة التي يلجأ إليها رجالٌ لا يد لهم في أقدارهم طلبًا للحماية. لا جدوى، فكر پراير. في مكانٍ ما، خارج مدى السمع البشريِّ، إنما على مسمعٍ منهم جميعًا، بدأت ساعةٌ تدق.

11 سبتمبر 1918

لا أظن أن وجودي هنا يساعد أوين، وكذلك وجوده لا يساعدني قطعًا. كلانا يسير على حبل بهلوان، وآخر ما يريده أو يحتاج إليه واحدُنا هو أن يراقبه شخصٌ يعرف رعبَ السقوط تمام المعرفة.

في كريغلوكهارت، كنا نتجنب بعضنا. كان هذا سهلًا هناك، رغم اكتظاظ المكان. متاهة الدهاليز، بمنعطفاتها الكثيرة ومساراتها البديلة المتعددة، لا تُلزمك أن تصادف أحدًا لا تريد مقابلتَه، باستثناء ما يحدث بين آنٍ وآخر في غرفة ريڤرز أو بروك، حيث تقابل نفسك.

مرَّ موقفان اثنان هذا الأسبوع. كنا جميعنا معًا في البلدة، ورأينا مصابين يُحمَلون عبر الشوارع، إصابة بعضهم بليغة حقًّا. راح هاليت وپوتس يحدقان إليهم، وكان بوسع المرء أن يراهما يقولان في قرارتهما: قد أكون محلهم، في غضون بضعة أيام أو أسابيع. نظرا إلى الأضمدة، يحاولان أن يتخيلا ما تحتها. يحاولان ألا يتخيلا. إنه الخوف: خوفٌ منطقيٌّ مستحَقٌ لا مغالاة فيه. ونظرتُ بطرف عيني إلى أوين فبدا غيرَ مبالٍ، كحالي أنا. ولا أقصد انعدام التعاطف، بالضرورة. (مع أن ما يستغني المرء عنه مدهشٌ حين تكون الحمولة ثقيلة).

الموقف الثاني حدث على العشاء ليلةَ أمس. كان هاليت يتبجح بعثوره على ورقٍ لاصق لقتل الذباب في أحد أكشاك ساحة الكاتدرائية. إننا نتعرض منذ وصولنا لغزواتٍ من الزراقِط الضخمة -أوين يظنها دبابير- والذباب، ذباب أزرق كبير طنان مخمور ثقيل غاضب ينازع من أجل حياته، وهاليت حل المشكلة من أساسها. كان الطنين يتعالى من شريط الورق اللاصق المعلق فوق رؤوسنا، وهو يدور في الهواء يمنةً حينًا ويسرةً حينًا، بحمولته من الموت والاحتضار. صوتُ الصيف على ضفاف السوم.

تحملتُ ذلك قدر ما أمكنني، ثم صعدتُ على الطاولة وأنزلت الشريط، حملتُه إلى طرف الحديقة ورميتُه أبعدَ مسافة استطعتُها. كان جهدًا مثيرًا للشفقة، إذ بالكاد رسمَ قوسًا في الهواء قبل أن يرفرف ويحط على الأرض. شعر هاليت بالإساءة جديًّا، واحتار أيما حيرة بالطبع.

«لا تلقوا اللوم عليَّ أنا إن تخربطَت بطونُكم جميعًا»، قال.

راح أوين يضحك، وانضممتُ إليه، ولم يستطع أحدنا أن يتوقف. نقّل هاليت ويوتس أعينهما بيننا، وعلى وجهيهما ابتسامةٌ تليق بكلابٍ مُحرَجة. كان واضحًا أنهما يظناننا فقدنا صوابنا، والمشكلة أننا لا نستطيع ضمان أنهما ليسا على حق. عندما لاحظتُ غياب الورد الأحمر، نظرتُ إلى أوين ورأيته قد انتبه إلى ملاحظتي. لا جدوى.

خادِمي الشخصي، لونغستاف

اخترتُه خلال التدريب على الحربة. كان ينقَضُّ بصيحاتٍ تُجمِّد الدمَ في العروق؛ يطعن، يفتل، ينتزع، ويتابع الركض. قلتُ لنفسي: ربّاه، *التعليمات* بحذافيرها. لا شيء من هذا القبيل... أدركتُ بعد ذلك أن ما كان يفعله في الواقع هو محاولة اقتحام الثغرة في أجينكور «مرةً أخرى»[1].

كلّمتُه على انفراد. عرفَ مرادي بالطبع، وكان يريد الوظيفة. ليست حياةً سيئةً حياةُ خادم الضابط هذه، إن كنتَ مضطرًّا إلى أن توجَد هنا من الأساس. أخبرني أنه كان يعمل مُرافقًا للجنتلمانات قبل الحرب، وهذا حسم الأمر. في ما بعد، ونحن ننتظر القطار إلى أميان، اعترف لي. لقد كان ممثّلًا، وأقربُ شيءٍ جربه إلى عمل مرافق الجنتلمانات هو لعبُ دورِ كبيرِ خدمٍ على خشبة مسرح الحمراء في برادفورد. وهو دورٌ أهم مما يبدو للوهلة الأولى -كما أشار بإصرارٍ متلهِّف- لأن كبير الخدم هو من فعلها في هذه المسرحية تحديدًا، وهذا خروجٌ على العُرفِ لم يُرضِ سكانَ برادفورد كثيرًا، فتعين إيقافُ العرض بعد سبعة عشر يومًا.

(1) أجينكور: قرية في شمالي فرنسا، شهدَت معركةً وقعت عام 1415 بين الجيشين الإنجليزي والفرنسي، تمكن خلالها الجيش الإنجليزي بقيادة هنري الخامس من هزيمة الجيش الفرنسي المتفوق عدةً وعديدًا. والإشارة هنا إلى ما قاله الملك هنري في مسرحية شكسبير التي تحمل اسمه: «مرةً أخرى، لنقتحم الثغرة، أيها الأصدقاء الأعزاء، مرةً أخرى أو نسدها بأجساد قتلانا من الإنجليز»، (ترجمة: الدكتور محمد عوض محمد). (المترجم)

لعله بات يشعر أنه ضمنني بحلول ذلك الوقت، والواقع أنني وجدتُ كل هذا يزيد عليَّ صعوبةَ مقاومة الأمر. مرافقُ جنتلمانات زائف، لكنني -في المقابل- جنتلمان زائف بالمثل أنا نفسي.

جسدٌ مثل لوحِ كَيِّ الثياب، أبطحُ بلا أي تضاريس. غير أن اللفتات مثيرة للاهتمام رغم ذلك؛ لم أعرف رجلًا غيره يفتح الأبواب بورگيه. تقاسيمُ يتعذر وصفُها، رتيبةٌ تمامًا، حتى إن ملصقات المطلوبين لا يسعُها أن تساهم في القبض عليه يومًا. لكن ثمة كذلك هذا الشعورُ الباعث على الفضول، أن وجهه يستطيع أن يكون أي شيء يشاؤه، حتى أن يكون جميلًا، إذا تطلَّب الدورُ ذلك. وهو طَموحٌ على نحوٍ لاهب، يحفظ مقاطع لشكسبير عن ظهر قلب. وطنيٌّ رومانسيٌّ عتيق الطراز يثير الاستغراب، بيد أنني لا أعرف لما أقول هذا، إذ يوجد الكثير من هؤلاء في الأنحاء. هاليت، على سبيل المثال. لكن ليس جميعُهم يقتبسون: «نحن القلائل، نحن القلة السعيدة، نحن العصابة المتآخية»[1]، كما فعل هو -دون شعورٍ حقيقيٍّ بالإحراج- قبل ليالٍ وأنا أتهيأ للخلود إلى السرير. أجبتُه بفظاظة كبيرةٍ في الواقع، قائلًا إن ثمة اقتباسًا قد يكون ملائمًا أكثر لهذه المرحلة من الحرب، وهو: «لقد قطعتُ في بحر الدماء مسافةً لو أنني توقفتُ عندها...»[2]، فقطعَ الغرفةَ بوثبةٍ جديرةٍ بالملاحظة حقًا. كان قد أطبق يده على فمي في صفعة، ورحنا نحدق إلى بعضنا وقد استغلق علينا الكلام، قبل أن يتسنى الوقتُ لأحدنا كي يفكر؛ وجهُه ببياض الطبشور وأظن أن وجهي كذلك، كلانا يحاول أن يتذكر عقوبة صفع ضابطٍ على بوزِه. من الممكن جدًّا أن تكون الموت. منذ تلك اللحظة ونحن نتحرك بهدوءٍ شديد كلانا، متراجعَين إلى وراء حواجزِ الرتبة، الضروريةِ من أجل حمايته هو مثلما من أجل حمايتي، بيد أن تراجُعنا هذا لم يكن بالسرعة الكافية. كما حال الخطوط الفرنسية في أجينكور، لقد خُرِقَت هذه الحواجز خَرقًا نافذًا.

---

(1) من مسرحية «هنري الخامس» لشكسبير، ترجمة: الدكتور محمد عوض محمد. (المترجم)

(2) من مسرحية «مكبث» لشكسبير، ترجمة: حسين أحمد أمين. (المترجم)

الجمعة، 13 سبتمبر (لا تعليق، بحق اللعنة)

لن نذهب للالتحاق بالكتيبة، الكتيبة قادمةٌ إلى هنا كي تلتحق هي بنا. أفترض أن هذا يفسر عطلتَنا الغريبة التي في غير وقتها هذه. لقد انتهت اليوم على كل حال. أجرينا جولة على مآوي الجنود لتفتيشها.

الطقس تغير أيضًا، ما يجعل تحمُّلَ التغيرات الأخرى أيسرَ بطريقةٍ ما. ريحٌ ومطر، وغيومٌ رمادية مكفهرة.

السبت، 14 سبتمبر

راقبتُ فوجَ مانشستر يزحفُ متقدمًا؛ المطر يتدفق، وحراملُ الجُندِ مبللة. وجوهٌ مهشمة، أعينٌ محتقنة بالدم. لقد مروا بوقت عصيب. ثمة وجهٌ أو اثنان ميّزتُهما من *العام الماضي*. أم قبل ذلك؟ لا أظن. لا أحد يتكلم عن الخسائر، ما تذمروا منه -وهم جالسون على بالات القش يسلخون الجوارب عن أقدامهم الدامية- هو غياب السجائر. كانوا يلفّون لأنفسهم بقطع ورق أو ظروف مفتوحة، أي شيء، دون تبغ بالطبع، اضطروا أن يدخنوا حشائش يقطفونها عن جانب الطريق ويجففونها بربطها بحقائبهم كلما سطعت الشمس. لقد كتبتُ إلى أمي وسارا وكل شخص آخر خطر لي، متوسلًا من أجل سجائر ووديابن.

الأحد، 15 سبتمبر

التحقنا بالكتيبة. المعاون رجلٌ لطيفٌ يشي مظهرُه بالقلق، اقترح أنني أصلح كي أكون مسؤولَ الغاز في الكتيبة (ما يكشف عن حس فكاهةٍ غيرِ ظاهرٍ في ما خلا ذلك). «مارشال ذو الإصابات العشر» كان هناك، يذرع المكان ذهابًا وإيابًا، ويتكلم بصوتٍ عالٍ. كل شيء فيه -بشرته ولَفتاته وتعبير وجهه ووقفته وصوته- جريءٌ وحرٌ وخشن. مُستهتر؟ ربما، لستُ أدري، لكنه لا يأبه على كل حال. إنه يستمتع بالحياة، كما أظن. هو محارِبٌ بالفطرة وبالتدريب؛ جريء، ماكر، عديم الرأفة، حازم، سريع القرار، ذو شجاعة مذهلة... وإن

كانت هذه صفات كائن بشري فأنا لستُ كائنًا بشريًّا. لقد أمضى كاملَ حياته الراشدة منجذبًا نحو القتال، يستحيل تخيُّله يعيش حياةً من أي نوع آخر.

ليلةَ أمس -وكانت ليلتَنا الأخيرة في أميان- هجمت عاصفةٌ شديدة؛ ومضاتٌ من البرق الصفحي[1]، ريحٌ تضرب المنزل وتهز أركانَه.

كنتُ للتو وصلتُ إلى السرير عندما سمعتُ دمدمة غريبة من الأعلى. ظهر هاليت في مدخل الباب، محدقًا بوجهٍ أبيض. لا شيء إلا ضوء النجوم يتيح الرؤية، وتيارات الهواء تتناهب كاملَ المنزل بنوافذه المكسورة حتى إن الشمعة ظلت تنطفئ. أحضرنا مصباح زيت من المطبخ. قال هاليت: «أهي المدافع؟»، فأجبته: «بالطبع لا، حبًّا باللعنة، الصوت قادم من الطابق العلويّ».

الدرج الذي يقود إلى الطابق العلويِّ وغرفة الأطفال ضيق. وصلنا إلى باب غرفة الأطفال، ثم توقفنا، ونظر واحدنا إلى الآخر. بدا في وجه هاليت -مُضاءً من الأسفل- انتفاخٌ تحت عينيه أشبه بجفنٍ إضافيٍّ. دفعتُ الباب فضربَتني هبةُ ريحٍ باردة دلفت من النافذة المكسورة. كل ما رأيتُه للوهلة الأولى كان حركةً في الطرف القصيِّ من الغرفة، ثم رحتُ أضحك لأن ذلك لم يكن إلا الحصان الهزاز يهز. قوة الريح تكفلَت ببدءِ نوَسانِه، لا يخطر لي أي تفسير آخر، ثم أخذت دعامتاه تنزلقان بصريرٍ مسموعٍ على أرضية الخشب العارية.

كان حريًّا بهذا أن يكون ذروةً زائفةً لأحداث القصة، وظننتُ أنه كذلك أول الأمر. أبعدنا الحصان عن النافذة، إلى خارج مسار التيار، ونزلنا ونحن ما نزال نضحك، لنخبر پوتس -الذي أطل من خلف باب غرفته- أن لا شيء يستدعي القلق وأن يرجع إلى النوم. لكن حين صرتُ في غرفتي، بعد إطفاء المصباح، استلقيت وبقيت صاحيًا، وتلك الدمدمة مستمرة في رأسي طيلة الليل.

---

(1) البرق الصفحي: برقٌ يكون بين السحاب، ويظهر على شكل صفيحة من الضوء ذات سطوع منتشر على سطح السحابة. (المترجم)

10

لم يتعين عليهما الانتظار طويلًا حتى يحصلا على المِيتة الطبيعية التي يَنشدانها.

كان نْفِيا رجلًا قويًّا عَفِيًّا، أكثر زعماء الجزيرة نفوذًا بعد ريمبو. من الواضح أن لديه كل الأسباب ليعيش من أجلها، ومع ذلك -كما يرى المرء كثيرًا في ميلانيزيا- لم يكن يُبدي صمودًا وتشبثًا. ها هو راقد في إيوانه، يشاهد فزاعة الأشباح تدور وتدور في التيار، وحياتُه راقدة -كما بدا لريفرز- مثل زهرة هندباء برية في راحة يده المفتوحة.

كانت حالته حرجة إلى درجة أن إيميلي، زوجته، والنسوة الأخريات بدأن يُوَلولن في لحظة من اللحظات، ولولةَ النساء الموسيقية الواجفة الممدودة، لكن المريض استجمع قوته قليلًا فكفَفْن.

ودَّعه ريفرز ووعده أن يراه مجددًا في الغد، رغم معرفته أنه لن يفعل، ثم سار عائدًا إلى الخيمة. كان الظلام قد حل حين وصل؛ قماش الخيمة الأخضر متوهج بضوء المصباح داخلها، وظِل هوكارت يمتد على السقف متطاولًا حادَّ السواد. دفع ريفرز كومة الغسيل الرطبة الثقيلة جانبًا ودخل.

كان هوكارت يجلس متربعًا على الأرض، ممسكًا قلم رصاص بين شفتيه، يبيّض ملاحظاته على الآلة الكاتبة. «اضطُررت إلى الانسحاب بسبب الذباب الصغير».

- الذباب الصغير؟

- أيًا يكن.

هوكارت يستهتر باستخدام الكينين والناموسيات. ألقى ريڤرز نفسه على سريره، ثم شابك يديه خلف رأسه وراح يراقبه. بعد بضع ثوانٍ، نزع هوكارت قميصه دون أن يحل أزرارَه، وأخذ يهوّي برزمةٍ من الأوراق البيضاء. كالعادة، حرارة النهار محتبسة داخل الخيمة، والعرق يجري على جسديهما جريانًا.

«لقد فقدتَ وزنًا»، قال ريڤرز وهو ينظر إلى الظلال بين أضلاع هوكارت: «*راكيانا*، هذه هي الكلمة التي تصفك».

«لا بأس»، أجابه هوكارت والقلم ما يزال بين فكيه: «ما دام صديقُك نْجيرو لا يبدأ بمحاولة تخليصي من بؤسي...».

«أهو صديقي؟».

نظرة سريعة: «أنت تعلم هذا».

اشتغلا بضع ساعات، وتناولا القليل من عصيدة البطاطا الحلوة المخبوزة التي أعدتها نامبوكو تارو لهما، ثم تابعا العمل من جديد، قبل أن يطفئا المصباح.

بعد نحو ساعة، سمع ريڤرز وقْعَ أقدامٍ تقترب من الخيمة. كان هاليت قد غط في النوم، ذراعه مرفوعة تحجب عينيه، والوسادة تضغط على خده وفمه. ضوء القمر الراشح منَ القماش كان كافيًا ليلقي ظلَّ العابرِ داخل الخيمة. وبعد دقيقة، تبعه ظلٌّ آخر أطول.

مالي؟ مالي فتاةٌ في الثالثة عشرة من عمرها، انعزلت مؤخرًا في كوخ الطمث للمرة الأولى. وعندما خرجت بعد خمسة أيام، كانت الترتيباتُ لفض بكارتِها قد أُنجِزت. لقد دفع شابٌّ -اسمُه روني ولا بد أنه يبلغ نحو ثمانية عشر عامًا- لوالدَيها سوارَي الذراع اللذين يخولان له قضاء عشرين ليلة متتالية معها، وقرر -والقرار قراره هو، فلا رأي للفتاة في المسألة- أن يتقاسم هذه الحظوة مع اثنين من أصدقائه.

كان روني يُعتبَر مصدرًا للإزعاج بعض الشيء. منذ أيام فقط، تسلق هو وأقرب صديقين له -قد يكونان ذَينك اللذين دعاهما ليقاسماه مالي- أشجارَ كناريوم وراحوا يرجمون أصحابَها البائسين بالثمار الفجة. هذا ذكّر ريڤرز

بأسبوع المشاغبة[1]. دمدمَ كبارُ السن متبرمين، ثم قالوا: ماذا يمكن للمرء أن يتوقع؟ شبان محبوسون على الجزيرة يقضون وقتهم جالسين مثل النسوان العجائز، عوضًا عن الانطلاق بزوارقهم لإضرام النيران في القرى وقطفِ رؤوس أهاليها كما يجدر بهم أن يفعلوا.

همسات، على مقربة كبيرة. صيحة مباغَتة، أشبه بعواءٍ حاد، ثم نخيرٌ وأنينٌ وتأوهاتٌ، سلسلة تصاعدية طويلة من الصياح والنشيج.

استيقظ هوكارت، وراح يصغي. «يا إلهي، ليس مجددًا».

«اشش».

يسود في الجزيرة اعتقادٌ مفاده أن فض بكارة الفتاة لا يكون مرَّتَها الأولى أبدًا، لأن حيضها الأول يعني أن القمر قد ضاجعها أساسًا. الرجال ينكرون أنهم يصدقون ذلك، مُصرين أنها ليست إلا قصة يروونها للفتيات كي يُطمئنوهن، وهذا ينطوي على شيءٍ من الحنو على الأقل. كان يأمل ذلك، فهي تبدو مجرد طفلة.

سُمِع الهمس لبضع دقائق، ثم استؤنِف النخير. هكذا هي سن الثامنة عشرة. صيحة أخرى، هذه المرة صادرة عن ذَكَرٍ بلا ريب، ثم وقْعُ أقدامٍ ترجع.

«انتهى واحد، وبقي اثنان»، قال هوكارت.

«هل تدرك أن واحدهما لن يستطيع ذكرَ اسمِ الآخر لبقية حياته؟».

لا جواب. تساءل ريفرز إذا ما كان النوم قد أخذه من جديد، لكنه حين التفت كي ينظر لمح وميضَ بياض العينين تحت الناموسية. المزيد من وقْع الأقدام. ظلٌّ آخر اعتلى جدار الخيمة القصيَّ. توقفٌ قصير، همسات، ثم بدأت الشهقات مجددًا.

تنهد ريفرز: «أتعلم؟ ريناميبيسي يقول إن آخر شيء يحدث –أو كان يحدث بالأحرى– حين يموت زعيمٌ هو غارةُ صيدِ رؤوسٍ كبيرةٌ، يليها احتفال، وتكون

---

(1) أسبوع المشاغبة: أسبوعٌ تُحييه معظم جامعات المملكة المتحدة، يتضمن نشاطات طلابية تهدف إلى جمع المال من أجل الأعمال الخيرية، وسبب التسمية هو أن هذه الفعالية في بداياتها كانت تقوم على مشاكسة الطلاب للعابرين إلى أن يقدموا التبرعات. (المترجم)

جميع الفتيات متاحات *بالمجان* لجميع المحاربين. وليس على مضضٍ من طرفهن كما يبدو، إذ إنهن يركضن ويخوّضن في ماء البحر للترحيب بهم».

- نتحدث عن صيد الرؤوس بوصفه محركَ شهوة؟

- لمَ لا؟

«يبدو أن أمورهم تسير على ما يرام دونه»، قال هوكارت، فيما كان صوت التأوهات يرتفع.

«لكن ما من أطفال».

مخططات الأنساب تُقدم قراءات متجهمة؛ لقد كان من الشائع أن تتكون العائلات من خمسة أو ستة أفراد قبل ثلاثة أجيال أو أربعة، أما الآن فالعديد من الزيجات لا تُثمر أطفالًا.

أتى الظل الأخير وذهب. افترض ريفرز أنه لا بد نام، إذ لم يشعر بمرور الوقت قبل أن يحط ضوءُ الصباح الباكر الرماديُّ على الناموسيات ويُضفي عليها مظهرًا موحشًا مشؤومًا يليق بالأكفان. «غناء الطير» هو المصطلح المستخدم في اللغة الهجينة للتعبير عن ساعة السَّحَر هذه، ولقد بدأت الطيور غناءها بالفعل، على شكل سيلٍ هزيلٍ فوار من النغمات الصادرة عن الطائر نفسه -لا يعرف اسمه- في البداية، قبل أن يتصاعد الأمر إلى نوبةٍ من الصيحات المتنافسة. لكن ثمة ضوضاء جديدة هذا الصباح. ظل مستلقيًا أول الأمر، يرمش بعينين ناعستين، غيرَ قادر على إلحاق معنىً بهذه الضوضاء، لكنه لم يلبث حتى أدرك أنها ولولة نساء، يكاد يتعذر التمييز عن بُعد بينها وبين صوت المزامير. حينها علم أن نْغِيا مات.

وصلا إلى إيوان نْغِيا، ليجدا الجثة قد ثُبِّتَت في وضعية الجلوس وأُسنِدَت إلى دعامة. رُبِطَت عصا متينةٌ إلى ظهرها، لإبقاء الرأس والعنق منتصبَين إلى درجةٍ ما، كأنها عمود فقريٌّ خارجيٌّ. لقد غُسِل نْغِيا وأُلبِسَ أفضل ثيابه، الجير على وجهه وشعره حديثُ الطلاء، ورُبِطَت بقلائده حِزَمٌ من ورق الزنبق، وهي نبتة محرَّمة على الرجال في حياتهم. كانت أرملته إيميلي جالسةً بجانبه، ولم تكن تبكي أو تولول مع بقية النساء. هادئة جدًا، في غاية الوقار.

وفيما راحت النسوة يتمايلن وينتحبن، كان نْجيرو يُتلِف ممتلكات الميت بطريقةٍ ممنهجة، باستثناء الفأس التي وضعها جانبًا. أساور الذراع النادرة تُحطَّم سوارًا تلو الآخر. جلس ريڤرز القرفصاء بجانب نْجيرو، وسأله -بصوتٍ منخفض كيلا يشوش على النادبات- عن سبب إتلاف الأغراض.

«لا ينفع، هو يروح إلى سونتو[1]. نْغِيا هذا يعفن، رائحة بشعة، لكن هو يروح إلى سونتو».

استمر النحيب طوال النهار، وجاء الناس من كل أنحاء الجزيرة ليودعوا نْغيا. ومع اقتراب المساء، إذ قال ريڤرز لنفسه إن من غير الممكن تأخير نقل الجثمان أكثر، علَّق نْجيرو حزمةً من جوز الأريقة على العوارض الخشبية قرب فزاعة الأشباح، ثم أنزل عنقودًا ورفعه بيده أمام الجميع. انتظر حتى تلاشى النحيبُ الأخير وحل الصمت وتوجهت كل العيون إليه، وحينها بدأ الصلاة. «ها أنا أُنزِلُ حصةَ الزعيم الميت»، انحنى باتجاه الجثمان، الذي رد عليه بتحديقةٍ من عينين باهتتين، «لا تغضب علينا، لا تسخط، لا تعاقبنا. دعهم يشربون ويأكلون، يكسرون ثمار جوز الهند، يفتحون الفرن. دع الأطفال يأكلون، دع النساء يأكلن، دع الرجال يأكلون، ولا تغضب علينا أيها الزعيم الميت. أوه، أوه، أوه».

ذلك الصوت الغريب، بين العواء والنباح، الذي تُختتَم به الصلوات في إيديستون. وضع نْجيرو جوزةً في فمه وأكلها. وظل الناس يلقون نظرات متوترة على نْغِيا، لكن نْجيرو دار على الحلقة يقدم عنقود الجوز لكل شخص بدوره. كل رجل وامرأة وطفل أخذ جوزةً وأكلها. وكان هنالك طفل صغير، دُفِعَت في فمه قطعة صغيرة مدقوقة هو الآخر.

ودون المزيد من المراسم، عُلِّقَ نْغِيا على عمود وحُمِل «إلى ما بين الآجام» كما قالوا، رغم أنهم في الواقع أخذوه إلى الشاطئ، حيث وُضِعَ في حَوزٍ حجريٍّ -يسمونه *إيرا*- وتُرِكَت فأسُه وترسه عند قدميه. ما زال في وضعية جلوس، والعصا تُبقي رأسه منتصبًا، يُطل غربًا من فوق السياج الحجريِّ الخفيض نحو غروب الشمس. تُرِك معه طعام له، وطعام لأمه وأبيه، «الأشباح القديمة». في ما مضى، قال نْجيرو وفي صوته مرارة لا تخطئها أذن، كان

(1) سونتو: أرض الموتى وفقًا لمعتقدات أهالي جزيرة إيديستون. (المترجم)

سيُقتَل عبدٌ في هذه اللحظة، ليوضع رأسُه بين قدمَي نْفِيا. حملق نْجيرو في ريڤرز، كأنه يُحمِّله شخصيًا المسؤولية عن إبطال هذا العُرف: «الآن ليس نفس الشيء».

في اليوم التالي، ذهب ريڤرز إلى إيوان نْفِيا كي يقدم تعازيه إلى إيميلي، فاستقبله مشهدٌ خارجٌ عن المألوف. لقد أقيم حَوزٌ خشبيٌّ داخل الإيوان، يماثل الـ «*إيرا*» الحجرية التي وُضِع فيها جثمان نْفِيا في الحجم والشكل، لكن جدرانه أعلى. داخل هذا الحوز، كانت إيميلي تجلس ضامةً ركبتيها إلى ذقنها، واضعةً يديها على قدميها، في نفس وضعية جثمان زوجها بالضبط. بدا أنها كانت هناك طيلة الليل، وكان واضحًا من العذاب الظاهر في تعبير وجهها أن التشنج يفعل فعله.

تحلَّقَ عددٌ من الأرامل حول الحوز يجلسن القرفصاء، ويَبَدونَ مثل جذوع أشجار مقطوعة بمآزرهن البُنية المصنوعة من قماش اللحاء. العديد منهن كُنَّ المَراجع المعتادة التي يلجأ إليها من أجل معلومات تخص مواضيع مثل العلاقات الجنسية والقرابة وترتيبات الزواج. قلد ريڤرز وضعية إيميلي المتشنجة، وسأل عن الكلمة التي تصفها. تونغو پولو، أجبنَه على مضض وهن يتبادلن النظرات. تونغو پولو، كرر الكلمة حارصًا على أن يصيب نبرةَ الصوت الصحيحة، غير أن جهوده للتحدث بلغتهن لم تُستقبَل بالدفء الأموميِّ المعتاد. رأى التوتر باديًا عليهن.

«إلى متى؟»، سألهن وهو يقرفص من جديد.

لكنهن لم يُجِبن، وحين التفت رأى أن نْجيرو قد دخل إلى الإيوان ووقف أمام الباب.

قبل وفاة نْفِيا، كان نْجيرو قد وافق على اصطحاب ريڤرز وهوكارت لرؤية الكهف في پا نا كيرو. إنه يقع قرب قمة أعلى جبل في الجزيرة، ويتطلب الوصولُ إليه مسيرَ صباحٍ تمر مراحلُه الأولى عبر آجام كثيفة. اعتقد ريڤرز أن وفاة نْفِيا ستؤدي إلى تأجيل الرحلة، لكنه حين خرج من الخيمة في الصباح التالي وجد نْجيرو ينتظره، محاطًا بحاشية أكبر من المعتاد بكثير.

أعطاهما أوراق شجر يرتديانها كي تحميهما من أرواح الجبل، وانطلقت المجموعة بمزاج رائق، يضحكون ويثرثرون، بيد أن الصمت حل عليهم مع ساعة الضحى، إذ اشتدت حدةُ ارتفاع الطريق وبدأ الألم ينال من عضلات الفخذ والظهر. كان الطريق الصاعد في الجبل، مثل كل طرق الجزيرة، ضيقًا على نحوٍ اضطرهم أن يسيروا في رتلٍ أحاديٍّ.

لقد خيَّم الخشوع على الجماعة. أخذ ريڤرز يراقب حركة العضلات في الظهر الذي أمامه، فيما هم يكدحون ويتصببون عرقًا على الطريق الصاعد. لاح أمامهم جدارٌ صخريٌّ هائل، ينفتح فيه كهف مثل فمٍ مظلم. انسلوا كالأفاعي صاعدين نحوه، وانثال الحصى الصغير كالمطر خلفهم. كان المنحدر الأخير يمتلئ بالصخور الكبيرة والجلاميد التي تعترض الطريق، إضافةً إلى أحجارٍ أخرى مفلطحة أكثر، بعضها حاد. إنها الظهيرة تقريبًا، وظلالُهم تضاءلت إلى أشكال سوداء مسننة ترفرف حول أقدامهم وهي تتحرك. التقط أحد الرجال حجرًا وألقاه نحو فم الكهف ليُفزع الأشباح ويطردها. ريڤرز وهوكارت هما الوحيدَان اللذان لم يسبق لهما أن زارا الكهف، ولم يُسمَح لهما أن يقتربا قبل أن يصلي نْجيرو لحمايتهما من المرض. مع تلاوة الصلاة، شاهدا الآخرين ينحنون ويختفون تحت جدار الصخر الشامخ أمامهما.

كان الكهف خفيضًا لكنه ذو عمق مفاجئ، عميقٌ إلى حدٍّ جعل نهايته القصية تحتجب في الظل. قربَ المدخل حجر مسطح يُسمى مقعد الأشباح؛ هناك يجلس الشبح الجديد، ويرسم على الجدران من حينٍ إلى آخر لتزجية الوقت. إلى الأمام، في أوج الظلام، يوجد جلمود آخر تجلس عليه الأشباح القديمة. «*توماتي* قديم تأتي كلها تتفرج على *توماتي* جديد»، هكذا قيل لهما.

التفت ريڤرز إلى نْجيرو وأشار نحو مقعد الأشباح القديمة. «الرجل يعفن، رائحة بشعة، لكن يروح إلى سونتو. لماذا هذا لا يروح إلى سونتو؟»، سأله.

بسط نْجيرو يديه.

على الجدار علامات متنوعة فُسِّرَت على أنها رسومات الأشباح الجديدة. شرع هوكارت في نسخ هذه العلامات وتدوين الشروحات التي قُدِّمَت إليه: رجل، روح، خنازير، زورق كانو حربي.

أراد نْجيرو أن يتابع مسألة الأشباح القديمة. قال إنه عن نفسه لا يصدق بوجود أشباح في الكهف، إنها... إنها... وهنا نفد صبرُه على اللغة الهجينة. إنها *ڤاراڤارا*، ختم جملتَه. إلى الحد الذي استطاع ريڤرز أن يتبينه، هذه الكلمة تعني «صورة رمزية»، «تعبير مجازي». لقد ازدادت مؤخرًا محاولات واحدهما، عند انفرادهما ببعضهما، لاستيعاب المفاهيم بلغة الآخر، والهروب من التواصل الضبابيِّ باللغة الهجينة. كان حاجز اللغة أكبر مما تخيل ريڤرز أولَ الأمر، فهنالك -إضافةً إلى اللهجة العامية المعتادة- «لغةٌ عالية» تُستخدم في الشعائر والأساطير والصلوات. وثمة أيضًا -رغم أن سماعها لم يكن مسموحًا له- الـ «*توك بلونغ توماتي*»: لغة الأشباح. بينما هما يتحادثان، كانا يهيمان -دون وعيٍ منهما- متوغلَين في الكهف. لمس ريڤرز ذراعَ نْجيرو وأشار إلى شقٍّ ضيقٍ في الجدار الخلفيِّ. تعيَّن عليهما أن يتجاوزا الصخور المتهدمة كي يصلا إليه، وحين وصلا بدا أصغر من أن يتسع حتى لرجل شديد النحول. قال نْجيرو إن الكهف كان في السابق «جيدًا» يتوسط الجبل، لكن حدث زلزال وهدَّ جزءًا من سقفه. ركع ريڤرز على ركبتيه وحدق إلى عمق الظلام؛ كان واثقًا أن بوسعه العبور إذا زحف، كما أنه قد أحضر معه مصباحًا يدويًّا، إذ لم يدرِ هل سيكون الكهف مظلمًا أم لا. استلقى على ظهره وتلوى مقحمًا جسدَه، فعلقت ذراعه وأحس ببللٍ ظنه قد يكون دمًا. على الجانب الآخر، وقف بحذر، ثم مد ذراعيه عاليًا فوق رأسه. شعر بمساحة شاسعة تحيط به. الكهف كبير. كان يبحث في جيبه الخلفيِّ عن المصباح عندما أدرك أن نْجيرو يتبعه. وضعَ يده داخل النفق، محاولًا أن يحمي ظهرَ الرجلِ المشوهَ من حواف الصخر المسننة. وقفا معًا، وراحا يتنفسان. أضاء ريڤرز مصباحه ووجَّهه نحو الأرضية، ثم توغلا داخل الكهف باحتراس. مد يده فلمست شيئًا انسلّ مبتعدًا تحت أصابعه، ثم راح ينقّل حزمة المصباح في الأنحاء، حلقةً سقيمة واهية من الضوء الأصفر كشفت عما جعله يشك لحظةً بصحة عقله: كانت الجدران حية. إنها مكسوة بفراءٍ سوداء تتنفس.

خفافيش، بالطبع. بعد الخضة الأولى، بات الأمر واضحًا. وجَّه المصباح نحو السقف حيث تتعلق المزيد من الخفافيش، الآلاف منها، مئات الآلاف

ربما، أشبه بنوازل مسخَّمة صغيرة. رفعت رؤوسها فيما مر الضوء عليها؛ وجوه صغيرة مسعورة، لِثّي وردية رطبة، أنياب بيضاء. كلها تصوِّت خائفة.

تحرك ببطء وهدوء شديدَين، إذ لم يُرِد أن يُقلِق الخفافيش أكثر، وسلّط المصباح على الأرض من جديد، فباتا واقفَين في بِركةٍ من الضوء بأرجل كأنها مفصولة عنهما. ما كان ينبغي أن يُجفل من الخفافيش، لأنه يعلم -كما سبق وذكر له نْجيرو- أن رجال ناروڤو كانوا في ما مضى يذهبون في نزهة معتادة لصيد الخفافيش داخل الكهف في ﭘا نا كيرو. لكن ذات يوم، أو هكذا تقول الأسطورة، سلك أحد الرجال منعطَفًا خاطئًا، وراحت خُطاه تقوده أبعد وأبعد، فيما كان رفاقُه يشقون طريقهم الملتف إلى خارج الجبل. صادف في نهاية المطاف مخرجًا آخر، وبدأ طريقَ عودته إلى القرية، بيد أنه -رغم أن غيابَه لم يتجاوز الأسبوع- عادَ شيخًا مسنًّا. بقي مع والدته ثلاثة أيام، لكن وجهه اسودَّ بعد ذلك، وتفتت جسده إلى غبار.

لم يتبعهما أحد إلى الكهف الداخليِّ. كان هوكارت منشغلًا بالرسومات، ورجال الجزيرة خائفين من الأسطورة على ما يُفترض. هل نْجيرو أيضًا خائف؟ إن كان، فهو لم يُظهِر ذلك. بوسعهما سماع الكلام والضحك على بُعد بضعة أقدام لا أكثر، في الكهف الخارجيِّ، إلا أن عزلتهما تامة في هذه الظلماء الحارة المبطنة بالفراء.

إنها المرة الأولى التي ينفرد فيها بنْجيرو منذ وفاة نْغِيا، وكان ريڤرز يريد أن يتحدث عن إيميلي: لأهمية أي شعائر مرتبطة بوفاة زعيم من جهة، ولأنه يشعر بقلق على المرأة ذاتها من جهة أخرى.

«*تونغو پولو*»، قال له.

شعر بنْجيرو ينكفئ.

«إلى متى؟»، ألحَّ: «كم يومًا؟».

هز نْجيرو رأسه: «الرجل كان من زمان يفهم تونغو پولو، الآن ليس نفس الشيء».

ترافقت الكلمات الأخيرة مع حركة قوية من يده تريد إنهاء النقاش، ولم يكن يقصد أن يلمس شيئًا، لكن أصابعه ارتطمت بطرف المصباح اليدويِّ

فارتمى على الأرض مقرقفًا، وظَل يضيء من موضعه؛ عينًا صفراء مسلطةً عليهما في الظلمة. حينئذٍ أقلعت الجدرانُ من أماكنها وانقضت عليهما. بالكاد تسنَّى الوقتُ لريفْرز كي يرى حزمة الضوء تتحول إلى نفقٍ تملؤه الأشكال المضطربة، قبل أن تطوِّقه ظلمةٌ تسودها الرفرفة والزعيق، ويُغشى بصرُه، وينكمش جلده مترقبًا التلامس الذي لم يحدث.

وقف مغمضًا عينيه مُطبِقًا أسنانه، حواسُه مغمورة إلى درجة باتت معها كأنها غير موجودة، وذهنه تقلص إلى نقطة ضوءٍ وحيدة. ابقَ ثابتًا، قال لنفسه، لن تلمسك. بعد ذلك ما عاد يفكر على الإطلاق، بل تسمَّر في مكانه، عمودًا من اللحم يربطه أخمصُ قدميه بالأرض، وعظامُ جمجمته تهتز مع صراخ الخفافيش الثابت ذي الطبقة الحادة.

لفظَ فمُ الكهف كائناتٍ بشرية تنهزم هاربة، وخلفهم تدفقت الخفافيش في غمامةٍ قاتمة تلتف على نفسها وهي ترتفع في الجو، مثل دمٍ ينفر من جرحٍ تحت الماء. في النهاية، استداروا كي يحدقوا وقد أسكتتهم الصدمةُ جميعهم، وظلوا يتفرجون دقيقةً كاملة، قبل أن يَذوي النهرُ المتدفق متحولًا إلى تيار هزيل.

داخل الكهف، فتح ريفْرز ونْجيرو أعينهما. لم يعِ ريفْرز أنه تحرك من مكانه خلال مشهد الفرار الجماعيِّ الذي حدث، بل كان ليقسم إنه لم يفعل، لكنه ألفى نفسه قابضًا على يد نْجيرو. كان يشعر... ليس بالدوار، لم تكن هذه الكلمة الصحيحة. بل بعكس الدوار. كما لو أن قشرةً خارجيةً كُشِطَت عنه، وانبطح ملامسًا للأرض، عاريًا بلا وِقاء. في خضم الصمت، راحا يحدقان ذاهلَين إلى جدران الغرانيت الرمادية حولهما، حيث تتدلى هنا وهناك بين الأطراف المترامية رُقَعٌ سوداء من صغار الخفافيش رأسًا على عقب بانتظار عودة أمهاتها.

ضرب شعاعُ الشمس المنسلّ عينيه.

«آسفة»، قالت السيدة إيرفينغ، وردَّت الستارةَ قليلًا: «كيف كانت ليلتُك؟».

«بينَ بين».

بدا كأنه أمضى الليلةَ كاملةً بين جدران حارَّة مبطنة بالفراء، والفراء عِلق بأسنانه.

«هاك الشاي»، قالت وهي تضع الصينية على ركبتيه.

شربَه بامتنان، مرسلًا إلى سائر أعضاء جسده إيعازًا لتبيُّن الوضع. «شبحي»، بدا أن هذه هي الكلمة التي تلخص الجواب عمومًا.

«ألا ترى أن عليك مراجعة طبيب؟»، ابتسمت له: «يا دكتور».

- كلا، كل ما سيفعله هو أن يقول لي أن أبقى في السرير وأشرب الكثير من السوائل. بوسعي أن أقول هذا لنفسي.

- حسنًا، اطلبني إن أردتَ أي شيء.

- هلَّا سحبتِ الستائر من فضلك؟

الظلامُ يُذكِّره بالكهف. كانت الخفافيش تتشبث بجدران جمجمته من الداخل طيلة الليل، لكن الآن ثمة نسمةٌ على الأقل، الستائر تتنفس برقة. بيد أنه ما زال يشعر بِحرٍّ شديد. ركل أغطية السرير، وحلَّ أزرار سترته وفتحها، ثم مرر لسانَه على شفتيه المتشققتين. حَر.

ضربت أشعةُ الشمسِ لحظةَ مغادرتِهم الكهف. كان الوقت قد تجاوز الظهيرة، إلا أن الصخور البيضاء القاسية الساطعة تعكس الحرارة على وجوههم. ساروا ببطء أكبر في طريق عودتهم، وريڤرز واعٍ بشدةٍ تجاه نْجيرو وهو يسير أمامه تمامًا، رغم أنهما لا يتكلمان. مع اقترابهم من القرية، بدأا -باتفاقٍ متبادل- يتخلفان عن الآخرين. استدار هوكارت منتظرًا، لكن ريڤرز لوّح له كي يمضي.

قعدا على جذع شجرة ساقط تغطيه الطحالب. الشمس تَسُوط بشدة، تضرب هامتَيهما كمن يدق أوتاد خيمة في الأرض. ومع ذلك، حتى في هذه الملابس الغارقة بالعرق، وكتفا قميصه مكسوتان بطبقة سميكة من سَلح الخفافيش، كان ينتاب ريڤرز الشعورُ نفسه؛ أنه جديد، عارٍ من غمده.

ظلا جالسَين بسكون، جنبًا إلى جنب، لا يستعجلان بدءَ عملية التواصل الممسوخة، ونسمةٌ خفيفةٌ تلطف حَر جلدهما.

«تونغو پولو»، قال ريڤرز أخيرًا، لأن حديثهما توقف عند هذا. إلى متى؟ سأل من جديد، كم يومًا؟

بدرَت عن نْجيرو نظرةٌ ساطعة مستطرفة فيها حنوٌ لا تخطئه عين. ما من وقت معين، قال له، لكن المدة الشائعة هي ثمانية عشر يومًا. لقد التزمت جدتُه بالـ «تونغو پولو» مدةَ مئتَي يوم، غير أن هذا أمرٌ استثنائيٌّ، لأن هومو -جدَّه- كان زعيمًا عظيمًا. رجالُ روڤيانا نفخوا في القواقع من أجلها.

نفخوا في القواقع؟ سأله ريڤرز، ما معنى هذا؟

صمتٌ قصير، لكنه لا يدل -كما قال ريڤرز لنفسه- على نفور من متابعة الكلام. في هذه اللحظة، كان نْجيرو ليخبره بأي شيء. لعل هذا نتيجة لما حدث في الكهف حين مد كلٌّ منهما يده وأمسك يد الآخر. لا، قال في قرارته. لا. لقد مرت تجربتان اثنتان في الكهف، وهو متأكد إلى حدٍّ بعيد أن نْجيرو شاركه فيهما اثنتَيهما. الأولى هي إمساك واحدهما ليد الآخر، لكن الثانية كانت تقلصًا... لا، لا، ليس تقلصًا، بل *انضغاطٌ* في الهوية حوّلها إلى نقطة منفردة صلبة منيعة: نقطة لا يعود من الممكن عندها التوصل إلى المزيد من التسويات، إذ لا يبقى شيء سوى إثبات الذات العاري الصِرف، حق المرء في الكينونة، وفي أن يكون *كما* هو.

لقد اشتهر جدُّ نْجيرو، هومو، بقطفه ثلاثةً وتسعين رأسًا في أصيلٍ واحد. هو يرتبط نسبًا من خلال جدته بإنكاڤا، الذي كان -قبل أن يدمر البريطانيون معقله- الأكثرَ ضراوةً بين زعماء صيادي الرؤوس في روڤيانا. هذا هو إرثه. نظر ريڤرز إليه بطرف عينه، من كثبٍ كافٍ ليرى كيف تقشرَ الجيرُ الأبيض على الجلد المشدود الذي يكسو عظام وجنتيه. لم يكن نْجيرو يتكلم بدافعٍ من الصداقة، رغم أنه يشعر بها، بل كان كلامه نابعًا من لب الهوية الصلب ذلك، وهو لم يعد مهتمًا بالتملص من الأسئلة أو تمويه فخره بثقافة شعبه.

قال إن النفخ في القواقع يعبر عن إتمام غارة ناجحة. التفت ونظر إلى ريڤرز مباشرةً: أرامل الزعماء لا يتحررن إلا بقطف رأس.

11

الاثنين، 16 سبتمبر 1918

إننا نعيش في تامبوهات[1]: وهي شيء هجين بين زريبة البقر والمرحاض الخارجيِّ. جدران وسقف من الحديد المموج -الذي يثير ضجة لعينة حين تمطر، وهي تمطر الآن- والأرضية مفروشة بالقش الذي يخشخش ويُصدِر رائحةً كريهة ويومض في ضوء الشموع. في الخارج حقول، أو كانت حقولًا بمعنى الكلمة حين وصلنا. أما الآن، بعد أمطار ليلةِ الأمس الغزيرة والغدو والرواح المستمر للجزم والعجلات، اكتست هذه الحقول بطبقة من الوحل تبلغ نحو ثمانية عشر إنشًا. لقد بدأت المعابر الخشبية تغور في الوحل. أوه، كما أن الوحل يتسلل إلى كل شيء. كيس النوم خاصتي لم يعد مرحِّبًا على الإطلاق، البارحة فكرتُ أن أنام خارجه. لكن، علينا ألا نتذمر. (لمَ لا؟ الجيش برمته يعيش على التظلُّم). في الحقيقة، لم يبقَ شيءٌ مألوفٌ سوى الوحل والمعابر الخشبية تقريبًا.

ينتابني إحساسٌ دائمٌ بالخَطْب في مؤخر عنقي. أظن أن «الانكشاف» هي الكلمة الصحيحة، وللمرة الأولى لا تكون قصة الشعر العسكرية المثيرة للسخرية هي المَلومة. نحن في العراء طيلة الوقت، وأنا معتاد على الحرب

(1) الـ «Tamboo» مصطلح كان متداولاً بين الجنود البريطانيين في الحرب العالمية الأولى لوصف المآوي المؤقتة التي يستخدمونها، ورأيت تعريبه على لفظه: «تامبو»، والجمع «تامبوهات». (المترجم)

التي يتحرك الجنود فيها متخبطين تحت الأرض مثل الجرذان أو المناجذ[1]. (كانت الجرذان تترعرع علينا، حرفيًا. ولا بد أننا أبدنا المناجذ). خطر لي ليلةَ أمس أن فكرة ريڤرز بشأن استخدامي لنفسي كعينةِ اختبار -كرة القدم التي طلب مني أن أركلها إلى الطرف المقابل- فيها خللٌ أساسيٌّ واحد؛ المجنون نفسه لكن في حرب مختلفة. بالقدر الذي أستطيع تبيُّنه، تقول نظرية ريڤرز إن العامل الحاسم في تفسير عدد الانهيارات الهائل الذي أفضت هذه الحرب إليه ليس الفظائع، فلطالما كانت الحروب تخلف الكثير منها، بل هو أن الإجهاد الناتج ينبغي تحمُّله في ظروف من انعدام الحركة والهجوع والعجز. أنت محشورٌ داخل حفرةٍ في الأرض، تنتظر القذيفة العشوائية التالية كي تضع حدًّا لحياتك. إن كان هذا هو العامل الحاسم فعلًا فالاختبار غير صالح، لأن كل التدريبات التي نُجريها الآن مصممة لتجهيزنا من أجل عملٍ حربيٍّ متنقلٍ مفتوحِ المدى. وهذا هو ما يحدث، كل شيء مختلف.

لقد قلتُ لريڤرز ذات مرة إن الشعور المترافق مع اعتلاء المتراس مثيرٌ جنسيًا. لا أظنه صدقني، لكن ثمة بالفعل شيء مشترك بين الأمرين؛ تدفقُ الدم، المخاطرة، الانكشاف البدني، نوعٌ من *الجرأة* الرهيبة في الموضوع. (من الواضح أنني لا أتحدث عن ممارسة الجنس في السرير). غير أنني لا أشعر بأي شيء من هذا القبيل الآن. *بالنسبة إليَّ*، ثمة خشية مستمرة مزعجةُ الإلحاح، لأنني مكشوف في العراء وأعلم أنه ينبغي لي ألا أكون كذلك. نوع جديد من الحرب، والمشكلة أن أعصابي هي الأعصاب القديمة نفسها. سأكون أسعد بوجود طنٍّ أو اثنين من فرنسا فوق رأسي.

أمضينا نهارَنا في أعمال التنظيف الشامل، وكوفئ الرجال بمباريات إلزامية. وقفتُ طائعًا عند خط التماس أصيح وألوِّح. كان نهارًا باردًا كئيبًا، بدت الكرةُ تطير عبر السماء المكفهرة مثل طائر أثقله المطر يطير مُكرَهًا. الوحل يكسو الرجال، والبخار يتصاعد غيومًا من أفواههم. المنافسة على أشدها بالطبع، السَّرية «ج» ضد السرية «د»، والمشهد خياليٌّ على نحوٍ غريب. كرةُ قدمٍ شوارعيةٌ تُلعَب بروحِ مباراةِ رغبي في مدرسة عامة. وقفتُ أتفرج على أبناء بلدي بوجوههم ورُكَبهم المحمرة ينقضون ذهابًا وإيابًا فوق

(1) مناجذ: جمع خُلد، وهو جمع من غير لفظ المفرد. (المترجم)

منطقة محرمة اجتماعية. لكن الضباط والرجال يلعبون معًا على الأقل، وهذا هو الاحتكاك غير الرسميّ الوحيد خارج خط القتال.

عند نهاية الشوط الأول، تجرد بعضُهم من القمصان فتصاعد البخار من أجسادهم، ووقفوا يلهثون بأجسادٍ حمراء وبيضاء، وأيدٍ ووجوه مشققة. لوَّح جنكينز إلى شخصٍ خارج الملعب، وللحظة كان وجهُه ملتفتًا نحوي؛ عينان مخضرتان، شعر أصهب، بشرة ببياض الحليب يشوبها النمش. كان عليَّ أن أبذل جهدًا كي أشيح بوجهي. يجب ألا أكتسب سمعةَ أن لدي «عينًا تزوغ نحو العساكر»، هذا يسيء إلى الانضباط. لكنني لا أدري ماذا يوجد غير هذا كي ينظر المرء إليه بحق اللعنة.

هذا هو التغير الآخر: تعابير الرجال. تلك النظرة التي اعتلت وجه جنكينز حين التفت كي يلوّح. في ما مضى، كان ثمة تعبيران اثنان بشكل أساسيٌّ. واحد تراه في إتاپل، وهو نظرة الأرنب المحبوس برفقة ابن عرس. لم يسبق لي أن رأيت هذا التعبير سوى في مكان واحد آخر، وهو منزل آل رويس، عائلة تضم أربعة صبيان في الشارع المجاور لنا. كان أبوهم يجعلهم يصطفون كل ليلة -بعد أن يكون تجرع بضعة باينتات[1]- ويرفعون ذيول قمصانهم، ثم يجلدهم بمسطرة على مؤخراتهم العارية. كل ليلة، دون استثناء. سأله أحدهم ذات مرة: «لماذا تضربنا يا أبي؟»، فأجاب: «عقابًا على ما فعلتموه وظننتم أنكم نجوتم من العقاب، أيًا كان». لكن رباه كم كانوا ماهرين في القتال، أحدهم كان بلوى حياتي في المدرسة.

التعبير الآخر هو تعبير الخنادق، ويبدو مفزعًا إلى حدٍّ بعيد إن كنت لا تعرف ما هو. كان يمكن استخدام صورة أي جندي في فصيلتي من أجل تنفيذ ملصق دعاية سياسية ضد «الهون[2] الوحشيين»، إلا أن تلك لم تكن وحشية أو أي شيء من هذا القبيل. لقد كانت نوعًا من *الاشمئزاز المتجهم*، النابع من

(1) الباينت: وحدة حجم تساوي ثُمن الغالون. (المترجم)

(2) الهون: شعب بدويٌّ عاش في آسيا الوسطى والقوقاز وأوروبا الشرقية بين القرنين الرابع والسادس للميلاد، واعتاد البريطانيون أن يسموا الألمان بـ «الهون» خلال الحرب العالمية الأولى ازدراءً لهم بهدف نعتهم بالهمجية. (المترجم)

العيش في خنادق تبرز كِسَرُ عظمٍ بشريٍّ من جدرانها، وترتصف الجثث في الطقس المتجمد على منصات تصويبها، ويطوف الماء من مراحيضها.

لا يمكن لأي شيء يحدث لنا أن يبلغ هذه الدرجة من السوء.

الأربعاء، 18 سبتمبر

ذهبنا اليوم إلى حمامات الفرقة، التي تقع داخل حظيرة ضخمة منخفضة السقف. هذه المرة كان الجو مشمسًا وجافًا، ولم يكن المسير متعبًا للغاية رغم طوله. لم يكونوا جاهزين لاستقبالنا، فجلس الرجال على العشب في الخارج وانتظروا، يتكئ الواحد منهم على ركبتَي الآخر أو يتمدد فوق العشب واضعًا ذراعيه خلف رأسه. إلى أن جاء دورُهم.

الصفوف المعتادة من خزانات مياه المطر وبراميل النبيذ، إضافةً إلى بعض الأحواض القديمة (أحواض استحمام حقيقية). درجة حرارة الماء تتراوح بين الغليان والفتور، وهذا يعتمد على مكانك في الطابور. يخلعون ملابسهم ويتركونها مكومة، ثم يصطفون عُراةً، يتمازحون ويتدافعون. الكثير من النكات، وبعض الأغاني؛ الجميع سعداء لخروجهم عن روتين التدريب الكئيب. داخل الحظيرة، تتناثر مئات رُقع الضوء الصغيرة التي يرسمها نور الشمس المتسلل من ثغرات في الجدران والسقف، فيتلألأ الضوء مثل الحرير المتموج، وتتراقص هذه البوارق على كل شيء؛ الوجوه والأعناق البُنية، الأجساد البيضاء، الخط الفاصل بينها مثل مقصلة حادة تحزُّ الرِقاب.

إحدى مشكلاتي مع الحمامات هي أنني أرتدي ملابسي طوال الوقت. الضباط يستحمون كلًا على حدة، و... حسنًا، هذا غريب. أحد الأشياء التي تروقني على الصعيد الجنسيّ، أحد الأشياء التي تنتابني خيالات حولها، هو ببساطة وجودي بلباس كامل برفقة عشيقة عاريةٍ، أحضنها من الخلف. وما أشعر به (إلى جانب الأمور الواضحة) هو حنوٌ عظيم، حنوٌ من النوع الذي يستند على كونك الأقوى، وما هذا في الحقيقة -كما أظن- سوى الوجه المقبول للسادية.

ليس هذا ذا أهمية برفقة العشيقة، حيث يكون الأمر مجرد لعبة، إلا أن تفاوت القوى حقيقيٌّ هنا، والعُري إلزاميٌّ. ما من شيء يمكن فعله حيال الأمر. أقصد، يمكنني بالكاد أن أحمل نفسي على السير مترنحًا بعينين كاسفتَين مثل خالةٍ عانسٍ في معرضٍ للكراث، لكنني لا أشعر بالراحة، على عكس معظم الضباط الآخرين كما أظن.

عبر الحظيرة، إلى العراء في الخارج، في ملابس نظيفة، تشكيلة من السراويل والقمصان الداخلية، معظمها كبير للغاية. الجيش يطلب هذه الأشياء بحيث تناسب مقاس أبناء الإمبراطورية، غير أن بعض أبناء الإمبراطورية لم يحظوا بكفايتهم من الطعام في طفولتهم. أحد الرجال في فصيلتي، بالكاد يبلغ طول القامة المقبول للخدمة، حصل على سروال داخليٍّ يستطيع رفعه إلى ذقنه. راح يسير في استعراض ضاحكًا على نفسه، ولم يُبالِ إطلاقًا حين شاركه الجميعُ الضحك.

فيما كنت أراقبه، فطنتُ فجأةً إلى أن عُريَ الجنود فيه شيءٌ يثير الشفقة، ليس لمجرد كون الجسد معرضًا ومكشوفًا بكل هذا الوضوح، بل لأنهم يرتدون المذلةَ وطمْسَ الهوية الفردية مع ثيابهم، فيما يكون العكس هو الصحيح معظم الوقت بالنسبة إلى معظم الناس، أي المدنيين.

مسيرُ العودة كان مرحًا جدًّا، الجميع يغنون، وبيوض القمل تفقس في دروز الملابس النظيفة ما إن يتغلغل دفءُ الأجساد فيها، لكننا معتادون على هذا. وبدأتُ أفكر -المسير يتيح دائمًا الكثير من الوقت للتفكير- في كنيسة الأب ماكنزي؛ تمثال الصليب الضخم الظليل المُعلَّق على الأيقونسطاس[1] مهيمنًا على كل شيء، حزمة نبات الخطمية الملقاة في الهيكل تنتظر أن تُرتَّب، وسوقُها الطويلة المبللة تخربش على الأرضية. وخلف كلِّ مذبح، الدم والعذاب والموت. رأسُ القديس يوحنا على طبق، تقدمه سالومي إلى هيروديا، فتشكل أذرع المرأتين البيضاء قفصًا حول الرأس المقطوع بعينيه الباهتتين. المسيحُ على عمود الجَلد، وتعبيرُ وجهه مألوفٌ بشكل مميز. القديس سيباستيان يومئ

(1) الأيقونسطاس: حامل الأيقونات الذي يفصل بين الهيكل وصحن الكنيسة. (المترجم)

إيماءات مسرحية، وصديقي القديس القديم لورنس على مِنصَبه. صوتُ الأب ماكنزي يُدوِّي من المَوهِف[1]. الوغد المسكين كان يحبني، أعتقد ذلك حقًّا.

وفكرتُ في صفوف الأجساد العارية تنتظر دورها من أجل الاستحمام، وقلتُ لنفسي إنني لست الوحيد؛ الجبهة الغربية اللعينة بأكملها جنةٌ بالنسبة إلى البعض. هذا ما يصلُّون من أجله، هذا ما يتوقون إليه، منذ سنوات. كان ريڤرز ليعلق الآن قائلًا شيئًا حكيمًا وظريفًا وواعيًا، لكنني أصر على ما قلتُه، وريڤرز ليس هنا على كل حال. كلما لاح رجلٌ ذو مواصفات معينة في مجال الرؤية، لك أن تضمن أن شيئًا بغيضًا تمامًا سوف يحدث.

لكنْ هناك شيء بغيض تمامًا سوف يحدث بالفعل، لذا لا بأس.

الأحد، 22 سبتمبر

إنه الصباح: أقرب شكل يمكن أن نبلغه إلى مظاهرات الاستلقاء (إنني أستيقظ وأكون جاهزًا للانطلاق بحلول الخامسة والنصف كلَّ يوم من هذا الأسبوع). وايات يحلق، وهناك نشاطُ خدمةٍ تطوعيةٍ يبدأ في الخارج قربنا. رائحة لحمٍ مقدد يُقلى، صوت طناجر ومقالٍ تقرقع، ولونغستاف يصفر وهو ينظف جزمتي. هاليت على الطرف المقابل من الطاولة يكتب إلى خطيبته، وهذا شيء يستغرق *ساعات وساعات* دائمًا. والمطر توقف، وعلى الأرض رقعة عريضة من ضوء الشمس، والقش يبدو مثل الذهب. شفرة الحلاقة تطقطق على حافة الطشت مُصدِرةً صوتًا سارًّا. طيفُ صباحِ الأحد في البيت: لحم البقر المشوي والمرق، البخار متكثف على النوافذ، صحيفة نيوز *أوف ذا وورلد* تخشخش في يد أبي ويهوي نصفُها على الأرض، وجيشُ الخلاص[2] يتقدم في الخارج.

---

(1) المَوهِف: غرفة ملابس الكهنة والمقدسات في الكنيسة. (المترجم)

(2) جيش الخلاص: جماعة مسيحية بروتستانتية دولية مستقلة عن الكنائس تنفِّذ أعمالاً خيرية لمساعدة الفقراء. (المترجم)

إلى الأمام، أيها الجنود المسيحيون،
كأنكم تزحفون إلى الحرب،
وصليب يسوع يتقدم مسيركم.

عشرون صوتًا ذكوريًا -أو ربما أكثر قليلًا- يغنون بانسجام. لونغستاف يغني النسخةَ البديلة:

تقدموا يا جيش الحمقى
سيروا بلا خوف،
وقائدكم الشجاع
ينعم بالأمان في المؤخرة.

إنه يتبجح ويتفاخر
من الصبح حتى الليل،
ويظن نفسه شجاعًا جدًّا،
لكن الرجال الذين تولوا العمل حقًّا
هم الآن موتى في قبورهم.

يغنيها بالكثير من المرح، ومزاجٍ رائق جدًّا. جميعنا نتطلع إلى عشاء الأحد، المكون من لحم البقر المشويِّ والبطاطا المشوية. أنا أتضور جوعًا. ولن يحدث تدريبٌ مفاجئ على الغاز خلال هذه الوجبة. *أعرف* ذلك.

الثلاثاء، 24 سبتمبر

نُقِلنا بالحافلة إلى نقطة متقدمة. الرجال كانوا يغنون طيلة الطريق، بمعنويات عالية، وأظن أن سبب هذا في الأساس هو عدم اضطرارهم إلى المسير.

الخميس، 26 سبتمبر

القرية الأقرب عبارة عن أنقاض. للجدران المهدمة أشكالٌ مسننةٌ عجيبة في ضوء القمر، جبالٌ ووِهادٌ فضية، وهنا وهناك حفرةٌ سوداء خلَّفتها قذيفةٌ وملأتها الحشائش.

بعض القرى الأخرى تجاوزت مرحلة الأنقاض. يُفترض بنا ألا نذكر آثار نيران العدو، لكن الكثير من هذا هو من صنع النيران البريطانية، لذا ربما *أستطيع* أن آتي على ذكره. لم يبقَ شيء. مررنا في قرية ليس فيها جدار واحد يتجاوز ارتفاعَ الركبة. الخنادق القديمة في كل مكان، أكوامٌ متشابكة من الأسلاك الشائكة الصدئة، أضلاع خيولٍ تعفنت في مواضع سقوطها. وأسوأ، وأسوأ.

لم يزل الرجال متحفظين، باستثناء الواحد أو الاثنين اللذين أتذكرهما من العام الماضي. أحيانًا، عندما يكونون وحدهم في الليل، يمكنك سماع ضحك. لا يحدث هذا كثيرًا. إنهم يحرسون الخصوصية القليلة التي يملكونها بحرص شديد. معظم «الإخلاص» الذي يتحدث الناس عنه هو الصادر من الضباط -بعض الضباط- تجاه الرجال. عن نفسي، لا أرى الكثير مما يدل على أنه متبادل. إن كانوا يثقون بأحد، فهم يثقون بضباط الصف، الأكبر سنًّا منهم بمعظمهم، والقادمين من الخلفية نفسها. لكنني، في المقابل، لم أولَد وتبصر عيناي النور على الوهم القائل إني مسؤول عنهم.

ما أنا مسؤول عنه هو **الغاز**. إما أن المعاون لم يكن يمزح، وإما أنها مزحة مستمرة. لقد أُعيد إحياء لقبي القديم: الكناري. أما أوين، فهو يُعرَف لسببٍ ما بلقب الشبح. يبدو أنهم استنتجوا أنه مات حين اختفى في كريفلوكهارت، وأظنه لم يكتب حينها إلى أحد لأنه كان يشعر بالخزي (أنا أيضًا لم أكتب إلى أحد).

تدريبات الغاز تحدث عدة مرات في اليوم. المحاضرات الروتينية ليست مكروهة للغاية (إلا بالنسبة إليَّ، فأنا من عليه أن يلقيها)، لكن الجميع يمقت التدريبات العشوائية. تكون تتهيأ للاستقرار في سريرك ليلًا، أو على وشك إحراز هدف، أو ترفع أول لقمة من الطعام الساخن بالشوكة إلى شفتيك، وفجأةً: *هوبا!!!* ترن الأجراس، وتُرتدى الأقنعة، وتُرفع الأذرع بقبضات

مضمومة، ثم تُسمع الصيحة الجوفاء المكتومة: **غاز! غاز! غاز!** مخلوقات لها أعين ضخمة كالحشرات تتنقل بحركات خاطفة بين الأشجار. ما يكرهونه -ما أكرهه *أنا*- هو تدريب الغاز الذي يأتي في أثناء الزحف العسكريّ أو التمارين البدنية أو التدريب على الحربة، إذ يتحتم عليك عندئذٍ أن تتابع ما تفعله، متخبطًا في الضوء الأخضر، وصوت تنفسك -شهيق، زفير، شهيق، زفير- يطغى على كل الأصوات الأخرى. وطاقتُك تُستنزَف مع كل حركة.

لا أحد يحب القناع. لكن ما يجب عليَّ فعلُه هو أن أترقب منتظرًا -بين الحين والآخر- رجلًا لا يستطيع تحمُّله على الإطلاق، يفقد رشده ويصاب بالهلع ما إن يوضع على وجهه. وأظنني لسوء الحظ وجدتُ واحدًا، بيد أنه في سَريتي، ما يعني أن بوسعي إبقاءه تحت المراقبة.

لقد تغير الموقف تجاه الغاز، إذ زاد استخدامه وقلَّ الخوف منه. بل ثمة بضعة رجال يسعدهم الغاز حقًّا، يقولون لأنفسهم: حسنًا، إن كانت النشقة أو النشقتان ستتكفلان بإرجاع المرء إلى القاعدة دون أن تقتلاه، فلمَ لا؟ أصبح هذا المعادلَ لإطلاقك النارَ على قدمك، وكشفُه أصعبُ بكثير.

على العشاء، أخبرتُ هاليت ويوتس أنه كان يقال لنا قبل أربع سنوات أن نتبول في جواربنا كي نحمي أنفسنا من الغاز، تطوي أحد جوربيك على شكل وسادة رقيقة، وتستخدم الآخر لتربطه فوق فمك وأنفك. حدقا إليَّ مشدوهَين، غيرَ واثقَين إذا ما كنت جادًّا أم لا. «وهل كان ذلك ينفع؟»، سألني هاليت، فأجبت: «لا، لكنه يشغل ذهنك عن الموضوع تمامًا». حينها ضحكا، وقد شعرا بالراحة -كما أظن- إذ عرفا أنني كنت أخادعهما لا أكثر.

هذا الأمر كان يسبب لطخات حول الفم، بيد أن ذلك لم يكن مصدر قلقنا الأول حينها.

واليوم كان يومَ القبض. بعد أصيلٍ انقضى في الزحف والركض والسقوط ثم الزحف من جديد عبر الحقول المبللة، اكتسى الرجال بطبقات سميكة من الوحل فبدوا كأنهم مصنوعون منه. كانوا متعَبين، لكن يوم القبض يكون جيدًا دائمًا، حتى لو لم يكن لديك ما تنفق المال عليه، لذا اصطفوا في الطوابير يثرثرون متدافعين ضاحكين. عندئذٍ رنت الأجراس، فتعالت الهمهمات (حين تقع الواقعة لن يكون ثمة وقت للهمهمة... هنالك حاجة إلى المزيد من

التدريب)، ثم الروتين المعتاد: قبضات مضمومة، أذرع مرفوعة، **غاز! غاز! غاز!**

ظلوا في طوابيرهم. رجالٌ بلون الوحل واقفون في الوحل، أشعة الشمس المائلة تطلي ظهور أيديهم بالذهب، فهي الموضع الوحيد الظاهر من جلدهم الآن. كنت جالسًا بجانب هاردويك، أضع إشارات عند الأسماء في القائمة. أحد الرجال، الذي ينتظر مباشرةً خلف الرجل الذي يقبض راتبه، أدار وجهَه إلى الجانب قليلًا، فرأيتُ في تينك العينين الضخمتين الأشبه بأعين الحشرات شمسَين غاربتَين لا واحدة.

الجمعة، 28 سبتمبر[1]

القصف متواصلٌ منذ مساء الأمس. كل الطرق نحو الأمام مسدودة، والسائقون عالقون في الوحل يتبادلون الشتائم. في السماء ضوءٌ أصفر مخضر ومَّاض، ومن آنٍ إلى آخر يُسمَع صفير قذيفةٍ وارتطامها. أزيز الطائرات في الأعلى مستمر، وجميعها تطير في اتجاه واحد.

سنتحرك إلى الأمام الليلة.

(1) خطأ التأريخ هنا من المصدر. (المترجم)

12

سار ريفرز في الطريق الواصل بين الخيمة وقرية ناروفو، والبدرُ يلقي له ظلَّه أمامه. كانت أصوات الحفيف والصرير تتصاعد من الآجام في كل مكان حوله، وسُمِع صياحُ طائرٍ لم يلبث أن تحول إلى ضحك، ثم ساد صمتٌ للحظة، تلاه المزيد من الحفيف، والمزيد من الصرير؛ هيجانُ الصيد والافتراسِ الذي يمتد طيلة الليل.

حالما وصل إلى القرية، توجه من فوره إلى إيوان نْغِيا. أحنى ظهرَه ودخل، وارتعشت فزاعة الأشباح لدى اقترابه منها.

كانت النسوة نائمات، الأرامل اللاتي يرعين إيميلي. مر بهن على رؤوس أصابعه، ثم جثا ونادى: «إيميلي! إيميلي!»، في همسٍ مُلِحٍّ جعل إحدى الأرامل تتحرك وتتمتم في نومها. انتظر إلى أن استقرت قبل أن ينادي الاسم من جديد، وعندما لم يأتِه ردٌّ دفع الباب. وهناك، منطويةً على نفسها بالوضعية الموصوفة، ظهْرها محنيٌّ، ويداها على قدميها، كانت كاث ماثلة أمامه.

«كاث، كاث»، ناداها: «ما الذي تفعلينه هنا بحق السماء؟». فتسببت حركةُ شفتيه في إيقاظه.

جلس على طرف السرير، ونظر إلى ساعته. إنها الرابعة، وقتٌ سيئ للاستيقاظ دائمًا. كان حلقه يؤلمه جدًّا. بلع ريقَه عدة مرات، وقرر أن ما يحتاج إليه هو تلك الوصفة الطبية الجاهزة القديمة: كأس من الماء.

في الحمام، راح يرمش بعينيه تحت الضوء الأبيض، ولمح نفسه في المرآة فقال في قرارته: يا إلهي، أهذا ما فعلتَه بنفسك حقًّا؟ أخذ لحظةً ليتأمل

العينين المنتفختين والشعر الآخذ بالتساقط، لكنه لم يكن غارقًا في العُصابية أو النرجسية بما يكفي ليصدق أن ضوءًا فوق رأسه في الرابعة صباحًا يعري الروح. شرب كأسًا من الماء وعاد إلى السرير.

على الرغم من التوقيت، كانت الستائر تُدخِل بعض الضوء. افترض أنه ضوء النجوم، فما من قمر الليلة. ذكَّرَه هذا -للغرابة- بضوء الخيمة في إيديستون. ربت على الوسائد لتتخذ شكلًا مريحًا أكثر، وحاول أن يرجع إلى النوم.

«اترك الطية مفتوحة»، قال ريڤرز.

كان الحَرُّ أشدَّ من المعتاد؛ نهارٌ أشبه بالفرن يتلألأ فيه الناس والأشجار مثل الانعكاسات على الماء. التربة خارج الخيمة تصلبت من الحرارة. راح يراقب خطًّا من النمل الأحمر يشق طريقه بجهد في الامتداد الشاسع، وفي مؤخرته مجموعة تحمل خنفساء نافقةً بأضعاف حجمها.

خرج هوكارت من الخيمة: «لا أظنني قادرًا على مواجهة النوم في الداخل الليلة».

«يمكننا أن ننام خارجًا إن أردتَ، شريطةَ أن تتعامل بحذر مع الناموسية».

كانت بقايا وجبتهما المسائية متروكة على الطاولة، فكلاهما لم يشعر برغبةٍ تُذكَر في الأكل.

«ماذا سنفعل؟»، قال هوكارت، متربعًا على الأرض بجانب ريڤرز: «ماذا سنفعل إن عادوا برأس؟ أو رؤوس، ليتلطف الله بنا».

أجاب ريڤرز بروية: «المنطق يقول ألا نتدخل».

- المنطق يقول إن موتنا محتوم. حتى لو قررنا ألا نخبر السلطات، ما الذي يضمن لهم أننا لن نفعل؟ من وجهة نظرهم، التصرف الآمن الوحيد هو...

- إطاعة القانون.

- التخلص منا.

- لا أظنهم سيفعلون هذا.

- أليس بوسعهم؟

- حسنًا، بلى، على الأرجح. الفكرة أن ذلك لن يحدث، لن يكون ثمة رأس.

- لكن إذا...

- إذا عادوا برأس، سنتعامل مع الأمر.

صمتٌ طويل عنيد غير مقتنع من طرف هوكارت.

- اسمع، أنت تعرف ما يترتب من عقوبات. إن خرجوا في غارة، يستحيل ألا يسمع المندوب البريطانيُّ بالأمر. حينها ستتوقف سفينة مدفعية أمام الساحل، ستحترق القرى، وتُقطَع الأشجار، وتُتلَف المحاصيل، وتُقتَل الخنازير. ستُساق النسوة والأطفال إلى الآجام صارخين. أنت تعرف ما يحدث.

- هذا يجعلك فخورًا بكونك بريطانيًّا، أليس كذلك؟

- أتقترح أنه ينبغي السماح بصيد الرؤوس؟

«كلا»، أجاب بشفتين مزمومتين.

- جيد. حين كان هؤلاء الناس يقطفون الرؤوس، أخلَوا جزيرةَ إيزابيل من سكانها عمليًّا. كان يجب إيقاف الأمر.

- كيف سيُخرجونها إذًا؟

تردد ريفرز: «لا أدري. لا يمكن أن تبقى هناك إلى الأبد».

ما كان يفكر فيه سرًّا، لكن منعه التطيُّر أن يفصح عنه، هو أن ينتهي الوضعُ بانتحار إيميلي. لم يكن بوسعه أن يرى مَخرجًا آخر.

في الصباح التالي، ذهب لرؤية نامبوكو تارو. لقد باتت تُكِن له مَعزة شديدة (وهو كذلك) منذ سلّاها بمحاولته لوصف الإمساك المترافق مع نوبات الإسهال بالتمثيل الإيمائي في أثناء إزالة نْجيرو للـ «*نْغاسين*» من بطنها.

كانت تستحم في البحر توًّا برفقة صديقتها نامبوكو نالي، ورائحة الماء المالح تفوح من شعرهما. جلست تارو عاقدةً ذراعيها البُنيتين المهزولتين على ثديَيها، تسند ظهرها إلى جدار كوخها، والشمس تجففها برفق، فيما

يتحرك الدجاج حولها بدقة وينقر التراب. قعد بجانبها، يتأمل وميض الزمرد الفاتر في ريش عنق الديك الفتي بإعجاب، بينما كانت الحياة تدب في القرية رويدًا رويدًا.

بعد بضع دقائق من النميمة، بدأ يسألها عن تعاويذ الحب، الموضوع الذي تحدثا عنه في لقائهما الأخير. جاءت ثلاث نساء أخريات واستمعن إليهما. أخرج دفتره وراح يدوِّن كلمات التعويذة التي زودته تارو بها، مدركًا أن كمية التهامس والضحك المكبوت الذي يحدث أكبرُ من المعتاد. قدمت تارو إليه جوزةَ تنبول يمضغها، فقال لنفسه: ما علينا، من يحتاج إلى أسنان؟ وأخذها منها. ضحكت النسوة من جديد. وبعد قليل، قدمت تارو إليه الجير، فسايرها وتركها ترسم خطوطًا بيضاء على عظام وجنتيه. صار الضحك الآن خارجًا عن السيطرة تقريبًا، لكنه تابع صامدًا حتى نهاية التعويذة، وحينها كُشِفَ له أن الكلمات لا تصبح فعالةً إلا إن قَبِل الرجلُ التنبولَ والجيرَ من سلة المرأة.

ضحك معهن، وعندما انتهوا باتت بينهم ألفةٌ شعر معها أنه يستطيع طرحَ أي سؤال عليهن، حتى في ما يتعلق بإيميلي والـ «*تونغو پولو*». أنكرت تارو بحدة وجودَ أي احتمال للانتحار، فالانتحار -*أونغي*- أمر مختلف تمامًا. لقد تولّت تارو ونالي مساعدة كيرا، أرملة الزعيم السابق، على قتل نفسها. كانت قد حاولت تسميم نفسها بالتبغ ولم ينفع ذلك، ثم حاولت شنق نفسها لكن الغصن انكسر. لذا حملتا لها عصاً رفعتاها عاليًا فوق رأسيهما، فربطت شريطةً من الكاليكو بها وجدلتها حول عنقها وشنقت نفسها. بل خنقت نفسها خنقًا بالأحرى، قال ريڤرز في قرارته. من المؤكد أنها لم تكن مِيتةً سريعة أو يسيرة. سألهن: ما الذي يحدد ما إذا كانت الأرملة ستقوم بالـ «*أونغي*» أم الـ «*تونغو پولو*»؟ فأجبنَ أن الخيار خيارها.

عندما عاد إلى الخيمة، وجد هوكارت مستلقيًا في الخارج وقد أمضى الشطرَ الأول من صباحه في غسل الثياب. كان نائمًا، أو يستريح، واضعًا ذراعيه على وجهه ليحجب عينيه عن الشمس. وضع ريڤرز قدمه على صدره وضغطها قليلًا.

شخَصَ هوكارت محدقًا إليه، يحاول استيعاب الخطوط البيضاء على وجهه. «*يا إلهي*».

«أظن أنني خطبت للتو».

بقبق هوكارت ضاحكًا واهتزت أضلاعه: «امرأة محظوظة».

كان النوم صعبًا بسبب الحَر، حتى بعد أن ينقلا سريريهما إلى خارج الخيمة. أحيانًا يستسلمان بالكامل، فيذهبان للاستلقاء في المياه الضحلة، حيث تتكسر عليهما الأمواج الصغيرة متألقةً بالضوء المختزَن فيها.

لقد بات ريڤرز مهووسًا بإيميلي. راحت صورةُ المرأة الحبيسة داخل الحوز في الكوخ تلاحقه أينما كان ومهما كان يفعل، إلى أن صار يرى كل الجوانب الأخرى للحياة في الجزيرة هوامشَ على متن حبسِها هذا.

في الصباح، ينزل ليستحم فيشاهد زوارق الكانو خارجةً إلى البحر، الزبد يومض على مجاذيفها، أغنيةٌ بلا كلمات تتهادى على وجه الماء: *«آي، آي، آي»*. تبدو مؤلفةً من الحروف الصوتية بالكامل، دون سواكن. ثم يسمع صوتَ صفعِ الماء لإغراء سمك البينيت بالدخول إلى الشِّباك.

ما تزال المَشاهد شاعرية رعوية. سعادتُه الشخصية لم تنقص، لكن باتت هنالك دائمًا نقطتا الظلام هاتان: إيميلي حبيسة في حوزها، ونْغِيا يتعفن في الـ *«إيرا»* خاصته. سار مرةً في الطريق الممتد على الجانب الآخر من الشاطئ، غيرَ قادر على تفسير رغبته في رؤية نْغِيا، إذ لم تكن وقائعُ التحلل البدنيِّ تفتنه ولا تخيفه. الجثة شيءٌ ندفنه أو نشرّحه، لا أكثر. ومع ذلك كان يحتاج أن يرى نْغِيا.

وصلت الرائحة إليه وهو لمّا يجتز منتصف الطريق. سدَّ منخرَيه وتنفس من فمه المفتوح، لكن تعيَّن عليه رغم ذلك أن يتخلى عن مسعاه بعد بضع ياردات. فلدى اقترابه ارتفعت غمامةٌ سوداء من الذباب، كانت غزيرة إلى درجة بدت معها مُصمَتة، والحَر جعل طنينها مسموعًا. تراجع إلى الخلف، وهذا في المقام الأول لأن الذباب ذكّره بالخفافيش في الكهف؛ تلك التجربة -الإحساسُ بالتجردِ من غمده وانسلاخ قشرته بطريقةٍ ما- التي بدت إيجابية جدًّا وقتها، جعلته الآن يخاف. كان منفتحًا تجاه أي شيء قد يحدث في هذا المكان، منفتحًا كما يكون الأطفال تجاه كل شيء، بما أنه لا صلة للتجارب السابقة -على اختلافها- بما يحدث هنا.

الحَرُّ مستمر. تتشربُ السماءُ بضوءٍ برونزيٍّ غريب منذ منتصف الأصيل فصاعدًا، يتحول إلى درجةٍ من اللون البُنيِّ مع اقتراب المساء، كأن الحَر سفعَ الهواءَ نفسه. ومن حينٍ إلى آخر، تعبث هباتٌ قصيرة من الريح بالأغصان الخارجية للأشجار، لكنها لا تعكر السكون الكثيف الذي يكتنف كلَّ شيء.

نام ريڤرز نومًا مضطربًا، ليستيقظ أخيرًا عند «غناء الطير»، واعيًا أنه سمع صوتًا جديدًا مختلفًا. ظل مستلقيًا يستمع، وكان يوشك أن ينقلب على جنبه ليحاول اختلاس ساعة إضافية عندما جاء الصوتُ مجددًا: دويٌّ صارخٌ لنفخٍ في قوقعة.

هبَّ على قدميه وصار خارج الخيمة في غضون دقائق. كانت الآجامُ تشوه الأصوات وترجِّع أصداءها، لكنه لم يلبث أن أدرك ضوضاءَ وقْع أقدام تهرع عبر الشجيرات؛ أناسٌ يركضون إلى الشاطئ. هز هوكارت حتى أيقظه، ثم تبع الحشد تاركًا بعضَ المسافة، فهو لا يعرف مدى سِرية الأمر أو ما قد يعنيه لهم أن يشهده. رأى نْجيرو عند حافة الماء، مكتسيًا بقماش أبيض وفي يده صولجان، يطل على الخليج.

هنالك زورق كانو يتقدم بسرعة، على متنه ليمبو يجذف، وفي مؤخره حزمةٌ من نوعٍ ما. كان موضعه أبعد من أن يرى ماذا تكون تلك الحزمة، لكن ندت عن الحشد آهةُ ثناءٍ عالية، وفجأةً أخذت النسوة والفتيات يركضن إلى داخل البحر، متواثباتٍ في مرحٍ مثل الأفراس، حتى بلغن عمقًا صار بمقدورهن فيه أن يُلقين أنفسهن إلى الأمام ويسبحن. تشبثن بجوانب الزورق، وواكبنه إلى المياه الضحلة، ثم ترجَّل ليمبو -وكان كل ما فيه يلمع: أسنانه وشعره وعيناه وجلده- وسحب الزورق إلى البر. سار نحو المؤخر، وفك الحزمة ثم أفرغها من محتوياتها على الرمل: صبيٌّ صغيرٌ في الرابعة من عمره تقريبًا.

نزل ريڤرز وسار نحو الزورق، إذ لم يبدُ أن أحدًا يكترث إن كان قد رأى هذا أم لا. كانت آثار الدمع تلطخ وجهَ الولد، إضافةً إلى التراب والمُخاط. بيد أنه لم يكن يبكي الآن، لكن فواقًا غيرَ منتظم يهز صدرَه الناحل. ولما اندفع الناس نحوه وراحوا يحدقون، اقترب من آسِره، ووضع يده القذرة على فخذ ليمبو العارية.

توجه ريڤرز نحو نْجيرو. «أهذا هو رأسكم؟»، سأله، دون أن يعي أنه يتحدث الإنجليزية لا اللغة الهجينة.

«أجل»، أجاب نْجيرو بثبات.

أخذ الولدَ من ليمبو، وحمله -محاطًا بأناسٍ يبتسمون في حماسة- عبر الطريق الشاطئي إلى القرية. تبعهم ريڤرز، إلا أنه ترك مسافةً معتبرةً حين تجمَّع الحشد خارج إيوان نْغِيا. نفخ ليمبو في القوقعة مع دخولهم القرية، وكرر ذلك داخل الإيوان. بعد قليل خرجت إيميلي تعرج، متكئةً بذراعيها على كتفَي تارو ونالي. تبعها ليمبو ونْجيرو إلى الخارج، وكانت البهجة تعم الجميع، باستثناء الولد الصغير الذي وقف وحيدًا يتوسط الجمعَ الغفير، عيناه مثل فقاعتين سوداوين قد تنفقئان في أي لحظة.

13

4 أكتوبر 1918

ماذا بوسع المرء أن يقول؟ ومع ذلك عليَّ أن أكتب شيئًا، فمهما كان مقدار ما أتذكره الآن قليلًا، سيصبح أقل في السنوات القادمة. وليس صحيحًا أن يقال إن المرء لا يتذكر شيئًا. ثمة الكثير مما تعلم أنك لن تنساه أبدًا، والقليل مما ستصلي كي تنساه فلا تستطيع. لكن الروابط تزول؛ فقاعاتٍ تنفقئ على السطح كما يحدث في الحفر الغارقة بالماء هنا، تلك الموجودة منذ سنين ولا يعلم إلا الله ما يقبع تحتها.

ليلةَ الأول من الشهر، كما *أظن* (فالتواريخ تزول من الذاكرة هي الأخرى)، أمضينا الليلَ بأكمله مستلقين في خندق بعمق قدمٍ واحد: مكافأة النجاح، فهذا كان خندقًا *ألمانيًا*. عدم وجود قواتٍ بريطانية على ميسرتنا كان مكافأة أخرى على النجاح، فقد تقدمنا عليها كلها. أظنني أُصيب إذ أقول إننا كنا الوحدات الوحيدة التي اخترقت خط هيندنبيرغ وحافظت على الموقع. كان الظلام دامسًا، أولَ المساء، وكنا نتوقع هجومًا مضادًا عند الفجر. وحتى يحين ذلك لم يكن ثمة ما يمكن فعله سوى الانتظار، محصورين بشكل لا يطاق ومكشوفين بشكل لا يطاق في آنٍ معًا، نطلق النار من الرشاشات على طول الجهات الثلاث. قلت «محصورين»، وهذا ليس تعبيرًا مجازيًّا، فالخندق لم يَعْدُ عن كونه كشطًا طفيفًا في التربة، أدنى حركة طائشة تكلف ثمنًا باهظًا. وكنا

نرتدي أقنعة الغاز لشطرٍ كبيرٍ من الوقت، فقد أقام طرفُنا ستارًا غازيًا كثيفًا جدًا وبقي الغاز عالقًا في الجو. المنطقة كلها كانت تفوح برائحةِ محاولةِ انتحارٍ فاشلة، وظللتُ أسمع صوتَ سارا وهي تقول متحدثةً عن جوني: كان *غازنا* نحن، *غازنا اللعين* نحن *لا غيرنا*. وعلى الرغم من كل التدريبات، تأخر بعضُ الرجال في ارتداء أقنعتهم، وتأثر واحد أو اثنان منهم تأثُّرًا بليغًا، ثم قرر أوكشوت أن يصاب بنوبة هلع. زحفتُ نحوه، ولم أمُر قرب الآخرين، بل فوقهم، مثل أنقليس يتلوى فوق رفاقه في الحوض، وحاولت أن أهدئ من روعه. أتذكر أنني انفجرتُ ضاحكًا في لحظةٍ ما، لا أستطيع أن أتذكر لماذا، لكن ذلك أحسنَ إليَّ. ثمة نوعٌ من الضحك الغاضب يعيدك إلى مركز نفسك. تقاسمتُ لوحَ شوكولاتة مع لونغستاف، وربضنا معًا تحت معطفي الطويل نحاول أن نحافظ على الدفء. ثم جاء الهجوم المضاد.

هنا تنفقئ فقاعتان اثنتان: انزلاقُ لونغستاف إلى داخل الخندق من جديد وفي جبينه ثقبٌ أحمر وعلى وجهه تعبيرُ مفاجأةٍ خفيفة، والالتحامُ بالحربة، الذي لن أتذكره. كان ريڤرز ليقول: تذكر *الآن*، كل الذكريات المكبوتة تخزن المتاعبَ للمستقبل. طيب، أنا آسف. رفضُ التفكير هو الطريقة الوحيدة كي أنجو، وعن أي مستقبل نتحدث على كل حال؟

الوضع برمته كان بيئةً خصبةً للانهيار، وفقًا لكلام ريڤرز. مساحة محصورة، انعدامٌ للحركة، عجز، هجوع، خطر مستمر ليس بيدك شيءٌ حياله. غير أن أعصابي تبدو على ما يرام، أو على الأقل ليست أسوأ من أعصاب غيري. أذهاننا جميعًا تحوم بين الغيوم، كلٌّ يحاول التوصلَ إلى تسويته الخاصة مع ما رآه، وما فعله، لكن ظواهرنا لا تُبدي سوى المرح الصاخب. إننا نزحف عائدين، عبر القِفار المهجورة نفسها، لكن نحو الأمان، فقد تجاوزتنا كتيبةٌ أخرى وحلَّت محلنا على خط القتال. وكلما حطت قدمي اليمنى على الأرض أقول: *انتهى، انتهى، انتهى*. لأن الحرب متجهة نحو نهايتها، وجميعنا نعرف هذا، وأحد الأسباب التي ستجعلها تنتهي هو ما فعلناه نحن. نحن من اخترق الخط. نحن من أحكم السيطرة على الموقع.

5 أكتوبر

أظن أن الوقت الأسوأ هو ذاك الذي أعقب الهجومَ المضاد، حين ظللنا منبطحين في ذلك الخندق طوال النهار مُحاطين بالموتى. كان لونفستاف ما يزال بجانبي، غير أن تعبيره تغير بعد الموت، تلاشت النظرة المتفاجئة. وكنا نستمع إلى الجرحى يئنون في الخارج. تطوع اثنان من حمَلة النقالات للخروج فأُرْديا حالما نهضا واقفَين، ثم حاول ثالثٌ لاحقًا. بعد ذلك قلت: كفى، لا ينهضنَّ أحدُكم. ومع حلول أول الليل، كان الأنين قد انقطع بمعظمه. زحف بعضُ ذوي الإصابات الخفيفة إلينا تحت جُنح الظلام، فضمدنا جراحهم بأفضل ما استطعنا. لكن هناك رجلٌ ظل يئن ويئن، لم يبدُ صوتَ كائنٍ بشريٍّ، ولا حتى حيوان، بل نوعٌ من القرقرة البلعومية أشبه ببالوعة مسدودة.

قررتُ أنه يحسن بي أن أجرب بنفسي، وأخذتُ لوكاس برفقتي. ليس الأمر كما يكون اعتلاءُ المتراس في العادة، أن نتسلق إلى خارج الخندق اللعين، بل هو مجرد انزلاق سريع عبر الأسلاك الشائكة التي علقت أكمامُنا بها، قبل أن نجد نفسَينا في الوحل. أحسست بالبرودة على وجنتي، وبالمساحة الشاسعة في الأعلى، ذلك الإحساس الذي ينتابك دائمًا حين تنبطح في العراء وتحس بكوكب الأرض كُرةً تدور في الفضاء. كان ثمة وقتٌ للإحساس بهذا، على الرغم من الرصاص، الذي لم يكن على أي حال يرعبني بقدر فكرة أن تتعين عليَّ رؤيةُ ما يُصدر ذلك الصوت.

قادتنا القرقرةُ إليه. كان مرتميًا في منتصف المنحدر الجانبيِّ لحفرة ملأها الماء، ورائحة الغاز أقوى هنا، كما تكون دائمًا قرب المياه. حالما هممنا بالنزول انهال الرصاص على سطح الماء -*بلوب*، *بلوب*، *بلوب*، صوتٌ بريءٌ كالذي تسمعه عندما تُنطط حجرًا مفلطحًا على وجه نهر- ونقرت عدةُ طلقاتٍ الحافةَ في الموضع الذي كنا فيه قبل ثانية واحدة، فتساقط الترابُ الرخو خلفنا. تغيرت القرقرة مع اقترابنا، إذ عرف أن شيئًا مختلفًا يحدث. لا أظن أنه كان يستطيع أن يعرف أكثر من ذلك. وصلتُ إلى قدميه وبدأت أفتش عن إصابات في الساقين؛ لا شيء، غير أنني لم أتوقع وجود شيء أصلًا، فذلك الصوت لا يصدر إلا بسبب إصابة في الرأس. ما جعل الأمرَ أسوأً قليلًا هو أن الجانب الأقرب إليَّ من رأسه كان سليمًا. أوصاله ترتعش بكاملها، وجلده أزرق

في ضوء النجوم كما جلدنا، لكن لون جلده هو كان غامقًا نتيجة الصدمة. قلتُ: «هاليت»، فتوقفت القرقرة لحظة. أشرتُ إلى لوكاس فساعدني كي أقلبه أكثر ليصير على ظهره، وحينها رأينا الإصابة. الدماغ مكشوف، الكثير من الدم، الكثير من الأشياء التي ليست دمًا على طول جانب العنق. إحدى العينين تَلِفَت. ثقبٌ -كنتُ سأقول في وجنته اليسرى- حيث كانت وجنتُه اليسرى. كان ثمة شيء يحترق، باعثًا نحو السماء ضوءًا برتقاليًّا انعكس علينا؛ إنها المزرعة التي كانت إحدى نقاطنا المرجعية. لقد صبغت ألسنةُ اللهب الوجوهَ السفلية للغيوم بلونٍ برتقاليّ.

مرّرنا حبلًا من تحته، وبدأنا نسحبه عبر الحفرة، نحو المنحدر الجانبيّ المقابل، ثم نحو خندقنا. وكنتُ أقول لنفسي طيلة الوقت: ما جدوى هذا؟ سوف يموت على أي حال. أظنني فكرتُ في قتله. وفي إحدى اللحظات، صرخ فرأيتُ حشوات أضراسه وامتلأ فمُه دمًا. بعد ذلك هدأ، وبات الأمر أسهل. لكن سرعان ما ارتفع وهجٌ، فشحب كلُ شيء في الضوء الراعش. أولاد الحرام، أولاد الحرام، أولاد الحرام، رحتُ أردد في قرارتي. سمعتُ حركة، وإذا بوجهٍ أبيض ينظر من فوق حافة الحفرة. إنه كارتر، الذي اكتشفت لاحقًا أنه خرج خلفنا بمبادرة شخصية محضٍ منه. كان هذا العددَ المناسب تمامًا، فلو أننا أكثر من ثلاثة لأخذنا نعترض طريق بعضنا. تمكنا من جره إلى الخندق تحت رصاصٍ كان -للأمانة- أقلَّ غزارةً مما مضى، لكن ليس عن عمدٍ كما أظن، إذ لم يكن أيٌّ من الطرفين ذلك اليوم يُظهِر من الرحمة ما يُتيح بادراتٍ كهذه.

هَوَينا إلى داخل الخندق، وسقط هاليت فوقنا. أحسستُ بشيءٍ رطب على وجهي لم يكن وحلًا، وإذ مسحتُه وجدتُ شقفةً من دماغ هاليت بين رؤوس أصابعي. لأنه كان هادئًا في القسم الأخير من طريق العودة، توقعتُ أن أجده غائبًا عن الوعي أو ميتًا، لكنه لم يكن هذا ولا ذاك. أعطيتُه شربةَ ماء، وتعيَّن أن أضغط بيدي على وجهه كي تنزل إلى بلعومه، وإلا كانت ستخرج من الثقب. وكنت أقول في قرارتي طوال تلك العملية: «هلَّا مُتَّ؟ حبًّا بالله يا رجل، مُتْ وأنهِ الأمر». بيد أنه لم يمت.

حين أُمِرنا بالتراجع أخيرًا، أتذكر أنني حدقتُ إلى السماء فرأيت النجومَ متناثرة وشاحبة خلف غشاوةٍ من الضوء المخضر، وأنني قلت لنفسي: «حمدًا

لله أنه المساء»، لأن القذائف كانت ما تزال تتوارد، وبعضها يسقط على الطريق مباشرةً. على الأقل سنُتِمُّ زحفَنا والوقتُ يقترب نحو الأمان النسبيِّ الذي يتيحه الليل.

تشبثَت الشمسُ بشفة الأفق، مالئةً السماء. لا أدري إن كان هذا بسبب الزاوية أم الدخان المنتشر الذي يكاد يحجبها، لكنها كانت عملاقة. المشهد برمته بدا شيئًا لا يمكن أن يحدث على كوكب الأرض؛ الشمس من جهة، ومن جهة أخرى انعدامُ الحياة التام في الأرض المحيطة بنا، الملأى بالتقعرات والحيود الصخرية وحُفر القذائف ذات الرائحة النتنة والأسلاك الشائكة المنتشرة مثل خربشات. ما من طيور حتى، ولا حتى آكلات جيف. حتى الغربان ملَّت واستسلمت. ورحتُ أسير متعثرًا في مقدمة السَّرية، وانتظرت أن تغرب الشمس. لكن اللعينة لم تفعل، **بل أشرقت**. لم أكن وحدي في ذلك؛ دُرتُ بنظري على الآخرين فرأيت الانشداهَ نفسه على كل وجه. كنا لم نَنَم منذ أربعة أيام. التعب من هذا النوع عالمٌ آخر، تمامًا مثلما لا تكون الضجةُ، ضجةُ القصف، كأي ضجةٍ أخرى. ترى الناس يخوّضون فيها، يشقون طريقهم عبرها بأجسادهم. أعتقد صدقًا أن لغة أخرى ستتطور لو استمرت الحربُ مئة عام، لغة بوسعها أن تصف صوت القصف أو طنين الذباب في يوم حارٍ من أغسطس على ضفاف السوم. ما من كلمات. ما من كلمات تعبر عن شعوري عندما رأيت الشمسَ الغاربةَ تشرق.

6 أكتوبر

لقد تراجعنا مسافةً تسمح للضباط من السرايا المختلفة أن يتناولوا الطعام معًا من جديد. أنا جالس إلى طاولة صغيرة متقلقلة أراجع الرسائل لأغراض رقابية، فقد وصل البريد، متضمنًا رسالةً إليَّ من سارا تقول إنها ليست حبلى. لا أعرف ما الذي أشعر به بالضبط. يُفترض بي أن أكون فرحان وأنا كذلك طبعًا، بيد أن هذا لم يكن ردة الفعل الأولى. لقد مرت لحظة خاطفة ساد فيها شيءٌ آخر، قبل أن يضرب شعورُ الانفراج أطنابَه.

هنالك رسائل تصل إلى الموتى. أتفقَّد الأسماء على القائمة ثم أكتب «متوفًى» بيدٍ جريئة ثابتة في الزاوية العلوية اليسرى. لقد كانت الخسائر كبيرة، ليس في الهجوم الأولي بقدر ما هو في الهجوم المضاد.

غريغ مات متأثرًا بجراحه. أتذكره يريني رسالةً من الوطن كان عليها «قُبلات» كبيرة بقلم شمع أحمر من ابنته الصغيرة.

من بين الرجال الذين تقاسمتُ معهم المنزل في أميان قبل شهر لا أكثر: پوتس مصاب، لكن من المحتمل أن ينجو. جونز (خادم أوين) مصاب، من المحتمل أن ينجو. جراح هاليت بليغة إلى درجةٍ لا أظن معها أن نجاته ممكنة. أراه أحيانًا مستلقيًا في بِركة الزنابق في الحديقة والسمكُ الذهبي يسبح مثل السهام حوله، وعلى فخذيه صفوفٌ فضية من الفقاعات. نقشٌ بسيطٌ أكثر مما هو صورة، لا عمق فيه، لا منظور، لكنه متألق الوضوح. ولونغستاف ميت.

كان لسيدِ فايف زوجة. أين هي الآن؟[1]

أنظر إلى الطرف المقابل نحو أوين، الذي يُعِد تقاريرَ الخسائر وسيجارةُ وودباين (باتت متوفرة بكثرة من جديد، والحمد لله) عالقة بشفته السفلية، وشعره -المسترسل إلى حدٍّ ما في هذه اللحظة- منطرحٌ على جبينه. لقد ظل يتنقل في الأنحاء وعلى سترته دم متيبس طوال أيام بعد المعركة، لكن أنا كذلك كان عليَّ دمٌ وشقفٌ من دماغ. لا بد أن رائحتنا كانت مثل رائحة بواليع مسلخ، غير أننا ما عدنا نشم روائح بعضنا منذ وقت طويل. يبدو شبيهًا بالصِّبية الذين تراهم عند زوايا الشوارع في الطرف الشرقيّ، مستعدًّا لقبول العروض، ولا بد أن أقول إنني ما كنت لأمانع. يرفع رأسه، شاعرًا أنه محط نظراتٍ متمعنة، فيبتسم ويدفع السجائر نحوي. لقد رأيته خلال الهجوم، متسربلًا بالدماء من رأسه إلى أخمص قدميه، يستولي على مدفعٍ رشاشٍ ويديره نحو مالكه السابق من كثب. كأنك تقتل سمكةً داخل دلو. وأتساءل إذا ما كان يرى تلك الوجوه، تلك الوجوه الرمادية ذات الأفواه المفتوحة، والحياة تُعتصَر منها قبل أن تصيبها الرصاصة، مثلما أرى وجوه الرجال الذين قتلتُهم في الهجوم المضاد. لن أسأل، فهو لن يجيبني إن فعلت. ما كنتُ لأتجرأ أن أسأل. هذه أول مرة يخطر لي فيها أن عمل ريڤرز أيضًا يتطلب شجاعة.

---

(1) من مسرحية «مكبث» لشكسبير، ترجمة: حسين أحمد أمين. (المترجم)

نحن لا نأتي حتى على ذِكر موتانا. الأيام تمضي مكتظةً بأحداث لا معنى لها، والنسيان أسهل. أُمرِّر أنملة إبهامي على السبابة والوسطى من يدي اليمنى حيث علقت شقفةٌ من دماغ هاليت، ولا أحس بشيء يُذكَر.

نحن قصصُ نجاحِ كريغلوكهارت. *انظروا إلينا*. لا نتذكر، لا نحس، لا نفكر... على الأقل لا نفعل أيًّا من ذلك إلا ضمن حدود ما هو لازم لإنجاز العمل. وفقًا لأي معيارٍ متحضرٍ لائق (لكن ما معنى *هذا الآن*؟)، نحن أهدافٌ سائغةٌ للرعب. بيد أن أعصابنا ثابتة تمامًا، وما نزال أحياء.


القسم الثالث

14

قتالٌ دون طائل

كلا الطرفين يدفع الثمن
الهون ينتظرون الحربة

لا بد أن پراير كان بين الذين شهدوا هذا، فكر ريڤرز. أخذ الصحيفةَ عن صينية فطوره، وبذل جهدًا حقيقيًّا كي يركز. كان واضحًا، حتى من خلال هذا التقرير الحماسيّ، أن الخسائر كبيرة. لا جدوى من تفقُّد قوائم الخسائر الآن، فأسماء الأفراد تستغرق أسبوعًا على الأقل حتى تُنشر. لكن بوسعه على الأرجح أن يترقب بطاقةَ بريدٍ ميدانية خلال الأيام القليلة القادمة، إن كان پراير على ما يرام. لقد بدا بحالٍ جيدة في رسالته الأخيرة، لكن هذا كان قبل عشرة أيام.

في أثناء قراءته لها، شعر ريڤرز بوخزة الحسد التي تنتابه دائمًا لدى تلقِّيه رسائل من رجال يخدمون في فرنسا. إن كان لا بد لهذه الحرب الدنيئة أن تحدث، فهو يفضل أن يقضيها برفقة «مارشال ذي الإصابات العشر» عوضًا عن «تيلفورد ذي القضيب المخلل». حاول أن يركز على تفاصيل الاشتباك، لكن الأحرف كانت تتغبش أمام عينيه. وبيضته المسلوقة -مع أن الله وحده يعلم كم كلف شراؤها السيدةَ إيرڤينغ- تنزل على معدته مثل

الرصاص، واعتقد حقًا أنه سيستفرغ إن أجبر نفسه على تناول لقمة أخرى منها. نزع نظارته، وضعها على الكوميدينا وأبعد الصينية. كان يقصد فقط أن يستريح قليلًا قبل أن يبدأ من جديد، بيد أن أصابعه ارتخت وأخذت ترتعش على اللحاف، وبعد بضع دقائق، انزلقت الصحيفة -بعناوينها الصارخة عن معارك بعيدة- إلى الأرض متنهدة.

كانت جمجمةُ نغيا، المحشورة بين شعبتَي عصا مشقوقة، تبهت في الشمس. أخذت ذبابةٌ زرقاء وحيدة تحوم بطنينٍ مسموع داخل محجريها وحولهما، ولما لم تجد ما يثير اهتمامها أبحرت مبتعدةً في السماء الزرقاء.

في طريقه إلى الشاطئ كي يستحم، توقف ريڤرز لينظر إلى الجمجمة. لقد تحدث إلى هذا الرجل قبل شهر واحد لا أكثر، بل حتى أمسك يده لحظة عند الوداع. لا عجب أن يرتدي سكان الجزيرة قلائدَ من ورق البيبيو ليحموا أنفسهم من الـ «*توماتي غاني يامبو*»: الروح التي تأكل الجثث.

في وقت لاحق من النهار نفسه، رأى الصبيَّ الصغير الذي أحضره ليمبو معه من جزيرة إيزابيل مقرفصًا بهمة فاترة خارج كوخ نْجيرو، يعبث بالتراب بعصا صغيرة. لم يكن يبكي، لكنه بدا دائخًا. يقولون إنهم اشتروه، إلا أن ريڤرز يميل إلى عدم تصديق ذلك. في هذه الجزر، التي ما تزال عبارة عن مجتمعات محاربين رغم إلغاء صيد الرؤوس، لا تُقدِم العائلات مهما بلغ بها الفقرُ على التخلي عن أحد أبنائها طوعًا. الخطف هو الاحتمال الأرجح. راقب الولدَ عدة دقائق، يريد أن يذهب إليه، لكنه يدرك أن مظهر رجل أبيض غريب لن يزيده إلا خوفًا.

«هل سيقتلونه؟»، قال هوكارت وهو يستلقي في سريره أرِقًا تلك الليلة.

- كلا، لن يفعلوا هذا. سيتعين عليهم أن يقتلونا نحن أيضًا.

- ربما لن يثير هذا قلقهم.

- لكن ردة فعل المندوب ستقفل.

لكن بعد أن غط هوكارت في النوم بصعوبة، وراح يرتعش ويتمتم، ظل ريڤرز مستيقظًا يفكر أن سكان الجزيرة لن يواجهوا صعوبة بالغة إن أرادوا التخلص منهما. البِيض يموتون بسبب حمى البيلة السوداء طوال الوقت، ولا شك أن هنالك سمومًا تُظهِر الأعراض نفسها. ليس على المرء إلا أن ينظر إلى جمجمة نْغِيا كي يوقن أنه بحلول الوقت الذي ستصل فيه الباخرة التالية لن يكون قد تبقى منهما ما يكفي لإتاحة التحقيق. وعلاوةً على ذلك، الباخرة التالية ستكون باخرةَ بريننان، بما أنه هو التاجر المحليُّ، وهو لن يتوانى عن الفرار بأسرع ما يستطيع حالما يرى أي علامة تدل على المتاعب. كلا، ليس أمامهما سوى أن ينتظرا ويريا ما سيحدث، ويتوخيا الحذر.

في الصباح التالي، عندما وصل إلى القرية، كان الولد الصغير قد اختفى.

دُعيا إلى حضور مراسم وضعِ جمجمة نْغِيا في بيت الجماجم، وكان نْجيرو هو الذي يترأسها.

أيقظهما عند الفجر صراخ خنازير تُذبَح، وظلت أعمدة الدخان تتصاعد من نيران الطهو طيلة الصباح. حلَّت الظهيرةُ قبل أن تبدأ المراسم، وراحت الشمس تجلد الأكتاف والرؤوس بسِياطها. ثمة ناران تضاعفان الحرارة، النار القربانية في المجمرة أمام بيت الجماجم، ونار العوام حيث جلس ريڤرز وهوكارت بصحبة أناسٍ من القرية والكفور المحيطة بها. بحث ريڤرز بعينيه عن الولد الأسير، لكنه لم يره. كان ليمبو بجانبه يجدل شريطةً استخدمها لتثبيت عظم نْغِيا الفكي بجمجمته، قبل وضع إكليل من الصَّدَف على القحف والمزيد من الصَّدَف في المحجرين.

كانت الأجسام تتحرك متهدجةً بفعل الحرارة من خلف النار. هنالك امرأة تحمل رضيعًا بين ذراعيها؛ إنها نانجا، التي مات ابنُها في بيت النِفاس وتولت إرضاع كْويني، الرضيعةِ الهزيلة التي سبق أن رآها ريڤرز برفقة نْجيرو. كانت الطفلة تعضض الحلمة، ترضع بنهمٍ متنشقةً بصوت مسموع، وقد بدأت فخذاها الضامرتان تمتلئان بالفعل. قال لنفسه إنها ستعيش، وأبهجته الفكرة، فالأعين الغربية ترى في الجماجم المكدسة فوق بعضها صحبةً مكدِّرة.

رفع نْجيرو جمجمةَ نْغِيا المُكلَّلة فوق رأسه، فخيَّم صمتٌ لم يقاطعه سوى صيحات الأطفال غير المبالية، لكنهم كانوا على بُعد مسافةٍ من المكان. استطاع ريڤرز أن يتتبع معظم كلمات الصلاة التي يرددها نْجيرو دون حاجة إلى مترجم. «نقدم العصائد، نقدم لحم الخنزير. إليكِ أيتها الأشباح. كوني محضرَ خيرٍ في الحرب، كوني محضرَ خيرٍ في معارك البحر، كوني محضرَ خيرٍ في المعاقل، كوني محضرَ خيرٍ في حرقِ القش. استقبلي الزعيمَ الميت...»، وهنا وضع نْجيرو جمجمة نْغِيا في بيت الجماجم، «وكوني محضرَ خيرٍ واسحقي أعداءنا. أوه، أوه، أوه!».

إنها صلاة من أجل النجاح في غارة صيد الرؤوس الكبيرة التي كان يُفترض بها أن تُنهي الحِداد على الزعيم الميت بإقامة الـ *«ڤاڤولو»* -أي المهرجان الليلي- الذي تكون فيه كل النساء الشابات متاحات بالمجان -توغيلي- لجميع المحاربين العائدين. لكن الغارة لن تحدث، لذا لا يمكن أن تُستجاب الصلاة. وضع نْجيرو لحم الخنزير وعصيدة البطاطا الحلوة في النار القربانية، التي كان لهبُها يضيء بفتورٍ في نور الشمس. ثم أخذ ما تبقى من العصيدة ودارَ على الأحجار المتحلقة حول الفسحة، واضعًا لقمةً منها على كل حجر. كانت هذه الأحجار تُسمى *توماتي پاتو*، أي الأشباح الحجرية، وتُقام بمنزلة أنصاب تذكارية للرجال الذين ماتوا ولم يكن من المستطاع إعادةُ جثامينهم إلى الوطن. راح ريڤرز يراقبه وهو ينتقل من حجر إلى آخر.

كان لا بد من حظر صيد الرؤوس. ومع ذلك، آثار هذا الحظر واضحةٌ في كل مكان، تنعكس في الكسل والبلادة اللذين يسودان حياة الناس. صيد الرؤوس هو ما كانوا يعيشون من أجله. ورغم أن قول هذا قد يبدو جلفًا أو أرعن، فقد كان صيد الرؤوس مصدر *المرح* الأكبر، وفي غيابه فقدت المعيشةُ كل حيويتها تقريبًا.

هذا شعبٌ يضمحل بسبب غياب الحرب. الأمر ظاهرٌ في مخططات الأنساب؛ تراجعُ معدلات الولادات من جيلٍ إلى الذي يليه (عدد سكان الجزيرة أقل من نصف ما كانَ عليه في شباب ريناميبسي)، وكثيرٌ من هذا التراجع كان عن عمد.

أمام يأسٍ كهذا، ألا يمكن أن تتعذر مقاومة الإغراء الكامن في قطف رأسِ صغيرٍ واحد تكريمًا لزعيم ميت؟ غارات، كلا، ليس بوسعهم فعل هذا، فالعقوبة قاسية جدًّا. لكن من ذا الذي سيفتقد ولدًا صغيرًا واحدًا؟

أكل ريڤرز ما قُدِّم إليه من البطاطا المخبوزة واللحم، لكنه ظل مستغرقًا في التفكير. وللحظةٍ رفع رأسه فرأى نْجيرو على الطرف المقابل من النار، شكلًا طويلًا ناحلًا يتلوى متهدجًا في حرارة اللهيب، وضبطَ على وجه الرجل تعبيرًا يشي بـ.. الخصومة؟ لا، بل حتى أقوى من ذلك. إنها الكراهية.

كوندايتي يستطيع ترجمة الـ «*توك بلونغ توماتي*»: لغة الأشباح. قال إن اجتماعًا يُعقَد أحيانًا ليلةَ قدوم الأشباح القديمة لاصطحاب الشبح الجديد إلى سونتو، وهو يطرح الأسئلة على الأشباح فيسمعهم الناس يتكلمون. أيمكن فعل هذا في حالة نْغِيا؟ سأله ريڤرز، فقال كوندايتي إنه لا يعلم، ليس متأكدًا، لا يظن. أيمكن تنفيذ ذلك إن أعطيناك عشرة عيدان تبغ؟ أومأ كوندايتي برأسه. أُعطي خمسة ووُعِد بالخمسة المتبقية في الصباح التالي. هل سيسمعون نْغِيا يتكلم؟ سأله هوكارت، وكان الجواب لا، «نْغِيا لا يحكي بعد، هو مثل ولد صغير». بدا القلق على كوندايتي وهو يتشبث بعيدان التبغ خاصته. «لا تخبر نْجيرو»، قال أخيرًا.

التقوا جميعهم عند الغروب في ما كان إيوانَ نْغِيا، وجلسوا متربعين حول النار، التي أُشعِلَت بأعواد خضراء ما جعل الدخان يتصاعد منها بكثافة. أخذوا يسعلون ودمعت أعينهم. انتظروا، ولم يحدث شيء. كان الظلام مطبقًا في الخارج، إذ لم يبزغ القمرُ بعد. جلبت نانجا أعوادًا جافة، ولقمت النارَ بمهارة عودًا تلو الآخر، إلى أن طقطقت ألسنةُ اللهب واشتدت. بكت كْويني، فراحت نانجا تهزهزها وتهدئ من روعها. كان ثمة أطفال أكبر سنًّا يجلسون في ضوء النار بأعين وسّعتها الدهشة، وأحس ريڤرز بجفنيه يثقلان، فهو مستيقظ منذ الفجر يمشي أميالًا في الحر. راح يرمش بشدة، حاملًا نفسه على تنقيل نظره حول الحلقة. إيميلي -أو نامبوكو إيميلي كما يجب أن تُنادى الآن- كانت موجودة، ترتدي قماشَ لحاءٍ بُنيًّا دون جير ولا قلائد. أما نْجيرو فليس هنا،

وغيابه مفاجئ بالتأكيد، كونه هو الذي تولى وضع جمجمة نْغِيا في بيت الجماجم.

دخل كوندايتي وجلس قربَ الباب داخل الكوخ. أُطفِئَت المصابيح اليدوية بطلبٍ منه، لكن ريفرز ظل يرى الوجوه بوضوح، ضوءُ النار يلعب عليها وينيرها. حط الصمت، وازداد عمقًا، ثم ازداد عمقًا على عمقه. أغمض كوندايتي عينيه وبدأ يئن بصوتٍ مسموعٍ بالكاد. راقبه ريفرز متشككًا، يتساءل إذا ما كانت محاولة استجلاب حالة الغشية هذه صادقةً أم مجرد تمثيلية متكلفة. على حين غرة، بدا أن كوندايتي استفاق. وضع ثلاثة عيدان تبغ في النار بمنزلة قربان، وهو يقول بنبرة عابرة إن الأشباح في طريقها من سونتو. صمتٌ طويل. لا شيء يحدث. اقترح أحدهم أن الأشباح قد تكون خائفة من كلب يقعي قرب النار. رفع الحيوان رأسه لدى سماعه اسمه، ثم قرر أن لا شيء يستدعي القلق فعاد إلى وضعه متنهدًا. قال آخرون إن الأشباح خائفة من البِيض.

كان ظهرُ ريفرز وفخذاه تؤلمه من جلوس القرفصاء. فجأةً قال كوندايتي: «اسمعوا، الزوارق». بدا واضحًا، بتنقيل النظر على حلقة الجالسين، أنهم يسمعون حركة المجاذيف. تمازجت البهجة مع الأسى على الوجوه كلها، وبدأت إيميلي نحيبًا موسيقيًا تتميز به النساء، بيد أنها توقفت عندما رفع كوندايتي يده.

صمتٌ متوتر. ثم راح شخصٌ يصفر، وكان تحديد مصدر الصوت صعبًا على نحوٍ غريب. أخذ ريفرز يجول بعينيه على الوجوه، لكنه لم يستطع أن يتبين من الذي يصدر الصوت. شرع الحاضرون ينادون أسماء، مألوفةً له من مخططات الأنساب، كلٌّ ينادي اسمَ قريبٍ له مات مؤخرًا، والبعض ليس مؤخرًا جدًّا. نامبوكو تارو نادت جدتها، ثم نودِيَ اسم «أوندا» وسُمِع الصفير مجددًا. استطاع ريفرز أن يرى هوكارت ينقّل نظره في أنحاء الغرفة هو الآخر، محاولًا تحديد الشخص الذي يصدر الصفير.

تبع ذلك نقاشٌ حول الرجلين الأبيضين، وكان كوندايتي يترجم صفير الشبح. من هذان الأبيضان؟ لماذا هما هنا؟ لماذا يريدان سماع لغة الأشباح؟

سأل كوندايتي: هل تعترض الأشباح على وجود البِيض؟ «ماذا سنفعل إن قالوا «أجل»؟»، سأل هوكارت دون أن يحرك شفتيه. «نخرج على الفور».

إلا أن الأشباح لم تعترض. قال أوندا صافرًا إنه لم يسبق له أن رأى رجالًا بيضًا، فأشار كوندايتي إلى ريڤرز وهوكارت. حلَّ الصمتُ على أوندا، إذ بدا قد رضي. تلا ذلك قدومُ والد كوندايتي، واسمه أيضًا كوندايتي، وطلبَ تبغًا. وضع كوندايتي الحيُّ عودَيه الأخيرين في النار وهو يقول: «إليك التبغ يا كوندا، دخِّن وغادِر». نامبوكو روپي، والدةُ نْغِيا، هي التي تكلمت بعد ذلك، قائلةً إنها جاءت لتأخذ نْغِيا إلى سوننتو. تبع ذلك أقرباء آخرون لنْغِيا. وفي النهاية قال كوندايتي إن نْغِيا نفسه في الغرفة.

ساد صمتٌ أعمق، وأحسَّ ريڤرز بالشعر ينتصب على ذراعيه. بدأت نامبوكو إيميلي تنتحب على زوجها، فقال كوندايتي: لا تبكي، إنّه ذاهب إلى سوننتو؛ تقول والدة نْغِيا إن عليه الذّهاب الآن، عليه أن ينفخ في القوقعة ويأتي إلى سوننتو. عندئذٍ كان الصفير يملأ الغرفة، ينزلق صعودًا ونزولًا على الجدران وفي كل أنحاء الأرضية. أحيانًا، بدت الأصوات أشبه بتموجات تسري على الجلد. بدأت نامبوكو إيميلي الانتحاب من جديد، وانضمت إليها النسوة الأخريات. «لا تبكين»، قالت والدة نْغِيا مجددًا على لسان كوندايتي: «لقد جئتُ كي آخذه إلى سوننتو». ثم قال كوندايتي إن نْغِيا نفخ في القوقعة. سمع النفخةَ كلٌّ من في الغرفة باستثناء ريڤرز وهوكارت، ثم تلاشى الصفير وساد الصمت، في ما خلا بكاء النساء ونحيبهن الموسيقي.

بعد ذلك بعشر سنوات، ألقى ريڤرز الملاءات الساخنة عن جسده، وراح يفكر أن الأسئلة التي طرحتها الأشباح كانت جميعها أسئلة يريد الأحياءُ إجاباتٍ عنها. ما الذي كان الأبيضان يفعلانه على الجزيرة؟ هل كانا غيرَ مؤذيَين كما يبدوان؟ لماذا أرادا أن يسمعا لغة الأشباح؟ هل يمكن أن يشكل وجودُهما إساءةً إلى الأرواح؟

في كريغلوكهارت، حين كان ساسون يحاول أن يقرر إذا ما كان ينبغي له أن يتخلى عن احتجاجه ويرجع إلى فرنسا، استيقظ ذات مرة ليجد شبحَ أحد رفاقه الموتى واقفًا عند سريره. ومنذئذٍ، في أكثر من مناسبة، تجمعت عنده

شخوصٌ مبهمة خارجة من العاصفة وسألته: لماذا هو ليس في خط القتال؟ لماذا أعرضَ عن رجاله؟

لم تكن الأشباح محاوَلةً للتملص، فكر ريڤرز، لا لدى سيغفريد ولا لدى أهالي الجزيرة. بل على العكس، صارت الأسئلة أكثرَ إلحاحًا، وأشدَّ سطوةً، نتيجة إسقاطها على الموتى وطرحها على لسانهم.

في طريق عودتهما إلى الخيمة، ودائرةٌ من ضوء المصباح اليدويِّ تتمايل حول أقدامهما، وكتفاهما ترتطمان ببعضهما في محاولتهما للبقاء جنبًا إلى جنب على الطريق الضيق، تحدَّث ريڤرز وهوكارت عن جلسة استحضار الأرواح. وتلك العبارةُ سانجة لا تبدو لائقةً بالمناسبة، غير أن ريڤرز لم يستطع التفكير في كلمات أفضل.

«من الذي كان يصفر؟»، سأله هوكارت.

«لا أدري».

لقد أثرت المناسبةُ فيه بطريقة لم يكن قد توقعها قط حين جلسوا قرب تلك النار. تحدَّثا في الأمر بعضَ الوقت، يحاولان استيضاح تسلسل الأحداث في ذهنيهما، إذ لم يكن بوسعهما تدوين الملاحظات وقتها. ثم قال ريڤرز: «نْجيرو لم يكن موجودًا».

«أجل، لاحظتُ ذلك».

حين صارا في الخيمة، قال هوكارت: «أأشعلُ مصباح الزيت؟».

«كلا، لا تُتعِب نفسك. بالنسبة إليَّ على الأقل، فأنا لا أطيق انتظارًا حتى أخلد إلى السرير». كان يفك إبزيم حزامه وهو يتكلم، ويحك الجلد الذي يخزه العَرق المحبوس هناك. ركل بنطالَه جانبًا واستلقى على السرير، ليصيح بعالي الصوت إذ خبط رأسُه بشيء صلب وبارد. سلط هوكارت المصباحَ اليدويَّ نحوه، وبدا وجهه أبيضَ خلف حزمة الضوء. على الوسادة، حيث ينبغي لرأس ريڤرز أن يكون، كانت فأس. التقطها ريڤرز ورفعها أمام الضوء؛ النقوش على المقبض دقيقةٌ إلى حدٍّ ما قياسًا بمعايير الجزيرة، وقرب النصل عقدةٌ، عيبٌ في الخشب.

«لا بد أن أحدًا تركها»، قال هوكارت غيرَ واثق.

- أجل، هذا واضح.

- لا، أعني من غير قصد. كائنًا من كان، سيعود من أجلها في الصباح.

«آمل ألا يحدث هذا»، أجاب ريڤرز بنبرة جافة: «هذه فأس نْغِيا».

«هل أنت متأكد؟».

أشار ريڤرز إلى العقدة في الخشب. «أجل، أتذكر هذه، لقد لاحظتُها حين وضعوها في الـ «*إيرا*» معه»، مرَّر يده على النصل: «لا، أخشى أننا كنا نسأل الكثير من الأسئلة المربِكة. هذا تحذيرٌ لنا».

15

10 أكتوبر 1918

ها قد عدنا إلى داخل الكبائن المصنوعة من الحديد المموج مجددًا، وهي جافة لكن المخابئ الخندقية مريحة أكثر منها في ما خلا ذلك. لقد استطاع أوين بطريقة ما أن يلصق صورةً لسيغفريد ساسون على جدار كبينته، صورة تُظهِر ساسون في طِرازٍ بايرونيٍّ[1] واضح كما ينبغي أن أقول، وليس الساسون الذي أتذكره، راكضًا عبر الدهليز الرئيسيّ في كريغلوكهارت وجعبةُ مضارب الغولف على ظهره، مصممًا بعنادٍ على الخروج من هناك في أسرع ما يمكن. وقفتُ أحدق إليها فاغرًا فمي، وإذا بي فجأةً في غرفة ريڤرز من جديد، أشاهد شمسَ نهاية الأصيل تومض على نظارته خلال واحدٍ من فواصله الصامتة التي لا تنتهي. صمتُ ريڤرز لا يكون بقصد المناورة (أما صمتي فبلى، دائمًا)، هو لا يحاول به أن يجعلك تقول أكثر مما تريد، بل يحاول خلق مساحة آمنة حول ما سبق وقلتَه، كي يتسنى لك أن تفكر فيه دون أن تتغوط على نفسك. الستائر البيضاء الرقيقة تتهادى مع النسيم، وصوت المضارب يجيء من ملاعب التنس متناوبًا، إلى أن يخطئ أحد اللاعبين الضربة فيقطع الإيقاع.

---

(1) نسبةً إلى اللورد بايرون، جورج غوردون بايرون (1788–1824)، وهو شاعر بريطانيٌّ من رواد الحركة الرومانسية. (المترجم)

لقد قال أوين -بترددٍ- شيئًا لم أسمعه جيدًا، شيئًا بمعنى أنه ينبغي لنا نحن «الكريغلوكهارتيين القدامى» أن نتلاحم. مر وقتٌ كان فيه هذا الكلام ليجعلني أتقيأ. لطالما شعرت، وأنا أراقب أوين في كريغلوكهارت، أنه يعيش نوعًا من الخيالات المشتهاة، أنه يحظى بتعليم المدارس العامة الذي فاته. وكنت أرغب دائمًا أن أقول: إنه مستشفى مجانين يا أوين، من تظن نفسك تخدع؟ ما عدت أشعر بذلك الآن، ربما لأن كريغلوكهارت كانت تجربةَ إخفاقٍ مشتركة، والأسابيعُ القليلة الماضية طمستها في ذاكرتنا كلينا. مسحتها بالدم، كما قد يقول المرء إن كان ميَّالًا إلى الدراما، مثلي أنا، وهذا الدم لم يكن حتى دمنا نحن.

هل كان هذا التعقيب ليستحق واحدًا من فواصل صمت ريڤرز؟ لا أدري. كنتُ في بعض الأحيان أظنه قد عاد إلى ربوع صيادي الرؤوس اللعناء خاصته -إنه يحبهم بحق، وجهه يضيء بأكمله حين يتحدث عنهم- وهذا يُعطيه منظورًا غريبًا بعض الشيء حول «النزاع الحالي» كما يسمونه.

لقد رُشِّحتُ للصليب العسكريِّ لقاءَ خروجي لجلب هاليت. كان هذا ليجعلني سعيدًا مثل كلبٍ له ذيلان قبل ثلاثة أعوام. هاليت ما يزال حيًّا على كل حال. ما أتمناه أكثر من الحصول على وسام هو أن يخبرني أحدٌ أنني فعلت الأمرَ الصائب.

11 أكتوبر

لقد تعيَّن علينا اليومَ أن نقف جميعنا أمام الرجال ونعلن عن أمرٍ عسكريٍّ جديد: «إيقاف الكلام عن السلام بكل صيغه على الفور في الجيش الرابع».

لا حاجة إلى قلق القيادات. كان بعض الرجال جالسين على بالات القش ينظفون معدّاتهم فيما راح أحدهم يتلو عليهم من الصحيفة: «انهيار الإمبراطورية النمساوية المجرية، السلامُ وشيك... إلخ». تنخع جنكينز -وهو رجلٌ أشبه بابن عرسٍ ذابل (لا بد أنه تجاوز سنَّ الخدمة، بكل تأكيد)- حتى جمّع في فمه بلغمًا متراكمًا منذ أربعة أعوام طوال، وبصقه على بندقيته، ثم استأنف تلميعها. لا يخطر لي تعليقٌ أفضل من هذا.

ومع ذلك... ومع ذلك... جميعنا -على مستوىً ما- نظن أننا ربما نجونا، *ربما* سنكون على ما يرام. المدافع قد تتوقف في أي لحظة الآن، لكننا -للغرابة- لا نجد عونًا في هذا.

إننا نقضي وقتنا بالطريقة المعتادة حين نكون «في حالة الاستراحة». استحمام، تغيير ملابس، تنظيف شامل، تدريبات، مباريات إلزامية، استعراضات عسكرية كَنَسية. أوه، وتدريبات *الغاز* بالطبع. الكثير من الرجال يسعلون ويتنخعون وتصفِر صدورُهم لأنهم تأخروا في ارتداء أقنعتهم، وربما عن عمد في بعض الحالات؛ ربما ظن البعض أن هذا قد يتكفل بإعادتهم. إن كان ذلك، فلقد خاب أملهم أيما خيبة، بدليل سلسلة السعال اللامتناهية التي ترافق جميع نشاطاتنا. أثار أوين سخطي بشدة حين قال إن الذنب ذنبهم. لقد ارتدى قناعه في اللحظة المناسبة وها هو على ما يرام، هكذا يقول. أخشى أنني هاجمتُه بانفعال، فالشخص الوحيد الذي يحق له أن يتفاخر بالنجاة من هجوم غازيٍّ هنا هو أنا. **أنا**.

حين وصلنا إلى هنا، وجدنا جماعة جديدة من الجند قد قدمت من سكاربورو. إنهم قاعدون بلا عمل في هذه الأثناء، يتوقعون أن يُلاقَوا بالترحاب، غير أن هذا لم يحدث حتى الآن. يصعب تحديد ما يدفع بقية الرجال إلى تلافيهم، لكنهم يفعلون. المعركة تشغل رؤوسَهم إلى درجة لا تتيح لهم القدرة على التكيف مع كل هذه الوجوه النظيفة البريئة *الوردية*. أتذكر بضعةً منهم. أحدهم فتى عديم الجدوى أكثر من غيره، أذاق أوين الأمرَّين في فندق كلارنس غاردنز، إلى أن قلبَ حساءً ساخنًا في حضن قائد الوحدة، فصار الجميع -بمن فيهم أوين- بعد ذلك يجدونه محتمَلًا أكثر مما مضى بكثير. نُذُل، قارعو طبول. يقضون وقتهم في الجلوس، حين لا يتلقون أوامرَ سليطة تجعلهم يتنقلون من مكان إلى آخر، ومعظمهم بائسون واهنو العزيمة، بل وخائفون. قلةٌ منهم يسيرون في الأنحاء متبخترين، رجال قساة، قتَلةٌ حقيقيون، فلا ينجحون إلا في الظهور بمظهر أكثر شبهًا بفراخ السمنة حتى من البقية.

12 أكتوبر

اليومَ وصلت الطرود. تقاسمنا السجائر التي وجدناها في طرودٍ مُرسَلة إلى أشخاص موتى أو مصابين، فتحسنت الأمزجة على الفور. ثمة الكثير من المهام الإدارية المُمِضَّة التي تتعلق بتوزيع الجنود الجدد على السرايا. تراودني ومضات من المعركة وأنا أملأ الاستمارات، الرجل الذي طعنتُه بالحربة. ما يغمّني هو أنه كان كهلًا، وهذا غريب في الحقيقة، إذ يُفترض أن يكون الحزن على من هم في مقتبل العمر. لكن كان واضحًا جدًّا أنه شخص ينبغي أن يكون في بيته، يشاهد أولاده يكبرون، يتساءل إذا ما كان تسريح شعره فوق الرقعة الصلعاء يزيد وضوحها أم يقلله، ويتذمر بشأن سعر الجعة. وبلى، يمكنك أن ترى كل هذا في وجهه. بعض الوجوه تتيح ذلك. بعض الناس تُبدي مظاهرُهم هوياتِهم الحقيقية تمامًا. *بئسًا لهذا.*

وفي هذه الأثناء، المزيد من التدريبات، المزيد من الانتقال بين النقاط العسكرية. نحشو بطوننا بكميات مضبوطة بدقة من الطعام الكريه، وبات الخبز يحتوي على البطاطا الآن. (إنها تشكل توليفةً مثيرةً للاهتمام مع نشارة الخشب).

15 أكتوبر

ليلة أمس، قدَّمت فرقة جوالة عرضًا ترفيهيًّا لنا، الكتيبة بأكملها، إضافةً إلى بضعة ضباط دُعوا من الوحدات التي على ميسرتنا. ومن بين الحضور كان «مارشال ذو الإصابات العشر»، الذي يتقلد الآن رتبةَ مقدم، وراح يصفق لكل حركة ببهجة طفولية، أمرٌ ما كان أحدٌ ليتوقعه منه. وفي نهاية الأمسية، حين يصير الوضع يسمح ببعض العواطف المبتذلة، أخذ أحدهم يغني «وردُ بيكاردي»[1]:

الوردُ يُزهر في بيكاردي
لكن ما من وردة مثلك.

---

(1) Roses of Picardy.

لم يكن صوتًا سيئًا، راح يحلّق فوق الكبائن والخيم وأعمدة الدخان المتصاعدة من النيران. ونقّلت عيني على طول صف الجالسين، فرأيت مارشال يجري الدمعُ على وجنتيه مدرارًا بقطرات ضخمة. لقد حسدتُه.

16 أكتوبر

ماتَ بينبريغ. أتذكره في مطعم المحار في سكاربورو قبل مغادرتنا ببضع ليالٍ. كنا سكارى جميعنا، بيد أن السُّكر بلغ ببينبريغ حدَ أن يقتبس من قصائده (ولا حد يفوق هذا). كان يتحدث إلى أوين، قائلًا إن القصائد المناهضة للحرب الحقيقيةَ يجدر بها أن تحتفي بما تحرم الحربُ الرجالَ منه -وما هو يا ترى؟- «بيتهوفن وبوتيتشيلي والجعة والفتيان». ركلَه أوين تحت الطاولة -كرمى لي كما أظن- ركلةً ضاعت سدىً.

البارحة وصل المزيد من الجنود الجدد من إنجلترا. كما أنني نُقِلتُ إلى خيمة، مع أولى بوادر الشتاء الحقيقية التي يُبديها الطقس. شقاءُ المطرِ المتجمدِ تحت قماش الخيمة. ليس أننا نقضي وقتًا يُذكَر في الخيم، فنحن طوال اليوم في الخارج نتنقل من نقطةٍ إلى أخرى، من طابور إلى صف، نتوزع لتعزيز المواقع، وهكذا دواليك... بالإضافة إلى تدريبات الغاز.

لكنه المساء الآن. الرجال متكئون على حقائبهم أو رُكَبِ زملائهم، إذ سُمِح للسيقان المتألمة أن تنبسط أخيرًا، يكتبون إلى زوجاتهم أو أمهاتهم أو صاحباتهم، ولعل واحدًا أو اثنين يكتبان إلى بيتهوفن ورفاقه. قلتُ إني لم أولَد على وهمِ أنني مسؤول عنهم، وهذا صحيح، (صحيحٌ أنني لم أولد على ذلك، وصحيحٌ أنه وهم). لكنني لا أود أن يُعتقَد أنني لا أبالي، لذا أجريتُ جولة على الجماعة الأقرب إليَّ. ويلسون يعاني من مسمار كبير عالق بكعب فردة جزمته اليسرى، جميعنا جربنا حظنا معه: بالمطارق والزرديات وأوتاد الخيم وما لا يعلمه إلا الله. ظل عالقًا رغم كل شيء، وبما أنه يخترق الجلد فمن المحتمل جدًّا أن يصاب الرجل بخَمَج، إلا إن استطعتُ أن أجد له جزمةً أخرى. ويُفترض بهذا أن يكون سهلًا، لكنه ليس كذلك. لسوء الحظ، لن تكون الإصابة بخمجٍ كافيةً لإعفائه من الذهاب إلى خط القتال إن تعينت علينا العودة إلى

هناك. بيد أن الأمر سينهكه، ويجعل في كل خطوة شقاءً أعظم مما تقتضيه الحاجة.

أما أوكشوت -الذي يعيش على هامش الجماعة بشكلٍ أو بآخر، إذ بات لا يتحدث إلى أحد- فهو يسير بهمةٍ نحو الانهيار (وأنا أدرى بهذا). الفكرة أنه *ليس* خوَّافًا، بل هو جنديٌ جيدٌ تمامًا، لا يتجاوز الحدَّ المنطقيَّ في خوفه من رصاص البنادق والرشاشات والقذائف والقنابل. (دعونا لا نسأل أنفسنا كم يبلغ هذا الحد المنطقي). هو ليس خوَّافًا حتى في ما يتعلق بالغاز، لكن هكذا يبدو الأمر حتمًا لمن يراه. كل القضية أنه يرتاع من *القناع*. لا أعرف ماذا يجدر بي أن أفعل معه. انتبهت إليه مرةً أو مرتين في الآونة الأخيرة يتباطأ في تدريبات الغاز، وانتبهت أنني أغض البصر عن الأمر. يجب ألا أفعل ذلك، فإن مرت فِعلتُه دون عقاب سيبدأ الجميع يحذون حذوَه. بجانبه، أو أمامه بالأحرى، يجلس مور. لقد أمضت زوجةُ مور مساءَ الجمعة قبل الماضية في حانة روز أند كراون (التي أعرفها جيدًا) برفقة رجلٍ يُدعى جاك پوديفات، لديه وظيفة جيدة في مصنع الذخيرة (المصنع الذي يعمل فيه أبي) تدر عليه خمسة جنيهات في الأسبوع. وكانت ابنةُ حمي مور -المولعة بالصالح العام- كريمةَ النفس بما يكفي كي تكتب إليه وتخبره بذلك.

ابنُ هيوود يعاني التهابًا في لوزتيه، والطبيب يؤيد استئصالهما بشدة، أما هيوود فيرى أن تُترك الأمور على حالها، لكن الرسالة التي يكتبها الآن لن تصل في الوقت المناسب.

زوجةُ باكستون تنتظر بِكرَهما. لا يبدو أن الولادة تقلقها، بيد أنها ترعبه هو. لقد ماتت والدتُه عند الوضع، وهو مقتنع أن الأمر نفسه سيحدث معها.

جنكينز يكتب رسائل غرامية مشبوبةَ العاطفة لا مثيل لها إلى زوجته. إنهما متزوجان منذ ما قبل الطوفان، لكن من الواضح أن لا شيء بينهما ذبل. ينال الشبق مني حين أقرأ هذه الرسائل. لم يسبق أن فعلتُ شيئًا من الناحية الجنسية ملأني بهذا القدر من الخزي. بل، في الواقع، هذا هو الشيء الوحيد الذي ملأني يومًا *بأي مقدار* من الخزي. هو يعرف دون *شكٍ* أن الرقابة تحجب رسائله، ومع ذلك يظل يكتب، صفحةً تلو الأخرى. لعله يحتاج أن يقول ما يقوله إلى درجةٍ تجعله ينسى بطريقةٍ ما أنني أقرأ كلامه قبل أي أحد؟ هذا

معادلٌ نفسيٌّ لموضوع الاستحمام الذي ذكرتُه؛ ها أنا أجلس، مرتديًا كامل ملابسي عمليًّا، إذ أوقن أن الرقابة *لن* تَقرَب رسائلي إلى سارا. أظن أن رسائل الضباط تخضع لمراجعات عشوائية، لكن هذه تحدث في مكان آخر على الأقل، ولا يُنجزها أناسٌ عليك أن تراهم كل يوم.

الكلام عن السلام مستمر، سواء أأُعلِنَت أوامر تمنعه أم لم تُعلَن. ليلةَ سمعنا أن الألمان وافقوا على مفاوضات السلام أُقيمَ احتفالٌ مرتجلٌ كبير، أحياه الضباط والرجال معًا، والجميع غنَّى. ثم، في اليوم التالي، وجدنا بوتوملي يقول في مجلة جون *بُل*: لا، لا، لا وألف لا. علينا أن نقاتل حتى النهاية كيفما كانت (نهاية *مَن*؟). «*لا أريد المزيد من الكلام عن أي شيء سوى تصميمنا على تدمير الدولة الألمانية، هذا وحده هو ما أضعه نصبَ عيني...*».

لكن الرجال لا يشيلون هذا الكلام من أرضه. ليس هذه المرة. بل حتى إن بعضهم صار يذهب إلى المراحيض ملوِّحًا بنسخٍ من جون *بُل* بيده.

ما عاد أحدٌ هنا يرى الجدوى من المتابعة.

18 أكتوبر

لكن ثمة آخرون يرونها. سنغادر اليوم، ونعود إلى خط القتال.

16

مطر أكتوبر يتناثر على الزجاج، والأقدام تسحق ورق الشجر الذهبيَّ وتعجنه بالوحل في ساحة فنسنت في الخارج. كف ريفرز عن السعال، وأعاد منديله إلى مكانه معتذرًا.

«لا بأس»، قال وانسبِك: «أنا من ينبغي له أن يعتذر، فأنا الذي أعديتك».

«على الأقل لا يمكن أن أُعديك من جديد»، أجاب ريفرز وهو يمسح عينيه: «في الواقع، أنا وأنت الوحيدان هنا اللذان لا يمكن أن نصاب بالعدوى الآن».

«الأمور تزداد سوءًا بشدة، أليس كذلك؟ أقصد في الأجنحة. لا أظن أن بوسعي تقديم أي مساعدة؟».

لم يُبدِ وجهُ ريفرز أي تعبير.

«في حمل المرضى. يبدو لي من السخيف أن يجلس فتى ضخم مثلي دون أن يفعل شيئًا في حين تعاني ممرضةٌ ضئيلة مسكينة لحمل رجلٍ يتجاوز وزنُه السبعين كيلوغرامًا وحدها».

«هذا لطفٌ بالغٌ منك»، قال ريفرز بحذر: «لكنني حقًّا لا أظن أن المسؤولين سيسمحون بذلك. وعلى كل حال، أنت لا «تجلس دون أن تفعل شيئًا»».

صمْت. التلميح لم يُستوعَب. حمل ريفرز نفسه على إرخاء كتفيه، مدركًا أن توتره ينتقل إلى وانسبِك، رغم أنه توترٌ ناتج عن إجباره لنفسه على المضي في يومٍ طويل وهو ما يزال بعيدًا جدًّا عن الشعور بتحسن لا أكثر. «كيف أصبحت؟».

«اختفت الرائحة»، لاح المرحُ على وجهه: «أعلم أنها لم تكن موجودة، لكن من اللطيف التخلص منها رغم ذلك».

«إممم، جيد». ما سَرَّ ريڤرز أكثر حتى من اختفاء الرائحة هو مسحة السخرية من الذات، التعبير الوحيد الذي لا يراه المرء أبدًا على وجوه المرضى نفسيًا. «متى حدث هذا؟».

- لقد تلاشت بالتدريج. أعتقد أنني، في منتصف الأسبوع الماضي تقريبًا، أدركتُ فجأةً أنها ما عادت تقلقني.

- والحلم؟

- ليس حلمًا.

- الشبح، إذًا.

- أوه، ما زلنا نرى بعضنا كثيرًا.

- هل يحدث أن تمر ليلةٌ دون ذلك؟

ابتسامةٌ واهية: «تقصد أن تقول: هل يحدث أن يغيب ليلة؟ كلا».

صمتٌ طويل، قال ريڤرز بعده: «من الصعب أن نتحدث عن... المعتقدات، أليس كذلك؟».

- أحقًا؟

- عن نفسي، أجد الأمر صعبًا.

ابتسم وانسيك: «يا لك من رجل صادق».

«أردتُ أن أسألك إن كنتَ تؤمن بالحياة ما بعد الموت؟».

آهةٌ، تبعها صمت.

هذا صعب بالفعل، فكر ريڤرز. بوسعه أن يعدد كل المواضيع التي تمثّل تابوهات في جزيرة إيديستون، لكن يبدو له أن التابوهات قد شهدت تغيرًا معتبرًا خلال السنوات الأخيرة في مجتمعه. بات من الأسهل تقريبًا أن تسأل رجلًا عن حياته الخاصة من أن تسأله عن المعتقدات التي يعيش وفقًا لها. قبل الحرب... لكن ينبغي للمرء أن يحذر من تعليق كل شيء على شماعة الحرب، فالتغيير بدأ قبل الحرب بسنوات.

«لا»، أجاب وانسيك أخيرًا.

- احتجتَ أن تفكر.

- أجل. حسنًا، لقد كنتُ أؤمن بها، فهكذا رُبِّيتُ. أعتقد أن المرء لا يحب الاعتراف بفقدانه. أتحدث عن الإيمان.

- ما الذي غيَّر رأيك؟

تقبَّض حاجباه، فأمهله ريڤرز.

«الجثث. لا سيما في الطقس البارد، حين يتعذر دفنها. وفي الصيف، في المنطقة المحرمة، والذباب يطن».

الذباب كان يتصاعد من جثة نْغِيا في غمامة سوداء.

«لكن الأمر لا يستلزم هذا التأثير بالضرورة، صحيح؟ ماذا عن القساوسة الذين يحتفظون بمجسمِ جمجمةٍ على مكاتبهم؟ لأن الجمجمة تُذكِّرهم بإيمانهم».

أو نْجيرو. «يُعفِّن، رائحة بشعة، لكن هو يروح إلى سونتو». إفادةٌ بسيطة عن حقائق بنبرةٍ عرَضية.

«حسنًا، لقد كان له هذا التأثير فيَّ. أود لو أؤمن. أود لو أؤمن بإمكانيةِ -معك حق، هذا محرج بالفعل- الخلاصِ من الخطيئة».

صمت.

«على كل حال»، قال ريڤرز حين بات واضحًا أنه لن يضيف شيئًا: «لستَ تعتقد أن الذي يظهر لك هو الرجل الذي قتلتَه؟ لستَ تعتقد أنه شبحه؟».

- كلا، لكنني لستُ متأكدًا إن كنتُ سأعتقد ذلك حتى لو أنني لم أزل مسيحيًا.

- ما هو إذًا؟

- إسقاطٌ يجريه عقلي.

- بسبب شعورك بالذنب؟

«لا. الذنب هو ما أشعر به بسبب جلوسي هنا، لستُ بحاجة إلى ظهور شبح. كلا، إنه...»، تنهيدة عميقة: «الذنب بوصفه حقيقةً موضوعية، لا بوصفه

شعورًا. إنه ليس... حسنًا، كنتُ أَهُمُّ أن أقول إنه ليس ذاتيًا، لكنه لا يمكن ألا يكون، صحيح؟».

- إنه تجسيدٌ أمام ذاتك للمعايير الخارجية التي تعتقد *أنت* أنها محقة؟

- أجل.

- بأي لغة يتكلم؟

نظرة مشدوهة. «لا يفعل. لا يتكلم».

- بأي لغة سيتكلم لو أنه يفعل؟ أجل، أعلم أنه سؤال غير منطقيٌ، لكن مسألة الشبح بحد ذاتها ليست منطقية كذلك. بأي لغة ســ...

- الإنجليزية، لا بد.



- لماذا لا تكلمه إذًا؟

- إنه لا يَظهر إلا لحظة.

- لم تصف الأمر هكذا، لقد قلتَ إنه لا ينتهي.

- حسنًا، إنها لحظة لا تنتهي.

- يفترض بك أن تكون قادرًا على قول الكثير إذًا.

- أروي له قصة حياتي؟

أجاب ريڤرز برفق: «إنه يعرف قصة حياتك».

كان وانسبِك مستغرقًا في التفكير: «حسنًا. هذا جنون محض، لكنني سأُجري محاولة».

- ماذا ستقول؟

- ليست لدي أدنى فكرة.

بعد مغادرة وانسبِك، جلس ريڤرز بهدوء بضعَ دقائق قبل أن يضيف ملاحظةً إلى الملف. لقد كان ساسون حاضرًا في ذهنه بقوة وهو يتحدث إلى وانسبِك، ساسون والأشباح التي كانت تتجمع حول سريره مطالِبةً إياه أن يخبرها لماذا هو ليس في فرنسا. وأيضًا، مريضٌ آخر من مرضاه في كريغلوكهارت، اسمه هارينغتون، كانت تراوده كوابيس رهيبة -حتى قياسًا بمعايير كريغلوكهارت- تستمر خلال حالة شبهِ اليقظة، ما أكسبها خصائصَ

الهلاوسِ النعاسية. كان يرى الرأسَ والجذع والأطراف المبتورة لجثةٍ مقطعةِ الأوصال تنقض نحوه من الظلام. وقد تدخل بعض التنويعات على المشهد، فيطل عليه من الأعلى وجهٌ بشفتين وأنف وأجفان متآكلة كما لو بفعل الجذام. الوجه، بالقدر الذي يمكن تمييزه منه أساسًا، كان وجهَ صديقٍ مقرب رآه هارينغتون يُنسَف إلى أشلاء. وكان يستيقظ من هذه المنامات وهو يستفرغ أو وقد بلّل سريره، أو هذا وذاك.

حين شهد هارينغتون موتَ صديقه، كان يعاني أصلًا من صداع ورؤية مزدوجة وغثيان وتقيؤ واضطراب في التبول ونوبات نسيان وارتجاف شديد مستمر في اليدين، نتيجةَ انفجارٍ حدثَ قبل ذلك بشهرين ودُفِن على إثره حيًّا. لقد ظل على رأس خدمته رغم هذه الأعراض (اللوم على الضابط الطبيب، قال ريڤرز لنفسه) حتى أدى موتُ صديقه إلى انهيار كامل.

ما يثير الاهتمام في حالة هارينغتون، هو أن العلاج لم يُفضِ إلى إسهابٍ في الكوابيس يجعل الفظائع تبدأ باتخاذ شكلٍ أكثر رمزيةً وأقل تجسيدًا مباشرًا، كما في المسار الطبيعيِّ للتعافي، بل حدث شيءٌ أبعدُ عن المألوف عوضًا عن ذلك. لقد بدأ جسدُ صديقِه يعيد تركيب نفسه، وأخذت الملامحُ المتآكلة تكتسي باللحم من جديد ليلةً تلو الأخرى. وصار هارينغتون يتحدث إليه، محادثات طويلة -أو أنها كانت تبدو له طويلةً حين يستيقظ- يخبر صديقَه خلالها عن ريڤرز، وعن الحياة في كريغلوكهارت، وعن العلاج الذي يتلقاه...

وبعد عدة أسابيع على هذا المنوال، استيقظ ذات يوم وقد استعاد ذاكرته المتعلقة بالساعة الأولى التي تلت الانفجار. لقد زحف آنذاك، رغم الصدمة والنيران الغزيرة، على أشلاء جثة صديقه يجمع أغراضَه -الحزام ومسدس الريڤولڤر والقبعة والشارات- ليرسلها إلى أمه. معرفةُ هارينغتون أنه تصرف بإخلاصٍ وشجاعة يُقتدى بها عوضًا عن الهروب من المكان لعبت دورًا عظيمًا في استعادة تقديره لذاته، إذ كان -كما هي حال معظم المرضى في كريغلوكهارت- يعاني شعورًا بالغًا بالخزي والإخفاق. اتخذ التحسنُ منحىً مفاجئًا منذ ذلك الحين فصاعدًا، لكن المحادثات مع الصديق الميت استمرت،

إلى أن استيقظ باكيًا ذات صباح، وأدرك أنه لا يبكي على خسارته الشخصية فقط، بل أيضًا على خسارة صديقه، على سنواته التي لم يعشها.

ما يمر وانسبِك به أسوأ من هاتين الحالتين كلتيهما. فأشباح سيغفريد اختفت حالما وافق على التخلي عن احتجاجه والعودة إلى فرنسا، إذ لُبِّيَت بذلك المطالبُ الخارجية التي جسَّدها الزوارُ الليليون وكان سيغفريد نفسه يراها محقة. أما هارينغتون فقد وجد عونًا هائلًا في اكتشاف أنه تصرف بشكل أفضل مما كان يظن، ومنذ تلك اللحظة صار تعافيه من أكثر حالات الشفاء التي يستطيع ريفرز أن يتذكرها فجائيةً. لا تتوفر لوانسبِك أيٌّ من هاتين النتيجتين، فهو خاض حربًا مشرفةً تمامًا إلى أن جعله تصرفٌ واحدٌ يصبح في عين نفسه -وعين القانون- مجرمًا. يكاد المرء لا يستطيع أن يقول شيئًا كي يواسيه دون أن يموّه فداحةَ الجُرمِ بشكلٍ بغيض أو يكونَ كلامُه مهينًا بطريقة أخرى، ووانسبِك سيتلقى الكلامَ من فوره على أنه كذلك. لو أنه رجلٌ أقل شأنًا لتحمل الأمر على نحوٍ أفضل.

تساءل ريفرز إذا ما كان ساسون وهارينغتون يتصدران تفكيرَه *أكثر من اللازم* في أثناء إصغائه إلى وانسبِك. أفضل ما يمكن للمرء أن يفعله -في مثل هذه الحالة- هو أن يلعب دور قناة تنقل إلى شخصٍ ما خبرةَ شفاءٍ ذاتيٍّ اكتسبها شخصٌ آخر بصعوبة، أما الأسوأ فهو ألا يتابع الإصغاء بانتباهٍ كافٍ إلى الصوت الفرديِّ لهذا الشخص. قال لنفسه إن هنالك خطرًا حقيقيًّا يتمثل في أن تصبح القصص قصةً واحدةً آخر المطاف، وتمتزج الأصوات في صيحة ألم واحدة.

كما أنه متعَب. لقد ناوب مدةَ ثلاثين ساعة خلال الساعات الثماني والأربعين الأخيرة بسبب وباء الإنفلونزا، وسيناوب من جديد الليلةَ كذلك. تنهد، ومد يده إلى ظرفٍ أخرج منه صورةً شعاعيةً ثبَّتها على الشاشة.

حدقت إليه جمجمة. رجع إلى الوراء ونظر إليها لحظة، الشاشةُ المضيئة تنير إحدى عدستَي نظارته والأخرى تعكس ضوءَ الأصيل النوفمبري الماطر. ثم مد يده إلى أوراق الملاحظات.

الملازم ثاني ماثيو ماليت، يبلغ من العمر عشرين عامًا، قُبِل في 18 أكتوبر بإصابات أعيرة نارية في الرأس والفك السفليّ. عند القبول كان عاجزًا عن الإدلاء بروايةٍ حول إصاباته، وتمثلت المعلومة الوحيدة التي جاءت معه في بطاقة صغيرة تقول إنه أصيب في تاريخ 30 سبتمبر.

إذًا فقد مضى الآن على إصابته عشرون يومًا.

لقد دخلت رصاصةُ بندقيةٍ من يسار المؤقِ الإنسي للعين اليمنى تمامًا، وخرجت فوق مرتكز الأذن اليسرى مباشرةً. تمثلت فوهةُ الدخول في ندبة صغيرة تامة الالتئام، أما فوهة الخروج فكانت عبارة عن فجوة كبيرة غير منتظمة في العظم ونُسجِ فروة الرأس، برز منها فتقٌ دماغيٌ متقيح يُبدي نبضًا.

رباه.

لم يكن قد قال شيئًا بشكل عفويٍّ حتى ذلك الحين. استجاب حين وُجِّهَ إليه الخطاب مباشرةً، لكن نطقه كان غير مفهوم. إصابةُ فكه السفليّ جعلت من الصعب تحديد إذا ما كان ذلك يمثل عجزًا في القدرة على استخدام اللغة، أم أن الفشل في التواصل ذو منشأ ميكانيكيٍّ بالكامل أو بالدرجة الأولى. ومع ذلك، فقد أظهر شيئًا من الفهم تجاه الكلام، إذ إنه أجاب عن الأسئلة البسيطة، عندما طُلِب منه ذلك، من خلال تحريك يده غير المشلولة.

في مكانٍ ما على هامش حواس ريفرز، ترددَ الصوتُ الناعم لتساقط المطر المستمر، وبدا يحجب المستشفى بإحكامٍ عن الأصيل وظلمته التدريجية. إنها تمطر دون انقطاع منذ الصباح الباكر، وظلام النهار يزيد من صعوبة المواظبة على اليقظة بطريقةٍ ما. نزع نظارته وفرك عينيه، ثم التفت نحو النافذة، حيث كانت كل قطرة مطرٍ تحبس هلالًا من الضوء الفضيّ.

«أتظن أنها ستتوقف على الإطلاق؟»، قال هوكارت وهو يتقلب متبرمًا في عتمة الخيمة.

إنها تمطر منذ عثرا على فأس نْغِيا، وليس المطرَ الإنجليزيَّ المُقيَّد، بل انهمار غزير، تدفقٌ يُغرغر ويفيض إلى داخل الخيمة مهما حاولا منعه. ربما كان من الغباء البقاء في الداخل أساسًا، رغم صعوبة ألا يبقيا في حين أن مجرد طلعة سريعة لمسافة لا تتجاوز خمس ياردات إلى الآجام بغية التبول تعني أن تعود وقد التصق شعرك بجمجمتك وشفَّ قميصك عن صدرك.

ظلا مستلقيَين يشاهدان المطر من الطية المفتوحة؛ جدارٌ مُصمَتٌ من الماء بالكاد تُلمَحُ الأشجارُ غيرُ البعيدة غَبِشةً خلاله، كتلة زرقاء متهدجة تضربها الريحُ هنا وهناك في هباتٍ مفاجئة حاقدة. كان هوكارت من ضِيقه يركل سقف الخيمة في الموضع الذي تهدل بشدة فوق سريره، فباتت آثار قدميه الموحلة تضيف إلى القذارة والرائحة اللتين تعمَّان المشهد. جسدان مبللان حرانان، شعرٌ يُغسَل يوميًّا لكن بمياه البحر فقط، ملحٌ تيبس متحولًا إلى قشرة بيضاء على سطح البشرة. المهربُ الوحيد المتوفر هو إلى البحر، حيث يحل الانغمارُ الكامل محل شقاء البلل.

في اليوم الرابع، خفَّ المطرُ بعض الشيء. خرج ريڤرز إلى الفسحة فرأى نْجيرو يتقدم على الطريق نحوه، دون حاشيته للمرة الأولى.

كان ريڤرز يتساءل إذا ما ينبغي له أن يذكر أمر الفأس، وقد قرر ألا يفعل، لكن ما إن نظر إلى نْجيرو حتى أدرك ضرورةَ طرح الموضوع بصراحة.

«تبع أنت؟»، سأله ماذا الفأس.

«تبع نْغِيا»، أجاب نْجيرو وابتسم.

لكنه أخذها، ووضعها في السلة التي يعلقها على كتفه. سمع ريڤرز صليلَ ارتطام نصلٍ بآخر حين ضربت فأسَ نْجيرو. من الضروريِّ أن يكون ثابتَ الجأش تمامًا في هذه اللحظة، قال لنفسه. هو وهوكارت على الأرجح الرجلان الأبيضان الوحيدان اللذان لا يحملان مسدسًا في الأرخبيل، باستثناء المبشرين... بعض المبشرين. هما لا يحملان حتى سكاكين، مع أن

الماشيتي[1] ستكون مفيدة في جزيرة تغطيها الآجام الكثيفة. ما من شيء يمكن أن يظنه أحدٌ سلاحًا على الإطلاق. كما أنهما يمشيان حافيَين، مثلما يفعل السكان. المسالَمةُ كانت وسيلتَهما للدفاع، وهي ليست مضمونة النجاح بأي شكل، لكن المسدسات كانت لتجعل المهمة مستحيلة.

قال نْجيرو إنه جاء لأن واحدًا من أقدم بيوت الجماجم في الجزيرة يخضع للترميم، وعليه الذهاب ليتلو صلاة التطهير على الكاهن. هل يرغب ريڤرز أن يرافقه؟ بالطبع، دون أدنى شك.

انطلقا، وفي أثناء سيرهما ذكر نْجيرو أنها تمطر دائمًا عندما يخضع بيتُ جماجم للترميم لأن «*توماتي* يحب أن يتحمم طول الوقت بماء عذب»، ثم سرعان ما جعل الطريقُ الضيقُ والحَرُّ المشبع بالبخار تجاذبَ أطرافِ الحديث مستحيلًا. راح ريڤرز يراقب حركة العضلات تحت الجلد المُزيَّت، متسائلًا -لمرةٍ ليست الأولى- عن كمّ الألم الذي يعانيه نْجيرو. كان الرجل لغزًا غامضًا من نواحٍ عديدة، وسيظل هكذا على الأرجح. هو -على سبيل المثال- ليس متزوجًا، وسط شعبٍ مفهومُ العزوبيةِ غريبٌ عليه تمامًا. هل سببُ هذا أن عاهته تجعل الفتيات أو ذويهن لا يجدونه لقطةً موفَّقة؟ لكنه في المقابل ثريٌّ ومتنفذٌ معًا وفقًا لمعايير الجزيرة. أتراه هو نفسه يشعر بنفورٍ من الزوجية؟ وما الأثر الذي عاد على صبيٍّ صغير معاق من معرفته أنه حفيد هومو، أعظمِ زعماء صيادي الرؤوس، يا ترى؟ قال ريڤرز لنفسه مبتسمًا: هذا أسوأ من أن يكون المرءُ من أحفاد شقيق الرجل الذي أطلق النار على قاتل اللورد نيلسون.

لم يكن السعي خلف إجابات لأيٍّ من هذه الأسئلة ممكنًا. الأمر لا يتعلق بالافتقار إلى الكلمات وحدها، بل إلى المفاهيم المشتركة. إذ لا يبدو أن أهالي الجزيرة توصلوا إلى اكتشاف فكرة «الشخصية» تمامًا، بالمعنى الغربيِّ لها، ناهيك بتكوين عادةِ استبطانِ الأفكار والمشاعر. نْجيرو واحدٌ من أكثر رجال الجزيرة نفوذًا، وربما أكثرهم بالمطلق. كان يبدو واضحًا تمامَ الوضوح لريڤرز وهوكارت أن الفضل في منزلته هذه يعود إلى ذكاء وتصميم وحيوية استثنائية بحق، لكن أهالي الجزيرة لا يأتون على ذكر مزايا كهذه أبدًا عندما يحاولون تفسير منزلته. قوتُه تُعزى بالكامل إلى عدد الأرواح التي يسيطر

(1) الماشيتي: أداة قطع كبيرة تشبه الساطور. (المترجم)

عليها؛ هو «يعرف» ماتيانا، والأهم من كل شيء أنه «يعرف» آقي. «نْجيرو يعرف *آقي*»، كانت هذه الجملة من أول الأشياء التي قيلت له، بيد أنه لم يفهم دلالتها آنذاك، ولعله -الآن حتى- لا يفهمها بالكامل.

أما بالنسبة إلى ذلك الصليل الذي سمعه لارتطام نصلٍ بآخر، فما الذي يفسر هذا التغير المفاجئ في طريقة التعامل؟ ريڤرز لا يجانب المعقولَ في ثقته أن نْجيرو هو الذي وضع فأس نْغِيا في الخيمة، ونْجيرو لم يتظاهر حتى بالمفاجأة حين عُرِضت الفأسُ عليه. مع ذلك، ها هو ذا يُبدي تعاونًا واضحًا، بل يدعوه إلى حضور مناسبة شعائرية مهمة. لكن في المقابل هكذا هو نْجيرو، يكون في لحظة متكتمًا أشد التكتم، حتى إنه يأمر الآخرين أن يمتنعوا عن تقديم المعلومات، ثم يصبح في أوقات أخرى المصدرَ الأفضل للمعلومات في الجزيرة بلا منافس، بل وأحيانًا يقف مشرفًا عليهما ليتأكد من فهمهما لكل تفاصيل الطقوس وكلمات الصلوات بالشكل الصحيح *تمامًا*. من المرجح أن هذا التقلب يعكس شكوك نْجيرو بشأن حقيقة قوته؛ الآخرون مقتنعون بها، أما هو فقادرٌ على التريث وطرح الأسئلة الصعبة على نفسه. لماذا، إن كان يسيطر على الأرواح، لماذا، إن كانت الشعائر تفعل كلَّ ما يزعم أنها تفعله، لم يزل البِيضُ هنا؟ ليس ريڤرز وهوكارت، اللذان يروقانه ويحترمهما، بل الآخرون: الحكومة التي حظرت قطفَ الرؤوس رغم كون الشعب يعيش من أجله، التجار الذين يخدعونهم، أسياد المزارع الذين يستغلونهم، وقبل هؤلاءِ كلهم المبشرون الذين يهدمون معتقداتهم. إن لم تكن تستطيع منع حدوث أشياء كهذه، فما القيمة الحقيقية لمعرفتك؟

وهكذا يظل، خطوةً إلى الأمام وخطوةً إلى الخلف على المنوال نفسه: يحرس معرفتَه بغيرةٍ حينًا، ويشاركها دون قيودٍ حينًا؛ يلفظها من فمه بكبرياء غاضبة مريرة تارةً، وطورًا يقدمها بما يكاد يكون امتنانًا لريڤرز الذي يبدو أن اهتمامه الواضح بالأمور التي تُروى له يصدّق على قيمتها؛ ثم تأتي أحيانٌ ينأى فيها بنفسه عنه فجأةً، شاعرًا بالخزي لكونه يحتاج إلى ذلك التصديق أصلًا.

إنها إذًا لعلاقةٌ هوجاء من طرف نْجيرو، على أن الاحترام المتبادل موغلٌ في العمق. لن يقتلني، فكر ريڤرز. ثم قال لنفسه: في الواقع، ضمن ظروفٍ محددة، هذا ما سوف يفعله بالضبط.

مع وصولهما إلى المنعطف الذي يحيد عن الطريق الساحلي، كانت الشمس قد بلغت أوجَها. العرق يدغدغ أرنبةَ أنف ريڤرز مسببًا هياجًا متواصلًا يثير الغيظ، ومغبنُه صار مستنقعًا. كانت الظلمةُ تحت الأشجار موضعَ ترحيبٍ أول الأمر، بعد الوهج الأبيض الرهيب، إلا أن العرق سرعان ما اجتذب غمامةً من الحشرات اللاسعة التي لازمَته.

على حين غرة، خرجا إلى فسحة تترامى فيها نِصالٌ حادةٌ من ضوء الشمس المنسل من بين الأشجار، فلاحت أمامهما فوق المنحدر القاسي ستة بيوت جماجم أو سبعة، أسْوِجَتُها مُزيَّنةٌ بخيطان أصدافٍ متدلية. شعور الخضوع للمراقبة الذي تبعثه الجماجم دائمًا. منبهرًا بالضوء المفاجئ، تَبِعَ نْجيرو صاعدًا المنحدر نحو عقدةٍ من الظلال المتشابكة، ثم تحرك أحدُ هذه الظلال، ليستقر متخذًا شكلَ ناريتي، كاهنِ المدفن الأعمى الذي يجلس القرفصاء هناك، ركبتاه ومرفقاه مدببة، والقيحُ يرسم من زاويتَي عينيه خطين يشبهان أثرًا خلَّفَته بزاقة.

كان بيت الجماجم الأبعد يخضع للترميم، وقد أُخرِجَت محتوياتُه وصُفَّت على الأرض بحيث بدت الفسحةُ -لدى النظرة الأولى- مرصوفةً بالجماجم. أبطأ السيرَ، إذ لم يكن متأكدًا كم يُسمَح له أن يقترب، ولحظتئذٍ هزت عصفةُ ريحٍ قوية مفاجئة الأشجار فراحت خيطانُ الأصداف النذرية تخشخش مرتطمةً ببعضها.

أومأ نْجيرو إلى ريڤرز كي ينضم إليه، ثم -دون المزيد من التمهيدات- بدأ صلاةَ التطهير، وراح يفرك ساقَي ناريتي بورق الشجر من الردف إلى الكاحل.

«أطهِّرُ في ينبوع موندو العظيم. يتدفق إلى أسفل، يتدفق إلى أعلى، يجرف ماءَ الزعيمِ الميت السامَّ بعيدًا. قشُ السقفِ سام، العوارض سامة، الرفوف الزحافة سامة، الأرض سامة...».

كان بين الجماجم المفرودة على الأرض عدةُ جماجم لأطفال. أطفال محبوبون بكى أحبتهم عليهم؟ أم أطفال جُلِبوا من إيزابيل وشوازول وقُدِّموا قرابين؟

«فلأطهرَنَّ هذا الكاهن. ليمرضْ ويبرُؤْ من مرضه. ليمرضْ ويتجاوزْ مرضه. ليتحصنْ من الضمور، ليتحصنْ من الطفح، ليتحصنْ من الحكة. ليكنْ سمكةَ بينيت في البحر، دلفينًا في البحر، أنقليسًا في الماء العذب، كركندًا في الماء العذب، *ڤاپي* في الماء العذب. أطهّرُ، أطهّرُ، أطهّرُ مع كل الزعماء».

انخفضت عقيرةُ نْجيرو، بعدَ ارتفاعٍ، مع الكلمات الأخيرة.

دومًا في ميلانيزيا، الانتقالُ المبتورُ من الشعائر إلى الحياة اليومية. سرعان ما أخذ نْجيرو يدردش ويضحك مع ناريتي، ثم استدعى ريڤرز كي يتبعه. ساروا في طريق قصير أوصلهم إلى كوخ ناريتي؛ وهناك، مقرفصًا على التراب وكلبٌ يلعق بقايا الغداء عن وجهه، كان الولدُ الصغير الذي جلبه ليمبو من إيزابيل. سليمٌ معافى، حسنُ التغذية، بلا كدمات (كما رأى ريڤرز لما نظر من كثب)، غير سعيد، لكن من الصعب أن يأمل المرء عكس ذلك على كل حال. راح يراقبه بضع دقائق. هو ذا الكلبُ صديقٌ على الأقل.

لقد كُرِّسَ لمساعدة ناريتي، قال نْجيرو، وحين يكبر سيصبح كاهنَ مدفنٍ بدوره. يا له من قدر غريب، أن يمضي المرءُ حياتَه في خدمة جماجم شعبٍ أجنبيٍّ... لكنه *سيملك* حياةً على الأقل، وربما ليست حياة سيئة، فكهنةُ المدافن يصيبون ثراءً وينعمون باحترامٍ معتبَر. لقد كان أخذُ الأسرى هذا عُرفًا سائدًا حتى في أيام صيد الرؤوس، كما شرح نْجيرو إذ كان في واحدٍ من أطواره التي يتكلم خلالها بلا تحفُّظ. لطالما جُلِبَت بعض «الرؤوس» التي تؤخذ في الغارات حيةً إلى الجزيرة، واستُبقِيَت من أجل مناسبات قد تحتاج إليها حاجةً سريعة. أمرٌ يشبه حجرةَ مؤنٍ حيةً من الرؤوس. الأسرى من هذا النوع لا تُساء معاملتُهم أبدًا -ففكرةُ القسوة المتعمدة ليست معروفة لدى الناس هنا- بل كثيرًا ما ينالون المنزلة والثراء والإكرام، على أنهم مدركون طيلة الوقت أن رؤوسهم قد تُطلَب في أي لحظة.

في طريق العودة، وهما يعبران الفسحة، توقف نْجيرو وانتقى الجمجمةَ الواقعة في منتصف الصف الأوسط، ثم مدها إلى ريڤرز.

«هومو».

أخذ ريفرز الجمجمة، مدركًا التشريفَ الهائل الذي يُمنَح إياه، وبحث عن شيء يقوله وكلمات يصوغه بها. راح يمرر أصابعه على القذال، ويتعقب الدروزَ القحفية. تذكر نفسه في كلية بارت، وهو يمسك دماغًا بشريًا بين يديه للمرة الأولى، مدهوشًا من وزنه. قشرة البيض المنفوخة هذه كانت تحتوي منتوجَ قوى التطور الوحيدَ القادرَ على فهم أصل نشأته. لكن حتى بالنسبة إلى نْجيرو، ليست الجمجمة مقدسةً بحد ذاتها أو بسبب نفسها، بل لأنها كانت تحتوي الروح، الـ *«توماتي»*.

نظر إلى نْجيرو وأدرك عدم ضرورة أن يقول أي شيء. أعاد الجمجمة إليه، مع إحناءة رأس بسيطة، وظلت لحظةً بين أيديهما الممدودة؛ كلٌّ منهما يحمل الشيء الأثمن في العالم.

سبَّبت الرصاصةُ أذيةً جسيمةً للعين اليسرى عند مرورها إلى الخلف باتجاه *الفص الصدغيّ. البؤبؤ الأيسر* ثابت، *ما من حس في القرنية، الجفن* مرتخٍ، *المقلة لا تتحرك إلا إلى الأسفل. العين فقدت البصر* بسبب *تمزقِ المشيمية* وضمورِ *العصب البصريّ*. أجل. *كما يُظهِر* مفصلُ *الكاحل الأيمن* نزوعًا *إلى الرمع*... حسنًا.

أطفأ ريفرز ضوءَ الشاشة وأعاد أوراق الملاحظات إلى الملف، ثم ألقى نظرة على الغلاف فلاحظ أن هاليت كان في فوج مانشستر الثاني. تساءل إذا ما كان يعرف بيلي براير، وهل تراه يتذكره إن كان يعرفه.

17

19 أكتوبر 1918

قضينا النهار بأكمله في المسير عبر دمارٍ كامل. خيول نافقة، رجالٌ لم يُدفَنوا، رائحة تفسُّخ. أحيانًا تنظر إلى كل هذا، حُفَر القذائف والوحل كريه الرائحة والماء الآسن والأشجار التي تشبه أعواد ثقاب عملاقة محروقة، فيخطر لك أن الأرض يستحيل أن تتعافى. إنها مسمومة. لقد تغلغل السمُّ فيها من الرجال المتعفنين، من الخيول النافقة، من الغاز. لكنها ستتعافى، بالطبع. بعد خمسين عامًا من يومنا هذا، سيحرث مُزارعٌ ما هذه الحقول فتخرج له الجماجم من تربتها.

طار فوقنا غرابٌ ضخم، يرفرف ناعبًا بجنائزية. واحدٌ يعني الحزن[1]. لم تقر للرجال عينٌ حتى نجحوا في رصد واحدٍ آخر.

البهجة في انتظارنا إذًا.

رغم أن الموتى غير المدفونين لا يشكلون صحبةً مرحة في أثناء المسير، فقد أثمر وجودُهم نتيجةً جيدة واحدة: جزمة لويلسون. لم يكن أخذُها عمليةً سارَّة، لكن ما إن نُظِّفَت من الفتائت التي خلَّفها مالكُها السابق (جثةُ مالكها السابق) حتى أدت الغرض بشكلٍ كافٍ. إنه يبدو أسعد.

---

(1) وفقًا لأنشودة أطفال شهيرة، رؤية غراب واحد تعني الحزن، أما رؤية اثنين فتعني البهجة. (المترجم)

الرجال مبتهجون جدًّا معظم الوقت، طابور طويل يلتف في أعطاف الطريق مغنيًا بلا تعب (لكن ما تزال أمامنا مسافة طويلة نقطعها!). ألفيتُ نفسي أفكر في لونفستاف؛ لم يمضِ على موته ثلاثة أسابيع، ومع ذلك فهو نادرًا ما يخطر ببالي. في تايت ستريت، على بُعد ثلاثة أبواب عن متجر بِيتي، كان يقطن زوجان مسنان مضى على زواجهما أكثر من خمسين عامًا، والجميع ظنوا أنه حين يرحل أحدهما سيتحطم الآخر. لكن عندما مات الزوج لم تبدُ السيدة العجوز مستاءةً إلى تلك الدرجة، وبالكاد تحدثت عنه ما إن انتهت الجنازة. على الرغم من كل الزخم الذَّكَري الشاب هنا، وربّاه كم يكون عارمًا في بعض الأحيان، جميعنا في وضع تلك المرأة العجوز نفسه. قريبون من الموت بدورنا إلى حدٍّ يثنينا عن إثارة الجلبة. إننا نقتصد في الأسى.

في وقت لاحق

الرجال يعسكرون في العراء، لكن الضباط في مخابئ خندقية، بقايا منظومة ألمانية مُحكَمة. المخابئ مسدودة بألواح، لكن خلف هذه الألواح أنفاقٌ تمتد إلى عمق كبير. يمكنك أن تضع عينك على فرجةٍ في الألواح وتنظر إلى الظلمة، فتبدأ مقلتك تؤلمك بعد قليلٍ بسبب الهواء البارد. الاستثنائيُّ في الموضوع هو أن الجميع متوتر بعض الشيء بشأن هذه الأنفاق، أكثر بكثير مما هو بشأن المدافع التي تلعلع وتومض مضيئةً السماءَ الآن وأنا أكتب. وهذا ليس خوفًا منطقيًّا. للأمر صِلةٌ بقصة الأطفال الذين قادهم عازفُ المزمار السحريِّ إلى الجبل ولم يعودوا قط[1]، أو ريپ ڤان وينكل الذي عاد فاكتشف أن سنوات طويلة انقضت، ولم يعرفه أحد. مما يثير الاهتمام -حسنًا، مما يثير اهتمامي أنا على الأقل- أننا ما زلنا نخاف بهذه الطريقة اللامنطقية ونحن في الوقت نفسه محاطون بأسوأ ما يستطيع القرن العشرون أن يقدمه: القذائف

(1) القصة الشهيرة التي تتحدث عن عازف مزمار خلّص مدينةً من الجرذان التي تغزوها، ثم أخلف عمدتُها وعدَه له ولم يعطه مكافأته، فقرر الانتقام واستدرج أطفال المدينة بعزفه إلى الجبل، ولم يعرف أحدٌ شيئًا عن مصيرهم بعد ذلك. (المترجم)

والمسدسات والبنادق والمدافع والغاز. أظن السبب هو أن القصة تضرب على وترٍ حساس، فالأطفال بالفعل يدخلون في شعاب الجبل ولا يرجعون. جميعنا عدنا إلى الوطن في إجازات ووجدناه غريبًا علينا إلى حد أننا لم نستطع التكيف والانخراط. ماذا عما سيحدث بعد الحرب إذًا؟ لكن لعله يكون الأفضل ألا نفكر في هذا، كيلا نتحدى القدَر. على كل حال، ها قد حان موعد العشاء. أنا جائع.

20 أكتوبر

مسيرٌ عملاقٌ آخر. ومهمةٌ قذرة نتنة حقيرة أيضًا، لملمةُ شراذم الجنود المتخلفين عن الركب. انسوا أمر القيادة، هنا تنتهي القيادة ويبدأ التنمُّر. لقد سمعتُ نفسي أوبِّخ الجندَ متعقبًا إياهم من مكان إلى آخر مثل أولئك المدربين اللعناء في إتابل، إلا أنني على الأقل ألتزم أنا نفسي بتنفيذ ما أتنمر على الآخرين كي ينفذوه.

استدرتُ نحو أحد الرجال، فاتحًا فمي لأُسمِعَه ما تيسَر، ثم رأيتُ وجهه. كان مريضَ ربو. تلك السحنة الشاحبة المتشنجة المنهَكة، لا يمكن أن تغفل عنها إن كنتَ نفسك مريضَ ربو. الأمر واضحٌ كما لو كان يحمل لوحةً تشرح حالته. أبطأتُ سيري ومشيتُ بجانبه محاولًا أن أتحدث إليه، لكنه لم يستطع أن يتكلم ويتابع المسير في الوقت نفسه... أو يتابع الحبوَ بالأحرى، فما كان يفعله ليس مسيرًا بكل تأكيد. هذا ما يميز الربو: إنه يخلق الأخوّةَ الفوريةَ التي تفشل الروابطُ الإنسانيةُ المشترَكة في خلقها مرارًا وتكرارًا. أوصلتُه إلى عربة الإسعاف، ركّزتُ له جلستَه، ثم قبضتُ على معصمه وودعتُه. أشك أن يكون رآني وأنا أذهب. حين تكون النوبة شديدة هكذا، لا يهمك شيء سوى النفَس التالي.

الغريب أنني حالما رأيتُ وجهَه تقبضَ صدري، لمجرد أني ذُكِّرتُ بالاحتمال كما أعتقد. لم أواجه مشكلة حتى الآن، فلأدُقَّ على الخشب، لكن صدري يصفر قليلًا الليلة.

بات الفناءُ مُشتَّتًا للغاية بحلول منتصف الأصيل، الكثير من الرجال يسيرون بصمت، فقد أصبح الأمر اختبارًا للقدرة على التحمل. ثم، على حين غرة أو هكذا بدا لأننا كنا نسير نصفَ نائمين، وجدنا أنفسنا محاطين بحقول خضراء من الجانبين؛ بيوتُ مَزارع ما زالت سقوفُها عليها، أشجارٌ بأغصانها، ومدنيون. لقد عبرنا ساحات القتال إلى منطقة كان الألمان يطبقون سيطرتَهم عليها. نساء، أطفال، كلاب، قطط. أظننا ذُهلنا جميعًا من أن العالم يحتوي على مخلوقات كهذه. الكثير من التصفير عند المرور بالفتيات، ولم يُظهِر أحدٌ ميلًا إلى الانتقائية. سرعان ما صارت كلمة «فتاة» تشمل الإناث من سن الرابعة عشرة إلى الخمسين.

أنا أكتب الآن على طاولة مطبخ في كوخ، وفي الخارج فناء مزرعة يضج بأصوات أفنية المزارع المعتادة. الإوزُّ وصياحه معجزةٌ من السماء. بيد أننا سنتابع التحرك عما قريب. إنهم يستجوبون المدنيين في الغرفة المجاورة، فرنسيةٌ أوين آتَت أُكُلَها. وقبل بضعة أسابيع لا أكثر، كان الذي يجلس إلى هذه الطاولة ويكتب الرسائل إلى وطنه ضابطًا ألمانيًّا.

22 أكتوبر

ما زلنا هنا، لكن لن يطول بقاؤنا. سنتابع تحركنا في وقت لاحق اليوم. حتى المطر المنهمر الذي يغضن وجهَ ماء البِركة -بما فيها من بطٍّ مقيمٍ مرخصٍ له ودجاج ماءٍ بلا رخصة- لا يستطيع إزالة شعوري بالسكينة. صدري بات مرتاحًا أكثر بكثير، على الرغم من الرطوبة.

24 أكتوبر

المزيد من المسير. أرانا قابَ قوسين أو أدنى من دخول برلين إن ظللنا على هذا المعدل. لقد قُصِفت القرية الأقرب ليلة أمس، وقُتِل خمسة مدنيين. متى كففنا عن اعتبار المدنيين بشرًا؟ منذ وقت طويل، أظن. على أي حال،

الخبر لم يقُض مضجعَ أحد. ومع ذلك، الناس في هذه الأنحاء ودودون، ونحن متآلفون معهم. لكن الأمر لا يخلو من بعض الحذر، كما أعتقد. كانوا يكرهون الغزو، لا أحد يشك في هذا، بيد أن الألمان أقاموا هنا وقتًا طويلًا. لا بد أن يكون جرى التوصُّل إلى تسوية من نوعٍ ما. ويبدو أن جماعات الجنود الألمان في هذه المنطقة كانت منضبطة جدًّا على كل حال، ما من أعمال وحشية. سيداتُ القرية الشابات المحترمات سيداتٌ شابات محترماتٌ جدًّا بالفعل، رغم أنهن أمضين أربعة أعوام بين براثن الهون الوحشيين الفَجَرة. وحُفَرُ القذائف المتناثرةُ في البساتين والحقول والطرق هنا -مثل جراحٍ هائلة مفتوحة- هي صنيعة مدافعنا نحن. كان القصف شديدًا جدًّا في بعض الأحيان. بعض الأطفال يهربون منا. ومع ذلك، نحن نلقى الترحاب بأذرعٍ مفتوحة في كل مكان.

ما زلتُ غيرَ قادر على تعوُّدِ الضوضاء الاعتيادية، لا سيما أصوات النساء والأطفال. لا بد أن هذا ما يشعر به الخارجون من السجن.

25 أكتوبر

سيخضع أوين لمحاكمة عسكرية. والسبب يرجع بالدرجة الأولى إلى كونه يتحدث الفرنسية أفضل من أي شخص آخر والفتياتُ المحليات يتهافتن عليه مثل النحل، ولا يشكرنه وحسب، إنما يُقبِّلنه. جاءت عيني في عينه خلال كل ذلك، وأعتقد أنني التقطتُ وميضًا يحمل الجواب، جوابًا يشير إلى المفارقة الساخرة أو أيًّا يكن. على كل حال، الجمع الغفير المحروم من القبلات ضاق به ذرعًا، وقد عقدوا محكمةً عسكريةً قوامُها المرؤوسون. إعدامٌ بالرصاص عند الفجر، ولا غرابة.

وايات، في هذه الأثناء، يزور بيتَ مزرعةٍ عند طرف القرية تسكنه أرملة مضيافة وبناتها اللاتي يساوينها في كرم الضيافة ويتفوقن عليها في الصلاحية للزواج. لعله، في هذه اللحظة تمامًا، يغمس فتيلَه حيث غُمِسَ الكثير من الفتائل الألمانية قبله. (هذه *الرعشة* خسارةٌ في وايات، صدقوني).

لكنني هذا الصباح رأيتُ امرأة في القرية نورُ الشمس يحط على شعرها وهي تحتضن واحدًا من أرغفة الخبز الطويلة تلك بين ذراعيها، وكانت تلك اللحظةُ تنطوي على حسيةٍ تفوق كلَّ ما في كرِّ وايات وفرِّه. هذا تجاوزٌ طبعًا، فما هي إلا ربة منزل محترمةٌ كامل الاحترام تتبضع من أجل منزلها.

26 أكتوبر

ذهبتُ هذا الصباح إلى إحدى المزارع المحلية لأحل مشكلةً تتعلق بإيواء الجند. لقد اتهمت المرأةُ التي تدير المزرعة بعضَ رجال السَّرية «ج» بسرقة البيض. الرجالُ أنكروا التهمة بصخب، لكنني واثق أن ما تقوله صحيح. بعد أن هدأتُها ودفعتُ لها أكثر من ثمن البيض، انتبهتُ إلى فتى أصهب يحدق إليَّ. ليس تحديقًا بالضبط، لكن عينيه التقتا بعينيَّ مدةً أطول من اللازم. في السادسة عشرة تقريبًا، كما أعتقد، وربما أكبر قليلًا. كان يعبر الفناء مقرقعًا بدلوِ علفِ خنازير، وبعد أن استأذنتُ في الذهاب من المدام (والدته، كما *أظن*) تبعتُه إلى الظلمة النتنة، التي تملؤها أصوات التنشق والمضغ؛ خنازير تفتش في الأنحاء بمناخر رطبة مرتعشة، وتخب نحوه فوق قوائم وردية رقيقة. بعد أن دلق العلف، راحت تزعق وتأكل بنهم لبعض الوقت، ثم رفعت رؤوسها تراقبنا بهدوء من تحت رموشها البيضاء الناعمة الطويلة وهي تمضغ. أخذتُ أداعب ظهور الحيوانات، وحاولتُ أن أكلمه. كان ضوء الشمس يعبر من الفجوات ويرسم خطوطًا على الأرضية، وتحت قدميَّ شيءٌ رطبٌ مخضرٌّ ذو رائحة كريهة. تكلم بسرعة ولم ألتقط إلا النزر اليسير مما قاله؛ فرنسيةُ المدارس لا تجدي نفعًا على الإطلاق. ماطلتُ في مداعبة الخنازير قدر ما استطعت، ثم غادرتُ وأنا أتساءل كم من تلك النظرة الأولى كان صنيعةَ مخيلتي.

لا شيء جذاب على وجه الخصوص فيه؛ بشرة بيضاء كامدة، نمش أشبه باللطخات، عينان فاترتان غريبتان بلون بُنيٍّ ذهبيٍّ. ليس أن ذلك أزعجني، فبعد شهرين دون جنس كنت لأرضى بطوب الأرض.

قابلتُه من جديد لاحقًا، قرب الكنيسة. ثمة طريق ضيق يمر بجانب فنائها، على أحد طرفيه جدار حجريٌّ خفيض، وعلى الآخر قناة، واحدة من القنوات

العديدة التي تعبر هذه المنطقة. مجرى مائيٌّ معتم تطغى عليه الرطوبة، يعكس بكسلٍ سماءً بيضاء متلبدة، تحفُّه أشجار صفصاف أوراقها صفراء ذابلة. كان جالسًا يشابك يديه الكبيرتين المحمرتين ببراجمهما المتسحجة بين ركبتيه، وشعرُه الأحمر يتوهج في الضوء الضارب إلى الرماديّ؛ ليس أحمرَ قانيًا، ولا مسمرًّا، بل لونٌ قاتم راكد فيه مسحة احتراق.

من الواضح تمامًا أنه يماطل في الجلوس. حيَّاني بابتسامة ونقر بأصابعه على فمه، في حركة تشير إلى التدخين. أعطيتُه لفافةَ وودباين ووقفتُ قرب القناة، على بُعد بضعة أقدام، أنظر يمنةً ويسرةً لأتأكد أن لا أحد يراقبنا. كرَّر حركة التدخين تلك، وأشار إلى علبة السجائر. وحينما لم أستجب مباشرةً، أشار مجددًا وقال شيئًا *بالألمانية*. قلتُ في قرارتي: رباه، هل أقحمتَ رأسك في دلو الخنازير اللعين إلى حدٍّ ما عدتَ تعرف معه أي الجيشين يقف عند طرفك الآخر؟ أظن أنه كان ينبغي للأمر أن يثير اشمئزازي، لكن ذلك لم يحدث. بل إن أثره كان على النقيض في الواقع؛ كنتُ لأعطيه كل العلب التي أملكها. ناولتُه السجائر فنهض وقادني إلى ما بين الأشجار. استغرقنا بعض الوقت كي نجد مكانًا مناسبًا. تحدثتُ معه في ما أريد، فاعتدل يستند إلى جذع الشجرة. وهناك... رائحةُ زهر أقحوان تُرِك في الماء فترةً أطول من اللازم، ثم رائحةٌ أعمق وودودة أكثر، فوهة مزمومة تتلألأ، وعلى الجانب الآخر من هذه المصرَّة الفرنسية الضيقة تكمن سوائلُ الألمان. ليس حرفيًّا، فهم غادروا منذ فترة أطول من *هذا* بقليل، لكنها *هناك* مع ذلك؛ الظلال البشرية التي تعوَّد المرء أن يراها في الخنادق من خلال منظار الأفق، وأنا أتوغل محاولًا الوصول إليها. رحت أردد بيني وبين نفسي:

أيتها الملايين، ها إني أعانقك
أود لو أُرسل قُبلة للعالم بأسره...

فجأةً، بدا لي الأمر مضحكًا، وأصدرَت أنفاسي صوتًا كالضراط داخل ذلك الخندق.

ثم افترقنا، وأنا منذئذٍ أمرِّر لساني على شفتيَّ بعُصابيةٍ باحثًا عن الدمامل.

27 أكتوبر

الجميع يجد هذا المسير المتلاحق مضنيًا. إنني أمضي كثيرًا من وقتي في فحص الأقدام، بعض الرجال لديهم بثورٌ بحجم البيض، وقدماي أنا -اللتان لم تكونا في حال جيدة هذا الصباح- باتتا في حال غير جيدة *للغاية*.

لكننا ننزل الليلة في مآوٍ لائقة. لدي في الواقع سريرٌ في غرفة بورق جدران عليه ورد، كما بقي القليل من الورد في الحديقة أيضًا. خرجتُ وقطفتُ بعضَه ووضعتُه في آنيةٍ على طاولة المطبخ إحياءً لذكرى أميان؛ وردٌ كبيرٌ منفوشٌ تجاوز الريعان منذ فترة، إلا أننا سنستأنف التحرك اليوم، لذا لن أكون هنا لأرى البتلات تتساقط.

29 أكتوبر

وصلنا إلى هنا تحت جنح الظلام. القرية بائسة، والناس لا يبتسمون ويبدو عليهم الدوار، وهذا ليس مفاجئًا إذا تذكَّرنا أننا كنا ننكّل بهم قصفًا منذ وقت غير طويل.

هنالك شائعةٌ منتشرة مفادها أن النمساويين وقّعوا معاهدةَ سلام. الرجال ابتهجوا عندما سمعوها، وإن نظرتم إلى أقدامهم لعرفتم أنهم يحتاجون إلى ما يبهجهم. لا أحد هنا يفهم لماذا ما تزال الحرب مستمرة.

استلقيتُ في السرير ليلةَ أمس واستمعتُ إليهم يغنون في الحظيرة. أتمنى لو أنني لا أشعر أنهم يُقدَّمون أضاحيَ على مذبح بنود المعاهدات وتفاصيلها الدقيقة، لكن هذا ما أراه.

الخميس، 31 أكتوبر

وهنا سوف نمكث مدةً. الألمان متخندقون على الطرف الآخر من قناة سامبر واز، ويبدو أنهم يتحضرون للدفاع عن مواقعهم.

القرية ما تزال مأهولة، لكن تمَّ إخلاء منازل في المنطقة الأمامية وحُشِرنا في قبوٍ واحدٍ منها. نغامر بين الحين والآخر بالصعود إلى الغرف المفروشة، شاعرين بشعور الجرذان أو الفئران، ثم نهرع عائدين إلى جحرنا من جديد. لكن الجو هنا دافئ، يمدنا بشعور أمان، رغم أن المنزل بأكمله يهتز على أثر القذائف المنفجرة، وليس من الجيد أن نفكر في ما قد تفعله ضربةٌ مباشرة. فوق الأرض، قطع الألمان جميع الأشجار، لكن ثمة آجام كثيفة من الشجيرات النامية تحتها؛ علَّيقٌ يعلق بساقيك حين تمر قربه، وسرخسٌ ميتٌ له نفس لون -أو أحد ألوان- شعر سارا. لا مجال لأي نوعٍ من التدريب أو ما شابهه. نظل متوارين نهارًا، ونخرج في جولات خفرٍ ليلًا، فهم بالطبع تركوا نقاطَ إنذارٍ على هذا الطرف من القناة: أسلاكَ تعثُّرٍ بشرية تحذرهم من الهجمات الوشيكة. التخلص منها مهمةٌ مقيتة، إذ ينبغي أن تُنجَز بصمت، أي باستخدام السكاكين والهراوات بصياغةٍ أخرى.

1 نوفمبر

كان دوري للخروج ليلةَ أمس. «اجتُثَّت» نقطة إنذار واحدة، وآمل أن تكون الأخيرة. زحفنا حتى حافة القناة تقريبًا، وبقينا منبطحين ننظر إليها. كان ضوء النجوم بالمقدار الكافي ليتيح الرؤية، وانتابنا إحساسٌ شديد بالألمان على الطرف المقابل، يحدقون في الظلمة مثلما نفعل، صامتين متيقظين. كنت أشعر أن هنالك، في مكانٍ ما، عينين تنظران في عينيَّ مباشرةً.

القناة ترتفع بمقدار نحو أربعة أقدام عن الحقول المحيطة، وعلى طرفيها أخاديد تصريف (ملأها الألمان ماءً في بادرة تنم عن وعيٍ شديد). عرضُها يبلغ أربعين قدمًا، أعرض من أن يُمَد جسرٌ فوقها بسهولة، وأضيق من أن تسمح بقصفٍ ناجح. لا يوجد هامش أمان لسقوط القذائف التي تقصّر عن بلوغ أهدافها، لذا يجب أن يبقى الرجال والمعدّات على بُعد مسافة كبيرة إلى الخلف. ما يعني أنه عندما يرتفع السِّتار الناريُّ -كما يُفترض أن يحدث- ويتقدم ثلاثمئة ياردة إلى الأمام، سنستغرق نحو خمس دقائق كي نعبر الحقولَ المستنقعية وأخاديد التصريف حتى نصل إلى طرفنا من القناة لا

أكثر. هذا يتيح لهم الكثير من الوقت كي يستجمعوا أنفاسهم ويتوزعوا على المدافع، بيد أنهم بالطبع سيكونون قد أُنهِكوا بالكامل رسميًا.

الميدان المقابل مغمور بالماء جزئيًا من الأساس، وما زالت تمطر. ليس المطر وحده، فهم ملؤوا أخاديد التصريف على طرفهم أيضًا. الأرض ترتفع بحدة من القناة إلى مزرعة لا مُوت، التي تمثل هدف هجومنا. الطريق نحوها صاعد بأكمله، دون أدنى غطاء، ورُماةُ الرشاشات يتربصون خلف كل رقعة عشب.

حين تنظر إلى الأرض، ولو في الظلمة الجزئية كما هي الحال الآن، تبدو لك المشكلة جليةً بشكل مفزع، أوضح بكثير مما تُظهِرها أي خريطة، مع أننا نقضي ساعات كل يوم محنيين فوق الخرائط. ثمة احتمالان اثنان. إما أن تقصف الضفةَ المقابلة قصفًا غزيرًا لا ينجو منه رامٍ واحد، وفي هذه الحالة ستنفجر الأخاديد وربما ضفة القناة أيضًا، ويصبح الميدان على الطرف المقابل كابوسًا من الوحل الطامي بعمق عشرة أقدام، ويسوء الوضع كما حدث في معركة پاشنديل وأكثر. *وإما* أن يكون القصف خفيفًا، يُجرى بسرعة، وتنتظر المشاةَ كي يُجاروه. أنت في هذه الحالة تغامر بظهور الرماة الناجين من كل مكان حولك، وتَقنَع بجولةٍ لطيفةٍ من التدريب المُركَّز على الرماية.

إنها مسألة اختيار بين پاشنديل والسوم، لكن بنسخة مصغرة من هذه أو تلك. بيد أن هذا لا يشكل عزاءً يُذكَر، فالأمر لا يحتاج إلى أكثر من رصاصة لكل رجل.

لقد اختاروا السوم. عقدنا هذا الأصيل اجتماعًا ثنائيًا مع فوج غذاريّي[1] لانكشير على ميسرتنا. كان «مارشال ذو الإصابات العشر» من بين الحاضرين، وبدا لي صريحًا على نحوٍ مفاجئ، إلا أن المرء يستطيع المجازفة بالصراحة حين يكون مكسوًّا بعددٍ من أشرطة الإصابة[2] والأوسمة يجعلها تبدو شكلًا عجيبًا من التمويه. قال إنه من غير *الممكن* على الإطلاق لرجاله أن يصعدوا المنحدر دون غطاء والرشاشاتُ الآلية ما تزال سليمة فوقهم، كما أن إقامة

---

(1) الغذاريّ: الجندي المسلح بغدّارة، وهي آلة لإطلاق القذائف بين المسدس والبندقية. (المترجم)

(2) شريط الإصابة: شارة تُمنح للجنود الذين أصيبوا في أثناء القتال، كان -لدى الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الأولى- عبارةً عن شريط من النحاس الأصفر يُغرَز في القماش عموديًا على الساعد الأيسر في موضع بين شارات حسن السلوك. (المترجم)

جسر في العراء تحت وابل نيرانٍ بالغزارة التي من المرجح أن نواجهها أمرٌ مستحيل، العملية بأكملها جنون، واحتمال النجاح يساوي *الصفر*.

لم يجادله أحد، أعني أن أحدًا لم يناقش الأمر. فقط قيل لنا بفتور، بجزمٍ بسيطٍ لا يرتكز على دليل يدعمه، إن وزن المدفعية سيقهر كل ما يعترض طريقه. أظن أن هذه الكلمات بثت القشعريرةَ في عظام كل من يتذكر معركة السوم بين الحاضرين. ألقى مارشال قلم الرصاص من يده وجلس عاقدًا ذراعيه، صامتًا لما تبقى من الاجتماع.

وها نحن جالسون نكتب الرسائل. الإمدادات تستغرق وقتًا طويلًا كي تصل إلى هنا، لأن الألمان سدوا الطرق ونسفوا الجسور في أثناء انسحابهم. لا أحد منا دخل متجرًا حقيقيًا منذ ستة أسابيع، لذا أظل أقطع أوراقًا من نهاية هذا الدفتر وأقدمها إلى الآخرين.

لم يتبقَّ الكثير منها، لكنها كافية.

2 نوفمبر 1918 ***فوج مانشستر الثاني، فرنسا***

عزيزي ريفرز،

كما ستكون لاحظتَ من رسالتي الأخيرة، أنا ما زلتُ سليمًا. إن لم يُكتَب لهذه الحالة الراهنة السعيدة أن تستمر، سأكون ممتنًا لو تحاول أن تقابل والدتي. لقد أُعجِبَت بك كثيرًا حين التقيتُما العام الماضي في كريغلوكهارت، وأنت ستعرف ما يجدر أن يقال أكثر من معظم الناس، أو سيشير عليك عقلُك ألا تقول شيئًا، فلطالما كان هذا موطنَ قوتك، أليس كذلك؟

أعصابي صالحةٌ للعمل على نحوٍ ممتاز. وأعني بهذا أن التصرف العقلانيَّ الوحيد في وضعي الحالي هو الفرار، ولن أُقدِم على ذلك. هل اجتزتُ الامتحان؟

مع مودتي،
بيلي پراير

يا لها من رسالة قصيرة باردة أُرسلها إلى شخصٍ فعل الكثير من أجلي. النبرة خاطئة بالكامل، لكن ما من وقتٍ لتصويبها.

لا أجرؤ على التفكير في سارا.

3 نوفمبر

إننا محشورون فوق بعضنا في هذا القبو إلى درجة أن الأشخاص على كلا جانبيَّ لا يكفون عن لكز مرفقي. دخان السجائر يلسع عينيَّ، أعتقد حقًا أنك إن نفدَت منك السجائر هنا لن يكون عليك سوى أن تتنفس بعمق. لكنني ما زلت أملك ما يكفيني، حتى بعد نوبة الكرم التي اعترتني على ضفة القناة. اليومَ صباحًا أعدتُ التفكير في فعلتي هذه، وقررتُ أنها لن تتكرر. أمامنا اجتماعٌ آخر على ضفة القناة، لكنه من النوع الذي يرتضيه الناس هذه المرة.

يا له من يوم عجيب، يبدو كأنه استمر إلى الأبد. عقدنا اجتماعًا آخر في بيت مزرعةٍ يقع على مسافة أبعد ضمن الطريق الضيق. استقبلَنا كلبُ ترير صغير بنباحه، ما يزال جروًا، أسود وأبيض معتدٌّ بنفسه، كان يرفع إحدى قوائمه وهو يركض فظننتُه كسيحًا أول الأمر لكن الأطفال في المنزل قالوا لا، هو يركض هكذا دائمًا. هدأ لبعض الوقت، ثم سرعان ما استُثير وبدأ ينبح من جديد. أومأ وينترتون إليَّ وقال: «لا يمكننا تحمُّل هذا».

أطلقتُ عليه النار بنفسي. أنا فخور بذلك. أحيانًا، تكون تراقب عبر منظار أفقٍ في الخنادق فترى جنديًّا ألمانيًّا -ضمن صفوف الدعم الخلفية عادةً- يسير معتقدًا أنه في أمان، ثم يُنزِل سرواله ويقرفص ليتغوط مطمئنًّا. لا ترغب أن تطلق النار عليه لأن في انكشاف تلك المؤخرة العارية أمام الأذى شيئًا ما، تحس بتيار الهواء بين ردفيك؛ لحظةٌ من التعاطف الإنسانيِّ الخام. وعلى ذلك، تدل الحارس عليه وتأمره أن يطلق النار هو. هكذا ينجو الجميع من الورطة؛ أنت لم تقتله، والحارس فعل ذلك لكن تنفيذًا للأوامر.

بيد أنني أطلقتُ النار على الكلب بنفسي. أمسكتُه من طوقه وأخذته إلى الحظيرة، عرف أن شيئًا سيئًا سيحدث فانقلب على ظهره وكشف لي بطنَ الجراء ورديَّ اللون خاصته وهو يتلوى، واثقًا أن حيلَ ردعِ العدائيةِ هذه

ستنفع. داعبتُه خلف أذنه وقلت: «آسفٌ يا بُنيَّ العزيز. أنا إنسان، نحن لسنا هكذا».

وأنا مسرور بالدفء البشريِّ الخانق هنا، وليس لأنه يقينا من الريح والمطر فقط. البخار يتصاعد من حِزم أولئك الذين استأثروا بأماكن الجلوس عند النار وقلاشينهم[1]، أما بقيتنا فنكتفي بهز أصابع أقدامنا وندبر أمرنا.

رغم قولي إنني لا أجرؤ على التفكير في سارا، فأنا أفكر فيها طيلة الوقت. إنني أتذكر لقاءنا الأول؛ تلك الجولة الهزلية من المصارعة على بلاطة ضريح، التي تبدو حين أتأملها بدايةً مناسبةً بالأحرى لعلاقةٍ يسيّجها الموتُ هكذا. وقبل ذلك في الحانة، حين أغدقتُ عليها نبيذَ پورت لأنال مرادي، وأرادت أن تتكلم عن موت جوني ولم أُرِد أن أستمع. «لوس»، قالت. أتذكر أنني وقفت عند المشرب أفكر أن الكلمات ما عادت تعني شيئًا. وطنية شرف شجاعة قيء قيء قيء. الأسماء وحدها هي التي لها معنى. مونس، لوس، السوم، أراس، ڤردان، إيپر.

لكنني أنظر الآن في أنحاء هذا القبو فأرى الشموع مشتعلة فوق الطاولات وظلالنا المتشابكة تتواثب على الجدران وأدرك أن ثمة مجموعة أخرى من الكلمات التي ما زال لها معنى، كلمات صغيرة تمر مرور الكرام في الجُمَل: نحن، هم، لنا، لهم، هنا، هناك. هذه هي الكلمات التي لها قوة، وستظل كامنةً في اللغة بعد رحيلنا بزمن طويل، مثل القنابل التي لم تنفجر في هذه الحقول، وستكون كل واحدة منها كفيلة بنسف يدك عن جسدك.

وايات ينام مثل الرُّضَّع، علمًا أنه ما من رضيع في العالم بوسعه أن يشخر هكذا. هوغارت يقشر البطاطا. أكواب الشاي الذي له طعم الكلور متوزعة هنا وهناك. وثمة شخص يقطّع الخشب ويلقم النار به، رغم كونه رطبًا إلى درجة أن كل عودٍ جديد يُنتج ظلامًا وطقطقةً وظلالًا مؤقتةً على الوجوه والأعين، قبل أن تحيط به ألسنةُ اللهب وتتوهج النارُ من جديد. نحن بحاجة إلى نارٍ جيدة. الجميع يسعل ويصدر صفيرًا، ثمة زكام بغيض ينتقل من شخص إلى آخر. بدأت أحس بدغدغة في حلقي، أشعر بالحر وأرتجف في الآن نفسه.

(1) قلاشين: جمع قلشين، وهو رباط يُلف بإحكام حول الساق من الكاحل إلى الركبة. (المترجم)

أفكر في الجرذان على ضفة القناة بأذيالها الطويلة العارية، وفكرةُ تلك المياه الباردة ليست مُغرية بالتأكيد. لكننا نغني، نروي النكات وكلُّ نكتة تُروى هنا مضحكة. الجميع مبتهج على نحوٍ مذهل. الكلمة التي أحاول ألا أستخدمها هي «مخبول». لكن ثمة شيءٌ من هذا فعلًا، فجميعنا نعرف ما هي الاحتمالات.

وقريبًا سأطرد وايات من ذلك السرير وأحاول أن أحظى بقسطٍ من النوم.

قبل خمسة أشهر عرض تشارلز مانينغ عليَّ وظيفةً في وزارة الذخيرة ورفضتُها، وقلت إنني إن أعيد إرسالي إلى فرنسا... «إن، إن، إن، إن... سأتذكر هذا الأصيل وأنا جالس في مخبأ خندقي، وأقول لنفسي: «يا لك من أحمق لعين»».

أتذكر أنني كنت جالسًا على الأريكة ذات القماش المقصب القاسي في صالته حين قلت هذا.

طيب، هأنذا، في ما يمكن اعتباره مخبأً خندقيًا، وأنظر حولي إلى كل هذه الوجوه فلا أستطيع أن أقول لنفسي إلا: أي أحمق لعين لا يضاهى في الحماقة كنتُ لو أنني لم أَعُد.



18

الضباب البُنيُّ يكتنف المستشفى. لفائف من البخار الكبريتيِّ عالقة في هواء ردهة الدخول، ساكنة، تتحرك لتتخذ أشكالًا مختلفة كلما دخل أحدهم المبنى أو غادره. لقد خرج هو نفسه في وقت سابق من المساء ليشتري صحيفةً من الكشك قرب محطة ڤيكتوريا؛ مشوار منعش على الأقدام يستغرق عشر دقائق ذهابًا وإيابًا، فرصة لرئتيه كي تنالا قسطًا من الهواء، رغم أن الهواء هذه الأيام يسفع الحلق. كانت الأخبار جيدة؛ المرء يشعر أن المدافع قد تتوقف في أي لحظة ويُطلَّق سراح الجميع ليستأنفوا حيواتهم الخاصة. جميعهم يشعرون بذلك، ومع هذا بالكاد يبدو الأمر ذا بال. وباء الإنفلونزا الإسبانية الذي يُحكِم قبضته على المستشفى سرق الأضواء من النهاية التي كان الجميع يتوقون إليها. لو هرع شخصٌ عبر الدهليز الآن يفتح الأبواب ويصيح: «انتهت الحرب»، لقال له: «أوه، حقًا؟» ثم عاد إلى كتابة ملاحظاته.

نظر إلى ساعته ونهض واقفًا؛ حان الوقت كي يصعد إلى الجناح.

كان مارسدِن يحاول أن يجعله ينظر إليه. لقد تشكَّل لديه انطباعٌ، هذا الصباح في أثناء جولته على الجناح، أن مارسدن يريد أن يسأل عن شيء ما، لكن الطابع الرسمي للمناسبة أثناه عن ذلك. تبادل ريڤرز بعض الكلمات سريعًا مع الأخت روبرتس -وضعُ الطاقم سيئ في هذه الوردية على وجه الخصوص- ثم ذهب وجلس عند سرير مارسدن، ودردشا عن هذا وذاك ريثما يحمّي نفسه كي يقول ما يريد قوله. كان أمرًا بسيطًا جدًّا؛ لقد سمع طبيبًا متدربًا يتحدث إلى زميله أمام سريره والتقط عبارة «يثير منعكسَ الجماع».

أراد أن يعرف ما إن كان ذلك يعني أنه في *نهاية المطاف* -أكد على هذه العبارة قاصدًا ألا يرفع سقف التوقعات- وليس *الآن* طبعًا، بل في *نهاية المطاف*، سيكون قادرًا على ممارسة الجنس من جديد؟ لفظَ عبارة «ممارسة الجنس» بنبرة فضفضةِ رِجالٍ مسطحة بعيدة عن الهراء. كان يقصد «ممارسة الحب»، كان يقصد «إنجاب الأطفال». صورة زوجته فوق خزانته، وعضلات رقبة ريفرز توترت من الجهد الذي يبذله كيلا ينظر إليها. كلا، أجاب ببطء، ليس هذا ما يعنيه الكلام. شرح له ما يعنيه. لم يكن مارسدن يصغي، لكن كان بحاجة إلى ساترٍ دخانيٍّ من الكلمات يتوارى خلفه ليحضّر ردة فعله. أخذ يعبث بطرف الملاءة ويطويه بين رؤوس أصابعه. «حسنًا»، قال على نحوٍ عرَضيٍّ بعد أن أنهى ريفرز كلامه: «لم أكن أظن أنه يعني ذلك حقًّا، لكن قلتُ لنفسي أن أسأل».

حادث واحد؛ يوم واحد.

الخوذ الفولاذية تلقي ظلالها على الوجوه، ليس من المحتمل أن يميز واحدهم الآخر حتى لو مكّنهم ضوءُ النجوم الضعيف من الرؤية بوضوح. ظَل براير، وهو يجلس القرفصاء في أخدود بجانب مفترق الطرق، ينظر إلى باطن معصمه الأيسر حيث تكون ساعتُه عادةً. لقد أُخِذت منه قبل عشرين دقيقة لتتم مزامنتها. الأعراض المعتادة: جفاف فم، تعرُّق راحتين، خفقان، اضطراب مثانة، برودة قدمين. يا للدقة الوحشية في مصطلح «بردت قدماه»[1]. غير أن «تغوطَ على نفسه» -المصطلح الآخر ذا الدقة الوحشية- لم يكن ينطبق على حالته؛ كان يتجرع صبغة الأفيون طيلة اليوم، كما فعل العديد من المخضرمين الآخرين. سيعاني الأمرّين مع التغوُّط طوال أسبوعين حين ينتهي هذا، لكنه لن يتغوط على نفسه الليلة على الأقل.

نظر إلى معصمه من جديد، وانتبه إلى أوين يفعل الشيء نفسه، فابتسم بغيظٍ مشترك ولم يقل شيئًا. راح يحدق إلى النجوم، محاولًا تحديد موقع الدب الأكبر، لكنه لم يستطع أن يركز. غيوم المطر تتجمع. لا ينقصنا إلا هذا.

---

(1) يُستخدم هذا المصطلح في اللغة الإنجليزية للدلالة على التردد الناتج عن الخشية، الذي قد يُفضي إلى التراجع عن مخطط ما. (المترجم)

بعد بضع دقائق، عاد ساعٍ يحمل له ساعته، فأخذها وارتداها مع شعورٍ هائل -وهميٍّ طبعًا- باستعادة السيطرة على زمام الأمور.

والآن ها هم يتقدمون، مئات الرجال، بهدوء يبعث الرهبة، ظلالًا بشرية يلقيها ضوءُ النجوم بالكاد ترتسم على العشب. وما من كلاب تنبح.

تغبشت ساعةُ الحائط في نهاية الجناح، ثم استقرت صورتُها من جديد. كان يواجه صعوبةً في البقاء مستيقظًا الآن بعد أن أنهى جولاته وكتب تقاريره وبات المطلوب منه هو أن يكون *هناك* لا غير، متأهبًا لأي طارئ قد يلقيه الليلُ في طريقه. وضعت الأخت روبرتس أمامه كوبًا من الشاي برتقالي اللون شديد الحلاوة، فتناول جرعةً منه. جلسا معًا في غرفة تمريض الوردية الليلية -ما من ممرضات ليليات فجميعهن أخذن إجازة مرضية بسبب الإنفلونزا- يشربان الشاي الثقيل والحلو للغاية، ويراقبان الطرف الآخر من الجناح، حيث وُضِعت السواتر الخضراء حول سرير هاليت. المصباح فوق سريره يضيء وحده، فتتوهج السواتر الخضراء أمام الظلام المخيِّم على بقية الجناح. عبر فرجة بين السواتر، يستطيع ريڤرز أن يرى أحد أفراد العائلة، فتىً صغيرًا، ربما في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمره، شقيق هاليت الأصغر، يتلوى فوق كرسيه ضجرًا من ساعات الانتظار الطويلة، مدركًا أن ضجره لا يُغتفَر.

«أتمنى لو تذهب الأم إلى بيتها وتستلقي»، قالت الأخت روبرتس: «لقد استنزفت طاقتها دون شك»، تنشّقت بصوتٍ مسموع، «وتلك الفتاة تبدو لي من النوع الهستيريّ».

لم تكن تحب الفتيات بتاتًا. «أهي أخته؟».

«خطيبته».

سُمِعت غمغمةٌ من خلف السواتر، لكن ما من كلمات واضحة. نهض ريڤرز: «الأفضل أن ألقي نظرة».

- أتريد أن يخرج أقاربُه؟

- من فضلك، لن أستغرق أكثر من دقيقة.

رفع أفرادُ العائلة رؤوسهم عندما دفع السواترَ جانبًا. إنهم جالسون حول هذا السرير على نحوٍ متقطع منذ ستٍّ وثلاثين ساعة تقريبًا، منذ لحظةٍ بدأت حالةُ هاليت تتدهور. كانت السيدة هاليت، الأم، على يمين هاليت، واعتقد أن ذلك لأن العائلة قررت إعفاءها من رؤية الجانب الأيسر لوجه هاليت أطولَ فترة ممكنة. القسم الأسوأ محجوب تحت الضمادة الموضوعة على عينه، لكن مقدارًا كافيًا ما يزال مرئيًا. أما الأب فيجلس على الجانب السيئ؛ رجلٌ في منتصف العمر، قامته منتصبة جدًّا، متقاعد من الحياة المهنية العسكرية لكنه يرتدي الزي خلال الحرب. يُجلِس كتفيه ويتكتف بطريقة توحي بألم ظهرٍ مزمنٍ أكثر من كونها استجابة للوضع الراهن. ثم الفتاة، التي اسمها... سوزان، أليس كذلك؟ جالسة، تفتل منديلًا بين أصابعها، وكثيرًا ما تعلو وجهَها ابتسامةٌ مهذبة خالية من المعنى، وسط العائلة التي كانت ستنضم إليها وباتت تدرك الآن لا شك أن ذلك لن يحدث. والفتى، الذي يكاد يكون الأكثر تأثيرًا في المشاعر بينهم؛ أرعن، عديم اللباقة، غاضب من كل شيء، صوته يتحول أحيانًا إلى صريرٍ حادٍّ على نحوٍ مُذلٍّ تتورد له وجنتاه، وفي أحيان أخرى يلعلع مثل النهيق في جنبات الجناح، بتمردٍ وصعوبةٍ مِراس، مطالبًا بالانتباه، لأنه يخشى إن كف عن التصرف بهذه الطريقة أن يبكي.

نهضوا حين دخل، ونظروا إليه بطريقة يألفها منذ أيام عمله الأولى في المشافي. كانوا يتوقعون منه أن *يفعل* شيئًا ما. فرغم أنهم أُطلِعوا على حالة هاليت الحرجة، ما زالوا يأملون أنه سوف «يجعله يصح».

طلبت الأختُ روبرتس منهم أن ينتظروا في الخارج، فانسحبوا إلى غرفة الانتظار في نهاية الدهليز الرئيسيّ.

نظر إلى هاليت. الجانب الأيسر من وجهه مترهل بأكمله، والعين المكشوفة غائرة في جمجمته، ومفتوحة رغم أنه لا يبدو واعيًا تمامًا. لقد حُلِق شعره تمهيدًا للعملية التي تركت هذه الندبة الشبيهة بحدوة الفرس، والتي تتعافى على نحوٍ جيد لسخرية القدر، فوق الجرح المتقيح الذي خلَّفته رصاصةُ البندقية. الفتق الدماغيُ ينبض، فيبدو مثل كائنٍ بحريٍّ غريب، ربما فم شقائق النعمان البحرية. كامل الجنب الأيسر من جسده عديمُ الجدوى. وحتى عندما كان واعيًا بما يكفي كي يتكلم، كان يستحيل فهم نطقه بسبب

ارتخاء فمه والأذية في فكه السفليّ، وهذا أرعب عائلتَه أكثر من أي شيء آخر. كان المرء يراهم يبذلون جهدهم كي يفهموا، لكن لا يستطيعون إدراك كلمة مما يقوله. صوته يَخرج همسًا لأنه لا يملك القوة الكافية لإصداره بالشكل الطبيعيّ. بدا يهمس الآن. انحنى ريڤرز عليه وأنصت، ثم نهض مقرًا أنه لا بد تخيلَ الصوت. لم يكن هاليت يُبدي أي حركة، باستثناء الارتعاش المعتاد تحت غطاء السرير، الناتج عن الرمع المستمر الذي يعانيه مفصلُ كاحله الأيمن.

لماذا أنت حي؟ طرح ريڤرز السؤال في قرارته وهو ينظر مطرقًا إلى ذلك الوجه الغرغولي[1].

«*ماتي*»، هذه هي الكلمة التي كان نْجيرو سيستخدمها للتعبير عن الأمر: الحالة التي يكون الموت نتيجتَها المناسبة، ومن ثم المرغوبة. كان ليرى هاليت ميتًا بالفعل، بكل ما للكلمة من معنى، وستكون غايته الوحيدة استعجالَ لحظة الموت الحقيقيّ: *ماتي نْداپو*، الموت الناجز. راح ريڤرز يمرر أصابعه على الشارة المعلقة بطية صدر سترته؛ أعصابُه السليمة تنقل شكل صولجان هرمز[2] إلى دماغه غير المتضرر، وولاؤه لمجموعةٍ مختلفة من المعتقدات يتأكد في أعماقه بعد صراعٍ لم يخترق سطحَ وعيه.

قاس نبضَ هاليت. «حسنًا»، قال للأخت روبرتس: «يمكنك السماح لهم بالعودة إلى هنا».

شاهدها تسير مبتعدة، ثم فكر أنه كان تصرفًا جبانًا منه ألا يواجههم، وتبعها عبر الدهليز مارًّا في طريقه بالسيدة هاليت. ترددت حين رأته، لكن دافِعَها للعودة إلى ابنها كان أقوى. سوزان والأخ الصغير تبعاها. وجدَ الرائدَ هاليت واقفًا عند نافذة مفتوحة، وقد تخلف عنهم يدخن بشراسة. دخلت نسمةُ

---

(1) نسبةً إلى الغرغول، وهو مزرابٌ على شكل تمثال يصور كائنات أسطورية قبيحة ومخيفة، يبرز استعماله في العمارة الأوروبية القديمة، ولا سيما الكنائس. (المترجم)

(2) صولجان هرمز (أو القادوسيوس): عصا تُرسَم مع ثعبانين ملتفين حولها يعلوهما جناحان، تُستخدم رمزًا عالميًّا للطب. وهرمز في الميثولوجيا الإغريقية هو رسول الآلهة، وحامي رسل البشر ومسافريهم ولصوصهم وتجارهم وخطبائهم، كما يؤدي دور مرشد الأرواح في العالم السفلي. (المترجم)

هواء رطب حار مشبع بالضباب إلى الغرفة، بمنزلة تذكيرٍ أن هنالك عالمًا خارجيًا.

«مثير للشفقة، أليس كذلك؟»، قال الرائد هاليت رافعًا لفافة التبغ: «إذًا؟».

تردد ريڤرز.

- لم يعد أمامنا الكثير، ها؟

- كلا، ليس الكثير.

على الرغم من إيجازه في الكلام، غرغرت عينا الرائدِ هاليت بالدموع على الفور. أشاح بوجهه، وقال بصوتٍ راجف: «لقد أبدى شجاعة كبيرة، شجاعة كبيرة جدًا بحق اللعنة»، مرت لحظةٌ صارع خلالها ليتمالك زمام نفسه، «كم تبقى من الوقت تمامًا برأيك؟».

- لا أدري. ساعات.

- يا رباه.

- تابِعوا الكلام معه، فهو يميز أصواتكم ويستطيع أن يفهمكم.

- لكننا لا نستطيع أن نفهمه. هذا مريع، من الواضح أنه يتوقع جوابًا ونحن لا نستطيع أن نقول شيئًا.

عادا إلى الجناح معًا، وتوقف الرائد هاليت خارج السواتر لحظةً يُجلِّس ظهرَه. سُمِعت غمغمة من السرير. «أترى؟»، قال الرائد هاليت بنبرة العاجز.

تبعه ريڤرز عبر الفرجة بين السواتر، وانحنى كي يستمع إلى هاليت. كان صوته همسًا مدغمًا: «أماشتحق».

لم يتبين ريڤرز أول الأمر سوى حرف بين السين والشين، فخطر له أنه ربما يحاول أن يقول «سوزان»، لكن العبارة التي ينطقها أطول من ذلك. أنهض ظهره وهز رأسه: «تابعي الكلام معه يا سيدة هاليت، فهو يميز صوتك».

انحنت إلى الأمام وحاولت -بخجلٍ ناتجٍ عن الحرج الاجتماعيِّ الذي يبرز فجأةً ويعذب صاحبه في مثل هذه المناسبات- أن تتكلم، وتنقل إليه أخبار العائلة: الخالة إيثل تبلغك حبها، ومادلين ستتزوج في أبريل...

شفتا سوزان تحملان تلك الابتسامة مجددًا، ثابتة وبلا معنى، مثل فم قرد بابون يوحي بالرعب الصِّرف. ووجهُ الفتى، قناعٌ من الخوف والغيظ لأنه يعلم أن الدموع ستبدأ في أي لحظة الآن، وسيشعر بالخزي أمام محكمةٍ لا ترحم يقيمها ذهنُه.

تركهم ريڤرز يتولون الأمر. كانت الأخت روبرتس ومساعد التمريض الوحيد مشغولَين مع آدمز الذي يجب أن يُقلَّب كل ساعة. جلس في الدائرة التي يرسمها ضوءُ غرفة الوردية الليلية، يجوّل نظره في أنحاء الجناح ذهابًا وإيابًا، حاملًا نفسه على تعداد التفاصيل المتعلقة بكل مريض وتذكُّرها، وذهنُه المتعَب ينتظر الرعشة التالية لساعة الحائط.

ذكَّرته السواترُ الخضراء المتوهجة حول سرير هاليت بالخيمة في إيديستون، خلال الليالي التي يشتد فيها هجوم الحشرات فيضطران أن يُدخلا المصباح. كان المرء يخرج إلى الآجام ويعود فيرى توهُّج الضوء الشديد هذا، وظِلَّ هوكارت ضخمًا على قماش الخيمة. إنه الأمان، أو أقرب درجةٍ يمكن بلوغها منه على حافة الظلام.

في مسائهما الأخير، كان جالسًا خارج الخيمة يوضب الملابس والمعدّات في حقائب موزعة حوله، ويبيّض ملاحظاته النهائية على الآلة الكاتبة. لقد ذهب هوكارت إلى الجانب الآخر من الجزيرة، ولن يرجع قبل ساعات. تعبت عيناه لأنه يعمل على مقربة من الضوء، فأسند ظهره يفرك زاويتيهما الداخليتين؛ فتحهما مجددًا فوجد نْجيرو على بُعد أقدام قليلة يراقبه، بعد أن اقترب صامتًا على قدميه الحافيتين.

أخذ ريڤرز المصباح عن الطاولة ووضعه على الأرض ثم جلس القرفصاء بجانبه، لكونه يعرف أن نْجيرو يرتاح على الأرض أكثر. الآجام تنضح بالسواد، والعث الكبير الذي يحب نوعًا محددًا من الشجيرات المزهرة النامية بكثرة حول الخيمة يرتطم بالزجاج مثل كرات فروٍ صغيرة، ما جعله هو ونْجيرو جالسين وسط غمامة من الأجنحة الشاحبة.

دردشا مدةً من الوقت حول بعض معارفهما المشتركين الذين بات عددهم يتجاوز الأربعمئة، ثم خيم صمتٌ طويلٌ سلِس.

«كونداتي يقول أنت يعرف آفي»، قال ريفرز بهدوء شديد، كما لو أن الآجام نفسها هي التي نطقت وليس المطلوب من نْجيرو أكثر من أن يفكر بصوتٍ عالٍ.

أجاب نْجيرو الإجابة التي قدمها في البداية نفسها تقريبًا. «كونداتي لا يحكي حقيقة، هو يتكلم *هراء* لا يفهم»، لكنه تكلم هذه المرة وفي صوته دمدمةُ ضحكةٍ خافتة، وأضاف بالإنجليزية: «إنه كاذب».

«إنه كاذب، صحيح، لكنني أظن أنك تعرف آفي بالفعل».

تذكَّر فجأةً موقفًا حدث في جُزر مضيق توريس، حين كان هادون يحاول الحصول على جماجم يقيسها. قال له أحد الرجال بوقارٍ هائل: «لا تستعجل، سوف تحصل على جماجمنا جميعًا في الوقت المناسب». لم تكن هذه ذكرى مريحة. هو لا يطلب جماجم، لكنه يطلب شيئًا يضاهيها -على الأقل- في القدسية. انحنى إلى الأمام، فاشتبك ظلاهما وتصارعا على الآجام. «أخبرني عن آفي».

آفي يعيش في إيزابيل، وهو روح واحدة وعدة أرواح في آنٍ معًا. فمه طويل ومملوء بدماء الرجال الذين يلتهمهم. كيتا وماتيانا لا تُعتبران شيئًا مقارنةً به، فهما تقضيان على الفرد فقط، أما آفي فيقتل «كل ناس في بيت». قوس قزح المكسور تابع له، وظهوره ينذر بالأوبئة والحرب. آفي هو مدمر الشعوب.

وكلماتُ طَردِه؟ أطلعه على هذه كذلك، كأنها آخر فقاعات تخرج من فم غريق. لم يقلها له وحسب، بل أصر عليه -بمزيجِ إتقانِ العلماء ونفادِ صبر المفكرين الذي يميزه- أن يتعلمها بالميلانيزية، بـ «اللغة العالية»، إلى أن أجاد نطق كل مقطع لفظيٍّ بالشكل الأمثل. هذا هو أساس قوة نْجيرو، قال ريفرز لنفسه وهو يكدح ويتلعثم في لفظ الكلمات، السبب الذي يجعل حتى أعظم الزعماء يتنحون عن الطريق حين يقابلونه.

«والآن»، قال نْجيرو رافعًا رأسه بتعبيرٍ تتمازج فيه الكبرياء والازدراء: «الآن ستضعها في كتابك».

لم أفعل ذلك قط، فكر ريڤرز. كان كتابه هو وهوكارت عن إيديستون من ضمن خسائر الحرب، لكن يصعب اعتباره -نقّل نظره في أنحاء الجناح على صفوف الشبان المشلولين والمصابين بالتلف الدماغيّ- أبرزَ هذه الخسائر.

بيد أنه تلا تلك الكلمات خلال محاضرة في الجمعية الملكية، وسَرَّه أنه لم يجد حاجةً إلى مراجعة أوراقه وهو يتلوها. كان نطقُه لها ما يزال ممتازًا.

سُمِعت جلبةٌ من خلف السواتر. كان هاليت قد بدأ يصيح، وعائلته تحاول تهدئته. سرَت غمغمة في أنحاء الجناح، إذ أخذ بقية المرضى يتقلبون ويهمهمون متذمرين في نومهم، يُجَرون إلى اليقظة مُكرَهين، لكن تذمُّرهم توقف حالما أدركوا مصدر الصياح. حط الصمت، والتفتت الوجوه نحو السواتر كأن المعركة الناشبة خلفها معركةُ كل رجلٍ بينهم.

سار ريڤرز إلى هناك بهدوء، ومرة أخرى نهض أفراد العائلة لدى دخوله. «كلا، لا بأس»، قال: «لا داعي إلى خروجكم».

قاس نبضَ هاليت. كان يحس بنظرات الوالدين مسلطةً عليه؛ عينا الأب بعروقهما الحمراء لا ترمشان، ووجه الأم الشاحب الشرس يتمتم بفمه.

«انقضى الأمر، أليس كذلك؟»، سأله الرائد هاليت هامسًا.

أطرق ريڤرز ينظر إلى هاليت، الذي كان واعيًا بالكامل الآن. رباه، قال في قرارته، ستكون واحدةً من تلك. هز رأسه: «لم يتبقَّ الكثير».

من المقرر أن يبدأ الستارُ الناريُّ في غضون خمس عشرة دقيقة. اقتسم پراير لوح شوكولاتة مع روبسون، وهما جالسان يحدبان ظهريهما معًا تحت غشاوة الضباب البارد الرطب. ثم بدؤوا الزحف إلى الأمام. كان أفراد وحدة الهندسة القتالية -الذين يحملون اللوازم الثقيلة لإقامة الجسر العائم- يسلكون الطريق الضيق، لذا تعيّن على فوج مانشستر أن يتقدم عبر الحقول المشبعة بالماء. لقد توقف المطر، لكن الماء يغمر أماكنَ من الأرض المستنقعية أصلًا، وطبقات كثيفة من الضباب تكسو كل رقعة ماء. لا تركزْ إلا على لحظتك هذه، قال پراير لنفسه وهو يتقدم على ركبتيه ومرفقيه مثل ضفدع أو سحلية أو مثل... مثل أي شيء سوى إنسان. الركبة اليمنى أولًا،

ثم اليسرى، ثم اليمنى، ثم اليسرى مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، منسلًا عبر عشبٍ أخضر ريان تنبعث منه رائحةٌ حادةٌ للغاية حين تقطعه الجِزمُ بنعالها الخشنة. رغم كل هذا الضباب، بدأت الحواسُ تدرك أثرًا رقيقًا للضوء، وميضًا منبعثًا من القناة التي تجري بين أشجارٍ مهزولة ميتة.

لا تراجُعَ تحت أي ظرف، هكذا كانت الأوامر. لقد شدّونا إلى وتدٍ لا نستطيع الفرار منه، وعلينا أن نقاتل قتالَ الدب المقيد لكلابٍ تهاجمه[1]. الرجال صامتون، يحدقون أمامهم في الضباب. الكلام محظور، حتى بالهمس. نظر براير إلى ساعته، ولعق شفتيه الجافتين وهو يراقب العقرب يزحف نحو خط ثلاثة أرباع الساعة. توترُ الأنفاس المحبوسة يحيط به من كل جانب. 5:43. تبقَت دقيقتان. أخفض جذعَه أكثر، وأسنانه تشد على الصافرة.

في الوقت المحدد تمامًا، انفتحت أبواب الجحيم. انطلقت القذائف تئز: ومضات من الضوء، المياه تتفجر في أخاديد التصريف، أطنان من الوحل والتربة تتناثر في الهواء. سقطت قذيفةٌ قبل بلوغ هدفها، فاهتزت الأرض تحتهم وانهمر وابلٌ من الحصى وكتل الطين على خوذهم الفولاذية. خمس دقائق من هذا، خمس دقائق والهواء ينفجر في الوجه على شكل موجات، والرجال ذوو الوجوه المنبهرة يتشبثون أمامه وهم يرفعون الجسور الخفيفة المجهزة لعبور الأخاديد الملأى بالمياه ويحملونها إلى المقدمة. ثم، دون سابق إنذار، صمت. شهقةٌ من أجل الهواء، ثم الضجيج من جديد، لكنه تراجع إلى الخلف مع ارتفاع الستار الناريّ وانهماره على الحقول الخاوية.

نفخ برايز الصافرة، ولم يستطع سماع صوتها، ثم هب على قدميه وراح يركض على كل حال، وهو يحث الرجال على التقدم بصيحات خرساء. هُرعوا إلى الأمام، متجهين نحو صف الأشجار. ظل برايز يصيح: «بثبات، بثبات! خففوا سرعتكم على الميسرة!». من الضروريّ ألا تتشكل تجمعات حين يصلون إلى الجسور. «حافظوا على استقامة سيركم!». بيد أن الرجال كانوا يتعثرون بالبِرك المستنقعية ورقع العشب. تعالى أزيزُ قذيفة أطلقها الجانب

(1) الاقتباس «قد شدّونا... لكلابٍ تهاجمه» مأخوذٌ من مسرحية «مكبث» لشكسبير، ترجمة: حسين أحمد أمين، بتصرُّف، مع تحويل صيغة المتكلم من المفرد (كما في المسرحية) إلى الجمع (تبعًا لنص باركر). (المترجم)

الألمانيُّ وهي تمر فوقهم، ثم انفجرت مرسلةً وابلًا من الوحل والماء، وتلتها أخرى. رأى العديدَ من الظلال البشرية الصغيرة تنقلب، لم يبدُ الأمر جديًا بطريقةٍ ما، لم يبدوا كائناتٍ بوسعها أن تتأذى.

مُدَّت الجسور، بسرعة وإتقان، وتم العبور دون تجمعات، لا شيء سوى خبط الجزم على الخشب. ثم خرجوا من تحت الأشجار إلى عراء الضفة المرعب، عراةً مثل مقلة العين، دون غطاء من أي نوع، وكان رماة الرشاشات على الجانب الآخر أحياء يُرزقون. ارتموا منبطحين، وراحوا يطلقون النار ليؤمِّنوا غطاءً لأفراد وحدة الهندسة وهم يركِّبون الجسر بشق الأنفس، لكن لا شيء يغطيهم هم. أخذ الرصاص ينهمر مثل المطر، ويغضن وجه ماء القناة، وبدأ الرجال يتساقطون. رأى پراير الرجل الذي بجانبه؛ وجهٌ متفاجئ صامت يدور ويهوي دون صوت، وجرحٌ قرمزيٌّ ينفتح مثل وردة ضخمة في صدره. تابع زحفه إلى الأمام، وهو يطلق النار على الضفة المقابلة رغم أنه بالكاد يبصرها بسبب غيوم الدخان التي يحملها الهواء. أفراد وحدة الهندسة ما زالوا يتصارعون مع الجسر، ويربطون أجزاء الطوف بأسلاك يتطاير منها الشرر في أيديهم حين يضربها الرصاص. والمطر الرهيب ينهمر وينهمر. لم يتبقَّ سوى اثنين من الوحدة، ثم تولى فوجُ مانشستر بناءَ الجسر. نزل كيرك إلى الماء على متن صندوق ليؤمِّن غطاءً ناريًا، فأصيب، ثم أصيب مجددًا، هذه المرة في وجهه، وتابع إطلاق النار مباشرةً نحو رماة الرشاشات الجاثمين في حُفَرهم المحمية على بُعد بضع ياردات لا أكثر. كان پراير يهم أن ينزل إلى الماء حاملًا الذخيرة عندما أصيب هو الآخر، بيد أنه لم يحس بها كرصاصة، بل كضربة من شيء كبير وصلب بالأحرى، هراوة أو مضرب كريكت، إلا أنها أطاحت به عن قدميه، فسقط وتدلت ذراعه عن حافة القناة.

حاول أن يستدير ليزحف عائدًا إلى خلف أخاديد التصريف، مدركًا أنها ليست إلا مسألة وقت قبل أن يصاب من جديد، لكن الغاز كان كثيفًا هنا ولم يستطع الوصول إلى قناعه. أخذت أفكارٌ مبتذلة بسيطة مكرورة تدور وتدور في فكره. *حماقة*. جنون محض. *يا للمسيح*. ما من ألم، الأمر أشبه بخدر ينتشر ويترك دماغه صافيًا. رأى كيرك يموت. رأى أوين يموت؛ الرصاص يرفع جسدَه عن الأرض، راسمًا قوسًا بطيئًا في الهواء وهو يهوي. بدا السقوط يستغرق دهورًا، ووعيُ پراير يذوي مترنحًا معه. حدق إلى صورته المنعكسة،

التي تكسرت والتأمت ثم تكسرت من جديد فيما الرصاص يضرب سطح الماء. وبعد ذلك، بالتدريج، مع انتشار الخدر أكثر فأكثر، ما عاد يبصرها.

•

الضوء يتنامى الآن؛ الضوء الملجوم الضارب إلى البُنيّ لفجرٍ نوفمبريٍّ. في النهاية القصية للجناح، كان سيمپسون -وحالته هو الآخر متردية أكثر من أن تتيح له أي فهمٍ لما يدور حوله- يرطن ويبقبق باستمرار، لكن جميع الوجوه الأخرى ملتفتة نحو السواتر، كل رجلٍ يقدم المقدارَ الضئيل الذي لديه من القوة ليساند هاليت في صراعه.

حتى هذه اللحظة، كان هاليت صامتًا في ما خلا الهمسة التي تكررت مرتين والصياح عديم الكلمات. غير أن الهمس بدأ الآن من جديد، بصوت أعلى هذه المرة. *أماشتحق. أماشتحق*. مجددًا ومجددًا، والصوت يرتفع مع تسخيره كامل قوته لهذه الصيحة. حاولت والدته أن تهدئه، لكنه لم يسمعها. *أماشتحق، أماشتحق*. مجددًا ومجددًا، والصوت أعلى في كل مرة، صداه يتردد في جنبات الجناح. فتح عينه الوحيدة وحملق مباشرةً إلى ريڤرز، الذي كان قد جاء من خلف السواتر ووقف عند طرف سريره.

«ما الذي يقوله؟»، سأله الرائد هاليت.

فتح ريڤرز فمه كي يقول إنه لا يدري، ثم أدرك أنه عرف. «إنه يقول: «الأمر لا يستحق»».

«أوه، بلى، إنه يستحق، يستحق»، قال الرائد هاليت قابضًا على يد ابنه. الرجل غارق في سكرات العذاب، وبالكاد يدرك ما يقوله.

«*أماشتحق*».

تعالت الصيحة من جديد كأنه لم يتكلم، وبدأت البلبلة تسري الآن بين بقية المرضى. جلبةُ احتجاجٍ، لا على الصيحة بل تأييدًا لها، دمدمةٌ عديمة الكلمات من الأدمغة التالفة والأفواه المرتخية.

«*أماشتحق، أماشتحق*».

«لا أستطيع تحمُّل المزيد من هذا»، قال الرائد هاليت. عينا الأم لم تفارقا وجهَ ولدها قط، وشفتاها تتحركان مع أنها لا تصدر أي صوت. كان ريڤرز يحس ضغطًا يتفاقم في حلقه، فيما صيحة المرضى الموحدة تتردد وتتردد. لن يستطيع في ما بعد أن يجزم إذا ما كان قد نجح في التزام الصمت أم أنه انضم إليهم هو الآخر، كل ما سيتذكره لاحقًا هو تشبثُه بحافة السرير المعدنية إلى أن آلمته يداه.

ثم فجأةً انتهى الأمر؛ تلاشت الكلمات المشوهة ليأخذ الصمتُ مكانها. وبعد لحظةٍ طالت أو قصرت، بحركةٍ غريبة من عضلات الصدر والمعدة كما يحدث لدى من ينزع سترةً ضيقةً للغاية، مات هاليت.

وصل ريڤرز إلى جانب السرير قبل أن تدرك العائلة رحيلَ ابنها، وأغمض له العينَ الوحيدة، ثم نظر إلى ساعته بحكم العادة لا أكثر.

«6:25»، قال مخاطبًا الأختَ روبرتس.

رفع الملاءة حتى غطت ذقنَ هاليت، ثم سوَّى له ذراعيه على جانبَيه وانسحب صامتًا، تاركًا العائلة وحدها مع أساها، متمنيًا -وهو يضم السواتر إلى بعضها- لو أنه لم يرَ الفتاة الشابة تتنحى جانبًا لتخفي تعبيرَ الانفراج الذي اعتلى وجهَها.

على حافة القناة، يستلقي أفرادُ فوج مانشستر؛ أعينهم ما تزال مفتوحة، وأطرافُهم لم تُسَوَّ بشكلٍ لائق بعد، لأن حمَلة النقالات غادروا مع آخر المصابين، وتُرِك الموتى وحدهم. لقد أفلتت المعركةُ من أيديهم؛ الجسر الذي نجحوا في بنائه دُمِّرَ بقذيفة واحدة. وعلى مسافة أبعد ضمن الضفة، تجري محاولةٌ أخرى وأنجح للعبور، لكن الصيحات والصرخات تصل ضعيفةً إلى هنا.

الشمسُ أشرقت. شعاعُها الأول يضرب الماء، ويزحف نحوهم على طول الضفة، كاشفًا عن ظهر يدٍ هنا وجانبِ عنقٍ هناك، مُضفيًا وهجًا ورديًا على جلدٍ تصفَّى من دمِه، ثم -إذ لا يجد شيئًا يستطيع أن يستجيب له هنا- يعبر فوقهم ويبدأ تلمُّس طريقه في الحقول البعيدة.

الضوء الرماديُّ المَشوبُ بمسحةٍ وردية ينز من النوافذ الطويلة، وريڤرز المرتخي على نفسه في غرفة التمريض الليلية يكافح كي يظل مستيقظًا. على حافة النوم، يسمع صوتَ نْجيرو يردد كلمات طرد آلّي.

يا سومبي! يا غيسيسي! يا پالاپوكو! يا غوريپوكو! وأنت يا نْغينغيري في جذر السماء. انزلوا، غادِروا.

وهناك، فجأةً، ليس منفصلًا عن الجناح، ليس شبحيًا بأي شكل، ليس مثل *الـ «توماتي»*، بل هو ذاته بكل تفاصيله، يتقدم في جناح مستشفى الإمبراطورية، محفوفًا بأفراد حاشيته الظِّليين، كما سبق لريڤرز أن رآه مرارًا وتكرارًا على الطريق الساحلي في إيديستون، جاء نْجيرو.

ثمة نهايةٌ للبشر، نهايةٌ للزعماء، نهايةٌ لزوجات الزعماء، نهايةٌ لأبناء الزعماء... إذًا فانزلوا وغادِروا. لا تشفقوا علينا، نحن ذوي الأصابع المبتورة، الكُسحان، المكسورين. انزلوا وغادِروا، أوه، أوه، أوه.

انحنى على ريڤرز، محدقًا في وجهه بتينك العينين الثاقبتين تعلوهما طَيَّتا الجلد تحت الحاجبين. ومرت لحظةٌ طويلة، ثم تلاشى الوجهُ البُنيُّ بما عليه من خطوط جيرٍ في ضوء الجناح النهاريّ.

ملاحظات الكاتبة

قد يرغب القارئ أن يعرف المزيد عن بعض الشخصيات التاريخية التي يقابلها في هذه الرواية.

قُتِل العقيد «مارشال ذو الإصابات العشر» في أثناء محاولته عبورَ قناة سامبر واز، بعد أن تصدَّر رجالَه «دون اعتبارٍ لسلامته الشخصية»، ومُنِح وسام صليب ڤيكتوريا بعد وفاته.

مُنِح جيمس كيرك، الذي نزل إلى الماء في القناة ليؤمِّن غطاءً ناريًّا، وسام صليب ڤيكتوريا بعد وفاته أيضًا.

جاء تقليدُ ويلفريد أوين وسامَ الصليب العسكريِّ، لقاءَ البسالة التي أظهرها في استيلائه على أحد رشاشات العدو وإلحاقه «خسائرَ معتبرة» في صفوفه خلال معركة جونكور، بعد وفاته.

استند ريڤرز إلى بياناته المتعلقة بجزيرة إيديستون في العديد من أبحاثه المنشورة، بيد أن العمل المشترك الأكبر الذي خطط له هو وهوكارت لم يُكتب قط. ويُذكَر أن دفاتره موجودة في قسم المخطوطات النادرة بمكتبة جامعة كامبريدج.

نْجيرو، كونندايتي، نامبوكو تارو، نامبوكو إيميلي، ناريتي، ليمبو، والطفل الأسير، جميعهم شخصيات تاريخية أيضًا، لكن لا يتوفر المزيد من المعلومات عنهم.

يمكن التوصية دون تحفظات بالأعمال التالية:

- و. هـ. ر. ريفرز لـ «ريتشارد سلوبودين» (مطبوعات جامعة كولومبيا، 1978).
- ذكريات *لويس كارول* لـ «كاثرين ريفرز»، قدم له ريتشارد سلوبودين (لايبراري ريسيرتش نيوز، جامعة ماكماستر، 1976).
- *الرسائل الكاملة لويلفريد أوين* (مطبوعات جامعة أكسفورد، 1967).
- ويلفريد *أوين* لـ «جون ستالوورثي» (مطبوعات جامعة أكسفورد، 1974).
- أوين *الشاعر* لـ «دومينيك هيبرد» (ماكميلان، 1986).
- ويلفريد أوين، *العام الأخير* لـ «دومينيك هيبرد» (كونستابل، 1992).
- *أصوات* ويلفريد أوين*: اللغة والمجتمع* لـ «دوغلاس كير» (كلاريندون بريس، 1993).
- ويلفريد *أوين، شاعرٌ* وجندي لـ «هيلين ماكفيل» (غليدون للكتب بالاشتراك مع مؤسسة ويلفريد أوين، 1993).

قائمة الشخصيات

الشخصيات الرئيسية

- د. *ويليام* هـ. ريڤرز: طبيبٌ نفسيٌّ في مستشفى كريغلوكهارت الحربيِّ.
- بيلي *پراير*: ملازمٌ يعاني صدمةَ قصف، أحدُ مرضى ريڤرز.
- *سارا* لام: عشيقةُ بيلي، تعمل في مصنع ذخيرةٍ اسكتلنديٍّ.
- *آدا* لام: والدة سارا الأرملة.
- سيغفريد *ساسون*: جندي، شاعر، أحدُ مرضى ريڤرز.
- د. هنري هيد: طبيبٌ نفسيٌّ وشريكُ ريڤرز القديمُ في أبحاثه بجامعة كامبريدج.
- *تشارلز* مانينغ: ضابطٌ يعمل في وزارة الذخيرة، أحدُ شركاء پراير.

تجدُّد

- *النقيب* روبرت غريڤز: صديقُ ساسون، جنديٌّ وشاعر.
- ويلفريد *أوين*: أحدُ مرضى ريڤرز[1]، صديقُ ساسون وشاعرٌ مثله.

(1) تجدر الإشارة إلى أن هذا ما ورد في النص الأصلي لقائمة الشخصيات، إلا أن أوين كان أحدَ مرضى د. بروك لا ريڤرز، وفقًا للجزء الأول وكما يرد على لسان ريڤرز نفسه في الجزء الثاني. (المترجم)

- *رالف أندرسون*: طبيبٌ عسكريٌّ يعاني رهابًا من الدم، أحدُ مرضى ريڤرز.
- ديڤيد بيرنز: أحدُ مرضى ريڤرز في كريغلوكهارت، فقدَ القدرة على تناول الطعام منذ أن حطَ في أحشاء جنديٍّ ميت.
- د. *لويس* بيلاند: طبيبٌ في المستشفى الوطنيِّ، يستخدم العلاجَ بالصدمات الكهربائية على مرضاه.
- كالان: جنديٌّ يعاني من البَكَم، أحدُ مرضى بيلاند.

العَينُ في الباب

- بيتي *روپر*: سجينة من المناديات بحق المرأة في الاقتراع، ساعدت في تنشئة بيلي.
- ويني *وهيتي روپر*: ابنتا بيتي.
- پاتريك *ماكدويل («ماك»)*: صاحبُ هيتي، مناصرُ سلامٍ فارٌّ نظّمَ إضراباتٍ في مصانع الذخيرة.
- *ليونيل سپراغ*: يعمل لدى وزارة الذخيرة، شاهدٌ في قضية بيتي روپر.
- *الرائد لود*: رئيسُ پراير في وزارة الذخيرة.
- *السيدة* ثورپ *والسيدة رايلي*: جارتا پراير القديمتان، ساعدتا كلتاهما في تربيته.

طريقُ الأشباح

- كاثرين *وإيثل* ريڤرز: شقيقتا د. ريڤرز.
- *الموقّر تشارلز* دودجسون / *لويس كارول*: من المعارف المقربين لآل ريڤرز.

- *جيفري وانسِك*: أحدُ مرضى ريڤرز في مستشفى الإمبراطورية، يعاني من الهلاوس.
- *إيان موفيت*: جنديٌّ مشلول، أحدُ مرضى ريڤرز في مستشفى الإمبراطورية.
- *وايات وهاليت*: جنديان على الخط الأماميِّ مع پراير في فرنسا.
- هوكارت: عالِمُ أنثروبولوجيا، يرافق ريڤرز في بعثته إلى جزيرة إيديستون.
- *نْغِيا*: من زعماء قرية ناروڤو في جزيرة إيديستون.
- *إيميلي*: أرملةُ الزعيم نْغيا.
- نْجيرو: معالجٌ تقليديٌّ، ابنُ الزعيم ريمبو، تنمو صداقةٌ بينه وبين ريڤرز.



بات باركر



وُلدت بات باركر (باتريسيا ماري دبليو. باركر) في بلدة ثورنابي أون تيز، بيوركشير الشمالية في إنجلترا عام ١٩٤٣. وتلقّت تعليمها في كلية لندن للاقتصاد، ثم عملت مدرّسة للتاريخ والعلوم السياسية.

تتضمّن مؤلفاتها ثلاثية "التجدُّد" بأجزائها الثلاثة: "تجدُّد"، و"العين في الباب"، و"طريق الأشباح"، الحائزة على جائزة البوكر، إضافة إلى عدة روايات أخرى.